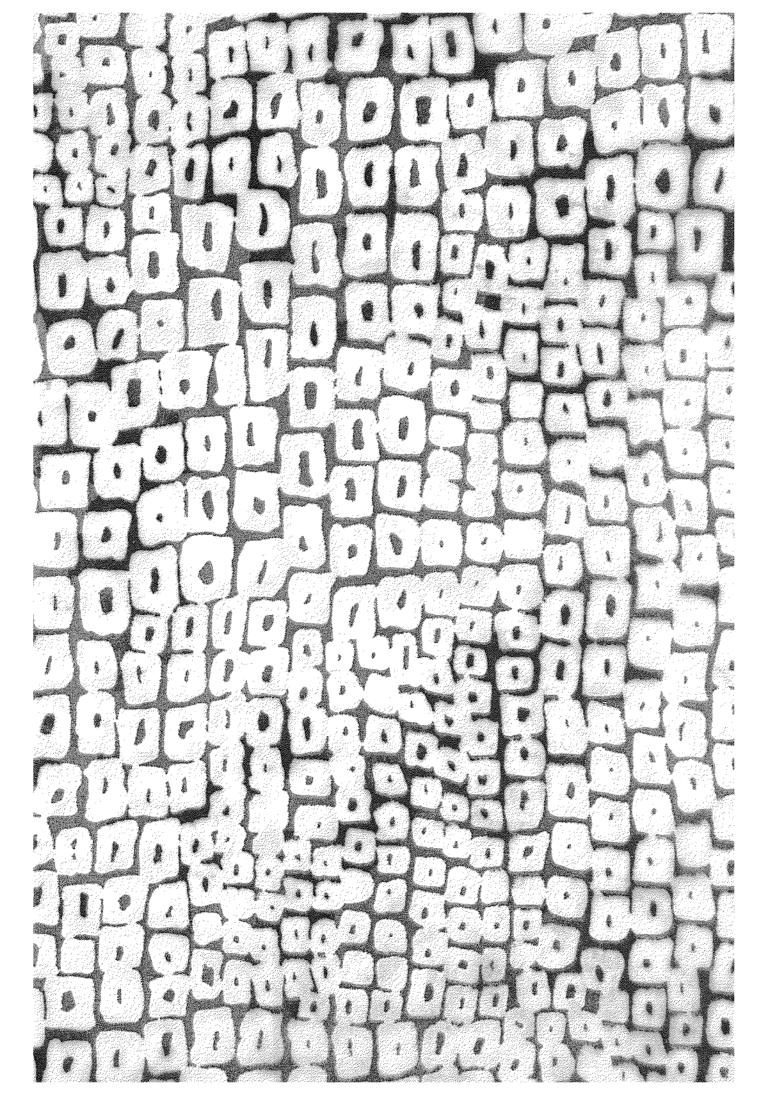
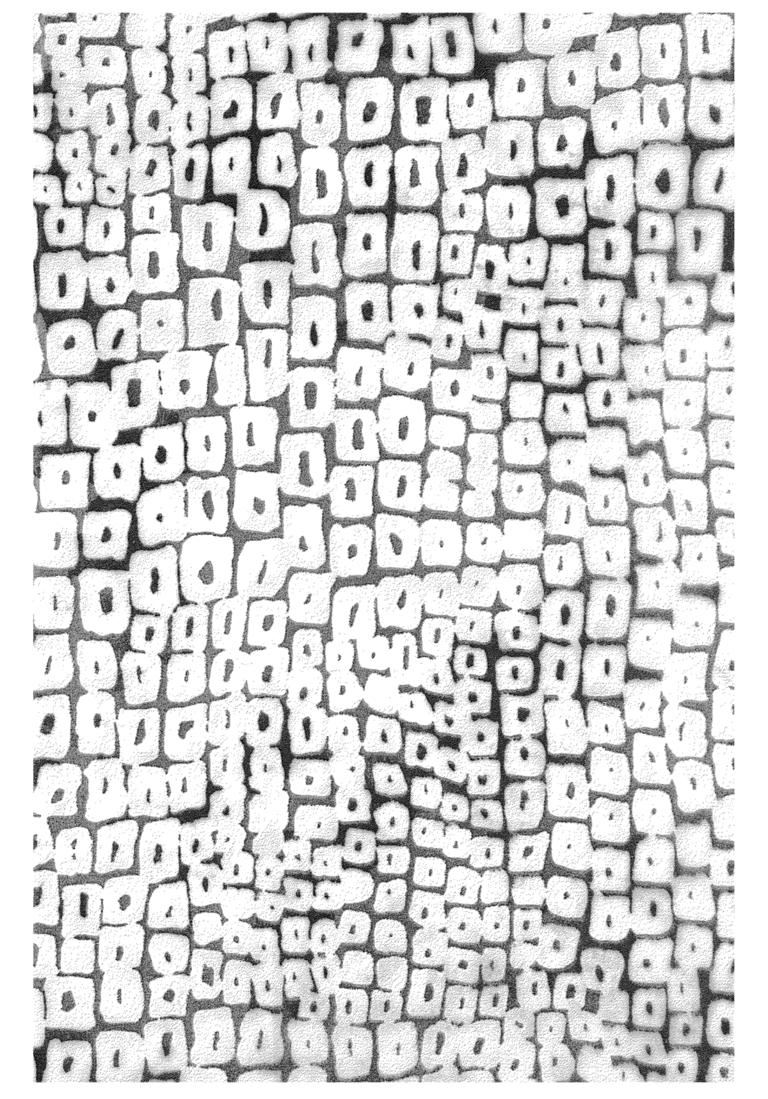
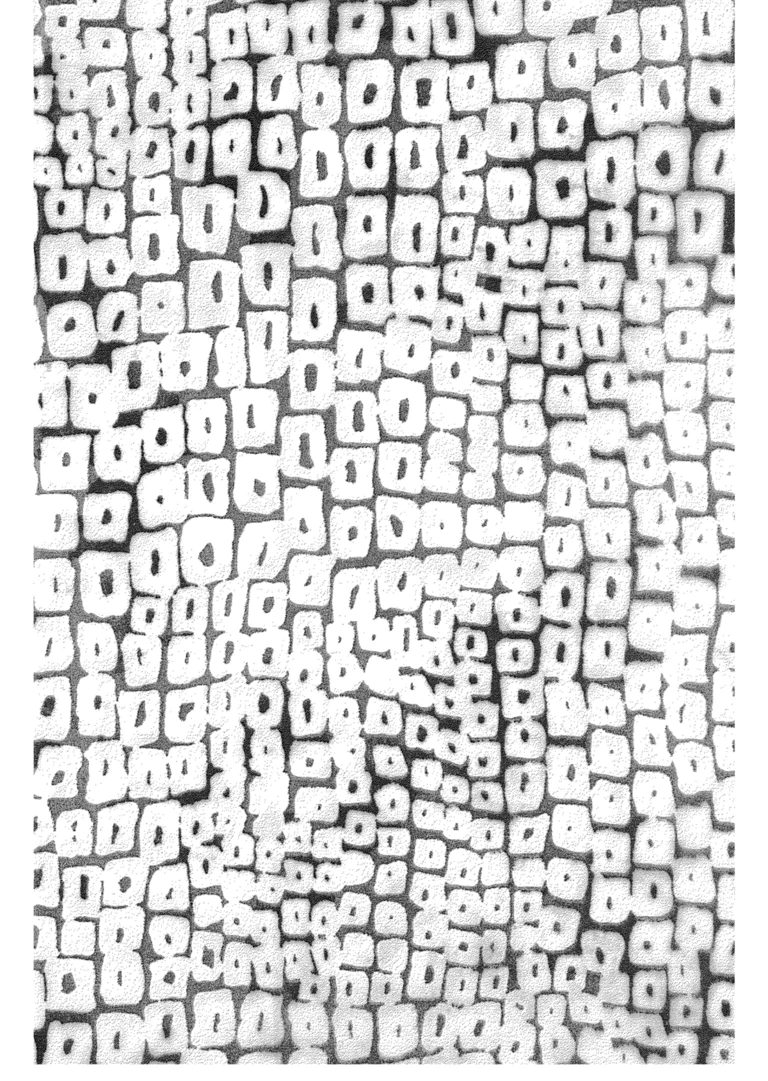






٩ ذو الحجـــة ١٣٩٨

١٠ نوفمبـــــر ١٩٧٨

١٠ تشرين الثانى ١٩٧٨

العـدد الثـالث والأربعون

السـنة الثانيـة عشرة

ديوچين
مصباح الفكر

٥

● محتويات العدد

الأسطورة:

بين الدفاع عن النفس

والتعبير الفني

ستظل الأسطورة ، واقعا حيا في الحياة الفكرية والفنية ، مهما بعد بها الزمن ، أو مرت عليها العصور •

وسيظل الانسان ، يردد أساطيره ، ويحبها ، ويستعيدها بين الحين والحين، حتى لو غزا الفضاء ، وانتقل الى الكواكب ، واكتشف عوالم جديدة ، لم تكن تخطر له على بال •

ذلك لأن الأسطورة ، بدأت مع الانسان ، في رحلته الأولى الى المعرفة ، وعاشت معه بعد ذلك ، تعبيرا فنيا عن آماله ، وطموحه ، وتطلعاته •

وبالأسطورة فسر الانسان ، هذا الكون الغامض والمعقد ، الذى وجد نفسه جزءا منه ، عليه أن يتعايش معه ، ويرتب نفسه على أن يواكبه ، صعودا الى القمة، او انحدارا الى السفح •

ان عمر الانسان المعروف ، على وجه الكرة الأرضية ، محدود بالنسبة الى عمر القشرة الأرضية ذاتها • ومعنى هذا أن الأرض قد تكونت ، قبل الانسان ، ثم وفد عليها هذا الانسان ، ضعيفا أول الأمر ، خائفا يرتجف من الظواهر الكونية حوله •

ان ظاهرة المطر ، كانت تؤرق جفنيه ، وظاهرة الرعد والبرق والعواصف ، كانت تصيبه بالذعر ، والبراكين والانفجارات التى تثور بين حين وحين ، كانت تزعجه وتخيفه •

عبد المنعم الصاوى

بل ان الحيوان – وفيه ما هو مفترس – كان يهدد حيـــاته على الأرض ، والزواحف والحشرات ، كانت تدور برأسه ذات يمين وذات يسار ٠

وتساءل بينه وبين نفسه ، عن هذه الظواهر كلها ، فلم يجد لها تفســيرا يقنعه ٠

لكن الانسان ، عندما ارتقت مداركه ، لجأ الى الأسطورة يفسر بها هـــذه الظواهر من حوله ، وهذه المخلوقات التى تشاركه الحياة على هذه الأرض ٠

ولا بأس أن تكون هناك أرواح ، تحرك الثابت فيتغير ، ولا بأس أن تكون هناك أسرار ، وراء التقلبات المفاجئة ، التى تكتنف حياته ٠

نعم ولا بأس أن تكون هناك شياطين مردة ، أو مهرة ، وراء كل انتفاضة ، او وراء كل خطر يحيط به ٠

وعندما تكون هذه الأرواح ثائرة عليه ، فلابد لها اذن ، من أدعية ورقى ، يتقرب بها اليها ، ويتملقها ، ويحملها على مسالمته ومهاونته ، وتركه يحيـــا بلا تهديد ٠

كذلك فان للشياطين علاجا آخر ، تصدع له ، وتخاف منه ، أو فى القليل تخشاه ٠

وبدأ الانسان يخترع الأساطير ، ليصور لنفسه أن كل هذه الظواهر الكونية حوله ، لها مبررات وتفسيرات لا تعجزه ، وان لم تسعفه فى كثير من الأحيان ٠

ولكى تكون الأسطورة مقنعة وجذابة ، فقد كان لابد لها من اطار ٠ وأطار الأسطورة فى الغالب قصة تروى ، تحوى الحكمة التى يريد الانسان أن يرويها لنفسه وللأجيال ٠وقصة الأسطورة أبطالها وهميون ، من صنع الخيال ٠ وأبطال الأسطورة ، عادة نوع خاص من البشر ، أو الحيوان ، أو الكائنات الضخمة ، وأحداث الأسطوره يجب أن تكون فى خدمة الأغراض التى بنيت من أجلها ، تحمل الدفء الى النفوس الوألهة ، والاطمئنان الى القلوب الواجفة ، والتفسيرات المقنعة للمتناقضات التى تمر بحياة البشر ٠

ومن هنا ، تخرج الأسطورة تعبيرا فنيا ، فيه مسحة لا بأس بها من الجمال، وتضفى على الجو النفسى الذى يعيش فيه رواتها ، نوعا من التأسى والأمل ٠ وتكون فى النهاية كيانا فنيا رقيقا وحالما ، بكل ما فيه من سذاجة وبساطة تعكس الحياة البدائية الاولى على هذه الأرض ٠

وبمضى الأيام ، تتعاقب أجيال ، جيلا بعد جيل ، يردد هذه الأساطير ، وقد يضيف اليها أو يحذف منها ، بالقدر الذى يتفق مع طبيعة كل جيل ، ومع الظروف التى يعيش فيها ٠ لكنها تظل برغم هذا كله تتسم بطابع السذاجة الأولى، وتحمل أسماء أبطال قدامى ، لم يكن لهم يوما وجود ، الا فى خيال من صنعوا الأسطورة ٠

وتصبح مجموعة الأساطير هذه تراثا انسانيا ، يتردد على الشفاه ، وترويه الأجيال فى لذة واستمتاع ٠

وعندما تصل الانسانية الى عصور الأمن والاطمئنان ، حيث لا خوف ولا فزع ، تظل هذه الأساطير تتردد على الألسن ، وفى المجامع ، وعلى السنة الرواة ، والناس يستقبلونها فى لذة ، ويستعيدون فقراتها فى استمتاع ٠

كذلك ، فان التقدم الذى يحققه الانسان ، يقضى على كل الأسباب التى قامت الأساطير من أجلها ، ومع ذلك تظل هذه الأساطير مسيطرة على الأذهان والعقول ٠ يدرسها الدارسون ليفهموا منها طبائع المجتمعات التى أقامتها ، ويرددها الفنانون بصور شتى ، ويرويها الرواة بأساليب مختلفة ٠

بل ان التقدم الانسانى ، يحاول أن يستفيد من هذه الأساطير ، أعظم الاستفادة ، بتقديمها فى صور شتى جذابة وطلية ، فمرة يقدمها على المسرح ، ومرة ثانية يقدمها فى شكل استعراض ، ومرة ثالثة يقدمها بوسائل التصوير

السينمائى والتلفزيونى ، وفى كثير من الأحيان ، يشدو بها غناء سحريا ، ينفذ الى القلوب ٠

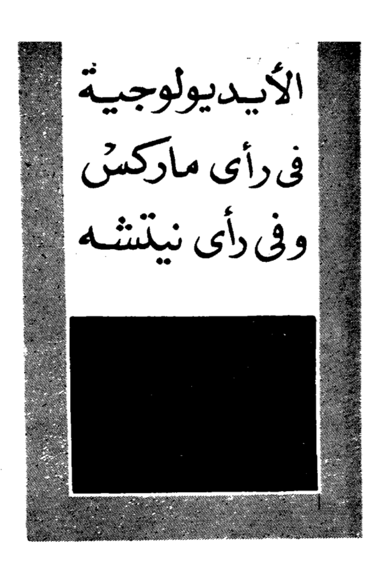
والأسطورة بطبعها ذات ايحاء غريب ، عندما تكتنفها التفسيرات الاجتماعية ، فتخدم أغراضا شتى ، حين تفسر لتخدم قضية من قضايا الشعوب الأبطال مثلا ، يمكن أن يصوروا فى مجتمع مقاتل ، على أنهم أبطال تحرير من الاستعباد ٠ والأحداث التى تترى ، يمكن أن تفسر أنواع الصراع فى مجتمعات تسعى نحو التخلص من قيود ثقيلة ، أو عهود متخلفة ٠ والنتائج الرائعة التى تظهر فى حكم قديمة ، يمكن أن تمثل الأمل والرجاء ، لقوم مغلوبين ٠

وحينما تتخلص المجتمعات من أثقالها ، يظل للأسطورة سحرها ، ويظل لأبطالها تأثيرهم ، وتظل لأحداثها قيمتها ٠

وهكذا نرى الأسطورة ، قد بدأت ـ حين بدأت ـ وسيلة يدافع بها الانسان عن نفسه ضد الخوف ٠ ثم نراها بعد أن استقرت قد صارت صورة تعبير رائعة ، تكسب قدرها من قدمها ،وتكسب تأثيرها من هذه البدائية الكامنة فى نفس الانسان كل انسان ٠ فكل انسان يولد طفلا ، وفى طفولة كل انسان ، يكمن قدر من السذاجة ، يرتبط بالأسطورة بسبب أو بآخر ٠ ومهما نما الانسان وتطور ، فان طفولته الأولى ، تظل فى كل الأحوال ، ذات تأثير عليه ، يربطه بماضيه ، ويشده الى تاريخه ، ويذكر دائما بأجمل فترة مرت بحياته ، حيث لا مسئولية ولا مساءلة ولا حذر من شىء جاد حوله ٠

لهذا فان دراسة الأساطير تعتبر من أهم الدراسات التى يقوم بها الدارسون، واذا كانت الأساطير تلتقى مع الفنون الشعبية التلقائية ، فان ذلك مما يعطى الأسطورة قدرا أكبر فى الحياة الانسانية ٠

عبد المنعم الصاوى



●● المقال فى كلمات

للايديولوجية معنيان : لغوى واصطلاحى : الايديولوجيــة لغــة مجموعة الأفكار ، أو النظريات التى يستند اليها برنامج سياسى أو اجتماعى أو اقتصادى • وقد اختلفت الآراء فى ترجمة هذه الكلمة التى يصفهــا المؤلف نفسه بأنها كلمة يكتنفها الغموض الشـديد ، وأقرب الكلمات فى رأينا الى أداء مدلولها كلمة « مذهب » ، أو « عقيدة فكرية » •

وأما اصطلاحا فانها تستعمل بمعنيين على الأقــل كما ذكر الكــاتب فى مقاله • اولهما ان المراد بهذه الكلمة كل المذاهب الفكرية التى ظهرت فى جميع عصور التاريخ • لمذهب الفيلسوف الانجليزى جون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) ايديولوجية ، ومذهب العالم الاقتصادى الانجليزى آدم سميث (١٧٢٣ ـ ٩٠) ايديولوجية ، ومذهب الفيلسوف والاشتراكى الألمانى كارل

الكاتب : پـول ڤـيـنى

ولد عام ١٩٣٠ ، وهو أستاذ التاريخ الرومانى فى الكوليج دى فرانس منذ ١٩٧٥ ، له مؤلفات عديدة ،

المترجم : أمين محمود الشريف

عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ،

ماركس (١٨١٨ - ٨٣) ايديولوجية ، بمعنى أن كل مذهب من هـذه المذاهب لا يمثل حقيقة نهائيـة ، بل هو مجرد جولة من جولات الفكر العشوائية الكثيرة على مدى التاريخ ،

وأما المعنى الثانى فهو أضيق دائرة من المعنى الأول ، وبيانه أن يتخذ المفكرون البورجوازيون أوالعمال الشـيوعيون من مذهب لوك أو مذهب ماركس ايديولوجية (عقيدة فكرية) لهم ، وفى هذه الحالة يمكن القـول بأن الايديولوجية هى ذريعـة جماعية للتبريروالتفسير وضرب الكـاتب مثلا لذلك وهو الثعلب الذى ورد فى خرافة ايسوب ، وقال ان هـذا الثعلب هو أول أيديولوجى فى العالم لانه برز أو فسـر عجـزه عن الوصول الى قطوف العنب ، بأن العنب لا يزال أخضر اللون أى لم ينضـج بعد ، وهذا التبرير من جانب الثعلب أقرب الى أن يكون حيلة ، أو خدعـة

يخدع بها الناس ويصرفهم عن الحقيقة • وهذا المعنى الثاني هو الذى رجحه الكاتب في مقاله حتى لقد بدأ المقال بهذه العبارة « ليس للأيديولوجية ، ولم يكن لها وجود في أى وقت مضى • واستشهد الكاتب في هـــذا المقال بفلسفة نيتشه التى تدعو الى اليأس من معرفة الحقيقة • وقد القى الكاتب ضوءا كبيرا في ختام مقاله على هذه النقطة عندما أورد آراء نيتشة في نقد المعرفة • وليستطيع القارىء أن يتبين تفاصيل ذلك من قراء المقال •

كتب ديليز ، وجواثر ، يقولان « **ليس للايديولوجيـــة وجود ، ولم يكن لهـــا وجود في أى وقت مضى** » • ولا ريب أن هذه الكلمة الحكيمة صـــحيحة • ذلك أن الايديولوجية لا تعدو أن تكون ذريعة لتبرير سلوك الأفراد والجماعات ، وتفســير بأسباب معقولة أو مقبولة ، لا تقنـــع أحدا الا من اقتنع بالفعل ، ولكنهـــا تسـ البعض ، وتضجر الآخرين • ولذلك كانت الايديولوجية جولة صغيرة من جـولات الفكر العشوائية خلال عصور التـــاريخ ، وجذوة من الآراء الثقافيـــة الاعتسافية • ولما كان نيتشة ـ أو جانب معين من فلسفته ـ يدعونا الى اليأس من معرفة الحقيقة ، لم يعد في وسعنا أن نعزو هذه الجولات العشـــوائية ، والآراء الاعتسافية الى الذين يزعمون أنهم يعرفون الحقيقة بالايديولوجية •

ومؤدى هذا أن الايديولوجية تتضمن عددا ضخما من المفـاهيم وهى ضرب من المذهب المثالى بالمعنى الذى ذكره نيتشة أى أنها زواج بين فكرة الخير (المصلحـــة) وفكرة الحق (الحقيقة) • ولذلك فهى ليست خدعة يخدع بها المرء نفسه وغيره ،وانما هى قيمة ثقافية رفيعة • والذى يبعث على الدهشة ليس هو الايديولوجية ، وانمـا هو القول بأن الايديولوجية تمثل الحقيقة ، وهو أمر غير صحيح ، بدليل أن أصحاب الأملاك لا يفرقون بين آرائهم (أيديولوجيتهم) ومصالحهم ، تلك المصالح التىيفهمونها على أنها ضرب من الخير • فالايديولوجية على هذا تتسم بطابع التفاؤل ، وتعبر عن فكرة الخير من عهد أفلاطون الى عهد ماركس •

بيد أن النظرية الماركسية عن الايديولوجية غير عملية من جهتين : فهى قائمـــة على مبدأ الاثنينية بمعنى أن ماركس يفرض وجود أمرين اثنين الوجود أولا ثم الفكـر ثانيا • وهذا الفكر قد يكون صورة صحيحة للوجود أو مشوهة صورة صادقـــة أو زائفة • وهذه النظرية مبنية على مذهب ماركس المادى وهو مذهب ساذج لا يلبث أن ينهار أمام سهام النقد التى يمكن تصويبها بسهـــولة الى كل المذاهب الثنوية • والواقع أن الايديولوجية ليست كما يقول ماركس انعكاسا للوجود كالظل بالنسبة للشاخص ولا هى صورة زائفة له ، ولا هى عرض له ، بل هى جوهر قائم بذاتـــه وكيان ذو وجود مستقل • والدليل على ذلك ما يشهد به الواقع وهو أنه يحـــدث في أغلب الأحوال أن تقع احدى الجماعات البشرية فريسة لايديولوجيتها ، فتضحى

بمصالحها على مذبح هذه الايديولوجية • واذا كانت الايديولوجية تنقلب على أصحابها كان ذلك دليلا على أنها ليست صورة ممثلة لهم ولا انعكاسا لهم كالظل للشاخص • والواقع ان الايديولوجية ليست نظرية وانما هي استخدام الجماعات أو الأفراد لنظرية من النظريات كأداة للتبرير والتفسير كما ذكرنا • والماركسيون يعرفون هذا جيدا •

بيد أن هذا النقد السهل ليس سوى أبسط جزء من المشكلة • والصعوبة الحقيقية هي : لكي نتأكد أننا نعرف ما هي الايديولوجية يتعين علينا أن نعرف الحقيقة، يتعين علينا أن نكون مزودين بالنور الطبيعي (نور العقل) والآن دعنا نتأمل خلال آلاف السنين ذلك العدد الكبير من المذاهب الميتافيزيقية والديانات المختلفة ، وذلك العدد الأكبر من العادات والأخلاق ثم نسأل : هل كل ذلك يدخل في حساب الايديولوجية ؟ •

اننا اذا فعلنا ذلك كان معناه أننا نخلع على الايديولوجية ثوب التاريخ العالمي ، وحينئذ لا تصبح الايديولوجية شيئا لا وجود له ، بل تصبح هي كل شيء •

ولا يتبادرن الى ذهنك أني أريد أن أبرىء ساحة الطغاة ، والبورجوازيين ، وأن ألقي الوزر كله على التاريخ ، ولكن كل ما أريده هو معارضة الهوس الذي يجعل البعض يضفي على الايديولوجية مختلف أنواع الثياب • وهذه حقيقة ثابتة من عهد أفلاطون الى عهد ماركس • فالماركسية تؤمن بالخير والحق ، وتتسم بنزعة متفائلة ، وتقول ان الانسان لا يخطىء ، وانما يخدع نفسه ، وتنطلي عليه الخدعة في أغلب الأحيان واذا لم ينخدع فلأن النور الطبيعي أضاء له الطريق • وللانسان عينان يرى بهما الحقيقة ، و اذا لم يرهما فلأن وظيفة العقل تعطلت لحادث عرض له • حينئذ يضل الانسان طريقه برهة من الزمن ، وهذا يسمى « طلالا » أو يغمض عينيه في لحظة من لحظات الهرب ، وهذا يسمى « وهما » ، أو يضع على عينيه غمامة مصدرها الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها أو الطبقة المسيطرة على المجتمع ، وهذه الغمامة هي « الايديولوجية » • ومتى انجابت هذه الغمامة عاد نور العقل اليه ، فأشرق أمام عينيه •

ولكن اذا أصبح هذا التفاؤل ساذجا الى درجة تتجاوز الحد المألوف ، واذا أصبحت جولات الفكر العشوائية أعضل من الضلال ، ومن الوهم ومن الايديولوجية بحيث يستعصي علاجها ، ففي هذه الحالة يعمد الناس الى أن يتخذوا ايديولوجية لهم من الفيلسوف « لوك » ونظريته القائلة بأن وظيفة الدولة هي الدفاع عن الملكية الفردية ، ومن الفيلسوف الاقتصادي آدم سميث ونظريته عن الحرية الاقتصادية • وقد استخدم السياسيون والعلماء ورجال القانون الدولي أفكارهم لخداع البروليتاريا (طبقة الكادحين) أو — على الأقل — لتأييد البورجوازيين فيما يعتقدونه من سمو البورجوازية • وقد اتخذ الناس من لوك أو سميث ذريعة للتبرير والتفسير وضربا

من الايديولوجية ، ولكن افكارهما نفسها ليست ايديولوجية بدرجة أكبر أو أقل من ذلك العدد الكبير من الأفكار الضمنية أو الصريحة التي صاغها الانسان منذ بدء الخليقة ، لأن الايديولوجية ليست هي الفكر نفسه ، بل هي الطريقة التى يستخدم بها هذا الفكر ·

واذا عنينا بالايديولوجية النظر بعين الرضا الى الأوضاع الراهنة والنظم القائمة فى العالم لم نكن بحاجة الى وضع ايديولوجية جديدة أو استخدام مذاهب معينة ، بل ان الايديولوجية تصبح فى هذه الحالة حقيقة أكبر من ذلك بكثير ، الا وهى الاتفاق على ما اتفقت عليه كل الأفكار أو معظم الفلسفات وهو أن الانسان لا يستطيع بطبعه أن يعيش بمنأى عن الأمر الواقع والوضع الراهن ، ولا أن يصب جام غضبه ولعناته على الأوضاع السائدة فى كل القرون ولا أن يحرق الجسور ، ولا أن يعارض التيار الثقافى السائد · واذا حاول الانسان خلاف ذلك ، أى اذا لم يرد أن ينتهج سياسة الاعتراف بالأوضاع الاجتماعية والسياسية التى ثبتت دعائمها خلال قرن أو قرنين من الزمان ، فلن يغنيه أن يتمنى ذلك ، ولا أن يسمى نفسه ثوريا أو حتى أن يكون ثوريا · ذلك ان احراق الجسور أمر سهل ولكن من الصعب أن يقف فى وجه التيار الثقافى السائد كما أنه من الصعب أن يعيش اينشتاين فى عهد نيوتن وانه لمن الهين اليسير أن يعكس الانسان العلامات الجبرية ، فيوقف الفيلسوف « هيجل » على قدميه ، ويضع علامة (—) محل علامة (+) أمام الدولة البورجوازية · وخير من هذا التفكير السلبى الذى يتسم بالجبن والخور أن يعترف بالمذاهب السليمة والنظم الراسخة التى نراها فى كثير من الفلسفات ، ومنها أعظم الفلسفات شأنا · ذلك أن الانسانية تشعر بالحاجة العميقة الى الاستقرار والأمن الاجتماعي والأخلاقى · واذا تقرر ذلك ، لم تكن المشكلة هى اعلان الثورة وصب اللعنات على النظم القائمة ، وانما هى التفكير فيما يجب أن تكون عليه الفلسفة السياسية فى المستقبل · واذا سخر أحفادنا من نظرياتنا المؤيدة لقيام الدولة أو المعارضة لها ، فقد سخرنا نحن من آبائنا الذين ناصروا المسيحية فى القرن الثالث وهدموا الأساطير الوثنية ليحلوا أساطيرهم مكانها ، بل سخرنا أكثر عندما رأيناهم لا يذهبون الى حد القول بأن هذه الآلهة يجب ألا تبقى (لم يذهب بهمالتفكير الى هذا الحد !) بل اكتفوا بتغيير العلامات الجبرية أمام هذه الآلهة فقالوا انها ليست آلهة حقيقية ، بل هى شياطين فى ثياب آلهة ·

ولا يكفى أن يتخلص الانسان من المقررات والمشكلات الاجتماعية لكى يتخلص من عشوائية التفكير · واذا تصور الانسان أنه متى نزع الغمامات عن عينيه أبصرتا نور الحقيقة على الفور ، فانه لن يفعل سوى أن يضيف وسيلة أخرى للتفسير والتبرير · والواقع أن الاستعمال الحالى لكلمة الايديولوجية يرتكز على الخلط بين أمرين : تفسير الأوضاع الاجتماعية وعشوائية التفكير أو اذا شئت فقل ان هذا

الخلط ، شيء عن عجز الفلسفة الكلاسيكية عن امتصاص ضربات الفكر العشوائي خلال عصور التاريخ (بالمعنى الذي يتفادى به الملاكم ضربات خصمه) .

يضاف الى ذلك وهم يبعث الطمأنينة في النفس ، وهو ان الايديولوجية ليست سوى خدعة يخدع بها السادة العبيد أو قل انها كذبة يراد بها المصلحة . ولكن اذا أردت أن تكذب فلابد أنك نعرف الحقيقة . ومن ذلك يتضح أن الحقيقة تأتي في المحل الأول . وكذلك النور الطبيعي يأتي في المحل الأول ثم تأتي الغمامات بعد ذلك فتحجبه .

الا ترى يا صاح أن عبير التفاؤل الذي يفوح من ثنايا هذا الكلام أروع من أن يصدق ؟

ليست الايديولوجية خدعة تتذرع بها احدى الطبقات الاجتماعية لخداع الطبقات الأخرى ، ولكنها أعظم الوسائل الطبيعية التي يتذرع بها الانسان لجني أكبر فائدة من وراء المعرفة . وايضاح ذلك أن الانسان يريد أن يعيش رخي البال ، ساعيا وراء مصالحه ، لا أن يكون شغوفا بالمعرفة ذاتها ساعيا وراء الحقيقة . لا أريد أن أقول ان الانسان محق في ذلك . وانما أريد أن أقول انه لابد مما ليس منه بد ، وأن حب العيش مقدم على كل شيء وقد أصر نيتشه بصورة قاطعة على أن الانسان يجب أن يعيش ، وان لم يبد ذلك ضروريا من الناحية الفلسفية وقصارى القول أن الحياة والحقيقة لا تتفقان ، فكم من حقائق قاتلة أودت بحياة الناس والزعماء . فما العمل اذن ؟ لا أحد يستطيع أن يعمل عقله ويقدح زناد فكره ليثبت لنفسه أنه يجب أن يضحي بحياته العقلية من أجل بقاء المصالح الكبيرة في المجتمع ، ولو أنه فعل ذلك ، لباء بخسران عقله ، دون أن يضاعف من فرص حياته .

ولذلك يستغرق الانسان أمدا طويلا للتمييز بين الحق والخير ، لكي يرجيء بقدر الامكان هذا الاختيار الأليم بين الحقيقة والمصلحة أو هذا القلق الخفي . ويجب الا يتبادر الى الذهن أن الانسان يخلط بين فكرة الحق وفكرة الخير ، بل - على العكس - انه يبدأ بعدم التفرقة بينهما . استمع الى الناس حين يتناقشون في السياسة . هل تراهم يقولون ان مبادىء الحزب المعارض تجلب الكوارث على البلاد (أي مخالفة للخير والمصلحة) أو انها تتسم بالزيف والبطلان (أي مخالفة للحق والحقيقة) ؟ كلا ! انهم يتفادون الجزم بأنها حق أو خير ، ويقولون ان هذا الحزب يعمد الى التشهير والتجريح وانه لا يحق له أن يسلك هذا النهج . وبهذا النقد السريع الذي يوجهونه الى الحزب يتحاشون ذكر سبب صريح واضح لاستنكار مبادىء الحزب المعارض .

وتفادى التفرقة بين الخير والحق هو الايديولوجية بعينها . وقد اتخذ الانسان هذا الموقف منذ البداية . فمن المسلم به أن أسلوب التجريح والتشهير فى المناقشات السياسية أسلوب أكثر انتشارا وأعرق فى القدم من أكثر الفلسفات التزاما بالعرف والتقاليد . وكلنا نعلم أن الشعوب البدائية كونت مجتمعات تقوم على مبدأ رعاية المصلحة المشتركة . وكان النظام الطبيعى هو الضمان للنظام الاجتماعى . ولم يكونوا يتساءلون هل فى هذا النظام فائدة تبرر وجوده بل كانوا يتساءلون عن نوع هذه الفائدة ، لأنهم كانوا يوقنون أن لكل شىء فائدة ، ففائدة السكين أنها أداة للقطع، وفائدة الحكومة أنها أداة للحكم . وكذلك أيضا شأن الحضارات التى بلغت سن الرشد ، لا تفرق بين الحق والخير . ويذكر « موسيل » فى هذا الصدد كلاما شائعا حيث يقول « ان الشعور المتسلط على الرجل الذى وصل الى مركز رفيع ليس هو الشعور بالأنانية المحضة ، وانما الشعور بالحب العميق - أو قل - الشعور بالحب المنزه عن الأغراض الشخصية لكل ما يخدم مصالحه . وبعبارة أخرى انه يشعر بالاهتمام الصادق لكل شىء تتوقف عليه مصالحه حبا فى هذا الشىء ذاته ، لا لأن مصلحته تتوقف عليه .

ويستطرد موسيل فيقول : تأمل حالة الكلب . انه يكن أعمق الاحترام لسيده ويجلس تحت المائدة ليلتقط أطايب الطعام الذى يتساقط من المائدة ، ولكنه لا يفعل ذلك لشعوره بالخسة والدناءة بل لشعوره بأنه تابع لسيده كما كان العبد أيقن تابعا للسيد الاقطاعى . وكما أن الكلب يسعى وراء مصلحته مع معرفته بحقيقة وضعه كذلك الانسان يشعر بالحب العميق لكل الكائنات أو الأشياء التى تخدم مصلحته وتعود عليه بالخير والنفع .

والواقع أن عدم التفرقة بين الحق والخير أمر طبيعى جدا الى حد لا يمكن تجنبه. ففى الكتب المؤلفة فى الايديولوجية ترد مثل هذه العبارات : « كل عضو حقيقى من أعضاء البروليتاريا (الطبقة الكادحة) هو رجل ثورى » و « كل امرأة حقيقية جديرة بهذا الاسم لا ترتكب جريمة الاجهاض » . ومن الواضح ان هذه الاقوال ناشئة عن حدوث لبس فى استعمال الألفاظ ومدلولاتها ويبدو أن الكاتب يرى أنه يكفى لبيان وجهة نظره أن يستعمل الالفاظ للدلالة على غير ما وضعت له (هل المرأة التى تتوافر فيها خصائص الأنوثة والبشرية ترتكب جريمة الاجهاض ؟ » . والواقع أن فى مثل هذه العبارات ضربا من عدم التمييز بين اللفظ ومدلوله ،فالكاتب يعلن بدافع السخط أن المرأة أو عضو البروليتاريا اذا « ساء » سلوكهما لم تعد هى امرأة « حقيقية » جديرة بهذا الاسم ، ولم يعد هو عضوا « حقيقيا » . فمثل هذين الشخصين اللذين ارتكبا هذا العمل الشائن المخالف لمعايير « الخير » فى نظره غير جديرين باسمهما . ولقد أسهبنا بعض الشىء فى تحليل هذه العبارات لأنها شائعة الحدوث ، وتوضح لنا جليا عدم التفرقة بين الحقيقة والخير .

ولقد كدنا نلتزم الصمت عن الاعتراف - اللهم الا بصوت خافت - بأن النظم القائمة لا خير فيها اذا لم تخلصنا من أساليب الفكر التى اعتدناها . ولا يقولن

أحد أن الشطر الأعظم من الفلسفة يقوم على نقد النظم القائمة ، وأن هذه كانت دائما هي وظيفة الفلسفة · ولكننا لسنا الآن بصدد نقد النظم القائمة · وانما الذى يعنينا في هذا المقام هو الأمل في الجمع بين الحق والخير في عالم المستقبل ، وان كنا تسلم بأن الأمل ضئيل في أن يمتثل هذا العالم الذى ضربت فيه الفوضى أطنابها لأحكام العقل · وعلى الرغم من أن فكرة بعض المسائل التى لا حل لها مألوفة في عالم الرياضيات ، فان هذه الفكرة لم تلق ما هى جديرة به من الدراسة ، وان بدت لأول وهلة قوية الاحتمال ·

ولنضرب مثلا لهذه المسائل التى لا حل لها ، وهو مثل يؤلم كل انسان وبيانه أن النشاط السياسى لا يقبل حلا من الحلول يتفق مع أحكام العقل أو الفهم · والدليل على ذلك أن النظم القومية والنظم التقليدية تناقض مبادئها عند التطبيق · والنظم المعتدلة ليست أحسن حالا من النظم الثورية ، أما النظم التى تصبو الى النرفانا (السعادة القصوى) فلا تقدم حلا على الاطلاق · ومن ذلك يتضح ان كل الأبواب موصدة أمام الحلول المثلى في عالم السياسة واذا كان الأمر كذلك ، فليس مرجعه الى اختلاف الناس في الحكم على القيم ، وعلى مفهوم الخير ، ولا الى عدم اشتراكهم في مصالح واحدة ، ولا الى افتقار أحكامهم القيمية الى الاثبات ، كالألوان والأذواق، وانما مرجعه الى أنه اذا اتفق الناس جميعا على القيم والمصالح ، فان وضعها موضع التنفيذ يفضى الى التناقض بسبب اختلاف الضمائر ، واستحالة التوفيق بين الرغبات، وبسبب الوقت المطلوب لحل المشكلات (كيف يمكن في مدة معينة معالجة علل الفوضى القائمة وعلل الثورة · كم من الزمن يلزم لهذا الغرض ؟) · هذا هو المثل الذى أردت ذكره ·وليس من نافلة القول أن نسأل : هل السياسة وحدها هى المسئولة عن ايجاد حل للمشكلات أو ايجاد حل وسط لها ؟ لقد بذلت الجهود في مجال يتصل بذلك ــ وهو مجال الاقتصاد ــ لمعرفة : هل من الممكن تحقيق التوازن العام الذى قال به « والراس » ؟ وهل يمكن اثبات « نظرية الوجود » التى اقترحها لحل لهذه المشكلة ؟ · وهناك سؤال آخر وهو : هل من الممكن الوصول الى حل وسط عادل فيما يتعلق باشباع الحاجات الاقتصادية ؟ هل تقبل السياسة « نظرية الوجود » ؟ اننا نحرص دائما على تجنب توجيه هذا السؤال ، لا لأن الحياة يجب أن تستمر ، ولا لأن المصالح الكبرى لا تقبل الانتظار ، بل لأننا نكره أن نصبح عاجزين عن استخدام العقل ، وأن نعود فنصبح محرومين من أن يكون لنا الحق في ان نقول بأن رأينا ، سواء أكان رأى اليمين أو اليسار أو الوسط ، هو الرأى الصحيح الوحيد ، وأن نصبح عاجزين عن وضع ايديولوجية لنا · واذا ضاع الأمل في ذلك كله فاننا نصبح في وضع محزن ، يرثى له ، ونردد مع ماركس فيبر « أما وقد سرت الفوضى في أرجاء السماء ، وأصبحت الآلهة يقاتل بعضها بعضا ، فمن حق كل انسان أن يتبع شيطانه » · وهنا تكون لنا ايديولوجية لأن العقل يستطيع أن يثبت أن الحياة مستمرة وان الناس يتبعون شياطينهم ، ولكنه لا يستطيع أن يأمرنا باتباع

الشياطين لعجزه عن اثبات وجودها ، وهكذا يتضح أن ثمة حاجة عميقة الى الايديولوجية ويقول القديس أوغسطين فى هذا الصدد • « رأيت أناسى كثيرة يريدون أن يخدعوا غيرهم ، ولكن أحدا منهم لا يرضى أن يخدع نفسه • ان الناس يحبون الحقيقة كثيرا لدرجة أنهم مهما أحبوا من شيء فانهم يريدون أن يكون هذا الشيء هو الحقيقة » • واذا أردنا الاعتذار عن مسلك الانسان ، فاننا نردد – على سبيل التهكم – ما قاله أفلاطون : « لا أحد يخطىء عن قصد ! » • ويجب التسليم بأن الحقيقة دون ايديولوجية تبدو رهيبة الصورة • واذا عجزت السياسة عن حل المشكلات العامة ، وأصبحت مجرد جثة هامدة ، فان هذه الجثة الهامدة تصبح فريسة لشتى الوظائف الكاذبة ، وشتى التبريرات والتفسيرات الزائفة • وجدير بالذكر ان السياسة قد أصبحت الآن هذه الجثة الهامدة !

ولا شك أن الاعتقاد بأن الخير أمر حقيقى واقع ، أو – على الأقل – ممكن الوقوع وان الحقيقة واحدة وليست متعددة ، ساعد على اسدال سجاف كثيف يحجب عنا رؤية هذه المتناقضات ، فعميت بصائرنا عن مشاهدة الحقيقة ، بصورة لا يصدقها العقل • ولأضرب لك مثلا من انفلسفة الرواقية يوضح لك هذه القضية • يقول كريسيبوس ان الانسان يحب الحياة ، وقد ركبت فيه غريزة المحافظة على الذات التي تجعله يحب ذاته • وهو حين يحب ذاته ، يحب معها كل ما يتعلق بها • وأين تنتهى دائرة « كل ما يتعلق بها ؟ » يجيب الفيلسوف الرواقى عن هذا السؤال فيقول ان محبة الانسان لذاته تمتد الى محبة الأسرة والوطن ثم تتسع محبة الوطن لتشمل محبة الجنس البشرى كله ، ومحبة الله تعالى ، دون أن يدور بخلد هذا الفيلسوف قط أن هذه الألوان من المحبة تتعارض وتتناقض فيما بينها كما هو مشاهد من أبسط التجارب اليومية • وهذا التناقض يرجع الى ان العالم متعدد لا متوحد ؟ ولماذا لا يكون العالم متعددا بدلا من أن يكون متوحدا ؟ لماذا يجب أن تكون شبكة الأشياء موحدة بدلا من أن تكون مفككة ، ومكونة من دوائر قصيرة ؟ مبلغ العلم عندى أن كرنيادس كان هو الفيلسوف الوحيد الذى سأل نفسه هذا السؤال البسيط •

ونحن نعتقد دائما أن الأمر الحقيقى هو خير أو سوف يكون خيرا وبالعكس لا نؤمن فى الواقع بخير ليس حقيقيا أو – على الأقل – يصير كذلك باستمرار • ومن العجيب أن شللا غريبا يعترى المفكرين عندما يرون أنفسهم على وشك أن يستنكروا – من الناحية المنطقية – نظاما يبدو ببساطة وكأنه ضربة لازب ، غير قابل للزوال • مثال ذلك أن أرسطو يقول لنا – بأسلوب يشوبه التكلف – انه يوجد بين الأرقاء رجال يتصفون بنبل الطباع • ويخلص من ذلك الى أن وجود مثل هؤلاء الأرقاء المثاليين ربما لا يتفق مع ما هو معروف عن حقيقة الرقيق • وبعد أن أبرأ هذا المفكر ذمته وأنقذ شرفه على هذا النحو • وقف عند هذا الحد ، دون أن يتتبع

القول بالفعل ، ويدعو الى مكافحة الرق · أتراه وقف هذا الموقف بسبب المصالح الطبقية ؟ لا أعتقد أن هذاهو السبب الوحيد · ولكن السبب يرجع أيضا الى شعوره بالخجل الكاذب ، وعجزه عن تصور ان الرق لابد أن يزول يوما ما ، فلم يجرؤ على استنكاره خشية أن يبدو مراهقا خياليا في نظر قومه · وهذا هو السبب في أن أعظم المفكرين الخياليين يطرحون مشكلات لا يستطيع حلها الا هم أنفسهم ولكنهم لا يجرءون أن يهاجموا نظاما من النظم طالما أن هذا النظام قائم ، وثابت الدعائم لاعتقادهم أن الأمر الواقع هو الخير بعينه · وهذا هو السبب فى أنك ترى عدد الشيوعيين أكثر من عدد اليساريين ، لأن الاتحاد السوفيتي له « نسخ كثيرة » تعتنق الشيوعية · ولكننا نود أن نرى العقل ينشب أظفاره فى النظم القائمة ويسلط عليها نور النقد ، ولا يستخذى أمام النظم التى تعد ضربة لازب ، وضرورة لا مفر منها ، كما نود ألا يظل حكم العقل على هذه النظم معطلا آلاف السنين دون تنفيذ · هب أن الأدلة توافرت على فساد نظام العدالة والمحاكم بحيث أصبح هذا النظام زائفا كالأساطير الوثنية ؟ ان قارئى سوف يهز كتفيه عند ذلك ويقول : وماذا بعد ؟ كأنى قلت أمرا اذا يستحيل تنفيذه ·

والسبب فى أننا نرفض نقد الأنظمة القائمة هو أننا دائما نقرن فكرة الخير بفكرة الحق ، فنؤمن بأن هذه النظم خيرة ما دامت واقعة ·

ولذلك ترى الناس يتحدثون عن الخير عندما يتحدثون عن الحق (الأمر الواقع) لدرجة أنه لو أنذرهم نبىء بالويل والثبور ، لاعتقدوا أنه يعرب عن أطلب أمانيه لهم ، ويبشرهم بما يعتقد هو أنه خير لهم ، بحجة أنه يتنبأ بالحقيقة · ويقول فى ذلك اجاممنون مخاطبا كلكاس : « أيها النبىء المنذر بالويل والثبور ، مالى أراك يغمرك السرور والحبور حين تنذرنا بالويل والثبور ؟ » ويحاول الناس أيضا أن يفهموا المتفائل بأن المتشائم لا يجد متعة ولذة فيما يدلى به من أقوال غير بناءة ، بل هو لا يقوم بدور كاسندرا (عرافة اغريقية) لأن العقل اذا اعتقد نفسه مسئولا عن مستقبل البشرية فان الجرأة سوف تدفعه فى هذا التيار ، ولكنه لن يلبث أن يدرك فى النهاية أنه كذب على نفسه ·

والواقع أننا نرهق العقل من أمره عسرا حين نكلفه نقد الأنظمة القائمة فنحن نطالبه بأن يكون نقده بناء ، ونطالبه بألا يؤدى تفكيره الى هدم شىء « ما لم يحل شىء آخر مكانه » · ومن هنا يخشى الفلاسفة من حيث لا يشعرون ان يهدموا أساس أى شىء يعد حيويا من الناحية الاجتماعية ، وهذا بالطبع أمر لا يتفق مع روح العدل ، اذا كان النقد هداما · ومن هنا نجد — مثلا — أن الفكرة القائلة بأنه لا يمكن أن يوجد مجتمع دون أن يقوم فيه نظام للعدالة يجازى كل انسان بعمله والقائلة بأن هذا الجزاء مترتب على تمتع الانسان بحرية الارادة — لابد أنه كان لها أثر خفى فى حلول معينة لبعض المشكلات المتصلة بقضية الحرية ، ومنها حرية

النقد . ومن هنا يمكن القول بأنه متى اعتقد الناس أن الفكر بناء ، أصبحت هناك ايديولوجية . والايديولوجية ــ كما هو واضح ــ ليست ظاهرة طبقية . والاصح أن توصف بأنها ظاهرة ثقافية أو حيوية . ذلك أن فلسفة العدل ليست ايديولوجية لطبقة من الطبقات لأن العدالة متى اقتصرت على طبقة دون أخرى كانت هى الظلم بعينه . ويرى الناس أن الحقيقة هى أعدى أعدائهم ، ولكنهم فى الوقت نفسه لا يستطيعون الاستغناء عنها ، لذلك يجردونها من أسباب الضرر والضرار بصياغتها فى صورة ايديولوجية . ويطالبون ــ على الأقل ــ بأن يكون النقد متوجا بعنصر بناء أى مقرونا بخطة مثالية للاصلاح .

ومن أدق الأمثلة للمذاهب التى لا تنفصل فيها فكرة الخير عن « فكرة الحق » المذهب الماركسى . وايضاح ذلك أن ماركس يثبت أن البشرية تتجه فى « الحقيقة » والواقع الى الشيوعية لا محالة . والنص الذى يصوغ فيه هذه النبوءة يتسم بالموضوعية الصارمة . ذلك أن ماركس رجل عالم لا حالم ، ولذلك لا يحسب أمانيه حقائق . وهو مناضل لا واعظ ، ولكنه لا يشبه عالم الطبيعة الذى يتنبأ بفناء العالم . ولكن اذا كانت كلماته تعوزها العاطفة ، فان نبرة صوته تفيض بالحماسة فهو يرى ان اتجاه البشرية الى الشيوعية فى الحقيقة والواقع خير للبشرية وماركس لا يفرق بين هذين الامرين أى بين الخير والحقيقة لأن اقترانهما أمر بديهى لا خفاء فيه عنده . فالزواج والامتزاج بين الحق والخير يبلغ ذروته عند ماركس لدرجة أنه لا يسمح لنفسه بأن يضع فلسفة أخلاقية ، بل يسمح لنفسه بالتهكم على الأخلاق . ومع ذلك فان له فلسفة أخلاقية من حيث لا يشعر وهى الفلسفة التى تسمح له بأن يعلن سقوط الرأسماليين ويدعو فى الوقت نفسه الى قلب النظام الرأسمالى .ويقول فى ذلك ريموند آرون : « لقد كان ماركس شديد الاقتناع بفساد النظام الرأسمالى لدرجة أن تحليله للأوضاع الاجتماعية القائمة ، أشعل فيه نار الارادة الثورية . بيد أن كاوتسكى يذكر فرقا سديدا بينه وبين ماركس فيقول : « سواء أكان العلم الموضوعى جبريا أم غائيا فانه لا يقول بنتيجة حتمية . ولذلك فان القول باتجاه التطور « التاريخى » نحو الاشتراكية لا يمنع اطلاقا من وجوب العمل على التعجيل بهذا التطور . » وان دل هذا القول على شىء فانما يدل على أن كاوتسكى لا يأخذ بالنظرية الجدلية . وهذا صحيح لأن النظرية الجدلية تدعو الى المزاوجة بين الخير والحق بقدر الامكان .



مما تقدم يتضح أن الايديولوجية تستعمل بمعنيين على الأقل : أولهما ان المراد بهذه الكلمة الشديدة الغموض هو المذاهب الفكرية التى ظهرت فى جميع عصور التاريخ : فمذهب لوك ايديولوجية ، ومذهب آدم سميث ايديولوجية ومذهب ماركس ايديولوجية بمعنى ان كل مذهب من هذه المذاهب ليس حقيقة نهائية ، بل هو مجرد جولة من جولات الفكر العشوائية الكثيرة على مدى التاريخ

وهذه الايديولوجيات جزء من تاريخ الفلسفة السياسية الطويل الذى يتعذر القول بأنه يتقدم بخطى واثقة نحو الحقيقة أو أنه ينشىء علما أو أنه مظاهر شتى لفلسفة أبدية ٠

أما المعنى الثانى فهو أضيق دائرة من المعنى الأول ٠ وبيانه أن يتخذ المفكرون البورجوازيون أو العمال الشيوعيون من مذهب لوك أو مذهب ماركس ايديولوجية (عقيدة فكرية) لهم ٠ وفي هذه الحالة يمكن القول بأن الايديولوجية هى ذريعة جماعية للتبرير والتفسير ٠ ولقد كان امام الايديولوجيين والمبررين والمفسرين هو الثعلب الذى ورد ذكره فى احدى خرافات « ايسوب » حين برر أو فسر عجزه عن الوصول الى العنب بأنه لا يزال أخضر اللون أى لم ينضج بعد ٠ وهذا التبرير أو التفسير من جانب الثعلب اقرب الى أن يكون حيلة أو خدعة من أن يكون قوة قسرية ٠٠ فالبورجوازى الذى يعلن انه مخلوق ممتاز يريد بهذه الفكرة أو الايديولوجية أن يبرر مركزه فى عين كل انسان وفى عين نفسه قبل كل شىء على النحو الذى يبرر به الرجل العصبى مرضه لتحسين علاقته مع بطانته ومن يلوذ به ولتبرير حاله أمام ضميره ٠ وقد تردد الماركسيون دائما بين تأويلين للايديولوجية الأول يقول انها نتيجة والآخر أنها خدعة كاذبة وبعبارة أخرى : هل الايديولوجية نتيجة عادية لموقف طبقى غير صحى ، مثلها فى ذلك مثل محصول ضعيف ناتج من أرض غير خصبة ؟ أم هى كذبة يراد بها خداع الشركاء الاجتماعيين ؟ ولكن فكرة فرويد فى التبرير تتجاوز هذا التردد الماركسى : فالايديولوجية عنده هى قوة قسرية لا خداعة ، انها وهم هستيرى لا كذب ٠ انها سلوك موجه لا نتيجة ــ انها موجهة دائما نحو الشخص نفسه ونحو بطانته ٠

ولذلك لا يمكن أن نقول ان الايديولوجية فكرة زائفة كلها أو فكرة غير صالحة كلها ، ولكن نقول انها ذريعة للتبرير ــ تبرير الانسان لموقفه وتبريره للأمور الواقعة ٠ والمقصود بهذا التبرير هو تضييق الفجوة بين الحق والخير ، أى بين حقيقة الامور ومصالحنا ٠ ولما لم يكن فى وسعنا أن نغير الحقيقة الواقعة فاننا نجعل من الضرورة فضيلة ٠ ولذلك يصح القول بأن الايديولوجية ضرب من الوهم ، وهى من هذه الحيثية تزجى الى النفس شيئا من الرضا والارتياح ٠ وسأضرب لك مثلا يجلى لك غوامض هذه المسألة : ذلك أن ايهام الشعب الجائع بأن الملك يحبه ، ولكن وزراءه يخدعونه يبعث فى نفوس الشعب شيئا من الارتياح والرضا ٠ صحيح أن هذا الوهم لا يسمن ولا يغنى من جوع ولكنه على كل حال خير من اليأس ٠ بيد أن الكذب أو الوهم الايديولوجى ليست له قوة سحرية على اقناع الناس بالباطل دون الحقيقة ، فالناس يظلون يعتقدون مع ذلك ان الملك ليس حاكما صالحا ولا يتوقعون من حكومتهم أن تصنع المعجزات ، ولا تستطيع الايديولوجية اقناعهم بأن سرير النظام الملكى مفروش بالورود بل يؤمنون بأن هذا السرير ليس أحسن

حالا من أرضية الزنزانة التى يرقد عليها السجين · وهذا المثل يصدق فى مجال الأدب على العلاقة بين الخيال والحقيقة · ذلك أن لذة الخيال لا تغنى عن لذة الحقيقة · وكلتا اللذتين تختلف عن الأخرى ولكن هناك اتصالا بينهما ، فالانسان لا يكثر من قراءة الروايات الغرامية الا حين يكون عاشقا · وهو لا يلجأ الى أدب الخيال أو أدب الهروب من الواقع لأنه محروم من اللذات الحقيقية بل يفضل الجمع بين الأمرين فى وقت واحد ، بين لذة الخيال ولذة الحقيقة · ومثال ذلك أن الطبقات العليا فى المجتمع يلذ لها دائما أن تقرأ الروايات الغرامية وأدب الهروب من الواقع مع أن هذه الطبقات متخمة باللذات الحقيقية · والحقيقة لا تقضى على جاذبية الخيال ، بدليل ان الناس الذين أصيبوا بالاحباط وخيبة الأمل فى الحب لا يهرعون الى الأفلام الداعرة لأن هذه الأفلام تزجي اليهم لذة غرامية أكبر مما خبروه ، بل لأنهم يفضلون الجمع بين الحقيقة والخيال · والواقع أنهم يهرعون الى اللذة الخيالية لأنها هي اللذة الوحيدة المتاحة لهم من بين اللذتين · وكما أن العمل الفنى هو تقليد للأصوات ، ومحاكاة للحركات والاشارات كذلك الايديولوجية هى انعكاس للواقع ، وان كان انعكاسا زائفا ·

والسبب فى ذلك كله أن الانسان يجد من المستحيل عليه ألا يبرر مصالحه والا يعتبر الشيء الذى يؤيد مصلحته عملا أخلاقيا · والدليل على ذلك أن النازيين كانوا يعتقدون أنهم على حق لا على خطأ ، وان مصلحة « السادة » هى الخير بعينه ، ولا يتصورون أن يأخذ الانسان حقه ببساطة ، بل لابد له من المطالبة به · والذى يهمنا من الناحية التاريخية هى اللهجة التى صيغت بها تلك المطالبة · انها لهجة تتسم أحيانا بالغطرسة والكبرياء ، وتارة بالنفاق والرياء ، وطورا بالتذمر والضجر ، نظرا لأن البورجوازيين (الطبقة الوسطى) والمتطهرين (المتزمتين من الناحية الدينية) ليسوا من طبقة « السادة » · وكذلك يختلف محتوى هذه التبريرات من الناحية التاريخية : فالايديولوجية قد تستخدم الفلسفة ، أو الدين ، أو الأخلاق ، وهى فى أبسط أشكالها تشبه « الرقابة » التى يفرضها اللاوعى (الضمير) على الوعى (النفس) ·

ولذلك تكمن الايديولوجية فيما يسمى بتآلف الجماعة ، وايضاح ذلك أنه عندما ينتظم شمل الافراد ، ويكونون جماعة من الجماعات التى تتصدى لعمل من الأعمال ، أو تقدم على غزو بعض البلاد ، ترى الدوافع والاغراض الفردية لمختلف أعضاء الجماعة تختلف اختلافا كبيرا ، ولكنهم جميعا يتفقون على ضرورة التمسك بأهداب الوحدة والاتحاد ، والوقوف معا صفا واحدا كالبنيان المرصوص ، لأن مصلحتهم تكمن فى الابقاء على روح التآلف بينهم ، فتراهم يحرصون جميعا على كبت مشاعرهم وأغراضهم الخاصة وتجاهل كل الأسباب التى تدعو الى الفرقة بينهم ، وعدم التفكير الا فيما يجمع شملهم ويوحد كلمتهم ويؤلف بين قلوبهم · وهذا الكبت يقترن بانطلاق شعلة من الحماسة الاخلاقية هى شعور الجماعة بلذة الأخوة ، والايمان بأن الوحدة قضية مقدسة ، والأعياد والولائم الوطنية هى المناسبات الكبرى لهذه الأوهام

الايديولوجية . على أن اختلاف المصالح المكبوتة يظل قائما ويطفو على السطح فى صورة قلق وسوء نية ، فالجماعة تشعر نحو بعض أعضائها بالريبة وعدم الثقة ولكنها لا تجرؤ على التصريح بما تكنه نفوسها لأن ذلك ينم على الخسة والدناءة . والواقع أن مثل هذا التصريح يعرض وحدة الجماعة للخطر ويضعها موضع الريب ومثار الظنون ومع ذلك فان الجماعة تتفق على تنحية هذه الشكوك والشبهات جانبا دون التصريح بها . وهنا لا تكون العلاقة بين الايديولوجية والحقيقة أشبه بالعلاقة بين الغطاء والوطاء ، بل أشبه بالعلاقة بين الجزء العلوى البارز من جبل الجليد فوق السطح ، وبين جبل الجليد كله بمعنى أن الجماعة لا تظهر الا أعلى وأسمى دوافعها أى الدوافع التى تدعو الى جمع الكلمة وتبرر وجود الجماعة .

وهكذا يتضح أن شطرا كبيرا من الحقيقة التاريخية عبارة عن أوهام فى أوهام . وليس المراد بكلمة الوهم هنا هو الحكم القيمى المستتر (لأنه من أجل أى شىء يحرم على الانسان أن « يكذب على نفسه » ؟ انه يحل لكل منا ان يقدر ما اذا كان الوهم مفيدا وحميدا) . ولا تنطوى كلمة الوهم أيضا على سوء النية بين الجماعة ، فالوهم لا يدل على نفسه ، وانما تدل عليه المتناقضات فى العقيدة وعدم الوحدة فى السلوك . هذه الشفوق السطحية هى بالضبط أكثر الدلائل شيوعا على وجود صدع ايديولوجى فى الأساس ، ولكن مظاهر الفرقة هذه لا تقلق ضمير الجماعة ، بل ان هذا الضمير يحتملها ويتجاهلها تماما ، لأن هذه هى الوظيفة التى خلق الضمير لها . ومن الناحية الموضوعية (الواقعية) يوجد الوهم حيث يكون هناك اختلاف بين الحقيقة والمشاعر التى تتفق معها . ومن شأن هذا الاختلاف أن يجعل الحياة أكثر سهولة ويسرا . وقد يتسلط الوهم على الناس بصورة دائمة . والدليل على ذلك أنك ترى ممالك لا تنفك عن الاعتقاد بأن مليكها حاكم صالح دون أن تطالبه بترجمة ذلك الى عمل صالح .ويمكن القول بأن الحياة السياسية كلها تقع فى دائرة الوهم هذه ومعها الفلسفة السياسية ، فكل واحد منا يرى حوله ازواجا وأفرادا يعيشون بالكذب على أنفسهم .

وهناك طريقتان لتفسير فكرة الوهم بطريقة عقلانية وكلتاهما مبنية على القول بأنه لابد مما ليس منه بد . أولاهما تقول انه اذا كان الوهم موجودا فى كل مكان فليس موجودا فى أى مكان ، كما أنه اذا كان الناس كلهم مجانين ، فليس ثمة مجنون (لأن الجنون لا يتصور ان يكون له معنى الا بوجود العقل) ولا داعى حينئذ لتغيير الحكومات لأن ذلك يصبح أمرا عديم الفائدة بل ضارا ومن ثم يكون خاطئا . أما الطريقةالثانية فهى - على العكس - تدعو الى تغيير الحكومات ، وتعزو الايديولوجية - باعتبارها الحالة الموضوعية الوحيدة التى يخضع لها الناس - الى صلابة أرضية السجن الذى يحاول السجين الراقد عليها أن يتكيف معها . وللارادة البشرية قدرة عجيبة على الانحناء للحقائق الغريبة عنها والتكيف معها . واذا أريد تغيير نظام الحكم وجب البحث عن مكمن الداء فى الحياة الاجتماعية فاذا تم القضاء عليه

تغير كل شيء كما اذا أردت أن تكافح الدرن ، وجب عليك البحث عن الأحياء القذرة التى تسبب الداء ، وتتجاهل الميكروب الذى يعزى اليه المرض والذى اكتشفه العالم « كوخ » ٠

وربما يشعر القارىء بخيبة الأمل حين يقرأ هذا المقال اذ لا يجد فيه رأيا قاطعا بشأن الايديولوجيات السياسية ، وهذا صحيح ٠ وعذرنا فى ذلك اننا لم نولد فى القرن العشرين بمحض اختيارنا ٠ ويعرف المؤرخون جيدا أن السياسة لم توجد الا منذ قرنين من الزمان أو نحو ذلك ٠ ولأضرب لك مثلا يوضح لك ذلك ٠ وبيانه أنك لو قرأت النصوص التاريخية الخاصة بالامبراطورية الرومانية لراعتك حقيقة مذهلة ، وهى انعدام الآراء السياسية فى ذلك العصر ٠ ولذلك حارب الناس من أجل السيطرة والسلطة لأنهم كانوا يفتقرون الى الحجج الأخلاقية والسياسية ، ولكنهم لم يكونوا من أهل اليمن أو اليسار ، ولا من أنصار النظام أو العمل ، ولا من أنصار الثورة أو دعاة الامبريالية ٠ولم تكن السياسة عندهم هى تنظيم المجتمع على أساس أخلاقى ٠ ولا يتبادرن الى ذهنك أنى أحن الى هذه السياسة « الواقعية » فان هدفى الوحيد هو تذكير القراء بأن القوم لم يجدوا أنفسهم بحاجة الى جعل الحقيقة موضعا للتطبيق العملى بحيث اذا لم يتم تطبيقها بدت زائفة ٠ كان الرواقيون يعتقدون ان الناس جميعا مجانين ، وهم أنفسهم من زمرة المجانين ، وكان « سنيكا » يعتقد ان سوس الفساد ينخر فىجسم المجتمع ، وكان المسيحيون يعتقدون ان الدنيا هى مملكة الشيطان ٠ كان كل انسان يجرؤ على التنديد بالحقيقة الواقعة باسم مفهوم معين من مفاهيم العقل لأنه كان يعتقد ان هذا التنديد سوف يظل ذا طابع أخلاقى محض ٠ وكان عدمالشعور بالمسئولية داعيا الى الجرأة فى نقد الواقع الاجتماعى ٠ أما نحن فان الارتباط بين الحق والمقتضيات السياسية يفضى فى النهاية الى القاء أعباء كثيرة على الحق تشل من حركته ، وهذا هو السبب فى وجود ايديولوجيات كثيرة ٠



لو أنك أنعمت النظر فى تاريخ النظريات السياسية لوجدت ان فكرة الايديولوجية تعود الى الحياة بصفة مستمرة ، فى صور شتى تعد بالالوف ٠ وبعبارة أخرى نقول ان الأفكار اتجهت دائما الى وضع اصطلاح ثالث بجانب اصطلاح الحقيقة والخطأ ٠ ومن أمثلة ذلك ، التناقض المشهور الذى جاءت به الفلسفة الرواقية (وان لم يعلق عليه المؤرخون كثيرا) ٠ ففى رأى هذه الفلسفة العقلانية المتفائلة والمؤمنة بوجود العناية الالهية ان الانسان حيوان عاقل ، ولكنها من جهة أخرى تنادى بأن الناس كلهم مجانين ٠ وواضح أن هذه الحماقة ليست من جنس الاخطاء التى تقع فيها عادة بسبب الاهمال فى عمليات الضرب الحسابية ٠

ويمكن أن يقال مثل ذلك عن فلسفة التنور : فهي تتمسك بفكرة الحقيقة وتقسم الخطأ قسمين : الخطأ البسيط أو « أخطاء السرعة » والخطأ المغرض أي المشوب بالهوى الذى يرجع الى تحكم السلطات • ذلك ان السلطات الروحية (الدينية) أو الزمنية (الدنيوية) تمتاز بقدرة عجيبة على اغماض العين عن النور الطبيعي (نور العقل) • وهنا نكتشف من جديد عدم التماثل الذى يمتاز به المفهوم التقليدى لكلمة الحقيقة : فعلى حين أن الحقيقة لا تحتاج الى تفسير (لانها آتية من النور الطبيعى) فان الخطأ يحتاج الى تفسير : فتارة يرجع هذا الخطأ الى فرط السرعة فى استعمال وظيفة العقل ، وتارةأخرى يرجع الى تشويه السلطات لهذه الوظيفة فينا ، وحينئذ نعود فنتكلم لا عن الخطأ بل عن الهوى أو الحكم المسبق • ويعرف الهوى بمحتواه ومصدره ، فهو فىوقت واحد فكرة زائفة ، وفكرة لها مصدرها الاجتماعى • ويمكن أن يقال ذلك عن الايديولوجية فى رأى ماركس ، فهى عنده فكرة زائفة ، فكرة لها أسباب تمت بصلة للطبقة الاجتماعية ، وبذلك يمكن الحكم على حقيقة الأفكار من معرفة مصدرها • ويستنتج من هذا ان الفكر الكلاسيكى (التقليدى) والفكر الماركسى يريان ميزة للمفكر الذى لا يتأثر بالاوضاع الاجتماعية السائدة • فأما المفكرون الكلاسيكيون فيرون ان العقل المتحرر من كل سلطة قادر على أن يهتدى بنفسه الى الطريق الموصل الى الحقيقة ، وأما ماركس فيرى أن الفكر البروليتارى هو وحده المفكر المتحرر من غمامات الطبقة الاجتماعية ، لان البروليتاريا فى نظره هى طبقة عالمية •

الحقيقة ، الخطأ ، الفكر المغرض أو الايديولوجية : هذا هو الثالث التقليدى • وأشهر الصور المغايرة له هى الصورة التى تعزى الى فرويد وبيانها : الحقيقة ، الخطأ ، الوهم • ذلك أن الانسان فى نظر فرويد قادر على أن يكذب على نفسه ، وأن يخدعها ، وأن يعتقد ما يريد اعتقاده • والانسان فى ذلك ليس سىء النية والقصد لأنه مزدوج الشخصية : فالرجل المصاب بالهستيريا لا يتظاهر بغير حقيقته ولا يموه ولكن عقله اللاواعى الذى لا يسيطر هو عليه هو الذى يموه فيه ويعرف جيدا تلك الاشياء التى يجب ألا يشعر بها الانسان • ويقول «لاروشفوكول» ـ وهو يمتاز بالأصالة فى التفكير ـ « الدليل الذى يثبت أن الناس يعرفون أخطاءهم أكثر مما هو معتقد هو أنهم لا يخطئون أبدا عندما نسمعهم يتحدثون عن سلوكهم• ذلك ان احترام الذات الذى يحجب أبصارهم هو نفسهالذى ينور بصائرهم عندئذ ، ويمنحهم من الرؤية الجيدة ما يستطيعون به أن يكتموا أو يخفوا أقل شىء يثير استنكار الغير » اهـ •

ومن المناظر اللطيفة المسلية التى نرجو أن يتأملها الذين يشكون فى وجود رقيب خفى على الانسان أن ترى رجلا يستشيط غضبا ، أو ينتفض فزعا عندما يسمع اعتراضا من انسان يحدث اليه ، فيضطره هذا الاعتراض الى الافضاء بحقيقة يحرص عقله اللاواعى على تجاهلها ، ولكن عقله الواعى يعرف هذه الحقيقة ولو عن بعد • بيد ان الأحكام الثقافية الاعتسافية ، وجولات الفكر العشوائية لا يمكن أن

نردها الى ذلك • فلا يجوز لنا أن نقول ان نيوتن لم يأت بفكرة الوقت العالمى حتى لا يبرر مصالح الطبقة البورجوازية الناشئة •

ولا أن ديكارت أولينتز درس المشكلة الميتافيزيقية الخاصة بوجود الله تعالى تبريرا لفكرة « المسيحية الاجتماعية » فقط أو تحقيقا للوحدة الدينية فقط ـ تلك المشكلة التى لم تلق اهتماما كبيرا من جانب الفلاسفة الاغارقة وغيرهم من الفلاسفة الذين جاءوا بعدهم بوقت قصير • ولا يكفى أن نكبت أخطاء السرعة والاستخدامات الايديولوجية لنجد أنفسنا على الطريق الملكى المؤدى الى الحقيقة • ذلك أن عشوائية الفكر أوسع نطاقا من ذلك ، ولا يوجد طريق ملكى يوصل اليها • واذا كان نيوتن لم يأت بما أتى به اينشتاين فلم يكن ذلك لأسباب أو أهداف طبقية ، ولكن لأن الفكر ليس سيد نفسه ، ولأنه لا يوجد شيء اسمه معرفة المعرفة • ان ظلال الشك التى تلقيها الفلسفة المعاصرة على المعرفة لا صلة لها بحدود هذه الأخيرة (اذ لا يمكن الوصول الى اليقين الا فى هذه الحدود) وانما يلقيها وجود المعرفة ذاته فى كل المجالات : ذلك أن الفكر لا يصل الى المعرفة على أساس ما يفكر فيه ، وقد يكون لهذا التفكير نهاية لا يعرفها الفكر •

وبدلا من أن تسلك المعرفة طريقا يمكن أن تنحيها عنه الحوادث والأهواء والأغراض ، والأوهام ، نراها تتجول فى ميدان غير مطروق بحيث نعرف موقعها فى كل لحظة بالموقع الذى اتخذته فى اللحظة السابقة ، لا بالاتجاه الذى اتخذته نحو أهداف ثابتة • ومن هنا لا ندرى من أى نقطة ندرك بعض القضايا المحددة ، مثل قضية الحياة وقضية الجمال •

وخلاصة القول أنه لا توجد مفاهيم محددة ، ولا مجالات تجريبية (ومنها مجال الانسان نفسه) جديرة بأن تعد دائما مفاهيم سرمدية • وقد ظهر فى ال ١٥ أو ال ٢٠ سنة الأخيرة نقد المعرفة لنيتشه ، وهو يدور حول موضوعين أو ثلاثة يستطيع القارىء أن يتبين بسهولة الصلة بينها •

(١) التاريخ ذو أسس متعددة : فلا توجد ماهيات سرمدية كما لا توجد الدولة على مر الدهور : ولا الطبيعة البشرية ولا الحب البنوى ، ولا العلوم الطبيعية على مر القرون • ولكن الذى نفعله هو أننا ندرج تحت هذه العناوين بطريقة اصطناعية ـ سلسلة من الظواهر المتنافرة التى لا صلة بينها ، كأن نتصور أن «فرنسا الخالدة » توجد فى الاطالس التاريخية بينما الحقيقة هى أنه تواردت على أرض فرنسا سلسلة متتابعة الحلقات من شعوب مختلفة باختلاف النظم السياسية المختلفة (الامبراطورية الرومانية الكبرى ، مملكة الفرنجة ، سقوط النظام الاقطاعى) احتلت حدودا مختلفة ، وانتمت الى سلالات بشرية مختلفة •

(٢) الموضوع الثانى وهو اقل اتصالا بالحقائق اللحظية التى هى موضوع المعرفة منه بالمعرفة ذاتها ، لأن هذه لا يمكن اثباتها أبدا ، ولكنها سجين نظام فكرى لحظى • وكما تقول أغرب محاورة من محاورات أفلاطون : « المعرفة لا يمكن أن تعرف» (لا ندرى كيف يمكن التوفيق بين هذا القول ، وبقية فلسفة أفلاطون اذا أمكن هنا التوفيق على الاطلاق) •

٣ ـ اذا كانت المعرفة هى هذه الأداة الواهية فلأنها لا توجد لكى « نعرف » بل لكى « نعيش » ثم يقول نيتشة : « اننا اذا أردنا أن نعيش فمن المفيد أن نعتقد أكثر مما نعرف كأن نعتقد على وجه التفاؤل أن الحقيقة تتفق مع معايرنا وأن نمزج بين فكرة الخير وفكرة الحق •

لا توجد حقائق سرمدية أثارت بوجه خاص اهتمام الفلاسفة وقد كتب نيتشة يقول « كل المفاهيم حادثة لا قديمة » •

ومن هنا كانت الفلسفة هى التاريخ بأوسع المعانى التى تكتسبها هذه الكلمة من الآن فصاعدا • وليس هذا الكلام نسبية ولا يعنى النسبية وقد ذهب الناس فى شأن الانسان والجمال مذهبا ما فى عصر ما ثم ذهبوا مذهبا آخر فى عصر آخر فهل فى وسعك يا صاح أن تقول أيهم على صواب ؟ فلنطبق التحليل الانسابى (الذى يبين صلة النسب بين الاحداث) على كل شيء وحينئذ نرى ان هذا الشيء ليس سوى صورة من الصور المتعددة لحب السيطرة والسلطة خلال لحظة من لحظات التاريخ •

ولا يمكن أن يشك الفكر فى نفسه لكى يعيد نفسه الى الحياة مرة أخرى . ولا يستطيع أن يقطع صلته بماضيه ، ويأخذ مكانه فى مجال الشك العالمى لأنه لو فعل ذلك لما استطاع ان يستعيد الحقيقة فى النهاية ، بل لا يستعيد شيئا على الاطلاق • انه لا يستطيع أن يفكر بعد ذلك ، اذ ليس له سوى شكوك محدودة • انه لا يعرف حدوده الخاصة وهو يفكر فى حدود هذه الحدود • وبعد مهزلة الشك المنهجى يعود الفكر الى أحكامه المسبقة • مثال ذلك أن اكتشاف الكائنات المجهرية ظل زمنا طويلا عديم الأثر فى علم الأحياء ولذلك لم يكن بد من حدوث ثورة فى هذا العلم حتى يدرك الحقائق التى تم اكتشافها منذ زمن طويل •

ان المعرفة هى أسيرة المذاهب الفكرية التى لا تشعر بها المعرفة ولذلك كان من الضرورة أن نرحب بسلف غير متوقع للفلسفة المعاصرة فى شخص القديس أوغسطين • والواقع أن الفلسفة الكلاسيكية تعتقد أنه يجب أن تتوافر لدينا الأدلة اذا أردنا التسليم بالحقيقة • ونحن لا نعتقد الا ما توافرت الأدلة العقلية على صحته • كذلك يرى الفكر الكلاسيكى أن النموذج الأسمى للمعرفة الصحيحة هو علم الفيزياء ، والرياضيات • وينظر هذا الفكر بعين الازدراء الى التاريخ لأنه عبارة عن معلومات يتلقاها الناس عن طريق السماع والروايات ولا يمكن القطع بصحتها عن طريق الأدلة العقلية • وهذا يفضى الى القول بأن الفكر الكلاسيكى يؤسس

فلسفته على نوع من المعرفة لا يمثل سوى جزء يسير مما نعرفه ومما نعتقده . وأخيرا – كما يقول القديس أوغسطين – لأننى أعرف من هو أبى عن طريق السماع والرواية لا عن طريق الأدلة العقلية . اننى أعتقد ما يؤكده لى كل شخص – ابتداء من والدى – فى هذا الأمر ، تماما كما أعتقد بوجود قيصر ووجود المدن الأجنبية التى لم أزرها قط .

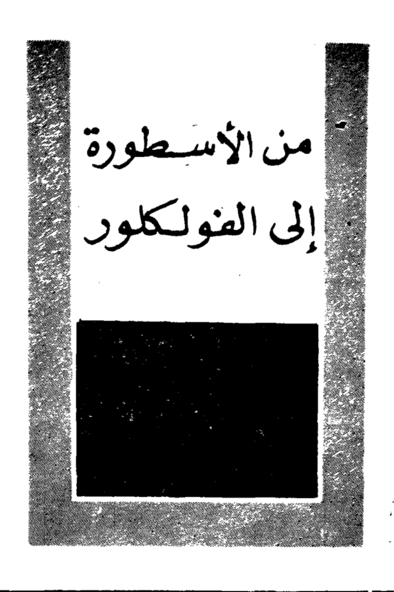
هذا هو ما أعتقده فى أغلب الأشياء التى أعرفها : لا مدخل للعقل فى هذا الاعتقاد . ولو أننى التمست دليلا عقليا على صحتها جميعا لاستحال على أن أعيش ولذلك كان من الضرورى والمفيد أن أعتقد أعنى أن أعتقد دون اقامة الأدلة العقلية على ما أعتقد ، ولا ريب أننا لا نحرم أنفسنا من هذا الاعتقاد . وقد استطاع القديس أوغسطين أن يثبت على نحو لا يقبل الانكار أنه اكتفى بتكييف الناس أو حملهم على الاعتقاد – دون اقامة دليل عقلى – بحيث آمنوا فى النهاية ايمانا صادقا بكل ما قاله لهم . ويستنتج أسقف هيبو (مدينة فى شمال افريقيا) من ذلك ان اضطهاد الهراطقة المارقين من الدين أمر مشروع وجدير بالثناء : ألم يشاهد هو بعض النفوس الضالة التى أرغمت على الرجوع الى أحضان الكنيسة ثم جاءوا يوما ما ليشكروا أسقفهم على العذاب الذى ذاقوه لأنه فتح عيونهم على الحقيقة ؟ وبفضل العناية الالهية يستنتج القديس أوغسطين من ذلك دفاعا عن هذا المسلك حيث يقول: « نظرا لأننا لا نستطيع الاستغناء بأى حال عن اعتقاد ما يقال لنا ،فاننا لا نشعر بالضيق بل نصدق بصورة أقوى : نصدق الكنيسة لا المانوية » .

وينساق القديس أوغسطين فى تيار الحماسة للتبشير برأيه الذى يعبر عنه بلهجة المفكر المتحكم ، والمغيظ المحنق ، ويتجاوز حدود الفلسفة الكلاسيكية فيقول لنا ما يبعث على الدهشة حقا : « من المفيد ان نعتقد » فاذا كان هذا القول على سبيل النصيحة كان أمرا ادا ، اذ أن الفائدة مهما عظمت ، لا تطالبنا بأن نذهب الى حد الايمان بما يقال . انها تطالبنا فقط أن نتصرف كما لو كنا نعتقد دون ابداء الرضا بما نعتقد ، أما اذا لم يكن هذا القول نصيحة بل كان وصفا لسلوكنا الفعلى فان من حقنا أن نرحب فى شخص القديس أوغسطين بأول مفكر من الطراز الأول ، لأنه من الثابت أننا فعلا نتصرف كما لو كنا نعتقد . فنحن عندما نفتح أعيننا على العالم لانشك فى أساطير ومعايير قبيلتنا، ثم ننتظر حتى نتوصل الى مزيد من الأدلة العقلية التى تثبت صحة هذه الأساطير والمعايير . ونحن لا نتبع فى أثناء فترة الانتظار هذه قانونا أخلاقيا مؤقتا نوائم به ظاهريا بين مواقفنا وبين العادات والأعراف المحلية . كلا ثم كلا ! اننا نؤمن منذ البداية ايمانا راسخا بالمعتقدات والمعايير المحلية ، بل نذهب الى حد الدفاع عنها ، ونصب جام غضبنا على المعارضين . وأكثر من ذلك ان هذه المعتقدات تسرى فى نفوسنا بحيث لا نشعر بهذه العادات والأعراف بل نأخذها قضية

مسلمة باعتبارها الأسلوب الطبيعي للسلوك . وخلاصة القول أننا نقبل الثقافة السائدة وننخرط في سلك المجتمع ونصبح أعضاء فيه . والثقافة (كما هو معروف بوجه عام) ليست هي الفطرة التي فطرنا عليها ، بل هي من صنع المجتمع ، فنحن نعتقد ان كل ما هو « مفيد » هو « الحق » بعينه .

واذا كان هدف المعرفة هو ارضاء غريزة حب الاستطلاع فينا دون تحيز ، كنا أشبه بالسائحين : ننتقل من اليسار الى اليمين طبقا للعادات المحلية (اذ يجب علينا قبولها) ولكن دون أن نؤمن بها ، ونشاهد الأحوال الغريبة بتجرد . ولكن الواقع اننا لا نسير على هذا النهج في تصرفاتنا ، بل نتبع العادات والاعراف ونؤمن بها مما يعني أن المتصور بالمعرفة ليس هو ارضاء غريزة حب الاستطلاع فينا بل اتاحة الفرصة لنا لكي نعيش على نحو ما ، أي ان المعرفة لا تحملنا على التفكير ، بل تحملنا على العمل بمقتضى هذه العادات أو التكيف معها .

● ● ●



●● المقال فى كلمات

المقال بحث فى الميثولوجيا ، أى علم الأساطير ، سماتها الرئيسية وصلاتها بالطقوس والشعائر ، ثم الحكاية الخرافية ، والملحمة البطولية ، والمأثورات الشعبية أو الفولكلور ، ومحاولة لتوضيح التطور الذى طرأ على بنيان الأسطورة من العصور الموغلة فى القدم والمجتمعات البدائية الى العصور التاريخية ، وتحولها الى خرافات وملاحم وفولكلور ٠

تدور الأساطير القديمة قبل انبثاق عصر العلم حول الانسان الأول ، والآلهة ، وفكرة الكون ، وخلق العالم ، وتتبدى فيه السمات الطوطمية والمجازية والرمزية ، والدلالات اللفظية والايديولوجية ٠ ثم نجد الأسطورة فى الطقوس والملاحم ، والأسطورة والطقس مظهران

الكاتب : اليزار م. ملتنسكى

ولد عام ١٩١٨ ، له دراسات بجامعة موسكو ، كبير الباحثين بمعهد الأدب العالمى بأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتى ؟ عضو الجمعية الدولية للبحث فى الفولكلور القصصى ، عضو بالمجلس العلمى للدراسات الفولكلورية بالاتحاد السوفيتى ، الخ . نشر بنوع خاص « بطل الحكاية الخيالية » ١٩٥٨ ، « أصل الملحمة البطولية » ، ١٩٦٣ ، « الابدا ، والأشكال العتيقة للملحمة » ١٩٦٨ ، « شاعرية الأسطورة » ١٩٧٦ ، ومقالات عديـدة فى الفولكلور والأدب المقارن ، والشـعر التـاريخى والثنائى فى مجلات سـوفيتية ومجرية وألمانية وفرنسية ، الخ . وثمة دراسات بناءة للمؤلف جمعت فى كتاب : « الفنون الفولكلورية الانشائية السـوفيتية » ، نشره ب. ماراندا باللغة الانجليزية ، موتون ، ١٩٧٤ . حائز على جائزة بتريه الدولية لعام ١٩٧١ .

المترجم : أحـمد رضـا

مدير بالادارة العامة للشئون القانونية بوزارة التربية والتعليم (سابقا) ، ليسانس الحقوق جامعة باريس ، نشر له حوالى عشرين مؤلفا مترجما فى القانون والقصة والمسرح والباليه .

مختلفان لظاهرة واحدة ، ويشتركان فى النماذج اللغوية والرمزية . كذلك نجد الأسطورة فى الحكاية الخرافية تمدها بالأفكار الرئيسية والدلالات اللفظية .

كيف تتحول الأسطورة الى حكاية خرافية ، الحكاية الخرافية تتحـدد بالفكر الميثولوجى والأفكار البدائية التميمية والطوطمية والحيوية والسحرية، والفرق بين الأسطورة والحكاية الخرافية أن الأولى لها معنى جماعى وكونى، تصف نشأة الكون والمصدر الأول للنار والنور والماء العذب ، أما الثـانية فهى قصة خيالية أزيل منها الطابع الأسطورى ، وأضفى عليها الطـابع الاثنوجرافى ، وتحول الاهتمام صوب مصير البطل .

من الأفكار الرئيسية للحكاية الخرافية يتحدث الكاتب عن موضـوع المحتالين ، وحكايات الحيوان ، والزواج من كائن طوطمى ، والحصول على

الأشياء النادرة ، والرحلات الى العوالم الأخرى والبحث عن دواء للأب العليل، والأطفال مع الغول الذى يأكل البشر ، ويعرض أمثلة من الحكايات لدى هنود أمريكا الشماليةوالقبائل الافريقيةوالحكايات الأوربيةوالآسيوية،والاسكيمو .. ثم يفرق بين الأسطورة والحكاية وطقوس التكريس والتلقين . وتبدو الحكاية أقرب الى طقوس التلقين من الأسطورة . والزفاف هو المعـــادل الطقسى فى الشكل الكلاسى للحكاية الخرافية ، وهو الذى يحل المنازعـات الاجتماعية فى الحكاية . والمقابلات الأسطورية القديمة ، كالحياة والموت ، أصبحت فى الحكاية الخرافية منازعات اجتماعية على مستوى الأسرة .

وفى الانتقال من الأســـطورة الى الملحمة البطولية تبرز العلاقات بين الشعوب والدول القديمة ، وتتطور الملاحم القـــديمة على أساس الحكايات الغنائية البطولية . ويقدم لنا الكاتب أمثلة من الملاحم البطولية النمطية عند مختلف الشعوب القديمة . ويبـــدى أن الملحمة القديمة تعرض نظامـــا ميثولوجيا ثنائيا يواجه فيه عشيرتان متعاديتان احداهما الأخرى ، ويتحـول الصراع الميثولوجى من أهل الكون وضد الخواء الى صراع من أجل الدفاع عن الجماعات السلالية والدول والايمان ، ضد الغزاة والكفار ، وتختـــفى الهالة السحرية للبطل الملحمى ويحل محلها عنصر جمالى وبطولى وحربى فى الحكاية الخرافية والفولكلور .

●● من الأسطورة الى الفولكلور

الميثولوجيا شكل قديم جدا ، ولكنه أيضا حيوى للغاية من أشكال الخيـــال الخلاق ، وهى سمة مسيطرة فى الثقافة الروحية لدى المجتمعات البدائية ، وكذلك والى حد ما فى المجتمعات القديمة ، وهى الوسيلة الرئيسية التى تضفى معنى شـــاملا على العالم . وتجسد الميثولوجيا فى الثقافة البدائية وحدة توفيقية من الابـــداع التلقائى قليل التنوع ، والدين البدائى ، والأشكال الأولية للأفكار السابقة على عصر العلوم من العالم حول الانسان . الميثولوجيا هى السـاحة التى تطورت فيها الأشكال الأولى للشعر والدين ، والمستودع الذى حفظت فيه هذه الأشكال .

والتسليم بالطابع التوفيقى للميثولوجيا (التوفيقية ، أو التلفيقيـــة ، مذهب التأليف أو التوفيق بين المذاهب المتعارضة ، والأخذ من مختلف المذاهب دون الاستناد الى روح نقدية . المترجم) باعتباره خصيصتها النوعية ، لايسمح لنا بأن نماثـــل الميثولوجيا بالدين ، بمواجهته بالفن (أنظر مثلا أ . ف . انيسيموف الذى يقيم منذ

المرحلة البدائية تباينا بين الأسطورة الدينية « المثالية » وبين الحكاية الفنية « المادية ») ولا أن نماثل الميثولوجيا بالفن ، بمواجهته بالدين (أنظر مثلا ر ٠ تشيز ، فى كتابه « البحث فى الأسطورة » ، باتون روج ، ١٩٤٩) ٠

ومع زيادة التعقيد فى كل من النظم الدينية والأنماط الشعرية ، تتنوع الأساطير فالأساطير الموغلة فى القدم عن أسلاف الجنس البشرى الأوائل (الأبطال الحضاريون) مهدت الطريق لكل من الحكايات والأساطير الدينية ، كالأساطير عن اله خالق ٠ وجوهر الأسطورة نفسه مزدوج ، بمعنى أن الميثولوجيا تشتمل على مجموعة خاصة من الأفكار عن العالم ، وكذا مجموعة من القصص عن شخوص خيالية تعرض بصورة ملموسة الآلهة والأبطال ٠ واذا قابلنا بين التعريفات الكثيرة للأسطورة ، نجد أن الأسطورة تقع فى مجموعتين متميزتين ، تبعا للعنصر المتخذ قاعدة للتعريف : « التصوير » و « القصة » ٠ والموضوع هو أن الأسطورة — على الأقل الأسطورة البدائية — هى فى جوهرها وصف رمزى لنموذج من الكون ، يعبر عنه من خلال سرد للأحداث المتعلقة بمختلف عناصر نظام العالم ٠

وثمة بعض معالم الميثولوجيا ، يعبر عنها كنمط فكرى بأسلوب كل من « صورة العالم » و « القصة » ٠ وتتميز الميثولوجيا بتشخيص ساذج للطبيعة المحيطة بالانسان ، ومجاورة «مجازية» للأشياء الطبيعية والثقافية ، أدى الى التصنيفات الطوطمية ، والرمزية الميثولوجية ، وكذا الى فكرة الكون فى مجموعه باعتباره كائنا حيا ومن ثم الى تعريف العالم الكبير والعالم الصغير ٠ ويتبدى شيوع الفكر البدائى فى غموض التمييز بين الذات والموضوع ، بين الدعامة والعلامة ، بين الشيء وخصائصه ، بين الجزء والكل ، والميثولوجيا لا تنشىء تعميمات على أساس من تدرج منطقى ، من الملموس الى المجرد ، أو من العلة الى المعلول ، ولكنها تعمل على مستوى واقعى وشخصى ٠ وبدلا من تدرج العلة الى المعلول ، فان لها تدرجا للقوى والكائنات الأسطورية ، تدرجا ذا قيمة ومعنى لفظى ٠

ولا تنبنى التصنيفات الميثولوجية على أساس من مبادىء داخلية متباينة ، وانما من صفات ثانوية حسية ملازمة للأشياء نفسها وللانفعالات التى تستثيرها هذه الأشياء ٠ وتبدو التشبيهات وغيرها من أنواع العلاقات فى الميثولوجيا فى صورة تماثلات ، ولا تصنف الأسطورة تبعا للسمات المتميزة بها ، ولكنها تنقسم بالأحرى الى أجزاء ٠ لذلك لا نجد فى الاسطورة قانونا علميا ، وانما شخوصا واقعية وأحداثا فردية ، ولا نجد أيضا عملية سببية ، من علة الى معلول ، وانما سياقا ينطلق من « بداية » فى الزمن (الأصل ! » ويتطور بتحولات مادية

والمنطق الميثولوجى ، كما ذكر كلود ليفى شتراوس مجازى ورمزى ، والأسطورة حين تختار مادتها ، تأخذ ما هى بحاجة اليه مما هو متاح لها ٠ والعنصر الواحد قد يبدو أحيانا كمادة وأحيانا كأداة ٠ وكل العناصر يطرأ عليها بصورة دورية

تعديلات « شكالية » (كاليدوسكوبية، متعددة الأشكال والألوان ـ المترجم) ·ويعمل المنطق الميثولوجي عن سعة مستخدما مقابلات ثنائية بين الصفات الحسية · هــذه التباينات تصبح أكثر فأكثر ذات دلالات لفظية وايديولوجية ، وتتطور الى وسـائل مختلفة للتعبير عن تضادات أساسية مثل الحياة / الموت ، وما شـاكل ذلك · من سمات الأساطير المميزة استخدامها الخيال لمثل هذه التضادات باكتشافهـا المتوالى للوسطاء الأسطوريين (من أبطال وأشياء) الذين يوحدون بصورة رمزية العلامـات المضادة ·

ولا شك أن الفكر الميثولوجي ، مع غرابته ، شكل من أشكال المعرفة بالعـالم المحيط ، ومع طبيعته « الخيالية » غير الواقعية ، فانه كان بمثابة أداة تحليلية ، ولم يكن فى المستطاع بدونها التفكير حتى فى ثقافة مادية فى المراحل الاولى من تطور البشرية· ولابد أن نتذكر أن الأسطورة تشرح النظام الاجتماعي والكونى القائم بطريقة تجعـل الناس يتحملون هذا النظام ، وذلك باستبعاد الأحداث التى لا يمكن شرحهـا ، والتناقضات التى لا حل لها · هذا سبب من الأسباب التى حملت على استخـدام الأساطير فى الطقوس التى تمارس بانتظام ، وتتغيا المصالحة بين النظام الفردى والنظام الإجتماعى ، وتنسيق العلاقة بين المجموعة الاجتماعية والعالم الطبيعى المحيط بها · وبفضل ممارسة الطقوس ، اكتمل النموذج الموغل فى القدم « للعصور الأولى » والخلق الأول (*فى مقابل الزمن الحاضر الذى يعرف بالملاحظة والاختبار) بنموذج زمنىدورى تتكرر فيه الأحداث · وسرد الأسطورة مشرب بالتفخيم بالنظام الذى استقر ، والخواء الذى صار كونا ·

ان معظم « التلفيفية » الميثولوجية ، وبعض السمات النوعية للفكر الميثولوجى هي الى حد ما موروثة ومستخدمة ومهيأة وفقا لغاياتها بفضل الفكـر الدينى أو الفلسفى الدينى القديم ، وكذا بفضل الفن (وبخاصة فى مجال الفولكلور) الذى يتميز بتعبيرية شعرية تلقائية رائعة ·

والشكل الأساسى للميثولوجيا شفوى ، ولو أن الأساطير قد توضح برسـوم ورقصات ، وليس ثمة مبرر لأن نؤكد وجود صلة مباشرة بين الفولكلور والميثولوجيا· غير أنه اذا لم تكن الاساطير مجرد تعبيرات عن صورة العالم ،وانمـا هى أيضـا قصص ، فان ذلك يستتبع اعتبار الأسطورة أقدم عنصر من عناصر تراثنا الفولكلورى الشفوى · وفى نصوص أكثر أنواع الفولكلور أصالة ، نجد الاساطير فى شكل رؤى للعالم والانسان ، وكذلك كعناصر رئيسية للأسلوب اللغوى والشعر ، وأسلوب قصصى خاص ، وكطليعة وراثية لسائر الأنماط الملحمية ·

ان نظرية الأكاديمى الروسى أ · ن · فيسلوفسكى بخصوص النمط الكلاسيكى لفن الشـعر التاريخى الحقيقى تلح لا على التلفيقية الايديولوجية ـ المضمون ـ وانما على تلفيقية البراعة الفنية فى مختلف أنماط الفن والشعر ، ولكن النظرية تمر عـلى

مشكلة الأسطورة دون أن تعلق عليها . ونظرية فيسلوفسكي بخصوص التلفيقية البدائية قد أدت خدمة جليلة باعتبارها فرضا عمليا لمنشأ الفن الشفوى ، ولكنها فى حاجة الى تصحيح كبير فى ضوء المعلومات الاثنولوجية . وينبغى أن نذكر بنوع خاص بعض الملاحظات التى أبداها الأكاديمى الانجليزى سيسيل م . بورا . ففى كتابه « الأغنية البدائية » يوضح أن الملحمة (ونموذجها الأصلى هو الأسطورة) ليست مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتلفيقية البدائية بقدر ارتباط الشعر الغنائى والدراما بها ، كما يصعب فصل الشعر الغنائى والدراما عن الموسيقى والبانتوميم (التمثيل الايمائى الصامت) والرقص .

وحتى نفهم نظرية فيسلوفسكى بخصوص التلفيقية البدائية ، ينبغى أن نفهم بوضوح أنه يقترح كأداة للتلفيقية « المباريات فى الحفلات الشعبية » ، وهو بذلك يسبق الى حد ما مذهب فريزر (كمبريدج) الذى يحاول أن يجد فى الطقوس ليس فقط مصدرا للأساطير ، وانما أيضا الجذر الأساسى للثقافة القديمة كلها . وتبعا لأعمال جين هاريسون وغيره من العاملين بجامعة كمبريدج ، تنتمى كل أشكال الفولكلور والملحمة الى أصل طقسى ، بما فى ذلك الحكاية الخرافية السحرية ، والملحمة البطولية (أنظر أعمال ب . سنت ايف ، وبرتا فيلبوتس ، و أ . ميرو ، و ك . أوتران و ج . ر . ليفى ، وكاربينتر ، وجان دوفرى ، وراجلان أنظر أيضا مؤلف ف . بروب الذى يرجع (الحكاية الخرافية السحرية الى طقوس التلقين) .

والطقسية موضوع سائد فى نظريات الأسطورة والفولكلور فى القرن العشرين، لها مزاياها فى الحقيقة ، ولكنها مع ذلك وبوضوح ذات وجه واحد ، كما يبدو بنوع خاص فى الطريقة التى يتبع فيها موضوع الأسطورة أو الملحمة ومحتوى هذه الأعمال الفنية تبعية كاملة لفكرة الطقس .

ولا يمكننا أن نعتبر الطقوس سمة مسيطرة تماما فى منشأ الملحمة البطولية وكذا الأسطورة . ان مشكلة السياق الزمنى للأسطورة والطقس هى بذاتها مشكلة البيضة والدجاجة ، فهناك أساطير تابعة من طقوس ، وطقوس هى تمثيلات درامية لبعض الأساطير ، وأساطير لها نظائر فى الطقوس ، وأساطير ليست كذلك . واذا اتبعنا معالجة تخطيطية بنوع ما لهذا الموضوع ، وجدنا أن الأسطورة والطقس يمكن معالجتهما على أنهما مظهران مختلفان لظاهرة واحدة ، الأولى فى كلمات والثانى فى أفعال . وعلى أية حال فان الوحدة الداخلية للأسطورة والطقس ، كمبدأ لا تنشأ بالوسائل الشكلية لأفعال الطقس وانما بتماثل الدلالات اللفظية والمعانى فى الاثنين، تلك النماذج اللغوية الرمزية التى لا تنفصل عن المفاهيم الميثولوجية .

من ذلك مثلا أن سرد الأسطورة لدى شعب ارندا باستراليا لا يصاحبه دائما أداء الطقس الذى يتلازم فى نطاقه الرقص والغناء (وهنا تحتاج نظرية فيسلوفسكى الى تصحيح) . ويظهر كل من الرقص والغناء وسرد الأسطورة بطبيعته النوعية :

فالرقص يهتم بمحاكاة حركة الحيوانات التى إعتاد أن يظهر فى شكلها الأسلاف الطوطميون ، أما الغناء فانه مجرد ذكر لأسماء هؤلاء الأسلاف ، فى حين أن السرد يعطى بيانا طقسيا عن السبيل الذى يسلكونه فى تجولاتهم (لمزيد من المعلومات فى هذا الشأن أنظر مقالى عن « المصادر البدائية للفن الشفوى ») • على أنه فى الوقت نفسه، يتحد الثلاثة فى فكرة رئيسية ميثولوجية واحدة ، بمضمون معنوى واحد •

ويوضح ستاز فى كتابه الرائع عن الأسطورة والطقس فى شمال استراليا ، مع استشهاد خاص بقبيلة مورنباتا ، ان الأسطورة والطقس لغة رمزية واحدة ، سواء كان للأسطورة نظير طقسى أو لم يكن لها ذلك ، والعكس بالعكس • هذا ، مع بحث حديث آخر لا يتركان مجالا للشك فى أن الأسطورة (سواء صاحبت طقسا أو لم تكن كذلك) هى التى زودت مضمون الفولكلور البدائى بمفاتيحه •

وليس بالثقافة الاسترالية القديمة أىقصص غير أسطورى ، أما العدد الصغير جدا من « الحكايات » الاسترالية فانها ليست سوى أساطير شعبية بسيطة، مجردة جزئيا من عناصرها السريه المقدسة • أما الميلانيزيون فانهم يملكون بالفعل ، وعلى مستوى ثقافى أعلى قليلا « حكايات » بدائية ، وكذا أساطير واقعية • ومع ذلك فان الشىء البادى التناقض انه حتى اذا كان مثل هذه الحكايات قد نشأت أصلا كاستجابة مباشرة لأحداث واقعية ، فانها مع تداولها تتشرب بنفس الأفكار المثولوجية التى فى الأساطير ، وهذه الأفكار هى التى تصوغ شكل الحكاية •

وفى الملاحظات السابقة ما يكفى لتبيين نوع التعديل الواجب اجراؤه لنظرية فيسلوفسكى بخصوص التلفيقية البدائية : فالتلفيقية الشكلية (لأنماط الشعر) لا تراعى مراعاة تامة ، والملحمة يصعب أن تنطبق عليها ، غير ان التلفيقية الايديولوجية والسيمية (السيمية علم معانى الألفاظ ــ المترجم) واجبة فى المراحل المبكرة وبؤرتها الحساسة هى سرد الأسطورة •

ينبغى أن نضيف الى ذلك أن التوازى السيكولوجى ، وتكرار موضوع البحث، كما ذكر فيسلوفسكى يرتبطان ارتباطا وثيقا فى جوهرهما بالمضمون السيمى للأسطورة يخلص من ذلك انه مع كل انجازات فيسلوفسكى العظيمة ، فانه أهمل بعض المظاهر الرئيسية لدور الأسطورة فى الفنون الشعرية التاريخية • وفى هذا الخصوص كان معاصره السابق ، الفقيه اللغوى العظيم أ • أ • بوتيبنيا ، من خاركوف أكثر منه فطنة ، فقد أدرك اهمية الدلالات اللفظية (السيمية) فى الأسطورة فى تطور الصور المجازية الشعرية فى الفولكلور وفى اللغة بعامة •

يقول بوتبنيا ان « الشكل الداخلى للكلمة » هو العلامة الحسية لدلالتها اللفظية ، ولذلك ففى سياق الأسطورة يكون المعنى والصورة متلازمين فى نطاق الكلمة • والصورة الشفوية فى الفولكلور ، كما فى الأسطورة ، تستبدل بما هو معقد وعسير

الفهم شيئا قريبا ملموسا ، وعلى ذلك يكون الشيء الملموس فى الوقت نفسه مجازيا ورمزيا ، وهذا هو ما يولد الصور المجازية الشعرية • وبالتدريج ومع انفصال الخاصية عن المضمون ، والشخصية عن الموضـــوع الخ ، تحولت الصـورة الميثولوجية فى الفولكلور الى مجاز فنى • هذا يفسر ان لغة الفولكلور الشعرية مزودة بثروةمن الرموز المختلفة الأنواع • ان اقدم تشكيل للكلمات كان خاضـــعا من عدة وجوه للمنطق الميثولوجي ، وبالطريقه نفسها كانت الشخوص الميثولوجية ، وكذا النعوت ، والألقاب ، والمقارنات ، والمجازات قائمة جزئيا على المماثلات الميثولوجية •

ولعلنا نلاحظ ان فولكلور الطبيعة الذى يمر خلال مراحل كثيرة متعاقبة ، وتقنية النقل الشفوى نفسها تساعدان على نمو القوالب الشعرية بالحفاظ على « صيغـات » تكرارية تصير فى نهاية المطاف بمثابة أسطورة •

وقد عولجت الفنون الشعرية التاريخية معالجة « سيمية » على أساس معالجة بوتبنيا فى مجموعة من الأعمال القيمة التى اضطلع بها فقهاء اللغة السوفيت فى العشرينات والثلاثينات ، وبخاصة أعمال أ • م • فرودنبرج (التى لم ينشر الا جزء منها) • وأوضح فرودنبرج ، بوفرة من الأمثلة ، أن نفس الرواسب السـيمية قد جعلت فى تيمات وطرز مختلفة تاريخيا وشكليا ، وأساس هذه العملية مجاز من المجـــازات الميثولوجية • ومعنى التنوع البراجماتى الواسع فى ميثولوجيا فولكلور العصر الوسيط وعصر النهضة مشروع فى مؤلف م • م • باختن عن رابليه ومصادره •

كانت الأسطورة هى وحدها العنصر السائد فى تلفيقية الأنماط المجزأة بنفس الشيء والتى ميزت حالة الفن القصصى فى المجتمعات القديمة • ولا يمكن تفســير الدلالات اللفظية الحقيقية للحكاية الا بالرجوع الى المصادر الميثولوجية ، ولم تزل هى نفس الدلالات اللفظية الميثولوجية ولكنها انفصلت أحيانا عن المعتقدات القبلية،واتخذت مرتبة من العرف الشعرى ، كما طرأ عليهـــا انتقال من الطابع الكونى الى الاجتماعى والفردى • من ذلك مثلا ان المقابلة الميثولوجية الهامة للغاية بين « العالى » و « الواطى » لها معان اجتماعية لا كونية فى الحكاية •

وليس ثمة شك فى وجود رابطة وراثية تطورية بين الحكاية والأسطورة • فالعديد من الأساطير الطوطميه ، وبخاصة النوادر الميثولوجية فى موضوع المحتالين نجدها منعكسة كثيرا فى حكايات الحيوان • وثمة أصل ميثولوجى يبدو واضـــحا فى النمط الشائع فى كل مكان من الحكايه الخرافية المتعلقة بالزواج من كائن طوطمى سحرى خلع عنه (أو عنها) لوقت ما شكله (او شكلها) الحيوانى • فالزوجة السحرية (أو الزوج ، فى عصور لاحقة) تمنح رفيقها هدية النجاح فى الصيد ، الخ ، ولكنها تهجره فيما بعد لأنه انتهك احدى حرمات الزواج • بعد ذلك يبحث البطل عن زوجته حتى يعثر عليها فى بلدها ، ويتعين عليه أن يجتاز هناك مجموعة من اختبارات الزواج التقليدية•هذا

النوع من الموضوعات نموذج لبعض الأساطير الطوطمية المتأخرة الباقية عن أصل العشائر والقبائل .

ولاشك ان القصص الخاصة بالحصول على الأشياء النادرة ، من اكسيرات أو مواد سحرية (أو سرقتها) نابعة من أساطير عن الأبطال « الحضاريين » . وقصص الرحلات الى « العوالم الأخرى » لتخليص البنات المسجونات هناك تذكرنا بالأساطير والخرافات عن تجولات الشامانات (الشامان كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى والكشف عن المخبأ والسيطرة على الأحداث . الخ - المترجم) أو السحرة العرافين بحثا عن روح شخص مريض أو ميت . والقصة المعروفة عن البحث عن دواء لأب عليل تجمع هذين النوعين من التقاليد . والحكايات الشعبية عن جماعة الأطفال الذين يقعون في قبضة غول يأكل الناس ويهربون بفضل دهاء واحد منهم ، أو عن قتل ثعبان جبار - شيطان جهنمي - تمثل أيضا موضوعات نوعية من طقوس التكريس . وثمة موضوعات مشابهة تنتمي مباشرة وبدرجة ما الى حفلات التلقين ، في فولكلور استراليا ، وهنود أمريكا الشمالية ، وغيرهم .

ولما كان كل انسان يجتاز بعض طقوس التلقين وغيرها من الطقوس « الانتقالية » فان هذه الحكايات بما فيها من اهتمام بمصير الأفراد تستخدم على نطاق واسع الموضوعات الميثولوجية التي تنتمي الى طقوس التكريس ، وتصير هذه الموضوعات علامات بارزة في رحلة البطل ورموزا للبطولة نفسها . ليس من المستغرب اذن أن تكون الحكاية الخرافية مدينة بالكثير من أهم رموزها وأفكارها الرئيسية وموضوعاتها ، والى حد ما بنائها العام الى طقوس التكريس . نجد هذه الحقيقة مشروحة في كتاب ف.يا. بروب « الجذور التاريخية للحكاية الخرافية » (١٩٤٦) . وقبل بروب ، قدم سنت ايف ، وبعده كامبل ، وستانر ، وتيرنر ملاحظات مماثلة . هذا هو السر الكامن وراء المفارقة التي تقول ان الحكاية الخرافية تبدو أقرب الى طقوس التلقين من الأسطورة . على أن هذا لا يخولنا أن نستنتج أية أحكام عامة عن أصل طقس جوهري للحكاية الخرافية .

ان السمات المميزة للحكاية الخيالية الخرافية ، ونمط الحكاية الخرافية نفسه ، يتحدد من نواح كثيرة بالطبيعة الخاصة بالفكر الميثولوجي ، بالأفكار البدائية التميمية (الفيتشية) ، والطوطمية ، والحيوية ، والسحرية ، ووساطتها الميثولوجية . والخطوات الرئيسية في عملية التحويل هي : حذف العناصر الطقسية المقدسة ، واضعاف الاعتقاد التام بصدق « الأحداث » الميثولوجية ، وانماء الابتكار الواعي، وفقدان التماسك الاثنوجرافي ، واستبدال أناس عاديين بأبطال الأسطوريين ، وزمن الحكاية الخرافية غير المحدود بعصر الأسطورة ، واضعاف أو محو علاقة السببية ، وتحويل الانتباه من المصائر الجماعية الى المصائر الفردية ، ومن مصير الكون الى مصير المجتمع . هذه العملية يصاحبها ظهور عدد من الأفكار الرئيسية الجديدة وبعض الحدود البنائية .

لقد أكدنا فيما سبق ان موضوع الأسطورة لا ينبع حتما من الطقس وان معظم الثقافات القديمة بها أساطير « طقسية » وأساطير « لا طقسية » . ومع ذلك فان الأساطير التي بها أساس احتفالي (أو طقسي) أو المرتبطة ارتباطا وثيقا بالطقوس (اذ تكون جزءا لا يتجزأ منها أو شرحا جوهريا لها) يمكن أن تتحول الى حكايات اذا انفصمت العقدة التي تربطها بحياة القبيلة الطقسية ، وهذا شرط مسبق هام . ويترتب ، تلقائيا أو حتميا على الغاء القيود النوعية المفروضة على سرد الأسطورة ، وقبول « غير المطلعين » (من نساء وأطفال في جماعة المستمعين تغيير في وضع الراوي ، وتطور عنصر التسلية .

أما المعلومات المقدسة المتعلقة بالطرق الأسطورية التي كان يتبعها الأسلاف الطوطميون ، فانها تستبعد من الأساطير الطموطمية ، وبدلا منها يوجه اهتمام أكبر بالأسلاف الطوطميين أنفسهم (الخلفية الأسرية) بمنازعاتهم ومعاركهم ، وبأي عنصر من عناصر المغامرة ، ويصرح هنا بمجال فسيح للتنوع ، ومن ثم للابتكار .

وحذف العنصر المقدس على هذا النحو يضعف حتما الايمان بصدق القصة . وبالطبع لا يؤدي ذلك للفور الى الابتكار الواعي ، أو اعتبار القصة قطعة من وحي الخيال . غير أن الأصالة التامة تحل محلها أصالة غير تامة ، الأمر الذي يسمح بدوره بمزيد من الحرية في ممارسة الابتكار المسموح به . غير ان هذه « الحرية » محدودة أيضا بالقيود المفروضة على النمط ، وبالمعاني اللفظية الموروثة في الأسطورة .

والحكاية الخرافية لا تقل في طابعها «الاثنوجرافي » الملموس في الفولكلور القديم عنها في الأسطورة . ولكن في الحكاية الخرافية الأوروبية الكلاسيكية ، انقطعت الصورة الخيالية عن المعتقدات القبلية الملموسة ، ونشأت ميثولوجيا شعريةاصطلاحية للحكاية الخرافية . من ذلك ان الشخوص الأسطورية في الحكاية الخرافية الروسية تختلف عن الشخوص الأسطورية في « البلينا » الروسية ، وهي نمط يعكس المعتقدات الخرافية الباقية عند طائفة اجتماعية معينة . ومع ذلك فان هذه الميثولوجيا الشعرية في الحكاية الخرافية الروسية مستمدة هي نفسها من أقدم الأساطير .

هناك سمة هامة للغاية تتمثل في « ازالة الطابع الأسطوري » لزمن الفعل : ذلك باحلال زمان ومكان غير محدودين للحكاية الخرافية ، كمجال للأحداث بدلا من زمان الخلق الأول والمكان المحدود للنموذج الكوني . وهذا يتطلب حتما « محو الطابع الأسطوري » من نتائج الفعل ، أي اهمال السببية المتعلقة بنوع خاص بأعمال الخلق في عصر الأسطورة . والتفسير السببي يصاغ كملحق أسطوري خاص . واذ يفقد الموضوع معناه الاثنولوجي،فان هذا الملحق يتحول الى خاتمة زخرفية ، يخلفها بالتدريج « المغزى » في حكايات الحيوان ، أو صيغات مطورة الأسلوب في الحكايات الشعبية الرائعة ، تشير الى عدم أصالة القصة . والطابع المميز ان الصيغة التقليدية للحكاية

الخرافية الكلاسية الكاملة التي تشير الى الفروق النوعيه بين الحكاية الخرافية وبين الأسطورة ، وهي غموض الزمان والمكان ، والطبيعة الخيالية للقصة ، الخ ٠

والزمن الأسطوري ، ومبدأ العلية يشكلان كلا لا يتجزأ مع السياق الكوني للأسطورة ، واهتمام الأسطورة بالمصير الجماعي للقبيلة فتماثل بينها وبين الجنس البشري في مجموعة (الشعب الحقيقي) ٠ وليست الأساطير كلها مطبوعة حتما بالطابع البروميثيوسي (نسبة الى بروميثيوس ، العملاق الأسطوري في الميثولوجية اليونانية — المترجم) ، ولكن أنشطة القوة الخلاقة (حتى لو كانت تذكرنا بأحابيل الوغد الأسطوري) لها معنى جماعي وكوني ، اذ تصف نشأة الكون ، والمصدر الأول للنور والنار والماء العذب وما أشبه ذلك ٠ وقد تظهر « المكاسب » الكونية أيضا في ضوء سلبي ، كتخفيض في عدد الأجرام السماوية ، ونهاية الطوفان ، الخ ٠ غير ان هذا لا يغير من الأمر شيئا ٠ ان الانتقال من الأسطورة الى الحكاية الخرافية انما يتبين من انكماش « السلم » ، وتحول الاهتمام ناحية مصير البطل نفسه ٠ ففي الحكاية الخرافية لا تكون الأشياء والأهداف المكتسبة عناصر في الطبيعة أو الزراعة ، ولكنها طعام ونساء ، ومواد سحرية ، الخ تجلب الحظ السعيد للبطل ولم يعد هناك أشياء تظهر لأول مرة ، وانما يعاد توزيع بعض السلع التي يحصل عليها البطل لنفسه ولمن حوله ٠ وفي حين يسرق البطل الأسطوري نارا أو ماء عذبا من حارسه الأصلي سواء كان امرأة عجوزا أو ضفدعة أو ثعبانا ، الخ ، وبذلك يقيم الماء العذب لأول مرة كعنصر من عناصر الكون ، يسرق بطل الحكاية الخرافية الماء الحي لكي يعالج به والده العليل (مثال ذلك في فولكلور هاواي ، والحكايات الخرافية الأوروبية) أو يحصل بمساعدة الحيوانات المتوحشة على نار لموقده (داهومي) ٠ كذلك في حكايات الحيوانات نجد الأرنب البري يسرق بخبث ولنفسه فقط ماء من بئر حفرتها حيوانات أخرى (من فولكلور معظم القبائل الافريقية) ٠ ان الايثار عند الابن الطيب في الحكاية الهاوايية ، وأنانية الأرنب البري يتعارضان مع الجماعية والاثنولوجية اللذين يميزان الأسطورة الحقيقية ٠ وعلى هذا لم يعد أبطال الحكاية الخرافية أنصاف آلهة ، أو قوى خلاقة ، ولو أنه قد يكون لهم — كجزء من علاج يضفي عليهم طابع المثالية — أقرباء الهيين ، أو أصل خارق أو يحتفظون بأثر من سمات طوطمية : مثال ذلك ابن ، أو زوج ابنة الشمس في حكايات هنود امريكا الشمالية ، وحفيد ساحرة نزل من السماوات ، والبطل البولينيزي تافاكي ، ابن الدب الذي نجده في فولكلور الكثير من الأجناس ، الخ ، وتصادف « الولادة الاعجازية » في الحكايات الأوروبية ، غير ان أصل البطل المجيد يتخذ في الكثير من الأحيان شكلا اجتماعيا (ابن الملك) ٠

ولقد يبدو ان عملية « ازالة الطابع الأسطوري » قد اتسمت بتفاعل بين عرف القصص الميثولوجي الحقيقي من ناحية ، ومن ناحية أخرى بين مختلف أنواع الحكايات الصغيرة التي كانت شخوصها المركزية دائما أناسا عاديين ، أحيانا غير معروفين ، بل لا أسماء لهم ٠ ومع « ازالة الطابع الميثولوجي » من البطل في الحكاية الخرافية يظهر

شخص ذليل ومحروم ومضطهد من أفراد أسرته أو قبيلته أو قريته ، لصفاته المختلفة (كالجهل ، والسوقية ، والجنون السلبى ، والبله ، الخ) معنى عميق على المستوى الطقسى والمثولوجى ، ولكن حرمانه الاجتماعى هو الذى يبرز بوضوح وعن قصد · من هذا اننا نجد العديد من اليتامى المساكين فى فولكلور ميلانيزيا ، وبورما ، وقبائل جبال البدت ، والاسكيمو ، والشعوب الآسيوية القديمة ، وهنود أمريكا الشمالية وغيرهم · هؤلاء اليتامى يلقون معاملة سيئة من زوجات أعمامهم (ميلانيزيا ، وأقاربهم وجيرانهم (أمريكا الشمالية) ، ولكن الأرواح تتصدى للدفاع عنهم · وتعرض الحكايات الخرافية الأوروبية نفس النمط من الأطفال المساكين المضطهدين ، فى شخص « سندريللا » ابنة الزوج أو الزوجة ، أو الأخ الأصغر ·

ولا يملك بطل الحكاية الخرافية تلك القدرات السحرية التى يتمتع بها البطل الأسطورى بطبيعته ، وعليه أن يكتسب هذه القدرات عن طريق طقوس التلقين ، أو الاختبارات القاسية التى يجريها الشامان ، أو الحماية الخاصة التى توفرها الأرواح وفى مرحلة تالية ، تبدو هذه القدرات الاعجازية كلها وقد أصبحت منفصلة عن البطل وراحت تعمل بدلا منه · وعلى هذا تنمو فكرة (تيمة) اضافية يتسنى للحكاية الخرافية السحرية من خلالها أن تنمى تراث المعانى والدلالات اللغوية فى طقوس التكريس ، ولابد أن نعرف فى الوقت نفسه ان المعادل الطقسى فى الشكل الكلامى للحكاية الخرافية هو الزفاف (وهو طقس أصغر وأكثر انطباعا بالسمة الفردية من طقس التلقين الذى ينتسب اليه بنوع ما من الناحية الوراثية) · هناك اذن بعض الصدق فى القول بأن طقس التلقين هو المعادل الطقسى للأسطورة (وكذا للأشكال العتيقة من الحكاية الخرافية) فى حين أن الزفاف هو المعادل الطقسى للحكاية الخرافية السحرية الأكثر تطورا ·

وهناك عدد كبير من رموز الحكايات الخرافية وتيماتها : خف سندريللا ، الخاتمة المخفى فى كعكة ، العروس التى تلبس اهاب خنزير (أو اهاب حمار فى حكايات بيرو) أو جلد امرأة عجوز (فى حكاية يابانية) ، استبدال « عروس زائفة » هروب العروس أو العريس ، استخدام العروس فى بيت أهل زوجها ، أو العريس فى بيت أهل زوجته حظر النطق باسم أسرة الزوجة الشابة ، « عرائس » تسدى نصائح ، الخ · كل تلك الرموز والتيمات تجد تفسيرا لها فى عادات الزفاف والحفلات عند الكثير من الشعوب ، وتستمد أساسا من دلالات لغوية طقسية وميثولوجية قديمة للغاية · ويمكن أيضا نسبة الحكاية الخرافية الى حفل الزفاف فى مجموعه ، لأن الزواج بالأميرة أو بالأمير هو الهدف النهائى للحكاية ·

والزفاف فى الحكاية الخرافية يصاحبه دائما ارتفاع فى الحالة الاجتماعية للبطل ، ويمثل بالنسبة الى الفرد مخرجا رائعا ذا نمط خاص يحل المنازعات الاجتماعية التى تعرضها الحكاية والتى تتقدم بوجه عام فى صورة علاقات أسرية داخلية · وانتهاك سنن الروابط الأسرية والزوجية (كغشيان المحارم ، أو الزواج من عروس « بعيدة »

أكثر مما ينبغى) أو الواجبات المتبادلة بين الأقرباء ، هى كما نعرف أسباب المنازعات الشديدة فى الأسطورة أيضا والتى تؤدى الى انفصال العناصر الكونية المتحدة منذ فجر الزمان • ويتطلب اعادة توحيد هذه العناصر وساطة ووسيطا • غير انه فى الحكاية الخرافية التى تتعامل لا مع سعادة شعب فى نطاق كونى ، وانما مع سعادة الفرد فى نطاق اجتماعى ، يفقد « التبادل » الذى يتم بالزواج وظيفته الناقلة (مثل اضفاء الطابع الاجتماعى على القوى الكونية فى الأساطير الأسيوية العتيقة عن مغامرات الزواج عند أبناء راون) ويتخذ كما أشرنا من قبل صورة حل فردى للمنازعات الاجتماعية •

والمقابلات الأسطورية الأساسية الموغلة فى القدم مثل الحياة / الموت قد خلفتها فى الحكايات الخرافية منازعات اجتماعية على مستوى الأسرة • والأسرة فى الحكاية الخرافية هى الى حد ما تعميم للأسرة « الكبيرة » أى المجموعة الأبوية من النمط نصف الكلاسى ان سوء معاملة أفراد الأسرة لبنت الزوج أو الزوجة ، وضروب الظلم التى يعانيها الابن الأصغر لها مغزى أجتماعى خفى ، وهى علامات على انحلال العشيرة • وموضوع « الابن الأصغر » يبدو انعكاسا غير مباشر لاستبعاد الأبناء القصر فى الازمان الغابرة ، ونمو التفاوت فى داخل الأسرة •

وتظهر صورة « زوجة الأب » فقط عندما تتفكك قواعد الزواج الداخلى ،أىحينما تؤخذ الزوجات من « بعيد جدا » • وليس من باب الصدفة ان لموضوع زوجة الأب وابنة زوجها فى الحكاية الخرافية الأوروبية بديلا فى الكثير من القصص التى عاشت طويلا : ذلك هو موضوع ملاحقة الأب أبنته وفسقه بها ، وهو اعتداء صارخ على قواعد الزواج الخارجى •

هذه الاعتداءات نفسها التى تظهر أيضا فى الأسطورة ، تعرض فى الحكاية الخرافية من زاوية نتائجها الاجتماعية المحتملة ، لا الكونية • والموضوعات الأسرية والاجتماعية فى الحكاية الخرافية يمكن اعتبارها ذات تكوين أكثر حداثة ، ومكملة للأساس الميثولوجى الحقيقى الأقدم • والواقع ان الموضوعات الميثولوجية الحقيقية الأكثر قدما تشكل فى الكثير من الأحيان نواة للحكاية الخرافية الأوروبية الكلاسية ، تحيط بها العناصر الأسرية او الاجتماعية الأكثر حداثة • مثال ذلك ان الموقف الأولى للنزاع بين زوجة الأب وابنة زوجها يتطور فى نواة القصة حيث تعانى ابنة الزوج محنا قاسية على أيدى شيطان الغابة ، وتجىء الخاتمة فتحل الموقف ، أو بالأحرى تختصره بزواج سعيد يغير الوضع الاجتماعى لابنة الزوج •

والأسطورة والحكاية الخرافية فى فولكلور المجتمعات العتيقة لهما نفس البنيان الميثولوجى الذى يتبدى كسلسلة متابعة من الخسائر والمكاسب لبعض القيم الكونية والاجتماعية • ولكن فى الحكاية الخرافية تكتسب الحلقات الوسطى فى السلسلة أهمية نوعية • من ذلك مثلا جبل الأوغاد ذوى الأشكال الحيوانية (فى حكايات الحيوان) ، أو اختبارات البطل التى يمكن مقابلتها باختبارات التكريس أو الزواج • والأسطورة

القديمة أو « الحكاية الأسطورية » تبدو كنوع من البناء الفوقى بالنسبة الى الحكاية السحرية الكلاسية الأوروبية ، فيها بنيان متدرج صارم من محنتين أو ثلاث محن قاسية فى الغالب تصيب البطل • فالمحنة الأولى ، وهى سابقة بنوع ما ، تتيح اختبار سلوك البطل ومدى معرفته القواعد الواجبة ، وتؤدى الى اعطاء البطل وسيلة اعجازية يستطيع بوساطتها أن يتغلب على الموقف السىء فى مواجهـــة المحنة الرئيسية • أما الخطوة الثالثة فانها غالبا محنة اضافية تؤدى الى الكشف عن حقيقته الشخصية ــ فيصبح واضحا من الذى قام بالعمل البطولى الذى أصاب المزاحمين والمحتالين بالهزيمة والخزى • وفى النهاية ، وهى سعيدة حتما ، تفرض القاعدة أن يتزوج البطل ابنـــة الملك وينال « نصف المملكة » •

وعلى مستوى الأسلوب ، كما ذكرنا من قبل، تشكل الحكاية الخرافية ، كما يحكيها الراوى بعض السمات الشعبية الهامة ، تقيمها فى مواجهة الأسطورة ، باعتبارها ابتكارا فنيا ، الأمر الذى لا يمنع من أن تحتفظ الحكاية الخرافية فى لغتها المباشرة • وفى مظهر تخطيطى ببعض عناصر السحر والطقوس •

وفى الانتقال من الأسطورة الى الحكاية الخرافية تحجب « الأسرة » بعض الشىء الكون الميثولوجى • وفى الانتقال من الأسطورة الى الملحمة البطولية ، تبرز الى الصفوف الأولى العلاقات بين الشعوب وبين الدول القديمة التى كان لها ، كقاعدة عامة وجود تاريخى • ومع ذلك ففى الملاحم القديمة التى تألفت قبل أن تتدعم الدول بشكل واضح لم تزل التقاليد « التاريخية » الفعلية مصدرا ثانويا فحسب فى تطور الملحمة ، وتتعايش هذه التقاليد مع الملحمة الى حد ما ، ولكن دون أن تمتزج بها •

وقد تطورت الملاحم القديمة بنوع خاص على أساس الحكايات الغنائية البطولية التى تروى الأعمال الباهرة التى يؤديها الأبطال ذوو القوة والشجاعة الخارقة (نمط محفوظ فى فولكلور القبائل الصغيرة الشمالية : القبائل الآســيوية العتيقـــة ، والقبـــائل الأجرو ــ ساموييدية ، والتوبجور) ، وبخاصة اعتبارا من أساطير الأســلاف الأول وحكاياتهم ــ الأبطال الحضاريون ــ وهم (الشخصيات الرئيسية فى الفولكلور البدائى • والملحمة القديمة (حتى اذا لم تكن الآلهة أبطالها ، كمـــا فى الأغـــانى والحكايات الميثولوجية عند الاسكندنافيين القدامى) تعمم الماضى التاريخى عن طريق لغة الأسطورة البدائية ومفاهيمها ، متتبعة على نطاق واسع تقاليد الفولكلور القصصى البدائى الذى سبق ذكره • ويتمثل ماضى السلالة كقصة واقعية « للأناس الحقيقيين » (اذ تتطابق حدود الجنس البشرى كله وحدود القبيلة والجماعات المحكى عنها ، ويتخذ شكل رواية تحكى أصل الانسان وحصوله على عناصر الحضارة والكيفية التى دافعت بها هذه العناصر ضد « الوحوش » •

وزمن الملحمة فى هذه الأعمال هو العصر الأسطورى للخلق الأول • وتبـــدأ الأشعار البطولية عند الشعوب التركية المغولية فى سيبريا عادة باشارة الى الزمن الذى

خلقت فيه الأرض والماء والسماء (فى الأيام التى فصلت فيها الأرض عن باقى الكون بملعقة خلاطة كبيرة ٠٠ الأيام التى فصل فيها الماء عن سائر الأشياء بمغرفة) أو حين لم تكن الأرض أكبر من رأس الدبوس والسماء فى حجم اذن الأبر والمحيط كالغدير ٠٠ الخ) ٠

وفاينا موينن ، أحد أبطال القصائد والأغنيات الاسكندنافية القديمة (الرونية) فى صراعه مع يوكاهاينن ، يبدى أنه عاش فى الزمان الذى خلق فيه العالم ، واشترك فى عملية الخلق نفسها ٠ ويتذكر « النارت » سوسركو فى حكاية ملحمية أديجية الزمن الذى كانت فيه سلسلة جبال بشتاو لا يزيد ارتفاعها على ارتفاع رابية ، وكان الأولاد الصغار يعبرون على أقدامهم نهر اديل (الفولجا حاليا) ، وكانت السماء تتكاثف والأرض تجمد ، وهو نفسه قد أصبح رجلا بالغا ٠ وفى الشعر السومرى القديم ، عن جلجامش ، وشجرة هواومبو ، تجرى الأحداث فى زمن يلى مباشرة انفصال الأرض عن السماء ، وحظى فيه الجنس البشرى باسمه ٠ ومكان الأحداث فى ملحمة ياكوت هو « الأرض الوسطى » الأسطورية ، أى الجزء الذى يسكنه الناس ٠ ويشغل الوصف الأسطورى للعالم الجزء الأكبر من مقدمة أشعار ياكوت (وأقل من ذلك فى أشعار خاكاس) ٠ وفى قلب هذه الأوصاف توجد « شجرة العالم » وتشبه شجرة البلوط ، أو اللاركس ، أو الدرداء (أنظر : ايجدرازل فى الشعر الاسكندنافى « ايدا » ، والشجرة هولومبو فى الملحمة السومرية) ٠

وتعرض الملحمة القديمة العامة نظاما ميثولوجيا ثنائيا ، يواجه فيه عشيرتان متعاديتان احداهما الأخرى ، عشيرة من البشر الذين تروى الحكاية قصتهم ، وعشيرة من الشياطين ذوى الطبيعة الجهنمية السفلى ، فى أغلب الأحيان ٠ ولا يمنع هذا التضاد من ذكر عوالم وقبائل أسطورية أخرى ، ولكن صدر الملحمة تشغله هاتان العشيرتان اللتان تعيشان فى حالة عداء أبدى ٠ (وفضلا عن ذلك فان هذه الحقيقة لا تستبعد قيام علاقات الزواج الخارجى بين أفراد العشيرتين ، كما فى الملحمة الياكوتية (والكاريلو - فلندية) ٠ وفى هذا الصراع تستخدم الملحمة لغة العداء القبلى فتقدم صورة وصفية ملموسة لدفاع النظام الكونى ضد الخواء ٠ والعدو ٠ كما قلنا ، له دائما طبيعة جهنمية ، أى أنه على صلة وثيقة بالعالم (السفلى ، والمرض ، والموت الخ فى حين أن البشر يعيشون على « الأرض الوسطى » ، ويستمتعون بحماية الآلهة السماوية ٠

تلك هى مثلا طبيعة التضاد - وهى أساسا طبيعة ميثولوجية خالصة - فى الأسطورة الياكوتية بين الأبطال الشياطين « الابازى » ، والأبطال الآدميين « الأبى » الذين يتمتعون بحماية الأبى ، الآلهة السماوية المتألقة ، فى حين ان « الابازى » هم أشباح المرض ، شياطين العالم السفلى ٠ وفى الأشعار الملحمية الياكوتية يغطى هذا التضاد الميثولوجى الخالص تضادا آخر بين أسلاف الياكوت - وهم مجموعة من قبائل تركية رعوية - وبين قبائل التونجوز المنشورية المحيطة بها والذين يعيشونفى الغابات من الصيد البرى وصيد السمك ٠ والأمر كذلك فى الأساطير الملحمية عند شعوب

القوقاز (الأوست ، والاديجيون ، والابخاز) حيث يواجه المردة شعب (النارت) ، وفي ملحمة « ايدا » الاسكندنافيه حيث يتصدى المردة للآلهة آز . أما الأبطال الكاريلو ـ فنلنديون (أبناء كاليفا) فتواجههم « سيدة بلاد الشمال » التي تملك ، بفضل مماثلة ميثولوجية « شامانية » خالصة مع بلاد الشمال ومصاب الأنهار ومملكة الموتى طبيعة جهنمية أرضية سفلى .

ولسنا نجد عند ترك المطاى ، والبوريات تقسيما واضحا الى قبيلتين متعاديتين (على أن مثل هذا التقسيم لم يزل باقيا عند البوريات بالنسبة الى الأرواح السماوية والآلهة) . غير ان أبطال ملاحم البوريات يتقاتلون مع مختلف وحوش المانجادخى ، كما يقاتل أبطال شعوب الطاى الوحوش الخاضعة لسلطة « ايرلك » سيد العالم السفلى .

ونذكر من بين الأبطال المنتصرين على الوحوش ، البطلين السومريين جلجامشت ، وانجيدو في صراعهم مع الثور السماوى ، ومع خوفافا الرهيب . أما البطل امیرانی من جورجيا ، (ويشبه كثيرا بروميثيوس الاغريقى) فانه ينتصر على التنينات . وثمة وحوش أخرى يقهرها الابطال الاغريقيون القدامى برسيوس وتسيوس ،وهيراكليس وكذا الأبطال القدامى الانجلو ساكسون والاسكندنافيون (بيوولف مثلا) .

ومن نماذج الملحمة الشعرية القديمة ، شخصية بثولوجية أساسية تتمثل فى أم الأبطال الشياطين ، كالمرأة الشامانية العجوز عند الأباسى فى الأشعار الياكونية ، و « الأم الحجل » العجوز ، أم وحوش المطاى ، والمرأة المانجادخاى الكريهة عنـــد البوريات و « النسوة البجعات العجائز » عند الحاكاس ، ولوخى ، سيدة الشمال في الأساطير الكاريلو ـ فنلندية . ويمكن مقارنة هذه الشخوص بغيرها ، من جهة وعلى المستوى الميثولوجى الخالص ، بشخوص مثل « سدنا » عند الاسكيمو ، و « خوسوم » عند تكيت ، و « يتامات » البابلية ، الخ ، ويمكن من جهة أخرى مقارنتهم بشخوص فى ملاحم أكثر تطورا ، كالملكة « مدب » فى الساجات (ملاحم بطولية) الايرلندية، وأم جرندل فى قصيدة بيوولف ، والمرأة العجوز سورهايل في الباميش ، الخ .هذه الأم ، أم الأبطال لا تنتمى بالفعل الى الشعب صاحب الأسطورة الا فى ملحمة النارن، حيث تحمل اسم ساتانا . والعجيب أن المردة والمسوخ الجهنمية فى الملاحم القديمة كثيرا ما يظهرون ليس فقط كأعداء مقاتلين ، أو خاطفى نساء ، أو كائنات ترتكب كل ضروب الايذاء ، ولكن أيضا كحراس أول للنار والأجرام السماوية والنباتات المزروعة فى جهة أو فى أخرى ، والأشياء الخارقة التى يستولى عليها الأبطال .

والأجناس البطولية التى تدعى مختلف الشعوب انتسابها اليها فى الملحمة القديمة ليس لها أسماء تاريخية . أما « النارت » أو أبناء كاليفا (هناك تعريف كامل للأبطال الفنلنديين يماثل بينهم وبين أبناء كاليفا فى ملحمة كاليفالا، نجده فى مؤلف لونروت. أنظر أيضا قصيدة كاليفى الاسونية ، وكوليفا نوفيشى الروسية) منهم سلالة من

أبطال يتصدون ليس فقط لشياطين العالم السفلى ، وانما أيضا وبصفة جزئية لأبنائهم الذين ضعف بأسهم ٠

وعصر النارت يشبه من بعض الوجوه عصر أبطال الاغريق ٠ وجدير بالذكر ان لفظة « القوط » فى الملحمة الألمانية والاسكندنافية تعنى ليس فقط القوط المعروفين فى التاريخ ، وانما أيضا نمطا من القبائل الملحمية البطولية ، كذلك فان النعت « قوطى » يكاد يكون مرادفا للنعت « بطولى » (تماما مثل النعت « نارت ») ٠ وفى الملاحم المتطورة كالألمانية ، والاغريقية ، والهندية ، نجد ان القوط ، والبرجانديين ، والآخيين ، والطروادبين ، والبنداقى ، والكورافى الذين اختفوا كسلالات متميزة ، ولم يبقوا الا كعناصر من سلالات فى الأساطير الملحمية هذه القبائل ليست فى أساسها سوى قبائل بطولية تنتمى الى عصر بطولى موغل فى القدم ، فهى بمثابة نموذج بطولى للأجيال التالية ٠

ويمكن من بعض النواحى مقارنة النارت والمخلوقات المشابهة بالأسلاف الأول للجنس البشرى الذين يظهرون فى الأساطير القديمة (وبخاصة حيث يعتبرون أجدادا لشعوب صاحبة التقاليد الملحمية) ٠ ويمكن بالمثل مقارنة عصر هؤلاء ومآثرهم النبيلة بالزمن الأسطورى الحقيقى من النمط الاسترالى (عصر الحلم) ٠

ومما له دلالة كبرى فى هذا الخصوص هو ان شخوص أبطال معظم الأشعار والأساطير الملحمية الموغلة فى القدم تعرض عددا من سمات أوائل الأسلاف أو الأبطال الحضاريين وأقدم الأبطال وأكثرهم شعبية فى ملحمة الونخو الياكوتية هو أر٠سوجوتوخ (ومعناه حرفيا : المعتزل) الذى يظهر كثيرا بأسماء أخرى ، وهو بطل يعيش وحده، ولا يعرف أى انسان ، وليس له أهل ، ومن ثم كان الاسم الذى عرف به ٠ وهو أول جد للجنس البشرى ٠ ويبحث أ ر ـ سوجوترخ عن زوجة لينسل بها البشر ٠ هذه الأسطورة محفوظة بالأكثر فى مجموعة التقاليد الخاصة بالجد الأول للياكوت ال ـ أ ر ـ سوجوتوخ الذى يبحر منحدرا فى نهر لينا قادما من المناطق الجنوبية الى الجزء الذى يقطنه الآن الياكوت ، ويعزى اليه اختراع الديموكور (استعمال الدخان لطرد الناس) وتربية الماشية ، وتقديم طقوس الربيع ، وعيد ايسباخ ، وتقديم أول قربان بلا دماء ، وهو « الكوميس » شراب مخمر تصنعه قبائل آسيا الوسطى من لبن الفرس) تكريما للآلهة آبى ٠ وهناك أبطال « معتزلون » آخرون لا يعرفون أسلافهم، ويعرفهم الياكوت ، منهم مثلا « يورنج أولان » وأول بطل من الأسلاف فى الملحمة البورياتية يشبه أ ر ـ سوجوتوخ ٠ وتوجد عناصر باقية من هذا النمط فى أشعار الطاى يذكر فيها فى البداية ان البطل لا يعرف شيئا عن أصوله ، وليس له أقرباء ، ولكن يتضح بعد ذلك انه وريث راع ثرى وأسرة أبوية ٠ ويقدم الرواة أحيانا تفسيرا منطقيا لهذه « الانعزالية » بأنها نتيجة لحالة اليتم ٠ وهناك فرض يشتق اسم البطل الكالمكى جانجار من لفظة معناها « معتزل » ٠ وفى الملحمة الياكوتية ، الى جانب البطل

المعتزل والجد الأول نمط آخر (مثال ذلك نبورحن بوتر ، وغيره) ، وهم أبطال أرسلتهم الآلهة السماوية الى الأرض بمهمة تطهير الأرض من مسوخ أباسى : (وهذا نوع آخر من البطل الحضارى) .

وفى ملاحم الشعوب التركية المغولية بسيبيريا زوج من الأســـلاف السلاليين الميتولوجيين ، يقيمون الحياة على « الأرض الوسطى » . وفى الملاحم البورياتية العتيقة، تتوسط الأخت لتتزوج أخاها الهه سماوية حتى يحيـــا الجنس البشرى أبد الآباد . وشخوص الأسلاف السلاليين الاول لها أيضا مكانة هامة فى أساطير « الأوسيت » حول النارت . مثال ذلك ساتانا ، وأوريزماج ، وهما أخ وأخت يتزوجان ، وكذا الأخوات التوأمان ايهسار ، وايهسارتيج « انظر شخوص ساناسار وبوحداسار ،وهما أيضــا توأمان ينسب اليهما تاسيس ساسون فى أقدم جزء من الملحمة الأرمينية القديمة) . ولأقدم أبطال الملحمة النارتية سوسروكو ملامح واضحة من البطل الحضارى .

وفى روايتى اديج وابخاز ، يحصل سوسروكو على النار ، والحبوب ، وأشجار الفاكهة ، يأخذها من المردة ويعود بها الى النارت . وهناك أيضا أسطورة يسرق فيها سوسروكو الشراب الأعجوبى المسمى « سانو » من أحد الآلهة ويعطيه للناس . وفى الرواية الأوسيتية ، لا يختلس سوسروكو « سوســـلان » من المردة نارا وانما يختلس بلدا دافئا ذا مراع خصبة لماشية النارت .

ونجد آثارا من فكرة الحصول على النار فى أقدم الأساطير الجورجية والأفخازية والأرمينية عن الأبطال الذين قيدوا بجبال القوقاز ، ولعل هؤلاء الأبطال أكثر من مجرد أشباه رمزين بالبطل الاغريقى الحضارى القدم بروميثيوس .

وملامح البطل الحضارى الخلاق واضحة أكثر فى شـــخص فاينامويننن المكاريلى الفنلندى ، والى حد ما فى « صنود » الحداد الخلاق « الماريتن » . أما فاينايتن فانه يحصل على النار من بطن سمكة نارية ، ويصنع أول قارب ، وينسج شبكة لصيد السمك ، ويخترع آلة موسيقية ، ويكون أول من يعزف عليها . وهو أول من يكتشف مادة توقف نزف الدم ، ويصنع مرهما يشفى الجروح ، ويحصل أيضا على « سامبو » العجيب وهو نبع فياض أخفته « سيدة الشمال » فى جرف ، ويؤدى أفعالا متعلقة بنشأة الكون: فيخلق نجوم السماء أو يستولى عليها . ويتشكل العالم من بيضة وضعتها بطة على ركبة هذا البطل . ولصورة فانباموينن ملامح شامانية قوية ملموسة بنوع خاص فى قصة زيارته لمملكة الموتى . وتعرض شخصية الاله « أودن » الاسكندنافى بوضوح المادة المصنوع منها . الى حد ما شخصية فانياموينن (البطل الحضارى الشامان ، ونظيره السلبى لوكى الشرير) . وقد سهلت هذه الصلة بين أودن وثور ولوكى وتقاليد الأبطال الحضاريين تحول هؤلاء الآلهة الى أبطال فى الملاحم التديمة .

وفى الملحمة الأكاديمية القديمة ، تحتوى شخصية انجيدو على آثار من أفكار عن الانسان الأول الذى خلقته الآلهة من الطين ، فى حين ان فى جلجامش نفسه عناصر من مركب الجد الأول / البطل الحضارى (مؤسس أوردك يحصل على غابة أرز ، وعلى بعض الأشياء الطقسية فى الرواية السورية) .

والحملات المشتركه التى يشنها جلجامش وانجيدو على الوحوش هى من الصفات المميزة للمنوعات التاريخية عن الأبطال الحضاريين (قارن هذا مثلا بالمقاتلين الجوالين مبيدى الوحوش فى الفولكلور الأمريكى « أخ من الوغم ، وأخ من الدغل ») . وهكذا تتمتع الشخصية البطولية فى الملحمة القديمة غالبا فى أنشطة « ثقافية » ، ومن ثم فهى تتمتع بهالة من السحر ، والسحر والخبث يخدمان البطل الى جانب شجاعته وقوته البدنية . واحتفظت الملحمة القديمة أيضا بالطراز الميثولوجى الخاص بالوغد والمحتال. وينتمى الى هذا النمط من الأوغاد المثولوجيين بالتأكيد « سيردون » فى الأساطير النارتية ، و « لوكى » الاسكندنافى .

ونجد أيضا وبسهولة طبقة ميثولوجيـــــة موغلة فى القدم فى الكثير من الملاحم الكوسيكية . يصدق هذا مثلا فى رامايانا الهندية ، وفيها يملك راما ملامح البطل « الحضارى » المكلف بابادة الشياطين ، ويذكرنا ببارنت وأبطال آخرين فى الأساطير الدرافيدية : ويصدق ذلك أيضا على « الجيسرياد » (وفيها أيضا مهمة مقاتلة الشيطان فى أربعة أركان الأرض تبعا للنموذج الكوزمولوجى ـ الكونى ـ القديم ، بل ان جيسر له بعض ملامح المحتال) ، وعلى « بيوولف » الذى له بعض ملامـــح الالباميش ، و « ماناس » و « داود الساسونى » ، والبليلينا الروسية عن فولك ـ فوجا (قارن الأغانى الاسكندنافية عن هلجا وغيرها .

وليست الملاحم المعروفة انها من أصل قديم وحدها ، ولكن أيضا الملاحم الكلاسيكية عن العالم القديم هى التى تعرض بوضوح طبقة تحتية من الميثولوجيا . وحتى اذا لم نكن نستطيع أن نقبل بالكامل النظرية التى تقول بالأصل الطقسى للملحمة الاغريقية فانه ينبغى لنا مع ذلك أن نسلم بأن الشعر الملحمى الذى أبدعته الحضارات الزراعيـة القديمة يستخدم على نطاق واسع أســاطير التقويم وهو نموذج لهذه الحضـــارات الزراعية . كنماذج لبناء الموضوعات والصور ، وقد أوضح جرنتزر أن الملحمة البابلية ، والأوجرية ، والاغريقية تحتوى على مركب ميثولوجى يتضمن لأول وهلة الموضوعات المستقلة الخاصة بأصل البطل الخارق (جلجامش » البندافى ، راما أخيوس، كيريت، وغيرهم) ورفض البطل حب أو عطف احدى الالاهات (جلجامش ، وايشتار ، آكات وأنات ، راما وسورناناهنا ، أرجونا وأورفاشى ، أودوسيوس وكاليبسو ، الخ) ، واختفاء البطل بادعاء الموت ، أو الموت الظاهرى ، أو النفى (أخات ، راما ، البندافى، كيريت، اخيلوس آودوسيوس) ، أو موت البديل الطقسى (انكيدو ، باتروكلوست ، رفاق أودوسيوس ، الباندافى المزعومون) ، واختطاف و محاولة اختطاف زوجة البطل (سيتا ، درافابادى ، هيلين ، بريزيس ، زوجة كيريت ، بنيلوبا) ، أو البحث عن

البطل والبطلة ، ويتضمن زيارة مملكة الموتى (راما ، البنـــدافى ، جلجامش ، أودوسيوس) وقتال الوحوش (الياكشا ، شياطين البحر ، خومبابا ، الخ) ، وأخيرا اجتماع الزوجين • ولا يمكن بالضبع تفسير كل شيء فى هذا المخطط فى ضوء الاحتفالات السنوية التقويمية فهى لا تفسر مثلا خطف النساء واعادتهن ، وهو موضوع رئيسى فى حكايات وأغانى البطولة لدى شعوب سيبريا لا علاقة له باحتفالات التقويم الزراعى هناك كذلك المعارك مع الوحوش فى كل من أساطير التقويم وأساطير التلقين ،والأساطير الخاصة بالأبطال الحضاريين ، وهلم جرا • ومع ذلك فلا مراء فى أن أساطير التقويم الزراعى بالذات هى النماذج الأساسية لملاحى العصر الكلاسى القديم •

والجدير بالذكر ان هيلينوسيتا كانتا مرتبطتين ارتباطا مباشرا بالميثولوجيا الزراعية وجدير بالذكر أيضا فى هذه المناسبة أن الكثير من أبطال الملاحم ، حتى ذوى النماذج الأصلية التاريخية متصلون بصورة محددة ببعض الآلهة ، وبوظائف تلك الآلهة ، حتى ان بعض الموضوعات أو أجزاء من موضوعات تستخدم « تيمات » الأساطير التقليدية ، ولو أن هذا لا يثبت أن التأليف الملحمى يستمد كلية من نصوص أسطورية وطقسية •

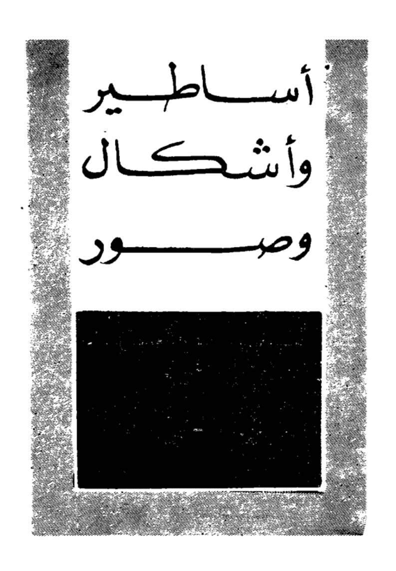
ويرى دوميزيل ان النظام الهندى الأوروبى الثلاثى للوظائف الميثولوجية (القدرة السحرية الشرعية ، القوة العسكرية،الخصوبة) والعلاقات التدريجية أو العدائيةالمقابلة لها ، القائمة بين الأرباب ، هذا النظام قد استخدم على المستوى « البطولى » فى المهابهاراتا ، وفى الأسطورة الرومانية ، وحتى فى الرواية الأوسيتية للأساطير النارتية والبندافى فى الماهبهاراتا ليسوا فى الحقيقة أبناء باندو العقيم ولكنهم أبناء الآلهـة (دارما ، فايو ، اندرا ، وأشفينى) وهم فى سلوكهم يكررون الى حد ما التكوين الوظيفى الملائم لهؤلاء الآلهة • ويبدو انه فى الامكان أن نجد بقايا هذا النمط التكوينى فى الالياذة نفسها حيث الأمير الراعى باريس قد اختار افروديت فجلب على نفسه عداوة هـيرا وأثينا اللتين تمثلان وظائف ميثولوجية أخرى ، ويستثير بذلك نيران الحـرب • وفى قصة الحرب المدمرة بين الباندانى والكاورافى تجرى أسطورة العالم الأخروى بصورة واضحة على المستوى الملحمى (قارن ظاهرة مماثلة فى التقاليد الأيسلاندية) • وعلى هذا يستقر الجوهر الميثولوجى أيضا فى الأشكال الكلاسية الملحمية • ومع ذلك فان هذه الأشكال الكلاسيه التى نمت فى حين تدعم التنظيم الدولى للشـعوب صاحبـة التقاليد الملحمية تشهد بحدوث خطوة كبيرة صوب « محو الطابع الميثولوجى » • فبعكس الملحمة العتيقة ، تقوم هذه الأشكال الكلاسية على التقاليد التاريخية ، وتسـتعمل بخاصة « لغتها » لتعرض أحداث ماض سحيق ، ليس ميثولوجيا ولكنـه تاريخى أو بالأصح شبه تاريخى • والفرق الأساسى بين هذه الأشكال الكلاسية وبين الملحمة العتيقة ليس فى مدى أصالة القصة وانما بالأخص فى « اللغة » التى تستخدم التسميات الجغرافية ، والأسماء التاريخيه للشعوب والدول والملوك والزعماء والحروب والهجرات وينتظم العصر الملحمى (العصر الميكينى ، وعصر منازعات الكورد ـ بانتشالا ، والكاورافى

والفتوحات الكبرى ، وامبراطورية شارلمان ، وروسيا الكييفية فى عهــد القديس فلاديمير ، وحكومة الاويرات الاربعة ، الخ) كما ينتظم العصر الميثولوجى النمط ، بعبارة أخرى كأنه بمثابة عصر أولى جرت فيه أعمال الأسلاف التى حددت مصائر العــالم ومع ذلك فالأمر لا علاقة له بخلق العالم وانما يعجز التاريخ القومىواقامة صروح الدول القديمة ، الخ ·

ويتحول الصراع الميثولوجى من أجل الكون وضد الخواء الى صراع من أجل الدفاع عن الجماعة العرقية ، والدولة ، و « الايمان » ضد الغزاة ، والمعتدين ، والكفار متمثلا فى بعض الأحيان بصفات ميثولوجية أو سحرية · وتختفى تماما الهالة « الشامانية » للبطل الملحمى وتفسح مكانها لعنصر جمالى بطولى وحربى ·

وبخلاف الحكاية ، لا ينظر الى الملحمة البطولية على انها قصة ، وبهذا المعنى يمكن المقابلة بين الأسطورة والملحمة من جهة ، وعلى درجة واحدة تقريبا ، وبين الحكاية من جهة أخرى ·

• • •



●● المقال فى كلمات

هذا المقال مقتبس من مقدمة لمجموعة من المقالات بعنوان : أساطير وأشكال وصور للكاتب نفسه سوف تصدر فى جزءين • ويتناول المقال علاقة العمل الأدبى ، وبخاصة الأسطورة والقصة والشعر الفنى ، بشكله وصورته وأسلوبه • ويؤكد على تحليل العمل الفنى والتعمق فى فكرته واسلوبه ، والبحث عما فيه من مجاز ورمز ، وعما يكمن وراء الصورة من أفكار وخيالات • ومن المهم جمع الظواهر التى من الأسطورة الى الحكاية الخرافية ثم الى الممارسة العقلية بقواعدها الشكلية • وتظهر الصعوبة عند الانتقال من المجموعات المسماة بدائية الى المجموعات العلمية التى تسودها الكتب ، وكشف أثر الكهانة والسحر وأعمال الشياطين فى عالم العلم والدين •

الكاتب : أندريه شاستل

ولد فى باريس عام ١٩١٢ ، خريج معهد المعلمين العالى ، شهادة الاستاذية فى الآداب ، ١٩٣٧ ، دكتوراه فى الآداب ، ١٩٥٠ ، مدير الدراسات (فى تاريخ عصر النهضة) بالمدرسة العملية للدراسات العليا ، ١٩٥١ ، أستاذ تاريخ الفن الحديث بالسوربون ، ١٩٥٥ ، أستاذ بكوليج دو فرانس ، ١٩٧٠ ، من الأعمال الرئيسية التى صدرت له : ليونارد دافنشى ، بقلمه ، ١٩٥٢ ، مارسيل فيشين والفن ، ١٩٥٤ ، بوتيشيللى ، ١٩٥٨ ، الفن والمذهب الانسانى بفلورنسا فى عصر لوران العظيم (لومانيفيك) ١٩٥٩ ، ١٩٦٢ ، رسالة ليوناردو فى التصوير ١٩٦٠ ، اوروبا والحركة الانسانية فى عصر النهضة (مع ر. كلين) ١٩٦٣ ، والفن الايطالى ١٩٥٦ ، عصر النهضة فى جنوب اوروبا ، والجران اتيلييه ١٩٦٧ ، وأعمال قادمة معلن عنها : أساطير وأشكال وصور ، جزءان ، ١٩٧٧ ، الصورة فى المرآة (مجموعة مقالات من لوموند) ١٩٧٨ ، نهب روما فى عام ١٥٢٧ ، ١٩٧٩ ٠

المترجم : أحمد رضا

مدير بالادارة العامة للشئون القانونية بوزارة التربية والتعليم (سابقا) ، ليسانس الحقوق جامعة باريس ، دبلوم القانون العام جامعة القاهرة ، صدر له حوالى عشرين مؤلفا مترجما فى القانون والقصة والمسرح والباليه ٠

ان ما يجذب انتباه المحلل والمؤرخ فى الأسطورة أو الخرافة هو النقط الرئيسية التفصيلية الغريبة ٠ وهناك توافق بين الصورة الشعرية والصورة التشكيلية حتى لتعتبر الأولى وصفا للثانية والثانية توضيحا للأولى ٠ وللدراسة الايقونات والرمزية يحسن قراءة الكتاب المقدس وكذلك هومر ، وفرجيل ، وأوفيد ٠ والنمط المقدس يضم فنا فى طياته ٠ وهناك ظاهرة انتقال الصورة والمجاز من النموذج المقدس الى النموذج العلمانى من أعلى الى أسفل ٠٠ هناك النمط الروحانى ، والنمط الدنيوى ، والتدرجات الطبقية فى داخل المجتمع ٠ و كلما كان العمل أكثر نقاء ازداد مع بعد المسافة احتمال خداعه ايانا ، وكل عمل تتراكم به مع مرور الزمن انحرافات وتدرجات وانزلاقات وسوء فهم ، لذلك ينبغى دائما تصحيح مسار التاريخ ٠ يبدو ذلك فى مصائر الفنانين أنفسهم وما يحكى عنهم من روايات ونوادر ، وكذلك فى الأعمال نفسها ، وما يطرأ عليها من تفسيرات خاطئة وتعليقات سيئة ٠

يتناول الكاتب بعد ذلك عدة موضوعـــات ذات صلة بموضوعه : ظاهرة الاستنســـاخ ، المتاحف ، فكرة الحياة اليومية وضرورة الاهتمـام بأشـــكال الحيـــاة اليومية التى أهملتهـــا التقاليد ، العلاقة بين الأعمـال المجـــازية وما نســـميه « العقليـات » العلاقة بين الفن والايديولوجيات. الاهتمـــام باللعب ، العنصر الانثروبولوجى • ويتحـــدث الكـاتب فى مقـــاله عن الصلة بين المهرجان والفن ، ثم يعقـــد مقارنـــة طريفـــة بين المهرجان وفن العمارة • كما يتحدث عن الخوذات والأقنعـــة ، باعتبارها فكرة ورمزا وشكلا وصورة ، وعن اللغة باعتبارها متعة نابعـــة من التلاعب بالألفاظ والتراكيب المزدوجة والمجاز • وعن المعنىوالمضمون فى الأدب والفن التشكيلى والغناء والموسيقى • وفى فن التصوير يذكـــر الحاح كتاب عصر النهضة والعصور القديمة والوســـيطة على أن تكون الصورة مطابقة للطبيعة • ومن رأى الكاتب أن ما له قيمة فى الانتاج الفنى هو الطريقة التى تتيح تراكب المعنى على الشكل • أما المشـــاهد فان له اسهاما تلقائيا ومن ثم ثقافيا كبيرا فى ان يصوغ فى ذهنه الفكرةالمتضمنة فى الصورة •

اذا رجعنا الى تجارب شبابنا ، أدركنا مدى القوة التى كانت تثير فينا الفضول والطموح • أما السرياليون فقد تعززت نزعتهم الانشقاقية بفضل المصادر الرومانتيكية وكل الرمزية التى يمكن تصورها ، حتى لقد عرفت أسماء « كلى » و « كاندفسكى » لأول مرة وبطريقة غير مباشرة بفضل هؤلاء السرياليين • وانفتح عالم الروائع ، وهو العالم الوحيد الذى يستحق الاهتمام ، انفتح فى مجال التصوير • وتلقى المحدثون من هذه الجماعة (أى السرياليين) : رالى ، وتانجى ، وماسون الجائزة الأولى فى مضمار الشعر ، ولكنهم تأثروا بنخبة من الرواد السابقين : أوتشيلو ، وبوشى ، ودورر ، وبليك ، وجوستاف مورو • والحقيقة اننا اذا اقتصرنا عـــلى فحص النمط الغريب أو الخيال ، أو الفاضح (مع التساهل) ، وجدنا أن هذه الأنماط قد احتفظت بطـابع المفاجأة ، وتداعى الأفكار العاطفية كما يتمثل فى النثر الرفيع لأندريه بريتون ، والنثر الأكثر مرونة لاراجون •

نرى الى متى تستمر فى الحديث عن أوتشـــيلو العجيب ، أو بيرو دى كوزيمو المطبوع بالهلوسة ، أو ارس جراف ذى النزعة الشيطانية ، أو كسبار بريدريس المصاب بالعصاب دون أن تثور فينا الرغبة فى « أن نعرف » عنهم الكثير ؟ لا يكتفى النـــاس بالقليل فى حين أنهم يطلبون الكثير ؟ و حين كانت النزعة السريالية سائدة فى الخمسينات حتى أصبحت القاعدة العامة على وجه التقريب ، لوحظ كيف خضعت الأشياء كلها ، بسذاجة يرثى لها ، لسحر الثورة والغموض • والشىء الذى كان مثيرا بالأمس لأنه غير مألوف ، أصبح اليوم ــ بنوع عجيب من القدر المحتوم ــ

متهما بطابع تقليدي حديث ، وبدا للعيان وكأن الشر قد انتصر بالفعل . وعبر عن ذلك بصدق روجيه كايوا قائلا ان الرائع والخيالي كانا يستحقان معاملة أفضل ، ألا يمكن أن يتم ذلك بانقلاب كامل يتولاه الاعلام والنقد التاريخيان . كيف نسمح مثلا أن تتعرض نقوش دورر الساحرة ، بسبب نقص التعليم ، وقلة الاهتمام ، الى تعليقات خاطئة ، في حين كان هناك في متناول الكافة اعمال يقال انها « علمية » في حين أنها تتصل بمشاهد خيالية أكثر اثارة للدهشة ؟

ونحن حين نتحدث عن الاسلوب ، يفوتنا في الكثير من الاحيان أن نضيف أنه لا غنى عنه قبل كل شيء في خصوص العروض التي نؤثر في نفوسنا تاثيرا قويا يستحق الدراسة وليس الأسلوب مجرد عملية آلية من عمليات التحليل والتصنيف التي ينبغي بنا أن نستخدمها في موضوع محايد : ففي كل الأحوال يجب أن يمتد الاسلوب إلى العمق الواقعي للعمل أو التصوير الذي يحرك مشاعرنا ، والذي يفخر بأنه لا يقنع باستجابة عاطفية أو متملقة . وفي رأيي أن بهذا المعنى كان تيسيان يتخذ أمام لوحاته وهو يعيد النظر اليها الموقف الذي يتخذه الانسان حيال « أعدائه الألداء » . وينبغي التحكم بدرجة كافية في الحذر من الجوهر اللامعقول أو المضطرب حتىلايضل الانسان في سياق المعلومات التاريخية .

وعلى ذلك انبثق عدد من الدراسات من الاهتمام ببعض الموضوعات الرائعة ، مثل « ملكة سبأ » ، أو الخيالية ، مثل « اغراء القديس أنطوان » ، وكلا العملين يقترن بأعمال مأثورة . فالأول يشكل الصف الأوسط من التسم المخصص للمرتلين بكنيسة مدينة ارتسو بريشة بيرو ديلافرانتشيسكا ، والثاني تصوير جيروم بوش بلشبونة (مقدمة للاورانجيري في عام ١٩٣٦) . والاثنان عولجا مع اهتمام خاص بالبحث عما يكمن « وراء » الصورة . وكان اختيار الموضوع يسود روح هذه البحوث ، غير انه رؤى من الضروري الكشف عن صفحات الشعراء أو الذكريات المدهشة التي أسهمت في خلق فتنتها . وفي البداية كان من السهولة للغاية تمييز بعض الحكايات والأساطير ذات التفاصيل الغريبة ، وباختصار كل ما ينتمي الى « الحكاية الخرافية » ، ذلك المجال العالمي الثابت للخيال الجماعي . ومع ذلك كان هناك أيضا تعريفات واضحة ، ومواقف متميزة ، وتصاوير كاملة محدودة ، أي توليفات من الأشكال التي يجب استكشافها . وكان أروع الأعمال تلك التي يتلاقى عندها المجالان ، ويتجلى فيها اسهام المبدأين . فهل كان من المستطاع اقامة منهج أو مشروع عملي من مثل هذه الحقيقة الواضحة ؟

وتخيل البعض منهاجا علميا ، قادرا على أن يتضمن كل تلك الظواهر التي تتدرج من الأسطورة الى الطقس ، ومن الحكاية الخرافية الى الممارسة ذات القواعد الشكلية والتي نسجت حياة المجتمعات البشرية التي تضم بلا شك مجتمعنا . وتظهر الصعوبة عند الانتقال من المجموعات المسماة « بدائية » والتي تلعب فيها الكتابة دورا زهيدا

أو لا تؤدى فيها أى دور ، الى المجموعات التى تسودها القواعد والقصص المتميزة والكتب • ويعتقد البعض ، فى شيء من التسرع أن هذه المقابلة تؤول الى مراحل تاريخية متعاقبة ، يمكن بالأحرى أن تتعايش حتى فى عالمنا هذا • ولكن ماذا يبقى من السحر ، والكهانة ، وأعمال الجن والشياطين •• فى مجتمعات يتقاسم آراءنا فيها العلم والدين ؟ كيف نتصور آثار الأساطير ونظمها فى قصائد شعرية ؟ وكيف يمكن تتبع تحولاتها؟ تلك مسألة تبدو عصيبه • هناك أعمال فتحت لنا الطريق فى هذا الخصوص ، كأعمال مؤلف « مترا – فارونا » • ومن فضل جيلنا الحاضر انه أدرك أنه اذا كانت المجتمعات التى لا تاريخ لها تملك الأسطورة ، فان المجتمعات التاريخية تملك •• التاريخ• ان الخفية الأسطورية تتكشف أولا فى بناء قصصى رائع ، وكذا فى شيء آخر • والشيء الذى يستثير الاهتمام هو التفاصيل الغريبة • لنتناول أسطورة « ملكة سـبأ » : فبلقيس هى الملكة التى لها قدم الأوزة،وعجزها ثم شفاؤها الاعجازى أتاح ربط شخصيتها بقصة « الخلاص » • هذه الملكة ، بقدمها الشعثاء تشبه الأبطال أو الآلهة فى الحكاية الخرافية الهندية الأوروبية ، ويتميز هؤلاء أساسا بأنهم عور أو عرج • ولا يكفى أن نقول : فى البداية كانت الحكاية الخرافية ، ذلك ان الحكاية الخرافية ، كالحلم ، توضح دائما التفصيل المدهش ، والتماثل المحير ، والسمة الرائعة التى تنطبع فى الذاكرة بقوة غير عادية • هذا الانطباع القوى هو من اكتشاف الخيال الجماعى ، هو الركيزة التى يستند اليها التطور الثقافى اللاحق عند ما يحاول اعادة تشكيل الحكاية الخرافية • كما يتجلى بوضوح فى الملف الصغير الخاص بأسطورة « ملكة سبأ » ان قلب اللغز ، تلك المفارقة الغريبة التى كانت بمثابة قوة دافعة خلف الأسطورة فى تلك العصور التى كانت فيها القصص أنماطا من المعرفة ، ذلك السر هو الذى استطاع أن يكفل بقاء الأسطورة فى قلوب من لا يحتفظون منها الا بشكلها الخارجى • وأخيرا فان نفس النقطة التفصيلية الغريبة ، كالسمة السلوكية غير المتوقعة ، أو موضوع الحلم ، أو الهفوة المتكررة تجذب انتباه المحلل النفسى ، وتنبه المؤرخ ، وتقدح زناد فكره •

ولنتناول تصوير الحداد والألم ، والبؤس ، والاستبطان ، والسوداوية • هـذا نموذج دقيق ومطرد ، نجده فى تاريخ الأدب كله – انه القالب النموذجى لفكرة «المخاب على اليد » الشعراء – وفى تاريخ الأشكال الرمزية • وفى أحد المخطوطات يبـــدو هذا النموذج على هامش المزمور الثانى والأربعين ، رقم ٧ وفى ميلانكوليا (الاكتئاب)

لدويد يجذب الثراء الواسع للنظرية السانورينية وهناك بين الصورة الشعرية والصورة التشكيلية توافق تام وقديم ، حتى لقد أصبح من المقبول اعتبار الأولى وصفا للثانية ، أو الثانية توضيحا للأولى • والصورتان تؤخذان معا ، ولا يمكن أن تعتبر احداهما مفتاحا للأخرى ، ولكنها تساعد على تفسيرها • هذا الاعتقاد أصبح ضربـــا من المصادرة ، وتعرض من ذلك الحين لمشكلة العلاقات الشفاهية / المجازية ، وأخذت

به الفلسفة اللغوية الجديدة : مشكلة اصطناعية أكثر مما يظنه الناس ، مشكلة سوف نناقشها فى عدة مناسبات ٠

والاصرار على التحليل يسبق المعالجة ، فيخلصها من العسف فى اختيـــار الأفكار ـ وذلك مع دوام اليقظة ٠ ويجب فى الوقت نفسه وضع مفاهيم التأثـــير والاستعارة فى دائرة الشك ، واعتبار فكرة الخلق ساذجة بعض الشىء ٠ وبالنسبة الى استمرار الأشكال فى الزمان والمكان ، يستطيع الانسان أن يكشف النقط الضعيفة فى المحاكاة ، والنقط القوية فى الابتكار ٠

ان سلسلة أنساب « الموتيفات » (الأفكار الرئيسية) وترتيبها هى قطعـــا وسائل وقتية ، غير أن هذه السيناريوهات الصغيرة مفيدة لتمهيد الطريق للوصول الى ثروة الأشكال التعبيرية غير القصصية ، ولفهم عمل « النموذج » فى بعض المراحل وقد رأى ا٠ر٠ كيرتيوس أنه من الممكن معالجة الأدب الغربى كله على أساس نماذج المكان والخطة التى دأب على استغلالها ونشرها ٠

ولقد تساءل بعضهم ذات مرة عن أحسن كتيب فى الأيقـــونات والرمزية ٠ والاجابة على ذلك معروفة : اقرأ الكتاب المقدس ٠ وبالاضافة : اقرأ هـــوميروس ، وفيرجيل ، وأوفيد ٠ ربما تتاح الفرصة للاحاطة بينابيع المعرفة نفسها التى نحـاول أن نتعمقها ، وذلك طبعا بشرط أن نهتم بطفراته (أى الكتاب المقـــدس) الدائمة ، ونفهم كذلك أن هذه النصوص الكنسية مزينة ، وهى حتما مزينة بما اصـــطلح على تسميته بحق « الأوصاف اللاارادية » المأخوذة من نسيج الأحاديث ٠ « وحينما يقول النص ١٣ من المزمور العاشر ٠

« لماذا أهان الشرير الاله ٠ لماذا قال فى قلبـــه لا تطالب » فانـــه يصـف الهـــا أو بطلا بابليا ينتصر على حيوان أو زوج من الحيوانات ، يخرج منه فيما بعد صـورة القديس ميشيل وهو يصارع التنين ، و « الفضـــائل تتغلب على الشر » الخ » (ا ٠ بانوفسكى) ٠ وتتبدى الموتيفات منذ البداية فى نص مزدوج ، نص شفاهى ونص مجازى ، علة ذلك ببساطة أن الشعر التوراتى ، أو الشعر القديم مجازى ، وأن النماذج القديمة رمزية ٠

هذه الروابط الطبيعية أصبحت غريبة فى نظرنا ، مع تقدم حضارة الكتاب ٠ غير أن ما أبعدته المعرفة الواقعية عن بصيرتنا التلقائية هو انطواء الفن فى النمط المقدس ٠ واذا نحن ألقينا مع هذا العالم نفسه نظرة الى أصل فكرة الحيوان الذى تطأه الأقدام نجد أن « الحيوانات التى تشكل موطئا لاراحة أقدام الفرســـان والأمراء والمصورة على بلاطات قبور العصور الوسطى ، لم تكن فى الأصل معبـرة عن صـفات المتوفى الحميدة ، وانما هى رموز للشر الذى تقهره الروح الخالدة » ٠ انه المسيح ، أو العذراء ، أو القديسون الذين يرتفعون فوق صورة الوحش المقهور ٠ ان « الأعلى »

هو الذي لابد أن يسبق « الأسفل » ٠ وفي مرحلة رابعة فقط « فسر الأسد الذي ورد ذكره في المزمور التسعين على أنه رمز للقوة » ، فاستقر عند قدمي الفارس ، في حين قبع الكلب الذي يرمز الى الاخلاص بين الأزواج عند قدمي السيدة النبيلة ٠ هـذا سياق معقول للغاية ، ويمكن تبعا له تصنيف مجموعة كبيرة من الاعمال المتفرقـة تصنيفا بارعا : وهو مثل بسيط نوعا « للأنساب الشكلية » ٠ والحقيقة مع ذلك أنه لا يوجد على الكثير جدا من بلاطات القبور أي رمز أو دعامة تحت أقدام الشخصية ٠ ويصدق هذا الشرح فقط في نطاق النماذج ، و أكثر من ذلك لا يجوز أن ينسينـا سلسلة الابتكارات ، وهي أعمال جزئية حقا ، تنقلنا من الصورة المقدسة العمودية الى الصورة الدنيوية الممددة ٠ ويتضمن التعديل تحريفا ، يتركنا مع سؤال لا مفر منه ، ونعله وهدى ، يتردد على شفاهنا عن المسئول عن هذا التحريف ٠ ويميل التاريخ المنهاجي الى اغفال هذا السؤال ، ولكنه مخطيء في ذلك ، لأنه اذا كان استمرار المجموعـات يكشف عن عنصر انثروبولوجي ثابت يدعمها ، فان الانحرافات والانشقاقات تشير الى نقط التحول التي تظهر فيها قوى أخرى ٠ ان ظاهرة انتقال التصوير والمجـاز من النموذج المقدس الى الدنيوي ، أي من الأعلى الى الأسفل يحملنا على التفكير في الموقف من وجهة نظر أكثر شمولا ٠ وتتعلق المعلومات اللازمة بثنائية النمط الروحاني والنمط الدنيوي ، والتدرجات الطبقية في داخل المجتمع ، وهي تعرفنـا بحدث واحد ، لا بالمجموعة كلها ٠ وعلى هذا تتطلب الميثولوجيا (علم المنهج – المنهجيـة) أن نضع المواقف الخاصة بين قوسين حين نكون المجموعة ، وأن نضع المجموعـة بين قوسين حين نعالج الأحداث البارزة ٠ ان السابقة توضح العادي المبتذل ، والاثنان يوضحهما الاستثنائي الرائع ٠

★ ★ ★

كل بداية تنتهي الى نتيجـة ، وكل فكر يتحقق،وكل عمل ينجز ، كل ذلك يتطور بنوع ما خارج نفسه ٠ وفجأة نرى كل ذلك من الخارج ، ثم لا نراه بعـد ذلك في أية صورة اخرى ٠ عندئذ يبدو كل شيء مقبول غريبا ، ويشك في صحـة المقاصد كل من لم يشهد بدايتها ٠ وكلما كان العمل أكثر نقاء ، ازداد مع بعـد المسافة احتمال خداعه ايانا وحيرتنا من أمره ٠ ولا يبقى أي عمل دون أن تتراكم به الانحرافات والتعرجات والانزلاقات وسوء الفهم ، مثل الزنجار (أكسيد البرونز) الذي يغطي عمل الانسان ٠ وهكذا ينبغي دائما تصحيح التاريخ من أخطاء السياق التاريخي : فالتاريخ الأقرب الى العقل والصدق ، ينتهي بأن يعتبر مجرد حـدث يتألق لحظة ، ثم ينطفيء بريقه ، حتى يأتي من يذكي لهيبه ٠

يتجلى هذا في مصير الفنانين ٠ فهناك في أصل نشاطهم ، طموح ايجـابي ، ورغبة قوية في أن يعترف الناس بهم ٠ فاذا هم لم يعملوا شيئا لاكتساب الشهـرة العاجلة ، بدافع من الكبرياء ، فان عزلتهم هذه خليقة بأن تعزز هذه الشهـرة فيما بعد ٠ واذا هم أدوا دورهم العام بكبرياء أو دلال أو كياسة ، ازدادت الحكايات

والمبالغات بشأنهم مع ازدياد شهرتهم ، والتصقت بعض الاساطير بأسمائهم • وتبدو لنا هذه الحقيقة على جانب من الأهمية ، ويجدر بنا أن نعمل جاهدين على دراسة موضوع الشهرة هذه • ان « انحظ الحرج » بالمفهوم الايطالي انما يشكل صورة من التقلبات والظلم والتقديرات الانفعالية بقدر ما يتضمن أحكاما انتقادية • وليس ثمة شيء أحسن من هذا يكشف عن حقيقة أننا نعيش في عالم من التحزب والتعصب مع عروض وضروب من الافتتان والزهو تجتاز الاجيال المتعاقبة دون عائق الى أن تتلاشى مع الاهمال • غير أن صيانه الجمهور لهذه الاعمال ، وحرص الهواة عليها ، أو على العكس من ذلك اتلافها ، أو حتى تدميرها ، انما تتوقف على التقلبات التى تطرأ على عقلية الجماهير •

أما بالنسبة الى الأعمال نفسها ، فليس ثمة شك فى فداحه الاخطاء والتعليقات السيئة والتفسيرات الخيالية الغريبة التى تصاحب هذه الأعمال والتى يجب تخليصها منها • والغموض هو وحده الذى يحميها من مثل هذه المساوىء ، ولكنه يعرضها فى الوقت نفسه للتداول الكثير والتلف • ويثور فى نفوسنا فضول شديد عند التفكير فى الكمية الهائلة من الأشياء الدقيقة الصنع ، والتصاوير ، والمنحوتات التى تتراكم بلا حدود فى الأقباء الشاسعة التى تضم الكنوز العامة أو الخاصة التى تنتمى الى حضارتنا • والتراكم من خصائص الجنس البشرى المتأصلة فيه ، وهو الباعث على أعمال الترميم العظيمة ، وعلى عمليات مريبة • ومن الاشياء التى لا يتسنى فهمها جيدا فى الوقت الحاضر ظاهرة الاستنساخ التى سنحت لنا فرصة شرحها قليلا• وأكثر صور الاستنساخ شيوعا انتاج الأعمال المزيفة التى تدل بطريقتها على بعض ألوان المعرفة • وهناك أخيرا ظاهرة كبيرة لم نكف منذ أربعين سنة عن التفكير فيها ، تلك هى المتحف بضخامته الطاغية • فهذه القطع التى تشهد فى الكثير من الأحيان بمجد العالم كله وأحيانا بغرابته ، والتى تولدت من العاطفة • كما أشعلتها بدورها ، تدخل الواحدة بعد الأخرى فى هذا المكان العصرى المبجل ، « المحايد من وجهة التاريخ، والذى لا معنى له من حيث المكان » (ج• كرمان) • والمتحف ، اذ يلغى الحدود المكانية والزمانية ، يؤكد الأشياء نفسها • ومن الأهمية بمكان أن نتصور هذا النظام الذى يعكف على اقامة الأبعاد المفقودة كما كانت قبلا ، وليس فقط تطوير الأبعاد التى توحى بها هذه العزلة ، وفى هذا تتجلى صعوبة تاريخ الفن كلها •

وبقراءة ما كتبه مؤرخونا ، يتبدى لخاطرنا أحيانا أن العصور والمجتمعات السالفة لم تفقد بالنسبة الينا ، وأنها لا يمكن أن تضيع ، ولعلنا نعرف عنها أكثر من اللازم ، وأقل من اللازم فى وقت واحد • واذا نحن فتحنا أبصارنا وبصيرتنا بأوسع ما نستطيع تجلت المعارف الهائلة التى تملكها ذاكرتنا وتختزنها بحرص شديد ، على آفاق مثبطه ، عبر عنها عالم بريطانى بصدق اذ قال : « يتكون الجزء الأكبر من الحياة التى نعيشها حاليا من تفاصيل دقيقة ، وخبرات لم يذكرها أحد ،

ولعلها غير قابلة للذكر ، ولم يسجل أى شىء عنها ٠٠ » (ك ٠ س ٠ لويس) ٠ أما التاريخ فانه يجمع الاشياء التى تظهر وتبين ، وكلما أمكن التقاطها ٠ ومجموع هـذه الأشياء هائل ، تدور له الرأس ، ولكنه مع ذلك غير مناسب مع مجموع الافكـــار والخبرات التى يملكها الجنس البشرى ٠ وليست هذه الحالة عقيمة ، ولكنها تدعونـا بالأحرى الى أن نعطى مزيدا من الاهتمام الجدى بأشكال الحياة التى أهملتها التقاليد ، ولا نحبس أنفسنا فى النظم السياسية ، أو الممارسات الاجتماعية أو وســائل الانتاج ، تلك التى بنيت عليها تصوراتنا التاريخية المتزاحمة ٠ واذا نحن نبذنا (على أسس منهاجية) من تبسيطات ، بل وقلبنا نظراتها الاجمالية حتى تظهر أوضاعـــه محددة بوضوح ، فانا نرى فى ضوء آخر ظهور كتل من المعلومات أدمجت على عجـــل فى البناء العام ٠ ان فكرة « الحياة اليومية » مثلا تكشف عن مجال الوجود كله ، وهى توجهنا نحو دائرة ما هو تلقائى وحيوى ، وما لم يعبر عنه ، وما هو ضمنى ٠ هـذه الحقيقة قد استغرقت قسما كبيرا من البحث التاريخى الجـــديد ، فأتى بنتائج عظيمة شهدت بها أعمال لوسيان فيبر ٠ لقد نسى الناس كل شىء عن الجوانب الواقعيـــة للحياة والموت ، وعن النسل ، والعادات ، وتيارات الزى وقوانين الذاكرة ٠ وبالغاء الفواصل ، تتاح لنا حرية ترتيب الوثائق واعادة توزيعها بكيفية يمكن معها الحصـــول على شىء مختلف عن سلسلة الوقائع المعتادة ، فيمكن على سبيل المثال ربط تاريخ الطب بالفن الجنائزى ، ومغامرات البلاط العاطفية بالأسطورة ، وسيكولوجية الهزيمة بعلم التنجيم ٠

ترى أين تظهر ضروب التلف ، والتبسيط ، والانزلاق المشوه التى عكفنـــا على التنقيب عنها ؟ انها تظهر من حيث ان الأعمال لا تنسب دائما وبالعناية الواجبة الى الأوضاع الحقيقية التى تنتمى اليها ، ولأن هذه الأوضاع قلما تستبين بوضـــوح قبل أن نوليها اهتمامنا ٠ وبدلا من أن ننسج على مهل الخيوط المبعثرة فانـــا نربط بين العمل وبين مفهوم معين عند الانسان أو المجتمع الذى ينتمى الى كل عصر على حدة ٠ ولكن هذا افلاس ولا ريب ٠ فالفن ، أداة الرموز يجب بطبيعة الحال أن يدرس جيدا من هذه الوجهة ٠ ومن الضرورى للغاية ملاحظة العلاقة بين الأعمـــال المجازية وبين ما نسميه اليوم « العقليات » ، فكل منهما يوضح الآخر ٠ ولكن العلاقة بين النشاط الفنى وبين الايديولوجيات مسألة مختلفة تماما ٠ وليس عبثـا أن نربط النشاط الفنى بالعديد من مظاهر الرغبة والمتعة فى داخل الانشطة المخصصـــــة لاشباع الحاجات الرئيسية ، وأحياناً ضد هذه الانشطة ٠ وبهذا المعنى يرتبط عمل المصورين والمزخرفين والمهندسين الذين أثاروا اهتمامنا ، أكثر مما قد يبدو لخاطرنـا لأول وهلة ، بأساليب اللبس واللعب والرقص والاستخفاء ، والهـدايا ، والحيوانـات الأليفة والمواكب ، والغناء : واجمالا لمجموعة المعطيات المنتمية الى « اللعب ومتعلقاته» كما عبر « هويزنجا » بشىء من التفخيم ٠ وذخيرة الحكايات والنوادر فى هـــذا الخصوص لا تنفد ، ابتداء من دوناتيللو أو ليوناردو ٠ لماذا نتردد اذن فى التســـليم بأن العمل « الجدى » بالمعنى الفاتر لهذه الكلمة لا يستوعب الفن كله ؟ حقا ان محاولة

هويزنجا حقن اللعب فى كل مظهر من مظاهر الثقافة قد أخطأت المرمى ، ولكنه لم يكن مخطئا حيث أراد أن يظهر ، فى مقابل التاريخ السائد « زى البعد الواحد » العنصر الأنثروبولوجى الذى ينبغى أن نستحضره فى هذا المقام . والمجال الذى يتبدى فيه هذا العنصر فسيح ومنوع للغاية فلا يمكن تعريفه : ومع ذلك فمهمة المؤرخ أن يعيد تحديد هذا المجال ، لا أن يخفيه فى القوالب الايديولوجية . وقد كان بول فين موفقا كل التوفيق حين استخلص تلك الطبيعة الاساسية للمجتمعات القديمة ، والتى تتمثل فى الانفاق الاجبارى على المنشئات الضخمة ، أو التبرع بالأعمال الفنية، أو توزيع المنتجات النافعة بالمجان . وكل هذه مبادرات يقوم بها كل انسان طموح . هذه الممارسة التى أصبحت شبه نظامية لا تغطى الا جزءا فقط مما نبحث عنه ها هنا ، ولكنها فى مبدأ ما نسميه فى شىء من اللامبالاة « رعاية العلوم والفنون » فى عصر النهضة ، والعصر الكلاسيكى . وعلينا أن ننظر بمزيد من الوضوح فى هذا الاتجاه .

وقد لوحظ فى الندوات التى نظمها جان جاكو منذ وقت مضى ، أن هناك الكثير من المعلومات التى لا تتطلب أكثر من استخلاصها . ولم يستفد أحد بقدر كاف من نيتشة أو بوركهارت : فلم يدرك أحد معنى فوران السريالية ويرجع اعادة اكتشافها الى التدهور الذى أصبح ملموسا بصورة متزايدة فى أخلاقيات وعادات الحياة الاجتماعية فى عصر الصناعة . ولا شك أن هذا يبرر العسف والتخبط فى بعض العلوم الاجتماعية ، وأيضا علوم اللاهوت الحديثة التى خلطت فكرة « العيد» (أو المهرجان) ووسعتها بصورة خطرة . ومن الظواهر البارزة فى أواخر القرن العشرين تلك الصلة الواضحة بين هذا العنصر وبين الحياة الفنية . فثمة جماعات ، بل وشخصيات قوية تتنافس ، أو تريد أن تتنافس على النهوض بالمباهج المسرفة أو المخربة التى يستثيرها المهرجان ، وكأن نشاط الفرد يمكن أن يعوض عن تقصير الجماعة . ان حياة الفنان كانت ولم تزل دواما تنزع الى مظاهر الترفوالانحراف ، بل وأيضا الشطط . وأعمال مؤرخى عصر النهضة حافلة بكل هذا ، وكذا سجل المؤرخين المحدثين .

ولا يغرب عن البال ان المهرجان أو « العيد » يفترض تناوب يوم العمل ويوم عطلة حتى يمكن تفسير المنحة العاطفية التى تتضمنه . واذا نحن تمسكنا بهذه الفكرة لدرجة أن نجعل منها سمة أساسية ، فانما نفعل ذلك لا تمشيا مع العرف السائد فى الوقت الحاضر والذى يجعل هذه الفكرة أخيرا مشكوكا فى صحتها وعديمة الفائدة ، وانما بالأحرى لاظهار الطريقة التى دأبنا على استخدامها فى أبحاثنا خمسا وعشرين سنة . وهناك سلوك جماعى واحد ، أقل نقاء وأصالة بكثير مما قد يخطر على البال ، يتيح لنا على ما يبدو أن نحدد أسلوب الحياة النفسية التى نود فى النهاية أن نقرن بها مظهرا أساسيا فى الحافز الفنى . هذا هو المظهر الديونيسى» (أو الباخوسى نسبة الى ديونيسوس ، أو باخوس ـ المترجم) ، مظهر اللامعقول

المنبسط ، الجنون الواعي • فضلا عن ذلك فان هذه الظاهرة حين يمكن ملاحظتهـا بكليتها ، كما حدث في القرن السادس عشر ، تبين بوضوح كيف أنه يحـدث عن طريق « الانفاق ببذخ » ينطبع كل وجه من وجوه المجتمع في الوجوه الأخرى • والمهرجان ، من الوجهة الاقتصادية ، يمثل خسارة ، وهو من الوجهة السيكولوجية ، تحرر واسترخاء ، واباحية ، ولكن فيه دور لكل انسان يؤديه • علينا لذلك ألا نتعجل كثيرا في اعتبار المهرجان دراما نفسانية (سيكود راما) هدامة بسبب ما فيه من فجور أو أنه مجرد تظاهر بالسـلطة بسبب مظهره النظـامي والاعلاني • والحقيقـة أن المهرجان لا يعلو على الدين أو السياسـة ، وانما هو جزء منهما ، يسهم في التعريف بالعبادات والصلات العاطفية أو التغيرات المقصودة • وهو انقطاع ، بمعنى أنه يعطل الوقت الجماعي ، ولكنه ليس صخبا فحسب • ينبغي اذن أن نطرح كل المفاهيم الفجة ، ونقترح تفرقة بين المهرجان ، والاحتفال ، والمسرح ، بالنظر قبـل كل شيء الى « موقفها » أي وضعها في الحيز الفضائي •

واذا كان المهرجان رمزا موضوعيا للسلوك الفني ، فان فن العمارة هو عنصره المكمل • والحقيقة أنه لما كانت العمارة ، حسب تعريفها ، ذات طبيعة اجتماعية ، فانها تشكل النموذج القياسي لكل انتاج ذي موضـوع فني • وفي الامكان أن نتأمل الى مالا نهاية في القيمة الوجودية لفن البناء • اننا نعيش في أحضان دنيا واسـعة منظمة ذات طبيعة لا يمكن لأحد أن يتجاهلها سواء كانت هـذه الطبيعة باطلة أو ناقصة ، أو حسنة • ونشهد التجارب العديدة التي لا حصر لها والتي أجرتها البشريـة في هذا الحقل بمدى أهمية هذه الحقيقة بالنسبة الى المجتمعات كلها • وليس ثمـة مجتمع من تلك المجتمعات التي جعلت من العمارة حضارة ، أدرك الحرق والفجاجـة اللذين يمتلىء بهما عصرنا الحاضر • كان فن العمارة في عصر النهضة يلقى كل حفاوة وتبجيل ، ولم يتردد « فيلاريت » في أن يقرن هذا الفن بالليبيدو ، متحدثـا عنـه على أنه « لذة تماثل اللذة التي يشعر بها العاشق » ، وهكذا يصف هذا الانتقـال الى العالم الخارجي ، هذا الاسقاط خارج الصورة الذهنية ، الشبيه بمولد جسـم ممدود ، وأمكن ايضاح أن استعمال « الجسم » مجازا أصبح ضروريا من اللحظة التي تبين فيها أن النشاط المعماري غير محدود بالمشروع الأول ، « بالفكرة » (ف•شوای)

وهكذا فالأمر ليس مجرد « مجسمة » (أو مشبهة ، معيارية انسانية : كل مذهب يفسر الظواهر الفيزيائية والبيولوجية بمعان مرتبطة بالظواهر الانسـانية ـ المترجم) أو مركزية بشرية (تعتبر أن الانسان حقيقة الكون المركزيـة ـ المترجم) ساذجة ، تصور بابراز أطراف جسم الانسان كأنها أطراف معمارية ولكنه مجـاز تطور الى أقصى الحدود • واهتمت كتابات ذلك العصر دائما بأسـاليب الحرفة ، والمعلومات العملية عن النسب والمسائل السرية القاصرة على فئات خاصة ، مثـل ملاحظات باتشيولي عن الشكل ذي الاثنى عشر وجها الذي يحيط بصدر الكنيسة • أو ملاحظات أسطورية ، كالاشارة الى سفينة نوح أو معبد أورشليم ، أو مجـرد

ملاحظات تمويهية ، كما يشار الى عقد على انه « كولبزيوم » لحفز الانتباه • معنى هذا ان فن العمارة القديم يتطلب معرفة تامة بالسيمية (علم معانى الألفاظ ـ المترجم) ولقد حاول البعض اثبات ذلك بالنسبة الى معالجة « السلم » ، ولعل السلم هو العنصر المعمارى الذى هبطت أسهمه أكثر من غيره فى القرن العشرين ، وكان فيما مضى أهم العناصر المعمارية فى التنظيم الداخلى والشكل الخارجى ، كما شادت بذلك صراحة عبقرية بالاديو • وفى التجارب المترددة لبناء القصر الملكى بنونتنبلو . نرى كيف أن القيمة التصويرية لسلم ضخم يمكن أن توحى بمبادرة خرقاء تنتهى بالاخفاق •

المقابلة بين المهرجان والعمارة بين ما هو زائل ، وما هو باق دائم ، بين التبديد والمنفعة ، هذه المقابلة ليست حاسمة ، ولكنها تتيح لنا على الأقل أن نحصر النشاط الفنى من الخارج • ففى الممارسة الاجتماعية ، يتطلب المظهران (المهرجانوالعمارة)، تحت ارشاد كبير العمال ، أو المهندس ، تعاون جماعات مهنية متنوعة للغاية • فليس هناك مهرجان من غير عمل جماعى ، كما أنه ليس هناك بناء بدون موقع عمل •ويتجلى لنا للفور روابط متعددة ، وصلات متشابكة • فللمهرجان برنامجه الأساسى الدائم ، وللبناء مظهره الذى يزهو به • والأبنية ، كما أشرنا من قبل ، قابلة للتبادل : فالأروقة والعقود تقام كمداخل للمهرجان وبعض الافنية الداخلية بالقصور تبدو كشرفات مسارح •

وتساءلنا عندئذ عما اذا كان فى المستطاع على هذا الأساس الحصول على مخطط تحليلى لجاذبية الأعمال النابعة من انتاج الروائع التى وصفها ميشيل ليريس بأنها « تلك التى تتجاوز المألوف ولكنها لا تتحول الى شىء شاذ » • ان المدينة التى تحتفل بعيد ، تقدم فى هذه الفترة مجتمعا « آخر » ، وهذا المجتمع الآخر هو المجتمع الحيوى، ولكنه يقترن بمجموعة من المشاهد والتصاوير الخيالية ، فى بهجة ومرح ، ومع بعض التنكر • وبعبارة أدق ، تطبع « معدات المهرجان » المدينة بسمة خيالية ورمزية قوية ، تجعلنا نتصورها بالنسبة الى نماذج رمزية • قصارى القول ، هناك صلة بهيجة ، وتوافق مثير بين النظامين المتعايشين ، بين المجالين ، المألوف والخيالى السائد بعض الوقت، • كذلك يتضمن البناء ، أى الجسم المعمارى « توافقا » ولكن بمعنى مضاد • لقد أصبح المشروع الخيالى حقيقة واقعة ، وقطعة الفضاء الجديدة التى تطورت بزخارفها وعناصرها أصبحت لمن شهد مولدها بمثابة قصة خيالية تحققت • وتقدير هذا المبنى يكون بتعميق الشعور بوجود توافق بين الصورة الذهنية التى شكلت النموذج وبين التجربة الحية التى رتبت الفضاء المعمارى الذى أصبح حقيقة واقعة •

هذه المعالجة العقلية التى تعمل على ضم «الخيالى» (أو المرغوب فيه) الى «الواقعى» (أو النافع) ومزجها فى عمل واحد هل يمكن أن تصير مبدأ يحدد أسلوبا

كشفيا ؟ نجد هذه المعالجة العقلية فى مظاهر فنية لم يعد لها سوى صلات بعيدة تربطها بالأنماط العليا من المهرجان والعمارة ، ومن هذه الوجهة نظرنا الى الخوذات والأقنعة • فالخوذة على الرأس تعنى الحرب ، حرفة الأشراف الاقطاعيين المعروفة،وحين توضع جانبا ، تعنى السلم والمجاملة • وليس ثمة شيء بلا معنى فى تلك القلنسوة المعدنية • والخوذات الحربية تشبه الخوذات الاستعراضية من حيث زينتها حسب الزى القديم والأشكال الرمزية على ريشتها • وأخيرا فان فى مجموعة الخوذات التقليدية (الزائفة) بزيها الذى يمكن تتبعه الى أصوله ، تصير العناصر معبرة بانتشار العلامات الحيوانية ، وليونة التكوين ، فى مجموعة مطبوعة بنزوة خيالية معززة بروح الفكاهة •

هل يمكن أن نعمم ظواهر التداخل المقصود هذه ، هذه الأشياء « ذات الطريقين»؟ لقد عرفنا فى اللغة منذ زمن بعيد ، فى نطاق كل من الشعر والحديث التلقائى ، تلك المتعة التى تنبع من التلاعب بالألفاظ من التراكيب المزدوجة ، من أسلوب المجاز المختصر ، ومن هذا تنطلق الفكاهة ، كما فى مثال الخوذات الذى ذكرناه ، وكذا فى أروع مظاهر اللغة المهذبة كما يتجلى فيما بقى لنا من تراث نتدارسه • ان المعنى الذى يدور فى ايقاع ذى نبرات مصطنعة هو جوهر الشعر الكلاسيكى : فالتفعيلات والقوافى تفتن الألباب بالحركة المتبادلة بين الشكل والمعنى • وقد تردد مثل ذلك بدقة ومهارة ، من فاليرى الى ياكوبسون • ولنستفد من ذلك ، مع مراعاة أن الصلات تنعكس بصورة عامة حين ينتقل الانسان من الأدب الى الفن التشكيلى ، ومن الغناء الى الموسيقى الموسعة ، بمعنى أن المعنى يسبق المضمون • ان ادراك الوسائل والغايات ، والمعنى والوسيط فى وقت واحد ، يقوم فى هذا الخصوص على « وهم مقبول » يمكن تقديره ، لا سيما أن تنسيق الأشكال يجعله محتوما • ويبدو لنا تكنيك « الانتارسيو » (الفسيفساء الخشبية) ، وفيه تشكل مجموعة من القطع الخشبية الهندسية صورة منظورة نموذجا يقتدى به فى هذا الخصوص •

ونحن لم نبتعد كثيرا عن مواصفات كل أنماط التصوير ، ذلك أن الحاح كتاب عصر النهضة (وكذا كتاب العصور القديمة والعصور الوسطى) ، وهو الحاح ممل بنوع ما ، على ضرورة أن تكون الصورة الناتجة مطابقة للطبيعة لا يستبعد الشعور بالغرابة والتناقض فى العملية • بل انه ليس ثمة ما يمنع من الظن بأن عبارات المديح التى تشيد بصدق الصورة والمنظر يقصد بها أن تغفل عن حقيقة

الابتكار · ولنتأمل فى فقرة غير معروفة كثيرا من بوكاشيو لابد أنها تشير الى بعض لوحات جيوتو ذات الموارد المحدودة نسبيا : « ان ما يستهدفه المصور هو أن تكون الصورة التى ليست الا ألوانا قليلة موضوعة على لوحة (···) مشابهة للشكل الأصلى (···) حتى تنخدع بها عينا المشاهد ، كل الانخداع أو بعضه » (تعليق على دانتى) · ويفسر هذا كل شيء عن « الوهم المقبول » المطلوب فى التصوير فثمة قطعة من خشب مغطاة بالألوان تتحول الى صورة بعملية بسيطة بقدر ما لها من تأثير لا يقاوم ، كان المصورون فى كل العصور يعرفون قوتها وقواعدها العرفية· والمسألة ببساطة هى أن كل جيل يحدد معيار « الصدق » ، أى درجة المقبولية :ونرى هذا فى كل مرة يتاح لمصور أن يرسم فى لوحته زميلا له وهو يباشر عمله ·

ان توافق تصويرين متباعدين فى الزمن أحدهما عن الآخر ، بعدا نسبيا ، أو أحيانا كبيرا ، ينمى الحدث الصغير فى المخيلة عن طريق رمز ثنائى · وعلى هذا النحو قدم سينوريللى فى أورفينو ، بناء على توجيهات أصدقاء ميديتشى صورة للمسيح الدجال وهو يعظ ، واستعار معظم تقاطيع وجهه كيفما اتفق من سافونارول الذى احترق منذ ثلاث سنوات · ومن ثم فهناك تفسيران محتملان · ومثل هذا الرأى يرجع الى سعى دائب ، يسهل توضيحه ، الى تراكب المعانى ، مما يمكن أن نسميه « أسطورة فوق أسطورة » أو « معنى فوق معنى » · وتوضح صور ديان دو بواتييه وهى من نماذج التصوير المجازى هذا المعنى فى مجال آخر : فالتوافق هنا ، أو الطريق الثنائى ليس اضافة ممتعة الى التكوينات وانما هو « علة وجودها » الحقيقية ·

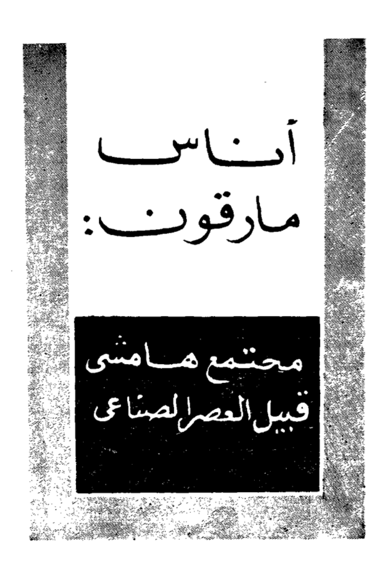
ولهذه المعالجة أهمية رئيسية ، فلا بد من الاحتياط دائما بالسؤال عن « المعنى المزدوج » المحتمل قبل الاحتياط باستبعاد الخواطر الطفيلية التى قد تتداعى فى الذهن · ان فن تفسير الايقونات لم يزل ينتظر قواعده ، وسوف ينتظرها طويلا ، ذلك لأن المدونة (أو النظام الشفرى) ليست كتابا فى تفسير الأحلام ، ولكنها بحر نجى يغوص فيه المؤدى ليبهر النظارة بالنتيجة المترابطة غير المتوقعة · ومن ناحية التيمه العامة (أى الفكرة الأساسية) ــ وهى دائما مجازية ــ تنشأ التوافقات بالتدريج مع نمو التيمة ، ذلك أن كل بادرة فى هذا المجال ، وكل كشف مجازى يثير مظهرا جديدا ، تدفقا فى المعنى لا يتيسر للجميع أن يستفيدوا منه · أما القصة القصيرة « رأس الميت » فانها تكشف عن هذا التناوب الذى لامفر

منه ، والمرتبط بالادراك : فالدقة التشريحية تؤكد رمز الموت : « لم تكسر الجماجم أبدا مثلما كسرت انا » (اندريه مالرو) . ولا يقل عن هذا قوة التضعيف الذى يتمثل فى « شكل فوق شكل » . عصر النهضة الذى كرس بحماسة على ثروته الفنية النماذج والأسانيد ، وجد متعته فى تأثيرات متشابكة كنسيج العنكبوت ، لم نعثر على مفتاح رموزها . ومن بين التمرينات التى كشفت عنها الثقافة الحديثة بصورة ملائمة اذ أوصى بها كتاب العصور القديمة ، ومن القرن الخامس عشر فصاعدا تمرينات تتكون من نقل بعض العناصر الشكلية من الفن القديم : كجذع الانسان ، والايماءة ، والوضعة .. فى تأليف لا صلة له بها . فالعبارات المقتبسة على سبيل الاستشهاد ، والمدرجة فى النص ، والتعليمات الموضوعة بخصوص طريقة الاستعمال ، موضحة فى قصة « يوتى » راڤينا . من ذلك أن الصورة قد تنحنى تبعا لانحناء نموذجها ، اكراما فقط للذكرى التى تحييها . وبهذه الطريقة يرفع الناس أو يعتقدون أنهم يرفعون المضمون الأسلوبى للعمل . أما الخرق فانهم لم ينجحوا فى البقاء على مستوى المصدر الذى اقتبسوا منه ، وأما المهرة فقد جعلوا الناس ينسون هذا المصدر . وعلى هذه الأسس يمكن وضع مجموعة كاملة من القواعد . غير أن مبدأ هذه التداخلات المنظمة ، وأحيانا الآلية بصورة مؤلمة ، هو اضفاء نوع من الايضاح على الأسلوب ، واستيعاب شكل بشكل آخر ، الأمر الذى يدل عادة على استعادة الشكل القديم بصورة حية يضفى على التعبير نوعا من الشمول ، وكأنه بريق خاص وليس المفسر الحديث على قدر كاف من الحساسية والاستجابة فى هذا المجال لكى ينساب فى هذه الأساليب الدقيقة ، ولا من اليقظة حتى يشتبه فيما لا فائدة فيه ، أو يخترع ما هو سيء .

فاذا كانت هذه الملاحظات صحيحة ، فان ما له قيمة فى الانتاج الفنى هو الطريقة التى تتيح تراكب المعنى على الشكل . غير أن هذا أمر يصعب تبينه عاجلا أم آجلا ، بل يستحيل ذلك فى بعض الأحيان . وفى كل مناسبة يبدأ التحليل من جديد . ومن الاسباب المتواترة لعدم استقرار العمليات فى مختلف العقليات المتعاقبة هو أن الفن ، بعكس اللغة المنطوقة « لا يستطيع أن يخصص العلاقات » . (ا . جومبريش) فالصورة لا تصوغ الفكرة ، ولكنها تجمع عناصرها بطريقة من شأنها أن تحمل المشاهد على أن يصوغ فى ذهنه الفكرة المتضمنة فى الصورة . وليست القطعة المعمارية نموذجا ثلاثى الأبعاد لمعادلة ، ولكنها تضم كل ما يطلبه

البانى ويلتزم به فتجعل منها مجموعة واحدة تندمج فيها كل هذه الطلبات ، ويمكن من ثمة اعادة بنائها · وفى هذه المجالات ، وبالأخص طبعا المجال المجازى ، نجـــد أن الاسهام التلقائى ومن ثم الثقافى من جانب المشـــاهد اسهام كبير · وتتخذ « التفسيرات » الجاهزة بسهولة أبعادا شاسعة ، وعلى العكس من ذلك يفوت المعـنى على الألباب · وعلى ذلك يتضمن تاريخ الفن توسعا سيميا (فى معانى الألفاظ) ويبدو كفرع من المعرفة ، يحتاج هو وخاصيته العلمية الى تنظيم مراجعة دائمة لتفسيراته ·

● ● ●



●● المقال فى كلمات

يتناول هذا المقال تلك الجماعات البشرية التى كانت تعيش على هامش المجتمعات فى القرون الأخيرة من العصور الوسيطة ، والقرون الأولى من العصر الحديث • تتناول حياة تلك الفئات العابثة بالقانون غير العابئة به ، تلك المجموعات البشرية التى يلفظها المجتمع وينفر اليها شذر مذر ، التى تتمرد على نظمه وتحتال بشتى الطرق على انتهاكها • ذلك السلوك الذى انعكس فيما يسمى بالأدب التشردى الذى زخرت به القصص الأدبية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر خاصة القصة الآسبانية • ان غزارة هذا النوع من القصص والنجاح الذى صادفه آنئذ دليل على الاهتمام المتزايد بتلك المجموعات الاجتماعية التى كانت تعيش فى تناقض مع النماذج والأنماط السائدة فى ذلك العصر • ولقد أضيفت فى أوائل العصر الحديث مشكلة أخرى الى المجتمع الهامشى هى مشكلة طبقة العمال الصناعيين ، مشكلة تمخضت عن ازدياد نسبة

الكاتب : برونيسلو جيريميك

ولد فى وارسو عام ١٩٣٢ • قام بدراسات فى التاريخ بجامعة وارسو وفى الكلية العملية للدراسات العليا بجامعة السوربون • حصل على درجة الدكتوراه فى الآداب • أستاذ فى أكاديمية العلوم البولندى منذ ١٩٦٦ • له مؤلفات عدة •

المترجم : رمزى يسى

مدير ادارة السجل الثقافى ثم ادارة الارشاد الثقافى ، وأخيرا مدير لمجلة القصة سابقا بوزارة الثقافة • قام بترجمة أكثر من ٣٠ كتابا منها نحو ٢٠ فى مجموعة الألف كتاب •

العمل الاجرامى والانحراف فى مناطق التصنيع السريع • وفى أواخر القرن التاسع عشر وجه الناس اهتمامهم الى حالات العمل البائسة والفقر أكثر مما وجهوه صوب شواذ المجتمع الهامشى من اللصوص وقطاع الطرق ومنتهكى القوانين • وفى أوائل القرن العشرين اتخذت صورة الخارجين على القانون مظهرا يبث الرعب فى النفوس ، كما أصبح هؤلاء الخارجون على القانون نواة للكفاح السياسى وقوة مدخرة لمساندة الديكتاتورية ، كما لعبت الجماعات الهامشية كذلك دورافى عملية التقدم الثقافى والاجتماعى •

وقد أدى البحث فى الشذوذ والهامشية الى تحليل لمختلف أوساطهما مما نشأ عنه كثير من الدراسات فى علم الاجرام ، والجنوح ، وانتهاك القانون ، وتصنيف الجرائم ، والاستهانة بمعايير وروابط المجتمع القائم ، كما ظهرت مطبوعات تتناول تاريخ الهامشية •

ان تحديد مفهوم المجتمع الهامشي دونه مصاعب جمة . انه عند البعض ينصب لا على المنحرفين من اللصوص والمجـرمين فحسب ، بل انه يضم المقامرين والقوادين كذلك ، والمشردين والهائمين على وجوههم والعاطلين وعمال التراحيل والمتسكعين . وتتصف هذه الجماعـات فى العرف القانونى بانفصامها من الروابط الاجتماعية ، تلك الفئـات التى يمثل وجودهم خطرا على النظام العام . ولقد حدد أحد الكتـاب المجتمع الهامشى كمجموعة من أشخاص منبوذين ليس لهم وضـع اجتماعى محدد ، ويعيشـون كفائض من وجهـة نظر الانتـاج المـادى والفكرى . لقد كانت هذه الجماعات تعيش وسط المجتمع دوما دون الولاء له ، وكانوا يشعرون بأنهم فيه كالأغراب . وكانت هنك فئات تندرج تحت قائمة المجتمعـات الهامشية بسـبب شـعور الارتياب من الأجانب والتخوف منهم كما كانت الحال مع الأقليات فى المجتمعـات المسيحية فى الغرب : اليهود والغجر .

وقد أصبح الاخلاص الأيديولوجى فى العصور الوسـطى أمرا مزريا . لقد امتدت ادانة الهراطقة فى بعض الأحيـان امتـدادا كبيرا بدرجة نقصيهم عن المجتمع ، بل لقد حدث أن أجبروا كمجـرمين على ارتداء أزياء وشارات خاصة . ونفس الشىء كان ينطبق على المشعوذين والسحرة ، كما كان ينطبق على بعض المرضى والعاجزين فى القـرون الوسطى الذين كان الناس يتفادون الاختلاط بهم من أمثال المجذومين والمجانين والمنفيين الذين كان ينظر اليهم دائما على أنهم اناس خارجون على القانون ، وكذلك المنبوذون فى المجتمعات الآسـيوية . ولقـد أتى زمن كانت الكنيسة تعامل فيه فئة نجلها الآن ، هى فئة الفنـانين ، معاملة الهامشيين ، وتطلق عليهم فى وقت ما « كهنة الشيطان » ، ولكن هذه النظرة تغيرت فيما بعد ، حتى ان الكنيسة أخذت تستعين بهم فى نشر عقيدة الايمان .

ان الاهتمام بالمجموعات الهامشية تفسره لنا عوامل متنوعة ، وقد ظهر فى بداية العصر الحديث أدب وافر زاخر بوصف عالم الانحراف . والأكثر جـدارة بالذكر تلك التى كانت بحوثا عن أسرار الأحياء المحظورة من مدن العصر وعن سلوك وطريقة المجموعات الاجتماعية التى تعيش بالنصب أو الاحتيال . ان هذا الذى انسحب الى ما هو دخيل ونادر فى المجتمع ، والذى لم يكن متصلا بنهضة علم الاعراق البشرية ، كان يرى أيضا فى ازدهار نوع من الأدب الذى يمكن أن يطلق عليـه « تشرديا » . وكان قد ظهر فى القرون الأخيرة من العصور الوسطى ، ولكنه دخل فى الازدهار الكامل فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فقط . القصة الأسبانية الطـويلة عن المتشردين بسبب تألقها الأدبى والاقبال الواسع من جانب الجمهور القـارىء

غطت على عدد وافر من المؤلفات المشابهة ، القادمة من دول أوربية أخرى من « قصص المتشردين » الانجليزية القصيدة وقصص المتشردين الألمانية والهولندية ، وقصص المتشردين البولندية ، والتشيكوسلافية ، ان هذه المؤلفات الأدبية قريبة الاتصال بالأقاصيص التى استقيت مادتها من أحداث شوهدت أو التى استمدت من أحداث أصيلة ، ولقد أخذت كلها فى الواقع من الأدب القصصى أو من احداث موثوق بها • ولكن غزارة هذا النوع من الأدب والنجاح الذى صادفه يبين أيضا وعيا مبكرا لمجتمع حديث عن الأهمية المتزايدة للمجموعات الاجتماعية التى تعيش فى تناقض مع النماذج والأنماط السائدة فى نفس العصر •

حوالى آخر القرن الثامن عشر ألقى ضوء جديد على مشكلة الجماعات الهامشية وأضيف عنصر آخر الى الجدل الاجتماعى فى الفكر الأوربى وابان القرون: السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر عن الموقف الذى يجب اتخاذه بخصوص الفقراء فيما يتعلق بالمساعدة الاجتماعية • وقد أضيف الى مشكلة المساعدة الاجتماعية عنصر آخر مشكلة طبقة جديدة فى المجتمعات الحديثة ، وطبقة العمال الصناعيين التى كانت قد تكونت • ولقد ذهب فردريك مورتون ايدن فى ذلك الحين وراء الآفاق التقليدية الخيرية حين تصور الفقر فيما يتعلق بالعمل وموقف الفقراء دالة للعرض والطلب فى القوة البشرية • ومن المؤكد أن هذه المشكلة التى كان لابد أن يعالجها القرن التالى ، ونصيب طبقة العمال وأحوال معيشتها ، وفى المقام الأول طريقتها فى الحياة ، وقد فحص كل ذلك فى نفس المصطلحات لحياة المتشردين وفقراء القرون السابقة ، ولم يتغير تناول المشكلة تغيرا جذريا حتى حلول الماركسية • وفى المظاهر الأولية لتحولها ، وقبل مولد التحركات الحديثة للعمال فانه كان يصعب تمييز طبقة العمال من التكتل العمالى ، وكانت تعتبر بطريقة ما خارجة عن تركيبات مجتمع منظم ، ميوعة الحدود التى تفصل « الطبقات العاملة » عن « الطبقات الخطيرة » ، والنسبة المرتفعة للعمل الاجرامى فى مناطق التصنيع السريع، وعادات العمل المتفرقة والانحراف ، فقد ساند كل هذا على خلق رأى مبسط الى حد الافراط لبيئة عمال ذات صفة مميزة بشذوذ جوهرى ، ومع تطور المجتمع الرأسمالى وتكوين تركيبات النظام فى حركة العمال ، وأصبحت مطابقة حالة لطبقة العمالية أكثر تخلخلا ومالت الى الاختفاء فى المستوى الاجتماعى على الأقل ، وفى الميدان الاجتماعى الثقافى ، ومع ذلك فقد تبين ولمدة طويلة فشل العمال فى احراز ثقافة جزئية طويلة المدى •

وفى أواخر القرن التاسع عشر كان حب الاستطلاع الذى أيقظته المستويات الدنيا من المجتمع قد وجه فى ذلك الحين وبدرجة أقل نحو حالات العمل البائسة والفقر أكثر مما كانت نحو شواذ المجتمع الهامشى من اللصوص ومنتهكى القوانين• وكان هذا الفضول مصحوبا بموقف متجانس متساهل متحرر من الخوف والبغض اللذين سبق أن أثيرا بالفقر والجريمة ابان القرون الأولى من العصر الحديث • وفى القرن العشرين اتخذت صورة الخارجين على القانون مظهرا يبث الرعب فى النفوس ،

كما أصبح هؤلاء الخارجون على القانون نواة للكفاح السياسي وقوة مدخرة لمساندة الدكتاتورية • وعادت مسرحية الأوبرا « الشحاذون » بقلم : جون جاى (١٧٢٨) الى مسرح لندن فى العشرينات واستقبلت بحرارة • وفى عام ١٩٢٨ أعاد برتولت برخت كتابة تمثيلية جاى بعد تحدينها • وصادفت مسرحية (أوبرا ثلاث بنسات) نجاحا رائعا فى جميع مسارح ألمانيا قبيل تولى هتلر للسلطة بوقت قصير جدا وكان قصد برخت التعريض بالبورجوازية لاظهار أن قاطع الطريق يمكن أن يكون من أصل بورجوازى تماما كما يمكن أن يصبح البورجوازى قاطع طريق • وكان تصور أرضه البور كما كان البورجوازى يدعوها لينذر التعاطف الذى كان يشعر به نحو المجرمين وقد نتج عن جو هذه الأزمة الكبرى تغيير فى الاستغاثة التى بذلتها من قبل الجماعات الهامشية • وظهر أن الشعب يرى فى حياة الخارجين على القانون تحديا للنظام الاجتماعى ، والمعايير للحياة المتراكمة وفى اللصوص الحاملين للمستقبل المفجع •

وتناول العالم الاجتماعى البولندى استيفان سيزارنوسكى مشكلة (الرجال الفائضين) • فى تصوره للخطر الاستبدادى ، وفى دراسة ممتازة (١٩٣٥) مقتبسا التعبير « المجتمع الهامشى » من المؤلفات الامريكية عن العمل الاجرامى والانتماء للعصابات وحلل تكوينها ونطاقها ومميزات الجمات التى تشملها أدوارها فى مختلف العهود • ولم يبحث فقط وظيفتها كوسائل « فى خدمات العنف » ولكن عملها أيضا ضمن ثقافة معينة • وبعد الموجة الأولى من البحث عن التشرد ووجه علم الاجتماع الأمريكى بأن فقدان الوضع الاجتماعى كان ملائما لظاهرة واسعة الانتشار على نحو متزايد بالولايات المتحدة ، وخصصت نفسها لملاحظة وتحليل الشذوذ فى مجتمع معاصر ، وكذلك لملاحظة العوامل التى تولد أوضاعا اجتماعية • وعمليات التحضر والتصنيع فى الدول المتطورة تثير أيضا من جميع نواحيها مشكلة حادة : معنى ودور المجموعات البشرية التى لا تشترك فى انتاج المجتمع الرأسمالى • ووجهت المشكلة باقتصاديين واجتماعيين • ولكنهم كانوا مضطرين بطريقة مماثلة للرجوع الى الماضى لكى يؤلفوا مفهوم عمل ملائم • ويرتبط أيضا تطوير البحث التاريخى للعرق البشرى بفكرة الهامشية ، وقد أعطاها (د• ا• يارك) معنى دقيقا جدا بادخالها فى العلوم الاجتماعية فى أفكاره المنعكسة عن الدور الذى قامت به الجماعات الهامشية فى عملية التقدم الثقافى والتغير الاجتماعى •

ولا يزال النظام الهامشى يفهم أحيانا بمعناه الضيق الذى يعطى فى المقام الاول أهمية لتغريب فرد أو جماعة عن المجتمع المحيط ، ومثال ذلك اليهود فى أوربا ، والهنود فى افريقيا ، والصينيون فى جنوب شرقى آسيا •

ان البحث فى الشذوذ والهامشية قد أدى الى تحليل لمختلف أوساطه فى المجتمعات القديمة ، وقد لوحقت الدراسات الأولية للأمثلة المنتقاة ببحث تاريخى نظامى ، وظهر ميدان جديد فى الاحداث التاريخية الماضية ـ تاريخ الاجرام ، حيث احتل

التشكك فى التاريخ الاجتماعى مركزا مرموقا بعد احصاءات عن الجنوح وانتهـــاك القانون وتصنيف الجرائم ودراسة محترفى الانتهاك والاستهانة بمعايير وروابط المجتمع القائم • وقد ظهر أيضا فى المطبوعات التاريخية برنامج بحث عن الهامشية فى الماضى •

ولقد بقى هذا التوجيه على ناموس طويل فى التـاريخ الرسمى البولنـــدى ، واستطاع أن يحصل على ميزة من نتائج ممكنة التقدير • وأفادت تفكيرات كزارنوسكى عن « الرجال الفائضين » كوحى لتناول عصرى للمشكلة موضع البحث • ويضـاف الى هذا الدراسة التاريخية الاجتماعية التى قامت بها (تنيا أسودو براج) ، وهى مسلسلة كاملة من المؤلفات عن هـــذا الموضــــوع يمكن أن يشـــاد به ، وهى تبحث عن السكان الزانمين فى الريف وفى المدن ، كما هى محاولة تناول صناعية ، ومن كل من وجهات النظر الاجتماعية والشرعية لمشكلة « رجال مارقين » فى مجتمع بولندى قديم •

انالبحث الاجتماعى النفسى والتاريخى عن المجتمع الهامشى يحمل خيرا مماثلا أيضا لاعادة التنظيم لبرامج البحث فى العلوم الاجتماعية كما يفعل لتأثير الأحـــداث المعاصرة • وأيا كان استعمال المصطلحات الفنية فى هذه التحقيقات ، فان فكـــرة المجتمع الهامشى قد نجحت تدريجيا فى غرس نفسها فى مفهوم العمل • وقد أظهرت المحاولات الأولى فى التصنيف المنهجى الذى أقيم عليه الدليل ان العمليات المتشابهة والظواهر قد تناولها البحث •

ان تحديد المجتمع الهامشى ونطاقه يطرح صعوبات كثيرة ، والمصادر لا تزودنا بما يشفى الغليل ، والعرف والقانون لا يعطيان الا صورة أوليـــة عن الانحـراف والمنحرفين ، ولكنهما يتناولان المذنب ومستحق العقاب فى جميع مسالك الحياة التى لا تمت بصلة الى الأحوال الاجتماعية أو الأصل الاجتماعى ، فهما يتناولان مثلا معاملة الرجل المذنب وكيفية استجوابه •

وقدعالج المؤلف الفرنسى لعقيدة أخلاقية فى القرون الأخـــيرة من العصـور الوسطى المنحرفين والمحتجين ، فهو يضع اللصوص والمجرمين من كل الأنواع فى هذه الفئة ، ولكنه يضم اليها أيضا المقامرين والقوادين • وهم لا يتميزون فقط بطريقتهم فى الحياة التى يمكن أن تتسم بالأنانية ، ولكن أيضا بأخلاقهم الاستثنائية التى تسبب لهم أن يرفضوا تقدير حقيبة الملكية واخضاع الالزاميات الأخلاقية فى علم مصطلحات لأهوائهم • ومع ذلك فنحن نجد بنـــوع خاص دلالات مثل « مشرد » و « هائم على وجهه » بالاضافة الى مجال كامل من الازدراء يؤكد طريقة أنانية من الحياة ، وفى الأعمال البولندية المتعلقة بأعمال العدالة جنبا الى جنب مع المصطلح « متشرد » •• وهى بمعنى « شخص ريفى ساذجوعلمانى » ، وكثيرا بل كثيرا جـــدا مانقابل التعبير

البولندى (لزنى) الذى يشير الى الفلاحين العاطلين الى الرجال الرحل ونجد أيضا المصطلح الألمانى (لوزليت) الذى يحتمل أن يكون اللفظ البولندى المرادف (لزنى) مشتقا منه . والتعبير فى اللغة الفرنسية له نفس الدلالة ، انه يعنى أناسا بلا قيمة. ونلتقى فى الدول السلافية بكلمة ، وفى روسيا بعبارة ، تدل كل منهما على الفلاحين الأحرار وعلى عمال يتقاضون أجورا متقطعة ، وجميع أنواع العاطلين .

واذا كنا نجد مرة أخرى على المستويات القضائية والادارية ان هذه الجماعات تتصف بانفصامها من الروابط الاجتماعية ، تتصف بالتسكع والتعطل ، الصورة المعطاة بواسطة الأدب تؤكد فوق كل الخطر الذى يمثله وجودهم للنظام العام ويلفت النظر قبل كل شيء الى الخداع والأعمال الجنائية فى وصف طريقة حياتهم ، وعلى الرغم من الدقة فى المصطلحات الفنية والدلالات الضمنية أو التعريف الواضح فى المصادر ذات الصلة بالطبقات التى كانت تعتبر جديرة بالازدراء ، ويمكننا ملاحظة أن الوضع البسيط للأسماء والتعبيرات توحى بالعناصر الجوهرية للمجتمع الهامشى وميكانيكيات تكوينها . ومن اللازم أن نحاول تحديد المحيطات الاجتماعية للظاهرة التى تحت الدراسة .

لقد حدد كزار نوسكى المجتمع كمجموعة من أشخاص منبوذين ليس لهم وضع أجتماعى محدد . ويعتبرون كفائض من وجهة نظر الانتاج المادى أو الفكرى ، ولديهم نفس هذا الرأى عن أنفسهم انهم منبوذون وليس لهم وضع اجتماعى ، وهذا لا يتعارض مع الهامشية ، وعند شرح فكرة كزار نوسكى ينبغى أن نميز فى الهامشية المستويين اللذين نعمل عليهما الاختبارات الاجتماعية ، أو بملاحظة النظام الاجتماعى المسيطر : مؤسساته وقيوده وتحريماته ، طريقته فى روابط المجموعة ، ثم بملاحظة علاقة ذلك بالقيم السائدة ، والأهداف والمنافع الذاتية التى تمثلها هذه السلطة التى تبرز التركيب الثقافى للنظام الاجتماعى ، ويمكن ربط المستويين سويا . فالاحتجاج ضد النظام الاجتماعى يمكن أن يمضى بتعاون مع التساؤل حول النظام الثقافى الايديولوجى - وهما برغم ذلك متميزان أساسا ، حيث تكون طريقة الحياة أنانية بوضوح ، وكثيرا ما نقابل مطابقة مفرطة مع ملاحظة المعايير الثقافية السائدة ، وفى الواقع أن فى الاذعان الشديد للأحكام الاخلاقية ونظام القيم التى أقرها مجتمع طبيعى، ومن الناحية الأخرى فى بيئة معينة كاملة الاندماج من وجهة النظر الاجتماعية ، يمكننا أن نلاحظ رفضا للقيم الأساسية للنظام الموطد .

ان الموقف الهامشى على كل من المستويين يمكن أن يفترض شكلا ، اما سلبيا أو ايجابيا . ويرى الأول فى عدم وجود نوع معين من الرابطة التى يعتبرها المجتمع عادات له . وفى المجتمعات التقليدية السابقة للعصر الصناعى كانت المشاركة فى الحياة الاجتماعية تحدد بواسطة الخضوع لروابط مجموعة معينة : أولا العائلة ، ثم المشاركة المهنية ، والجماعة ذات العلاقة المباشرة ، والاخاء الدينى والأفراد الذين كانوا يمرقون من هذه العلاقات ، كانوا مطرودين منها ، أو لم يكونوا فيها مطلقا ، وكان ينظر

اليهم اجتماعيا كأفراد خطرين أولا لزوم لهم ، ولكن موقفا كهذا كان يمكن أيضا أن يكون النتيجة لرفض المشاركة فى العلاقات الاجتماعية والواجبات ، ولنا أن نتساءل عن قيمة نظام المجتمع الذى انتمى اليه الأفراد المحتجون ، والجماعات التى عاشت فى وسط هذا المجتمع دون الولاء له ، وشعروا انهم فيه كالأغراب ٠

والأكثر أهمية ان المجتمع كان يعتبرهم كالأجانب ٠

نحن نعتبر الهامشية هنا كموقف اجتماعى خاص لا يرتبط بمجموعة بذاتها ٠ وبما أن المجال الذى هو موضوع بحثنا متقلب وقابل للتغيير ، فانه لا يمكن التمسك به الا فى عملية مستمرة لفقد وضع اجتماعى واعادة الدمج العنصرى الى الاطار الاجتماعى ٠ ان السجلات التى تعج بسير الناس تدل بوضوح على استمرار هذا الوجود الشاذ ، ان حياة الرجل والمتهم المقدم للعدالة انما يكشف عنه فى سلسلة من الأعمال الاجرامية ، ولكن هذا لا يغطى الا جانبا واحدا من جوانب الهامشية المتعددة الجوانب ٠

وفى محاولة تحرير مقررات الهامشية فى رأى المجتمع نفسه ، من المستحسن أن تتبع درجات مختلفة من التأنيب الاجتماعى ، من ازدراء بسيط الى اخضاع موطد العزم ومنظم ٠ وهناك مسلكان أحدهما ثقافى اجتماعى والآخر اقتصادى اجتماعى ٠ وقد ورث المجتمع الحديث من مسيحية القرون الوسطى عملا أخلاقيا مركبا ، لقد اعتبر العمل واجبا حتى ولو كان خاليا من الوقار والشرف ٠ وقد صاحب ذلك تغييرات تدريجية وعميقة عندما نسب الى العمل اليدوى قدرا من الكرامة والوقار ٠ وهكذا نرى انكماشا فى مجموعة الأعمال المهنية والتجارية المعتبرة شائنة ٠ ولكن الأعمال اليدوية ظلت بوجه عام زمنا طويل الهدف لازدراء طويل خفى ٠

ان هذا حقيقى بوضوح ، لأن حرفا يدوية كثيرة مرهقة وقذرة لعبت بها الكفاءة دورا قاصرا وأصبح السلوك المخزى ملصقا بطبقات مختلفة من الشعب تتحمل وتشقى ٠

وأدى ارتياب الأجنبى والخوف من الأجانب وكرههم فى بعض الأحيان الى نعتهم بنعوت مزرية مثل أقليات حقيرة أو مجموعات عرقية مهاجرة كان من الضرورى التعايش معها ، وكان هؤلاء يتميزون بثقافتهم أو بديانتهم أو بمظهرهم البدنى ٠ وكانت هذه حالة اليهود والغجر فى المجتمعات المسيحية فى الغرب ، ومع ذلك فقد نجد أيضا فى شكل مخفف جدا دون ريب مواقف متشابهة فيما يتعلق بشعوب اقليمية معينة ٠ وفى مجتمع العصور الوسطى أصبح الاختلاف الايديولوجى أيضا أمرا مزريا ٠ وقد امتدت ادانة الهراطقة فى بعض الأحيان امتدادا كبيرا لاقصائهم عن المجتمع ، بل لقد حدث أن أجبروا كمجرمين على ارتداء أزياء ورموز خاصة ، والمجموعات المهرطقة نفسها — ونحن نرى فى هذه الحالة علاقة لهم مع المجتمع الهامشى والثقافة الهامشية — كان لهم مشاعر واضحة جدا لانعزالهم عن المجتمع ٠ ونفس الشىء كان ينطبق على

المشعوذين ، وبوجه عام على الناس الذين خصصوا أنفسهم للطب الشعبي والشعوذة . وكان هناك نفع كبير لخدماتهم ولكن هم أنفسهم كانوا محوطين بجو من الخوف والخزى ، وكان لطريقة حياتهم غالبا ، صفات مميزة تمت الى الهامشية بسبب : العزلة ، المعيشة خارج المجموعة ، التجول .

ان الارتياب فى العاجز والمريض كان له نفس المصدر فى المقام الأول ، وقد أدى الى الابتعاد فى حالتين : المجذومين فى القرون الوسطى ، والمجانين فى بداية العصر الحديث .

وكان يبرر هذا الوضع كاجراء دفاعي ضد مرض خطير وغامض ، وكان قرار عزل أو حجز المرضى من الناس يوحي بأنهم أناس يختلفون في وجودهم عن بقية الناس ، ويشاهد هذا بنوع خاص فى معاملة أطفال المجذومين الذين كانوا بعدئذ غير مصابين بالمرض ولكنهم ظلوا معزولين بسببه ، وكانوا محرومين من ممارسة معظم المهن . أما بالنسبة للمرض العقلى ، فبعد فترة من التسامح القلق ، كانت السياسة السائدة هى عزلهم أو تحاشى الاختلاط بهم . ونحن نرى فى هذا ، لا مجرد دفاع لا ارادى ضد خطر عدوان طبيعي بواسطة الشخص المجنون ، ولكن أيضا الشعور بوجود تهيب المرض العقلى ، احتجاج ضد الترتيب المشترع : أليس رجلا مجنونا على صلة بمجتمع معين ؟

ان الطريقة التى كان يعامل بها المرضى مع ذلك تعتبر عن تفرقة طبقة واضحة : وكان الازدراء والخزى أو الابعاد مطبقا فقط على الطبقات الدنيا ، وليس على الطبقات العليا مطلقا .

وبين الجماعات الهامشية التى تقاسى الاقصاء عن المجتمع يجب أيضا وضع المنفيين . وكان التغنى يجلب معه بطبيعة الحال عواقب مختلفة جدا تبعا لمداه ، ولكن الشخص المنفى كان يعامل دائما كخارج عن القانون . وهكذا فان عقوبة الناس الهامشيين قد أسهمت فى تقييد المبتلين داخل وجودهم الاجتماعى .

ودون أن نتعدى الحدود التى رسمناها لنا فى أوربا ، لا نزال نشعر انه من الضرورى أن نتعرض لتناول جماعات من المنبوذين فى المجتمعات الآسيوية ، وهم منبوذو الشرق الأقصى . ويوجد تشابه بارز جدا بين هذه المجموعات وبين مجموعتى مرسيمونيا انبونيستا فى الغرب المسيحى . ويرجع أصل كل من الظاهرتين الى محرمات لقرون قديمة وجدت فى مجتمعات قديمة ونحن نجد فى المجتمعات الزراعية فى أوربا مانجده فى قارات أخرى ، مجتمعا هامشيا محروما من الحقوق والكرامة ، أعنى أرقاء (نحن نفكر بوضوح فى الاسترقاق المحلى ، أو النظم الاجتماعية حيث لا يلعب الاسترقاق دورا أساسيا) .

لقد كان السلوك المخزى ممتدا الى محيط المتاجرة بالشرف . ومع ذلك فعلى هذا الموضوع كانت الافتراضات من تعقيد مختلف ، ونجد جنبا الى جنب سياسة مؤيدة

لمبدأ تحريم الاسترقاق ، ونرجع الى العصور الوسطى سياسة تسامح مؤسسة على ادراك المنفعة الاجتماعية أو الاخلاقية للمتاجرة بالشرف ، وكانت فى البداية من سماسرة الفاحشة والسيدات ممن حوكمن وعوقبن ، فى حين ان المتخصصين فى أغراض غير شريفة أنفسهم كانوا فى الغالب مقيدين بالعزلة وحسب ، وكانت لهم أحياء من المدينة محجوزة لهم وأجبروا على ارتداء أزياء خاصة • وقد انبعثت هـــذه التعقيدات من مبدأ هام لمجتمعات تقليدية ، التى تحتم تطابق الملبس والمظهر الخارجى •

وكان الشحاذون أيضا يحتاجون الى ارتداء طراز مميز ، ومع ان القصد ربما يكون اداريا أو حتى خيريا ، فان علامة التسول أصبحت معممة مع الاصلاحات الحديثة وكانت مع ذلك مخزية ومقيدة للحرية •

ونمضى مع المتسولين الى الجبهة الهامشية الثانية ، وهى تلك التى تتعلق بالتركيبات الاقتصادية الاجتماعية ، وفى هذا الميدان كان الناس شديدى التسامح مع هـــذه الطبقة الى أقصى حد ، وكانت لهم مكانتهم فى تقسيم العمل أو بالأحرى فى توزيع حصص المهن الاجتماعية ، ويمكن ذكر نفس الملاحظة عن المومسات ، ولكن الأمر يختلف فقد كان للمتسولين كرامة وميزة أخلاقية فى كل من المجتمعات المسيحية والاسلامية •

ومهما كانت الفوارق المذهبية المسلم بصحتها ، فان توزيع الصدقات كان يعتبر دائما عملا جديرا بالثناء ، وقدم لجماعة المؤمنين القدرة على التفكير عن ذنوبهم ، أملا فى الحصول على جزاء لهم فى المســـتقبل ، واذن فقد كان المتسولون ضروريين ، وكان يبدو عجزهم عن العمل الناشئ عن علة دائمة أو مرض أو عملية مفاجئة لسوء الحظ ، علة حرمتهم من وسائل المعيشة المناسبة لحالتهم الاجتماعية ، ان شعور المتسولين الخاص بأنهم كان لهم مكانتهم فى المجتمع يتبين من تكوينهم نقابات ، كما فعلت المومسات أيضا أحيانا • وبرغم ذلك فحتى التدريب المهنى للتسول كان يمكن أن يكون مربحا ، (حالات كثيرة يمكن الاستشهاد بها وهى التى فيها مبالغ ضخمة فى أكياس الشحاذين) وهذا النشاط كان يجردهم من الوقار ويضطرهم الى ارتداء أثمال بالية ليتظاهروا بمظهر منفر وحالة تستدعى الشفقة •

كانت هذه كلها وسائل لايقاظ الشفقة ولكنها كانت أيضا الاشارات الواضحة لانحطاط اجتماعى ، وهكذا كان المتسولون فى رأيهم الخاص كما هو فى رأى الجمهور أى ينتمون الى حثالة المجتمع •

ورأى مستهل العصر الحديث تغييرا فى الموقف من أجل المتسولين ، وكان يرافق التغيير خلافات مذهبية ضمن الديانات كما هو الحال فى الكثلكة بعد احلالها • ومن خلال مشروعات لأجل تنظيم مساعدة للفقراء ، ومن خلال مشروعات لاعادة تنظيم ادارة المستشفيات وعمل الخير كان هناك فى الواقع تغيير فى الموقف فيما يتعلق بالمتسولين ومفهوم الصدقات نفسها ، وأصبحت فضائل حياة الفقر قابلة للجـــدال ، واتجهت

المهمة الاجتماعية للمتسول الى الاختفاء ، فى حين انه أصبح هدفه مساعدة منظمة بدلا من تقبل شفقة مزرية وشهامة مزجاة • ولا شك ان هذا قد غير اتجاهه بسبب وضع سياسة اجتماعية لنزعة عامة حققت ببطء وتؤدة شديدين فى كل اقليم على حدة • ولكن هذا الاتجاه وهذا الهدف برغم ذلك قد أوضحا ظاهرة جوهرية وصلت الى الميدانين الاجتماعى والعقلى على السواء ، وابتدأ الشحاذون يوضعون فى مصاف المتشردين ، وكانوا يعاملون وفق للقواعد العامة للكفاح ضد التعطل •

ان التشرد لم يكن مجرد ظاهرة من ظواهر المجتمع الهامشى ، لقد كان أمرا هامشيا غير منازع • وفى المعايير وممارسة القانون ، تعتبر فكرة التشرد مثل فكرة الانحراف • وقد أخذ معناه يتحدد ببطء شديد وقبل أن يشترط التشريع النابليونى بوقت طويل ان محتويات ما لدى الانسان من مال كانت هى المعيار ، ووفقا لها كان المتجول يعتبر أو لا يعتبر متشردا • ونحن نجد فى القرون الوسطى تطابقا لهذا فى تشريع نقابى فلمنكى : كان لابد من حد أدنى من الموارد مطلوبا لاعتبار المتجول فى صف الفقراء • وفى القرون الوسطى ، وفى بداية العصر الحديث ، كانت المقاييس المستخدمة لتمييز المتشرد غامضة جدا ، ان العامل الأساسى المتفق عليه على أوسع نطاق هو انعدام اقامة محددة ، التى كانت فى مثل هذه الظروف متكافئة مع انعدام وسيلة محددة من الرزق ومن استقرار العائلة اجتماعيا •

ان التشرد فى الواقع قد تعاون مع طريقة من الحياة لم تكن مؤكدة ، وفى النهاية غير اجتماعية • ان قابلية التحرك المستمرة كانت جزءا من طريقة الحياة لطبقات مختلفة من السكان الذين لم يتوهم أحد انها تقود الى وجود أنانى ، وكانت هذه هى حالة التجار والحرفيين والفرسان : ان الحج نفسه كان يعتبر نوعا من التجوال ، ولكن هذه الهجرات حدثت فى حدود قوانين رقابة وتنظيمات نقابية • أما حالة التشرد فكانت مسألة تجوال من نوع معين كما حددها لاهوتى ايطالى ، لا غاية ولا هدف لها•

ان فكرة التشرد ذات مدى واسع جدا ، واذا كنا نوافق على تعريف عالم اجتماعى فرنسى (ان المتشرد شخص لا يستفيد باستمرار من الأنظمة الوظيفية المعترف بها من المجتمع الذى هو جزء منه ، فيجب أن يمتزج التشرد بالهامشية فى بعدها الموضوعى المرتبط بالحقيقة الاجتماعية • ان التشرد يتضمن لا مشاركة فى الروابط الاجتماعية فى نظام مقرر أو العزوف عن الاشتراك فيها ،ولقد عومل التشرد كجريمة لأنه تجاوز التقسيمات الوظيفية التى بنى على أساسها النظام الاجتماعى ، ولكن القسوة التى كانت تقابل بها كانت تعتمد على طبيعتها وأبعادها ، ومبدئيا على الوضع العام لسوق العمل ، وذلك لأن التشرد كان يعنى أن لا عمل ولا وظيفة سواء من خلال افتقار للعمل أو من خلال التهيئة لنوع العمل المفترض • وكان فى نفس الوقت خطرا يتهدد النظام ليس فقط من أجل الأسوة السيئة للذين يعملون ، ولكن لأنه كان فى رأى الملاك صنو الجريمة ، كانت عصابات قطاع الطريق ، وليدة المجتمع اذ أنهم كانوا معتبرين بين

النازحين من الريف المصطرون أن يحيوا حياة اجتماعية وفي ظل ظروف كهـذه اتخذ المجتمع الهامشى خلقا عدوانيا يتسم بجماعات نظمت نفسها للانتهاك المستمر لقوانين من النظام القائم فى الحرب ضد التشرد ، وأكثر تعميما فى تنظيم جهاز قمعى فيما يتعلق بالجماعات الهامشية – يمكن تمييز موقفين يختلفان بقدر ما يتماثلان يتميز الأول بحماية المذاهب الميكانيكية للنظام الاجتماعى الذى اعتبر الخارجين عن القانون كخطر عام • والكبت فى هذه الحالة كان موجها ضد الشذوذ باسم عدم انتهاك حقوق الشخص والملكية وقد استوعبته الجماعات الهامشية فى أوساط اتسمت بالانحراف • والخط الذى كان يفصل المتشرد والخالى من العمل وبدون موارد مالية عن اللص ، أصبح غير واضح• وأضيف الى هذه الحوافز اعتبارات الصحة العامة • ولكون الأوبئة كانت تهديدا مستمرا فان كل المهاجرين بما فيهم التجار والفنانين المتجولين كانوا يعتبرون عوامل محتملة للتلويث • وفى حالة المتشردين والفقراء المهاجرين ، فقد كانت تعاستهم تامة ، وفحشهم ونقص التغذية هى التى عززت الرأى القائل بعزلهم عن المجتمع •ومنذ منتصف القرن الرابع عشر أثبتت التنظيمات المحلية فى ما يتعلق بصحة الشعب انه كان على المتشردين أن يتركوا المدينة بمجرد اخبارهم بحدوث وباء •

والنوع الثانى لكبح التشرد كان متصلا بحالة سوق العمل والحاجة الى القـوة البشرية ، وهو موقف مميز لعملية التحول من النظام الاقطاعى الى الرأسمالى ،ومن عملية التراكم البدائى لرأس المال ، والحقيقة ان وجود نظام الطبقات فى الريف جعل المجتمع الريفى مسرحا للبروليتاريا فى جزء واحد من سكانه ، وهى عملية تشكلت وازدادت سرعة تحت تأثيرات أزمات الطعام المفاجئة : لقد دفع الجوع جماعات من الفلاحين نحو المدن بحثا عن نجدة سريعة ، ولكن كثيرين منهم لم يجدوا بعد فترة غير طويلة سببا للعودة الى قراهم • ان التحول الى طبقة العمال (البروليتاريا) وتجريد الفلاح من وسائله فى الانتاج ، وقيامه بالعمل من خلال وسائل اقتصادية اضافية اجبارية على السواء ، عن طريق ترحيل جمهور من الفلاحين من الأراضى التى زرعوها حتى آنئذ • وهكذا ظهر جمهور الفلاحين الذين تحولوا الى البروليتاريا فى سوق العمل بالمدن حيث أمكن أن يصبحوا عاملا قويا فى عملية التصنيع • ويجب ملاحظة أن هاتين العمليتين ، وهما تدفق اناس « لا فائدة منهم » من المناطق الريفية ، والتصنيع لم يتوافقا دائما ، والفارق الضخم المتكرر فى التزويد ومطلب القوة البشرية استطاعا أن يستمرا وقتا طويلا ، وعلى أية حال فان ذلك كان ذا فائدة كبيرة للمقاولين الرأسماليين . كما كان كذلك مفيدا لكبار أصحاب الأراضى ، حتى ان هذه الجماهير من غير العاملين كانت تتواجد فى سوق العمل • وقد أدى تكاتفهم كقوة عمل مدخر الى أجور منخفضة،وساند تراكم رأس المال ، كما ضاعف الايراد أيضا للطبقات المسيطرة • وهكذا كان الدافع الاقتصادى للنظام الحديث للحد من الأفراد الهامشيين قائما فى العهود التى كان يستند فيها الطلب على القوة البشرية كما كان فيها ابان العهود التى انخفض فيها هـذا الطلب •

ان تركيب مجتمع هامشي مثل طبيعة التركيب الآلي للتكيف أو الكبت في ما يتعلق بجماعته المشتركة المتباينة في ظروفها • ان مدى وجوهر فكرة الهامشية نفسها قد تغير جذريا • وقد اتخذت الجماعات الهامشية في اتصالاتها مع التشكيلات الاجتماعية الثقافية الموجودة وظائف معينة مفيدة لا غنى عنها ، بالرغم من الازدراء الذي التصق بهذه المهن • والاجراءات الاستثنائية التي اتخذت نحو اليهود لم تمنع دول الغرب الكاثوليكية من الاستفادة من خدماتهم في أمور تقديم القروض برغم ان ممارسة كهذه لم تكن تستحسنها الفضيلة المسيحية • كما استفيد استفادة كبيرة من المهارة في عالم المعادن من الصناع من الغجر الذين كانوا يتجولون عبر أوروبا منذ القرن الخامس عشر •

وبما أن الرعاة أثاروا شعورا من الخوف مختلطا باحتقار ، وكانوا مبعدين من جماعات القرية بعد فرضه عليهم نوع الحياة التي كانوا يعيشونها ، الا ان الناس كانوا يجدون أنفسهم في حاجة اليهم • وهكذا كانت الحال بالنسبة لجميع المهن في جميع العهود ، من الجلاد الى دابغ الجلود والى منظف البواليع • وفيما يتعلق بالمجتمعات المتقدمة في القرن العشرين ، فان هذه المهن كانت حتى فيما قبل العصر الصناعي يمتهنها في معظم الأحيان أناس من دول أو قاليم أخرى •

وبخصوص الجبهة الأولى للهامشية ، فأنا نلاحظ مشابهات متقاربة بين المجتمعات الزراعية وذلك لأن التطبيق العملي للثقافة والمواقف العقلية ظل هناك قائما فترة طويلة • وقد لعبت الجماعات الهامشية في هذه الحالة دورا فعالا أو غير فعال • وباستقرارهم في أدنى مستوى من التسلسل الاجتماعي ، شاركوا بدرجة قليلة جدا في حياة المجتمع ، ومهامه الاقتصادية وفي تحقيق أيديولوجيته ، أو لم يكن لهم تأثير في تركيباته • ودعنا نتناول حالة الشحاذين •

وطوال الألف عام بأوربا (ولكن أيضا في عصور أخرى ومدنيات أخرى) كان الشحاذون ظاهرة متواصلة وثابتة ، ان الاعجاب الاخلاقي الرفيع بالمعونة المعطاة للفقراء والضعفاء لم تكن تعزى فقط الى مبادىء أخلاقية والزامية في الديانات العظمى – اليهودية والمسيحية والاسلام – ولكن أيضا الى العاطفة الانسانية ذات المساواة والتقدير العالي الذي احتفظ فيه بالاحسان وتراث منحدر من معظم المجتمعات القديمة • وللوثائق التي تتحدث عن الصدقات الموزعة باستمرار على أناس معروفين ومسجلين ، تدل على أن عدد الشحاذين كان عادة لا يتجاوز ١٪ من عدد سكان المدينة •

اننا لو اعتمدنا كما سبق على هذه الوثائق وحدها لأفضت بنا الى استنتاج أن عدد الشحاذين لم يتجاوز بوجه عام واحدا في المائة من سكان مدينة ما • ومع ذلك فالمعلومات عن التوزيعات المعارضة تبين وجود جماعات هائلة من المعوزين ، فكانت شركة القديس ميخائيل في فلورنسا في القرن الرابع عشر تعطي الصدقات بانتظام ألفا من الناس ، ولكن في عام ١٣٣٠ عندما تطلبت مصطلحات التراث أن توزع

الصدقات على جميع المتسولين باستثناء « الفقراء المرقبين » : والفقراء الذين كانت تضمهم المستشفيات بلغ هؤلاء نحو ١٧٠٠٠ نفس • وفي القرن الخامس عشر في أجزبرج استفاد نحو ٤٠٠٠ من الناس من توزيع الصدقات ، ولكن قائمة الوثائق المالية اقتصرت على ١٠٧ من المتسولين بالمدينة • وفي غرب أوربا ابان العصور الوسطى نميز فئتين من المتسولين : المستقرين بالمدينة ، والمتجولين من مدينة الى مدينة ، ومن قرية الى قرية ، وفقا لأيام الاعياد والأسواق الخيرية وتوزيع الصدقات بواسطة الأديرة • ومع أن الصدقة قد نصحت بها الديانة المسيحية ، الا أن المتسولين كانوا هدفا للازدراء ، وأسبغ عليهم السخرية المسرح الايطالي والفرنسي في أخريات القرون الوسطى ، وكانوا دائما مصدر خوف ، وكان يطلق عليهم أعداء البشرية ، وكانوا يتهمون بحقدهم على الأثرياء •

ونجد في منطقة مختلفة ثقافيا « روسيا القديمة » موقفا مشابها • ان مجموعة القانون في عام ١٥٨٩ ، في الجزء الذي يعالج المبالغ التي تدفع تعويضا للاضرار ، تعيد النظر في طبقات الفقراء المختلفة • وهي أولا تلائم الأرامل والشحاذين الذين يعيشون بالقرب من الأديرة أو الكنائس ، ثم المتسولين المتجولين ، والأناشيد المرتلة ، والنواح ، وأخيرا المتسولين المقيمين باستمرار في موسكو • وتتبع القائمة خطا تصاعديا ، وهكذا فان المجموعة الأخيرة تكون معتبرة هي الأفضل أو الأكثر جدارة • وفي كافة المجموعات بجانب الشحاذين ، والأبناء المعتبرين غير شرعيين ، والمحرضين على البغاء ، وقارئ الحظ (ويتساوون في هذه الحالة مع المجموعات الثلاث) كان مبلغ التعويض ضئيلا ، أما اللصوص وقطاع الطرق ، والذين يحرقون المباني عمدا ، وجميع أنواع المخادعين لم يكن لهم الحق مطلقا في التعويض ، ومن الواضح ان الوثيقة تنزل قليلا من كرامة المتسولين ، الا أنها تميزهم برغم ذلك عن المخادعين وتضعهم فوق غير الشرعيين والمتكهنين والمحرضين على البغاء ، ومن ثمة فاننا نجد في روسيا في القرن السادس عشر انها تعامل المتسولين كجزء عملي من المجتمع كما كان الوضع في الغرب ، وبينما كان غرب أوربا في القرن السادس عشر قد بدأ في تطبيق سياسة جديدة نحو المتسولين ويعطيهم وضعا متكافئا مع العاطلين والمتشردين وتحتجزهم في بيوت العمل ، كانت الأديرة في روسيا قد أوصت بمواصلة حمايتهم •

ونحن نلاحظ نفس التشابه الجزئي في الاستيعاذ الذي أثر في أوربا الشرقية وأوربا الغربية • ولقد عاملت الكنيسة هؤلاء « أبناء جالوت » من ممثلين وقصاصين ومحتالين بعداء ملحوظ • وأطلق عليهم (هونوريوس أوجستو دونيسيس) جميعا « كهنة الشيطان » • وبتحفظ عظيم وبطء بالغ قررت الكنيسة أن تجيز الموقف الأخلاقي لهذه الطبقة من الفنانين ، كما أدركت القدرة على امكانية ترويض نشاطهم بتحديد دور لهم في نشر الأديان • لقد كان هذا بداية المسرح ومولد التمثيل المسرحي للمشاهد الدينية بواسطة الممثلين الهواة ، ولكن الممثل المحترف كان معوقا مدة طويلة في العداء والارتياب • وفي روسيا كان الدجالون المتجولون هدفا للكبت من جانب السلطات

الكنسية التي كانت . وقد بقي هذا الوضع مدة طويلة ، وله أمثلة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ان الناس قد أبدوا لى قدرا أكبر من التسامح تجاه (الدجالين المتجولين) الذين عاشوا عيشة مستقرة . وفي أوصاف الترى يصورون مع الفلاحين جنبا الى جنب ، وبالمثل في المدن الغربية ، كان الموسيقيون أو المغنون لهم مؤسساتهم الخاصة في بعض الأحيان . وهناك أيضا مواقف مشابهة تختلف من حيث الترتيب الزمنى ، وفى كل من الحالتين كان الدجالون من جميع الأنـواع متهمين بالقيام بدور فاجر حيث كانوا يقومون بمسرح مدنس ومسرحيات هزلية تسخر من النظام الشعبى ، وانحراف مناقض للطراز الأخلاقى . ومن الأهمية بمكان انه فى القرن الخامس عشر كانت الكلمة البولندية (سكومروسنى) اى الدجال قد استخدمت فى معناها البذىء غير المحتشم .

وفى البحث لتحديد الصفات العامة المميزة لهامشية التشرد باستعمال المقارنة ، ينبغي ملاحظة انها تنشأ وتتطور على طول حدود مجتمع عالمى ، فكرة يجب أن نفهمها فى معناها الثنائى : أولا التخم أو الحد الفاصل للمنظمة المسكونة عن المساحات الواسـعة غير المنزرعة ، ثم الحد الداخلى ، على الحافة المشوشة لمجتمع ما .

وفى غرب أوربا كان الدور الخاص بالنموذج الاول للتشرد محـدودا بالأقاليم الجبلية . وفى جبال الألب والبرانس أصبح التشرد عدوانيا ، وأصبحت مجموعات المتشردين عصابات من قطاع الطرق ، ونقابل نفس نموذج التشرد العـدوانى فى الأقاليم الجبلية بالدول السلافية ، حيث كانت لصوصية قطع الطرق أسلوبا تقليديـا للفرار من المجتمع .

ومع ذلك ففى شرقى أوربا وجد المتشردون والهاربون الذين يبحثون عن الافلات من الخضوع للنظام الاقطاعى أو المطاردة بواسطة القانون ان ملجأهم الأكثر اطمئنانـا كان فى المناطق الفسيحة التى كانت لا تزال غير مسكونة ، أو كانت فى بداية الاسكان على نحو هزيل . وفى مناطق الحدود هذه ، على حافة الدول نرى تشكيل جماعات متفاوتة ذات استقرار اجتماعى مشكوك فيه كثيرا ، وهناك يشهد اندماجا نوعيا لهامشية اقليمية وهامشية اجتماعية والقوزاقيون فى أوكرانيا وجنوب شرقى روسيا يعتبرون مثلا لذلك . ويمكننا أيضا أن نذكر المصير الهام للمجموعات القوزاقية فى بولندة وروسيا واستخدامهم فى الأنظمة العسكرية .

وهكذا نصل الى مشكلة أكبر ، وهى الدور الذى لعبته الحرب فى خلق التشرد وفى استغلالها الاجتماعى . ان كل حرب خلقت مجرمين من حماية القانون ، وكل تسريح أطلق سراح رجال كان النزاع والعربدة فى دمائهم ، ولذلك كانوا يحيلون لها مواصلة نفس الأنشطة فى خارج الوحدات العسكرية المنظمة . وكانت الجيوش فى وقت الحرب تتبعها اعداد كثيرة من السلابين والمتشردين ، وانتفع منهم القادة العسكريون

بادماجهم فى قواتهم المسلحة عندما مست اليهم الحاجة ، ان الهامشيين والمجموعات التى أنشأنها كانت تستخدم ايضا بأسلوب مكشوف تقريبا بواسطة مجموعات معادية أثناء الحرب المدنية والصراعات المحلية والحروب الخاصة .

ولقد وصف مؤرخ من أمريكا الاسبانية فى القرن الثامن عشر التشرد الذى امتد فوق أراضى السهوب العشبية ، حيث أصبح التجول طريقة دائمة للحياة لقد عاشت فى هذه الاقاليم المعشوشبة والسافانا جماهير من (الناس المفقودين) كما كانوا يسمون فى عام ١٦١٧ بواسطة حاكم بيونس ايرس ، وهم أناس كانوا يعيشون بالصيد أو بسرقة الماشية اذا اقتضت الضرورة . وكان لابد للحروب أن تضخم من هذه الجماعات المتشردة ، وبجوار كل مسرح من المجموعات العدوانية كانوا يستقرون عائشين بالنهب أو على أجر جنود مرتزقة ، وعلى استعداد للخدمة فى الحرب ، ولكن غير مترددين عن مباشرة المعارك المسلحة على حسابهم الخاص ، ومتسببين فى حروب فوضوية ، وهى تذكرنا بالثورات القوزاقية .

ان هذا النوع من التشرد يرينا مجموعات هامشية فى مظهرهم كخطر على النظام العام ، وهو أيضا الحجة المبررة لاتخاذ اجراءات كبت ضد التشرد الداخلى ، ولكن مشكلة العمل فى الحالة الأخيرة متداخلة يتضمنها منظور خلق مجتمع صناعى .

وبمقارنة الموقف فى شرق وغرب أوربا ، ينبغى أن نأخذ بعين الاعتبار التحول فى تطورات النظام الزراعى فى هاتين المنطقتين الاقتصاديتين المختلفتين . وفى نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر فى دول شرقى الألب ، كانت توجد نزعة قوية للرجوع الى النظام الاقطاعى ، وهى نزعة كانت تبحث عن تطوير اقتصاد النبالة المؤسسة على السخرة ، وتقييد الحرية الشخصية للفلاحين .ومنع التشرد له هنا دلالة اجتماعية أخرى . وفى الدولة التيتونية طوال النصف الأول من القرن الخامس عشر كانت توجد أوامر مشددة لمطاردة المارقين من المدن والحانات ، وكان التسول محرما على الناس القادرين على العمل وكذلك كان تقديم العمل الاضطرارى موضع اعتبار ، وفى بولندة كانت التشريعات التى سنت فى عام ١٤٩٦ ، تشير الى تقييد حرية حركة الفلاحين وكذلك الى المعركة ضد فرار الفلاحين ، وكانت هناك تشريعات كذلك تمنع السلطات المحلية ورعاة الأبروشية من ممارسة سيطرة قاسية على حقوق التسول وتزويد الشحاذين بزى خاص ، واجبار جميع الرجال ذوى القدرة البدنية على أداء عمل مفيد ، أو المشاركة فى بناء التحصينات . ويمكن أن يقارن هذا القانون بالتشريع المشابه ضد التشرد فى فرنسا أو انجلترا ، ولكن ما يجعله مختلفا بنوع خاص هو سياق الكلام الذى يصاغ منه . والقانون فيما يتعلق بالشحاذين مصاحب لمجموعة قوانين بيوتركو التى تنص على تحريم الهجرة لأسباب اقتصادية من ماسوفى الى بروسيا أو سيليزيا ، ومن قرية الى مدينة ، ويتناول التحريم بادىء الأمر طبقتى الفلاح الفقير والعمال الزراعيين البارعين ، وفى حالة الهجرة من المزارع الى المدن يطبق القانون على

أولئك الذين ليس لديهم أماكن لاقامتهم الخاصة ، ويعيشون على الأرض بايجار أسبوعي. وقد كان الكبت في جميع هذه الاحوال من أجل أهدافه الاعتماد على النشاط البشري الرخيص لاجل الاقتصاد المزرعي . ويوجد نفس الهدف في غرب الألب ، ولكن هنالك له وجهة نظر للتنمية مختلفة الى أبعد حد . وفي الغرب أصبحت القوة البشرية الرخيصة عاملا هاما في تراكم رأس المال ، بينما كان في الشرق عنصرا لتماسك اقتصاد المزرعة . والاختلاف الجوهري يشاهد أيضا على المستوى الاجتماعي . وفي غرب أوربا كان كبت التشرد يسعى اليه عند ما يراد احداث ضغط على سوق العمل لتزويدها بالقوة البشرية .

وفي شرق أوربا اتجه ميدانيا الى تقييد حرية حركة الفلاحين . ولقد كان الناس المارقون مصدر ازعاج ، وان كانوا مستغلين بواسطة النبلاء . وكانوا في روسيا ابان القرن السابع عشر يعاملون كمتسكعين ، وكان الفلاحون اللاجئون يوجدون بينهم معظم الأحيان وكان هؤلاء العمال البارعون المتجولون يندمجون في نظام التبعية الاقتصادية الذى منحهم القدرة على المعيشة المستقرة وتكوين أسرة .

وفي بولندة وروسيا ابان القرنين السادس عشر والسابع عشر كان الحافز الأساسي للاجراءات الكبحية ضد الناس المارقين يختلف باختلاف معايير النظم الاجتماعية . وقد عارض المارقون نظام استعباد وتبعية الفلاحين ونظموا جماعة « خطيرة » كانت اتهمت باللصوصية وقطع الطريق . وقام بوصف أول هذه الأخطار بصراحة الكاتب أنزيلم جوستومسكي بقوله : « ان المتشردين يجب أن يكبح جماحهم حالما يظهرون ، لأنهم يحرضون القرويين على هجرة القرية وينضمون الى قرناء السوء .

ومع تعميم اخضاع القروى رأى هؤلاء القوم أنفسهم قد أعطوا نفس المنزلة مثل القرويين الهاربين وكانت الاجراءات التى اتخذت ضدهم بواسطة الأشراف ذات صفة مميزة جدا . واضطرت المدن الأولى الى اغلاق أبوابها قبل هؤلاء الناس والذين أرادوا قضاء الشتاء فى مدينة ، مؤجرين أنفسهم عند الاقتضاء ، مقابل أجر زهيد أو طعام بسيط ، وفى نفس الوقت فان المقاييس التى حاولت أن ترسخهم بواسطة استخدامهم فترة طويلة ، كانت اجراءات انتهت بجعل العامل الذى استؤجر تابعا لغيره ، ورد المتشرد الأول الى التربة .

الواقع أن اقتصاد النبلاء كان بحاجة كبرى لهؤلاء العمال الدوريين ، في نظام ، كان التوسع الاقتصادى فيه متأثرا أساسا بزيادة فى القدرة البشرية ، وكان الضرورى أن يلجأ الى استخدام كل رجل متاح دون التفكير كثيرا جدا فى أصله . وكان هذا حقيقيا أيضا حين كان مجالا للتوسع فى أرض عذراء ، أو التوسع فى التعدين وفروع أخرى من الانتاج . وقد استخدمت جماعات كبرى من (الجولاسيجى) - كبيرة الى أبعد حد الحكم من جراء عدد ضحايا الطاعون عام ١٦٩٢ ، بمدينة استراخان وحسب - كانوا مستخدمين على أراض تقع عند مصب نهر الفولجا ، وقد جاء الناس هناك

من جميع أرجاء روسيا ، اما قانونيا أو فروا من قراهـم متطلعين الى حياة محـررة ووجود أفضل ، وكان يستطيع الشخص أن يميز ثلاث فئات بين الجولاسيج : رجال مارقون ، رجال تركوا مؤقتا قراهم الفطرية وزراع هاربون ٠

وفى القرن الثامن عشر تغير الموقف في هذه المنطقة الأوربية المتطورة تغيرا جوهريا وانصرف التشريع الآن لتحديد نماذج وجود هذه الفئات وطرق خدمتهم لكى يخلق أيضا ضغطا يجعل لهم وظيفة على سوق العمل ، وهى فى الحقيقة عملية مشابهة لتلك التى حدثت فى المنطقة الغربية فى القرون الأولى من العصر الحديث ٠ ونشـأة التشرد كانت متشابهة فى جميع الحالات ، فقد كان منشؤه انحلال العلاقات الاقطاعية وتعميق التغير الاقتصادى والاجتماعى فى المناطق الريفية ٠ انه كان نتيجة انتقال كتل بشرية من القطاع الزراعى الى غير الزراعى انتقال خسروا فيه السيطرة المباشرة على وسائل الانتاج ، وكانوا مضطرين الى استخدام أنفسهم فى الخارج ٠ وفى خلال هذا الانتقال الذى كان اجراء مؤلما على المستوى الفردى كما كان على المستوى الجمـــاعى ، وخسر المهاجرون وضعهم الاجتماعى والمساندة التى حصلوا عليها من الروابط التقليدية الخاصة بالجماعة المحلية ، وتجمعوا داخل المدن التى كانت عاجزة عن ممارسة سيطرة عليهم أو خارج أبواب المدينة ، وكانت المدن غير قادرة أن تعطيهم عملا تلزمهم بوجود مستمر يجذبهم بدرجة كافية ، ويحصلون على أجر جيد بجانبـــه الكفـاية بحيث كان يؤدى الانتقال من تشكيل الى آخر ، لا يجلب معه حشودا من المتشردين الذين كانت حياتهم فى حركة مستمرة من موضع الى آخر ٠

ولم تكن هذه الحرف التقليدية قادرة على استيعاب هذه الجماهير من الناس غير المؤهلين ، لأن تعيينهم فى المدينة كان يحتاج منهم الى مؤهلات أو موارد ٠ ومن الناحية الأخرى فان الصناعة القروية كن فى مقدورها توظيفهم ، وهكذا تضع مكبحا عـلى رحيل الناس من الريف ، وفى هذه الحالة ، بدلا من الرجال كانت الصناعة هى التى تحركت ٠ ونحن نرى هذا فى انجلترا وهولنده ابان القرنين السادس عشر والسابع عشر ولم يكن للصناعة الرأسمالية والمصانع مؤهلات لابد من توفرها ، وقد حولت كتـــلة المنتجين السابقين المزارعين والحرفيين الى المستوى البروليتارى ، وهكذا أنشأت مخزونا واسعا من النشاط البشرى للصناعة ٠

واستمرت الحواجز الاجتماعية النفسية ، وكان اتساق حياة المدينة غريبا عـلى القادمين الجدد من الريف ، وكان نسيج الروابط الاجتماعية مختلفا تماما ، وكانت الحياة الاجتماعية مدموغة بالغفلية ٠ واذا لم يكن العمل الصناعى بحاجة الى مؤهـــل نوعى فانه برغم ذلك كان يتضمن تكيفا لعمل مضبوط يتم انجازه أثناء ساعات عمل محددة ٠ وقد حدث استيعاب المزارعين السابقين بواسطة مدنية القرون الوســطى ببطء وبالتدريج بواسطة ميكانيكيات التكييف مثل التلمذة الصــناعية ، والحياة مع أسرة فى المدينة وهكذا ٠ والتصنيع الذى كان قد جلب تدفقا ثقيلا من الســكان

الريفيين الى داخل المدن لم يكن برغم ذلك قد خلق ميكانيكيات كهذه . وقد حل محلها فى البداية اجراءات مقيدة ، نظام بوليسى لتنظيم مجموعة ضخمة من الفقراء غير مكيفين للعمل الصناعى وكان هذا جزءا من التكلفة الاجتماعية لمولد الرأسمالية .

اننا نرى بين الدول الأوربية التى فى الطريق الى التصنيع ودول المنطقة الزراعية فى شرق الألب ، فى بداية العصر الحديث ، انحرافا متطرفا فى معاملة الجماعات الهامشية الاقتصادية الاجتماعية ، فمن ناحية كافح القمع المتشرد ،والمخادع باسم العمل الأخلاقى من أجل الحاجة الى سوق العمل ومن الناحية الأخرى كانت مسألة المحافظة السليمة على القروى بوصفه جزءا ضروريا للنظام الاجتماعى .

ولذلك كان القمع موجها ضد القروى الهارب . ولكن اذا كنا نسمح بتجاوزات فى تحليل مقارن للاختلافات فى الزمن ، فاننا نجد على كل من جانبى الألب تشابهات واضحه فى العمليات الاجتماعية المرافقة للانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية .

وهنا يمكن اضافة عنصر ثالث للمقارنة : الظاهرة الاجتماعية للتصنيع المعاصر بالدول النامية فى الوقت الحاضر ، التى نفذت فى ظروف تحلل بطىء لمجتمع تقليدى . ونجد عددا من ظاهرات معروفة جيدا : عدم تكييف المهاجرين من الجاليات الزراعية مع العمل الصناعى ، وتكوين كتلة من الناس على هوامش المجتمع ، ولكن فى هذه الظروف يرتفع استيعاب هذه الكتلة بواسطة المجتمع الصناعى ضد عائق المؤهلات، لأن التصنيع فى القرن العشرين يسير فى البداية على مستوى تكنولوجى مرتفع جدا . ولهذه الحالة صدى فعال على سوق العمال التابعة لهذه الدول : ان تطورها يؤثر فى مستويين مختلفين : مستوى العمال المؤهلين ، ومستوى العمال غير المؤهلين،ولاتستخدم الكتلة الهامشية ، حتى وظيفة « الجيش الاحتياطى » الخاص بالصناعة الرأسمالية ، ولا نجد امكانية لتكييف نفسها مع مجتمع صناعى اذ هى تنصب نفسها فى خارجه ، وهكذا ، فان الصورة الثالثة المقارنة ، بينما تظهر تشابها أصلا لعمليات معينة ولأوضاعها السيكولوجية ، فانها تبين أيضا الاختلاف الأساسى فى التطوير والموقف ؛ وقد عدل الزمن بالفعل الحقائق الأساسية للمشكلة .

ثبت

● العدد وتاريخه	● العنوان الأجنبى	● المقال وكاتبه
العدد : ٩٩ خريف : ١٩٧٧	Ideology according to Marx and according to Nietgsche by Paul Veyne	● الايديولوجية فى رأى ماركس وفى رأى نيتشـــة بقلم : بول فنى
العدد : ٩٩ خريف : ١٩٧٧	From Myth to Folklore by Elizar M. Meletinsky	● من الأسطورة الى الفولكلور بقلم : اليزار ٠ م ٠ ملتنسكى
العدد : ٩٩ خريف : ١٩٧٧	Fables, formes et figures par André Chastel	● أساطير وأشكال وصور بقلم : أندريه شاستل
العدد : ٩٨ خريف : ١٩٧٧	Men without masters : Marginal society during the per-industrial era by Bronislaw Geremek	● أناس مارقون : مجتمع هــامشى قبيل العصر الصناعى بقلم : برونيسلو جيريميك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٨/٣٨٥

١٣ ربيع الاول ١٣٩٩

١٠ فبرايـــر ١٩٧٩

١٠ شـــباط ١٩٧٩

العدد الرابع والاربعون

الســنه الثانيـة عشرة

ديوچين

مصباح الفكر

محتويات العدد

وقت الفراغ .. فى خدمة الإنسان

الحديث عن وقت الفراغ ، يمكن أن يطول ٠٠

والتعرض لوقت الفراغ ، من حيث النظـــرة الدينية ، او من زاوية أثر رجال الاعمال ، أو من ناحية ضبط الايقاع على أسس حســابية وموضوعية ، وصـــلة ذلك كله بالمواظبة والدقة فى الارتباط بين الزمن والعمل ٠٠ كل ذلك قد مر بظروف تاريخية تنوعت فى كل مجتمع ، وفقا لظروفه ٠

أنما أهم من ذلك كله ، هو صلة وقت الفراغ بالانسان ، وتأثيره عليه ، وأثره فيه ٠

والذين يدرسون وقت الفراغ ، سيجدون أن وقت الفراغ ، قد ســاهم فى تكوين الشخصية الانسانية ، بحيث نستطيع أن نصل الى الاهمية البالغة لوقت الفراغ فى تكوين الانسان ٠

فالفرد لا تتكون شخصيته من خلال وقت العمل ، برغم تأثير نوع العمل وطبيعته فى الافراد ، لان هذا التأثير يصـــبح نمطيا ومكررا فى كل الافراد ، الذين يؤدون عملا واحدا ، او متشابها ٠ أن المشتغلين بمهنة واحدة ، أو حرفة واحدة ، تتكون لهم طبيعة تكاد أن تكون واحدة ، كما يظهر عليهم مزاج واحد ،

عبد المنعم الصاوى

يكاد أن يتكرر فى كل فرد من أفراد المهنة أو الحرفة ، وعندئذ تضيع الشخصية الفردية أو تختفى وراء هذا التكرار ، فلا تستقل بنفسها بميزات تنفرد بها عن سائر الشخصيات الاخرى ٠

أما وقت الفراغ ، فأن تأثيره على الانسان مختلف تماما عن تأثير وقت العمل عليه ٠ أن الفرد ، أثناء وقت الفراغ ، لا يشعر أنه مقيد بشىء ، أو أن عليه عملا واجب الاداء ، لكنه يشعر أثناءه أنه حر ، يستطيع أن ينام ، أو أن يسترخي ، أو أن يستثمر هذا الوقت فى قراءة يفضلها ، أو الانصات الى قطعة موسيقية يحبها ، أو ممارسة رياضة ، تعود عليه بالصحة والقوة والنشاط ، أو الانخراط فى نشاط ما ، مع جماعة ما ، يشعر نحوها بالارتباط أو الالفة ٠

بهذا تتطور ملكاته ، وتنمو قدراته ، وتتكون شخصيته ، وفقا لارادته الحرة ، دون الزام أو قهر ، أو فرض لارادة ما عليه ٠

وهكذا تصبح كل القنوات أمامه حرة ، وطليقة ، وميسرة ، وخاضعة فى كل الاحوال لاختياره هو ، دون تدخل أحد ، أو املاء شىء عليه ٠

وهكذا يؤثر وقت الفراغ ، فى تكوين الشخصية الفردية للانسان ، ويرتقى بمواهبه ، بقدر ما يبذله الفرد من جهد ، فى تنمية هذه الملكات ٠

ولا شك أن ذلك كله يعود على العمل الذى يؤديه ، فيصبح أقدر على ممارسة مسئولياته ، وأكثر نجاحا فى القيام به ، مما يفيد العمل الذى يمارسه ، فى مهنة أو حرفة أو وظيفة ·

ومن هنا تتميز شخصيات الافراد ، من خلال تميزهم فى اختياراتهم أثناء أوقات الفراغ ·

ومن هنا يصبح وقت الفراغ عاملا مؤثرا فى سلوك الفرد والجماعة ، لما يهيئوه من فرص الافادة من النمو الفردى والجماعى فى الارتقاء بالنوع ، والارتقاء بالاداء جميعا ·

اذا أضفنا هذه النتيجة ، الى حصيلة ما يصل اليه الانسان من نتائج ، فأننا نجد أن وقت الفراغ ، قد أدى دورا هائلا فى التطور الانسانى ، فارتفع بمستوى الفرد ، وبمستوى الجماعة الى حيث يطمع الانسان فى تحقيقه ·

ولقد كان لوقت الفراغ فى هذه الناحية أثره البالغ فى نشأة عديد من الدراسات ·

فدراسات الثقافات الانسانية قد فرقت بين المجموعات الانسانية ، على أساس ما يتوفر لكل مجموعة من وقت فراغ ، تستثمره فى الارتقاء بالنوع ، وبالاداء ·

ان الجماعة التى لا تجد وقتا للفراغ ، تعانى من زحام الحياة ، فالافراد مشغولون بأعمال لا تترك لهم فرصا لحرية الاختيار ، وأوقاتهم مكدسة بالحاجة الى لقمة عيش تكفل لهم أن يعيشوا ، فلا يجدون فرصة الخلوة مع أنفسهم ، يبحثون عن ذواتهم ، وعن أسلوب يطورون بهم ملكاتهم ·

أما الجماعة التى تجد لديها وقت الفراغ الكافى لتنمية الطاقات والقدرات ، فأنها تستطيع أن تكون نفسها ، من خلال حرية ارادتها ، ليصبح تحكمها فى العمل أكبر ، وقدرتها على الانتاج أكبر · فضلا عما يوفره وقت الفراغ لها من استمتاع بالحياة ، لا تحده الحاجة ، ولا تتحكم فيه الرغبة فى توفير لقمة العيش الضرورية ·

وقد أدى هذا الى وجود فروق عديدة بين نوع الثقافة التى تسرى فى المجتمع ، فثقافة الذين يملكون وقت فراغ أكبر ، تتميز بميزات لا تتوفر فى ثقافة المجتمعات المشغولة بالبحث عن القوت طوال الوقت ، حتى أنها لا تجد أمامها فرصا للنمو ، أو للارتقاء بمشاعرها الى المستوى الذى يتوفر لمجتمعات أوقات الفراغ ·

كذلك فقد أثر توفر وقت الفراغ لدى مجتمع فى عاداته وتقاليده وسلوكه ، بينما ظلت المجتمعات ذات وقت الفراغ المحدود ، مغلقة على نفسها ،

لا تعرف طريقا للنمو أو لرفع قامتها الى لمتعة التى توفرها المجتمعات الاخرى ٠

بل ان طبيعه العمل نفسه ، تختلف فى مجتمع عنها فى مجتمع آخر ، على أساس توفر وقت الفراغ ، هنا ، وضموره هناك ٠

وهكذا نجد أنفسنا أمام عنصر أساسى وظاهر ، يلون المجتمع كله بلون خاص ، على أساس وقت الفراغ المستثمر فى المجتمع لتنمية طاقات الافراد ، وتنمية طاقة الجماعة بالتالى ٠

ولعل أظهر ما تظهر من فروق بين المجتمعات ، هو الثقافة ، التى تستمد المجتمعات منها سعادتها وبهجتها واقتناعها بأن الحياة التى نعيشها ، تستحق أن نحياها ، وأن نحرص عليها ، وأن نحيطها بكل وسائل الجمال اللازم لها ٠

وتأثير هذا على الطفولة كبير وخطير ، فالطفل الذى ينشأ فى بيئة تعتبر الحياة منحة رائعة ، جميلة وساحرة ، غير ذلك الطفل الذى ينشـــأ فى بيئة أخرى تنحت الصخر لتوفر لنفسها الرزق ، لا تبالى بعناصر الجمال ، ولا تهتم بتزيين الحياة بملح الفكر ورقة العاطفة ٠

بل ان التأثير على الامة نفسها يصبح واضحا ، فحيث يسود الاستمتاع بالحياة ، تستقر الاوضاع السياســـية ، وتنمو المجتمعات ، بعيدا عن القلق والتوتر ، ومحاولة البحث عن شىء مفقود ٠

كل هـــذا يظهر ، من خلال الفروق بين أوقات الفـــراغ الميسرة هنـــا ، والمفتقدة هناك ٠

وكثير من الشرح والاسهاب يمكن أن يقوم دليلا على هذا جميعه ٠

وفى عصر العلم الذى نعيش فيه ، وفى عصر تقدم التكنولوجيا ، يصبح وقت الفراغ سمة من السمات ، يجب أن تستثمر لصالح الانسان ٠

وفاة مؤسس ((ديوجين))

الاستاذ روجيه كايوا

تلقى رئيس تحرير الطبعة العربية من مجلة ديوجين الرسالة التالية من السكرتير العام للمجلس الدولى للفلسفة والعلوم الانسانية :

باريس فى ٥ من يناير ١٩٧٩

سيدى الاستاذ

يدعونى الواجب الاليم أن أنعى اليكم السيد روجيه كايوا الذى توفاه الله فى ٢١ من ديسمبر ١٩٧٨ على أثر نزيف مخى .

والسيد روجيه كايوا خريج دار المعلمين العليا ، وحاصل على أجازة الاستاذية فى قواعد اللغة ، وكاتب ، وعالم اجتماع ، ومؤسس ومدير العديد من المجلات والمجموعات الادبية . انتخب فى عام ١٩٧١ عضوا فى الاكاديمية الفرنسية ، واشترك اشتراكا فعليا فى نشاط المجلس الدولى للفلسفة والعلوم الانسانية منذ ربع قرن . وفي عام١٩٥١ وضع مشروعا لمجلة دولية للعلوم الانسانية ، يتوافق مع الرغبة التى أبداها المؤتمر العام لليونسكو ، وقد أيدته الهيئات التى تتولى ادارة المجلس الدولى للفلسفة والعلوم الانسانية ، كما أيده بنوع خاص اللجنة الدائمة للمجلس . وكان هذا المشروع أساس مجلة ديوجين التى اقترن بها على مدى ست وعشرين سنة اسم روجيه كايوا باعتباره ملهمها ورئيس تحريرها .

روجيه كايوا مؤلف العديد من الكتب ، منها الاسطورة والانسان (١٩٣٨) ، والانسان والمقدسات (١٩٣٩) ، وبابل (١٩٤٨) ، والريب الآتى من الاحلام (١٩٥٦) ،والالعاب والناس (١٩٥٨) ، وتعميم الاسطاطيقا (١٩٦٢) ، والكتابة على الاحجار (١٩٧٠) ، ومربعات الشطرنج (١٩٧٠) ، ونهر ألفيه (١٩٧٨) . وقد حصل قبل وفاته ببضعة أيام على الجائزة القومية الفرنسية الكبرى للآداب . وكان لروجيه

كايوا تأثير عظيم على الادب الفرنسي • وكانت الدلائل التى تبدت اثر وفاته فى انحاء العالم كله من اليابان الى البرازيل والارجنتين تعبر عن الدور العظيم الاهمية الذى أداه فى مجاله •

وفى نطاق مجلة ديوجين بنوع خاص ، عكف عـــلى مكافحة كل ضروب الامتثالية الفكرية ، وتشجيع كل بحث طريف ، وتجديد جرىء واستكشاف المجالات الجديدة ، والاشادة ، عن طريق المقابلةبين الاساليب وباسم « العلوم الفطرية » بطرق أخرى خلاف طرق التخصص المفرط والبحث المجزأ •

كذلك اشترك روجيه كايوا فى أواخر نوفمبر ١٩٧٨ فى اجتماع المجلس الدولى للفلسفة والعلوم الانسانية الذى انعقد فى باريس فى دار اليونسكو وشيد بمجهوده الذى لم يعرف الكلالة • وان فى وفاته لخسارة كبيرة لمجلة ديوجين التى كانت قائمة أساسا على كاهلهوللمجلس الذى كان يستزيد من معارفه العظيمة واخلاصه ، والمجد المتألق الذى لا شك فى أنه سوف يزداد تألقا فيما بعد وفاته •

وأرجو أن تتفضلوا يا سيدى الاستاذ بقبول خالص آيات العزاء والتبجيل •

جان دوريسون
بالاكاديمية الفرنسية

ونحن اذ نشارك فى نعى الكاتب الكبير ، نوجه العزاء الى أسرته الصغيرة ، وأسرته الكبيرة فى المجلس الدولى للفلســـفة والعـــلوم الانسانية •

كذلك فاننا نتطلع الى المستقبل ، لنرى فلسفة الفقيد وآراءه قد أثمرت فى جيل جديد ، لنقرأ لكتاب كثيرين تأثروا به ، وساروا على نهجه •

والله نسأل للفقيد الرحمة •

عبد المنعم الصاوى



●● **المقال فى كلمات**

يدور المقال ـ حسبما يظهر من العنوان ـ حول ثلاثة موضـــوعات عامة يبدو لأول وهلة أنه لا صلة بينها ، ولكن الكاتب يبين الصلة الوثيقة بين هذه الموضوعات المتباينة ، بأجلى بيان ••

والموضوع الرئيسى الذى يعالجه الكاتب فى هذا المقال هو العمل التجارى ورجال الاعمال الذين يزاولون مهنة التجارة • وقد بدأ الكاتب مقاله بعبارة منسوبة الى الاستاذ جورج كولنز المختص بفن التســـويق نصها : « ان العمل التجارى هو رسالة العالم ، بل هو اهم اعمـــال البشرية » • وهو يخالف فى ذلك بعض البـــاحثين الذين اتهموا رجال الأعمال بانهم يميلون الى الفساد والرشوة ، ويؤيد رأى الكثيرين الذين رأوا أن الاعمال التجارية هى أداة لاصلاح المجتمع وأن رجال الاعمال قوم مصلحون • ويستدل الكاتب على ذلك بما قدره الأستاذ (هوبارد) ،من أن رجل الاعمال هو المصلح الحقيقى للمجتمع ، وأن علم الاقتصاد والتجارة

الكاتب : هليل شوارتز

أستاذ بجامعة كاليفورنيا • ومجال تخصصه التاريخ الاجتماعى والدينى لاوربا فى مستهل العصر الحديث • وقد قام بالتدريس بجامعة فى بيركلى وجامعة فلوريدا

المترجم : أمين محمود الشريف

عضو لجنة الترجمة بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

هو أهم العلوم الانسانية ، وأن التجارة هى فن الخدمة الانسانية ، وأن كل علم يخدم الانسانية انما هو عمل مقدس ، والخلاصة هى أن العالم لا يمكن اصلاحه الا عن طريق التجارة •

ويرى الأستاذ جورج •ر• كولنز أن الاقتصاد التجارى له أثره فى تكوين الاخلاق كالالعاب الرياضية • وحجته فى ذلك أن المجتمع يبدى فى الاقتصاد التجارى من سلامة العقل والتزام روح الجد ما من شأنه أن يوجه النزعات الأنانية فى الانسان الى تحقيق نتائج لا يمكن الوصول الى أفضل منها لو تجرد الانسان فجأة من الانانية ، وهو أمر لا يمكن أن يحدث من الناحية البيولوجية •

هذا وقد عالج الكاتب وجه الصلة بين التجارة من جهة والالعاب والساعات من جهة أخرى على نحو مفصل يستغرق المقال كله ، وذلك ببيان واضح وأسلوب شائق يستطيع القارىء ان يستوعبه بسهولة •

كتب أحد الأساتذة المختصين بفن التســويق فى ١٩٢٩ يقول : « ان العمل التجارى هو رسالة العالم ، بل هو أهم أعمال البشرية » • وقد قيل ان الاســتاذ جورج ر • كولنز – صاحب هذه العبارة – كان يبيع أسرار التجارة على أعتاب الكساد الاقتصادى ، والمراد بهذا القول أنه كان يبين للناس الأسلوب الاقتصادى السليم فى الاعمال التجارية ، والنظام الاقتصادى المبنى على حسن استخدام النقود • ولا أريد أن اخوض فى الجدال الذى احتدم بين كولنز وأمثال ألدوس هكسلى الذين اتهموا رجال الاعمال بأنهم قوم قساة القلوب ، يميلون الى الفساد والرشوة ، بل أريد أن أسلك احدى الطرق التى جعلت الكثيرين فى ١٩٢٩ ينظرون الى الاعمال التجارية باعتبارها أداة لاصلاح المجتمع ، ويرون أن رجال الاعمال قوم مصلحون •

والرأى الذى أتناوله بالبحث فى هذا المقال هو القول بأن نظرة الغرب الى الاعمال التجارية تماثل نظرته الى الالعاب • فقد ظلت الصورة العالقة بأذهان الناس عن العمل التجارى هى صورة القمار ، والصورة العالقة بأذهانهم عن رجل الاعمال هى صـــورة الرجل المقامر ، المغرم بألعاب الحظ والتلاعب فى الاسواق واتباع أساليب الاحتيال والخداع • وقد ذهب روجر كايوا فى دراسته للالعاب الى أن الحيـــاة الحديثة كلها مبنية على الصراع بين الجدارة والاســتحقاق (المنافسة) وبين الحظ والصدفه (المغامرة) ، ونقترن ألعاب الميسر التى يتوقف الفوز فيها على الحظ والصدفة بالتحدى الصارخ للقوى التى تنسج بيدها خيوط الاحداث. ولذلك كانت النظرة الاجتماعية الى القمار مشوبة بالسلبية أو التردد ، لأن أهل النقص من الرجال يميلون دائمــا الى الغض من أقدار أهل الكمال أو الاحتيال عليهم • ولذلك أميـــل الى القول بأنه متى سيطر رجال الاعمال على الحظ والصدفة تضاءل خطر التحـــدى والمغامرة وأصبحت لعبتهم – أى نشاطهم التجارى – قائمة على المنافسة لا على الحظ والصدفة •

وقد كان العامل الاساسي فى السيطرة على الحظ والصدفة هو التكنولوجيــا وفلسفة ضبط الوقت . فبفضل غزو الوقت استطاع رجال الاعمـــال غزو الحظ والصدفة ، واستطاعوا تنظيم ما هو أكثر من عالم التجارة ، وأصبحت لعبــة التجارة مقرونة بتنظيم أمور البشر ، وصار رجل الاعمال المغامر جديرا بالاحترام لنجاحه فى ممارسة الاعمال التجارية •

ولن أبدأ قصتى عن غزو الوقت والسيطرة عليه بالحديث عن الســـاعة المائية التى اخترعها الرومان ، بل أبدأها باختراع الساعة الميكانيكية الدقاقة التى كانت تدار بالاثقال فى القرن الثالث عشر • وكانت هذه الســـاعة الدقاقة تعلق عادة فى الكنـــائس والكاتدرائيات ، اذ كانت الكنيســة هى التى تتولى مراقبة الوقت أى دق الساعات ،وتقسيم اليوم والعام • وعلى الرغم من أن الساعات القديمة لم تصــل فى دقتها الى الحد المراد • فان استخدام الكنيسة للساعات كان دليلا على رغبتهـــا فى تنظيم المجتمع • ولذلك أخذت الكنيسة تدرك قيمة البيروقراطيـــة القائمة على الوعى الزمنى ، وادراك أهمية الوقت ، مستفيدة فى ذلك بالاساليب الجـــديدة للتنظيم التجارى والتشريع التجارى •

ولكن الحس الزمنى (القدرة على الاحساس بمرور الوقت) عند رجال الكنيسة كان محصورا بين عاملين : التجارة فى هذا العالم المقلقل المحفوف بالمخاطر والمجازفات، والتجارة النهائية فى أكثر العوالم استقرارا وثباتا • ومن هنا تحدث القسس بلهجة

قاسية عن الألعاب التى تستخدم الوقت (وقت الله) بطريقة غير حكيمة ، واعتبر العمل التجارى الدنيوى ضربا من ألعاب الميسر ، وقالوا ان ألعاب الميسر هى أسوأ أنواع الالعاب لان فيها ازدراء للعناية الالهية ، وان القروض والاستثمارات المالية ذات الفائدة الربوية هى أساليب لكسب المراهنات على المستقبل ، وأن رجل الاعمال يتلاعب بالتنظيم الالهى لأحداث الكون • ويتجلى الصراع بين التجارة والدين فى الصراع الدائر حول الوقت اليومى : فالتجار أقاموا الساعات الدقاقة فى المدن لتدق الساعات التى تعلن التقسيم الصناعى لليوم لا التقسيم الكهنوتى له •

على أن الناس لم ينظموا حياتهم فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر طبقا للساعة التجارية ، ولم يدع التجار فى عصر النهضة أنهم يتمسكون بأهداب الفضيلة، اذ أن الحظ لم يكن مواتيا دائما للتاجر الذى يراعى الصدق والأمانة فى معاملاته التجارية • وكانت التجارة أمرا ضروريا ، ولكن المخاطرة والمقامرة لم تكن جائزة فى نظر رجال الدين • ثم حدث بعد ذلك تنازل من كلا الجانبين ، ذلك أن رجال الكنيسه لم يحددوا معنى الربا والمغامرة تحديدا واضحا لا لبس فيه ، وأن التجار المخاطرين الذين أرادوا اراحة ضمائرهم من الناحية الأخلاقية بشأن العقود التى تنطوى على مخاطرة عمدوا الى كتابه اسم الله فيها باعتبار أنه هو الرزاق وصاحب الفضل فيما يعود عليهم من ربح • وفى مقابل ذلك حظت المؤسسات التجاريه الكبرى فى ايطاليا (آل بريل ، وبيروتشمى ، وميديتشى) بموافقة الكنيسة ، وقدمت هذه المؤسسات يد العون للمشروعات البابوية •

وقد ارتفعت فى الكنيسة ـ قبل اختراع الساعات الدقاقة ـ أصوات قوية معارضة تدعو للفصل التام بين التجارة والديانة ، وفى مقدمتهم القديس فرنسيس وخلفاؤه من الفرنسيسكان الروحيين المتشددين الذين ادعوا أن التجارة تهدد الايمان ، وأن المسيحيين يهتمون اهتماما عميقا بالثروة الصناعية فى الحياة الدنيا ، وأن الكنيسة ـ رغم معارضتها للمخاطرة والمغامرة ـ خاضت غمار المنافسة لدرجة أنها كبتت النزعة الى الألعاب التى شجعها الرسل المسيحيون • وكانت آراء القديس فرنسيس فى الوقت والألعاب تكاد تكون آراء هرطقية (مبتدعة) فى نظر الكنيسة • ذلك أن فرنسيس أصبح قديسا وهو صبى ، يميل الى الارتجال والتواضع الذاتى وايجاد نوع من الألفة بين النفس والحياة الدنيا ، وكان يرى أن المؤمن المتعبد لا يناضل ضد الحياة الدنيا وانما يلعب فيها بتلك البراءة التى تؤدى الى الرؤى السعيدة ، أو الشفاء من العلل والأمراض •

وبعد انقضاء نحو ١٧٥ سنة على اختراع الساعات الدقاقة قرب نهاية الكساد الصناعى الذى يطلق عليه اسم (النهضة) ظهر النقد الجذرى الذى وجهه رجال الاصلاح الدينى الى الكنيسة ، وفى مقدمتهم لوثر الذى قرر هو وخلفاؤه بكل وضوح أن الخلاص والنجاة فى الآخرة ليس ضربا من المقامرة ولا ضربا من المشروعات التجارية ، فلا يجوز للمرء أن يقامر من أجل الخلاص ، ولا أن يدخل فى مغامرات ومقامرات تدعى باسم الأعمال الصالحة ، ولا يجوز للمرء أن يتعامل مع الله بالنسيئة عن طريق شراء صكوك الغفران مع تأجيل دفع الثمن ، ولا أن يعقد صفقات تجارية مع الله • وأتهم لوثر الكنيسة الرومانية بأنها ليست سوى كنيسه مقامرة لا أكثر ولا أقل ، وتعجب قائلا : ما أشد جرأة الشخص الذى يساوم الله على غفران ذنوبه •

وقال انه لا يجوز أن يطمع انسان فى تبادل الأخذ والعطاء مع الله على أساس قانونى أو تجارى ٠ أن الخوف الصحيح من الله هو خوف الانسان أن يكون كل عمله لهوا ولعبا

وكان للعب فى نظر لوثر ، الذى لم يكن يجهل القديس فرنسيس ، جانبان : جانب اللهو الذى لا معنى له ، والنشاط الذى لا هدف له ٠ وقال لوثر أنه لما كان الانسان لا يستطيع أن يدعى أنه يدرك كنه الله ، فأنه يخشى دائما أن يكون كل ما يفعله لكى يكون يحيا حياة مسيحية ضربا من اللهو والضلال عند الله ٠ والحل الوحيد لكى يكون الانسان فى حالة خوف دائم من الله يكمن فى الجانب الثانى من اللعب ، وهو أن يلتزم الانسان جانب التواضع ويعد نفسه طفلا صغيرا ويتسلح بالايمان ٠ وقال ان حرية هذا اللعب هى الحرية التى يتمتع بها المؤمن الحق ٠

وخلافا لراى القديس فرنسيس ، يرى لوثر أن مثل هذا اللعب لا يتسم بشىء من الهزل والمزح بل يتسم بالرصانة والرزانة .وتجاوبا مع هذا الراى اخذ مصلحوا الكنيسة الكاثوليكية تؤيدهم قرارات مجلس تونت فى أواسط القرن ١٦ يؤكدون أهمية تدخل الكنيسة فى كل نواحى الحياة اليومية ، فأعادوا تشكيل المهنة والأسرة والمدنية على أساس الأبرشية ، وأخذ كل من الجزويت والبروتستنت يحولون المعهد المعروف عند الاغريق باسم (مسكولى) الى مدرسة أو مكان عمل للاطفال فى أوربا الغربية ، واتجه الاهتمام الى غرس الايمان الصحيح فى نفوس الاطفال منذ نعومة أظفارهم ٠ وأدى طبع الكتب ومبادىء التربية المستمدة من آراء بطرس راموس الى زيادة الاعتقاد بأن العلم يدرك بالحواس ويقبل الزيادة ٠ وأصبح العمل اليومى سواء فى جنيف التى ساد فيها نفوذ كلفن أو فى باريس التى سادت فيها الكاثوليكية مجردا من غموضه الدينى ، بمعنى أن كل ما يفعله الانسان اما أن يكون فى اتجاه الخلاص أو يكون بعيدا عنه ٠

وكانت المشكلة بالنسبة لكل من الكاثوليك والبروتستنت هى تفسير النجاح التجارى تفسيرا دنيويا ، وفيما بين سنة ١٥٢٠ وسنة ١٦٥٠ أخذ الناس ينظرون الى النجاح الدنيوى على أنه علامة على التقوى ان لم يكن دليلا على الفضل والاصطفاء الالهى ٠٠

وقد فسر فبر هذا التغير الذى طرأ على نظرة الناس الى النشاط التجارى بأنه يعزى الى ما قرره لوثر من أن الله قد جعل لكل فرد مهنة خاصة ٠ ولذلك ذهب علماء اللاهوت الذين جاءوا بعده الى القول بأن نجاح المرء فى مهنته علامة على رضاء الله عنه ٠ ومن هنا نرى هيولا تيمر يستشهد فى موعظته عن (الحراث) التى ألقاها على البروتستنت فى ١٥٤٨ بكلام القديس بولس الذى قال (فليقم كل انسان باداء عمله ونيلزم مهنته) ٠

ولكن فبر يتفادى فى تفسيره مشكلة القيم الكاثوليكية والأعداد الكبيرة من أرباب الاعمال الكاثوليك ٠ ثم أن لاتيمر نفسه الذى يتحدث عن المهنة المخصصه لكل فرد سبق أن ألقى موعظتين استخدم فيهما لعبة الورق التقليدية التى يلعبها الناس فى عيد الميلاد (الكريسماس) كنموذج للمسيحية ، فقال :

وفى حين أنك تعودت الاحتفال بعيد الميلاد عن طريق لعبة الورق فانى أريد أن أعطيك ــ بفضل الله ــ أوراق المسيح التى سوف ترى فيها قانون المسيح ٠ واللعبة

التى تلعبها بهذه الاوراق تسمى لعبة (النصر) ، وكل من أجاد هذه اللعبة ظفر بالنصر ، وكذلك الواقفون والمشاهدون يظفرون بالنصر أيضا ، لانه ما من انسان يرغب فى لعبة النصر بهذه الاوراق الا فاز ، ولن يبوء بالخسران أبدا) .

وبعد قرن من الزمان أى فى ١٦٤٥ كتب الاسقف جوزيف هول يقول (أن الدنيا مقامرة غاشة خادعة لانها تسمح لنا بالفوز فى بداية الامر ثم نبوء بالخسران المبين . وفى رأيى أن الناس بين سنة ١٥٢٠ وسنة ١٦٥٠ أخذوا ينظرون نظرة مختلفة الى ألعاب الميسر ، فصاروا يعدون الفائز فى القمار (فائزا) من الناحية الاخلاقية أى أن القمار عمل أخلاقى .

وانى أميل الى القول بأن التغيير الذى طرأ على نظرة الناس الى الالعاب والى الاعمال التجارية يعزى الى ظهور الساعات الدقيقة ، وما صاحب ذلك من تغير الافكار حول الاعمار ومدى حياة الانسان ، ففى القرن السادس عشر أصبحت الساعات أكثر دقة ، واوسع انتشارا ، وركبت الساعات الدقاقة فى ابراج المدن ، وصارت حركاتها أكثر دقة وضبطا حتى أصبح هامش الخطأ صغيرا جدا (أقل من ساعة فى اليوم) مما دعا الى اختراع عقرب الدقائق بعد أن كانت الساعات خلوا من أى عقرب على الاطلاق ، ولا تدق سوى الساعات . وأصبحت الساعات ذات اللوالب التى اخترعت فى أوائل ١٥٠٠ أوسع انتشارا وأكثر دقة ، وأخذ النساء من أهل الطبقة الراقية يلبسن ساعات صغيرة بدلاة ، ومرصعة بالجواهر

وفى هذه الفترة نفسها لفت علماء التشريح المهرة أنظار الاطباء والفنانين على السواء الى ضعف الجسم الانسانى وتعقده ، وأصبح من الممكن حساب دقائق حياة الانسان بشىء من الدقة ، كما أمكن حساب طور الشيخوخة . وفى ١٦٥٠ صار الفلاحون والنبلاء يفكرون كثيرا فى اضطراب الحياة وعدم استقرارها وذلك على أثر الخراب الذى أحدثته حرب الثلاثين سنة ، وانتشار الاوبئة والمجاعات .

وبعد الدمار الذى أحدثته المدافع الخفيفة المحمولة والسريعة الحركة خلال الحقول التى سواها بالارض جنود مرتزقة لا يحصى لهم عدد . وألفت كتب فى الموت تضمنت مزيدا من الارشادات حول الشيخوخة ، وأمكن حساب الفرق بالدقائق بين الحياة والموت كما ، أمكن حساب ضربات القلب .

وقد أخذ الناس يقبلون على القمار فى حين ابتكر جاليليو فكرة البندول التى غيرت من صناعة الساعات الدقاقة ، واهتدى هارفى الى مبادىء الدورة الدموية التى غيرت صورة القلب من عضو حى الى عضو ميكانيكى . واستطاع المغامر أن يظفر بالفوز خلال فترة محددة من الزمن ، وأن يسيطر على الحظ والصدفة ويتحكم فى طبيعة الأحداث وسير الزمن . ولم يكن الامر الذى أزعج علماء الرياضيات هو ممارسة القمار ، وانما أزعجهم عجزهم عن تفسير سيطرة المقامر المحترف على الحظ والصدفة .

ترى : من هو المقامر المثالى ؟ لاشك انه هو الذى يقدم على مغامرات حقيقية بحيث يعود فوزه فيها بفائدة على المجتمع . ومن عسى أن يكون ذلك الا رجل الاعمال الذى تدور أمواله فى السوق كما يدور الدم فى شرايين الجسم ، ويتذبذب حظه كما يتذبذب بندول الساعة ، ولكن يخرج فى النهاية بشىء من الربح . لقد شهد الناس

الجيوش المرتزقة الجرارة التى تبيع ولاءها طوعا لاغراء المال لا طوعا لمبادىء القومية أو الدين كما شهد الناس الدول الكاثوليكية التى أيدت الامراء البروتستنت فيما يسمى بالحروب الدينية . كل ذلك يدل على أن العامل المسيطر على المجتمع هو العامل الاقتصادى ، وكان المقامر دائما مؤيدا لهذا العامل لا معارضا له . وطوعا لذلك نظمت الحكومات الأوربية ألعاب الحظ المعروفة باسم (اليانصيب) لزيادة دخلها فى القرن السادس عشر . ونظمت جنوه نوعا من اليانصيب للصالح العام فى القرن السابع عشر . وقد اشتركت انجلتره البروتستنتية وفرنسا الكاثوليكية فى تنظيم اليانصيب وجأر الأسقف هول فى انجلتره بالشكوى لا لسبب الا لأن الدنيا (مقامرة غاشة خادعة) .

وفي السنوات التالية ، أى بين ١٦٥٠ و١٨٣٠ ، تخلصت العاب الحظ من كثير مما شابها من سوء السمعة ، لأن الحظ نفسه ، أو الصدفة ، أصبح مبحثا من المباحث الرياضية ، اذ صارت نظرية الاحتمالات جزءا من الرياضيات العالية . وتأسس علم الاحصاء ، ووضع القائمون بالتأمين على الحياة الذى نظر الناس اليه بعين الارتياب فى السنوات السابقة قاعدة محكمة لتحليل البيانات الخاصة بالمرض والوفاة . وحاول الديمو جرافيون (علماء السكان) الاولون البحث فى العلاقة بين سلامة الاقتصاد فى الامة ونمو السكان ، وحاولوا التنبؤ بمتوسط الأنماط الديمو جرافية . وأقبل عدد كبير من الناس أكثر من ذى قبل على ألعاب الحظ التى تتجلى فى الدخول السنوية الثابتة (للاسهم والسندات) واليانصيب والمضاربات فى سوق الاوراق المالية . وعنى نيوتن كما عنى أصدقاؤه بالمشكلات المتصلة بوجود العناية الالهية فى نظام الكون ، فأجاز فى نظامه الميكانيكى تدخل الصدفة فى القوانين الفيزيائية الطبيعية التى يطلق عليها البعض اسم (المعجزة) وأصبحت المعجزة أو خوارق العادات جزءا من النظام الكونى ، لانه لولا المعجزة لانسحق العالم بسبب الاحتكاك وتوقف عن الحركة فى النهاية .

وفي القرن الثامن عشر أصبحت التجارة ، كلعبة من العاب الحظ الخاضعة لتحكم الانسان ، جديرة بالاحترام . وصار الناس يعتقدون فى الواقع أن التجارة لها وظيفة مقدسة فى العلاقات بين الامم وزعم دانيل ديدو أن التجارة فى أصلها تدبير الهى . وقد عكست اللغة الانجليزية التغييرات التى طرأت على التقويم الاجتماعى لكلمة العمل ، فقد كانت هذه الكلمة تعنى فى تاريخ مبكر يرجع الى سنة ٩٥٠ م القلق أو الاهتمام ، أو تعنى الشغل أو العمل ، ثم اصبحت تعنى أى نوع من الحرف أو المهن مما ليس لعبا أو لهوا . وفى أوائل القرن السابع عشر تضمنت معنى الاتصال الجنسى ، ولكن فى العقد الثامن من القرن السابع عشر اكتسبت المعنى الذى أريده فى هذا المقال ، وهو (الاعمال التجارية) وفى ١٧٩١ ظهر التحول الى هذا المعنى بكل جلاء عندما وصف (أدموند بيرك) كل من يتصفون (بالرزانة والعقل بأنهم رؤوسا تشبه رجال الاعمال

وقد تبوأت ألعاب الحظ وفى جملتها لعبة التجارة مكانا هاما فى مجال الادب اذ أصبحت القضايا المتعلقة بالحظ والصدفة أو العناية الالهية (كثيرا ما يختلط هذان الامران) نقطة تحول فى الروايات الطويلة ، وصار رواج التجارة وكسادها مؤشرا على أخلاق شخصيات الرواية . وتراوحت القصائد والتمثيليات التى تدور حول المقامرين ، تعتقد اللاعب الغر واللاعب الماهر ، بين « المقامر » (١٧٠٥) لمسز

جنتلز وقصيدة اختلاس خصلة الشعر للشـــاعر الانجليزى بوب • وقدختم « هنرى فيلدنج » تمثيلية له بعنوان « اليانصيب » (١٧٣٢) بأغنية جاء فيها :

الدنيا يا نصيب من ذا الذى يشك فى ذلك
عندما نولد (نوضع) فيها ، وعندما نموت (نسحب) منها
والذين ينظمون اليانصيب يعرفون أيضا أن :
الدنيا كلها يانصيب ،
والرجال والنساء ليسوا سوى مغامرين ••

وقد حاكى الادباء شكسبير أيضا ، فنظموا أبياتا شعرية يناقشون فيها قضية ألعـــاب الحظ على نهج الابيات التى وصف فيها شكسبير الازمه الشخصيه التى واجهت هملت فقال قائلهم :

أن تشترى أو لاشترى : هذه هى المسالة !
هل الاكرم أن تظل تندب حظك
لخلو كيسك من النقود
أم تشترى تذاكر من مكاتب اليانصيب
لتفوز فى النهاية بجائزة ، جائزة العملة الصعبة !
وبهذه النقود نستطيع أن نضع نهاية •
للصداع الذى يحطم رأسك ، ولألف صدمة قاسية •
يسببها الفقر لك • انها نهاية •.
يتمناها كل امرىء من صميم الفؤاد •

وهذا المديح الذى يشبه الاعلام عن اليانصيب يوحى أن المستحق ـ وهو الفقير المحتاج ـ هو الذى يظفر بجائزة اليانصيب ، كما يظفر البطل أو البطلة فى الرواية الاغسطسية بحسن الحظ •

وربما لم يحدث هذا الظفر بمحض الصدفة ، أو هكذا اعتقد جاكوب هاربرجر وملاتشى بوسلثوايت وماركيز سباستاوبمبال ويومان جورج برفى الذين أسســوا فى العقدين الاخيرين معاهد تعليمية رسمية لاعداد رجال الاعمال فى المستقبل ، وكان من رأيهم أنه اذا كانت التجارة لعبة ذات قواعـــد وأصول وجب تعليم اللاعبين قدرا ـ ولو ضئيلا ـ من الرياضيات ، والمحاسبة ، والاوزان والمقاييس ، والمراسلات • وقد درس الباحثون فى القرن الثامن عشر لعبة التجارة بامعان ، واكتتشفوا ـ كما اكتشف الرياضيون نظرية الاحتمالات ـ أن هذه اللعبة محكومة بقوانين تكفى لوضع قواعـد واعداد دراسات تؤهل رجال الاعمال للنجاح فى عملهم •

واذا كانت التجارة لعبة ، فان الالعاب قد أصبحت فى القرن التاسع عشر تجارة ففى الفترة الواقعة بين ١٦٥٠و١٨٣٠ شهد الناس ظهور أول حدائق للهو والتسلية (حدائق فوكسهول) فى انجلترة وفرنســا ، وظهور الملاكمين المحترفين ، وتنظيم سباق الخيل وصراع الديكة •

على أن هذه الفترة لم تشهد سوى البداية الاولى لصبغ الالعاب بالصبغة التجارية ولكن العامل الذى كان له أثر حاسم هو استخدام الالعاب الرياضية فى مجال التربية والتعليم على أساس منهجى مدروس • ولم تكن الفكرة القائلة بأن الالعاب الرياضية

ذات أثر كبير في تكوين أخلاق الاطفال جديدة على الاطلاق ، فقد عرفها من قبل أهل أثينا واسبرطة الذين اهتموا بالملاعب الرياضية ، على الرغم من أن أتبــاع أفلاطون انتقدوا المغــالاة في احترام اللاعبين الرياضيين • وقد كان احتراف مهنة المجالدة الرومانية (الاقتتال بالسيوف حتى الموت في مســارح روما القديمة) ، والتعليم المسيحي في الأديرة ، وتعليم الاطفال عن طريق الجلوس على المقــاعد ، وقراءة الكتب المطبوعة بعد اختراع جوتنبرج لفن الطباعة من الاسباب التي دعت لوقف العمل بالنظم القديمة في التربيه الرياضية • وقــد اقترح جون لوك (انجليزى) وجــاك روسو (فرنسي) أن تكون الالعاب والتمرينات الرياضــية جزءا من تعليم الاطفال • وفي ١٧٧٤ أسس يوهان برنهــارد باسداو مدرسه المعروفة بــاسم (فيلانثروبينوم) بمدينة ديســاو ، وجعل الالعاب والرياضــة البدنية الجمنازيه جزءا من العملية ـ التعليمية على قدم المساواة مع العناصر الاخرى لهذه العملية •

وكان الموظفون العموميون في انجلترة يتعلمون في المدارس العامة ، ويتبــارون ـ بصور غير رسمية ـ في كرة القدم • وقد تباروا في ١٨٢٣ في الكرة المســتطيلة (الرجبى) •

وقد اشترك السير وولتر سكوت ـ الأديب الانجليزى المشــهور ـ في مباراة أجريت سنة ١٨١٥ في كرة القدم • ويبين لنا البيت الاخير من موشحته الخامســة حجم المسابقات الرياضية في أوربا الغربية ، قال :

نقاذفوها ـ أيها الاولاد ـ وان كان الجو قارسا
وأذا شاء لكم الحظ العاثر أن تسقطوا على الارض
فان في الحياة ما هو أسوأ من سقطة على نبات الخليج
وما الحياة نفسها الا لعبة كلعبة كرة القدم »

وصف بيرون ، الشــاعر الانجليزى المشهور ، نابليــون بأنه رحــل (لعبته الأمبرطوريات ، ورهانه العروش ، ومائدته (طاولة اللعب) الأرض ، وكعابه (زهر الطاولة (عظام البشر) •

ويبدو أن المناقشة والحظ قد وصلا في هذا العهد الى منزلة رفيعة الشأن لان كلا من الشاعرين كان يرى أن الحياة نفسها ليست سوى لعبه (من ألعاب الحظ)•

وقد أصبحت ألعاب الحظ والمسابقات هي الطابع الغالب على الحياة ، وصــار الاشتغال بالتجارة هو النمط السائد في أوساط الناس بين ١٦٥٠ و ١٨٣٠ • ومرة أخرى أقول ان التقــدم في ضبط الوقت أدى الى تغيير أحــوال العصر • ففي هذه السنوات بلغت الساعة ذات البندول والساعة التي تدار باللولب ذروة الكمال على يد هيوجنز • وبذل هوك ونيوتن وفاثيو جهدهم لانتاج ساعات أنيقة تعمل بالبندول • وساعات مرصعة بالجواهر ، وقللوا من درجة الاحتكاك ، وزادوا من ميزة الدقة • وقد صنع جون هاريسون ساعتين رائعتين ليحصل على الجائزة السنية المضنون بها التي رصدتها الاميرالية البريطانية لمن يخترع كرونومترا بحريا يتيح للســفن في البحر أن تحدد خط طولها بدقة • ثم أخذ رجال الأعمال الذين اقتنوا ساعــات الجيب التي تبين الدقائق يديرون المصانع •

وقد أوضح «ا٠ب» طومسون أن التحول من تكليف العامل باداء مهمه معينه الى تكليفه بالعمل لوقت معين كان جزءا أساسيا من الثورة الصناعية القديمة ٠ وعندما أخذ العمال يعملون بالأجر لمدة تحسب بالساعات ازداد وعيهم بالزمن الذى تحدده الساعة ، واضطروا أن يعملوا كل يوم الى انتهاء الوقت المحدد لهم لا انتهاء العمل الذى كلفوا بادائه عندما استخدم منتجو الساعات طرقا جديدة فى الصناعة تسنى للعمال ورؤسائهم شراء ساعات رخيصة ، وأخذ كل من العمال وأرباب الاعمال يوجهون اهتمامهم الى وقت الساعة لكى يحددوا فترة الغداء ، ومدة العمل ، ووقت الانصراف من العمل ، وأصبح الشخص والساعه معا ضابطين للوقت فى المصنع ، وقد أصبحت كلمة (ضابط الوقت التى كانت تستعمل فى القرن السابع عشر وصفا للساعات صفة لمهنة بشرية فى القرن التاسع عشر ٠

ويبدو أن رجال الاعمال من صناع وتجار جملة قد تحكموا فى الوقت واخضعوا الحظ والصدفة لسلطانهم ، فاستطاعوا بذلك توفير المال عن طريق توفير الوقت شأنهم فى ذلك شأن الآلة الحاسبة التى اخترعها العالم الاقتصادى شارل بابيج ٠ وقد أوضح سان سيمون ثم انجلز وماركس من بعده تغير العلاقة بين العمل والوقت ، فقالوا ان الكنيسة قد فقدت القدرة (والحق) على تعريف العمل ٠ ولذلك طالب البورجوازيون الذين انتصروا فى الثورة الفرنسية بحق السيادة الادبية المستمدة من قدرتهم على تنفيذ تعريفهم للعمل ٠

ولم يتعرض انجلز وماركس لتحليل وقت الفراغ الا بكلمات قليلة نسبيا ٠ ولكننا نقول ان الكنيسة عندما فقدت السيطرة على الوقت وضبط الوقت فقدت السيطرة أيضا على وقت الفراغ ،واصبحت سلطتها محدودة فى اصدار حكم ادبى على الالعاب ٠ ولذلك سيطر رجال الاعمال فى أواخر القرن التاسع عشر على وقت الفراغ وأوجه النشاط فيه ، فتولت الشركات التجارية الاشراف على كرة القدم البريطانية ولعبة الباسبول الامريكية ، وتألفت جمعيات تطوعية من الهواة ورجال الرياضة لاول مرة فى العقد الذى يلى ١٨٤٠ ، وأصدرت المجلات ، وعقدت الاجتماعات ، وتولت التوحيد القياسى لمواد معينة ليختار الهواه مجموعات منها كطوابع البريد مثلا) ٠ كما تولت تنظيم المسابقات الرياضية ٠ وحدث فى الولايات المتحدة قبل الحرب الاهلية ان تولى غزو المسارح متعهدو الحفلات ، ووكلاء حجز التذاكر ، والمتجرون بتذاكر المسارح والمباريات الرياضية (يشترونها بسعر رخيص ثم يبيعونها بأسعار تزيد على الاسعار الرسمية) ٠ وفى العقود التى عقبت الحرب الاهلية أصبحت أوجه النشاط فى أوقات الفراغ نشاطات استهلاكية ، فتأثر العزف الموسيقى باختيارات ناشرى الموسيقى ، وسيطرت شركات الحجز على المسارح ، واستغلت نظام نجوم الفن، وتحولت السروك (جمع سرك بكسر السين) الى شركات تجارية كبرى ٠ وأصبحت جزيرة كونى منطقة تجارية للاستجمام والترويح عن النفس . وادى سباق الدراجات لمدة ستة أيام الى زيادة الاقبال على دراجة الامان ذات العجلتين ٠ وفى ١٩٢٥ اصطبغت أيضا كرة القدم والباسبول والهوكى بالصبغة التجارية ، وتولى رجال الاعمال الاشراف على الصور المتحركة ، كما تولوا الاشراف على التمثيليات الملهاوية (الكوميديه) ٠

وعندما اتسع نطاق الاعمال والشركات التجارية حذت اللغة حذوها ، فاتسعت وابتدعت طائفة كبيرة من المصطلحات الجديدة ، المركبة من كلمة (المعمل) ، ومن ذلك كلمة (بطاقة العمل) التى ظهرت فى ١٨٤٠ وتحمل معلومات عن صاحب المهنة

كالاســم والعنوان ونوع العمل · وفى ١٨٧٠ ارتدى العمال المباذل (جمع مبذله ومعنــاها بذلة الشــغل أو العمــل) · وفى ١٩١٠ عـرض أرباب الاعمال المصــابون بالامراض أنفســهم عـلى أطباء العمـل ، أى الاطبـاء الذين يعالجون أمراض المهنة · ثم ظهرت عبارة (جاد فى العمل) وتطلق على الرجال الذين يصطنعون الجد فى الامور ، كما ظهرت عبارة (بيزنيس اند) ومعناها الطرف العملى للمسمار اى الطرف الذى يؤدى وظيفة المسمار ، وكان الاطفال يعرفون منذ الطفولة هــذا الطرف · ويمكن أن يقال مثل ذلك عن كلمة (الوقت) ، فقد أصبح من الممكن قياس الوقت وتجزئته الى مقادير كمية ، ففى سنة ١٨١٢ استعملت عبارة (كول تايم) فى الملاكمة ومعناها اعلان الوقت وتحديده ، وأصبح لهذه العبارة صلة وثيقة بانجاز العمل · ثم ظهرت كلمة (ستوب ووتش) أى الساعة الموقوفة أو ساعة التوقيت وهى ساعة ذات عقرب يمكن اعماله أو وقفه فى كل لحظة لتسـجيل ما مضى من الوقت بالضبط (كما فى حالة السباق) · وكذلك ظهرت العبارات التى يســتخدمها الامريكيون الآن فى حديثهم مثل عبارة (العمل ضد الوقت) والمقصود بها محاولة انجاز العمل قبل وقت معين ويمكن ترجمتها بعبارة (مسابقة الزمن) ، ومثل عبارة (أون تايم) ومعناها فى الوقت المحدد ، وعبارة (خارج الوقت) ومعناها بعد فوات الاوان أو بعد الموعد القانونى (كأن ترفض المحكمة عريضة الاستئناف لتقديمها بعد الموعد القــانونى) ، وعبـرة (موفر الوقت) أى كل شىء يوفر الوقت وعبــارة (أداء الوقت) والمقصود بهـا قضـاء السجين المدة المحكوم بها عليه فى السـجن · وفى ١٨٧٧ ظهرت أغرب الكلمات وهى (الســاعة الميقاتية) التى تسجل موعد حضــور العــاملين وانصرافهم ، وسرعان ما ظهرت على أثر ذلك كله « البطـاقة الزمنية » ومعناها بطاقة الحضــور والانصراف ، يســجل فيها موعد حضــور العامل وانصرافه بواسطة الساعة الميقاتيه · والخلاصة أن الوقت أصبح هو العامل الاكبر فى تعيين حدود الحياة · وقد حددت قواعد السلوك والمجاملات (الاتيكلت) موعد الحضور والانصراف فى المناسبات الاجتماعية بالدقائق المضبوطة · وكذلك حدد للالعاب الرياضية زمن معين ، واما ما كان ضربا من اللهو والعبث فلا مبالاة فيه بالزمن ·

وقد أصبحت التجارة لعبة بالدرجة الاولى · وايضاح ذلك أنه عندما أخذ رجال الاعمال يسيطرون على الحظ والصدفة عن طريق الاحصاءات ، والتعلم ، وأدوات قياس الزمن ، والاعلان ، ارتفعت مكانة التجارة اجتماعيا وأدبيا · ولما تخلصت لعبة التجاره من خطر الحظ والصدفة مع احتفاظها بعنصر المهارة والجرأة ، نظر الناس اليها على انها أقرب الى الرياضة من المغامرة ، أى اعتقدوا أن الطــابع الغالب هو المنافســة لا الحظ ·

وعلى الرغم من وجود رافضين لمهنة التجارة فى أوائل القرن التاسع عشر دأبوا على الغض من شأن الشركات والاتحادات الاحتكارية ، وعلى الرغم من وجود قوم مولعين بالتشهير برجال الاعمال وكشف فضائحهم ، وعلى الرغم من تشهير النساء المطالبات بحق الانتخاب والمساواة مع الرجال برجال الاعمال ، وعلى الرغم من وجود شيوعيين وفوضويين يهاجمون معاقل البورجوازيين ، وعلى الرغم من أن معظم اتحادات العمال كانوا يرون أن النشاط التجارى وزعماء رجال الاعمال خلو من الانســانية ، وجملة القول أنه على الرغم من وجود رجال ونساء لا يشاركون البروفسور جورج ر· كولنز فى آرائه ، كان هناك ملايين من الناس يعرفون الروايات القصيرة البالغ عددها ١٣٥ التى الفها هوراشيو ألجير وامتدح فيها مهنة التجارة ·

وفى ١٩٢٤ عرفت هذه الملايين (او مئات الالوف على الاقل) كتاب « الرجل الذى لا يعرفه أحد » لمؤلفه بروس بارتون ، ذلك الكتاب الذى أصبح أوسع الكتب غير القصصية انتشارا بعد سنتين من ذلك التاريخ • وقد كشف بروس بارتون النقاب عن حقيقة المسيح ، وصدر كتابه بعبارة اقتبسها من الكتاب المقدس نصها : « ألم تعلما أنه ينبغى أن أكون قيما لابى » (انجيل لوقا ٢ : ٤٩) • وذكر بارتون أن المسيح كان رجلا اجتماعيا ، ورجلا يمتاز بالقدرة على ادارة الشئون العامة • وأنه هو « مؤسس التجارة الحديثة » اذ انتقى ١٢ رجلا من بين الذين يزاولون أحط الحرف والصناعات وكون منهم جماعة غزت العالم • وقال بارتون أن المسيح يرى أن الحياة عمل كلها ، ويؤكد ضرورة الخدمة التى هى روح التجارة الحديثة • ذلك أن الاخلاص فى العمل يعادل الاخلاص فى الدين ، ولا يمكن احراز التقدم العظيم الا بالتخلص من الفكرة القائلة بأن هناك فرقا بين العمل مطلقا (والعمل الدينى) ، وكل عمل هو عبادة ، وكل خدمه نافعة هى صلاة •

وهنا أعود الى كلام البروفسور كولنز الذى وصف العمل (التجارى) بأنه رسالة العالم ، بل هو أهم أعمال البشرية • واذا تعذر التسليم بشعبية كتاب بارتون فلعله يتسنى لنا اذا القينا نظرة على كتاب مؤلف آخر أكثر شهرة أن نضع كلا من كولنز وبارتون فى مكانهما الصحيح ، ألا وهو ألبرت هو بارد الذى يستشهد كولنز بكلامه ، والذى يعد كتابه الموسوم « رسالة الى جارسيا » فى مقدمة الخمسين كتابا المعدودة أوسع الكتب الأمريكية انتشارا •

ففى المدة من ١٩٠٠ الى ١٩٢٠ ذهب هو بارد الى القول بالمساواة التامة بين العلم والتجارة ، والأخلاق ، وقرر أن رجل الاعمال هو المصلح الحقيقى للمجتمع ، وأن علم الاقتصاد وعلم التجارة هما أهم العلوم للانسانية • وقال ان التجارة هى علم الخدمة الانسانية وان كل عمل يخدم الانسان فهو عمل مقدس وما هى النتيجة ؟ النتيجة هى أن العالم لا يمكن اصلاحه الا عن طريق التجارة •

هذا والتجارة هى أكثر الامور جدا ورزانة • فكيف اذن يقول هوبارد أن (التجارة لعبة وكلنا شريك فيها) ؟ انني أظن أنه يعنى بذلك أمورا ثلاثة أولها أنه يعنى أن الحياة لعبة طبقا للعرف السائد فى القرن التاسع عشر وثانيها أنه يعنى كما قال س٠ا٠م جود فى ١٩٢٨ أن التجارة فى نظر الرجل الامريكى هى أعظم مغامرة فى الحياة ، لأنها تجمع فى كلمة واحدة بين معانى الرياضة والعمل ، واللذة ، والجمال ، والوطنية • وثالثها أنه يعنى أن التجارة تسيطر على زماننا •

وكان الناس فى العقدين الثالث والرابع من هذا القرن يساورهم القلق من جراء ذلك • فبعضهم ممن تأثروا بكلام ثور شتاين فيلين تساءلوا عن الجهاز الاجتماعى الذى قصر أوقات الفراغ على أعمال غير سعيدة وألح آخرون الى مفهوم الفراغ عند الامريكيين غير سليم • وفى وقت مبكر يرجع الى ١٩٢٦ ألف بعضهم كتابا بعنوان « تهديد الفراغ » • وفى العقد الرابع أجريت دراسات حول الفراغ الاضطرارى والأثر النفسى والاجتماعى ليوم العمل المحدد بثمانى ساعات فى اليوم ، وأسبوع العمل المحدد بخمسة أيام • وكان الفراغ مشكلة كبرى فى مجتمع ركزت اعلاناته التجاريه على المنتجات الجديدة التى توفر الوقت ، مثل الغسالات السهلة الاستعمال ، والمكانس الكهربية ، وطعام جربر للأطفال ، والزمام المنزلق (السوسته) • وقد رأى الناس أن الفراغ ينطوى على خطر كبير عندما يصبح العمل مقياسا للوقت النافع •

وفى حضارتنا هذه ـ حضارة الوقت والمنافسة ـ أصبحت المباريات والألعاب الرياضية أمرا عظيم الجد والخطر فى نظر المربين وعلماء نفسية الاطفال ورجال الرياضة • وجدير بالذكر أن أرثوس شيروورد ـ أحد الذين ألفوا فى آداب السلوك والمعاشرة ـ أبدى سروره لانه وجد أن « المرأة لا تلعب هذه اللعبة القديمة (الجولف) بالجدية اللازمة فحسب ، بل تلعبها بشراسة وضراوة مروعة » وكتب جيمس ف • وليامز ، ووليام ل• هيوز فى كتابهما الموسوم « الألعاب الرياضية فى التربية » يقولان ان « العواطف والانفعالات التى تنطلق من عقالها خلال المباريات هى المصدر الحقيقى للتفانى فى سبيل القضايا العليا ، والغايات السامية •• هذه هى اللحظات المناسبة لغرس القيم والمثل فى النفوس حيث يكون المعدن قابلا للتشكيل ، والحديد ساخنا » • وجدير بالذكر أن علماء النفس المعاصرين المعنيين بدراسة الاطفال ، أمثال أرنولد جسيل ، وجهوا مدارس الحضانة نحو استخدام الالعاب لأنها تكون الأخلاق بطريقة ايجابية ، وقالوا ان الالعاب لها معنى كبير فى نظر الناس ، لانها ـ وبخاصة المباريات التى تتجلى فيها المنافسة ـ تصنع الناس (أى تكون أخلاقهم) •

ويرى البروفسور جورج ر • كولنز أن الاقتصاد التجارى يشكل أخلاق الناس كالألعاب ، وقد كتب فى ذلك يقول : «يبدى المجتمع فى الاقتصاد التجارى من سلامة العقل والتزام روح الجد ما من شأنه أن يوجه النزعات الانانية الى تحقيق نتائج لا يمكن الوصول الى أفضل منها فى أى لحظة اذا تجرد الانسان فجأة من الانانية ، وهو أمر لا يمكن أن يحدث من الناحية البيولوجية »

ويعزى هذا التقدير الايجابى للتجارة والألعاب الى التطور الذى طرأ على فن قياس الوقت ، ففيما بين ١٨٣٠ و ١٩٣٠ أمكن تقسيم الوقت الى وحدات صغيرة يمكن قياسها ، اذ ساعدت الساعات الكهربية الفلكيين على تتبع التغييرات الدقيقة فى السماء ، وأدى اختراع الساعة الموقوفة الى تقسيم الثوانى الى أجزاء صغيرة لخدمة سائقى القطارات ثم تحول استخدامها الى مجال الألعاب الرياضية • وفى وسع الساعة الموقوفة وفن التصوير ، والبندقية الفاسكوبية التى اخترعها مارى وكاميرا الصور المتحركة ، أن تجمد الأحداث فى فترات صغيرة ومتساوية • وقد أدخل فردريك و• تايلور ، وفرانك ، وليليان جلبرث ، تعديلات على هذه المعدات الحديثة فى دراساتهم الخاصة بالزمن والحركة بحيث مكنت العامل من ادراك الأجزاء الصغيرة من الزمن • وبمقتضى مبادىء « الادارة العلمية »أمكن تقسيم عمل العامل جزءا جزءا على أساس حركات متميزة ثم يعاد تجمعها بقصد السهولة والكفاية فى أداء العمل ، حتى لقد أصبح العمل أقرب الى أن يكون وظيفة من وظائف الزمن من أن يكون وظيفة من وظائف الجهد الانسانى •. وفى المدارس حبذت حركة توفير الوقت اعادة النظر فى المناهج الدراسية على أساس فكرة الكفاية المستمدة من الصناعه • وفى المصانع خضعت المادة المنتجة (بفتح التاء) للوقت بفضل حظ التجميع المحسن (بفتح السين) • وتحتم على العامل أن يتمشى مع خطوات المادة المنتجة • وقد أدى الانتاج الكبير لساعات الرفوف الرخيصة ، والمنبهات والساعات الرخيصة بعد ١٨٤٠ ، الى حضور العمال فى الوقت المقرر رسميا ، وتوقفت أجورهم على الاوقات فى بطاقاتهم الخاصة بمواعيد الحضور والانصراف •

وغزا تقسيم الوقت وتحديده عالم الفراغ • وبيان ذلك ان الأفلام التى تعرض على شاشة السينما على نحو مسلسل تشبه بالنسبة للمشاهدين حياة العامل فى محل

العمل • ذلك أن الصور المتحركة فى دار السينما عبارة عن مشاهد مسلسلة ذات زمن محدد • وصارت المباريات الرياضية فى الالعاب الاولمبية الجديدة (١٨٩٦) تنافس الساعة كما فعلت الجياد لاول مرة فى العقد الذى تلا ١٨٤٠ ، وأصبح عنصر الوقت عاملا حاسما فى لعبة كرة السلة وكرة القدم ، وشاع استخدام الرياضة والجمباز فى تنظيم الحياة لدرجة ان مدرسي التربية الرياضية طالبوا فى العقد الثالث فى هذا القرن بمكان خاص للالعاب الحرة والاختيارية غير المحددة لوقت معين •

وقد أخضع عالم التجارة ألعاب الحظ للمباريات القياسية . ولايضاح ذلك أنه بدلا من المقامرة فى مجال الانتاج حدد المدير وقتا لكل جزء من عمليات المصنع ، وبدلا من المقامرة فى المبيعات فوضت الشركة هذا الامر الى القائمين ببحوث التسويق واستفتاء الرأى العام • وقد بلغ الغرور حده عند بروس بارتون عندما كتب مقالا فى ١٩٢٧ عنوانه « هل تؤمن بالحظ ؟ اننى أومن به » • ولا شك أن هناك قوانين للحظ، وأن الحظ السعيد ينال من استعد لاستقباله • ولذلك وصل رجل الاعمال المقامر الى سرية التمجيد : هناك لعبة واحدة • هى الحياة نفسها ، والمقامر الذى يجيد هذه اللعبة يكسب كل شيء • وفى تلك السنة ألف البروفسور كولنز كتابا بعنوان « ملخص تاريخ التجارة » وألف جيمس تروسلو أدمز دراسة بعنوان « حضارتنا ، حضارة التجارة » قال فيها « أن معيار القيم عند رجال الاعمال قد أصبح هو معيار حضارتنا بوجه عام » •

ولكن لوحظ منذ عهد الازمة الاقتصادية أن الثقة الاجتماعية فى رجال الاعمال قد ضعفت على الرغم من تجدد التقدير لروح المخاطرة والمغامرة ، تلك الروح التى تتجلى فى نظرية المباريات الشائعة الان فى مجال النقد الادبى ، والرياضيات . والاقتصاد ، وعلم النفس ، والسياسة ولكن احترام رجل الاعمال المقامر المغامر لم يزد • والواقع أن كبار المغامرين والمخاطرين من رجال الاعمال قد أخذ بعضهم يتهم بعضا بأنه يرفل فى أثواب قشيبه ، وأنه فقد روح الجرأة ، فماذا حدث ؟

يمكن القول بأن هناك ثلاثة أسباب لفقدان هذه الثقة ، أولها أننا قد فقدنا روح اللعب ، ونريد الآن أن نستعيد هذه الروح • ويقول فى ذلك لين هوايت : اننا قد أغفلنا كلام القديس فرنسيس حيث قال : « ان العالم شريك فى لعبه ، وليس خصما فى مباراة » • وثانيها أننا أصبحنا نشك فى عدالة اللعبة ، ذلك أن استخدام رجال الاعمال للاعلانات العدائية واتباعهم للحيل السيكولوجية الملتوية قد أعطياهم فى نظر الناس ميزة غير عادلة • وثالثها أننا أصبحنا نعتقد أن المنافسة وغزو الحظ ليس عملا اصلاحيا • ويبدو أن روح اللعب الحر غير المتقيد بالوقت تختفى عندما تحل المنافسة محل الحظ والصدفة •

ولذلك فكرت بعض الشركات الأمريكية فى بداية العقد السابع من قرننا هذا فى اتاحة الفرصة لمديريها ورجالها التنفيذيين للترويح عن أنفسهم والتخفف من أعباء العمل- فقررت منح هؤلاء الموظفين أجازات ادارية للراحة والانقطاع عن العمل، وخصص بعضها صراحة للاسهام فى مجالات الترفيه الاجتماعى أو الاعمال الانسانية • سم هذا ما شئت : أزمة ثقة ، أو فزع المقامر ، أو انهيار أعصاب ، أو روح انسانية • لقد بدأ بعض رجال الاعمال فى العالم يشكون فى صحة مقولة كولنز بان الاعمال التجارية هى أهم أعمال البشرية •

وأود مرة أخرى أن أعزو الوضع الذى آلت اليه الالعاب ورجال الاعمال الى التغيير الذى طرأ على قياس الزمن • لقد بلغنا الان من المهارة فى قياس الزمن الى حد أن العلماء لا يدرون ماذا يصنعون به ، متى علمنا أن هناك دقائق أو جسيمات أولية يقل

مدى عمرها عن ١٠ : ٢٢ ـــــ ١ / ــــــــــ ١ ــــــــــ
٢٣١٠٠٠٠٠٠٠ر ٠٠٠٠٠٠ر ٠٠٠٠٠٠ر ٠٠٠٠٠٠ر١

من الثانية » ومتى علمنا أننا مع استعمال أجهزة القياس الدقيقة قد نخطىء فى عملية القياس نفسها • ذلك بأن الزمن لم يعد واضح المعالم •

ولقد بلغت الساعات الكهربيه والساعات الدفافة الرقمية من الدقة والضبط بحيث أصبح قياس الوقت بالأرقام أوثق من احساسنا نحن بمرور الوقت • ذلك أن الاجهزة التكنولوجية المنزلية ، مثل الأفران الكهربية ، والأنوار الليلية ، ورشاشات الماء الاتوماتيكية ، تعطينا احساسا ميكانيكيا بالوقت منفصلا عن حواس أجسامنا • وكان رد الفعل لذلك هو أننا أخذنا فى الغرب نناقش باهتمـــــام ـ بغية العودة الى المنافسة ومن ثم الى اللعب الحر ـ فكرة البصيرة النافذة (الادراك السامى الخارج عن نطاق الادراك الحسى) ، وفكرة التنبؤ بالمستقبل ، واستعادة الحياة الماضية ، وتقمص الأرواح (انتقالها من جسد الى جسد آخر كأن الأجساد أقمصة للروح تخلع قميصا لتلبس قميصا آخر) ، وابطاء الوقت عن طريق التأمل • ونحن نريد أن نجرد الوقت من الفواصل الصارمة المتعاقبة •

ولذلك لا ندهش اذا دعا رجال الأعمال الى عودة رجل الأعمال فى عصر النهضة ، الذى لم يكن يعرف الحدود والقيود ، والذى كانت حياته كلها وحدة كاملة • بيد أن مجلة (أسبوع الصناعة) فى عددها الصادر فى مايو ١٩٧٠ تحمست لآراء بارتون ، وهوبارد ، وكولنز ، فقالت : « ان المدير الحديث يشبه رجل الاعمال فى عصر النهضة فعليه أن يكون صانعا ، وخالقا ، وبناء ••• » • والسؤال الأخير الذى يطالعنا الآن هو : هل فات الاوان ؟ أوان أى شىء ؟ أوان الاصلاح •

لا ريب أن الحل فى غاية البساطة وان كان السؤال قد لا يكون مبتسرا (سابقا لأوانه) • ماذا يجب علينا أن نفعل الآن ، وقد غلب طابع الجد على لعبـــة التجارة لدرجة أن بعض العلماء يتنبأ بنهاية سريعة لذلك الوقت البشرى الذى طلب ت• س• اليوت ـ وهو رجل أعمال ـ الى بروفروك أن يوزعه بملعقة قهوة ؟

لعل الحل الاول أنه يمكن لنا رفض التسليم بوجود صلة عضوية بين التجارة والحضارة • ويمكن القول ، من جهة ، بأن هذا الرفض من شـــأنه أن يكفى رجال الاعمال مؤونة البحث عن الاضطلاع بدور الاصلاح • ولكن ، من جهة أخرى ، يقول علماء البيئة ان هذا الرفض الذى يدعو للفصل بين الشـــؤون التجارية والشـــؤون الاجتماعية والثقافية هو الذى أدى الى الازمات البيئية الراهنة •

والحل الثانى أنه لا يمكن لنا رفض النماذج العادية للالعاب ، والبحث عن العاب لا دخل فيها للمناقشة أو الحظ • ويقترح « كايوا ؟ » نوعين من هذه الالعـاب هما لعبة الدوار (بضم الدال وفتحها) أو الدوخة (بفتح الدال) حيث يدور الانســـان حول نفسه حتى يدوخ ، ولعبة التمثيل الميمى (أو الميموسى) ، وهو نوع من التمثيل الصامت يحاكى الانسان فيه مشاهد من حياته بحركات جسدية وأسلوب ساخر يثير الضحك • وتمتاز كلتا هاتين اللعبتين بأنها من الالعاب الفردية لا الجماعية ، ومن ثم

فلا منافسة فيها ولا شأن للحظ بها ، كما تمتاز بأنها العاب تحويلية لا متعالية بمعنى انها تنقل الانسان من حال الى حال دون أن تطالبه بالوصول الى مثل أعلى معين ، خلافا للانماط السلوكية العادية التى تحدو الانسان الى التصميم على الاصلاح باعتباره مثلا أعلى يتعين الوصول اليه ٠

والحل الثالث هو رفع الجملة الزمنية من تعريف العمل والفراغ ، بمعنى أن لا يكون العمل أو الفراغ موقوتا بموعد محدد ٠ وظاهر أن التقـدم التكنولوجى هو الذى دفعنا الى تحديد طبيعة نشاطنا بمقياس الوقت ٠ ولكن يجب أن لا يكون هـذا المقياس شرطا لهذا التعريف والتحديد ٠ ومن الواضح أن الكتب العديدة التى تبحث فى الطابع الاجتماعى للرياضة ، واللعب ، والفراغ ، تشـير الى أننا غير راضين عن أنواع النشاط الانسانى التى حددتها المجتمعات الماضية ٠ وعلى الرغم من أن رجال الاعمال السعداء يصرون على القول بأن العمل إنما هو ضرب من اللعب والاسترخاء فى نظرهم ، فانه يبدو أن القادرين على تحديد مجال عملهم هم الذين يجدون أن هـذا العمل ضرب من اللعب ٠ وهناك الرجال الذين يفزعهم الاحساس بالزمن الضائع ٠ فلا يدع لهم مجالا للتفكير فى اللعب ٠

وقد صور صمويل بيكيت حال هؤلاء القوم أروع تصوير فى تمثيليته المسماة « نهاية اللعبة » (١٩٥٧) ٠ فقبل نهاية المسرحية يطلب هام من زميله كلوف الدواء المزيل للالم ، فيقول له كلوف انه لا يوجد مثل هذا الدواء ولا سـبيل لمعرفة ألزمن الذى يتسنى فيه وجود هذا الدواء ٠ وبعد شجار وعتاب يقول كلوف :

كلوف : فلنتوقف عن التمثيل ٠

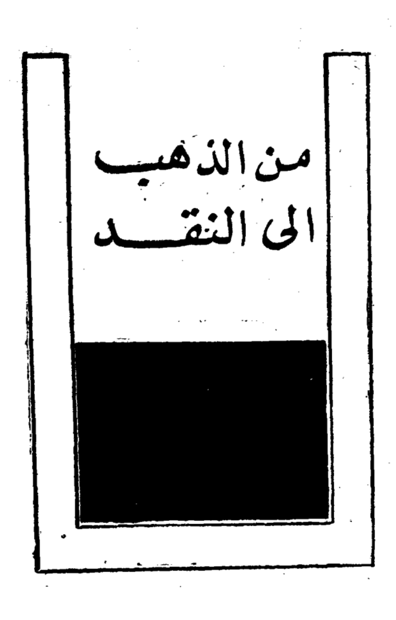
هام : كلا (وقفة) ضعنى فى نعشى ٠

كلوف : لا يوجد نعش بتاتا ٠

هام : اذن فلتنته التمثيلية ٠

ولكن التمثيلية لا تنتهى هنا أو فى الصفحة الاخيرة ٠ والواقع أن حجة كل من كلوف وهام مقنعة ، لانه من الخطر بالنسـبة لهما ولنا وقف التمثيل ، كما أنه من الخطر الشروع فى الدفن ٠





●● المقال فى كلمات

الذهب من المعادن النفسية ، كان له شان اى شان فى عالم النقود والتبادل التجارى ، وهو موضوع هذا المقال الذى تعرض لهمن مختلف نواحيه : من استخراجه الى استعمالاته المختلفة ، وبخاصة كعملة رئيسية ، وتاريخه ، وتطور وظيفته النقدية حتى وقتنا الحاضر .

نطالع فى مستهل المقال عرضا عاما لتاريخ النقد ، منذ عشرين قرنا او يزيد ، حيث كانت انواع السلع المختلفة تستعمل كنقد . ثم ظهرت المعادن الثمينة ، النحاس والفضة والذهب ، ولها مزايا كثيرة جعلت منها مادة مناسبة لصناعة الحلى ، ثم كعملة نقدية لها وحدتها ووزنها وعيارها واصبح الذهب عملة تامة تضمنها السلطة الحاكمة . وكان البحث عن الذهب فى امريكا وافريقية مزامنا لانتشار تجارة الرقيق ، ومصاحبا

الكاتب : أندريه . ف . انيكين

ولد عام ١٩٢٧ ، عضو معهد الاقتصـــاد العالمي والعلاقات الدولية بأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتي منذ ١٩٥٧ ، واستاذ في جامعة لومونوسوف بموسكو .

المترجم : أحمـــد رضـــا

مدير بالادارة العامة للشـــئون القانونية والتحقيقات بوزارة التربية والتعليم ومنتدب بمجلس الدولة سابقا

للقتل والابادة الجمـــاعية . ثم كان من أثر وفرة الـــذهب زيادة حجم الائتمان ، وانشاء شركات مساهمة ومصارف ، وتقدم الصناعة والتجارة ونمو النظام الراسمالي .

يتحدث المقال بعد ذلك بشيء من الشرح والتفصيل عن قاعدة الذهب التقليدية ، بداية تطبيقها وأين طبقت ، وكم اســـتمرت من الزمن وخصائصها ، ثم بين عيوبها في مجالي النقد والائتمـــان ، وفي الازمات الاقتصادية ، واستعرض مواقف كارل ماركس من مسالة الذهب وقاعدة الذهب والنظـــام الراسمالي بوجه عام . ثم تحدث عن الذهب في النظم الراسمالي المعاصر ، وعن اتفاقات بريتون وورز ، وكنجستون وجاميكا ، وحدد العوامل التي تجعل الابقاء على قاعـــدة الذهب متعارضـــا مع الراسمالية المعاصرة ، واوضح كيف تم التخلي عن قاعدة الذهب ، كما فصل الاختلاف بين سياسة الولايات المتحدة وسياسة فرنسا فيمايختص باستبعاد الذهب من نظام النقد الدولي .

وقد تطورت وظائف الذهب النقدية ، فتعدلت ، ونقصت في الآونة الاخيرة ، حتى توقف الذهب عن التداول باعتباره نقدا منذ الحرب العالمية الاولى ، وأصبحت القطع الذهبية التي تباع وتشترى الآن في الاسواق الحرة سلعة خاصة وليست نقدا ، كذلك فقد الذهب وظيفته الابرائية .

ثم تحدث المقال عن العملة الورقية ، ووظيفتها ، وتطور علاقتها بالذهب ، والغاء قابلية التحويل . ومع ذلك احتفظ الذهب بقوة شرائيه وابرائية لسداد الديون الدولية ، كما أصبح سلعة خاصة تخرج الى السوق الحرة .

وأفرد المقال في النهاية فصلا عن الذهب في نظام النقد الدولى ، ومدى علاقته بالدولار الامريكى ، وازمة الدولار ، ونظام الاسعار العائمه، والدولار والبلاد المصدرة للبترول ، واهمية الاحتفاظ باحتياطيات ذهبية كبيره . ولم تفقد الرغبة في حيازة الذهب شيئا من نوبها بسبب الغاء العملة الذهبية ، وهناك امثله لاستخدام الذهب كضمان في قروض دوليه ، وفى الامكان بيع الذهب للبنوك المركزيه بسعر السوق الحرة لتسوية رصيد ميزان المدفوعات .. وهكذا اختفت بعض الانماط النقدية لاستعمال الذهب ، ولكن ظهرت بدلا منها أنماط جديده .

يلاحظ جون جالبريث في مستهل كتابه عن تاريخ النقد والمشاكل النقدية المعاصرة أن : « تاريخ النقد يعرض الكثير من المظاهر الجذابة ، ولكنه يقدم بنوع خاص معلومات ثمينة عن سلوك البشر وغباء الانسان » .

تلك ولا ريب حقيقة . غير أن تاريخ النقد يعكس شيئاً آخر : يعكس تطور المجتمع الانسانى ومختلف الأنماط الاجتماعيه الاقتصاديه التى تتابعت على مدى هذا التطور . والرأسمالية التى يمكن أعتبارها من بعض النواحى « حضارة النقود » قد أوصلت النقود بطبيعة الحال الى مستوى عال من التطور . فالواقع أنه من خلال العمليات النقدية تمارس القوانين الاقتصادية عملها ، وتتحقق الاتجاهات الاجتماعية السياسية للرأسمالية باعتبارها مجتمع طبقات ، ويمكن القول بأن الاقتصاد السياسى الذى تطور مع تطور الرأسمالية يعد جزءا هاما منجذوره فى ملاحظه ودراسة النقد ، وتداول النقود. كما قال أ.ا. تراختنبرج : « يمكن دون مبالغة تأكيد أن علم الاقتصاد قد تطور ابتداء من المسألة النقدية » .

والنقود المعدنية التى نعرفها فى النظام الرأسمالى هى ضمن ما ورثناه من المجتمعات القديمة (مجتمع الرق ، والعصور الوسطى) . وقد حسب روبرت تريفن أن تداول العملة المعدنية الذهبية والفضية فى انجلترة والولايات المتحدة وفرنسا فى عام ١٨١٥ كان يمثل ٧٦ ٪ من المجموع الكلى للنقود ، أما ال ٣٣ ٪ الباقية فكانت مكونة من العملة الائتمانية ، وعملة السبائك غير الثمينة (النحاس) . ونلاحظ أن هذا يتعلق بالبلاد المتقدمة التى بلغت مرحلة متطورة فى النظام الرأسمالى ، مرحلة الثورة الصناعية . وتبعا للتقدير السالف الذكر كان الذهب والفضه متداولين فى هذه البلاد بنسب متساوية تقريبا .

وتميز التطور اللاحق للنظام الرأسمالى فى مرحلة أولى بالغاء العملة الفضية

وإبطال قيمتها النقدية بالتدريج ، فى الواقع والقانون • ثم بنمو النقود الائتمانيه نموا هائلا ، مطلقا ونسبيا (أوراق مصرفية ، ونقود كتابية) • وفى مرحلة معينة صاحب الانخفاض النسبى فى تداول الذهب فى الكتلة النقدية (ــ ١٠٪ عام ١٩١٣ فى البلاد الثلاثة المشار اليها) زيادة كبيرة في دور الذهب باعتباره قاعدة للنظام الائتمانى كله ، والنظام النقدى الدولى • وفى بداية الحرب العالمية الاولى كان الذهب فى « ذروة قوته »•

أما الفترة التالية التى عانت فيها الرأسمالية انقلابات إقتصادية وأجتماعية وسياسية كبيرة فقد تميزت فى النطاق المالى باستبعاد الذهب ونقص وظائفه النقدية • وصار التضخم سمة دائمة من سمات الرأسمالية ، ومشكلة من مشاكلها الحادة • غير أن التضخم وتداول الذهب شيئان متعارضان •

وسوف نحلل فى البداية بايجاز المراحل الرئيسية للعملية التاريخية التى أصبح الذهب عن طريقها عملة سائدة ، وكذا السمات النوعية للنظام المسمى « قاعدة الذهب » ، أى النظام النقدى القائم على الذهب ، كما كان ساريا فى القرنين التاسع عشر والعشرين • بعد هذا سوف نناقش الأسباب الموضوعية لنقص وظائف الذهب النقدية فى النظام الرأسمالى فى القرن العشرين ، وتطور هذه الوظائف وتحولاتها ، والصلة بين ابطال القيمة النقدية للذهب وبين الأزمة النقدية الدولية فى السنوات الأخيرة • ونناقش في الختام مستقبل الذهب النقدى والاقتصادى العام •

كيف أصبح الذهب نقدا

استغرقت عملية تحول الذهب الى عملة ، اكتساب المعدن الأصفر وظائف نقدية بضعة آلاف من السنين • وكان طبيعيا أن يمر زمن طويل لكى تقترن وظائف الذهب النقدية مباشرة بصفاته الطبيعية الجذابة • ولعلنا نقتنع حين نقرأ المؤلفات التى كتبت عن تاريخ الحياة الاقتصادية والنقود أنه ليس هناك سلعة لم تستخدم كنقد فى وقت ما ، ومكان ما ، وبقدر ما • كان ذلك أمر الأصداف والفرو والحيوانات المتوحشة والسمك وحبوب الكاكاو والماشية والملح والعنبر ، وحتى البشر (العبيد) • يحكى مؤرخ النقود الألمانى هـ • شورتز (أواخر القرن التاسع عشر) أن العبد فى غربى السودان كان يعتبر وحدة من وحدات القيمة ، وأن ثمه علاقات مبادلة محددة كانت قائمة بين هذه السلعة وبين سائر السلع • وكان العبد يقدر ويبادل فى مقابل ثلاثمئة قطعة من القماش ، بأطوال معينة ، أو نظير ستة ثيران أو عشرة دولارات أسبانية من سك معين• ويحكى مسافر أنه اذا سألت المواطنين الافريقيين• كم يساوىهذا الحصان فليس من النادر أن يأتيك منهم الجواب • ثلاثة أسرى • وهذا الثور ؟ نصف أسير• والاسير لا يقطع نصفين بالتأكيد ، ولكن يحسب كنصف أسير ، العبد المريض أو العاجز وهنا يعتبر الشاب الجميل القوى البنية ، أو الفتاة الغضة الصحيحة الجسم ، أقوى عملة » •

ومع ذلك فان هذا الامر لا يمكن اعتباره ، من جميع الوجوه ، الا كمقارنة من المفارقات الهمجية • وثمة عادة أقل اثارة للنفور ، ولكنها ليست عملية بالقدر الكافى ،

عادة استعمال رؤوس الماشية بمثابة نقـود ، الامر الذى ترك أثره فى اللغة اللاتينية وفى الكثير من اللغات الحـديثة • فكلمة pecunia اللاتينية (ومعناها : نقـد) مشتقة من كلمة pecus (ماشية) •

ومع ذلك ففى فترة مبكرة جدا من تطور المجتمع الانســـانى ظهرت المعـادن ، وبالاخص النحاس والفضة والذهب ، فى دور النقود • ومزايا المعادن الثمينة في هـذا الصدد معروفة ، وهي التجانس ، والتماثل فى الجودة ، والصلابة ، وسهولة الحفظ ، وقابلية الانقسام ، والقيمة الكبيرة لوحدة الوزن ، والثبـات النسـبى لقيمة المعدن • وفضلا عن ذلك فان المعادن الثمينة وبخاصة الذهب جميلة وجذابة • ويبدو الاحساس باللون كسمه من السمات الرئيسية النامية عند الانسان . بل ان اسم الذهب نفسه فى اللغات الهندية الاوروبية مشتق من اللفظة التى تستخدم للدلالة على اللون الاصفر وهذا واضح بنوع خاص فى اللغه الروسية واللغات السلافيه • ومنذ زمن مبكر جدا استخدم الذهب لصنع الحلى ، وكذا مختلف شـعارات الثراء ، والسلطة والهيبة • وتزداد أهمية الذهب الاقتصاديه كلما انتظم المجتمع وتكونت الطبقات الاجتماعية • وكان الذهب والفضة مستعملين من قبل على نطاق واسع كمادة أولية لصنع الحلى • وكذا كعملة نقدية فى الحضـارات التى تمارس الرق فى مصر وبلاد ما بين النهرين وفلسطين وآسيا الصغرى واليونان (من الالف الثالثة الى الالف الاولى قبل الميلاد)

وأصبح الذهب عملة تامة حين اتخذ شـــكل قطعة ذات وزن محدد ، وجعل لها شكل تقليدى ، وضمنت الســلطة الحاكمة أو اية هيئة أخرى تملك السلطة وزنها وعيارها • يقول هيرودوت ان القطع الاولى من النقود قد صنعها الليديون (ابسبيكة طبيعية من الذهب والفضة على ما يبدو) ، وهم شعب كان يعيش فى القسم الغربى من آسيا الصغرى ، ويتبادلون مع الاغريق تجارة نشيطة للغاية . وينسب عادة بداية سك النقود فى ليديا الى القرن السابع قبل الميلاد • وليس لدينا سبب يدعونا للشك فى هذا التأكيد من « أبى التاريخ فى حين يبدو أن بعض أشكال النقود الاكثر بدائية (سـبائك مدموغة) كانت موجودة على الأرجح قبـل هـذا التاريخ فى جهات أخرى (وبخاصة فى بابليون القديمه •

وفي العصر الكلاسيكى اليونانى والرومانى كان الذهب والفضة مفروضين كاداة نقدية ،فى حين كان للنحاس مهمة ثانوية ، وبلغت التقنية النقدية درجة متقدمة • وفي بداية العصر الوسـيط نقصت التجارة وقل تداول النقود بدرجـة كبيرة ، وتوقف استخراج الذهب وسك النقود الذهبية توقفا شبه تام بضعة قرون • ومنذ الدلالات الاولى للنهضة الاقتصادية فى القرن الثالث عشر والرابع عشر فى شمال ايطاليا ازدادت من جديد أهمية وظيفة النقد • وعلى مدى القرون التالية صـاحب نمو الرأسـمالية التدريجى فى غرب أوربا توسع فى العلاقات النقدية فى كل المجالات الاجتماعية • ولما كانت أوربا تفتقر الى المعادن الثمينة أضطر الاوربيون الى البحث عنها فى البلاد النائية يقول ف• انجلز • « كان اكتشاف أمريكا احدى نتائج التعطش الى الذهب الذى دفع البرتغال من قبل الى أفريقية ، ذلك لان الصناعة الاوربية التى كانت قد تطورت بدرجة كبيرة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ونمو التجارة بالتالى ، اقتضيا وسـائل للمبادلة أكثر مما تستطيع توفيره المانيا ، وهى البلد الكبير المنتج للفضة فى السنوات ١٤٥٠ ـ ١٥٥٠ »

وقدوصفت بإسهاب ضروب القسوة التى ارتكبهاالاوربيون وهم يبحثون عن الذهب فى أمريكا فى غضون غزوهم لها ، وفى أجزاء أخرى من العالم . ومن أجل الذهب أبيد عشرات الملايين من الوطنيين فى العالم الجديد ، وكان الذهب أيضا مسئولا بدرجة كبيرة عن عودة الرق فى العصور الحديثة . وفى تاريخ البشرية يظهر الذهب والموت العنيف معا وفى وقت واحد . وأدى الذهب الى ابادة شعوب بأسرها ، والاضطهاد العنصرى والاستغلال . ويمكن القول فى هذا الصدد انه كان هناك « ابادة جماعية من أجل الذهب » . حقا ان هذه الابادة قلما تظهر فى القرنين التاسع عشر والعشرين اللذين تقدمت فيهما المدنية بالصور المفرطة فى العنف التى اتخذتها ابان غزو أمريكا . ولكن حتى فى هذين القرنين جلب الذهب والصراع من أجل الذهب للناس الموت والقهر ودمار القيم الثقافية . والمذنب فى كل هذا ليس بالتأكيد هو المعدن نفسه الذى لم يكن سوى جسم كيمائى له خواص محددة ، وشبيه من هذه الناحية بسائر المعادن ، ولكن المذنب هو الظروف الاجتماعية التى جعلت منه عملة نقدية ذات قيمة محسوسة وموضوعا لنهم لايشبع .

وأصبحت عبادة (العجل الذهبى) دين المجتمع البورجوازى . ويتحدث جوبسيك ، المرابى الفيلسوف الذى وصفه بلزاك ، فيقول : « أليست الحياة آلة تحركها النقود ؟ .. ان الذهب هو روحانية المجتمعات الحاضرة » . وكان تحرير البشر من سلطان الذهب على الدوام هو حلم الاشتراكيين الطوباويين ، من توماس مور الى فورنييه أو أوين .

ومع أن الاستخراج العالمى للذهب قد تقدم بانتظام خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر (البرازيل وروسيا وغرب أفريقيا فان العصر الجديد فى تاريخ المعدن الاصفر ، وبخاصة تاريخه النقدى ، قد بدأ باكتشاف طبقاته فى كاليفورنيا واستراليا فى منتصف القرن التاسع عشر .

ولعب تدفق الذهب بكميات هائلة فى غرب أوربا وأمريكا الشمالية دورا حاسما فى التطور الراسمالى المحموم الذى خبرته هذه البقاع من العالم خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وأتاحت هذه الوفرة زيادة حجم الائتمان ، وانشاء شركات مساهمة ومصارف ، الامر الذى أعطى بدوره دفعة قوية للصناعة ، وأتاح انشاء السكك الحديدية ، وتطوير طرق النقل البحرى . ويرجع نفوذ الذهب هذا الى دعم دوره الاساسى فى النظم النقدية الوطنية ، وكذلك فى النطاق النقدى الدولى حيث تعتمد هذه النظم على الذهب . وهذا أيضا هو السبب فى أن أهمية الذهب الاقتصادية فى نمو الرأسمالية وقواها الانتاجية تختلف أساسا عن أهمية السلع الاخرى (الحديد والفحم والقطن والبترول) مهما كانت هذه السلع ضرورية . ولكن اذا كان الذهب هو مصدر فاعلية الحضارة الرأسمالية وديناميتها فانه فى الوقت نفسه ، وفى ذاته ، رمز لوحشية هذه الحضارة وفوضويتها الاقتصادية .

وفى العقد التاسع من القرن الماضى اكتشفت مناجم الذهب فى جنوب أفريقية . وبخلاف ما حدث لمناجم الذهب الاخرى كان استخراج الذهب فى جنوب أفريقية منذ البداية تقريبا من شأن شركات راسمالية اتحدت بالتدريج لتصبح شركات ومجموعات مالية قوية ، تشترك فيها رؤوس الاموال المحلية والاجنبية (وبنوع رئيسى الانجليزية والامريكية) . وتستخدم صناعة الذهب فى جمهورية جنوب أفريقية فى الوقت

الحاضر قرابة أربعمئة الف عامل ومستخدم ، تســـعون في المئة منهم افريقيون . ومتوسط أجر العامل الافريقي يقل عشرين ضعفا عن أجر العامل الابيض · ويتبين من دراسة أجريت حديثا أن الاجر الحقيقي للافريقيين في عام ١٩٦٩ لم يتجاوز مستوى أجرهم في عام ١٩١١ · ويتيح أجر العمل المنخفض للشركات أن تقتصد في نفقـات الميكنة · أما عدد الحوادث فانه مرتفع للغاية ، ويقدر في المتوسط بخمسمئة متوفى في السنة ·

وكانت الزيادة السريعة في استخراج الذهب في مســـتهل القرن الحاضر من الاسباب الرئيسية لاستخدام (قاعدة الذهب) في كل البلاد المتقدمة ، وبخاصـــة الولايات المتحدة وروســــيا · وقد توج العصر الفيكتوري (العصر الذهبي) للنظام الرأسمالي بانتشار النقود الذهبية وروعتها ·

قاعدة الذهب التقليدية :

هناك مؤلفات كثيرة عن قاعدة الذهب ، لا عما كانت عليه ، وانما أيضــــا عما (لم تكنه) · تفسير ذلك أن الحنين الى (الماضي السعيد) ولد العـــديد من الاوهام والاساطير بشأن الحالة الطيبة المنسقة التي كان عليها النظام ، وانتظـــام عملياته الذاتية ·

وفي بداية القرن العشرين تصور الكثيرون أنه قد نشأ أخيرا نظام نقدي مثالي ، في النطاق الداخلي ، والبلاد الرئيسية ، وكذا في النطـــاق الدولي · ولكن الامر كما اتضح سريعا لم يكن الا حدثا قصيرا في تاريخ النقد والعلاقات النقـــدية الدولية . واستمرت قاعدة الذهب في صورتها التقليدية الكاملة نصف قرن ، من أواخر القرن التاسع عشر الى أوائل القرن العشرين ، وكان المفروض أن تطبق في كل البلاد ، ولكنها لم تطبق الا في مجموعة البلاد الصناعية المتقدمة · أما بالنسبة لســـائر البلاد فكان عليها ان تتوافق طوعا أو كرها مع النظام الذي اقامته القوى الكبرى في العالم · وكانت خصائص قاعدة الذهب التقليدية هي : تداول الذهب كأداة أساسية للدفع بالنسبة للنقود الائتمانية وسائر النقود المعدنية التي كانت وظيفتها النقدية ثانوية ، قابليـــة كل النقود الداخلية مهما كان نوعها لان يستبدل بها ذهب ويتولى البنك المركزي هذا الاستبدال ويضمنه احتياطيه الذهبي ، الاحتفاظ الدقيق بعيار النقود وبالتالي استقرار التكافؤ بين العملات ، حرية المبادلات باسعار السوق ، وهي أسعار لايجوز أن تبتعد عن التكافؤ الا في حدود ضيقة جدا ، حرية استيراد الذهب وتصديره وأستخدامه علنا لسداد الحسابات الخارجية ·

ويشكل احتياطي الذهب في البنك المركزي محور النظام النقـــدي والائتماني كله ، ويضمن قابلية الصرف الداخلية لكل أنواع النقود الائتمانية (اوراق مصرفية ، ودائع مصرفية ، أذونات على الخزانة ، عملات صغيرة) ، كما يضمن قابلية الصرف الخارجية للعملات · فمثلا اذا كانت العملات الاجنبية الموجودة في بنك فرنسا لا تكفي الذين يرغبون في استبدال جنيهات استرلينية في مقابل فرنكات فان بنك فرنســـا يسلم بنك انجلتره ذهبا في مقابل الجنيهات الاسترلينية ·

وقد أدى هذا النظام وظيفتة باحتياطات ذهبية متواضعة بصورة مدهشة ·

فاحتياطى الذهب فى بنك انجلترة الذى كان فى مركز النظام العالمى كله لقاعدة الذهب فى القرن التاسع عشر بقى ثابتا بما يقدر ببضع عشرات من ملايين الجنيهات الاسترلينية فقط • ويمكن تفسير هذه الظاهرة بمجموعة من الاسباب ، منها أن الاساليب الذاتية لتصحيح موازين المدفوعات لم تكن لتسمح بأى عجز كبير وطويل المدى يسفر عن خروج كميات كبيرة من الذهب من البلد ، وكانت البنوك المركزية تتولى حراسة الاحتياطيات ، وتتبع سياسة نقدية نشيطة (عن طريق الخصم بنوع أساسى) بقصد الاحتفاظ باحتياطى الذهب ، وذلك على الاقل فى الظروف الطبيعية ، أى عندما لا يكون ثمة أزمة تجارية أو مالية ، وكانت العملة الورقية تتمتع بثقة كبيرة ، مثلها مثل نظام الائتمان الدولى القصير الاجل •

وكانت أساليب التصحيح والموازنة فى نظام قاعدة الذهب وفاعلية هذه الاساليب وتطورها ونتائجها موضوعا لمؤلفات متخصصة عديدة ، وللكثير من الجدل • وفى وسعنا فى نطاق هذا المقال أن ندرس الموضوع بالتفصيل ، ولكنا نستطيع أن نقول على الاقل انه فى مرحلة معينة من تطور النظام الرأسمالى ساعد النقد الذهبى وقاعدة الذهب على نمو قوى الانتاج والتقدم الاقتصادى والتقنى • وعلى ذلك فان نسبة كل النجاحات التى أحرزها العلم والتقنية والصناعة فى عصر قاعدة الذهب الى هذا المعدن الاصفر انما يدل على تعصب أعمى • هذه النجاحات يمكن تفسيرها بمجموعة معقدة جدا من العوامل • زيادة على ذلك لا يجوز الاصرار على أن قاعدة الذهب لم تكن الا خيرا • فهذا النظام كان مجردا من المرونة بصورة غير عادية ، وأدى فى بعض الحالات الى تعويق النظام الاقتصادى ، وبالاخص تقوية التذبذبات الدورية ، وتفاقم الازمات المالية ، وأزمات الصناعة والتجارة • وكان من شأن ارتباط النظام النقدى كله بالذهب ارتباطا شديدا ، ومبدأ ارتباط أصدار النقود ارتباطا وثيقا بالغطاء الذهبى فى البنك المركزى ، أن حدا من امكانيات توافق النظام مع الظروف المتغيرة • وكانت كتلة النقد والائتمان يتضخمان وينكمشان بعنف • وكان نقص النقود فى فترات الازمات الحادة يزيد من خطورة الموقف ويساعد على انتشار موجة الافلاسات والانهيارات • وكان فى انجلترة قانون خاص يسمى قانون السير روبرت بيل (اسم وزير المالية فى السنوات ١٨٤٠) يحدد بدقة أصدار بنك انجلترة للاوراق المالية غير المغطاة بالذهب بنسبة ١٠٠٪ • غير أن الامر اقتضى فى كل أزمة ايقاف تطبيق هذا القانون بقانون جديد يصدره البرلمان • ما هو اذن ذلك القانون الذى يتعين ابطاله فى اللحظة التى ينتظر فيها أن يثبت فائدته ؟

وعلى المستوى الاجتماعى كانت قاعدة الذهب رمزا وعاملا للتفاوت الاقتصادى بين الافراد ، والطبقات والامم • وعندما كان الذهب يظهر ميلا الى الخروج من البلد كان ينبغى حسب النظرية خفض مستوى الاجور للاقلال من نفقات الانتاج ، ورفع قوة تنافس المنتجات فى السوق الخارجية ، وتصفية العجز فى ميزان المدفوعات ، وأخيرا اعادة الذهب الى قباء البنك المركزى • كانت تلك هى النظرية ، والممارسة العملية • ولم تكن وسيلة خفض الاجور سوى البطالة التى تعتبر بعامة فى الاقتصاد قوة طبيعية وصحية • وفى هذا العصر تكونت ثروات أصحاب الملايين التى لم تزل الى وقتنا الحاضر تشكل أساس الغنى الفاحش لبعض الاسر القوية فى غرب أوربا والولايات المتحدة • وفى قصة لآرثر هيلى تجرى أحداثها فى وقتنا الحاضر نشهد مارجو براكن، وهى محامية ذات نزعة راديكالية تحت مصرفيا تقدميا، تصيح وهى تناقش رجلا

محافظا (لوى دورسيى) متمسكا بمبدئه ، يحلم بعودة قاعدة الذهب قائلا : « فى عصر قاعدة الذهب كان الذين يجمعـون بين أيديهم الجزء الاكبر من ثروة العالم أقل عددا من أمثالهم الموجودين فى الوقت الحاضر . أما باقى البشر فكانوا فقراء معدمين » .

وفى ختام هذا الجزء الاول نستعرض بايجاز مواقف ماركس من مسألة الذهب وقاعدة الذهب (وهذا مصطلح لم يكن له وجود فى عصره) .

ففى الجزء الاول من كتاب « رأس المال » يدرس ماركس دراسة مجردة أسس الانتاج الرأسمالى ، فيوضح العملية التـــاريخية ومختلف الخطوات التى تولى بها الذهب دور النقد المسيطر ، ويكتفى بذكر امكانية حلول النقد الورقى محل الذهب ، وهى امكانية تنبع من طبيعة الوظيفة التى تؤديها النقود باعتبارها من وسائل التداول . ولكنه لا يتمهل فى هذه النقطة من المسألة فيقول : « للتبسـيط ، افترضت فى موضع من هذه الدراسة أن السلعة التى تؤدى مهمة النقد هى الذهب » . ولا يتعرض ماركس هنا لحسنات الذهب أو عيوبه باعتباره نقدا ، فى حين يلاحظ فى القسـم الخاص بفتيشية (تقديس أعمى) السلعة ، أن فتيشية العلاقات الاجتماعية ، وهى من خصائص العقلية البورجوازية ، تبلغ ذروتها حين يتعلق الامر بالنقد (أى الذهب) .

وفى موضع لاحق من دراسته للظواهر الاكثر واقعية فى الاقتصاد الرأسمالى ، وبخاصـة الائتمان ، والتجارة الدولية ، والازمات الاقتصـــادية ، يناقش ماركس (وبخاصة فى الجزء الثالث من كتاب رأس المال) الدور الذى يلعبه الذهب فى هذه المجالات المختلفة . ويذكر ماركس مستندا الى المعطيات فى العقدين السادس والسابع من القرن الماضى (وبخاصة المعطيات الانجليزية) ضعف قاعـــدة الذهب ، واتجاهها نحو زيادة حدة الازمات والكوارث النقدية . وفى هذا الصدد ينتقـــــد بلهجة لاذعة التشريع الانجليزى الذى ذكرناه آنفا ، ويبين خفاياه ، أى صراع مصالح الجماعات المختلفة من الطبقة البورجوازية الكبرى . وكتب ماركس أن الاقتصاديين « يسلمون بضرورة الموافقة على تضحيات كبيرة للحفاظ على القاعدة المعدنية فى وقت الازمة » . غير أن ماركس يوضح ماهية التضحيات التى تبذل بالفعل . البطالة ، خفض الانتاج ، اغراق السوق الخارجية بالبضائع ، الخ . وفى رأيه أن وضعا يتوقف فيه مصير نظام النقد والاقتصاد كله فى بلد ما على احتياطى الذهب فى البنك المركزى هو وضع غير مقبول .

ولما كان ماركس لا يعتبر الرأسمالية نظاما طبيعيا ودائما ، وانما هى فى رأيه مجرد مرحلة فى تطور المجتمع الانسانى ، فانه يقوم من وجهة النظر هذه بتقدير نظام النقد ونظام الائتمان اللذين خلقتهما الرأسمالية . ويرى ماركس أن البنوك الكبرى ، وعملية الخصم والرقابة على الانتاج التى أنشأتها (وهى عملية عامة أسـاسا) ، هى أكثر أشكال نظام النقد تطورا ، وأن فى امكان الاشتراكية أن تستخدم النظام المصرفى فى صالح المجتمع كله ، لا لفائدة الطبقة الرأسمالية وحدها ، كما هو الحال فى النظام الاجتماعى القديم .

الرأسمالية المعاصرة والذهب :

سوف نذكر فى هذا القسم المراحل الرئيسية لتناقص وظائف الذهب النقدية بالتدريج وتصفيتها فى عشرات السنين الاخيرة . وقد أدت الحرب العالمية الاولى الى

الغاء قابلية تحويل الاوراق المالية والودائع في كل البلاد تقريبا . واعيدت قابلية التحويل هذه في العقد الثالث من القرن الثاني في عدد من البلاد الراسمالية ، وانما ببعض القيود · كان هناك النظام المسمى « قاعدة السبائك الذهبية » ، ومن جهة اخرى كان هناك النظام المسمى «قاعدة الصرف بالذهب» · وفي العمل لم تعد النقود الذهبية متداولة · وجاءت الازمة الاقتصادية العالمية في السنوات ١٩٢١ ـ ١٩٣٣ (الكساد الكبير) فصفت آخر آثار نظام قاعدة الذهب في التداول النقدي الداخلي · واحتفظ الذهب بأوضاعه في السوق الدولية كاداة احتياطية ، وفي التسويات بين البلاد ، غير أن تقلباته من بلد الى آخر لم تعد تؤثر بدرجة ما في الاقتصاديات الوطنية . وأضفت اتفاقات بريتون وولز على هذا الوضع تعبيرا قانونيا ، فبخلاف الوظائف التي ذكرناها من قبل استمر الذهب في قياس قيمة العملات · وعلى طول الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية استمر تناقص الوظيفة النقدية للذهب . فالولايات المتحدة ألغت عن طريق التشريع الغطاء الذهبي للورق النقدي · ومن أواخر العقد الماضي توقفت تنتلات الذهب بين البلاد توقفا شبه تام ، وأصبحت احتياطيات الذهب في البنوك المركزية والهيئات الحكومية مجمدة · وأخيرا انقطع آخر رباط يقرن النقود الورقية بالذهب ، ففي عام ١٩٧١ ألغت الولايات المتحدة قابلية تحويل الدولارات بالنسبة للحائزين الرسميين في الخارج · وأخيرا فان الاصلاح الجزئي للنظام النقدي الدولي الذي أجري اليوم على أساس اتفاقات كجنستون وجامايكا (١٩٧٦) يلغي التعادلات الذهبية للنقود ، ويصرح للبنوك المركزية باجراء عمليات على الذهب بأسعار السوق كما لو كان الذهب سلعة عادية ، وينص على تصفية احتياطي الذهب في صندوق النقد الدولي ·

ولما قام رجال الاقتصاد السوفيت المكلفون بتأليف أحدث كتاب دراسي لطلبة معاهد الاقتصاد العليا بتلخيص هذا التقدم الواقعي ابدوا الراي الآتي : « في ظروف النظام الراسمالي المعاصر اشتد الميل الى الغاء النقود الذهبية ، فالذهب يفقد بالتدريج وظائفه كسلعة نقدية ... ولم تعد النقود الذهبية تلبي المطالب الاقتصادية للراسمالية الاحتكارية في الدولة . فقد تحولت هذه النقود الى (سلسلة ذهبية) تعوق توسع الاحتكارات واستخدام التضخم كوسيلة لتنظيم الاقتصاد .. وتعكس عملية الغاء النقود الذهبية مستوى تطور الانتاج وتحوله الاشتراكي ، والتوفيق بين الدوائر النقدية ومطالب الراسمالية الاحتكارية للدولة) .

ومع تأييدنا لهذا الراي العام سوف نحاول أن نحدد العوامل التي تجعل الابقاء على قاعدة الذهب متعارضا مع الرأسمالية المعاصرة ، وفي الامكان ان نميز ثلاث مجموعات من العوامل .

المجموعة الاولى ، وهي أهمها ، تنتمي الى الانتقال من راسمالية المنافسة الحرة الى الراسمالية الاحتكارية ، وراسمالية الدولة الاحتكارية . ومنذ بداية القرن العشرين كان من اثر الارتفاع الشديد غير السوي في الاسعار بسبب نمو الشركات الكبرى (بين ١٨٩٦ و ١٩١٣ ، زيادة ٤٩ ٪ في الولايات المتحدة و ٣٢ ٪ في بريطانيا العظمى و ٤١٪ في المانيا وفرنسا) أن اخضع نظام قاعدة الذهب التقليدي الى توتر ادى الى نتائج منها انقاص قيمة الذهب انقاصا لم يكن له مبرر من الوجهة الاقتصادية . فالواقع أن أسعار الذهب في العملات الرئيسية قد أبقيت في مستوى ثابت احتراما (لقواعد اللعبة) · ومن الجهة الموضوعية يبدو نمو الوظيفة الاقتصادية للدولة عملية

طبيعية لا مناص منها • ولكن كيف يمكن فى ظروف التطبيق الدقيق لاصول قاعدة الذهب أن نتصور الاجراءات التى تتخذ اليوم عادة (بحقن) نقود فى الاقتصاد بمجرد ظهور دلالات لكساد اقتصادى ؟ والشيء الذى لا يمكن تصوره أيضا تلك النفقات العسكرية الضخمة التى لا تخضع مطلقا لاية رقابة •

وثانيا : نجد أن التعقد المتزايد فى البنيان الاقتصادى قد جعل هو الآخر الابقاء على قاعدة الذهب أمرا مستحيلا • فقاعدة الذهب لا تتمشى الا مع اقتصاد بسيط نسبيا وقادر فى بعض الحدود على التوافق مع التذبذبات النقدية •

وثالثا : يمكن نظريا أن نتصور قاعدة ذهب دولية بالتحديد ، منفصلة عن مكوناتها الاقتصادية الداخلية ــ فنظام من هذا النوع ، مقترن ببعض القيود ، قد اشتغل بالفعل ــ غير أن القوى العاملة على المستوى الدولى قد جعلت هذا النوع المبتور من نظام قاعدة الذهب مستحيل التنفيذ • فالتذبذبات الكبيرة فى موازين التجارة الخارجية ، والحركات الكبرى « للنقود الساخنة » ، والقومية الاقتصادية ، واستخدم فروق الصرف فى الصراع التنافسى ، كل هذه عوامل زادت من صعوبة تنفيذ نظام كنظام اتفاقات بريتون وودز ، أى نظام شبيه بقاعدة الذهب ، وانتهت بعرقلة تنفيذه• وكما أبان جون جالبريت لم يكن باقيا من نظام قاعدة الذهب الا الشيء القليل للغاية حينما انقطع فى عام ١٩٧١ الرباط الذى كان يقرنه بالدولار • حتى لم يتحدث أحد فى موضوع ترك قاعدة الذهب : « قيل بدلا من ذلك أن نافذة الذهب الصغيرة قد أغلقت• ولم يتأثر أحد بالفعل • بل ان أحدا لم يلحظ أن نظام بريتون وودز الواهى قد تلاشى بالفعل • ولم يكن هذا النظام قد اعد ليعمل فى الظروف التى نعرفها والتى تتميز بتقلبات كبيرة فى الاسعار والنقود » •

ولم يتم التخلى عن قاعدة الذهب دون انتفاضات ، أو فى هدوء • ولم ينتج عن سياسة واضحة ومنهاجية ، ولا من اتفاقات دولية ، أو من تطبيق نظريات اقتصادية ، مع وجود شيء من كل هذا فى التطور الذى حدث • والاجراءات السياسية والتشريعية التى أضفت صفة رسمية على هذا الترك قد فرضت على الحكومات تحت ضغط قوى اقتصادية لا تقاوم لم تترك لها بالفعل فرصة للاختيار • والشيء الواضح أن القرارات الاساسية فى مسألة الغاء النقد الذهبى قد اتخذت بوجه عام فى « الظروف العصيبة » التى خلقتها الحروب العالمية والازمات الاقتصادية • وباءت بالفشل كل الجهود التى بذلت فى العقد الثامن لمحاولة القيام باصلاح منهاجى مخطط ، ولم يكن من شأن اتفاق كنجستون الا أن دعم على نطاق واسع وضعا أصبح أمرا واقعا على أثر التوترات الحادة الناتجة من أزمة النقد التى حديث فى النصف الاول من هذا العقد •

وتتوقف سياسة البلاد الرأسمالية الرئيسية فيما يختص بالذهب على الوضع القومى والمصالح الاقتصادية للطبقات الحاكمة بها • والمعروف أن الولايات المتحدة كانت فى السنوات الاخيرة أشد البلاد تصميما على أستبعاد الذهب من نظام النقد الدولى ، فى حين أن فرنسا على العكس من ذلك اجتهدت أكثر من غيرها من البلاد أن تثبت ضرورة الاحتفاظ للذهب بدور نقدى معين

وقد حاولت فى مقال آخر أن أوضح الاسباب الاقتصادية والسياسية والتاريخية لهذا التعارض • لذلك فسوف أكتفى ببعض التعليقات على اتفاق كنجستون الذى يشكل حدثا هاما فى تاريخ الذهب ، والامر هو كما أبدى دف • سيمسلوف : « أن

كل طرف يحاول أن يفسر الاتفاق الذى تم ويستخدمه بكيفية يخدم بها أغراضـــه الاستراتيجية على المدى الطويل » • وتسعى الولايات المتحدة للاستفادة من هذا الاتفاق لدعم أوضاع الدولار المتزعزعة ، وتتيح لنفســها امكانية تعويض العجز فى ميزان مدفوعاتها بدولارات ورقية ، وعلى هذا النحو نلقى على ســائر البلاد عبء الاجراءات التى تستهدف اعادة توازن ميزان مدفوعاتها • أما فرنسا فانها تعتبر أن الغاء السعر الرسمى للذهب واضفاء الشرعية على العمليات التى تجريها البنوك المركزية على الذهب بالسعر الحر للمعدن يزيدان من أهمية احتياطيات الذهب ، ويضـمنان للذهب فى الواقع ، ان لم يكن فى القانون ، دورا باعتباره وسيلة للتسوية الدولية ودورا باعتباره احتياطيا • لذلك فحينما تبيع الولايات المتحدة ذهبها فى السوق الحرة تشترى فرنسا هذا الذهب • ثم ان فرنسا قامت باعادة تقويم احتياطيها من الذهب تبعا لسعره فى الســوق • وللعملة التى تتغيا اســتبعاد الذهب من النظام النقدى طبيعة معقـدة ومتناقضة ، وهى تمس المصالح المادية (وغير المادية) للافراد ، وفئات المجتمع ،والامم، وهى مصدر للخلاف ، كما هى موضوع للاتفاق •

الذهب ووظائف النقد

يرتبط تطور الذهب من جهة بانقاص وظائفه النقدية ، ومن جهة أخرى بتعديل هذه الوظائف • ومن هدد الوظائف ما احسى منذ وقت مبكر ، فى حين لم نزل وظائف أخرى باقية وتأبى بعناد أن تختفى • والامور واضحة تماما فيما يختص بوظيفته كأداة للتداول ، فقد توقف الذهب عن التداول باعتباره نقدا (فى صورة قطع معدنية ، أو فى أية صورة أخرى) منذ الحرب العالمية الاولى ، وزالت هذه الوظيفة تماما منذ بداية العقد الرابع • أما الحالات الفردية التى بقيت فيها العملة الذهبية أداة الدفع الاكثر فاعلية فى بعض الظروف (فى امارات الخليج الفارسى مثلا فيما يختص « بالتذكارات الانجليزية » فانها انما تؤكد القاعدة • ولكن حتى حين كان نظام قاعدة الذهب سارى المفعول فأن الظروف لم تكن تتيح تداول الذهب فى كل مكان بكميات كبيرة • ومع ذلك كان فى الامكان فرضــا أن يدخل الذهب فى التداول ، ويضمن العمله الورقية التى كانت تمثله اجمالا • على أن الامر اختلف اليوم • فالقطع الذهبية التى تباع وتشترى فى الاسواق الحرة بكميات كبيرة وبأسعار متغيرة ليست نقودا ، ولكنها سلفة معينة لها سوق خاصة بها ، وتحديد خاص لاسعارها ، الخ • أما مايتداول باعتباره نقودا فهو بطبيعة الحال الاوراق المالية (البنكنوت) ، أو الودائع المصرفية بالعملة المناسبة

كذلك فقد الذهب وظيفة الابرائية (الانقضاء المؤجل للالتزامات) • وفى مراحل النظام الرأسمالى الاولى لم تكن العملة الورقية بأشكالها المختلفة قد فرضت بالكامل ، ولم يكن الوفاء الذى يتم بهذا النــوع من النقود يعتبر نهائيا بحيث ينقضى به الالتزام بلا نزاع • وكان الذهب وحده هو الذى يؤكد اختصاصه بهذا الدور • وفى نظام قاعدة الذهب لم يكن الوفاء الذى يتم بالعملة الورقية يعتبر نهائيا الا حيثما يمكن أن تتحول العملة الورقية الى ذهب بسعر صرف محدد • أما فى الوقت الحاضر فان الذهب على العكس من ذلك لا يعتبر بالمرة من قبل الاطراف المتعاقدة طريقة ينقضى بها الالتزام فى النهاية ، ويمكن أن يكون أى وفاء صحيحا بالعملة الورقية •

وللنقود وظيفة أخرى تتمثل فى تقدير قيمة السلع ، ووضع جدول لهذا التقدير

ففي نظام قاعدة الذهب كانت أداة التقدير هي الذهب ، وكان الجدول يوضع اعتبارا بوزن الذهب الذى تحتويه رسميا الوحدة النقدية • وكان هناك تماثل بين اسعار الذهب وأسعار العملة الورقية ، فاذا ألغيت قابليه التحويل فقد تفقد العمله الورقية قيمتها بالنسبة للذهب ، وفى هذه الحالة يمكن أن يكون للسلعة سعران : سعر بالذهب وسعر بالعملة الورقية • وغنى عن القول أن السعر الاول هو الذى يمثل القيمة الفعلية ، فى حين أن الثانى يمثل انخفاض قيمة العملة النقدية بالنسبة للذهب •

وفى الادب الروسى الكلاسى ، فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فى مؤلفات جوجول وبوشكين وغيرهما من كتاب ذلك العصر ، كان سعر السلع (وبخاصة سلعة غريبة تسمى « النفوس الميتة » ، أى الاقنان المتوفين) يقدر بالنقود الفضية أو الحوالات الحكومية (الاسينية) •

وكانت اسعار هذه الحوالات الحكومية تزيد عادة بمقدار ضعفين أو ثلاثة أضعاف على أسعار العملة الفضية ، وكان هذا الفرق يختلف زيادة أو نقصا تبعا للظروف وفى روسيا كان المعدن النقدى الآساسى هو الفضه ، والوحدة النقدية هى الروبل الفضى ، ولكن كان يجرى فى التداول أيضا بموازات هذا النقد حوالات حكومية غير قابلة التحويل (أوراق نقدية من نوع خاص ، بدأ اصدارها فى عهد كاترين الثانية) ، ولم يكن أحد يعتبر أن هذه الحوالات الحكومية هى العملة الرئيسية ، ولا أنها قياس حقيقى للقيمة • ولم يكن الروبل ـ الاسينى ـ يساوى أكثر من نصف أو ثلث الروبل الفضى ، وكانت العلاقة بين الاثنين تتوقف على نسب الاصدار ، والثقة التى يوحى بها هذا النمط من النقد ، والحالة الاقتصادية فى البلد ، وعوامل مختلفة أخرى • وكون العملة هنا فضة وليست ذهبا لايغير فى الموضوع شيئا •

ويختلف الوضع تماما حين لا يوجد أى تداول بالعملة المعدنية ، فالاسعار فى هذه الحالة لا يمكن تقديرها بعملة معدنية ، ووحدة النقد ليس لها أى مضمون معدنى محدد • وهذا هو الوضع الذى وصلنا اليه فى الوقت الحاضر •

والمعروف أن من ١٩٣٤ الى ١٩٧١ بقى السعر الرسمى للذهب بالدولارات محددا عند مستوى ثابت ، فى حين أن أسعار سائر السلع قد زادت فى المتوسط ثلاثة أضعاف فى هذه الفترة نسها • وعلى ذلك « انخفض » سعر الذهب كثيرا ـ بالنسبة لسائر السلع ـ رغم أنه ليس هناك ما يبرر هذا الانخفاض من الوجهة الاقتصادية • ولم تنخفض بالمرة تكاليف انتاج الذهب بالنسبة لتكاليف انتاج سائر الاموال ، ولم يكن هناك زيادة فى كميات الذهب فى السوق العالمية • وفى مثل هذه الظروف لم تكن « الاسعار بالذهب » للسلع تفترق رسميا عن أسعارها بالدولارات . ولكن العالم كله يعرف أن هذا التوفق غير حقيقى نظرا لانخفاض قيمة الدولار انخفاضا تضخميا كبيرا •

وبعد انخفاضات الدولار المتتابعة بين ١٩٧١ و ١٩٧٣ أصبح فى المستطاع حساب الاسعار بالذهب » أما بالرجوع الى السعر الرسمى الجديد للذهب (٢ر٤٢ دولار للاوقية ٢ فى مقابل ٣٥ دولارا للاوقية فى السنوات من ١٩٣٤ ـ ١٩٧١) ، واما بالاستناد الى سعر الذهب فى السوق الحرة ، وهو أعلى من ذلك بكثير • غير أن هذه «الاسعار بالذهب» لم تكن تتوافق مع الواقع الاقتصادى ، فهى مجرد حساب احصائى

يجرى من باب الفضول ، ووسيلة للتحويل ، أما الاسعار الحقيقية فهى أسعار السلع المقدرة بالورق النقدى ومتعلقاتها .

وكان الذهب أيضا ، منذ أزمان قديمة لا تعيها الذاكرة ، يؤدى وظيفة احتياطى القيمة ، أو خزانة نقدية . ففى نظام قاعدة الذهب كانت هذه الوظيفة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتداول الواقعى للذهب ، فمين نقل الذهب الى النقود فى مجال الاقتصاد يتكدس الذهب فى ارصدة البنوك المركزية أو فى ايدى الافراد . وعلى العكس حيث تزداد الحاجه الى النقود ، يخرج الذهب من الارصدة .

وفى العصر الحاضر تغيرت هذه الوظيفة تغيرا كبيرا ، اذ لما توقف الذهب عن التداول أصبح كل المعدن المتاح (دون اعتبار لما هو مستعمل فى الصناعة) مركزا فى الخزانات المختلفه ، سواء فى « فورت نوكس » الامريكى ، أو فى « الجورب الصوف » عند الفلاح الفرنسى (أى من مدخراته) أو فى الصندوق الذى يضم أساور الفتاة الهندية فحين يخرج الذهب منهذه الخزانات لا يخرج باعتباره نقدا ، وانما باعتباره سلعة من نوع خاص ، ولا يذهب الى دار سك النقود أو الى التداول النقدى ، وانما الى السوق .

ولا يجوز القول بأن الذهب قد فقد نهائيا وظيفة الذخيرة النقدية المتراكمة ، فهذا النوع من السلعة السائلة لم يزل يعتبر من النقود . والمال المكدس فى الخزائن الحكومية يحتفظ من حيث المبدا بقوته الابرائية لسداد الديون الدولية . وكان من أثر الغاء السعر الرسمى للذهب والتصديق الدولى على بيع الذهب فى السوق الحرة فى العقد الحالى زيادة قوته فى الشراء والتسوية .

ويحتفظ الذهب أيضا ، وبصورة مختلفه بعض الشىء ، ببعض صفات الخزانة النقدية فى مدخرات الافراد . وفى نظام من التضخم المستديم وانخفاض قيمة النقد يكسب الذهب وظيفة نوعية تتمثل فى الاحتفاظ بقوة شرائية ثابتة نسبيا .

ان وجود احتياطيات ضخمة من الذهب (فى أيدى كل من الحكومة والافراد) يعطى بذاته للذهب وضعا خاصا للغاية بين سائر السلع . ولا يمكن مقارنة أية سلعة اخرى بالذهب من حيث أهمية الاحتياطيات المتراكمة ، ولا يضيف مجموع ما يتيح سنويا من الذهب الا نسبة ضئيلة من كمية الاحتياطيات الموجودة .

وقد احتفظ الذهب بوظائفه النقدية فى مجال العلاقات الدولية بنوع خاص . والواقع أن الذهب يلعب على المستوى الدولى دورا خاصا باعتباره عملة عالمية . وهذا واضح للغاية لانه من العسير أن يستبدل بالذهب عملة ورقية فى مجال لا تملك فيه أية حكومة أى اختصاص قضائى لفرض العمله الورقية ، كما أن المسألة مستحيلة تماما فى الظروف الحاضرة . وسوف نعود فيما بعد الى هذه المسألة ، ولكننا ننوه هنا بالاهمية المتزايدة لقيمة الذهب النفعية (أى فائدته الاجتماعية) . فللذهب فى الظروف الحاضرة ثلاث منافع اجتماعية (ونقصد بلفظة « منفعة » معناها الاقتصادى لا معناها الاخلاقى أو الفسيولوجى ، فالمخدرات من الوجهة الاقتصادية يمكن أن يكون لها « منفعة خاصة بها ») .

فالذهب أول كل شىء يحتفظ ببعض المنفعة باعتباره نقدا ، وبخاصة فى السوق الدولية والذهب ثانيا « مال مدخر » يشكل صندوقا للتأمين ضد التضخم وغيره . ويلعب الذهب ثالثا دورا يزداد أهمية باعتباره مادة أولية فى مختلف فروع الصناعة

والمجالات التطبيقية . فالى جانب استعمالاته التقليدية (صياغة المجوهرات ، وصناعة الاسنان) أصبحت الصناعات الالكترونية ، والتقنية الكهربية ، وكذا التقنية الكونية وصناعة الادوية ، من أهم مستهلكى الذهب فى السنوات الاخيرة . وبشكل عام المسكوكات (علم النميات) مجالا خاصا لطلب الذهب .

الذهب فى نظام النقد الدولى

فى نظام النقد الدولى لمؤتمر بريتون وودز اكتسب الذهب كما رأينا دورا فى الدرجة الاولى من الاهمية . ولذلك مجموعة من الاسباب ، منها أولا حاجة فعلية الى مقابل دولى ذى عيار جيد للاحتياطيات والتسويات والعملات ، وكذا قوة المصرف ، لان عصر قاعدة الذهب كان ولم يزل قريب العهد ، ثم الوضع الخاص للولايات المتحدة التى كان لها دور حاسم فى الاعداد لاتفاق صندوق النقد الدولى ، وكانت تملك وقتئذ حوالى ثلثى احتياطيات الذهب الذى كدسته الهيئات المركزية فى البلاد الرأسمالية .

ولم تكن أزمة نظام بريتون وودز ، أى قاعدة الصرف بالذهب التى بدأت فى العقد الماضى وأصبحت ذات أبعاد خطرة فى العقد الحالى أزمة ذهب ، ولكنها أزمة الاحتياطيات النقدية ، وقبل كل شىء أزمة الدولار التى تتبين أبعادها مع الغاء قابلية تحويل الدولار (بالنسبة للبنوك المركزية) ومع التخفيضين الرسميين للعملة الامريكية « وانفصال » سائر العملات التى لم تعد تتبع الدولار ، الأمر الذى ترتب عليه توسيع نطاق نظام الأسعار العائمة .

وقد يبدو من المفارقات فى مثل هذه الظروف أن يستمر استبعاد الذهب من النظام النقدى . ومع ذلك فان هذه المفارقة جزء من الحقيقة الواقعة ، وتنتج من أن الاقتصاد الرأسمالى أصبح من المستحيل عليه أن يعود الى نظام ذهبى دقيق . والحكومات لا تلجأ الى التضخم بسوء نية (ولو أنه قد توجد حالات من هذا النوع) ، ولكن الرأسمالية الحديثة لا تستطيع أن تتطور بطريقة أخرى .

واليوم ، يبدو الشعار المعروف « الدولار يساوى قيمته ذهبا » دعاية ساخرة ، وتعرف الدنيا كلها أن الذهب أكبر قيمة من الدولار . ولكن الرأسمالية ليست فى حال تسمح لها بالعودة الى قاعدة نقدية دولية أكثر متانة . وتحاول الولايات المتحدة جاهدة أن تستفيد من هذه الضرورة الموضوعيه للتطور التاريخى . فاذا لم يعد فى وسع الذهب أن يؤدى بالفعل دوره كأداة رئيسية للاحتياطى (وسيلة للاكتناز ، وقوة الشراء ، والتسوية الدولية) ، واذا لم تكن حقوق السحب الخاصة (« الذهب كعملة ورقية » ، عملة ائتمانية دولية) قادرة بعد على أن تضطلع بهذه الوظيفة - وربما نتساءل هل تكون قادرة على ذلك فى يوم ما - فان الشىء العملى الوحيد هو الاحتفاظ للدولار بوضعه المركزى فى النظام . والواقع أنه حتى بعد عام ١٩٧١ استمرت البلاد الاخرى ، طوعا أو كرها ، فى جمع الدولارات وتكديسها ، ولم يكن من شأن نظام الاسعار العائمة الا أن تجلب شيئا من المرونة فى هذا المجال ، فاذا كانت وفرة الدولارات فى أسواق المصرف الدولية فيما مضى تمتصها بالضرورة البنوك المركزية فى البلاد الاخرى فان هذا الفائض فى الوقت الحاضر يؤدى الى هبوط الدولار ، الامر الذى يسفر عنه تبعا لاساليب السوق نقص فائض الدولارات. غير أنه، لبعض الاسباب وبخاصة تكدس الدولارات لدى البلاد المصدرة للبترول . تستمر المجموعة الكلية

للدولارات فى الحسابات الخارجية فى النمو • وبالاجمال لم يزل النظام غير مستقر ، ولكن شكله فقط هو الذى تغير ، فقد أصبحت التغيرات الكبيرة فى اسعار العملات عنصرا ضروريا فى النظام •

ومن الوجهة النظرية لا بد أن تتيح الاسعار العائمة انقاص احتياطيات وسائل الوفاء الدولية • وفى نموذج كامل تتذبذب فيه الاسعار بحريه يمكن الاستغناء عن الاحتياطات ، الامر الذى يزيل فى الوقت نفسه مشكلة السيوله الدولية ، وبخاصة اذا افترضنا زيادة فى اصدار حقوق السحب الخاصه • على أن الواقع بعيد كل البعد عن هذه الامانى وهذه التقديرات العزيزة على نفوس رجال السياسة والاقتصاد الامريكيين• وقد تبين أن (التقويم الكامل) للاسعار مستحيل فى الواقع العملى لانه ليس ثمه بلد يريد ترك مصير عملته الوطنية تحت رحمة قوى السوق التى لا ضابط لها • وهناك عدد من بلاد غرب أوربا عملت جاهدة على الابقاء على تكافؤات ثابتة بين عملاتها فى داخل (الثعبان النقدى) ، والتعويم بالاتفاق بالنسبة للدولار • غير أن هذا يفترض وجود احتياطيات كبيرة من العملات •

والاسباب التى تفسر هذه الحاجة الى الاحتياطيات متشعبة ، وتمس عناصر حيوية فى الاقتصاد • وفى بيئة يسودها عدم الاستقرار الاقتصادى والمالى بصورة عامة ، وفى ظروف ارتباط البلاد ارتباطا وثيقا ومتزايدا بالاسواق الخارجية ، يتجلى الاحتفاظ بالاحتياطيات الكبيرة عددا والجيدة نوعا ضرورة حتمية • وفى هذا الخصوص يدخل من جديد فى هذا المضمار ذلك المعدن الاصفر الذى انحط شأنه زمنا طويلا باعتباره أثرا متخلفا ومستبعدا ـ كما يظن البعض ـ من (المجتمع الراقى) • ولم يظهر الى الآن بديل مرض يحل محل الذهب باعتباره احتياطيا لوسائل الوفاء الدولية ، ومن المشكوك فيه امكان ايجاد مثل هذا البديل، ما لم يتغير النظام الاقتصادى والسياسى الرأسمالى العالمى تغيرا جذريا •

أما سائر الاحتياطيات فليست من الوجهة الاقتصاديه سوى موارد ائتمانية • والوسائل المجتمعة فى صورة نقود احتياطية هى فى النهاية ديون قصيرة الاجل على الولايات المتحدة أو غيرها من الحكومات ، مع كل العيوب التى تترتب عليها : من ميل الى انخفاض قيمة العملة مع التضخم ، واحتمال التحول الى رؤوس أموال مجمدة ، ونوع من التبعية السياسيه ، الخ •

والواقع أنه يوجد فى المضمار المالى مفارقة تدعو للتأمل : فاذا كنت مدينا لشخص ما بخمسة دولارات وليس معك ما تسدد به هذا الدين فانك تصير تحت رحمة دائنك ، وعلى العكس من ذلك اذا كنت مدينا بخمسة مليارات من الدولارات فان دائنك هو الذى يصير تحت رحمتك ، والولايات المتحدة فى الوقت الحاضر هى هذا الدين الاخر الذى يخضع له دائنوه ، فهى مدينة لسائر بلاد العالم بأكثر من مئه مليار من الدولارات •

وشهد العالم بعد الحرب العالمية فيما يختص بالنقود نشأة العديد من أشكال الاحتياطيات الدولية • بعبارة أخرى يعتبر رسميا من الاحتياطى ، الحقوق غير المشروطة على الموارد العادية لصندوق النقد الدولى ، وحقوق السحب الخاصة ، يضاف اليها المكشوفات المصرح بها بموجب اتفاقات بين البنوك المركزية • على أن التجربة أثبتت أن (خطوط الدفاع النقدى) هذه غير كافية وغير فعالة فى حالة الازمة النقدية

الحادة . ان ضخامة القومية الاقتصادية ، وشدة المنازعات التى تواجه البلاد بعضها ببعض ، تتعارض مع الترابط الاقتصادى والمالى الذى وصلنا اليه فى الوقت الحاضر. وتصطدم التسوية الدولية والتنسيق السياسى بمصاعب لا يمكن التغلب عليها ، تنشأ من طبيعة النظام الرأسمالى . ويبدو ذلك واضحا بنوع خاص فى مجال الائتمان الدولى والتعاون النقدى ، واذا كان هذا التعاون فعالا بدرجة ما فى الكفـــاح ضد الظواهر التقليدية نسبيا الخاصة باختلال التوازن الدولى (العجز فى التجارة الخارجية) فاننا لا نرى فى مقابل ذلك ، حتى فى المستقبل ، كيف يمكن حل مسألة التحركات الضخمة لرؤوس الاموال لاجل قصير ، التى تندفع بقوة فى بلد أو فى آخر . ويقول روبرت تريفن فى مجلة « ذى بانكر » (المصرفى) : « من المدهش أن تكامل الاسواق المالية على مستوى القطاعات الخاصة فى الاقتصـــاد أكثر تقدما بكثير من تكامل السياســـة الرسمية والمؤسسات العامة ، وهذا ما يفسر أن هذه الاخيرة ليس فى وسعها أن تسيطر على المشاكل التى يطرحها هذا التكامل . واذا أردنا أن نقضى على أحد الاســـباب الرئيسية للازمات المالية وعدم الاستقرار فانه لابد قطعا من أن نأخذ هذه الحقيقة فى الاعتبار عند وضع السياســـة القومية للحكومة ، وأن نعد بالدقة أنماطا سياســـية مشتركة وتنظيمات قادرة على تحقيق هذه السياسة على أحسن وجه » .

كل هذه العوامل تخلق حاجة موضوعية الى الاحتفاظ بالذهب كقاعدة للاحتياطيات القومية . وقد تبين فى السنوات الاخيرة أنه ليس ثمة أى بلد على استعداد لان يسير على نهج الولايات المتحدة ، ويبيع فى السوق الحرة جزءا من احتيـــاطيه الذهبى المركزى . وفضلا عن ذلك فان هذه السياسة ، حتى فيما يختص بالولايات المتحدة ، لها على الارجح سمة المناورة أو الاستعراض النقدى بنوع خاص أكثر منها سياسة حقيقية تنفذ حتى يتحقق الغرض المنطقى منها . ويبدو أن الرغبة فى حيـــازة الذهب والنضال فى سبيل الحصول عليه لم يفقدا شيئا من قوتهما بســـبب الغاء العملة الذهبية ، رسميا وقانونا ، ولم يزل كل فرد قابعا فوق خزائنه الذهبية دون ان يبدى اية رغبة فى التخلى عن كنزه ، رغم ان سعر الذهب فى السوق الحرة يزيد ثلاثة أو اربعة أضعاف على سعره الرسمى بالدولارات الذى كان معمولا به الى وقت قريب ، الامر الذى يبرر منطقيا بيعه .

وفى الطبيعة الصورية للسعر الرسمى على مدى سنوات عديدة ، ثم الغاؤه أخيرا ، معنى متعدد لم يتبين تماما حتى الآن . ولعلنا نرى فى هذا التطور الجديد خطوة هامة نحو تناقص دور الذهب باعتباره قاعدة لنظام النقد الدولى . غير أن هذا التطور من جهة أخرى يتيح للذهب امكانيات جديدة باعتباره سلعة فرعية (شبه نقدية) تتمتع اليوم بقوة شراء وتسوية أعلى بكثير مما كان لها منذ بضع سنوات . ولعلنا نقول أن الذهب اذا طرد من الباب الكبير يعود من باب الخدم . واذا لم نكن بعد قد رأينـــا تنقلات فعلية للذهب بين البنوك المركزية على أساس أسعار السوق الحرة فانه يوجد فى مقابل ذلك أمثلة استخدم فيها الذهب كضمان فى قروض دولية ، وقدر بســـعر السوق (كانت تلك بنوع خاص حال القرض الذى منحته فى عام ١٩٧٤ لايطاليـــا جمهورية ألمانيا الاتحادية) . ومن الواضح أنه سوف تجرى فى المستقبل عمليات أخرى من هذا النوع . وفى الامكان أيضا اجراء بيوع للذهب بين البنوك المركزية بســـعر السوق الحرة لتسوية رصيد ميزان المدفوعات . ولكن الذهب ، حتى باعتباره غطاء كامنا ، فان ما يتجمع منه فى المخازن ويعاد تقويمه على أساس سعر السوق (كما فى فرنسا) لم يزل يمارس بعض التأثير على الوضع الاقتصادى .

وقد تكون هناك زيادة في طلب الذهب لاحتياطيات البنوك المركزية ، وكذا من جانب البلاد التي تملك رؤوس أموال نقدية كبيرة يطرح استخدامها واستثمارها بعض المشاكل . وفي هذا الصدد نطالع في مجلة (ذي بانكر) اللندنية الراى الآتي (من المعروف أن البلاد العربية المنتجة للبترول تشعر بالقلق من ناحية هبوط قيمة الدولار ، ومن المحتمل تماما أن تقرر زيادة احتياطياتها من الذهب ، وكانت هذه الاحتياطيات باقيه حسب العادة المتبعه عند مستوى منخفض بنوع ما) .

وفي دورة انعقاد مجلس صندوق النقد الدولي في خريف ١٩٧٦ ، وهي أول دورة تنعقد بعد ابرام اتفاقيه كنجستون ، تحدث المدير التنفيذي للصندوق السيد ح . ويترفين بحرص شديد عن مستقبل الذهب . وفي رأيه أن الذهب سوف يستمر ظاهريا في القيام بدور الاحتياطي في نظام النقد الدولي . ويبدو هذا الرأى صحيحا من الوجهة الواقعية .

وفي نظام قاعدة الذهب كان سعر الذهب ثابتا ، وكان الطلب على هذا الذهب بهذا السعر لا حد له بالفعل ، لان البنوك المركزيه كانت مستعدة دائما لشرائه . أما في الوضع الحالي فان الطلب قد يتغير كثيرا على المدى القصير ، لان المضاربة الخاصة ، والادخار الخاص ، وكذا استهلاك الصناعه ، حيث أنها قد تستعمل في بعض الاحيان مواد أولية خلاف الذهب ، كل ذلك يلعب دورا هاما في السوق ، بل انه دور حاسم في السنوات الاخيرة . وتبعا للتقديرات التي بين أيدينا فان ارتفاع سعر الذهب قد دفع صناعة المجوهرات لانقاص طلبها بدرجة محسوسة ، فكان هذا الطلب في عام ١٩٧٣ يزيد بمقدار أربعة أضعاف ماصار اليه في عام ١٩٧٤ . وثمة فروع أخرى في الصناعه انقصت طلبها بمقدار ١٥٪ . وتبين فضلا عن ذلك في البلاد النامية نقص كبير في الادخار (يخرج الذهب من مخازن الافراد ويدخل في السوق) ، ويؤدى ذلك الى وقف ارتفاع سعر الذهب ، ويسفر عن بعض الانخفاض بالنسبة لأعلى مستوى وصل اليه السعر حتى اليوم (حوالى ٢٠٠ دولار في الاوقية) .

ومع ذلك فعلى المدى الطويل ، وبالنظر الى ما قلناه آنفا ، يبدو الطلب على الذهب مستقرا بدرجة كافية ، والسعر في النهايه قليل المرونة . ومن الواضح أنه منذ سنتي ١٩٧٦ و ١٩٧٧ زادت صناعة الجواهر ، وهي أكبر مستهلك للذهب ، من مشترياتها للذهب بالسعر المعمول به في السوق .

وقد انخفض استخراج الذهب في البلاد الرأسمالية (٧٥٪ — ٨٠٪ في جمهورية جنوب أفريقيا) انخفاضا محسوسا في السنوات الاخيرة . ففي عام ١٩٧٦ كانت شحنات الذهب أقل بمقدار ٢٥٪ من شحنات عام ١٩٧٠ الذي وصل الانتاج فيه الى ذروته (١٢٧٣ طنا) . ويمكن تفسير هذا النقص أساسا بارتفاع سعر الذهب ، الامر الذي أتاح لصناعة استخراجه استغلال طبقات من المعدن أفقر من غيرها ، مع الاحتفاظ بالعائد ان لم يكن بعائد اكبر . وقد يكون انخفاض الانتاج وقتيا الى حد ما . غير أن هناك مع ذلك عوامل يبدو أن تأثيرها أكثر دواما ، ولا تتيح بالمرة توقع زيادة كبيرة في استخراج الذهب في جنوب أفريقيا أو في غيرها من البلاد الرأسمالية بوجه عام . ذلك أن انشاء منجم حديث في جنوب أفريقية يستغرق من خمس سنوات الى ست سنوات ويتطلب استثمارا يبلغ مئات الملايين من الدولارات . والواقع أنه لا يبنى في جنوب أفريقية في الوقت الحاضر سوى ثلاثة مناجم ذات أحجام متوسطة . وليس من المتوقع زيادة الانتاج كثيرا في البلاد الاخرى ، ومعظم التكهنات التي قدمها الاخصائيون

تدل على أن انتاج الذهب فى البلاد الرأسمالية فى المستقبل القريب سوف يهبط الى أقل من مستوى عام ١٩٧٠ ٠

ويتوقف مستقبل صناعة استخراج الذهب وسوق الذهب بدرجة كبيرة على ما سوف تتمخض عنه الاحداث فى جنوب أفريقيـــة حيث تواجه التفرقة العنصرية والاستعمار ضغطا متزايدا من حركة التحرير الوطنية ٠ وصناعة الذهب هى الحصن التقليدى للتمييز العنصرى واستغلال الافريقيين بقسوة ٠

اهمية الذهب الاقتصادية والنقدية :

يبدأ البند الخاص بالذهب فى (القاموس الموسوعى الجديد) الذى ظهر قبيل الحرب العالمية الاولى بالبيان الآتى : (للذهب أهمية اقتصـاديه كبيرة ٠ فالذهب ، بصرف النظر عن استخداماته التقنية ، هو الاساس الذى تقوم عليه ــ اليوم أكثر من أى وقت مضى ــ نظم النقد فى معظم أنحاء العالم ٠ وهناك ما يبعث على الاعتقاد بأن وظيفه الذهب هذه وكذا انتاجه على وشك أن يبلغا الذروة) ٠ فأما ما تنبأ به المؤلف بالنسبة للوظيفة النقدية للذهب فقد اتضحت صحته بصورة تدعو للدهشـــة ، وأما استخراج المعدن بين ١٩١٣ و ١٩٧٠ فقد زاد ضعفين على وجه التقريب ٠

وبالمعنى الدقيق استمر دور الذهب كعملة نقدية يتناقص منذ الفترة التى كتبت فيها هذه السطور ، وهو على أية حال قد تغير تغيرا جذريا ٠ غير أنه بالمعنى الواسع ، من الصعب كثيرا ، ان لم يكن من المستحيل أن نقول الى أى حد نقصت بالفعل الاهمية الاقتصادية للذهب ٠ وكما قلنا من قبل اختفت بعض الانماط القديمة لاســتعمال الذهب ، ولكن ظهرت فى الوقت نفسه أنماط جديدة ، أحدثها تطور التقنية والانتاج من جهة ، ومن جهة أخرى الطبيعة النوعية للتطور الاقتصادى والتنظيم الاجتماعى كله فى النظام الرأســمالى ٠ وليس من الســهل دائما وضــع الحد الفاصل بين هاتين المجموعتين من العوامل ٠ فمثلا زيادة استخدام الذهب فى مجال صناعه الحلى يفصح من جهة عن تطور بنيان الاستهلاك فى المجتمع الصناعى ، ولكنه يكشف أيضا من جهة اخرى عن بعض السمات المميزة للسلوك البورجوازى : الميل الى الاستهلاك من أجل الزهور والفخار ، والرغبة فى اظهار الفروق الطبقية بمظاهر خارجية ٠ هذا وضــع نموذجى للبورجوازية ، لا فى البلاد القديمة المتقدمة صناعيا فقط ، ولكن أيضا فى بعض البلاد النامية والمتخلفة ٠ وقد أوضــــح جونار بيردال ذات يوم أنه فى (بلاد العالم الثالث) بنوع خاص يقدم الناس الطعام لضيوفهم الممتازين فى أطباق ذهبية ٠

ودور الذهب باعتباره استثمارا ــ أى مادة لاستثمار رأس المال ــ هو من نتائج التضخم الدائم الذى يزداد شـــــدة ٠ بل ان هذا الدور يميل الى الرســـوخ ، لان البورجوازية الكبرى اعتادت فى الســـنوات الاخيرة توظيف رأس مالها النقدى فى الذهب (أو فى سندات القيمة ، وهى نوع من شهادات الذهب) ، الشىء الذى كان يعتبر فى الماضى تبذيرا وحماقة ٠ وثمة شـــخصية من شخصيات قصة هيلى التى ذكرناها من قبل ، وان لمصر فى أورسبى الذى يصدر نشرة مالية لمجموعة صغيرة من

الاثرياء ، يتملكه الغضب حين يسمع بعض موظفي وشنطن يرددون الجمله المشهورة التي وصف فيها كيتس الذهب بأنه « أثر من الهمجية » ، وينصح عملاءه بأن يستثمروا ٤٠٪ من أموالهم في سبائك الذهب والنقود الذهبية ومناجم الذهب ٠

وقد نشط اكتناز المال الذى تميزت به الطبقات الوسطى فى الغرب وفى بعض البلاد النامية بتأثير التضخم وسائر ظواهر عدم الاستقرار الاقتصادى والاجتماعى السياسى ٠

وتحدث فى الوقت الحاضر تغيرات كبيرة فى نظام النقد الدولى فيما يختص بكيفية استعمال الذهب ، ولكن لغايتها ومعناها وجوها مختلفة ٠

وليس هناك الآن وجه للشبه بين الرأسمالية المعاصرة ورأسمالية القرن الماضى، لذلك فقد يكون من المدهش أن لا تتغير مهمة الذهب تغيرا جسيما فى هذه الاحوال المختلفة ٠ ويبدو أن المؤلفات العزيزة المتخصصة فى موضوع الذهب كعملة معدنية لم تزل فى حاجة الى الاستيفاء ٠

●●●



●● المقال فى كلمات

للنقود تاريخ طويل يرجع الى اقدم عصور الانســانية المعروفة ، وهى فى الوقت نفسه شاهد من شـــواهد التاريخ ، ارتبطت بأحداثه الكبرى ، وكانت من العناصر الاساسية للحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للجماعات البشرية •

ويبدأ المقال بتعريف النقد ، ويتتبع تطوره منذ أقدم العصور حين كان يقوم بوظيفته أشياء كثيرة لا حصر لها من التى يستعملها الناس فى حياتهم العادية ، ثم استبدلوا بهذه الاشياء ، وعلى مر الازمان ، معـادن ثمينة ، الذهب والفضة والنحاس • ومع تقدم الحضارة ونشـأة الدول تطورت القطع المعدنية المستعملة نقودا ، وأصبحت محددة الشكل والوزن والمعيار ، وتلقت شارات ورسوما وكتابات ، وأنشئت الدور لســك النقود ، وكان لهذه القطع المعدنية ، الى جانب وظيفتها كنقد معتمد من الدولة ، دلالات اخرى كثيرة أصبحت موضوعا لدراسات اثرية تنتمى الى علم « النميات » الذى يبحث فى العملة وسائر المسـكوكات وعلاقاتها

الكاتب : ريزارد كيير سنوفسكى

ولد عام ١٩٢٦ ، استاذ بمعهد التاريخ بالاكاديمية البولندية للعلوم . له مؤلفات عديدة منها النقود المعـدنية فى بولندا فى العصر الوسيط

المترجم : أحـــمد رضـــا

بالفن والاقتصاد والتاريخ . فثمة عملات تصور بعضا من الميثولوجيـا اليونانية والرومانية ، وشارات أو رســـوم ترمز الى ديانات الشرق القديم وصور الاباطرة الرومان وغيرهم تنشر فكرة عظمتهم وعظمة دولهم ، وشـــعارات أخرى تجسد الفضائل والمثل العليا ، وكتابات تعبر عن أفكار دينية أو سياسية . وهكذا فالنقود أداة لنشر المعلومات عن العالم . وعلى نطاق واسع .

ويتتبع المقال تطور النقود المعدنية ، ويشرح نظم الوحدات النقدية، وأسعار الصرف بين مختلف المعادن ، وخاصة بين الذهب والفضة أثر تدفق نقود المســـلمين الفضية فى أوربا ، وتدفق الذهب من افريقية وامريكا الى اوربا . وبحث المقال فى عيـــار النقد الفضى بنوع خاص وتذبذبه تبعا لتغير الاحوال الاقتصادية .

وهناك اخيرا مشـــكلة تقليد النقود وتزييفها ، ولهذه المشـــكلة أســـباب عديدة اقتصادية وسياســـية وايديولوجية وفنية . والقانون والرأى العام فى كل العصور يدينان المزيفين ويعاقبانهم بأقسى العقوبات حماية للنظام الاجتماعى والاقتصادى وكرامة الدولة .

تتجاوز الصلات الخاصة بين النقود وبين التاريخ المسار الطبيعي للاحداث المتعلقة بالاعلبية العظمى من الاعمال التى حققها الانسان • والواقع أننا قلما نجد أشياء احتفظت منذ صنعها ، على مدى خمسة وعشرين قرنا ، أى طوال تاريخ العالم المتمدن ، بشكلها كما هو ، مع أدائها الوظيفة نفسها فى حياة المجتمعات الشديدة الاختلاف كمجتمعات أوربا وآسيا • ومن النادر أن نجد أشياء كالنقود لها استعمال وفائدة شائعتان ، وتستثير انفعالات مشتركة • ومن النادر أخيرا أن نجد ، وقد لا نجد ، أشياء كالنقود مرتبطة بالتطورات الكبيرة فى التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى لبلاد وقارات بأسرها ، وبمصائر الافراد والاسر ، أى أشياء تحدد باسهامها تتابع العصور ، وتوالى الايام•

ومنذ أكثر من عشرين قرنا والنقود هى البديل من أشياء كثيرة ليست مادية فحسب • ويمكن أن نعرف النقد بأنه قطعة من المعدن ذات شكل محدد ، عليها شارة السلطة التى أصدرتها ، والتى تتضمن بذلك قيمتها المودعة لديها • وكان الملك يحدد العيار الاجبارى للمعدن ، ويعين الوحدات النقدية ، ويشكل منها نظاما خاصا ، كما يضع شروطا لتداولها • وما أن تصير النقود فى أيدى الناس حتى تبدأ حياة خاصة بها ، وكثيرا ما تكون هذه الحياة مستقلة عن ارادة من أصدرها ، وفقا للقواعد الاقتصادية ، أى الواقع الاجتماعى • لذلك فان الصلات بين النقود وبين التاريخ عديدة ، اذ لما كانت النقود من نتاج التاريخ وعناصره فانها تعد ايضا من شهوده ، وتزداد شهادتها قيمة كلما قلت المصادر الاخرى التى نستقى منهاالمعلومات التاريخية لعصر من العصور ، حتى لقد تغدو أحيانا المصدر الوحيد الذى لاغنى عنه

وتتجلى أهمية النقود الاعلامية بأشكال مختلفة ، لذلك نستعين بطرق ، وأجهزة متخصصة لنجرى عليها التحليل والدراسة • فالنقود من جهه تنقل عادة نصوصا مكتوبة ، موجزة ولكنها مركزة ، تعطى فى كلمات قليلة معلومات ذات أهمية جوهرية : اسم الدولة أو الجهة التى ضربت فيها العملة ، واسماء الملوك والقابهم ، والآلية الحارسة ، والقديسين الشفعاء ، وتاريخ سك العملة حسب النظام الزمنى المتبع ، ومقتطفات من نصوص دينية ، وأمثال سائرة منوعة ، وعبارات تناسب الظروف ، وأخيرا اسم وحدة العملة • لدينا اذن مجموعة هامة من العبارات ، صادرة فى الكثير من الأحيان من ماض سحيق ، وهى فى نظر المؤرخ مادة لأبحاثه •

أكثر من كل ذلك ثراء لا ينضب ، مجموعة المعلومات التى تنقلها النقود باعتبارها آثارا أيقونية ، وشواهد صادقة للعصور والبلاد • وهى تستنسخ آلاف الرسوم ، من وجوه بشرية والهية ، وصور الملائكة والقديسين ، ونجوم ، واقمار ، ومدن ، ومزارات ، وقصور ، وحيوانات من كل نوع ، وطيور ، واسماك ، وتنينات وسنطورات ، وأشجار ، وفاكهة ، وتيجان ، وسيوف ، ودروع ، وشعارات النبالة ، وصلبان ، ومركبات ، وسفن ، وأشياء أخرى لا حصر لها تبدو فى تصاوير مصغرة • ومن هذه الوفرة الهائلة من الأشياء والزخارف ، والموضوعات المختلفة يتسنى للباحثين من كل نوع من مؤرخى الفن والثقافة الى ممثلى العلوم الطبيعية ، أن يغترفوا مايريدون من معلومات ، كما يجد فيها مستعملو النقود معلومات عديدة •

لذلك نستطيع أن نقول ان المسكوكات النقدية توسع معلومات الناس عن العالم وتنقل اليهم مأثورات تاريخية ، كما تعبر عن مطامحهم •

وفى التاريخ القديم ، والعصر الوسيط حتى انتشار الطباعة ، وحتى بعد ذلك كانت النقود هى الوسيلة الوحيدة لنقل المعلومات والدعاية الجماعية ، وتؤدى مهمة الاتصال الجماهيرى على نطاق واسع ، جغرافيا واجتماعيا ٠ولما كانت تسك بآلاف النسخ المتماثلة ، وهى متنقلة بطبيعتها ، فانها تنفذ الى داخل البيوت ، وتنتقل بين أيدى أناس لا حصر لهم ٠

ولما كان الناس يتلقونها بحفاوة ، ثم يفحصونها عادة بعناية ، فانها تؤدى بذلك مهمة فعالة للغاية ، مهمة ناقل رسائل جملها مصدرها رموزا بالصورة والكتابة المنقوشة للنقود ، بخصائصها الفيزيائية والكيمائية ، أو من آثار الثقافة المادية ، يخبر عن تقنية السك ، وأهم من ذلك عن متغيراته النمية (النميات علم المسكوكات من نقود وميداليات ، الخ : المترجم) ، وبالتالى عن الوظيفة الاقتصادية التى تتولاها، والسياسة النقدية التى ينتجها من يصدرونها ٠ والعملة نفسها اذا وجدت تحت الأرض ، فى مكان معين ، تغدو أثرا تاريخيا ، كما تغدو كل منها نسخة منها شاهدا مباشرا لعمليات مالية محلية ، ومقياسا لهذه العمليات ، وهيكلها ، وأحيانا لعمليات الاكتناز اذا اتضح أنها كانت مودعة عن قصد فى خزائن ٠ أما النقود التى تستخرج من القبور ، أو من أماكن القرابين الستائرية أو العرفية ، فانها قد تشهد بظواهر شعائرية وعادات وتقاليد ٠

كل هذه المظاهر وامكانيات البحث اذا جمعت وطبقت على ملايين النقود التاريخية فى العالم كله دخلت بنا فى مجال شاسع ، فى علم النميات ، علم النقود باعتبارها مصدرا للمعرفة التاريخية ٠

وهذا العلم ، شأنه شأن سائر العلوم ، يهتم بتجميع المواد التى يجرى عليها أبحاثه ، أى النقود التاريخية ، فيدرس خصائصها الخارجيه والداخليه ، ويصفها ، ويصنفها ، حتى يفسرها فى النهاية ٠ ويجرى كل ذلك بالطبع بطرق مختلفة وأجهزة منوعة ، وبالتعاون مع قطاعات أخرى من علم التاريخ يرتبط بها ارتباطا وثيقا ٠

ولقد ظهرت النقود فى بلاد وعصور مختلفة ، وبأشكال متشابهة بوجه عام ، وسبقتها فى عمليات نقل الملكية أشياء ذات استعمال عام ، اعترف بها فى الاقليم كمقياس عام للقيمة ، وهى قابلة للتجميع ، وتستعمل كأداة للمبادلة ، أو معادن ثمينة ، وهذه تتطلب نظاما خاصا لقياس كميتها ٠ وكان هناك أشياء عديدة ذات استعمال عام تؤدى بعض وظائف النقود ، تبعا للظروف الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية بالمنطقة ، كالماشية ، والجلود والحبوب ، والفؤوس ، والمشابك ، والسكاكين ، والخواتم ، والأساور ، والمنسوجات ، والأصداف ، وغيرها ، وفى الخطوة التالية حل محل الشىء المستعمل على هذا الوجه صورته (أو رمزه) المصنوعة من معدن بشكل مبسط وموحد ، ولذلك فهى لا تصلح للاستعمال الشائع ، ولكنها قابلة للتداول ، فهى سهلة النقل والعد والحفظ ٠

كانت تلك ، فى الصين حتى القرن الثالث قبل الميلاد ، وظيفة النماذج المصغرة من السكاكين والمجارف البرونزية ، كما كانت وظيفة الفؤوس البرونزية الصغيرة فى غرب أوربا وسبائك الحديد على شكل فؤوس مستطيلة فى وسط أوربا والبلاد الاسكندنافية فى القرنين التاسع والعاشر من الميلاد ٠ وفى بلاد أفريقية كانت الاساور النحاسية ومصنوعات محلية أخرى تستعمل لهذا الغرض ، حتى وقتنا الحاضر

تقريبا • وبعد هذا بخطوة واحدة حل محل هذه الأشياء الرمزية قطع معدنية ذات شكل أكثر ملاءمة لهذا الغرض • واثبتت التجربة أن قالبا مسطحا صغير الحجم يمسك بسهولة يناسب تماما وظيفة الوحدة المطلوب تداولها • وعجل هذا الاكتشاف تطوير الاقتصاد النقدى ، تماما كما كان اكتشاف العجلة تطويرا لوسائل النقل • لذلك أصبح هذان الاكتشافان عنصرين رئيسيين فى حضارة الانسان •

ويبدو مع ذلك أن بضع الأفكار المجردة المرتبطة بأصول النقود كانت تفوق مدارك مستعمليها ، كمايتجلى فى التصويرات الأولى على العملات ، وهى تشير أحيانا الى مقاييس للقيم سابقة على ظهور النقود • فالثور على بعض نقود الجمهورية الرومانية ، والفاس المزدوج على الدراخمات اليونانية القديمة على ساحل آسيا الصغرى ، وحتى ذلك الشيء النحاسى على شكل الصليب المائل الذى يبدو على نقود كاتانجا ومؤرخه عام ١٩٦١ هى الآثار الباقية من هذه التصويرات • ثم ان هذه الاثار بقيت زمنا طويلا فى اللغة : فلفظة pecunia بيكونيا (نقود ، باللاتينية) كانت فيما مضى اسما للماشية ، وكانت مصدرا للعملة الرومانية ، و « البروش » اليونانى obelos الذى كان يستعمل فيما مضى كنقد عينى ، أعار اسمه للعملة «الاوبول» obole ، وهى عمله ضئيلة القيمة ، وكان نصف دستة من هذه البروشات يساوى « حفنة » poignée ، لذلك فأن العملة المسماة « بوانيية • poignée (وهى الدراخمة) كانت تساوى ستة أوبولات • واسم « دراخمة » الذى لم يزل مستعملا الى وقتنا الحاضر استعاره العالم العربى الذى سك دراهم فضية • ونجد أمثلة من هذا النوع فى لغات أخرى تؤكد النظرية التى تقول ان النقد أداة لنقل التقاليد المستديمة التى تقاوم عوادى الدهر أكثر مما يقاومها المعدن المصنوع منه •

ويحدد الذهب والفضة والنحاس ، وهى المعادن الرئيسية لسك النقود ، مدى فاعلية النقود المصنوعة منها ، وكذا وظيفتها فى المجتمع • غير أن هذا الوضع ليس عاما • فالشرق الأقصى مثلا ، وبخاصة الصين ، لم يعرف على مدى خمسة وعشرين قرنا سوى النقود البرونزية ، بشكل ثابت لا يتغير ، مع ثقب مربع فى وسط العملة وثمة وحدات نقدية أهم كانت تتشكل بنظم هذه النقود بخيوط ، وهى عادة اتبعت أيضا فى كثير من بلاد أسيا وأفريقية حيث كانت تنظم على هذا النمو الأصداف (الكوريات ــ وهى نقود صدفية كانت شائعة فى الهند وأفريقية السوداء ــ المترجم) واستمر هذا العرف القديم الخاص بالنقود المثقوبة فى الشرق الأقصى الى يومنا هذا• وكان لهذا العرف نظيره فى أوربا باسم نقد رومانى من البرونز : « فوليس » follis ــ أى كيس نقود ــ وهو مشتق من العد الجماعى لخليط من قطع النقود• ودخل هذا الاسم محرفا بعض الشيء فى بيزنطة ، وبلاد العرب ، ومنغوليا ، وفى القرن الخامس عشر فى روثينيا اسما لنقد نحاسى ، ولكن أوربا اللاتينية فىالعصر الوسيط كانتهى الوحيدة التى لم تعتبر النحاس ــ تبعا لنظامها النقدى ــمعيارامعترفا به للقيمة ، ولكنها كانت مع ذلك تستعمله، على مضض ، كميعار للنقود • ولم يستعمل النحاس كمادة للنقود الا فى العصر الحديث ، مع أنه استعمل أيضا فى معاملات تجارية أهم ، يتبين ذلك فى النقود البرونزية على شكل الصفائح ، التى صدرت فى السويد فى القرن السابع عشر ، والتى بلغ وزنها حوالى خمسة عشر كيلو جراما ، ويمكناعتبارها أثرا من القوالب البرونزية المدموغة التى كانت منذ عشرين قرنا مضت قد سبقت ظهور النظام النقدى فى الجمهورية الرومانية •

النقد أساسا هذا العيب ، فالمعدن الذى نملكه جماعة معينة من الناس ، أو يملكه عاهل هذه الجماعة ، يجزأ الى وحدات من أوزان متساوية يمكن عدها • ومع ذلك ظل

وكانت المعادن الثمينة ، بمعناها الأصلى ، وبخاصة الذهب والفضة ، تلعب قبل عصر النقود دورها كناقلة للقيمة ومقياس لها • ولما لم تكن بطبيعتها قابلة للانقسام كان لابد فى كل لحظة من قياسها تبعا لوحدات وزنية متفق عليها • عالج الوزن قرونا طويلة أداة لمراقبة المعاملات المالية وضبطها • وكان وزن جزء كبير من وحدات النقود أو مجموعاتها يرجع عادة الى نظام الأوزان المتبع فى الاقليم المعنى • ولم تزل هذه الصلات باقية فى المصطلحات اللغوية المستعملة ، ولو أن التطور اللاحق الذى طرأ على النقود قد محا أهميتها • فثمة أسماء مثل الستاتير ، والليرة ، والجنيه ، والمارك ، والبيزو ، تستعمل أيضا كمثال لدور النقود باعتبارها أداة لنقل التقاليد القديمة •

وكانت مقاييس الوحدات النقدية تتحدد أول كل شىء حسب وظيفتها كأشياء يتداولها الناس • ويجب أن تكون هذه الاشياء سهلة النقل ، وتساوى قيمة الاموال التى تيسر مبادلتها • وكان هذان الشرطان متوفرين عادة فى اسطوانات معدنية تزن الواحدة حوالى عشرة جرامات ، ومع ذلك فكثيرا ما كان الوزن يزيد على ذلك أو يقل عنه بعض الشىء • من ذلك أن بعض النقود الذهبية الكلتية لم يكن وزنها يزيد على نصف جرام ، و « البراكتيات » الفضية فى وسط أوربا فى العصر الوسيط كانت الواحدة تزن من ١ر٠ الى ٢ر٠ جم • ومن وجهة أخرى كانت الديكا دراخة (عشرة دراخات) اليونانية تحتوى على أكثر من ٤٠ جم فضة ، ومضاعفات الأريوس الرومانية ٣٠ ــ ٤٠ جم ذهبا • وفى العصر الحديث كانت التاليرات الفضية تزن أكثر من ٣٠ جم ، والبرتوجيس » (أى البرتغالية) الذهبية التى كانت تصدر فى البرتغال تزن حوالى ٤٠ جم • ونجد أيضا نقودا من فئة دوكا مضروبة فى بولندة فى القرن السابع عشر ، وتحتوى على حوالى ٣٥٠ جم ذهبا ، غير أن هذه القطع التى كانت الواحدة منها فى حجم يد الانسان لم يعد لها مكان فى السوق ، وفقدت بذلك طبيعتها كوسيلة للتبادل ، وأصبحت ميداليات •

هذا المدرج الفسيح من القيم اتسع أكثر من ذلك بفضل سعر الصرف بين مختلف المعادن • وكان هذا السعر حتى العصور الحديثة يتذبذب عادة بالنسبة للذهب والفضة حول ١/١٠ ، ثم أصبح بعد ذلك أكثر تنوعا • ونتج هذا التنوع عن عرض هذين المعدنين ، واستخراجهما من المناجم أو من رمل الانهار ، كما نتج عن اكتنازهما ، وبخاصة عن استيرادهما • ونشأ عن التدفق الهائل لنقود المسلمين الفضية فى وسط أوربا وشماليها فى القرنين التاسع والعاشر ، وما حدث بعد ذلك من أزمة فى استغلال هذا المعدن فى الشرق الاوسط ، وتدفق الذهب من السودان والسنغال ، ثم من أمريكا الى أوروبا ، نشأ عن كل ذلك ، لا العلاقة فى القيمة بين الذهب والفضة فى أوربا فقط ، وانما أيضا نظام الوحدات النقدية ، والخريطة النقدية للقارة الاوربية • وفى جهات وعصور أخرى كانت النقود ، على غرار الآلات الحساسة التى تسجل الزلازل ، تسجل الهزات ، البعيدة المدى أحيانا ، التى تنتاب الاحداث الاقتصادية •

ومع ذلك فان تكوين مختلف أنواع النقود يفصح أول كل شىء عن حاجات مجموع سكان بلد ما ، أو قسم منهم فقط • كذلك فان المتغيرات الطبيعية لاصدار

النقود المتداولة في وقت ما تعكس تنوع وظائفها ، وبنيان المجتمع ، وتكدس الاموال، وتوزيعها ، وشروط تبادلها • واننا لنجد في هذا صورة غير مباشرة تتطلب تحليلا دقيقا ، كالتحليل الطيفي الذى يكشف عن التركيب الكيمائى للأشـــــابة • وفى المراحل الاولى من تاريخ النقود لا نجد غير وحدات قيمية ، ذات أهمية نسبية ، الشيء الذى يدل على أن وظائف النقود كانت فى تلك الفترة مقصورة على الصـــــفوة من المجتمع • ويدل ظهور وحدات قيمية صغيرة على أثر اتساع الاقتصـــــاد المالى على أن النقود أصبحت فى متناول مجموع السكان •

وأحيانا ، حين كانت الحاجات الفعلية للسكان تسبق أنشطة دور سك النقود، كانت وحدات القيمة الاسمية المرتفعة أكثر مما ينبغى تجزأ تبعا لاهميـــــة المعاملة الجارية • من ذلك أن الدراهم العربية التى تدفقت فى بلاد بحر البلطيق قد اختزلت هناك فى القرن العاشر الى أجزاء • كذلك كانت التاليرات الثقيلة الواردة من الخارج الى روسيا فى القرن السابع عشر تقسم فى الكثير من الاحيان الى أجزاء تنـــاسب حاجات حائزيها • ولم تكن النقود الاجنبية هي وحدها التى تكيف على هذا النمو تبعا لبنيان السوق المحلية ، ذلك أن دور سك النقود الانجليزية والايرلندية كانت حتى القرن الثالث عشر تضرب (بنسات) معدة مقدما لان تجزأ نصفين أو أربعة أرباع على طول خطين متعامدين فى المركز ، جعلا لهذا الغرض • ومع أن هذين الخطين يمثلان شعار المسيحية فانهما يلعبان فى نظر المؤرخ دورا مشابها لدور المفاتيح فى النوتة الموسيقية ، فهما يحددان مقدما مستوى التداول النقدى على مدى الابنية الاجتماعية•

والنظم النقدية ، المنشأة والمتطورة تبعا لاتســـــاع وظائف النقود ، هى التى تعكس بمزيد من الصدق الابنية والانشطة الاجتماعية • وتشكل هذه النظم شبكة واسعة تربط مختلف الوحدات النقدية والوزنية بعرى معقدة من الارقام • هــــذه الارقام تعين لا العلاقات بين نوعين من الوحدات فقط ، ولكن أيضا القيم المتوسطة ، أى العملات الحسابية ، وبعبارة أخرى المجموعات الاتفاقية للنقود باعتبارها مقياسا للقيمة • والاسماء هنا متعددة المعانى • فالاسم (ليبرة) livre يعبر عن وحدة وزن (رطل) ، وهو وزن متغير ، كما يعبر عن مجموعة من ٢٤٠ دنير denier ، وأصبح فى العصر الحديث وحدة نقدية • وظهرت (الدوكا) ducat فى القرن الثالث عشر ، وكانت فى البدايه عملة ذهبية ، ثم ما لبث هذا الاسم أن أطلق عـلى عدد معادل من النقود الفضية الفينيسـية (نســـبة الى البندقية) ، ثم عـلى عدد اتفاقى منها بقيمة أخرى • وكان لا بد فى النهاية من اســـتعمال التعريف (دوكا الذهبية ، من ذهب) للدلالة على العملة المذكورة •

وكانت نشأة وحدات جديدة ، كبيرة أو صغيرة ، والعلاقات الجديدة التى قامت بين هذه الوحدات ، تتبع عن كثب التغيرات التى تطرأ على عروض المعادن الثمينة ، ونمو الانتاج الزراعى أو الصناعى ، وتطور العلاقات التجارية المحلية والاقليمية ، واتساع المدن ، وامتداد وسائل النقل ، ونفقات الحروب الباهظة • ومع ذلك فان عناصر بعض النظم النقدية كانت تقاوم أحداث التاريخ المتقلبة • من ذلك أن النظام النقدى ذا الدرجات الثلاث فى العصر الكارولنجى ، وفيه الجنيـــه يســـاوى ٢٠ سوليدوس ، أو ٢٤٠ دنير ، استمر فعالا دون تعديل فى بريطانيا حتى زمن قريب ، وبقى كذلك أيضا فى صورة متخلفة ، حتى فى النظام العشرى الذى ألغى كل التقاليد القديمة ، التى تتضمن (الفلس) sou الفرنسى ، أو السولدو soldo الايطالى ،

وهذه تسمية شائعة تطلق على خمسة السنتيمات ، أى جزء من عشرين جزءا من الفرنك أو الليرة ، وانا لنجد فى هذا الشىء أثرا قديما ذا هيكل اقتصادى يرجع الى أكثر من الف سنة • ومع ذلك يبدو أن العرف الكارولنجى الذى لم يزل حيا فى ثقافة الدول الاوربية وهياكلها هو الذى حقق استقرار هذا النظام النقدى ، لا مزايا هذه التوليفة من الاعداد •

وكان من شأن تطور النقود ، بمعناها الصحيح ، وبخاصة النقود الفضية ، أن أدى الى انخفاض قيمتها بالتدريج • فالدنير الكارولنجى ، ويزن حوالى ١ر٧ جم ، لم يكن يحوى بعد انقضاء بضعة قرون الا قرابة جرام واحد من الفضة ، ثم أصبح بعد ذلك لا يحتوى الا على جزء من الجرام قبل أن يختفى تماما • (والجرو) gros التى كانت فى القرن الثالث عشر هى (العملة الكبيرة) حسب معناها ، وقيمتها مرتفعة بالنسبة الى دنرات ذلك العصر ، أصبحت بالتالى عملة زهيدة احتفظت مع ذلك باسمها المتكلف • كان هذا أيضا مصير وحدات أخرى ، فقد تناقصت أوزانها بمرور الزمن ، وانخفض عيارها أو تذبذب تبعا لتطور وظائف النقود ونموها • وعندما بدأت هذه تنتشر فى السوق ، كما حدث فى العديد من الدول الاوربية الصغيرة فى العصر الوسيط ، وأصبحت متداولة الى جانب سائر الاشياء الفضية ، من سبائك وزخارف ، أو قطع معدنية تقاس بالميزان ، لم يكن لانخفاض قيمتها أى مبرر ، غير أن استقرار النقود باعتبارها وحدة قيمة ، تعد ولا توزن ، قد فتح الطريق لعمليات وانتهاكات تتمثل فى انقاص قيمتها الذاتية ـ خفية فى البداية ، ثم بشكل رسمى فيما بعد ـ مع الاحتفاظ بقيمتها الاسمية دون تغيير •

وفى روما ، منذ عهد الجمهورية ، كانت فضة النقود تحتوى على أشابة من معادن ، وكانت تذبذبات عيارها تدل على الوضع الاقتصادى فى البلد • وقد صاحب الازمة التى حلت بالامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث هبوط كبير فى عيار نقودها • وأتى العصر الوسيط بالعديد من الامثلة للهبوط والارتفاع فى جودة النقود الفضية ، بل الذهبية أيضا ، وذلك فى كل من الممالك الكبيرة والامارات الاقطاعية الصغيرة • ونتجت هذه الحركة لا من أسباب موضوعية فقط ، وانما أيضا بسبب النشاط المالى الذى يمارسه الملوك والامراء •

وكانت التغيرات الكثيرة التى تطرأ فى العصر الوسيط فى بلاد غرب أوربا على مختلف الوحدات النقدية ، وكذا التجديدات الدورية ، وبعبارة أخرى التعديلات التى تطرأ على النقود المتداولة فى وسط أوربا ، وأحيانا كل بضعة شهور ، تمثل نوعا من الضريبة يدفعها الى العاهل حائزو هذه النقود ، وكان هؤلاء الحائزون يشكون مر الشكوى من هذه الحال • فقد صاح محرر أخبار بوهيمى فى مستهل القرن الثانى عشر قائلا : (ليس ثمة وباء أو خراب يحل بالاقليم بفعل السلب والنهب والحريق أقسى على الشعب من التغيرات الكثيرة والتدهور الغادر الذى يحل بالنقد) • ومع ذلك كانت هذه العملية المالية تشهد بأن النقود كانت وقتئذ عنصرا ضروريا فى الحياة الاقتصادية ، وكان الناس كلهم يشكون منها ، ولكن لم يكن بوسع أحد أن يستغنى عنها • وكانوا يطلقون على هذه النقود المنخفضة القيمة أسماء لا تسر الخاطر ، بل انها تعبر أحيانا عن الازدراء ، ويستمرون مع ذلك فى استعمالها ، ويقبلونها ، وينفقونها ، ويدخرونها ، ويعتبرونها أداة ضرورية مزودة بقوة ابراء •

وكان الرأى العام يطالب دائما بنقد جيد ومستقر ، يعتبره ضمانا للرخاء العام وقوة

الدولة • وهناك قصة معروفة لبلينيوس الاكبـــر تحكي عن ملاح روماني هاجمته عاصفة ألقته على ساحل سيلان • وبعد أن فحص أمير البلد نقود الملاح المزينة بصور العديد من الاباطرة ، وكلها من وزن واحد وعيار واحد ، رأى فيها برهانا ســـاطعا على قوة روما وعدالة ملوكها الذين أصدروا هذه النقود الجيـــدة ، لذلك بعث في الحال وفدا الى روما يحمل عرضا بالتحالف • وفي العصر الوسيط ، وبخاصـــة في جمهوريات المدن، كان التجار يعملون جاهدين على تأمين استقرار النقد ، ويمكن أن تكون القواعد المنظمة لدور ســك النقود في القرنين الثـــالث عشر والرابع عشر بفلورنسا والبندقية نماذج للتنظيم البارع بنوع خاص ، والرقابة الدقيقة التي تحمي منتجاتها ضد أي تزييف • فالواقع أن كلا من الفلورين الذهبي والدوكا البندقي كان يشكل لزمن طويل للغاية عيار القيمة الثابت المعروف والمعترف به في أوربا كلها ، وفي الشرق ، وفي جهات أبعد من ذلك ، وقد تذبذب الفلورين بعض الشيء منـــذ القرن الخامس عشر ، في حين احتفظ الدوكا أكثر من خمسمئة سنة بعياره الثابت (٣ر٥ جم) من الذهب الحر ، وأصبح بذلك مرجعا مستقرا للعـــديد من النظم النقدية ، في الوقت الذي يمثل فيه النزعة التوسعية ، وفيما بعـــد الطموح القوي دواما لجمهورية البندقية •

والعملة النقدية ، سواء كانت جيدة أو رديئة ، من ذهب أو نحاس ، كبيرة أو صغيرة ، تحمل دواما علامات مميزة مطبوعة على وجهيها أو على وجه واحد •وتشكل هذه العلامات عناصرها المحددة الضرورية لوجودها نفسه • وطابع العملة على القرص المعدني يشيع فيه الحياة ، فيحول المعدن الثمين الى نقد مزود بقيم خاصة ، ليست اقتصادية فحسب • وبصرف النظر عن الجهة الاصلية التي جاءت منها العملة المعدنية، والطريق الذي أدى بها الى دار السك ، فان الطابع المدموغ عليها يحدد نظامها في وضع سياسي واقتصادي واجتماعي معين • وبعلامة مميزة تكتسب القطعة المعدنية اقرارا قانونيا يجعلها في مصاف الظواهر المرتبطة بنشـــاط الهيئات الاجتماعية العليا ، وفي مقدمتها نشاط الدولة • والمبدأ الاساسي أن النقد يســتمد وجوده من الدولة ، وهي سلطة لا غنى عنها لكي يكون معترفا به في الاقليم • والـــدولة التي تضمن قيمة النقد تملك أيضا من وسائل الاكراه ما تحصل به عند الضرورة عـــلى الاعتراف بهذا الضمان • وفضلا عن ذلك فان النقـــد تعبير مادي لوجود الدولة ونشاطها كهيئة ، سواء كانت هذه الهيئة مدينة اغريقية ، أو احدى ممـالك الشرق الكبرى القديمة ، أو من الدول التي نشأت في بداية العصر الوسيط في أوربا أو في غيرها • وكان الطابع المدموغ على العملة ، قبل أية علامة أخرى ، صـــورة رمزية معروفة عادة لبلد أو لدولة ، رمزا لاله أو لعاهل في البداية ، ثم تمثل فيمـا بعد ، وبأسلوب أكثر تجردا ، في شكل خصائص ديانة أو سلطة ، وأصبح شارة اصطلاحية تمثل شعار الاسرة المالكة ، ثم فيما بعد شعار الدولة • وثمـــة رأس لزيوس ، أو أبولون ، أو هيراقليس ، كان في البداية يرمز الى المدن الاغريقيـه التي كان هؤلاء الآلهة حماتها الذين كثيرا ما يشتركون بنصيب فعال في حياة رعاياهم • أما أثينا التي ظهرت صورتها منذ منتصف القرن السادس على النقود الصـــادرة من المدينة التي تحمل اسمها فانها توجت بأكليل الغار بعد الانتصار في معركة ماراثون •وثمة آلهة أخرى مزودة برمز أو بآخر خاص بالعاهل الذي يمثلونه أصبحت عـلى هـذا الوجه دليلا وبديلا ثابتا لهذا العاهل • غير أن الاســـكندر الاكبر لدى الهيلينيين ويوليوس قيصر في روما كانا في رأي معاصريهما ، وربما في رأيهما هما أيضا ، هما

اللذين بلغا الحد الفاصل بين البشر وبين الارباب الخالدين ، فكانا أول من جرؤ على وضع صورته الخاصة على نقوده • وعلى مدى أكثر من عشرين قرنا بعد ذلك كان الملوك يظهرون بعظمتهم لمجموع رعاياهم ، مع التأكيد فى طابع العملة ، تبعا لعقلية العصر أو حساسيته اما على تعبير وجههم وحده ، أو على قامتهم ، واما على شعارات ملكهم ، وفخامة ثيابهم وأسلحتهم ، واما بتقوية الاعتقاد بعدم قابليتهم للعزل ، وبالاصل الالهى للعظماء ، والمنحة الربانية لتاج الملوك المسيحيين الذين يحكمون باذن من الله ، وذلك عن طريق بعض الخصائص والنقوش الكتابية • وهكذا حلت صورة الملك بدوره محل صورة الآلهة ، أو أنها على الاقل تماثلت مع البلد أو الدولة أو النظام الاجتماعى •

وكانت الصورة المهيبة للاباطرة الرومان تنشر فكرة سيادة روما التى تمتد من بريطانيا الى أفريقيا ، ومن أسبانيا الى ما بين النهرين ، بل لقد وصلت هذه الصور خارج حدود أراضيهم إلى الهند وسواحل بحر البلطيق شاهدا جليا على قوة الامبراطورية وتنظيمها واستقرارها • سأل المسيح الفريسيين الذين قدموا له دينارا (لمن هذه الصورة والكتابة ؟) ، قالوا له : لقيصر ، فقال أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله • وتعبر بضع الكلمات عن سلسلة طويلة من البيانات عن دور النقود الرومانية باعتبارها عاملا لتكامل العقلية السياسية لشعوب وثقافات منوعة •

ثم ان الاباطرة كانوا حريصين على الدعاية لفضائلهم وأعمالهم العظيمة • سقطت مصر ! سقطت يهودا ! سقطت داشيا (داكيا) ! ، تلك هى بعض النقوش التى تظهر مرة بعد أخرى على النقود الرومانية كلما اتسعت أرجاء الامبراطورية • وكانت هذه الكلمات مصحوبة بعلامات أو رموز : تمساح مصرى ، أو شمعدان يهودى ، أو سجين داكى ، وكانت هذه العلامات أو الرموز تميز بأسلوبها هذه الانتصارات • وفى أحوال أخرى كانت النقوش تجسد الفضائل أو المثل العليا ، كالشهامة أو السعادة أو الدوام أو السلام؟ والمقصود بطبيعة الحال دوام الامبراطورية، والسلام الرومانى ، رمز السيادة على العالم • واستخدم بروتوس الاسلوب نفسه للاعلان عن برامجه ، واذاعة نجاحه ، ولعله يقصد فى الوقت نفسه تخليد هذا النجاح بشكل ما • فعلى نقوده صورة القلنسوة الفريسية بين خنجرين مسلولين ، والكتابة ides de mars (١٥ من مارس) • ولنا فى هذا ، وبصورة مصغرة ، مجمل حادث من أحداث التاريخ الكبرى •

وفى الثقافة البيزنطية ، التى تتسم بتصويرات كهنوتية للمسيح والقديسين والملوك ، كانت النقود الذهبية تتولى مهمة الناطق بالافكار السياسية والدينية والناقل لها • فالسوليدوس ، المسماة أيضا « نوميسما » (من nomisma باليونانية) كانت على مدى ستة قرون ، وبشكل واحد ، وأشابة واحدة ، رمزا لعظمة واستقرار الامبراطورية الرومانية الشرقية التى لا يمكن أن تزول • وعلى مدى هذه الفترة الطويلة كان القياصرة وأسرهم يتعاقبون اثر أحداث طبيعية أو فاجعة ، كما طرأ على حدود الامبراطورية تغيرات ، ولكن العملة الذهبية كانت تزن دائما حوالى ٤٫٥ جم ، وتحمل صور المسيح والامبراطور ، والاثنان على ما يبدو خالدان •

وتناول شارلمان التقاليد التى خبرتها العصور القديمة، فسك نقود الامبراطورية

وضوحا ، مؤكدا بذلك مطامحه السياسية • وكانت هذه النقود الذهبية المضروبة فى صقليه والتى تحمل اسم (أوجستال) ـ المهيب ـ تصور خصائص (الاوريوس) الرومانيه ، وبخاصة صورة نصفيه للعاهل مكللا بالغار ، والنسر بجناحيه المبسوطين • ونعود هذه الموضوعات فيما بعد ابتداء من عصر النهضة اما للتعبير عن المطامح الحقيقية أو الوهمية لدى الملوك ، وذلك بصورتهم على النقود بثيابهم الفضفاضة الفاخرة ، متوجين بأكاليل الغار ، واما بزخارف ودلالات لحقوقهم العامة فى وراثة العصور القديمة •

وتحمل العملات أيضا شعارات أخرى ، رموزا لبلد أو لدولة ، فتسهم بذلك فى تشكيل هذه الشعارات ، ونشرها بين الاهالى وكذا بين الامم المجاورة • فدراخمات جزيرة رودس من القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد ، مثلها مثل النقود الذهبية فى فلورنسا المضروبة بعدها بسبعة عشر قرنا ، نشرت فى العالم كله أسماء بلادها الاصلية بشكل موجز وجميل : كرسم زهرة ، وردة أو زنبقة • كذلك عن طريق النقود أيضا نقلت (الديناس) ـ وهى درع برتغالية ـ أو اسد بوهيميا ، أو النسر البولندى ، أو انتيجان البولندية الثلاثة ، أولى دلالات مهمتها كرموز أو شعارات سيادة بلادها الاصليه ، شعارات ازدادت هيبة بمرور الاجيال • غير أن التعبير السياسى للعملات النقدية لا يشكل الا مظهرا واحدا من رسالتها ، ونجاحه فى العصور القديمة والعصور الوسطى •

أما المظهر الثانى وهو التعبير الدينى فانه كان بارزا فى المراحل الاولى من تطور النقود حتى لقد استخلص من ذلك بعض الباحثين الاصل المقدس للنقود • ومع ذلك فان هذين المظهرين ليسا متعارضين ، ذلك لان الاحداث السياسية والدينية اختلطت بعضها ببعض بصورة معقدة حتى نهاية العصر الوسيط • على أن تحول الدول الحديثة الى دول علمانية أدى بالتدريج الى دنيوية العملات النقدية ، وعلى أى حال فان الموضوعات الدينية التى تظهر بوفرة على النقود تعطى تأكيدا اضافيا ساميا لا لثمن المعدن فقط وانما أيضا لهيبة النقد باعتباره قيمة اجتماعية راسخة فى النظام السياسى والدينى السائد • ولم يكن من قبيل الصدفة أن أقيمت أول دار لسك النقود بروما فى الكابيتول على مقربة من معبد جونو مونيتا ، وهذا حدث نحيى ذكراه اليوم دون وعى كلما تحدثنا عن النقود (ومعناها بالفرنسية « مونيه » monnaie : المترجم) واستعملنا المشتقات المختلفة لهذه الكلمة •

وتصور العملات جزءا كبيرا من الميثولوجيا اليونانية والرومانية ، وبعض عناصر ديانات القديم ، والهندوكية ، واليهودية ، والاسلام ، وكذلك العديد من الرموز المسيحية ، ابتداء من الصليب الذى يظهر على آلاف النقود المختلفة الانواع ، وصور وشعارات المسيح ومريم العذراء ، وكذا عدد لا حصر له من القديسين • وتختلف وظائف هذه العناصر كثيرا من حيث مصدرها العقائدى ، وهى مع ذلك متماثلة فى الكثير من الاحيان • فالبومة ـ وهى طائر يتميز بحكمة أثينا ـ يؤدى مهمة مماثلة لمهمة أسد سان مارك على نقود البندقية • وتجسيدات الفضائل الرومانية تمثل المبادىء الاخلاقية التى تمثلها رموز الفضائل المسيحية المصورة على نقود العصور الوسطى • والحقائق التى تعبر عنها الآيات القرآنية على الدنانير والدراهم ، مع اختلافها عن أيات التوراة والانجيل التى تظهر على الجرو ، والنوبل ، والتالير ، لها الاهمية نفسها من حيث الايمان • تلك بيانات ذات قيمة عالمية ، تتجاوز النطاق المحلى أو القومى ، وتنتمى

الى الثقافات الانسانية الكبرى ، وتخاطب تباع الديانات ، أو ربمـــا تخاطب الرب نفسه .

ومع ذلك تظهر الافكار الدينية فيالكثير من الاحيان على العملات لاغراض عملية، مثل التشفع لدى حامى المكان ، أو نشر برنامج خاص ببعض العبادات . مثال ذلك أن (الدوحات) يظهرون على عملات (الدوكا) بالبندقية راكعين أمام القديس مرقس (سان مارك) ليتلقوا من يده العلم ، شعار السلطه والدليل القاطع على عطفه الدائم. وعلى النقود الهنغارية تبدو صورة العذراء ، تؤكد على مدى ثلاثمئة سنة حمايتها للبلد ضد الغزاة الترك الذين يتهددونه . وفى حالة الخطر الداهم يلجأ مصـــدرو النقود المؤمنون الى نجدة السماء . وفى القرن الثانى عشر ظهر الدوق البولندى بولسلاوس الثالث راكعا عند قدمى القديس ادالبيرت ملتمسا منه الحمـــاية ضـد خطر يتهدد الكنيسة البولندية باخضاعها للسلطة الكهنوتية الالمانية . وفى القرن السادس عشر سك أهالى مدينة دانزج المحاصرة تالبرات عليها صورة المسيح ، مع كتـــابة مؤثرة تقول : (دافع عنها ، أيها المسيح المخلص) . واستخدمت النقود لنشر مثل هـــذه النداءات فيما يشبه البيان السيسى الدى يظهر على آلاف النسخ ، أو رنين نـافوس الخطر الذى ينذر الارض والسماء .

ومع ذلك فان عنوان الرسالة التى تذيعها العملة النقدية ليس واضحا فى كل الاحوال ، ومن ثم يغدو موضوعا لدراسه خاصة لتفسير علاماته . والواضح أن دائرة مستعملى النقود أوسع من دائرة المقصودين بالرسالة . والطابع فى نظر الكثيرين هو مجرد علامة مميزة للنقد ، وخصيصه تدل على قيمته ، لا أداه لبيانات معقدة . وفى كل مجال ثقافى يجب أن تكون التصاوير الأيقونية سهلة الفهم ، أما سائر الموضوعات أو الرموز فان تفهمها مشكوك فيه . وهناك أمثلة كثيرة لتحويل الموضوعات المقتبسة الى موضوعات أخرى أكثر ملاءمة للعقلية المحلية . فالالهه اليونانية المنقولة على النقود الكلتية اتخذت بمرور الزمن سمات الآلهة المحلية ، وطرأت على الرموز الصعبة الفهم تغيرات غريبة تدل على أن مستعملى النقود ليســـوا دون غيرهم هم الذين لم يفهموا معناها ، ولكن لم يفهمها كذلك من أصدروها .

وكانت دائرة الاشخاص الذين يقراون النقوش محدودة بطبيعة الحال فى أوربا فى بداية العصر الوسيط ، ومقصورة على صفوة قليلة من المتعلمين ، ثم أتسعت هذه الدائرة بمرور الزمن ، ولكنها لم تشمل مجموع السكان الا بعد دهر طويل . ومع ذلك كان هناك نقوش على العملات منذ ظهورها تقريبا ، وكانت هذه النقوش هى كل ما فيها من زخرف كما كانت الحال فى الصين ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد ، وفى البلاد الاسلامية منذ أواخر القرن السابع . ليس معنى هذا أن كل مســـتعملى النقود من المغرب الى الهند والشرق الاقصى كانوا يعرفون القراءة ، ولا أن هذه النقوش تخاطب المتعلمين دون غيرهم . فقد كان ضاربو النقود أنفسهم أحيانا فى كل من البلاد اللاتينية والبلاد العربية من الاميين ، فكانوا ينسخون بقدر من الدقة الحروف المكتوبة وينقشونها على النقود . يبدو اذن أن النقش كان أحد عناصر العملة ، وبذلك لا يعتبر ناقلا لرسالة معينة فقط ، وانما يعتبر أيضا علامة متفقا عليها لا بد منها لكى يؤدى النقد مهمته . وأخيرا هناك العديد من النقود منها ما هو موغل فى القدم ، ومنها ما هو من العصر الوســـيط أو العصر الحديث ، مزود بعلامــــات من أجـــل مجموعة محدودة من العارفين ، وهى فى الحقيقة (نقط سرية) ، أو حروف خاصـــة

بسك النقود ، وأحيانا مجموعات كاملة من الخطوط والدوائر والحروف المعزولة ، وشارات سك النقود ، وعلامات أخرى تتيح التعرف على دار السك التى أصـــدرت النقد والقيمة الحقيقية للنقد وكذا المسئولين عن جودته • هذه الخصائص التى تساعد على تحديد ماهية النقد تشكل بنوع ما عنوان مصدره الذى يحرص على تدوين اسمه عليه •

وهكذا على مدى قرون طويلة كان النقد ، الى جانب أدائه وظائفه الاقتصـــادية والسياسية ، يسهم بطريقته الخاصة فى التقدم الثقافى طبقا لرغبات مصـدره ، أو بأسلوب مستقل • وفى رأى الكثيرين أن النقد أصبح أول صلة للناس بالكتابة ، ان لم يكن الصلة الوحيدة ، وربما كان عاملا مشجعا على حل رموزها • ويرى آخرون أن النقد هو أول أثر فنى تداوله الناس ، وقام البعض بتقليده • ولا شـك أنه لا يجوز المبالغة فى تقدير هذه الوظيفة ، ومع ذلك فان هذا الانتـــاج البشرى كان يزيف فى الكثير من الاحيان لاسباب مختلفة ، الامر الذى يوســـع بشـــكل محسوس دائرة الاشخاص الذين يحتمل أن يتلقوا الرسائل المقننة على العملة الاصلية •

وترجع ظاهرة تقليد النقود الى كل العصور ، وبخاصة أقدمها حين لم يكن هناك حماية قانونية للعلامة المنقوشة على العملة ، أو لم يكن فى المستطاع تنفيـــذ هذه الحماية الا بمشقة • وقد قلدت النقود اليونانيـــة فى الكثير من بلاد الشرق الادنى والاوسط ، وفى روما وأفريقية وبلاد الكلت • وكانت نقود بيزنطه نموذجا لاصدار نقود القوط الشرقيين والقوط الغربيين ، والوندال ، والفرنجـــة ، وأقدم النقود العربية ، والروثينيه ، والبلغارية ، والصربية ، والفينيسية ، وبنوع من الاستثناء النقود الالمانيه ، والدنمركية ، كما استنسخت البنسات والاسترلينات الانجليزية فى بلاد مختلفة ، من السويد وروسيا الى البرتغال • هذه الامثلة كثيرة لا حصر لها ، اذ كان هناك أجيال متعاقبة من التقليدات التى شكلت مجموعات كاملة شبيهة بأشجار النسب الخاصة بالأسر القديمة ذات الفروع العديدة •

وكان الشكل البدائى لنمط العملة ، كما فى الانســـاب ، يبقى أمدا طويلا فى بعض الاحيان بدرجة تثير الدهشـــــة ، فى حين يطرأ عليه فى ظروف أخرى تطور تدريجى يبلغ أحيانا درجة التحلل حتى يتحول بشكل غير محسوس الى صـــــورة مختلفة ، جديدة وأصيلة فى الظاهر فقط • من ذلك أن قســـما كبيرا من مجموعة الموضوعات الايقونية التى تظهر على العملات النقدية ، وبخاصة عملات العصـــــور القديمة ، يمكن أن تختزل الى عدد متواضع نسبيا من النماذج التى اشتقت منها هذه الموضوعات •

وأسباب هذه الصلات وتكويناتها المعقدة فى الكثير من الاحيان منوعة : فمنها أسباب اقتصادية وسياسية وأيديولوجية وفنية ومنها مايرجع الى مجرد الصدفة • والدور الاساسى فى ذلك يعود بالتأكيد الى الباعث الاقتصادى ، وبعبارة أخرى المصدر الذى يريد أن يكفل لعملته فى السوق الوضع الذىيتمتع به نموذجه الاصلى • فنحن فى هذه الحالة بصدد نقود طفيلية تثرى على حساب النقود النموذجيةالسابق الاعتراف بها كأداة للصرف مقبولة فى السوق الدولية • انه اذن الباعث الاقتصادى ، لا أسباب فنية أو دينية ، الذى دفع فى مئة دار أوربية لسك النقود الى ضرب فلورينات عليها

رسم زهرة الزنبق وصورة القديس يوحنا بابتست راعى فلورنسا ، ولهـذا السبب نفسه ضرب الصليبيون نقودا باسم (محمد) وعليها آيات قرآنيـــة على نمط دنانير البلاد العربية المجاورة • ولم تتغير هذه النقوش الا بتدخل البابا على حساب الفائدة الاقتصادية •

وكان اغراء الربح قوة أشد مفعولا بالنسبة لطائفة أخرى من النقود التى كانت فى كل عصر تنطلق كسرب من بنى آوى فى أعقاب قافلة المسكوكات الرسمية •وتمثل النقود المزيفة اغراء يستسلم له لا المزيفون المتخفون الذين يعملون فى ورش سرية لا حصر لها فقط ، ولكن أيضا ممثلو صفوة المجتمع ، من فرسان وأساقفة وأمراء • وتقاس براعة مزيف النقود بانتاجه وتصريفه فى السوق لعملة تكاد تماثل فى صفاتها الخارجية العملة الاصلية ، فى حين أن قيمتها الذاتية تختلف عنها كل الاختلاف •غير أن هذه العملية لم تكن تغدو فعالة الا بعد رسوخ الاصدارات النقدية الرســـمية فى البنيان الاقتصادى للدولة أو للمجتمع • وعلى ذلك فان النقود المزيفة تؤكد بنوع ما الوضع المتين لنماذجها الاصلية ، وهى تكمل أيضا ، بصورة غير متوقعة ، معلوماتنا عن نشاط الاقتصاد النقدى فى بلد أو فى آخر ، وتؤدى أيضا الى نتائج تاريخية أخرى تتجاوز نطاق الاقتصاد •

ويثرى المزيفون على حســـاب الدولة والمجتمع بأسره • لذلك كانت القواعد القانونية والرأى العام يعاملهم بصرامة كما يعامل القتلة ومشعلى الحرائق واللصوص، وكانت الاغلبية العظمى من التشريعات منذ العصور القديمة تهددهم بموت شـنيع : بالصلب ، أو بالحرق على حطب مشتعل ، أو فى قدر مملوء بماء يغلى ، أو بالنفى • وفى بعض الاحيان كان الاهالى هم الذين يتولون اعدامهم بصورة مقتضبة ، ذلك لأن الأمر لم يكن مجرد مكافحة جريمة اقتصادية ، ولكن أيضا حماية النظام الاجتماعى ، وكرامة الدولة التى اعتدى على حقوق سيادتها ، والقصـــاص من جريمة العيب فى الذات الملكية •



المقال فى كلمـات

يدور المقال حول نبيلة من الهنود الحمر الأمريكيين فى السهول الشمالية بكندا يعرفون باسم الهنود الكريسيين ، ويقيمون فى أرض براح مساحتها نحو ٣٠٠٠ فدان فى غرب كندا على بعد عشرين ميلا من مدينة (شورت جراس) وهى المدينة الرئيسية فى هذه المنطقة ٠والموضوع الرئيسى الذى يبحثه الكاتب فى هذا المقال يتنـاول جانبا من جوانب ثقافة هؤلاء الهنود قد يبدو عديم الاهمية فى نظر القارىء ، ولكن الكاتب يرى له أثرا كبيرا فى العلاقات اليومية بين الهنود الحمر والبيض ٠ وهذا الجانب يتصل بالاسماء الشخصية والطريقة التى يكتسب بها القوم هذه الاسماء ، ومعنى هذه الاسماء عندهم ، وارتباط ذلك كله بالحالة الراهنة

الكاتب : نيلز ونثر براريو ، إيفا إيجوبيف براريو

الاول دكتوراه من جامعة الينوا . قام بالتـــدريس بجامعة براون ، ويقوم الآن بالتـــدريس فى معهـــد الانثولوجيا والانثروبولوجيا بجامعة كوبنهاجن . والثـــانية دكتوراه من جامعة استوكهلم وأستاذة زائرة للانثروبوجيا بجامعة براون

المترجم : أمين محمود الشريف

عضو لجنة الترجمة بالمجلس الاعـــلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . وسابقا رئيس مشروع الالف كتاب

التى يعانى فيها الهنود الحمر الحرمان من الحقوق والامتيازات المختلفـة التى يتمتع بها البيض .

ولقد أوضح الكاتب فيما يتعلق بالاسماء أن عضو الجماعة الكريسية يتسمى بعدد من الاسماء يستعمل كل منها فى موقف خاص . وجملـــة هذه الاسماء ثلاثة :

(أ) اسم حقيقى ، يعنى هوية الهندى لاى اى هندى آخر ولدى الروح الذى يتولى حراسته . ويلاحظ أن هذا الاسم هو اسم السلاح الحارس نفسه ، ومن هنا كان هذا الاسم مقدسا ومكتوما لا يعـــرفه البيض ، ويستعمل هذا الاسم فى الطقوس الدينية لا فى المعاملات الدنيوية .

(ب) لقب أو كنية ، وغالبا يكون هذا اللقب مضـــحكا يستخدمه زملاؤه على سبيل التدليل والاعراب عن المحبة والمعزة .

(ج) اسم انجليزى من أسماء البيض يقتصر استعماله عادة على معاملاته مع البيض ولا يميزه كهندى .

وفيما يتعلق بالطريقة التى يكتسب بها الشخص اسمه الحقيقى فان ثمة كاهنا مقدسا له سلطة التسمية ، وهو الشخص الوحيد الذى يسعى اليه الجميع ليمنحهم اسما . وقد أفاض الكاتب فى وصفه هذا الشخص ووصف الحفل الذى تتم فيه اجراءات التسمية . ثم ختم الكاتب مقاله بالكلام على جهل البيض بأسماء الهنود وكتمان الهنود لاسمائهم ، وبيان أثر ذلك فى العلاقات بين الهنود والبيض .

لو أنك ألقيت نظرة سريعة على أحوال الهنود الكريسيين فى المجتمع الكندى الصغير الذى سأصفه لك لحكمت على الفور بأنهم قوم (مثقفون) ولكنهم « منحرفون » (١) . وعندما أقول (مثقفون) فانما أعنى أنهم اكتسبوا الثقافة من جيرانهم البيض بحيث طمست ثقافتهم المكتسبة ما كان لهم من ثقافه قديمة . ولا يرى الاعضاء البيض فى ذلك المجتمع شيئا فى سلوك الهنود يدل على أنهم محاربون نبلاء كما صورهم (شارل رسل) ، بل ـ على العكس ـ يرى هؤلاء البيض ان الهنود قوم متخلفون من الناحية الاجتماعية ، هم يبنون حكمهم هذا على ما يشاهدونه من سلوك الهنود ، اذ يسرفون فى الشراب ، رجالا ونساء على السواء ، ويتشاجرون ويتلقون حتى لقد يضطر رجال الشرطة الى القاء القبض عليهم ، وهم يتسولون ويستجدون ، ويخالفون كافة القواعد التى تحكم سلوك كل فرد يستحق الاحترام فى الأماكن العامة المحترمة .

وكل هذه التصرفات يمقتها البيض ، ويتخذون منها دليلا على أن الانحطاط الاقتصادى والاجتماعى الذى تردى اليه الهنود انما هو من صنع أيديهم .

ويقولون انه فى وسعهم أن يكونوا ـ اذا شاءوا ـ أحسن حالا ، ولكن كل ما ينقصهم هو قوة الارادة ، وصدق العزيمة .

بيد أن هناك أمورا كثيرة لا يشاهدها البيض . من ذلك أن الهنود يحافظون بقوة على لغتهم وديانتهم ، كما يحافظون على طائفة كبيرة من (التقاليد) يمكن أن يزدان بها صفحات كتيب أثنوغرافى (قومى) عن التقاليد القومية . وكل أولئك ـ كما سنبين فيما بعد ـ عناصر مكونة لهوية هندية لم ينطبع أثرها فى أذهان جيرانهم البيض . ونحن فى هذا المقال نريد أن نبين كيف حدث هذا وما السبب فيه . وسنبدأ بحثنا بدراسة جانب من الثقافة الهندية المعاصرة قد يبدو عديم الاهمية فى نظر القارىء ، ونبين أثره فى العلاقات اليومية والشخصية بين الهنود والبيض .

---

(١) أجرى البحث الذى بنى عليه هذا المقال على امتداد ثمانى سنوات ، وفى صيف سنة ١٩٦٣ وصيف سنة ١٩٧١ وخلال سنة ١٩٦٦ وسنة ١٩٦٧ جاءت المساعدة المالية من مؤسسة دوريس ديوك عن طريق قسم الانثروبولوجيا بجامعة الينوا ، والمنحة القومية لابحاث ما قبل الدكتوراه الخاصة بمعاهد الصحة النفسية . وكذلك جاءت بعض الاموال من الكلية الصيفية بجامعة براون . وكلمة شورت جراس هى اسم مستعار . واذا استثنينا عدة شخصيات تاريخية وجدنا أن أسماء الافراد المعروفة هويتهم هى أيضا أسماء مستعارة .

وهذا الجانب يتصل بالاسماء الشخصية والطـــرق التي يكتسب بها القوم هذه الاسماء ، ومعنى هذة الاسماء المختلفة بالنسبة لهم · وأخيرا نحاول أن نبين كيف يرتبط كل ذلك بالحالة الراهنة التى يعانى فيها هؤلاء الهنود الحـــرمان من متع الحياة ·

مجتمع شورت جراس :

في غرب كندا ، وعلى بعـد عشرين ميـــلا من بلدة « شـــورت جراس » ، يقيم ما يزيد قليلا على مئة من الهنود الكريسيين فى قطعة من الارض البراح تبلغمساحتها نحو ٣٫٠٠٠ فدان ، وهى احدى القطع العديدة من هذا القبيل المنتشرة فى اقليـم شاسع الارجاء · ولا يستطيع الهنود أن يعيشوا معتمدين على أنفسهم فى هذه الارض البراح التى لا تكفى لاقامة أودهم · والواقع أن احدى الأسر البيضـاء لا تجد مثل هذه القطعة من الارض كافية للمعيشة ، متى علمنا أن أصغر مرابى الماشية المجاورة أكبر من هذه القطعة · ولذلك يستمد الهنود معيشتهم من عدد من المصادر الاخرى أهمها اعانات الاغاثة الحكومية ، مضافا اليها القيام بالعمل الزراعى بصفة عرضية فى مرابى الماشية وفى المزارع ، والقيام بقطع دعائم الاسيجة المتخذة من خشـب الحور للبيض ، وبيع محاصيل العشب المجفف التى يحصدها البيض فى أرضالهنود على أساس المشاركة (٢) · ويذهب قليل من الهنود بصفة دورية ليعملوا نحوا من شهر فى مزارع الخضر التجارية التى تقع على مسيرة عشرة أميال الى الشرق ·ولكنهم لا يمكثون فيها أمدا طويلا ، بل يمكثون بالقدر الذى يكفى للحصول على ثمن مزرعة صغيرة للخضر أو المال اللازم للقيام برحلة لشهود مهرجان البو وو أو (رقصـــة الشمس) ·

هذا ومجتمع الارض البراح يعيش بمعزل عن المجتمـع الابيض ، وهو وضـع مادى ازداد فى السنوات الاخيرة ، وذلك بسبب الاتجـــاه الى تكوين مزارع ومراب كبيرة للماشية تضم المزارع والمرابى الصغيرة · ولذلك يعيش من البيض بالقرب من الارض البراح أقل كثيرا ممن كانوا يعيشون منذ جيل مضى · ولا يعيش أى رجل أبيض على الارض البراح ، فقد أغلقت منذ عشر سنوات (١٩٦٧) مدرسة صغيرة ظلت قائمة لمدة عشر سنوات تحت اشراف عدد من المعلمين البيض · وزيارة البيض للارض البراح قليلة ومحدودة ، وهى تقتصر على زيارة عرضية لمندوب قسم الشئون

---

(٢) النظام النموذجى فى هذه المشاركة هو اتفاق مربى الماشـــية مع أحد الهنود على قطع العشب المجفف من ٤٠ فدانا مثلا من الارض الهندية ، ثم يحتفظ المربى لنفسه بنحو ثلث أو نصف هذا القدر ، ويعطى الباقى للهندى · ولما لم يكن لدى معظم الهنود ماشية لتغذيتها بهذا العشب فانهم يبيعون الباقى بالنقد · وهذا التصرف يشـــوبه ضرب من الغموض والتوتر فى مجتمع الارض البراح · ذلك أن المفروض أن الارض البراح ملك مشاع بين جميع الهنود الذين يقيمون فيها ، وكل شخص يستعمل منها ما يحتاج اليه على أساس المبدأ القائل « من سبق الى مكان فهو أولى به » ، والهندى الذى يضع يده على قطعة من الارض يفعل ذلك وهو يعلم أنه يعرض نفسه لاستيلاء غيره ممن يريد الاســـتيلاء على الارض ليستخدمها فى أغراضه الخاصة · على أن المنازعات السافرة بهذا الشأن قلما تحدث بين الهنود ·

الهندية (ق ش هـ) ، وطبيب الصحة العامة ، وخيالة البوليس الكنــدى الملكى (خ ب ك م) للقيام ببعض المهام الرسمية • ويشاهد بين الحين والحين رجل أبيض يشرب طوال الليل مع الهنود فى البلدة • يضاف الى هذه العزلة المادية ما يلاحظه الهنود من عدم اهتمام المجتمع الابيض بهم وبخاصة (ق ش هـ) • ومنــذ أواخر القرن التاسع عشر بدأت الحكومة جهودا متكررة لنقل جماعة الهنود الى أرض براح آكبر تقع الى الشرق حتى يتسنى الاشراف عليهم بســهولة • ولكن الهنود رفضوا باصرار الانتقال من موطنهم • وقد اتخذ (ق ش هـ) خلال عشرات السنين الاخيرة اجراءات متفرقة لتحسين الاوضاع فى الارض البراح بعد أن اقتنع القسم بأن هنود شورت جراس مصممون على البقاء حيث هم •

وتشغل كل من الاسر الخمس عشرة مبنى شيده (ق ش هـ) (٣) • وقــد أدخلت الكهربا فى ١٩٦٨ (وان لم تلبث أن قطعت عن معظم المنازل لعدم دفع أجرة النور) • وفرشت الطرق بالحصباء لوصل المعسكرين الرئيسيين فى الارض البراح، ولكن يتعذر اجتيازها فى فصل الشتاء أو عقب هطول الامطار • والمنازل غير مزودة بالمرافق الحديثة كالحمامات والمراحيض والماء الجارى ، أو بوسائل التدفئة عن غير طريق مواقد المطبخ التى توقد بالحطب • وقلما تؤثث هذه المنازل على غرار بيوت البيض ، ولا توجد تليفونات فى الارض البراح • وقد حاولت الحكومة تشــجيع الهنود على تربية الماشية ، ولكن هذه المشروعات لم تلق من النجاح الا قليلا ، ففى صيف ١٩٧١ لم يملك شيئا من رؤوس الماشية ســوى أسرتين ، ولا يزال الوقت مبكرا للحكم على نجاح هذه المشروعات • وتدل المراسلات غير المنتظمة مع المقيمين فى شورت جراس على أن هذين الرأسين من المواشى لا يزالان على قيــد الحيــاة ، ولكن بدون نمو محسوس •

وقلما يشــارك الكبار من أفراد الجماعة الكريســية فى أعمال البيض أو مؤسساتهم • ويعمل بضعة رجال منهم بصفة غير منتظمة لدى شخص معين من مربى الماشية • ويعمل برجل واحــد بصفة مستديمة كل الوقت بقســم الطرق الاقليمية (وهذا الشخص يحقق الشرط الذى يلزم القسم باستئجار أحد الهنود) • وما من هندى يمارس عملا أيا كان نوعه فى المدينة • ولم يعقد أى زوج على زوجته بطريقة قانونية عدا حالة خاصة واحدة • ولم تحدث مصاهرة بين الهنود والبيض باســتثناء رجل واحد تزوج امرأة من البيض بعقد عرفى لمدة قصيرة ولكنه لم يقم خلال هذه المدة فى الارض البراح • ولا يدين أحد الهنود بالمسيحية ولو بصفة اسمية • ولم يقم أحدهم بأداء الخدمة العسكرية • ولا يتكلم الكهول منهم اللغة الانجليزية • أما شــباب الراشدين فيتكلمون اللغة الكريسية باعتبارها لغتهم الاولى • وصفوة القول أن الهنود لا يشاركون فى العدد الاكبر من المؤسسات والهيئات التى تنضخ روح الحيــاة فى الاقليم • صحيح أن الهنود يستخدمون مكتب البريد ، ويذهبون أحيانا الى المستشفى

---

(٣) قام البيض المحليون ببناء معظم المنازل طبقا لعقود ابرموها مع (ق ش هـ) ، وقد شيد معظمها فى ١٩٥٧ • والمنازل الحديثة كلها سابقة التجهيز • ويقول الهنود ان المنــازل ــ حتى الجديدة منها ــ رديئة النوع قد بنيت على عجل وبمواد رخيصة • والدليل على ذلك هبوط الاساس ، وعمــل الجدران من الخشب الرقائقى ، وعدم قابليتها للعزل ، وصعوبة فتح النوافذ او اغلاقها •

عند مرضهم أو اصابتهم ، كما انهم يشترون الطعام من الجمعية التعاونية المحلية ، ويترددون على دور السينما ، ولكنهم ليسوا اعضاء فى الجمعية التعاونيـــة ولا فى المجلس البلدى ، ولا فى جمعية التوفير والتسليف ، ولا فى نادى الفروسية ولا فى الجمعية الانسانية ، ولا يختلفون الى أى كنيسة أو منظمة من منظمات البيض ·

وما لم يرتبط هؤلاء الهنود بمواعيد ملحة أو أعمال عادية تقتضى البقاء فى الارض البراح ، فانهم يترددون فى معظم الاحيان على المدينة لشراء السلع أو ارتياد أماكن اللهو · ومدينة شورت جراس ـ كغيرها من المدن الغربيـة الكثيرة ـ هى مركز الخدمات لمنطقة كبيرة قليلة السكان ، تبلغ مساحتها ٥٫٠٠٠ ميـل مربع تقريبا · ويعيش ثلث هؤلاء السكان (٢٫٥٠٠ نسمة) فى المدينة ، وأكثـرهم من المزارعين ومربى الماشية المتقاعدين ، والبقية من موظفى مؤسسـات التجارة والخـدمات ، وعائلاتهم · وبالمدينة ٦ كنائس وفندقان صغيران (بكل منهما ردهة لشرب البيرة) ، وسوقان مركزيان (سوبر ماركت) ، وبعض المحلات الغذائية الصغيرة ، وغير ذلك من المتاجر والمكاتب المختلفة · وفيها فصـيلة من خيالة البوليس الكنـدى الملكى (خ ب ك م) تتألف من نحو ستة ضباط · وجدير بالذكر أن شورت جراس مكتفية بذاتها نسـبيا ، خلافا للقرى الصغيرة المتناثرة فى الغرب ، اذ يعشق فيها كثير من المهنيين الذين يقدمون خدماتهم الفنية الى سكان الريف ، من بياطرة ، ومحـامين ، وأطباء ، ومعلمين ، وصرافين ، ومحاسبين ومندوبى الحكومة المدربين على ادارة المزارع ومرابى الماشية ، وغير ذلك من المستشارين · وليس للهنود أى اتصال بهؤلاء كما أسلفنا القول ·

وتربية الماشية ، والزراعة ، هما دعامة الاقتصاد فى الاقليم كله · وعدد مرابى الماشية نحو عشرة أمثال المزارع ، على الرغم من أن المربى العادى يبلغ خمسة أمثال حجم المزرعة العادية · ومن المزارع ما يقتصر عـلى الحبوب ، ومنها ما يزرع الحبوب بالاضافة الى غيرها (حبوب مع بعض المواشى) ·

وعلى الرغم من قلة عدد مربى الماشية بالنسبة لبقية السكان فان لهم أكبر الاثر فى طابع الثقافة المحليه · وفى وسعنا أن نؤكد أن شورت جراس تتسم بطابع (مدن الماشية) المعروف فى الغرب · وآية ذلك أن الزى السائد فيها هوزى الغرب (وبين مربى الماشية أيضا) ، وأن أشهر مهرجاناتها تحتفل بتربية الماشية لا الزراعة · ومن هذه المهرجانات : عقد مباريات بين رعاة البقر ، وسباق الخيل ، ومبـاريات شد الحبل ، وما شاكل ذلك · ويحرص القوم على شهود المزاد الاسـبوعى فى الخيل والمواشى عند تحسين الجو ، ومنهم من يحضره لا ليشترى ويبيع ، بل ليشهد المنظر ، ويتجاذب أطراف الحديث مع الاصدقاء · وتبدو شعارات الثقافة الغربية واضحة فى كل مكان : لافتة عند مدخل شورت جراس عليها تحية للزائرين : (مدينـة البقر القديمة ترحب بالزائرين) ، ومقعد يحمل اعلانات عن مرابى الماشـية فى الاقليم منقوشة على لوحات خشبية بشكل أنيق · هذا ومخازن الادوية الثلاثة جميعا تحتوى على المواد اللازمة لعلاج الماشية ، كما تحتـوى على كتب ونشرات مطبوعة عن تاريخ المدنية · وكل متجر لبيع الاقمشة يحتوى على أدوات رعاة البقر ، وبعضها غالى الثمن وأنيق · وتسهم الجريدة الاسبوعية فى المدينة فى تزويد السكان بالمعلومات المحلية ، وتنشر ذكريات المعمرين عن حوادث الحدود التى جرت منذ عهد غير بعيد ، كما تنشر

صورا فوتوغرافية لهم • والافلام التى تعرض فى المسرح الصغير الوحيد فى المدينةهى أفلام غربية فى معظمها • ويشتهر أهل شورت جراس بالحنين الى مواطنهم الاصلية •

والصفات المطلوبة فى الرجل المثالى (والمرأة) تناسب هذا الطراز المألوف من الحياة ، اذ يجب أن يكون قادرا على تذليل كافة العقبات التى تثيرها فى وجهه قوى الطبيعة ، مستعينا على ذلك بذكائه الفطرى ، ومعرفته ، وخبرته ، ومجهوده الجسمى الشاق • وفوق ذلك كله يجب أن يتذرع بالاعتماد على النفس ، والاكتفاء الذاتى •وقد قال لنا أحد مربى الماشية : (اننا نعلم علم اليقين اننا نستطيع العيش فى هذه البلاد حتى ولو ذهب العالم كله الى حيث ألقت رحلها أم قشعم) • ويمتاز صاحب هذا المثل الأعلى بمراعاة حسن الجوار ، واظهار روح المودة ، واستعداده لطرح ما فى بيده ،كى يمد يد المساعدة لمن احتاج اليها ، كما يمتاز بالامانة والاستقامة ، والاستعداد للذود عن أملاكه وحقوقه وعرضه حتى ولو أدى الامر الى استعمال العنف متى اعتدى الآخرون على هذه الامور • وفى الوقت نفسه يجب على الرجل الفاضل أن يعامل الضعفاء باللين واللطف •

ولا نزاع فى أن قليلا من الرجال هم الذين تتوافر فيهم هذه الخصال الجميلة • والمهم فى الامر أن هذه الخصال معايير سارية فى المجتمع الذى يؤمن بها عن اقتناع • وهذه المعايير أو المثل العليا مقدسة فى الطقوس الدينية والعلاقات الشخصية ،ولذلك تبرز فى المناقشات اليومية التى تدور حول ما يجب على المرء أن يفعله وكيف يفعله• والناس يقيسون الفشل والنجاح بهذه المعايير ، كما يقيسون بها المغزى الادبى للحكايات التى تدور حول مشاهير الرجال ، أحياء أو أمواتا ، حقيقيين أو خياليين • وهذه المعايير ـ كما هو الحال فى أى مجتمع صغير ـ هى مقياس الحكم فى كل ما يتداوله الناس منأخبار وأقوال • ولذلك اذا شعر المرء ـ ظنا أو يقينا ـ بأنه سيكون محلا للقيل والقال ومضغة فى الافواه وعرضة لثلب عرضه ، ونحت أثلته ، فان هذا الشعور يكون أقوى حافز له على ضبط النفس ، والبعد عن مواطن الريب فى بلدة شورت جراس • وقد رحل بعض الافراد عن المجتمع الى الابد لانهم لم يطيقوا مغبة العار الذى جلبه عليهم عمل فاضح شاع وذاع وملأ الأسماع •

وسبب آخر فى أهمية هذه المعايير الاخلاقية ، هو أنها تشكل أيضا طائفة من المقاييس التى يستخدمها البيض فى تقويم الهنود بالاضافة الى تقويم بعضهم لبعض • والاراء مختلفة اختلافا كبيرا بشأن أخلاق الهنود ، ويوجد ـ حتى بين الذين يدعون أنهم يحبون الهنود ـ من يرى فيهم العيوب الاخلاقية التى يراها من يجاهرون بعداوة الهنود • من هذه العيوب أنهم يسرقون ولا يؤتمنون ، وأنهم يميلون الى الكسل ، ولا يهتمون بأشخاصهم وممتلكاتهم • وقائمة الاتهام ضدهم طويلة ، من ذلك أن عاداتهم الجنسية سيئة ، وأنهم لا يحبون أطفالهم ولا يهتمون بأمرهم ، وأنهم يعاملون الحيوان بقسوة ، ويبذرون المال ، ويضيعون الوقت • وفى كل هذه الامور لا يبدى الهنود سوى قليل من ضبط النفس • والخلاصة أنهم قوم أنجاس • وسنعود الى هذه الامور وما تنطوى عليه من الدلالات •

الأسماء الحقيقية :

اللفظ الكريسى الدال على الاسم هو (ويهو وين) • وفى الارض البراح التابعة

لمدينة شورت جراس يتسمى جميع الراشدين ، والاطفال فوق اثنتين باسماء هندية (٤) • ويفرون بين توعين من الاسماء : يوكيسى ويهو وين (أو تابوى ويهو وين) ، وكونيتا ويهو وين • ويشير الاول الى الاسم الحقيقى (أو الحسن) للشخص ، والثانى الى الكنية أو اللقب (أو الاسم الذى لا معنى له) • ويتسمى الشخص بكل من هذين النوعين من الاسماء طبقا لاجراءات مختلفة •

والاسماء الحقيقية ـ كما هو الحال فى الانجليزية ـ تعين هوية الفرد وتميزه عن غيره • ولكن لها وظيفة أكبر من هذه ، وهى أنها أسماء للروح الحارس الخاص الذى يستظل الشخص بحمايته • ولذلك متى تسمى الشخص باسم ما نشأت صلة شخصية بينه وبين عدد غير محدود من أرواح الآلهة الكريسية • فالاشخاص الذين يتسمون باسم (أوسو) (الذبابة) أو (وكايوس) (الدب) أو كيسيكا واسيس (طفل النهار) يتولى حراستهم حماة معينون • وليس هذا بالامر الهين ، لان الشخص يستمد من حارسه الروحى الحظ الحسن والصحة الطيبة • ويقدم الشخص هدايا لحارسه بصفة دورية • وليس هناك محظورات فى هذا السبيل • والعادة أن تكون هذه الهدية على شكل باردة من القماش الزاهى اللون بحيث تعلق فى مكان ما بالغابة• ويمكن أن يهدى الشخص لسميه (للروح الحارس الذى سمى الشخص باسمه) بخور بعض الاعشاب ذات الرائحة الذكية ، أو الطباق ، والصلوات ، والاغانى • وتضاعف الهدايا فى أوقات الشدائد كالامراض ، أو عند الاقدام على بعض المشروعات الصعبة • وهناك طقوس معينة كرقصة الشمس تعد وقتا مناسبا لتأكيد العلاقة المقدسة بين الشخص وسميه • ويحدثنا كثير من الكريسيين عن زيارة أرواحهم الحارسة لهم وبخاصة فى أوقات الخطر ، وعن الروح الحارس الذى تحدث اليهم ، وأنزل السكينة عليهم ، وأمرهم بتقديم قربان معين •

ويعد الاسم أمرا مقدسا بحق ، لانه يربط صاحبه بمصدر لا غنى عنه من مصادر القوى الخارقة للطبيعة ، وبدون هذه القوة يستحيل على الشخص أن يظفر بالسعادة• والاسم معناه وجود ارتباط بين الهندى والقوة الخارقة التى تؤثر فى مجرى حياته تأثيرا عميقا •

ولا يملك سلطة التسمية الا قليل من الافراد ، شأنها فى ذلك شأن الطقوس الدينية الاخرى • وفى شورت جراس قوم خولت لهم سلطة ادارة الرقصات الدينية أو أوتوا القدرة على علاج الامراض • ولكن هناك رجلا واحدا له سلطة (اقامة) رقصة الشمس ، وهو أيضا الشخص الوحيد الذى يسعى اليه الجميع ليمنحهم اسما (ثمة رجل آخر يستطيع أن يفعل ذلك ، ولكنه غير محبوب فى الارض البراح) •

وواضح أن هذا الرجل يحظى باحترام جميع أفراد الجماعة ، وهو أعمى وفى

---

(٤) ليس لمعظم أعضاء الجماعة سوى اسم حقيقى واحد ، باستثناء حالة أو حالتين • من ذلك على سبيل المثال أن امرأة أطلق عليها اسمان وهى صغيرة : كيسيكا وأبو (الجالسة فى الشمس) وكو ويكيما كانيو (صاحبى الذى يرافقنى ولا يفارقنى) • والاسم الاخير شبيه بالاسم الذى يتبادله الزوجان وهو نيويكيماكان ، وقد ذكرت المرأة أن هذا الاسم أطلق عليها ليكون بشرى لها بأنها سوف تجد صاحبا أى زوجا لا يفارقها عندما تكبر • وعندما يسمى الشخص باسم جديد فانه يحتفظ باسمه القديم ، وحينئذ يعرف الشخص بالاسمين •

الخامسة والستين من عمره • ومن عادته أنه ينزل على كل أسرة لمدة شهر بالتناوب حيث يعيش معززا مكرما • وقد اكتسب سلطاته فى أثناء قيامه «برياضة الرؤيا» (٥) وهو فى الخامسة عشرة من عمره وفى اليوم الرابع من رياضة الصوم وكان وحيدا وعاريا فى البرارى فزاره الروح الرعد ، فقاده الى عالم الارواح ، حيث استقبلته جماعة من الآلهة ، وأخبروه أنه من ذلك الوقت فصاعدا صارت له القدرة على شفاء الامراض ، واقامة الطقوس ، ومنها (رقصة الشمس) ، وخولته الآلهة سلطة التسمية أو منح الاسماء ، وأطلقوا عليه اسما جديدا هو (بيبسيكانى تابوى) ، الذى ترجمه هو بعبارة (محدث الرعد البارع) مما يدل على براعته فى التحدث بسهولة مع عالم الارواح ، وقد منحته الآلهة هذا الاسم فوق اسمه الاصلى « كاسو كابيسوت » ، (صوت البرق الخاطف) • وعند عودته الى الارض تتلمذ على عدد من الشيوخ (كبار السن) ليتعلم منهم التفاصيل الدقيقة لاجراءات رقصة الشمس ، والاغانى والادعية والطقوس المطلوبة لهذه الرقصة • وقد حدث كل ذلك فى أرض براح بعيدة عن شورت جراس • وبعد عشر سنوات طلب اليه أعضاء الجماعة من أقاربه الأبعدين أن يأتى الى شورت جراس ليقيم فيها ، وكانت خلوا فى ذلك الحين من أى شخص تتوافر فيه الاهلية لاقامة رقصة الشمس ، فلم يكن هناك اخصائى فى هذا الشأن • وكان أعضاء الجماعة يعلمون أن اقامة هذا الطقس الدينى المقدس دون توافر الشروط المطلوبة تنطوى على خطر عظيم ، ولذلك لم يقيموا رقصة الشمس السنوية خلال السنوات القلائل التى خلت من كاهن يقيم هذا الطقس المقدس ، كما أنه تعذر تسمية الاطفال فى موطنهم • ولذلك قدم (بيبسيكانى تابوى) الى شورت جراس ، واتخذها دار اقامة •

وقد جرت العادة بتسمية الاطفال فى أى وقت بين سن الثانية وسن الرابعة • والى أن يبلغوا تلك السن يستظلون بالحماية العامة للروح الاعظم ، ويسمون بأسماء محببة تدل على الحب والاعزاز ، أو يسمون بأسمائهم الانجليزية وهو أمر نادر الحدوث •

ومتى قرر الاب أن يبحث عن اسم لابنه فاتح فى ذلك الكاهن المنوطة به التسمية ، فيبتهل الكاهن الى روحه الحارس ليريه الاسم المطلوب ، وعندئذ قد يرى اسم الطفل فى رؤيا منامية أو فى أثناء رحلة خاصة الى عالم الارواح ومتى رأى الاسم أخطر أبوى الطفل بذلك ، فيتخذان العدة (لتعميده) ، ويقدم الاب الى مانح الاسم القرابين المخصصة للارواح (قماش أو طباق فى العادة) ، ثم يقدم هدية شخصية الى مانح الاسم (طباق أو مبلغ صغير من النقود) • ثم يبتهل الكاهن بدوره الى الارواح، والى الروح الذى أوحى الاسم الجديد للطفل ، والى مساعده الروحى هو ، كى يفيضوا بركاتهم الدائمة على الطفل ، ويكفلوا له أسباب الصحة والسلامة • ويضم مانح الاسم الطفل بين ذراعيه وينطق الاسم الجديد ، وينفخ أربع مرات فى قفا الطفل محدثا الصوت « هو » • وهذا القفا هو المكان الذى تسكن فيه الروح ، وهو الجزء الذى يدخل منه الجسم عند الميلاد ، ويخرج منه عند الموت (أو خلال الاحلام أو الغيبوبة) •

---

(٥) رياضة الرؤيا : رياضة روحية فى عزلة وخلوة ، يقوم بها شباب من الهنود الحمر الامريكيين فى سن المراهقة ليكتسب القوة الروحية ، ويعرف فى أثناء رؤيا منامية هوية روحه الحارس من طير أو حيوان : المترجم •

وعندما ينفخ الكاهن فى قفا الطفل فانه يمزج روح الطفل بروح الحارس الروحى الذى يدل عليه اسم الطفل • وقد يقـــدم الكاهن فى ذلك الوقت لوالـدى الطفل بعض المعلومات عن الروح الحارس لابنهما أو ابنتهما ، كأن يخبرهما عن الصــور العديدة التى يتجلى فيها هذا الروح •

وتقوم علاقة خاصة بين الشخص ومانح الاسم طوال حياتهما ، ويتبادلان الاسم (نكويمى) الذى يترجمه الكاهن بما معناه (شبيهى من كافة الوجوه) ، وقد جرت العادة فى السنوات الاخيرة باللجوء الى مانح الاسم عندما يصيب المرض (شبيهه) •

ويختتم حفل التسمية بمرور الطفل من ذراع واحـــد الى آخر من الحاضرين جميعا ، وكلهم يذكر ـ بدوره ـ اسم الطفل ويدعو له بالسعـادة • ثم يوضع قربان القماش فى الغابة بعد ذلك • ويقيم الوالدان مأدبة اذا أرادا وكانت ظروفهما الماليـة تسمح بذلك ، ولهما أن يجعلا الدعوة عامة •

وقد يمنح الطفل اسما ليساعده على الشفاء من المرض • مثال ذلك أن غلامــا صغير منح اسم « كابيساكيويت بسيم » (شروق الشمس) لتعود اليه صحته ، وآن آخر سمى بتابون (ضوء النهار) ليتخلص من قصر قامته ويمكن أن يكسب الناس أسماء اضافية وأرواحا مساعدة طوال حياتهم ، وبخاصة فى أثناء المرائى المنامية ، ويلاحظ ولان معظم سكان شورت جراس ، لهم « كوينتا ويهووين » واحد •

ولأعضاء الجماعة كنى والقاب بالاضافة الى أسمائهم المقدسة (الحقيقية) وبعضها كلمات لا معنى لها ، تتألف من مقاطع ليس لها معنى لغوى على الاطلاق • مثال ذلك أن أحد الأشخاص لقب « دومان » كما يلقب الشـخص فى الانجليزية باسـم « لولو » • ولا يذكر الناس كيف نشـــأت هذه الكنى والالقاب ، وان عرف أن امرأة اخترعت لنفسها لقبا لا معنى له ، وهى صغيرة •

وقد تتغير كنية الشخص الواحـد على مدى حياته خلافا للأسمــاء الحقيقية ، وبخاصة اذا كانت الكنية تقترن بذكرى حادثة خاصه وغالبا تكون هذه الحادثة مضحكة أو تشير الى صفة جسيمة مثل «نهاويس» (قصير القامة) أو « كاسكوس » (نحيف) على أن هذه الكنى تستعمل للدلالة على المحبة والمعزة ، لا بقصـد التهكم والسخرية : ويعرف آخرون بالقاب مثل « نايسيس » (ولد) أو « كســينيه » (رجل عجوز) ولكن رجلا آخر يعرف باسم « جامستيت » وهو تحريف لاسمه الحقيقى يعزى الى ابنته البالغة من العمر خمس سنوات •

وللكنى شأن كبير فى أصول المجاملات المتصلة باستعمال الاسـماء ، وذلك الى جانب كونها وسيلة للتعبير عن المحبة والمعزة • ففى الايام الغابرة كان سؤال الانسان عن اسمه بطريقة مباشرة أو ذكره فى حضوره يعد مخالفا للاداب العامة • ويقولون ان السبب فى ذلك هو أنه الروح الحارس كما أنه مصدر للسعادة كذلك هو مصدر للشقاء اذا تعرض للاهانة ، وتعد استعمال أسماء الأشخاص (وأسـماء الارواح الحارسـة) بدون مبالاة من قبيل الاهانة • والعرف الغالب أيضا أن التفوه بالاسـم على وجه غير لائق يعد انتهاكا لحرمة الاسرار الشخصية ، وان لم يكن لدينا دليل مباشر على هذا العرف •

ولذلك كانوا يرون فيما مضى أن من أصالة الرأى استخدام الكنية أو اللقب بدلا من استخدام الاسم الحقيقى • ولا يزال هذا العرف سـاريا فى شورت جراس بين

جماعة الهنود الكريسيين ، وبخاصة بين الراشدين المهذبين • وفى مجتمع صغير كهذا توجد عادة صلة قرابة بين معظم الناس ، وبذلك يتسنى لهم استخدام ام الكنية المناسبة ، واذا تعذر ذلك أمكنهم أن يتخيلوا لقبا مناسبا ، كأن يسمى الرجل غيره « نستو » أى صهرى ، وكأن يسمى الشيخ الكبير الغلام الصغير بأنه « نوسيسيم » أى الحفيد ، وكأن يخاطب الرجل المراة بأنها « نسيموس » أى بنت عمى • ولما كان الزواج من بنات العم جائزا فانه يستعمل أحيانا « نسيموس » على سبيل المزاح بمعنى « حبيبتى » (الاسم المقابل الذى تستعمله الأنثى هو « نتيم » أى ابن عمى) • وعلى كل حال يجوز دائما مناداة أى عضو من أعضاء الجماعة بغير اسمه الحقيقى ، وذلك باستعمال الكنية ، أو اسم القرابة أو الاسم الانجليزى • ويتمسك كبار القوم بهذه القاعدة بصفة مطردة أكثر من غيرهم ، لاننا سمعنا الفتيان عدة مرات يخاطبون الشخص فى حضرته باسمه الحقيقى •

ولا يزال العرف المتبع فى شورت جراس هو عدم سؤال الرجل أو المراة عن الاسم الحقيقى • والدليل على ذلك أننا كنا اذا سألنا أحدا عن اسمه أو اسم ابنه أخبرنا بأدب أن نسأل أحدا غيره دون أن ينفى أن للشخص اسما • وليس مما يخالف الأداب المرعية أن تسأل أحدا عن اسم شخص أخر ليس حاضرا • وكثيرا ما كانوا يحيلوننا الى الكاهن المقدس لانه هو الذى أطلق الكثير من الأسماء على أفراد الجماعة • وقد سألنا عن الطريقة الصحيحة الواجب اتباعها عندما يريد شخصان غريبان أن يقدم أحدهما نفسه للآخر ، وكان الرأى الذى اتفق عليه الجميع هو أن يبدا احدهما بسؤال الاخر عن موطنه ثم ينظر : هل توجد صلة قرابة تربطه به ، ويمكن أيضا أن يسأله عن كنيته ، ولكنه يجب أن ينظر حتى يجد شخصا ثالثا ليخبره باسمه الحقيقى ، ومع ملاحظة أن الاسماء الحقيقية ليست من الأسرار ، ولكنهم يرون الحذر واجبا •

وثمة محظورات أخرى لدى القوم ، منها أنه لا يجوز لك أن تسأل عن أسماء الأموات ، ماعدا المشاهير من المحاربين أو الرؤساء • وهم يتمسكون بهذه القاعدة على سبيل الوجوب • فعند حصر الانساب – مثلا – لا يبحثون عن أسماء الموتى من الاقارب ، بل يبحثون عن أسمائهم الانجليزية أو كناهم ، وكذلك عند ذكر محاسن موتاهم من الاقارب والاصدقاء يتحرجون من ذكر أسمائهم الحقيقية •

وأخيرا يشيع عرف غريب بين القوم فى استعمال الأسماء وهو الفصل التام الذى يراعيه الهندى الكريسى بين هويته فى مواجهة البيض وهويته فى مواجهة زملائه من الهنود • وتفصيل ذلك أنهم لا يتكلمون الانجليزية فى الارض البراح ، اللهم الا اذا وجد شخص غير كريسى فيستعملونها من باب الاحترام • وما من مرة سمعناهم ينسبون باسم انجليزى فى أثناء حديثهم باللغة الكريسية ، وكذلك ما من مرة سمعناهم ينسبون باسم هندى أو لقب هندى فى أثناء حديثهم بالانجليزية • ونحن نعتقد أن هذا ينم على روح الاستقلال العام الذى تمتاز به الهوية الهندية • ذلك أن هوية الهندى فى مواجهة زملائه من أعضاء الجماعة منفصلة عن هويته فى مواجهة البيض • ولدينا مزيد من القول فى هذا الشأن ، وسنوافيك به فيما بعد •

الأسماء البيضاء

حدثناك فيما سبق عن عادات الهنود فى تسمية الاشخاص ، وحدثناك عن صفات الأسماء على اختلاف أنواعها ، وحدثناك عن المعنى الدينى والروحى الذى

تنطوي عليه هذه الاسماء ، ونريد الآن أن نحدثك عن نوع آخر من الاسماء يضيفونها الى الأسماء الهندية ، الا وهى الاسماء الانجليزية التى يتسمى بها القوم ، ويستعملونها في معاملاتهم مع البيض • ذلك أن الاسماء الانجليزية هي التى تدون فى شهادة الميلاد والوفاة ، وفى رخص السائقين ، وفى بطـاقة التأمين الصحي ، وفى كل الوثائق الاخرى التى تحـدد هوية الهنود لدى الموظفين البيض ولدى قسم الشئون الهندية بوجه خاص • ويلاحظ أن الاسماء الانجليزية هي وحدها التى تستخدم فى قائمة الكمبيوتر المطبوعة المتضمنة لكل الاشخاص الذين لهم الحق فى أن يسموا أنفسهم هنودا ، ويعيشون فى الارض البراح •

ولا يوجد سوى خمسة ألقاب بين جميع سكان الارض البراح : ثلاثة منها هي ألقاب الراشدين من أرباب الاسر ، سجلت عندما تأسست الارض البراح منذ قرابة خمسين عامـا ، وهي الغرير (حيوان ثديي قصير القوائم يحتفر فى الأرض وجـارا يسكن فيه) ، والصفصاف (شجر معروف) ، والظبى (بقر الوحش) ، وللقبان الاخران هما ولسون ، وسكوت ، وكلاهما من الألقاب الانجليزية الأصل • ولا يدرى أحد كيف اتفق أن التصقت هذه الالقاب بالاسر الهندية ، على أن انتحال الهنود لهذه الألقاب كان ضروريا لحفظ السجلات بدواوين الحكومة حتى تتفـادى الحكومة أن تدرج فى سجل الهنود اسم أى شخص لا ينتمى اليهم أو لا تربطه بهم صلة الارحام ومن الواضح أن الاسم الهندى لا يدل وحده على الأفراد الذين هم السلالة « الشرعية » للهنـدى ، نظرا لأن الأطفال الكريسيين لا يرثون الألقـاب الكريسية التى يضيفها آباؤهم الى أسمائهم •

ويقول أهل العلم من الهنود والبيض ان قدامى أن الهنود لقبوا بالاسماء الانجليزية منذ جيل مضى بطرق عدة ، منها ما يعرف « بالاسـم المدرسى » ، وبيانه أن خيالية البوليس الكندى الملكى اختطفوا بعض الهنود القدامى وهم صغار والحقوهم بالقسم الداخلى فى مدارس هندية نائية • وكان الآباء يخفون أبناءهم فى الغابة خلال هذه الغارات ، ولكن الخيالة استطاعوا أن يخطفوا الصغار منهم • ويقص علينا رجل كبير السن أنه سئل ذات مرة فى المدرسة عن اسمه ، فذكر اسمه الهنـدى (كانت سـنه وقتئذ نحو عشر سنوات) ، وسئل عن اسم أبيه ، فذكره أيضا ، ولكن المترجم حرف الاسم الاخـير بالانجليزية فقالوا له « سنسميك جورج أيضـا » • ويقول الرجـل : « لقد استغرقت وقتا طويلا حتى ألفت هذا الاسم »

ومنذ نصف قرن أو يزيد لقب البيض بعض الهنود بألقاب التصقت بهم على أنها أسماؤهم الانجليزية الوحيدة • مثال ذلك أنهم لقبوا رجلا (مات منذ عشرين سنة) باسم peeper ومعناه « الموصوص » لانه اعتاد الوصوصة وهى اختلاس النظر من ثقب فى نوافذ بيوت البيض ليطلع عـلى أحوال الناس طوعا لغريزة حب الاستطلاع • ولقبوا رجلا آخر فى مثل سنه باسـم Tea coffee john ومعنـاه « جون الشـاى والقهـوة » لانه كان يكثر طلب الشـاى والقـهوة من البيض ، وكانت هاتان الكلمتان هما كل حصيلته من مفردات اللغة الانجليزية •

وكان بعض قدامى الهنود يعرفون بترجمة أسمائهم الهندية بدلا من أسماء آبائهم ، مثال ذلك أن بعضهم كان يسمى باسم « العظمة الحمراء » أو « رأس الجاموسة » أو « السيقان المعوجة » •

وكان الشخص يتسمى دائما بالاسماء الانجليزية بعد تسميته بالاسم الحقيقي. وقد أجمع أهل العلم من الهنود والبيض على أن الطفل لا يسمى باسم انجليزى الا اذا كان في حاجة اليه ، أي حين يختلط بالبيض لسبب من الاسباب . ويروى لنا بعض أهل العلم مثالا لما جرى في الفترة بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ، قال :

« جاء جون العجوز لتثبيت الاسيجة في فصل الربيع ، وأقام في مخيم في هذا المكان هو وأسرته بضعة أسابيع . وكان معه زوجته وأولاده الذين بلغوا من السن ما يستطيعون معه مساعدته ، وأخذت أتعرف اليهم ، وكنت أعمل معهم ، فسألت جون العجوز « ما اسم هذا الولد ؟ » ، فهرش جون رأسه قائلا . « حسنا ! دعنا نسميه : شارلى » . ولم يكن لهذا الولد اسم حينئذ ، فاطلق عليه ابوه هذا الاسم الانجليزى ليعرف به »

وفي السنوات الاخيرة اعتاد النساء أن يذهبن الى المستشفى لولادة أطفالهن ، فأطلقت عليهم أسماء بيضاء عقب الولادة مباشرة حتى يتسنى ملء بيانات شهادة الميلاد . وتدل المشاهدات على أن معظم الامهات لا يخترن أسماء لاطفالهن قبل الوضع ، ولا يستقر رأيهن على اسم للفتى أو الفتاة الا بعد استشارة الاقارب الذين يزورونهن في المستشفى ، ولكن النساء فيما يبدو لا يأخذن هذه الاسماء مأخذ الجد . تأمل القصة التالية :

« جاءت الينا جريس وزوجها وأختها في طريقهم من المستشفى الى المنزل ، ليطلعونا على المولودة الجديدة ، فأعجبنا بها جميعا ، وتحدثنا عن رعاية الاطفال ونحن نشرب الشاى . ولما سألت جريس عن اسم المولودة لم تستطع أن تذكره ، واستشارت أختها في الامر ، وتبادلتا الرأى برهة من الزمن : هل تسمى الطفلة : الزى أو دروثى ؟ وبعد قليل استقر رأيهما على أن تسمى دروثى » .

ويحدث أيضا أن لا يشتهر طفل في السادسة أو السابعة من عمره بالاسم المسجل في قائمة الجماعة عند مولده ، لان الابوين أو الطفل نفسه قد آثروا في هذه الفترة اسما آخر ، وأخذوا يستعملونه ، فالطفل الذى يسمى روبرت في قائمة المواليد قد يسمى نفسه « روى » ، والفتاة التى سميت مرغريت قد تؤثر الاسم « مارى » . وقد حدث ذلك لاثنى عشر طفلا على الاقل (في قائمة مواليد الجماعة لسنة ١٩٦٢) .

وفي السنوات الاخيرة أصبحت الاسماء الانجليزية التي يتسمى بها الهنود أكثر غرابة ، ولعل ذلك يعزى الى مشاهدة التلفاز والافلام السينمائية . فهناك الآن أسماء مثل بريسيلا ، ودلفينا ، وجفرى ، وبرنارد . اما بين العلماء والراشدين فان الاسماء محدودة . ويشترك أكثر من نصف الهنود مع غيرهم في الاسم الاول . وقد اشتهرت بعض الاسماء ، فهناك ستة أشخاص يتسمون باسم شارلى ، وخمسة باسم مارى ، وأربعة باسم دوجلاس ، وأربعة باسم غوردون . وهناك فتاتان من سن واحدة ، وهما ابنتا عم ، تشتهران باسم مرغريت سكوت . وجدير بالذكر أنه لا يوجد شخصان يتسميان باسم هندى واحد .

وقد يحدث لبس في بعض الاحيان حين يبحث شخص أبيض مع شخص هندى في نشاط شخص هندى آخر بضع دقائق ، وما هو الا أن يكتشفا أنهما يتحدثان

عن شخصين مختلفين باسم شارلى . ويمكن تلافى هذا اللبس اذا استخدم البيض أسماء الهنود كاملة مثل مارى أنتيلوب ، ومارى سكوت . ويختلط الامر أيضا عند تسمية النساء المتزوجات . ويرجع جزء من هذه المشكلة الى أن البيض لا يعرفون حقيقة الزواج الهندى ، وهل الشخصان اللذان يعيشـان معا هما زوج وزوجة أم لا . ويلاحظ أن هذه المشكلة لا تنشأ فى البيئة الهندية الكريسية حيث لا تغـير المرأة اسمها عند الزواج .

وهناك مشكلات أخرى ولكنها نادرة كالحادثة الآتية :

جاء موظف الى الارض البراح ببطاقة صحية خاصة بشخص هندى اسـمه « جونى ولسون » ، وكان قد تقدم بطلب ذكر فيه اسمه الهندى « ميسـيكومين » فسأل الموظف عنه فى أحد اجتماعات الجماعة : « لمن هذه البطاقة ؟ لا يوجد شخص بهذا الاسم فى قائمة أسماء الجماعة » . وحاول الموظف أن ينطق الاسـم (الذى حدث فيه خطأ هجائى) ، ثم طاف بالبطاقة على الحاضرين ، وأخـيرا قال جونى : « واها ، انه أنا » فسأله الموظف : لماذا لم تذكر اسـمك الصحيح ؟ ما هذا ؟ اننى سآخذ البطاقة وأغير اسمك ، فلم يحر جونى جوابا .

وخلاصة ما تقدم أن عضو الجماعة الكريسية يتسمى بعدد من الاسـماء ، يستعمل كل منها فى موقف مختلف ؛ فله اسم حقيقى مقدس يحدد هويته لدى أى هندى آخر ولدى الارواح . ويستعمل هذا الاسم فى الطقوس الدينية المقدسة لا فى المعاملات الاجتماعية الدنيوية . وقد يكون له أيضا لقب أو كنية ، وغالبا تكون هذه الكنية مضحكة يستخدمها زملاؤه على سبيل التدليل والتعبير عن المحبة والمعزة . وله أيضا أسم أبيض يقتصر استعماله غالبا على معاملاته مع البيض ، وهذا الاسـم لا يميزه كهندى . ولكى يتسنى لك أن تعرف فى شورت جراس أن أرشى سـكوت رجل هندى يتعين عليك أن تعرف العرف الجارى بأن سكوت هو اسم هندى .

كتمان الهنود لاسمائهم وجهل البيض بها :

من أكبر الامور التى تسترعى النظر أن البيض المقيمين فى شـورت جراس يجهلون ــ الا القليل منهم ــ كل شىء يتعلق بالاسماء الهندية . ويمكن تقسـيم البيض الى ثلاثة أقسام طبقا لدرجة الجهل بهذه الاسماء (٦) :

١ ــ القسـم الاول وهو السـواد الاعظم من البيض بما فيهم الفلاحون ومربو الماشية الذين يعيشون بعيدا عن الارض البراح ، وكثير من أهل المدينة مثل رجال البنوك وعمال المؤسسات التجارية وقرينات رجال الاعمال ومن اليهم ، لا يعرفون أى هندى بأى اسم كان . نعم ، قد يتعرفون على رجل هندى فى الشارع ويعدونه

---

(٦) هذا التقسـيم ليس نتيجة عينة او مسح دقيق ، ولكنه مبنى على احاديثنا مع عدد كبير من سكان شورت جراس فى هذا الموضوع . ونحن واثقون من انه يقوم على أسـاس صـحيح ، وان كان تقسيما انطباعيا ونوعيا .

من القوم الانجاس الذين سبق ذكرهم ، ولكن لا سبيل عندهم للجزم بأنه هندى بعينه ٠

٢ ـ القسم الثانى ، وهو أقل عددا ممن سبق ، وهؤلاء يعرفون الهنود بسبب تعاملهم معهم بدرجات متفاوتة ، مثل البقالين ، وضباط البوليس الكندى الملكى ، ومربى المواشى ، وأصحاب الحانات ، وهؤلاء يعرفون هنودا بأسمائهم ، ولكن بالاسماء الانجليزية فقط ، وكثير منهم لا يعرفون سوى الاسماء العائلية ، وهذا القسم يشمل معلمى المدينة الذين كان لهم تلاميذ من الهنود فى فصولهم خلال السنوات القلائل الماضية ٠ وأمثال هؤلاء البيض لا علم لهم بوجود أسماء هندية ٠ مثال ذلك أننا نعرف مربيا للماشية ولد بالمدينة ، واستخدم بعض الهنود عدة سنين ، وكان بعضهم يعيش فى أملاكه ، فلما ذكرنا له ذات مرة أن رجلا معينا يعمل عنده يحمل اسما هنديا أبدى دهشته العظيمة لذلك ٠ وهناك أيضا قليل من الهنود اشتهرت أسماؤهم فى شورت جراس لتكرار وقوع الجرائم منهم ٠ وللسن والجنس دخل فى هذا الشأن أيضا ، فالبيض يجهلون الاطفال الهنود والنساء الهنديات ممن لا يتصلون بهم كثيرا ، أكثر مما يجهلون أسماء الراشدين ٠

٣ ـ والقسم الثالث ، وهو أقل الاقسام الثلاثة عددا ، يشمل الذين يعرفون أن للهنود أسماء كريسية ، أو لديهم فكرة غامضة عن ذلك ٠ ويقدر عددهم بنحو ٢٥ شخصا على وجه التقريب وأقل من ٥٠ شخصا على وجه اليقين ٠ ومعظم هؤلاء من كبار السن الذين يعيشون فى مرابى المواشى القريبة من الارض البراح أو كانوا يعيشون فيها ، وأغلبهم لا يعرف أى هندى معين باسمه ٠ وقد تلاقينا مع أربعة فقط من البيض يعرفون أحد الهنود أو احدى الهنديات بالاسم الكريسى ، وكان اثنان من هؤلاء يتكلمان اللغة الكريسية قليلا ، وكل هؤلاء الاربعة من الراشدين الذين كانوا يلعبون مع الهنود وهم أطفال ، ويعرفون أسماء رفاقهم السابقين فى اللعب ، ولكنهم يجهلون أسماء الهنود من الاجيال التالية ٠ مثال ذلك أن أحد مربى الماشية كان يعرف اسم مرغريت بادجر سكاكتس (الريش الابيض) ولكنه لا يعرف اسم أحد من أولادها أو أحفادها ٠

ومعنى هذا فى رأينا أنه ما من شخص أبيض يستطيع أن يميز أى هندى على النحو الذى يميز به الهندى نفسه أو يميزه غيره من الهنود ونقصد بكلمة « يميز » معناها الضيق ، وهو تمييز الفرد كفرد خاص يفترق عن غيره من الاشخاص جميعا ، كما نقصد معناها الواسع وهو تمييز ذلك العنصر الهندى أو الكريسى من عناصر هوية الشخص المسمى والواقع أن البيض فى شورت جراس لا يعرفون هوية جيرانهم الهنود ٠

وايضاح ذلك أن الجهل بالاسماء يعكس جهل البيض التام ٠ وهناك أدلة عديدة على ذلك الجهل ٠ وحسبنا أن نشير الى دليل واحد منها وهو أن البيض يجهلون أن للارض البراح اسما ٠ وحقيقة الامر أن الاراضى البراح فى كندا تعرف غالبا باسم رئيس الجماعة عند استيطان هذه الجماعة لهذه الاراضى ٠ وكان فى شورت جراس رجل يسمى « تيكا نيت » (الواقف فى المقدمة) ٠ ويوصف هذا الرجل فى سجلات الحكومة الكندية القديمة بأنه رئيس كريسى يمتاز برفضه البات للتوقيع على أية معاهدة ومقاومة أية محاولة لترحيل الجماعة عن المنطقة ، ولا تحمل

الارض البراح اسمه رسميا ، ولكن الهنود في جميع أرجاء كندا الغربية يعرفون أن هذا اسم مكان لموطن الجماعة . ولم نهتد الى رجل أبيض يعرف أن للارض البراح اسما ، بل كانت تعرف باسم أرض شورت جراس .

ونقول بهذه المناسبة ان الهنود يعرفون أن البيض أخطأوا في فهم أسماء الاراضي البراح الاخرى . مثال ذلك أن هناك أرضا براحا أخرى اسمها « الرجل الفقير » ، ففهم البيض أنها تعني « الارض الجدبة » ، مع أن الاسم الهندي لهذه الارض هو « كوا كاكوس » معناه الرجل « النحيل » أو « الهزيل » . ويرى الهنود فيما فهمه البيض أمرا يبعث على الضحك ، ولكنهم لا يحاولون اصلاح الخطأ الذي وقع فيه البيض (٧) .

والواقع أن مسألة الارض البراح تزداد تعقيدا . وبيان ذلك أنه حدث منذ ست سنوات أو سبع أن حاول بعض الموظفين المشرفين بصفة مؤقتة على جماعة الهنود الكريسيين أن يسمي أرضهم البراح « أرض الثور الجالس » ليضفي — بلا شك — على هذه الارض لمسة من السحر والفتنة . وكانت حجته أن هنود شورت جراس انما هم في الواقع من سلالة هذه الشخصية اللامعة (الثور الجالس) الذي بقي في هذه البلاد بعد أن تقرر ترحيل زعيمهم الى أمريكا في ١٨٨١ على أثر مقتل « كستر » الذي اغتاله أسلاف الهنود المحليين منذ قرن مضى ، ولا يزال هؤلاء مختبئين ، يتظاهرون بغير حقيقتهم . وكان الثور الجالس ينتمي الى قبيلة هندية أخرى تسمى قبيلة الهنود السكسيين الذين هم الاعداء التقليديون للهنود الكريسيين . ولكن هؤلاء لم يقبلوا بالطبع الاسم الجديد الذي أراد الموظف المذكور أن يطلقه على أرضهم . ومع ذلك فهذه الارض هي مثار للافكار الخاصة بين البيض . ونحن نميل الى القول بأن عددا كبيرا من الناس لا يعرفون ولا يهمهم أن يعرفوا القبيلة التي ينتمي اليها « هنودهم » . ويصر بعض البيض على أن الهنود الكريسيين هم في الواقع من السكسيين ، سواء اعترفوا بذلك أم لم يعترفوا .

ويذهب آخرون الى أبعد من ذلك ، فيقولون هؤلاء السكسيين ليسوا هنودا حقيقيين . وفي وسع الانسان أن يسمع أقوالا كهذه : « انهم ليسوا هنودا كما أنني لست هنديا ، كلانا له أجداد من البيض » أو كما قالت لنا زوجة أحد مربي الماشية : « لقد توفي هنا منذ سنوات آخر هندي ذي دم نقي » . وهذه الاقوال تشير بالطبع الى ما يزعمه البيض من أن النساء الهنديات قد أنجبن منذ زمن بعيد أطفالا آباؤهم من البيض ، وأن عدم نقائهم العنصري يعادل فقرهم الثقافي ، ولعل أقوى التعليقات التي سمعناها في هذا الصدد قولهم « أن هؤلاء الفتيان ليسوا هنودا على الاطلاق ، انهم شرذمة من السكارى » .

---

(٧) هناك سوء فهم مماثل في أسماء الاشخاص . مثال ذلك أننا كنا نتحدث ذات مرة مع رجل هندي كبير السن ومع أحد مربي الماشية حول رئيس مات منذ بعيد اسمه « جلد الدب » ، ففهما من اللفظ الكريسي المقابل لذلك انه يعني الرجل « العريان » . فقال مربي الماشية « اذا لم تخنى الذاكرة فاني عرفت ذلك الرجل منذ اربعين عاما وكنت اعتقد أن معنى هذا اللفظ هو انه يلبس جلد الدب على ظهره » .

ولا ريب أن جهل البيض بأسماء الهنود وعاداتهم في التسمية هو عرض من أعراض جهلهم بما تمتاز به الثقافة الكريسية المعاصرة من توازن ، فالبيض لا يعرفون شيئا عن الجوانب السرية الخفية من التقاليد الهندية : انهم لا يعرفون أن لدى الهنود عددا كبيرا من الاغاني الدينية والدنيوية ، وأن نساءهم لا يشهدن الطقوس الدينية في أثناء فترة الحيض ، وأنهم يستخدمون الاعشاب في علاج الامراض (ولا يعرف هذا غيرهم) ، وأن لهم طريقة خاصة في كتابة لغتهم ٠

وهذا الجهل يوهم بأن الثقافة الهنديه خاويه الوفاض ٠ ويجب التنويه في هذا المقام بأن البيض مفتونون بالهنود ، ولكن بغير الاحياء منهم ٠ والدليل على ذلك أن العديد من مربي الماشية والمزارعين يحتفظون بآثار رجال القبائل الهندية الغابرة ، كرؤوس السهام ، والصخور التي يلتقطونها من الاماكن التي اعتاد الهنود نصب خيامهم فيها ، وغير ذلك من الآثار التذكارية ، ولكن البيض لا يعتقدون أن بين ظهرانيهم هنودا هم ورثة هذا الماضي المجيد ٠ وقد قيل لنا اننا اذا أردنا معرفة معلومات صحيحة عن الهنود فانه يحسن بنا أن نتحدث مع المعمرين من البيض من رجال ونساء ، لان هؤلاء أدرى بأحوال الهنود ٠

والواقع أن هناك دائرة مغلقة ، فالبيض يعتقدون أن الثقافة الهندية قد أصبحت أثرا بعد عين ، ويصرون على القول بأنه لا معنى لسؤال الهنود عنها ٠ ولذلك فان كل ما يعرفه البيض من معلومات أثنوغرافية عن الهنود مقتبس من ذكريات رجال الحدود ، ومجلة « ريال وست » ٠ وكلنا نعلم أن الغالب أعمى البصر عن ثقافة المغلوب ٠ ولكن مما لا ريب فيه أن اللائمة تقع على الهنود في جهل البيض بأحوالهم ، وذلك لرفضهم تقديم معلومات الى البيض عن ثقافتهم ، وتهربهم من الاجابة عند السؤال عن ذلك ٠ ونحن نعرف مزارعا محبا للهنود حاول أن يستدرج من يستأجره منهم للتحدث عن أوابدهم (عاداتهم الغريبة) ، وما كان جوابهم الا أن قالوا انهم لا يدرون شيئا عنها ، أو أن هذه الامور قد عفى عليها الزمن ٠ ويبدو أن الهنود لا يحبون اظهار البيض على « خرافاتهم » حتى ما كان منها ذا معنى ٠ مثال ذلك أن هنديا يعمل لدى المزارع الابيض المذكور أصيب بأذى ، فرفض أن يذهب الى الطبيب برغم الحاح رئيسه ، وقال لنا الرجل :

« قد كنت أعرف أن « جو » يحاول علاج نفسه بنوع من « الدواء » الهندي ٠ ولما سألته عن هذا الدواء أصر على انكاره ، وظل يتظاهر بأنه لايدري شيئا عما حدثته عنه ، ولم أستطع أن أحمله على السماح لي بنقله الى الطبيب برغم أن هذا السن يكلفه فلسا ، وظل يموه على بضروب من الخداع ، ولكنه لم يعترف بذلك » ٠

وجدير بالذكر أن جو ـ كبقية أفراد عصابته ـ يلتزم الصمت ازاء عقائده الهندية ، فلا يشارك في عقائده أو معلوماته سوى غيره من الهنود ، مما ترتب عليه أن صار البيض يعتقدون أن الارض البراح سر غامض ، وأنهم يتصفون بالكسل والفجور والقذارة ٠

وحينما نحاول أن نفهم معنى هذا الجهل المفروض على الطرفين كليهما يمكن لنا أن نقول انه « حاجز أثنوغرافي (قومي) بين الفريقين » أو « فاصل اجتماعي بين الطرفين » ، ثم نقف عند هذا الحد ٠ ولكننا اذا وقفنا عند هذا الحد كان ذلك

ـ فى ظننا ـ عجزا عن فهم بعض الاسباب المفيدة التى تكمن وراء هذا الجهل . فاذا سألنا عن سبب هذا الجهل بين البيض وجدنا الجواب حاضرا ، وبيانه أن البيض يرون أن الهنود قوم يتصفون بالفساد الخلقى وسوء السلوك ولا يرتفعون الى مستوى القيم التى يعتز بها البيض ، كما يرون أنهم يفتقرون الى الوحدة الثقافية والمعايير الاخلاقية التى يمكن بها اصلاح نفوسهم ، ولذلك فان الهنود هم المسئولون عن فقرهم ، وحرمانهم من السلطة السياسية ، وابعادهم عن دائرة الاختلاط الاجتماعى مع البيض ، ومعاناتهم لآثار التمييز العنصرى . ولا شك أن مكانة البيض الادبية فى هذا كله معرضة للخطر أيضا . ومن مصلحة البيض ـ من الناحية الادبية ـ وجوب التغاضى عن الفروق الثقافية بينهم وبين الهنود . ويرى بعض البيض أن الهنود قابلون للتمسك بالمعايير البيضاء ، ولكن عدم تمسك الهنود بهذه المعايير من شأنه أن يبرىء ذمة البيض من المسئولية عن اخضاع البيض لسلطاتهم .

واذا بحثنا فى الاسباب التى يرى الهنود أنها أدت الى هذه الحال لم تتضح لنا الامور بادىء الراى . ومن المحقق أن الهنود لا يسلمون بحكم البيض على أخلاقهم. وهنا نقول مرة أخرى أن الاسماء لها دلالتها الواضحة فى هذا الشأن . وبيان ذلك أن الهنود يطلقون أسماء كريسية على البيض الذين تربطهم بهم أوثق الصلات من الناحية الاجتماعية ، وهى فى بعض الحالات أسماء زائفة تشير الى بعض الصفات الجسميه أو المعنوية ، كقولهم للرجل الذى يفأفىء ويتأتىء أنه « لا يعرف كيف يتكلم » ، وقولهم على رجل آخر أنه « أهتم » ، وعلى ثالث « أن له أنفا كحب الشليك » . وهناك أسماء أخرى يلقبون بها البيض لعيوب خاصة فى نظرهم ، وكثير منها ينصب على البخل والشح ، كقولهم أنه ذو « جيب مقفل » ، أو « مقبوض الكف » ، أو « مغلول اليد » . ونقول مرة أخرى ان البيض لجهلهم بالاسماء الهندية لا يعرفون أن الهنود يطلقون مثل هذه الاسماء عليهم . ويستثنى من ذلك حالة رجلين : أحدهما عرف أن الهنود يطلقون عليه اسما خاصا ولكنه لا يدرى ما معناه ، والآخر سأل منذ زمن بعيد عن معنى اسمه فتلقى ترجمة زائفة مفادها « رجل طويل » ، ولكن المعنى الحقيقى « رجل أبيض متزوج من هندية أمريكية حمراء » أو « رجل يطارد الفتيات » . ومن ذلك يتضح أن الاسماء التى يطلقها الهنود على البيض تنطوى على التحدى الادبى المضاد ، بشكل غير سافر .

بيد أن العكس غير صحيح ، بمعنى أن البيض يتحدون الهنود بشكل سافر . فالهنود يعلمون حق العلم أن البيض يعتبرونهم أنجاسا ، ويعبرون عن ذلك فى غير مواربة ولا مداراة بطرق لا يحصى لها عدد من ذلك أنهم يرفضون اعطاءهم غرفا فى الفنادق فى الجو الذى تهبط فيه درجة الحرارة الى ٣٧° تحت الصفر ، ويوصون أطفال الهنود بأن لا يأخذوا معهم كتبهم المدرسية الى المنزل حتى « لا تمزق كل ممزق » . وقد شهدنا الهنود ذات مرة يجلسون فى سكينة وهدوء فى حين نرى الناس مذعورين عندما سمعوا رجلا يصف جوادا بأنه « أسود كحذاء الهندية الحمراء » ، ونحن نعرف امرأة هندية تكره الخروج وحدها الى المدينة ، وتفسر ذلك بقولها : « لا أطيق هذا المنظر ... انهم (البيض) يحدقون النظر فى طول الوقت ، لا أطيق أن أراهم يحملقون فى عند خروجى الى المدينة . لا أستطيع أن أخرج بدون دومان (زوجها) » .

ثم ان الهنود يكتمون عن البيض كل ما يرون أنه من خصائصهم المميزة ، وقد سألنا الهنود لماذا لا يظهرون أسماءهم للبيض ؟ فأجابوا « لا يستطيعون أن ينطقوها نطقا صحيحا » ، ثم أجابوا بأسلوب أكثر صراحة « انهم لا يفقهونها » . على أننا عندما ألححنا عليهم في السؤال أجاب كل واحد منهم « أنه يشعر بالحرج ، ويخشى أن يضحك الناس منه » ، وهذا يحدث بالفعل ، فهناك رجل هندى اسمه « بيوا بسكوسو سيس » فحرفه رجل أبيض الى كلمة « بس بس » ومعناها « بول بول » أى أنه رجل نجس .

وقد أبدى الهنود أسبابا مماثلة عندما سألناهم عن كتمانهم لجوانب أخرى من ثقافتهم . قال الهنود أننا لا ندعو البيض الى « رقصة الشمس » لاننا نستشعر الخجل ، فنحن نعرف أن البيض جاءوا أحيانا ليشاهدوا هذا الطقس منذ عشر سنوات من باب اللهو والتسلية ، فأطلقوا صيحات الهزؤ والسخرية من حركات الهنود المشتركين في الحفل . ولما كان الهنود يعلمون أن البيض يرون أن الشخصية الهندية رمز للانحطاط الاخلاقى فانهم يكرهون أن يظهروا البيض على ما يرونه من أخص خصائص الشخصية الهندية . وقد يقول البعض أن اطلاع البيض على خصائص الهنود وعاداتهم وتقاليدهم قد يكون وسيلة للتفاهم بين الفريقين ، ولكن الذى يحدث هو العكس ، اذ أن اطلاع البيض على هذه العادات والتقاليد لا يقلل من كراهيتهم للهنود بل يزيدهم مقتا في نفوسهم ، ويجعل من السهل عليهم أن يروا أن الهنود عاطلون من كل فضيلة ومن عادة حميدة .

ولما عجز الهنود عن أن يرفعوا مكانتهم في أعين البيض لم يبق أمامهم الا أن يتمسكوا بتقاليدهم . والسبيل الذى اختاروه لانفسهم حتى الآن هو التشبث بالانتماء الى مجتمعهم في الارض البراح والتمسك بالقيم التى تشكل ثقافتهم . وقد سمعنا الهنود يقولون بشأن تقاليدهم الخاصة بالاسماء : « هذه هى طريقتنا ، طريقتنا الهندية في التسمية » وأن الهنود ، اذ يظهرون الكرم في معاملة بعضهم لبعض ، واذ يذرفون الدموع عند العمود الاوسط في محفل رقصة الشمس ، واذ يشاركون في جنائز الموتى من رجال الجماعة ، واذ يتحاشون الاتصال « بحماة » الرجل منهم ، انما يظهرون تلك الصفات التى تلقى كل تقدير واحترام لدى كل منهم .

ونختم هذا المقال بأن نقول ان الجهل المفروض على كلا الطرفين له آثاره على مستوى المجتمع كله ، فمنذ منتصف العقد الحالى لم يشرع هنود شورت جراس حتى الآن في التصدى للاتهامات التى يوجهها البيض اليهم ، وان كنا نعلم أن ذلك آت لا ريب فيه . ولكن النتيجة الواضحة حتى الآن لكل ما ذكرناه هى أن الصراع المدمر الذى لا يبقى ولا يذر قد أرجىء الى حين ، ذلك أن الهنود لم يعلنوا النكير على الاساليب الجائرة التى يعاملهم بها البيض ، مما يحط من كرامتهم ويعلى من قدر البيض الذين لا يزالون يعتقدون أن الحال على ما يرام .

● ● ●

ثبت

المقال وكاتبه	العنوان الاجنبى واسم الكاتب	العدد وتاريخه
● الالعاب ، والساعات ، ورجال الاعمال بقلم : هليل شوارتز	Games, Timepieces and Businesspeople by Hillel Schwartz	العدد : ٩٩ خريف عام ١٩٧٧
● من الذهب الى النقد بقلم : أندريه · ف· انيكين	De L'or à la monnaie par André V. Anikine	العدد ١٠١ ـ ١٠٢ عام ١٩٧٨
● النقد شاهد على التاريخ بقلم : ريزاردو كيرسنوفسكى	La monnaie temoin de l'histoire par Ryszard Kiersnowski	العدد ١٠١ ـ ١٠٢ عام ١٩٧٨
● الاسم والمسمى : الخطأ فى فهم الهوية الشخصية فى السهول الشمالية بقلم : نيلز ونثر براريو وايفا ايجربيد براريو	Who's in a name : Identity misapprehension in the northern plains by Neils Winther and Eva Ejerbed Pranoe	العدد : ٩٨ صيف عا ١٩٧٧

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

رقم الايداع بدار الكتب ٣٨٥ / ١٩٧٩



١٠ مايـــو ١٩٧٩
١٠ آيـــار ١٩٧٩
١٣ جمادى الآخرة ١٣٩٩

محتويات العدد

الأميـــة .. والتنميـــة .. !

الحديث عن الأمية يطول .

فنحن في حاجة أولاً إلى تعريف الأمية .

والذين حاولوا هذا التعريف ، كادوا يجمعون على أن الأمية ، هى العجز عن القراءة والكتابة .

أما الاجتهادات الأخرى التى أتجهت إلى ما سمى بالأمية العلمية ، أو الأمية الثقافية ، أو الأمية الفنية ، فأنها كلها قد كانت تعريفات جدلية ، وثارت حولها خلافات ، أبعدتها عن أن تكون محققة أو متفق عليها .

ولهذا فأن التعريف الذى اتفقت عليه آراء الدارسين ، هو أن الأمية ، هى أمية القراءة والكتابة .

والأمر هو ذلك الشخص الذى يعجز عن أن يقرأ أو يكتب ، وبالتالى يعجز عن الأفادة مما ينشر عن طريق الكتابة ، في الصحف أو الكتب .

وقد أخذت الأمية حجما من الأهتمام ، جعلها تظهر في صورة الكارثة التى تهدد المجتمع ، أو الوباء الذى يقضى على ما فيه من حيوية .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو :

هل حقيقة تعتبر الأمية كارثة قومية ؟

عبد المنعم الصاوى

وهل حقيقة هى وباء يهدد حيوية المجتمع ؟

ليس هناك من ينازع في أن القراءة والكتابة قد صارت وسيلة من وسائل المعرفة، ومتابعة التطور، والوقوف على الأنباء والآراء والتعليقات.

لكن هل هى الوسيلة الوحيدة، التى تستطيع توصيل المعارف إلى الناس ؟ وهل يعتبر أفتقادها كارثة قومية، تبعد الأميين عن مجال التقدم ؟

ثم ما علاقة الأمية بالتنمية ؟

أن علماء التنمية درجوا على أعتبار القدرة على القراءة والكتابة مؤشرا من مؤشرات النمو، وبمفهوم المخالفة، فأن عدم القدرة على القراءة والكتابة، يعتبر عقبة تحول بين الأمى، والمشاركة في التنمية.

من هنا، فإن الأمية تعتبر عقبة من العقبات التى تؤثر على التنمية تأثيرا سلبيا، فتدفعها إلى وراء، بدلا من أن تدفعها الى أمام.

يبقى أن نتعمق تأثير الأمية على التنمية، تعمقا موضوعيا ومنصفا، وسنجد أن القراءة والكتابة، موصل هائل وسريع، يربط بين الناس، لكنها ليست الموصل الوحيد.

فالناس يكسبون المعلومات بالمشافهة، كما يكسبونها بقراءة ما هو مكتوب.

وكثيرون من حفظة القرآن الكريم مثلا ، استطاعوا أن يحفظوا هذا الكتاب العظيم ، بالمشافهة ، وقراءته على مقرئى من حفظته ، بل أن هؤلاء الحفظة ، قد حفظوا القران من الضياع ، دون أن يقرأوه في مصحف ، أو يخطوه على لوح .

وتنوع وسائل الأتصال الجماهير ، قد نجحت في تنويع وسائل الأتصال ، فالمذياع مثلا يذيع المعلومات ، ويذيع المحاضرات ، وينشر المعارف والمعلومات بين الناس ، فيلتقطونها بآذانهم ، ويفيدون منها فائدة لا تقل عن فائدتهم منها ، فيما لو قرأوها مسطورة على صحف ، أو مطبوعة في كتاب .

بل أن المذياع قد تطور ، فأصبح قادرا على نقل الصوت والصورة ، كما يحدث في التلفزيون اليوم ، وقد نجحت الأقمار الصناعية في الربط بين القارات ، فلم يعد هناك خبر يمكن أن يخفى على الناس ، أو تحتكره طائفة منهم دون طائفة .

كل تلك الوسائل ، قد أسفرت عن نتائج مذهلة ، فلم يعد الشيء المقروء ، أو المطبوع هو الوسيلة الوحيدة لنقل المعارف أو الآراء أو المعلومات ، ولم تعد حروف المطبعة هي وحدها الترجمة الوحيدة للفكر أو الحدث .

كل هذه الوسائل ، وإلى جوارها وسائل أخرى فنية ، تتمثل في الحكايات والروايات والأساطير ، التى تتردد على ألسنة الفنانين الشعبيين ، وتزخر بها أمسيات القرى ، حيث يتجمع الأهالى ، ينصتون الى منشد ، أو يستمعون لمغنى ، أو يشنفون آذانهم بالألحان .

ويتكون وجدان المواطن على أساس ما يشيع في المجتمع من فنون تلقائية وشعبية ، وما يسمعه من الحان موسيقية ، وما يشارك به هو نفسه ، في ترويد ما يسمعه في لذة واستمتاع .

وتصبح للمواطن حاسة فنية رائعة ، كما يتولد فيه حب استطلاع غريب ، يكتشف كل جديد ، وينمى طاقاته الخلاقة والمبدعة .

وتصقل كل هذه الوسائل السمعية والبصرية ، ضمير المواطن ، فيصبح قادرا على العطاء ، بمثل ما يستطيعه الذين يقرأون ويكتبون .

ونرى بين الريفيين حكماء ، يصدرون أحكامهم على الناس وعلى الأشياء ، في دقة وتبصر .

ونرى بين اصحاب الصناعات ، عناصر تتميز بمواهب فريدة ، وقادرة على التفوق والاتقان .

وكثيرون من صناع الألحان الشعبية والتلقائية يصلون بقدراتهم الى حد التأثير العميق والمؤثر في نفسية الجماعة .

بل أن الصناعة التى تعتمد على هذه الطاقات المبدعة ، تزدهر ، بمثل ما تزدهر به تلك التى تعتمد على القارئين والكاتبين .

وكذلك الزراعة ، وكذلك الصناعات الدقيقة التى تحتاج الى قدر كبير من التخصص .

وكم من قارىء أو كاتب ، تستبعده التعريفات من عداد الأميين ، يعجز عن الحكم على شيء ، كما يعجز عن التعامل مع شخص ، وكذلك يعجز عن التقدير السليم للأمور .

أن التطور الحديث في عالم اليوم ، يحتاج بالفعل إلى أعادة النظر إلى الأمية وإلى الأميين .

ونحن حين نطالب بهذا ، لا نشجع الأمية ، ولا ندعو إلى أهمال مقاومتها .

لكنا في أقل القليل ، نضع المسألة بوضوح أمام الدارسين .

ان الأمية ظاهرة أجتماعية ، والأفضل ألا تكون . لكنها أن وجدت ، فليس يعنى هذا أن نصدر أحكامنا ظالمة على قدرة المجتمع على التطور ، بعد أن أصبح المجتمع زاخرا بألوان أخرى كثرة ، تصل الناس بجسور من الأتصال ، لا تقل أثر عما تستطيعه القراءة والكتابة .

والذى يستطيع المواطن الأمى أن يحصل عليه في خلال هذه الوسائل ـ التقليدية منها والحديثة ـ قد يكون أضعاف ما كان يمكن أن يحققه بالقراءة والكتابة ، لو أنه واحد من القارئين الكاتبين .

أن تجربة الكتاب في قرانا ، وتجربة مشايخ الأزهر في عهده القديم ، تثبت بما لا يدع مجالا للشك ، أن أفضل طرق التعليم ، هى أن يرتبط المتعلم بالمعلم ، وأن يأخذ عنه ويتلقى منه ، بصورة مباشرة ، لا عن طريق كتاب .

كان التعليم في كتاب قرانا يقوم على العلاقة المباشرة بين « الفقى » والتلاميذ . يلقى عليهم دروسه مباشرة ، ويراجعها معهم شفاهة ، ويحفظهم العلم تحفيظ ، فنمت فيهم عادة الحفظ ، بدليل أنهم حفظوا القرآن الكريم ، وحافظوا عليه من الضياع .

وكان علماء الأزهر القديم ، يقرأون كتابا قديما ، مع تلاميذهم . كان لكل منهم « عامود » من أعمدة الجامع الأزهر ، يلتقى عنده تلاميذه ، فيقرأ لهم ، ويشرح ويستزيد ، بصورة مشافهة ومباشرة ، حتى يطمئن إلى أن المعلومات قد أستقرت في رأس كل منهم .

أما الأسلوب العصرى ، في العودة الى المراجع المختلفة دون الاستاذ ، وتدريب الطلاب على منهج البحث ، لا الحفظ ، فقد أفقد الطلاب في الدراسات الجامعية الحديثة ذكرتهم ، فلم يعد فيهم من يستطيع أن يحفظ شيئا ، أو أن يسترجع شيئا حفظه ، وصارت معلوماته كلها متوقفة على ما بين يديه من مراجع .

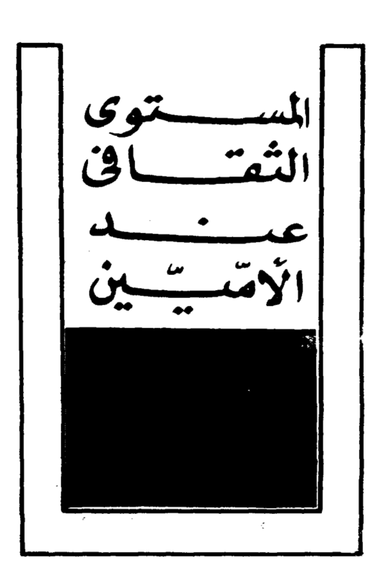
صار العلم الحديث مكتبة ، وصار المتعلمون أمناء لهذه المكتبة ، مهمتهم أن يبحثوا عما يريدون من معلومات في المراجع والقواميس .

وأيا كان الرأى في المنهج الجديد ، فنحن نرجو ألا نفضل القدرة على نقل المعلومات بصورة شفهية بين الذين لا يقرأون أو يكتبون .

وكما لا يجوز أن نجرد الأجيال الجديدة من مساهمتها في تطوير المجتمع ، فلا يجوز أن نجرد ذوى الحكمة الموروثة من غير القارئين الكاتبين أو من الأميين ، من قدرتهم على المساهمة في قضايا التنمية في مجتمعاتهم .

ولكل من هؤلاء سبيل .

عبد المنعم الصاوى



●● المقال في كلمات

١ ـ أوضحت الكاتبة الهدف من هذا المقال فقالت إنها أرادت أن تبين أن محو الأمية ليس صنوا للمعرفة والثقافة على الرغم من أنه من أهم الوسائل لتحصيل هذين الأمرين ، وأنه لا يجوز اعتبار الشعب خلوا من التفكير المنطقي لمجرد أنه لا يستخدم الكتابة اداة للاتصال ، وأن مجرد القدرة على القراءة والكتابة ليس دليلا قاطعا على ارتقاء مستوى المعرفة والعقل وتذوق الجمال سواء من الأفراد أو الجماعات .

٢ ـ ودللت الكاتبة على رأيها بأن الكلمة المكتوبة لم تعد كافية لتوصيل المعرفة حتى في العصور الحديثة والا لما كانت هناك حاجة الى قيام الجامعات أو المدارس ، اذ تغني عنها قراءة الكتب والمجلات . ولاحظت الكاتبة أن كثيراً

الكاتبة : أندرا ديقا

ولدت عام ١٩٣٢ . وحصلت على الدكتوراه فى علم الاجتماع بجامعة لكنو فى ١٩٥٨ . استاذة ورئيسة قسم الاجتماع بجامعة رافشنكار . فى الوقت الحالى

المترجم : أمين محمود الشريف

عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

من الأعمال القديمة التى كان لها أكبر الأثر فى رقى البشرية على مر العصور ، كانت فى الأصل جزءاً من المأثورات الشعبية الشفهية التى دونت بعد ذلك بزمن طويل . وأوردت فى هذا الصدد أقوال الفيلسوف أفلاطون بشأن ارتيابه فى مزايا الكتابة ودعوته الى الاعتماد على الذاكرة ، كما أشارت الى آراء صفوة القوم فى الهند القديمة حيث كانوا لا يؤمنون بأن الكتابة وسيلة للعلم والحكمة ، بل كانوا يعتقدون أنه يستحيل على الانسان ان يكتسب العلم والمعرفة إلا اذا جلس تحت أقدام المعلم ليتلقى منه العلم فاه الى فيه ، وكانوا ينظرون الى الكتب بعين الارتياب ، واستشهدت فى هذا الصدد بكلام الفيلسوف الهندى « نارادا » الذى عدد العوائق الحائلة دون تحصيل العلم فذكر منها « دراسة الكتب » أما العوائق الأخرى فهى لعب الميسر ، والشغف بالتمثيل ، والولع بالنساء ، وكثرة النوم والنعاس .

٢ ـ وذكرت الكاتبة أن تقييمها للمستوى الثقافى عند الأميين مبنى على الدراسات الميدانية التى أجريت فى مختلف أنحاء الهند كما هو مبنى على تحليل مأثوراتهم الشفوية ولما كانت المجتمعات الزراعية فى جميع أنحاء العالم تشترك فى السمات الأساسية لنظمها الاجتماعية وأنماطها الثقافية ، فإن النتائج العريضة التى أسفرت عنها هذه الدراسات والتحليلات فى الهند تصدق بوجه عام على المجتمعات الزراعية فى البلاد الأخرى . ثم ذكرت الكاتبة أمثلة من الثقافة الشعبية عند الأميين وأثبتت أن المستوى الثقافى عند الأميين لا يقل عن المستوى الثقافى عند العمال فى البلاد الصناعية المتقدمة .

من الأقوال التى يأخذها الناس قضية مسلمة قولهم إن المستوى الثقافى عند الأميين منخفض لا محالة . ذلك أنهم يرون أن كلمة « أمى » الشائعة الاستعمال لا تعنى عدم القدرة على القراءة والكتابة فقط بل تعنى أيضا الافتقار العام الى المعرفة والثقافة والواقع أن بعض المعاجم المعتمدة تذكر كلمة « جاهل » ضمن معانى كلمة « أمى » . ومن عادة أهل المجتمعات الصناعية الحديثة أن ينظروا بعين الاحتقار الى الأميين باعتبارهم قوما غير متحضرين ، وغير قادرين على التفكير المنطقى وتذوق الجمال .

والهدف من هذا المقال هو بيان أن محو الأمية ليس صنوا للمعرفة والثقافة . على الرغم من أنه من أهم الوسائل لتحصيلهما ولا يجوز اعتبار الشعب مجردا من التفكير المنطقى والرمزى لمجرد أنه لا يستخدم الكتابة أداة للاتصال . بل ـ على العكس ـ ليس مجرد القدرة على القراءة والكتابة دليلاً قاطعا على ارتقاء مستوى المعرفة والعقل وتذوق الجمال سواء بين الأفراد أو الجماعات .

هذا والزعم الشائع بأن محو الأمية « شرط ضرورى للثقافة » ينطوى على نتائج سياسية خطيرة . ولا يقوم هذا الزعم فى أذهان أهل البلاد الصناعية الحديثة فحسب ، بل تشاركهم فيه وتعبر عنه بقوة الطبقات الوسطى فى البلاد النامية . وهذا الزعم يشوه نظرة البلاد الصناعية المتقدمة نحو البلاد المتخلفة فى الصناعة ، وبذلك يحول دون حسن التفاهم بين أمم العالم . وهو يحمل الطبقات الوسطى الحضارية فى البلاد النامية على احتقار الملايين الغفيرة من بنى وطنهم . ومما لاشك فيه أن التغيير الاجتماعى الشامل والبعيد المدى هو الهدف المنشود فى هذه البلاد . ولكن هذا الاحتقار لا يساعد على تحقيق هذا الهدف . ولا ريب أن السياسات الحكومية المبنية على عدم الايمان بقدرة الشعب على توجيه النقد . وعجزه عن التكيف مع المجتمع ، تحمل الحكومة على فرض برامج معينة دون أية محاولة جادة للحصول على موافقة الشعب عن طريق الاتصال والتفاهم الهادف . والمشاهد أن كثيراً من هذه البرامج كبرنامج تحديد عدد السكان فى الهند ذات أهداف حميدة ، ولكن العواقب تكون وخيمة اذا عمدت الحكومة إلى تنفيذها بسيف السلطة المجردة ، بحجة أن الجماهير غير المتعلمة بهائم لا عقول لها . ومثل هذه النظرة تخفق بالطبع فى استغلال الإمكانيات الواسعة التى يتيحها الاتصال الشفهى لنشر الأفكار الجديدة بين الجماهير .

ومما يعوق البحث عن الأسباب الحقيقية للعلل الاجتماعية التى تشكو منها البلاد النامية الاعتقاد بأن الأمية هى المسئولة عن هذه العلل والحق أنه اذا أمكن تجنيب الاحتقار الذى لا أساس له لثقافة الجماهير غير المتعلمة فإن آفاقا جديدة تتفتح لتحديث البلاد النامية ونمو الحضارة . وسنذكر فى هذا المقال على وجه الإيجاز بعض الامكانيات التى يمكن أن تنشأ عن الظروف الفريدة للتفاعل بين الثقافة الشعبية النابضة بالحياة من جهة . والتكنولوجيا الحديثة الراقية من جهة أخرى .

ونحن لا نقول على الإطلاق ان تعليم الجماهير غير ضرورى فى الحضارة الصناعية الحديثة . بل نقول ـ على العكس ـ إن انتشار التعليم السريع من أقوى العوامل على السير فى طريق المجتمع الصناعى الحديث . بيد أننا نرى أنه لا يجوز الحكم على احدى الحضارات بمعايير حضارة أخرى . فالحضارات كالكائن العضوى قائمة بذاتها . بحيث لا نسمح بمثل هذا الحكم . وكل ما ندعو إليه هو التقويم الموضوعى للحضارة . واذا أردنا تغيير أحد النظم فلا يكفى أن نعلن النكير عليه . ولكى تكون كل خطة لتغيير هذا النظام مجدية يجب أن تقوم على ادارك صحيح للنظام فى ميدان التطبيق .

والواقع أن الكلمة المكتوبة لم تعد كافية لتوصيل المعرفة حتى فى العصور الحديثة . وإلا لما كانت هناك حاجة للجامعات أو المدارس . اذ تغنى عنها قراءة الكتب والمجلات . ويلاحظ أن كثيراً من الأعمال القديمة التى كان لها أكبر الأثر فى رقى البشرية على مر العصور كانت فى الأصل جزءاً من المأثورات الشعبية الشفوية التى دونت بعد ذلك بزمن طويل .

وقد أعرب فيلسوف عظيم مثل أفلاطون عن شكوكه فى مزايا الكتابة فقال : « إن الرجل الحكيم لا يكتب بالحبر فى وقت الجد » . وتحدث أفلاطون باسهاب عن عيوب الكتابة فقال : « إن اختراع الحروف يؤدى الى غلبة النسيان على عقول من يستخدمونها . لأنهم لا يدربون ذاكراتهم ولا ريب أن اعتماد هؤلاء على حروف خارجة عن ذات أنفسهم لا يشجعهم على استخدام الذاكرة المركوزة فى رؤوسهم أجل . لقد اخترعتم إكسيرا من التذكير لا التذكر . وليس في وسعكم إلا أن تقدموا لتلاميذكم مظهر الحكمة لا جوهرها . لأنهم يقرءون أشياء كثيرة دون تعليم أو توجيه منكم . ويخيل إليكم أنهم يعرفون أموراً كثيرة مع أنهم جهلاء . ومن الصعب أن يعيشوا على وئام مع الناس لأنهم ليسوا حكماء . وانما هم أدعياء الحكمة .. اه

وكانت صفوة القوم في الهند القديمة لا تؤمن بأن الكتابة وسيلة للعلم والحكمة . يقول مقطع شعري مشهور مؤلف من بيتين (دوبيت) باللغةالسنسكريتيةـ كثيراً ما يستخدم مثلا ـ ما معناه :

اذا كان العلم فى بطون الكتب مخزونا . والمال فى يد غيرك
موفورا فما هذا العلم ولا المال بمجديك نفعاً إذا احتجت إليه

وهناك وجه شبه واضح بين فحوى هذه الأبيات وكلام أفلاطون . والمشاهد أنه بعد اختراع الكتابة ظلت النصوص تعيها الذاكرة ويلقنها المدرس لتلاميذه . وكانوا يعتقدون أنه يستحيل أن يكتسب الإنسان المعرفة الا اذا جلس تحت اقدام المعلم ليتلقى منه العلم فاه الى فيه . وكانوا ينظرون الى الكتب بعين الارتياب . وقد عدد « نارادا » الهندى العوائق التى تحول دون تحصيل العلم فذكر منها « دراسة الكتب » أما العوائق الأخرى فهى لعب الميسر ، والشغف بالتمثيل ، والولع بالنساء ، وكثرة النوم والنعاس . على أن الحقيقة تبقى مع ذلك شاهدة بأن الكتب ظلت هى الوسيلة لنقل الكثير من علوم صفوة العلماء والحكماء في الهند القديمة والقرون الوسطى ، وكذلك في أنحاء العالم الأخرى .. ولكن جمهرة الفلاحين في هذه البلاد ظلت تعتمد على الرواية الشفهية وحدها في نشر ونقل المعارف والعقائد والآداب .

وهذا التقويم للمستوى الثقافى عند الأميين مبنى على الدراسات الميدانية التى أجريت في مختلف أنحاء الهند ، كما هو مبنى على تحليل مأثوراتهم الشفهية . ولما كانت المجتمعات الزراعية فى جميع أنحاء العالم تشترك فى السمات الأساسية لنظمها الاجتماعية وأنماطها الثقافية فإنه يمكن القول بأن النتائج العريضة التى أسفرت عنها هذه الدراسات والتحليلات في الهند تصدق بوجه عام على المجتمعات الزراعية فى البلاد الأخرى » وهذا أمر من الأهمية بمكان نظراً لأن السواد الأعظم من البشر لا يزالون يعيشون فى

مجتمعات زراعية . يدلك على ذلك أن معظم السكان في آسيا وأمريكا اللاتينية يشتغلون بالزراعة . وعلى الرغم من هذه الحقيقة . وعلى الرغم من أن الشطر الأعظم من البشر ظل منذ فجر الحضارة يعيش في مجتمعات زراعية ، فإن علم الاجتماع لم يوجه اهتماما كافيا الى دراسة الأوضاع الاجتماعية للفلاحين وثقافتهم . وقد اهتم علماء الاجتماع بوجه عام بدراسة المجتمعات الصناعية الحديثة ، وركز الأنثروبولوجيون اهتمامهم على دراسة الثقافات القبلية . ولاشك أن تقويم المستوى الثقافى عند الفلاحين الذى ذكرناه هنا يمكن أن يصدق على مجتمعات القبائل من كثير من الوجوه . ولكن هذا التقويم مبنى على تحليل المادة المقتبسة من المجتمع الزراعى وهى مدار الكلام في هذا المقال .

هذا وتختلف المجتمعات القبلية اختلافا أساسيا عن المجتمعات الزراعية من وجوه عديدة . منها أن المجتمعات والثقافات القبلية هى وحدات اجتماعية وثقافية قائمة بذاتها . نعم قد تتصل القبيلة بغيرها من القبائل ، ولكن مثل هذا الاتصال يكون ضارا بها في الغالب . أما المجتمع الزراعى فهو في جوهره مجتمع جزئى بمعنى أنه جزء من حضارة كبرى ، والجزء الآخر هو الصفوة المختارة والنخبة الممتازة ، وهناك تفاعل مستمر وأخذ وعطاء بين التيارات الثقافية في كلتا هاتين الطبقتين .

والمجتمعات القبلية في حالتها الأصلية أمية صرفة ، ومعزولة عن عالم الكتب . والفلاحون أيضا أميون في الأعم الأغلب ، ومعزولون عن عالم الكتب . ولكن تفاعلهم مع طبقة الصفوة المختارة يربطهم بطريق غير مباشر بالآداب المكتوبة . بيد أن الفلاحين يعتمدون في الغالب على الرواية الشفهية في نقل معارفهم ، ومهاراتهم ، وعقائدهم ، وقيمهم ، وثمرات قرائحهم ، كالأشعار والحكايات .

وعندما نتحدث عن المستويات الثقافية فإن الحديث يجرنا بالضرورة الى المقارنة بين هذه المستويات . فما وجه المقارنة بين المستوى الثقافي عند الأميين والمستوى الثقافي عند عامة الشعب في البلاد الصناعية المتقدمة ؟ لو أنك درست حال الطبقات الدنيا في البلاد المتقدمة لوجدت أن كثيرا منهم من عمال الصناعة فما هى الفرص المتاحة لهم لتذوق الشعر أو القصص أو الموسيقى الرفيعة . ولا أقول المشاركة في هذه الفنون ؟ ان معظم هؤلاء العمال برغم إلمامهم بالقراءة والكتابة . مما يتيح لهم نظريا الأطلاع على جميع الكتب الأدبية . لم تتح لهم قط فرصة لصقل احساسهم الفني على نحو يمكنهم من تذوق الأدب أو الموسيقى الرفيعة . ومن ناحية أخرى فان الحياة مفعمة بأسباب القلق الناجم عن المنافسة الحادة التى لا حد لها . ثم ان العمل الروتينى يتسم بالآلية والملالة الى حد لا يتوافر معه للانسان الجو اللازم لممارسة النشاط الجمالى والفنى . يضاف الى ذلك أن السنن الذى تسير عليه الحياة يشجع دورة الملل والاثارة . وبيان هذه الدورة أن الملل يسرى في كيان الحياة العادية بعمق بحيث لا يمكن القضاء عليه الا بجرعة ضخمة من الاثارة . وهذا هو السر في ذيوع المسرحيات والقصص المثيرة والرخيصة . التى تحرض على الفجور والدعارة . والصور المروعة للجريمة وأعمال العنف سواء في القصص المطبوعة أو الأفلام السينمائية . وكذلك الحال في الموسيقى . فهى صاخبة ومثيرة . وبعيدة عن الهدوء والرصانة .

ومهما أتسع أفق محو الأمية بين الجماهير في البلاد الصناعية المتقدمة فإن المستوى الحقيقى للحياة الجمالية الفنية عند الرجل العادى فيها لا يمكن أن يعد عاليا جدا . بل مستوى الطبقات العليا في هذه البلاد لا يختلف عن ذلك كثيراً . نعم . قد تتوافر لدى هذه الطبقات الوسائل المادية لشراء بعض الأعمال الفنية . ولكن من المشكوك فيه أن يتوافر لديهم الوقت أو الميل لإبداع الأعمال الفنية ذات المستوى الرفيع . والمشاهد أن هذا الإبداع الذى يجب أن يكون جزءا عاديا من حياة أى إنسان مثقف يقتصر على الإخصائيين الذين يجعلون من ذلك مبرراً لوجودهم .

ومن الصعب وضع معايير محددة للمستوى الثقافى . ولكن يمكن القول بأن هذه المعايير تتلخص في القدرة على نظم القريض . وتذوق الموسيقى . وفهم الأفكار الفلسفية الدقيقة . والنظرة الثاقبة في الجمال . والقدرة على نقد الأحداث اليومية والأوضاع التقليدية . ولو أنك قست مستوى الفلاحين الأميين بهذه المعايير لم تجده منخفضا .

ويلاحظ أن كل فرد في المجتمع الزراعى التقليدى يوقع باسمه توقيعا يفى بالغرض . ولا يزال الانسان يشاهد هذه الظاهرة الثقافية في معظم القرى الزراعية في داخل البلاد . وهناك بالطبع « أنواع أدبية » تختلف باختلاف الرجال والنساء والأطفال . ولكن كل هذه الأنواع تتسم بكثير (لا كل) من المزايا الأدبية العالية . وقد شاهدت خلال العمل الميدانى الذى قمت به في داخل الهند أن كل شخص تقريبا ـ مهما كانت سنه أو نوعه (ذكرا أو أنثى) أو طبقته ـ يقتنى ذخيرة من الأغانى . والحكايات . والأمثال البليغة . والأحاجى التقليدية . بل ان الرجل المتوسط العمر من طبقة المحاربين الذى يحمل شاربا مهيبا قد يطالعك بأغنية رخيمة . يغنيها بملء حنجرته اذا أمكنك أن تحمله على الغناء . ولو أنك سألته أن يغنى لك في فصل الربيع أغنية مخصصة للفصول الأخرى لاعتذر لك قائلاً : « ألا تخشى أن

يضحك الناس مني ويقولون ، تبا لهذا الأحمق ؟ إنه يغني أغنية لا تناسب الفصل الحالى » . والمشاهد أن مأثورات الأدب الشعبى الفنية والمتطورة تمتاز بالتنوع ، فمنها أنواع أدبية مخصصة للفصول المناسبة ، والطبقات الاجتماعية والمناسبات الخاصة كالزواج ، والميلاد ، والطقوس . وتوجد أيضا بعض أنواع أدبية يمكن أن يتمتع بها كل فرد في أى وقت .

هذا وكلمات الأغانى ذات مزية أدبية ظاهرة ، الى جانب موسيقاها الشجية . وتضارع هذه الأغانى الأشعار الجيدة فيما تستخدمه من الصور الخيالية والرمزية ، وماتصوره من الأحاسيس العميقة والمشاعر الدقيقة . وقلما نجد في الأغانى الشعبية الحقيقية وصفا مطولا للطبيعة يشعر بالحنين إليها ، ولكنها تصور البيئة الطبيعية تصويراً يأخذ بالألباب . مثال ذلك تلك الأغنية التى تتحدث عن ظبى صغير ذبح ليقدم في وليمة أقامها أحد الملوك احتفالاً بمولد ابنه ! ويصور لنا مطلع القصيدة البيئة التى جرى فيها الحادث ، كما يصور شعور الأم تصويراً يذكى لهيب الأسى في الفؤاد ،

تحت شجرة وارفة الظلال
كثيفة الأوراق والأغصان
وقفت ظبية رائعة الجمال
مفعمة القلب بالأحزان

وتقول الأغنية بعد ذلك أنه عندما ذبح الظبى الصغير طلبت أمه إلى الملك أن يعطيها جلد ابنها الذبيح . فأبى الملك قائلا ، إنه سيتخذ منه طبلة لابنه الصغير . وتختم الأغنية بهذه العبارة .

كلما سمعت الأم صوت الطبلة هاجت بها الذكرى
ونفثت من صدرها المكلوم زفرات الأنين

وهناك أيضا أغنية تلتقى فيها فتاة صغيرة مع زوجها المرتقب الذى خطبت اليه . وتصور الأغنية البيئة التى جرى فيها اللقاء بهذه الكلمات .

خلف منزل الأب بركة
يتمايل فيها زهر اللوتس
في موجة بعد موجه
وفي تلك البركة تستحم الفتاة «...»

والمكان الخالى (المشار اليه بالنقط) مخصص لذكر اسم العروس التى تتحدث الأغنية عن زواجها ومن عاداتهم في الأغانى الشعبية إبراز أسماء الأشخاص، وبخاصة الأسماء التى ترتبط بطقوس الانتقال(١)».

(١) طقوس الانتقال ، تقام عند انتقال الشخص من حال الى حال كالزواج ، والمرض والموت ، المترجم .

وغيرها من الطقوس . وهذا من شأنه أن يجعل الأغنية ألصق بالمناسبة التى تغنى فيها وبالأسرة التى تتحدث عنها .

هذا والأدب الشعبى بمختلف أنواعه يرتبط ارتباطا وثيقا بحياة الشعب بحيث لا يستطيع أحد الفكاك منه ، حتى ولو أراد ذلك . فهناك أغانى تصاحب العمل . كتلك التى تنشدها مجموعة من النساء عند قيامهن بنقل شجيرات الأرز . أو اجتثاث الأعشاب من الحقل . ويستعين الرجال على وعثاء السفر بانشاد الأغانى الطويلة عند سيرهم مسافات طويلة على الأقدام . ويقطعون الصمت المخيم على المراعى المنبسطة بانشاد الأغانى « البرهائية » البليغة بصوت مرتفع . وهناك عدد كبير من الأعياد التقويمية (نسبة للتقويم السنوى) لا تكمل طقوسها بدون ذكر الحكايات المناسبة . وانشاد الأغانى الخاصة بها . وكذلك يجب أن تصاحب الأغانى والرقصات « طقوس الانتقال » . وقد جمعت من أغانى الزواج وحدها عشرين أغنية من إقليم واحد . ولمواسم الحصاد والأمطار أغانى شجية . وهناك ملاحم شعبية معينة يستمر انشادها ساعات طويلة ، وتجتذب الجم الغفير من السامعين . ولدى الأطفال ذخيرة كبيرة من الأشعار والألغاز والألحان يتطارحونها وقت اللعب : وهناك حكايات قصيرة وأمثال بليغة لها تأثير كبير فى فض المنازعات ، وعقد الصفقات .

وفى المجتمع الشعبى الذى لا يزال سليما لا ترى فيه الأدب أو الموسيقى حكرا للمتخصصين أو لطائفة معينة . بل تشترك جميع طوائف المجتمع فى تذوقها ، وأدائها ، وابداعهما . والغريب أن النساء اللاتى لا تتاح لهن عادة فرصة المشاركة فى الأدب الرفيع يضارعن الرجال فى الأدب الشعبى ، فأغانيهن أكثر عدداً وأوفر قدرا من الرجال والدليل . على أن أغانى النساء من بنات أفكارهن وثمرات قرائحهن واضح من موضوعات هذه الأغانى وتصويرها للمشاعر ففيها يتجلى التعبير الحى عما يساورهن فى فترة الحمل من قلق . وما تصبو اليه نفوسهن من أمل ، والمشاهد فى المجتمع الذى تتبوأ فيه الأمومة منزلة رفيعة أن المرأة العقيم هى أتعس مخلوقات الله . ولذلك تصور الأغانى باسهاب ما تشعر به المرأة العقيم من خيبة الأمل وما يداعب خيالها من وهم وهوى . وانك لتجد أن مثل هذه الأغانى فياضة بالمشاعر ، ومؤثرة فى العواطف كأروع ما أنت قارىء من الشعر البليغ .

ومن خصائص المجتمع الزراعى فى الهند أنه مجتمع « هرمى » ، بمعنى أنه يتألف من طبقات متعددة بعضها فوق بعض . ولنظام الطبقات أحكام صارمة ومعقدة تشكل الزواج ، والمشاركة فى الطعام . وتعد أدنى الطبقات فى هذا النظام الهرمى طبقة منبوذة لا تمس . ويعتقد أهل الطبقات العليا أن تناول الطعام والماء من أيدى هذه الطبقة أو لمسهم سبب للنجاسة . أما المشاركة فى الموسيقى والأدب الشعبى والفكر الصوفى فإن الطبقات الدنيا غير محرومة منها . والواقع أن حظ الطبقات الدنيا من هذه المزايا الثقافية أو فر من حظ الطبقات العليا . وقد ترتبط بعض الأغانى بمهنة طبقة معينة ، ولكن هناك أنواعاً أخرى كثيرة من الأغانى والأدب الشعبى تتجاوز نظام الطبقات . وليس من الغريب أن ترى رجلا من الطبقة الدنيا يروى حكاية ، أو يقص ملحمة شعبية أو يشدو بأغنية ، فيصغى له فى صمت واحترام جمهور غفير يضم الطبقات الدنيا والعليا على السواء ، وبالطبع يأخذ الحاضرون أماكنهم طبقا لمركزهم فى نظام الطبقات ، ولكن التذوق لما يسمعون يتوقف على قيمة الشىء فى ذاته .

ومن الأمثلة البارزة لذلك قيام أشخاص ينتمون الى طبقة « شمار » بانشاد الأغاني النرجونية . والنرجونيات هي أغاني تدور حول « الكائن المطلق الذي لا تدرك صفاته » ، وهي تتضمن أفكاراً ميتافيزيقية (وراء الطبيعة) معقدة ، وصوراً خيالية ورمزية كبيرة . وطبقة « شمار » هي مثال الطبقات المنبوذة في شمال الهند . ومهنتهم هي ازالة جثث الحيوانات الميتة من القرى والاشتغال بأعمال الجلود . وتقع هذه الطبقة في أسفل السلم الأجتماعي . ومع ذلك كله فإن « شمار » تعد في كثير من انحاء الهند أكبر مفسر للأغاني النرجونية العليا . وعلى الرغم من أن إنشاد النرجونيات ليس مقصوراً بأى حال على طبقة شمار أو على أى طبقة أخرى فإن شمار هي الطبقة المتخصصة في هذه الأغاني . وإن تعجب فعجب أن الأشخاص الذين ينتمون الى الطبقات العليا بل الى طبقة البراهمة المتعلمة والكهنوتية لا يستمعون باحترام لانشاد الرجل الشمارى للأغاني النرجونية فحسب . بل يستمعون أيضا لتفسيره للفلسفة السامية التي تتضمنها هذه الأغاني .

ويعبرون عن الأفكار الميتافيزيقية المعقدة التي تتضمنها النرجونيات بالصور الخيالية والرمزية المستمدة من الحياة الشعبية اليومية . وهي تتضمن فلسفة مثالية من الطراز الأول . ويقولون ان مؤلف الكثير من هذه الأغاني هو الشاعر الصوفي الشهير « كبير » (القرن ١٥) . ولكن لا يدرى أحد أى هذه الأغاني ألفه كبير . وأيها ألفه أفراد عاديون من الشعب . ومعروف أن « كبير » كان رجلا أميا أيضا . وان كان الاعتقاد السائد أنه شاعر وصوفي . وقد ترجم الشاعر الهندى رابندراناث طاغور . الحائز على جائزة نوبل فى الأدب . مائة من هذه الأغاني الى الأنجليزية . وقد قال كبير عن نفسه . : إنه لم يمس الورق ولا الحبر قط ولا أمسك قلما في يده . وكان كبير ينتمي الى طبقة النساجين . وظل يمارس مهنة النسيج مع قرض الشعر والاشتغال بالتصوف . وقد سرت أغانيه ومقاطعه الشعرية في الافاق مسرى الخيال . وتناقلتها أفواه الرجال عدة قرون قبل أن تدون في السطور وكما هو الحال في الروايات الشفهية رويت الأغنية الواحدة بوجوه عديدة . ومن هنا يجد الانسان عدة روايات للأغنية الواحدة من أغاني كبير . وتتسم كل رواية بطابع اللغة السائدة في الأقليم الذى وجدت فيه الأغنية . وكان من عادة القوم أن يقحموا اسم كبير في كل أغنية تعبر عن الفلسفة الصوفية . ولا ريب أن قدرة الشعب الأمي على تأليف الأغاني التي تتضمن دقائق الفلسفة المثالية في اتساق ووضوح دليل على قدرة هذا الشعب على ادارك المعاني المجردة . وارتفاع مستواه العقلي . وكان كبير واحداً من هؤلاء . ولم يكن كبير يؤمن بالعلم المأخوذ من الكتب يدلك على ذلك قوله في أحد مقاطعه الشعرية مامعناه :

رأيت المرءَ يقضي كل عُمْرِهْ ... يطالعُ ذا الكتابا وذا الكتابا
فما علماً أفاد ولا استفادا ... وللعلماءِ ما نال انتسابا
ولكن من درى للحُبِّ معنىً ... فهذا عالم عرف الصوابا

ويزدهر بين المجتمع الزراعي الذى تغلب عليه الأمية أدب شفهي منظم . كامل النمو . يشتمل على عدد كبير من الأنواع الأدبية المختلفة . وليس بصحيح ما يردده الرومانسيون من أن الأغنية الشعبية

تنبع من القلب مباشرة . وذلك في معرض امتداحهم لهذه الأغنية ذلك أن كل « نوع » من الأغانى وغيرها من الأنواع الأدبية ذو شكل تقليدى ثابت . ويعبر الناس عن مشاعرهم وعواطفهم لا بصورتها الأصلية . بل يعبرون عنها عن طريق هذه الأشكال التقليدية الثابتة كما هو الحال في الآداب الأخرى . وقد لا يستطيع الشعب أن يشرح القواعد التى تحكم هذه الأشكال (تماما كما لا يستطيع أن يشرح قواعد اللغة التى يتكلم بها) . ولكن مما لا شك فيه أنه يتحكم فيها . والا لما بقيت هذه الأشكال . ويكتسب الشعب عادة هذا التحكم بالمشاركة المستمرة . لا بالتدريب النظامى أو الواعى . وهناك بعض استثناءات من هذه القاعدة كانشاد القصائد الحماسية أو الملاحم الشعبية الذى يتم تعمله وتعليمه غالبا بطريقة شعورية واعية . ولكن يمكن القول بوجه عام أن المشاركة تتم على نطاق واسع بحيث يكتسب الفرد المهارة الضرورية بدون حاجة الى التدريب .

ومعظم اغانى النساء يتم انشادها بنغمات متحدة متساوية بواسطة مجموعة كبيرة منهن . وتلتحق الفتاة بهذه المجموعة منذ نعومة اظفارها

وتوجد في المجتمع الشعبى النشيط مناسبات منتظمة ومتكررة للغناء . وبذلك يتاح لكل فرد الفرصة لاكتساب قدر كبير من الكفاية والاجادة . وان تفاوتوا في ذلك . ومن أجاد أصبح معروفا ومشهوراً .

وليست المشاركة واسعة النطاق في الأداء فحسب . بل إن كل فرد عادى من جمهور الشعب له خطة في الابداع أيضا . والواقع أن الأداء والابداع يسيران جنبا الى جنب . وكلما استمر الغناء أدخل المغنون تعديلات يسيرة كما يشاءون وبهذه التعديلات تنمو الأغانى الشعبية وتتغير . ومن ثم كان لكل أغنية روايات لا تحصى . وتعد كلها روايات صحيحة . ولم يتنكب علماء الأدب الشعبى الألمان جادة الحقيقة حين قالوا إن المجتمع كله يؤلف الأغانى الشعبية . وان هذه الأغانى تنمو كالأشجار

وكذلك لا يلتزم المغنى نصا ثابتا عندما يقص حكاية شعبية أو يغنى ملحمة شعبية . بل يدخل عليها من التعديلات ما يتفق مع مزاجه . وطبيعة السامعين . والوقت المتاح . وكذلك لا يلتزم المغنى المجيد لاحدى الملاحم الشعبية أى نص ثابت (١) بل تراه يرتجل من فوره على أساس الأطار العام للقصة وحصيلته من العبرات والاوصاف المألوفة . وهذه هى الطريقة التى يتبعها المغنى المجيد للملاحم الشعبية في « ألها » بشمال الهند حيث يغنى أحداث المعركة الواحدة طوال الليل أو ينتهى منها في ساعتين حسبما تقضى به الضرورة . وهو أيضا يستجيب لرغبات سامعيه الذين لا يلتزمون موقفا سلبيا على الأطلاق في أثناء الغناء .

وعلى الرغم من هذه الحقائق التى يستطيع أى إنسان أن يلاحظها في المأثورات الشعبية الحية فإن المواهب الابداعية عند الأميين لا تلقى ما هى جديرة به من التقدير . وإنه لمن الغريب أن عالما اجتماعيا

(١) ليست هذه الظاهرة مقصورة على الهند ، شأنها في ذلك شأن الخصائص الأخرى للشعر الملحمى ، فهى شائعة في الشعر الملحمى عند مختلف شعوب أسيا الوسطى وأوربا القديمة وشعوب القرون الوسطى .

كبيراً كالأستاذ روبرت رد فيلد الذى ميز بين التيارات الثقافية الكلاسيكية والشعبية يقول : « يوجد في الحضارة مأثورات كبيرة للقلة المفكرة . ومأثورات قليلة للكثرة غير المفكرة » . وبذلك يحكم هذا الأستاذ على جمهور الشعب بأنه غير مفكر . ويرى العالم المشهور أنداندا ك . كومارسوامى أنه من « الاجحاف الديمقراطى » أن يقول إن جمهور الشعب يمكن أن يكون مبدعا . وكذلك ذهب النقاد الأدبيون البارزون الى أن الأميين لا يستطيعون تأليف ما ينسب اليهم من الأنواع الأدبية . مثال ذلك أن بعض النقاد أمثال ت . ف هندرسون قد أعربوا عن شكهم في قدرة الفلاحين الأميين على تأليف المواويل . ويقولون ان مثل هذه الأنواع الأدبية هى من تأليف الطبقة الأرستقراطية المتعلمة . ثم تسربت فيما بعد الى المأثورات الشفهية عند عامة الشعب . ويبدى هندرسون تشككه في مواهب « غير المتعلمين » لدرجة أنه يقول انه من سوء حظ الموال أن يتعرض للاختبار القاسى على يد الأجيال غير المتعلمة .

بيد أنه لا يجوز في المجتمعات الزراعية الموجودة في بلاد كالهند ـ حيث لا تزال المأثورات الشفهية للأدب الشعبى في عنفوان قوتها ـ أن تصبح مسألة أصل الأدب الشعبى وقدرة الأميين أو عدم قدرتهم على تأليف أنواع أدبية جديدة مجالاً للتفكير النظرى وحده . إذ ان هناك أدلة مادية مستمدة من التجارب اليومية تثبت قدرة الأميين على إبداع كل مطرب ومعجب (١) ولا يخفى أن استمرار الأميين في تأليف كل جديد ـ ولكنه أصيل ـ من الأغانى والقصص الشعبية بل كذلك من الأحاجى والألغاز المتصلة بالأحداث المعاصرة والموضوعات الحديثة دليل ما بعده دليل على قدرة العامة على الابداع . وانك لتجد كثيراً من المغنين غير المتعلمين يؤلفون أغانى تحظى بالقبول لدى الجمهور وتتبوأ مكانها في المأثورات الشعبية . وقد أصبحت هذه الأغانى بالطبع عرضة للتعديل على يد أفراد آخرين من عامة الشعب . وليس من العسير أن تجد مطربين غير متعلمين يغنون قصائد شعرية . ويستطيعون أن يرتجلوا على البديهة أغانى تتصل بأى حادث أو موضوع يعرفونه . ولا يعنى ذلك أن تكون هذه الأغانى ضعيفة المستوى حتما . لأن مثل هؤلاء المغنين على بصيرة بالأساليب التقليدية والعبارات المأثورة .

والواقع أن أنواعا جديدة من الأدب الشعبى قد برزت الى حيز الوجود بتأثير العوامل الحديثة . ومن أبرز الأمثلة على ذلك ظهور الأبرة (المسرحية الغنائية) المعروفة باسم « بيد يسيا ناتاك » وهى نوع من الابرات الشعبية التى ظهرت منذ بضع عقود من السنين في ولاية أوتار براديش الشرقية وولاية « بيهار » الغربية في الهند .

ويشتهر الاقليم الذى ظهرت فيه هذه الأبرة بالهجرة الكثيفة التى قام بها العمال إلى المراكز الصناعية والحضرية النائية . إذ دأب الرجال القادرون على الهجرة بأعداد كبيرة من هذه المنطقة بحثا عن العمل . تاركين وراءهم نساءهم وأطفالهم فترة طويلة من الزمن . ومن شأن هذا الموقف أن يخلق جوا مشوباً بالتوتر في الحياة العائلية التقليدية . إذ تتجرع المرأة كأس الشقاء . ويكابد الزوج آلام الفراق .

---

(١) يقول هندرسون في معرض انتقاده للأستاذ كتدردج بشأن تأليف المواويل : « في وسعنا أن نقول إن الأستاذ كتدردج قد شاهد مصانع المواويل وهى تعمل في القرى القديمة على قدم وساق » . وأنا أقول ان الأستاذ هندرسون أخطأه التوفيق في عبارة « مصانع المواويل » لأننا نستطيع الآن أن نرى جمهور الشعب يؤلف الأغانى ، والمواويل ، وغيرها من الأنواع الأدبية .

وتصور الأبرة الشعبية بيديسيا (المعنى الحرفى لهذه الكلمة هو : الرجل الذى يهاجر إلى بلد بعيد) هذه الحال تصويراً أليما يذكى لهيب الأسى في الفؤاد . ويقترن بالغناء والرقص . ويرجع الفضل في ظهور هذا اللون الأدبى الى « بيكادى » الذى ينتمى الى طبقة الحلاقين . وهى من الطبقات الدنيا .. . وقد ظلت أعماله الى عهد قريب حين كان في عنفوان شبابه تجتذب جمهوراً كبيراً ، وهذا الرجل هو . على أحسن تقدير . شبه أمى لا يستطيع أن يكتب اللغة الهندية بطريقة صحيحة . وهى اللغة السائدة في المنطقة . وجدير بالذكر أن الأدب الشعبى في هذا الإقليم بكافة أنواعه تقريبا يحمل الطابع العميق لهذه الهجرة الكثيفة .

وفي وسعنا ذكر الكثير من الأمثلة الدالة على مدى تأثر المأثورات الشفهية بالعوامل والمواقف الجديدة . وهى توضح بجلاء أن وفاض الأميين ليس خاليا بأى حال من هذه المأثورات . ولا يشتهر الأميون بالابداع في عالم الأدب وحسب . بل لهم حظ موفور من الابداع االجمالى أيضا . وليس من شك في أن المأثورات الشعبية تستمد بعض عناصرها من ثقافة الصفوة المختارة . والنخبة « الممتازة » . ولكن ثمة أيضا شواهد كثيرة تشير إلى أن الطبقات العليا والمأثورات الكلاسيكية تقتبس من ثقافة الجماهير الأمية . فمن المعروف أن ألحان الموسيقى الهندية الكلاسيكة المعروفة باسم « راجا » مستمدة من الألحان والكلمات الشعبية . وأن نسب الفضل في هذه الألحان وكتابة الأغانى الى منتجى الأفلام أنفسهم . وعند انتقال الألحان الشعبية الى الموسيقى الكلاسيكية يتم تعديلها بما يتلاءم مع القواعد الدقيقة لهذه الموسيقى . وكثيراً ما يؤدى اقتباس الأغانى الشعبية في الأفلام المعاصرة الى تشويه جمالها الفنى . فتفقد لمستها الخفية (التى لا يمكن أن يدركها الا من تعمق في المأثورات الشعبية) وتصبح قلقة وسمجة . وكذلك تقتبس الثقافة الحضرية والمكتسبة (المتعلقة) بعض عناصرها من الشعب الأمى في مجال الموضوعات الجمالية البصرية . مثال ذلك أن كثيرا من الرسوم التى تزدان بها المنسوجات . والتى تولع بها الطبقات الراقية . منقولة في الغالب عن الرسوم الشعبية . ثم أصبحت هذه الرسوم محلاً للانتاج الكبير .

هذا والقول بأن وعى الأميين هو وعى « محلى » أو « ضيق الأفق » ليس بصحيح على إطلاقه . ذلك أن القرية الزراعية ترتبط بالقرى الأخرى وبالمراكز الحضرية غير الصناعية بروابط تقليدية منذ آلاف السنين . وكان لهذه الروابط أبعاد اقتصادية وسياسية . كما كان لها أبعاد اجتماعية وثقافية (١) . وما كان للمدينة أن تنشأ أو تبقى لولا المدد المتصل الذى يفيض عليها من القرى . من الطعام والمنتجات الزراعية وغير الزراعية . أكثر من ذلك أن الإنسان مضطر إلى تجاوز حدود قريته ليبحث عن زوجة له . ومن المعروف أن عادة الاغتراب (الزواج من الأباعد الغرباء) منتشرة في معظم الأقاليم . ومن المشاهد شيوع لهجة واحدة وأدب شعبى واحد في اقاليم شاسعة بين الطبقات الدنيا في المدن التقليدية . لا بين سكان آلاف القرى فحسب . وهناك تفاعل مستمر بين المأثورات الشعبية ومأثورات الصفوة التى ظلت متشابهة في جوهرها . في طول الهند وعرضها .

---

(١) على الرغم من أن العوامل التكنولوجية والاقتصادية الحديثة قد أحدثت تغييراً جذريا في العلاقات بين المدن والقرى فمن الخطأ بأن العلاقات كانت منقطعة بينها في العصور الماضية . وتدلنا دراسة التغيير الذى طرأ على هذه العلاقة على كثير من التغييرات التى طرأت على الحضارات الزراعية .

وعلى الرغم من أوجه الخلاف بين اللهجات اللغوية وبعض نواحي الثقافة الشعبية في مختلف الأقاليم توجد شواهد كثيرة على أن العامة في اقليم ما لاتعيش بمعزل عن نظيرتها في الأقاليم الأخرى . وقد أصبح الزعم بوجود هذه العزلة قضية مسلما بها الى حد أن ماكيم ماريوت يرى أن اقتباس المأثورات الشعبية عناصر من ثقافة الصفوة دليل على « ضيق أفق » هذه المأثورات . في حين يرى أن اقتباس ثقافة الصفوة بعض العناصر من المأثورات الشعبية دليل على « شمولية » هذه الثقافة . ولما وجد ماريوت بعض أوجه الشبه بين الثقافات الشعبية في أقاليم مختلفة طلع علينا بنظرية بارعة لتفسير هذه الظاهرة . فزعم أن أوجه الشبه هذه ناشئة لا عن الاتصال « المباشر » بين المأثورات الشعبية في الأقاليم المختلفة بل « عن الصعود المثلثي » الى المستوى الأعلى . ثم الهبوط مرة أخرى الى المستوى الأدنى . يريد بذلك أن العناصر الثقافية عند الشعب الأمي في اقليم ما يجب أولا أن تنتقل الى مأثورات الصفوة (رأس المثلث) ثم تعود فتهبط وحدها الى المأثورات الشعبية في إقليم آخر . وبعبارة أخرى أن المأثورات الشعبية لا تنتقل مباشرة من إقليم إلى آخر . بل لابد أن تمر أولا بثقافة الصفوة لتقتبس منها . صحيح أن هذه العملية قد تؤدى إلى وجود بعض العناصر الثقافية المشتركة بين الأقاليم المختلفة . إلا أنه لا مبرر للقول بأن مرور الثقافة الشعبية بثقافة الصفوة هو الطريق الوحيد للاقتباس المتبادل بين المأثورات الشعبية . ذلك أنه لا يوجد سور منيع يفصل بين الثقافات واللهجات الأقليمية المختلفة . بل الواقع أنه لا توجد حدود فاصلة على الإطلاق . اذ أن الثقافات واللهجات الاقليمية متداخلة بعضها في بعض . وهناك لهجات وثقافات حدية أى مائعة ومتوسطة بين لهجتين أو ثقافتين . ويتم التزاوج غالبا بين هذه الثقافات الحدية . وعندما تذهب العروس لتعيش في منزل الزوجية . فانها تنقل معها التقاليد السائدة في قرية أبويها ولا ريب أن الحج الى بعض المراكز الشهيرة مثل « بدرينات » و « بنارس » في شمال الهند . و « بورى » في شرقها و « دواريكا » في غربها . و « رامشفرام » في جنوبها . من شأنه أن يجمع شمل الجماهير الوافدة من جميع أركان البلاد . وفي وسع المرء أن يشاهد ملايين الأميين من جميع أنحاء الهند وهم يتزاحمون بالمناكب في سوق « كومبها » العظيم الذى يعقد في مدينة « الله أباد » كل اثنتى عشرة سنة ولذلك لا يوجد مبرر للقول بأن حملة مشاعل المأثورات الشعبية يعيشون بمعزل بعضهم عن بعض . أو أن الاتصال بين المأثورات الشعبية المختلفة لا يتم إلا بوساطة مأثورات الصفوة .

ومن الأدلة الهامة على الاتصال بين المأثورات الشعبية في الأقاليم المختلفة دون تدخل مأثورات الصفوة اشتراكها في كثير من العبارات البذيئة الشائعة في آدابها الشفهية . ذلك أن شطرا كبيراً من الأدب الشعبى الشفهى يتضمن كثيراً من الكلمات والعبارات البذيئة برغم تمجيد الرومانسيين لعامة الشعب . وتستخدم البذاءات غالبا بقصد التسلية أو المزاح . ولكنها في بعض الأحيان تكون جزءاً من الاحتفالات التى تقام في المناسبات المختلفة مثال ذلك أنه بينما يحضر أهل العريس وليمة العرس في بيت العروسين على النساء اللاتى ينتمين الى العروس أن يقمن بأداء الأغانى المعروفة باسم « جارى » (أغانى بذيئة) . فيصورن أهل العريس تصويراً هزليا في مواقف فاحشة لا يتصورها العقل . وتدل الدراسات المقارنة للعناصر البذيئة في الأدب الشعبى بالأقاليم التى تفصلها ألوف الأميال على وجود قدر كبير من الاشتراك في هذه العناصر . فليست الرموز والصور الخيالية هى فحسب . بل هناك كلمات أخرى

(وحتى المقاطع التى لا معنى لها في الأغانى) موجودة بعينها في مناطق مختلفة تفصلها ألوف الأميال . ويمكن أن تعزى بعض العناصر المشتركة إلى النوازع النفسية البشرية المتشابهة . ولكن كثيراً منها كالغناء الجوقى (الذى تقوم به جوقة من المغنين) في الأغانى الفاحشة التى تنشد في احتفالات خاصة هى نتيجة الاقتباس المتبادل بلا شك . ولا يتصور العقل أن يكون اقتباس مثل هذه العناصر البذيئة الفاحشة قد تم عن طريق مأثورات الصفوة . ذلك أن المأثورات الصفوية لا يمكن أن تقبل مثل هده الكلمات والأوصاف البذيئة . ولذلك فان مسألة انتقالها الى المأثورات الشعبية في الأقاليم المختلفة غير واردة . ومما تقدم يتضح أن ما ذهب إليه (ماريوت) من أن الاقتباس بين مأثورات الأميين لابد أن يتم عن طريق الصفوة يجافى الصواب . وجدير بالذكر أنه لا يلزم أن تكون العناصر البذيئة ضعيفة المستوى حتما من الناحية الفنية ذلك أننا إذا نحينا البذاءة جانبا ألفينا أن هذه العناصر فيها من الخيال والذكاء وقوة التأثير ما في أى قطعة أخرى من الأدب وإذا كان الأميون قد استطاعوا تأليف هذه القطع - وهو أمر لا شك فيه - وجب أن تكون لديهم القدرة على تأليف أنواع أخرى من الادب .

هذا والأميون يقبضون على ناحية اللغة بطريقة تدعو إلى العجب . فهم يعبرون عن ضميرهم بأجمل العبارات . ويصلون بكلامهم إلى أعماق القلوب . وهذا على عكس مـا وصفت به مرجريت ميد اللغة الأمريكية . حيث قالت : « اللغة الأمريكية لغة عامة ذات بعد واحد . أنها لغة تهدف الى وصف مظاهر السلوك الخارجية . لغة ضعيفة في النغمات التوافقية .. تفتقر كلماتها الى الدقة الناشئة عن معرفة الاستعمالات اللغوية المختلفة في الماضى » . ومن ناحية اخرى فإن الأميين - وبخاصة النساء - يستخدمون اللغة على نحو ذى أثر فعال . فالنساء يعرفن أمثالاً وعبارات اصطلاحية تصيب المحز . عندما يتهكمن من طرف خفى على من بدرت منه أدنى هفوة أو زلة . حتى ليكاد يذوب من الخجل . ومن بواعث الضحك أن يشاهد المرء الصواريخ النارية التى يطلقها النساء - ولاسيما العجائز منهن - في معترك الشجار - ويخيل الى المرء - وهناك ما يؤيد ذلك في الأغانى الشعبية - أن النساء يتخذن من الشجار ضربا من اللهو . وانهن يتطلعن إليه . ويلاحظ أيضا أن لغة العامة سلاح قوى في استنكار السلوك المنحرف عن الجادة المستقيمة . ومن هنا كانت وسيلة فعالة من وسائل الرقابة الاجتماعية .

هذا واتصال الثقافة الجمالية عند عامة الشعب بنواحي الحياة الأخرى لا يقتصرعلى اللغة والأدب فقط . فالأشياء الجملية جزء من حياتهم اليومية . سواء كانت أوعية منزلية أو أوانى خزفية لتخزين الماء أو الحبوب ؛ وهم لا يفرقون بين منفعة الأشياء وجمالها . فالخزاف أو الاسكاف والنساج التقلدى يصنع أشياء نافعة ولكنها جميله في الوقت نفسه وكما أنه لا يوجد شعراء محترفون أو رجال أدب كذلك لا يوجد فنانون بمعزل عن الحرفيين والصناع . ولقد قيل بحق « إن الفنان في المجتمع الشعبى ليس طرازاً خاصا من الرجال . ولكن كل رجل في هذا المجتمع هو طراز خاص من الفنانين » . ولذلك لا تنفصل الثقافة عن الحياة .

وإلى جانب الثراء الجمالى العجيب في حياة الأميين يوجد من الأدلة الكافية ما يثبت حسن مستواهم في الملكات النقدية والعقلية . وهناك فكرة واسعة الانتشار يؤيدها الرمانسيون الذين يمتدحون

عامة الشعب ، وهى أن الشعب يسلم بالمعايير والنظم القائمة دون أدنى مناقشة أو معارضة ، وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة . ذلك أن النظام الأبوى في الأسرة ونظام الطبقات هما أهم النظم في الكيان الاجتماعى التقليدى في الهند . وقد ساد هذان النظامان خلال الألفى سنة الأخيرة أو أكثر . ومع ذلك فإن مساوىء ومتناقضات هذين النظامين الأصليين لم تنج من مهاجمة العامة . ومعروف أن خضوع المرأة لسلطان الرجل أمر طبيعى في النظام الأبوى للأسرة . ومع ذلك فإن المرأة في الأدب الشعبى تعلن النكير على المظالم ومظاهر التفرقة التى ترتكب ضدها . ومن المألوف إيثار البنين على البنات في المعاملة . ولكننا نجد في أغنية شعبية أن فتاة تزوجت حديثا تعاتب أمها عند مغادرتها لمنزل أبيها لأنها أساءت معاملتها دون أخيها . تقول الفتاة في هذه الأغنية لأمها :

كنتِ تقدمين طعام الإفطار لأخى بثغر باسم
وتقدمينه لى بوجه متجهم
والآن في وسعك أن توفرى ما تنفقين من مال على إفطارى
وتشترى به بقرة

كما نجد أيضا استنكاراً شديد اللهجة من الزوجة على المعاملة السيئة التى تلقاها من زوجها . مثال ذلك أن احتجاج سيتا (زوجة راما الذى يعتقد الهنود أن الله تجسد فيه) على نفيها الى الغابة برغم براءتها هو في الروايات الشعبية لهذه القصة الأسطورية أشد لهجة مما ورد في أى رواية « أدبية » لهذه القصة . وفي واحدة من هذه الروايات تنجب سيتا توأمين في منفاها . فتطلب الى الرسول أن يبلغ الخبر لكل إنسان ما عدا زوجها . ولما عرف راما الخبر رغب في عودتها . فقالت بحدة : « كيف أنظر الى وجه هذا الرجل القاسى » . وهذا ليس سوى مثل واحد لا ستنكار المرأة الأمية للظلم . بل إنها تحتج على تفرقة الطبيعة بينها وبين الرجل . ففى إحدى الأغانى تقول امرأة لزوجها وهى تعانى آلام المخاض : « لقد عقدنا هذه العقدة معاً (تعنى الحمل) ولكن أنا وحدى أتحمل عبء فكها (تعنى الوضع) .

والمعروف أن نظام الطبقات في الهند يقسم المجتمع كله الى طوائف محددة المعالم منذ مولدها . لا يجوز التزاوج الا في نطاقها . وهذا النظام يفرض أوضاعا جامدة متدرجة تقبلها جميع الطوائف كأنها حكم الهى لا مرد له . وكل انتهاك لهذه الأوضاع إثم كبير . ومع ذلك ففى الأدب الشعبى من الشواهد ما يثبت أن العامة ـ وبخاصة الطبقات الدنيا غير المتعلمة ـ لا يخفى عليهم ماتتصف به الطبقات العليا من ذميم الخصال . وحب المصلحة الشخصية . والمماحكة في الحق . والمسلم به عامة أن طبقة البراهمة هى أعلى طبقة في السلم الاجتماعى . ومع ذلك فان الأمثال والحكايات الشعبية تصور البراهما على أنه شخص جشع ذو ولع شديد بما لذ وطاب في الولائم الطقوسية . وأنه لا يأبه للنفقات التى يتحتم على أتباعه أن يتحملوها في الاحتفالات الدينية . ويتهمونه أيضا بالتلاعب في الأحكام الدينية لمصلحة الشخصية . كما يتضح من أحدى القصص الطريفة الشائعة في القرى . وخلاصتها : أن بعض الفتيان من أبناء القرية قتلوا ثعلبا . فسأل أبوهم البراهما : هل في هذا القتل إثم ؟ فأجاب : « فيه إثم كبير » . ولكن عندما أخبروه أن ابنه سنتوش من بين الشبان الذين قتلوا الثعلب رجع في قراره وأنشد :

إذا قتـــل الثعلـــــب خمســــة
أو ســــبعةُ مـــن الفتيــــان
وكـــان ســــنتوش مـــن بينهــم
فـــلا إثــــم عــلى الشـــــبان

وهذان البيتان اللذان تختتم بهما القصة يضربان أيضا مثلا لاستهجان أى محاولة للتلاعب بالقانون تحقيقا لمصلحة شخصية وكذلك تبرز الأمثال والقصص تلك الخصال الذميمة التى تتصف بها طبقة الراجبوتيين والشاكوريين من المحاربين وملاك الأراضى وتقول إن رؤوسهم كرؤوس الخنازير . كناية عما يتصفون به من بلادة الفهم وصلادة الذهن والعجز عن فهم الدقائق والغوص على الحقائق . ونصف طبقة التجار المعروفة باسم « بانيا » بأنها طبقة طبعت على البخل والشح بصورة تدعو للسخرية . وأن منهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك الا ما دمت عليه قائما . ويقولون في ذلك « ان أقوام : مانجو . ولايم . وبانيا . لا يعطون العصير الا اذا ضغطت عليهم » . وكذلك ينحون باللائمة على طبقة الكتاب والموظفين المعروفة باسم « كياثا » لما يتصفون به من المماحكة . وقبول الرشوة . وإيذاء الأبرياء . ومما تقدم يتضح أنه لا يصح القول بأن الأميين يقبلون الأوضاع الاجتماعية التقليدية دون مناقشة أو نقد .

وحتى الطقوس والمعتقدات الدينية لا تسلم من الشك والارتياب . يقول أحد الأمثال القروية بصراحة : « ضربة برأس النبوت (العصا الغليظة) أقوى تأثيرا من تلاوة مائة عزيمة سحرية » ويقول مثل آخر : « الباندیت (الكاهن المنجم) يبشر غيره بطالع اليمن . وهو نفسه في هم ناصب من طالع النحس » . وعندما يحاول أحد الشركاء في بعض المشروعات أن يبالغ في اظهار شطارته يقولون له : « انك تضع يدك على جحر الثعبان . سأتلو لك عزيمة سحرية » . يعنون بذلك أن الضرر المادى محقق أكثر من العلاج السحرى أو الدينى .

هذا والأمثال جزء من الذخيرة التى لا غنى عنها في حياة الفلاح الامى وهى كثيرة الدوران في كلامه اليومى . وبها يقدر المواقف الدقيقة ويجد الوسيلة لمعالجتها . وتتسم هذه الأمثال بالحكمة الدنيوية والغض من قدر الرومانسية . ويتسم بعضها بالنزعة العملية . بل يجنح أحيانا الى السخرية . مثال ذلك أنه على الرغم من أن التعاون وتبادل المساعدة يعد من أهم الفضائل في حياة مجتمع القرية . فهناك أمثال عديدة تحذر من استغلال الأبلة باسم هذه المثل العليا . ومن هذه الأمثال قولهم : « عندما جاء الأبله بجاموسة خرج أهل القرية بأوعيتهم ليحلبوها »

ويقول مثل آخر : « الابرة المستعارة من أبلة تستعمل أسوأ استعمال » .

ويقول مثل آخر : « قشرة الجوزة يمكن أن تقطع الموزة » . وقد يتسم . بعض الأمثال بالطابع العملى إلى حد يتنافى مع الأخلاق . من ذلك قولهم : « ماضاع مال دفعته رشوة . وما ضاعت حبة غرستها بذرة » . ومنها مثل يقدم هذه النصيحة : « نم بعد أن تأكل . واهرب بعد أن تضرب » وهم يسخرون

من الرومانسية في عديد من الأمثال السائدة . فإذا بالغ إنسان في مدح ما مضى من الزمان وما فقد من الأشياء قالوا له على سبيل التهكم : « الولد الذى مات كانت له عيون نجل » . واذا كان مظهر الشيء جذابا فإن مثلا يحذرنا من الانخداع بظواهر الأمور فيقول : « الجرة لا تلمع إلا من الخارج » . يعنون بذلك أن نظرة فاحصة قد تكشف عن عيوب خفية فيها . وعلى الرغم من أن الفلاحين يعتقدون أنهم توارثوا مركزهم الاجتماعي عن أجدادهم فإن أمثالا كثيرة تسخر ممن يفخر بأن مالدية من مزايا حميدة انما يعزى الى أجداده . يقول أحد هذه الأمثال : « كان جدى يحب أكل السمن . ولذلك ترى يدى ذكية الرائحة » . والفلاح من الذكاء بحيث يدرك أن القضية الواحدة يمكن أن تختلف فيها وجهات النظر . ولذلك الشخص الواحد يستخدم عدداً من الأمثال المختلفة ليبرز الجوانب المختلفة ـ والمتعارضة أحياناً ـ للمشكلة الواحدة . ومن المشاهد أنه الى جانب الصيغ أو العبارت التى تتضمن نصحية عملية موجزة في أمور خاصة كالعمليات الزراعية أو اختيار الماشية توجد صيغ أو عبارات أخرى تعرض الجانب المضاد للاقتراحات الخاصة بهذه الأمور .

ومن المشاهد أن الثقافة الشعبية هى الآن يافعة الثمار في بلاد كالهند . وتدل مرونة المأثورات الشعبية واستمدادها لعناصر جديدة على أنها لا تنمو فقط بل تستمر في نموها . وهى لا تقتصر على ذكر الأحداث والأشياء المعاصرة بل تتضمن صوراً مستمدة من الاختراعات الحديثة . وقد ذهب بعض علماء الأدب الشعبى الغربيين الى أن الصور المستمدة من قطار السكة الحديدية تنزع الى التكلف . وهذا قد يصدق على بلاد الغرب حيث لم يبق من الأدب الشعبى الا رواسب من الماضى . ولكن في بلاد كالهند نجد كثيراً من الأغانى الشعبية الحقيقية تستمد صوراً جميلة جديدة من بعض الاختراعات العصرية كقطار السكة الحديدية . ونقرأ في أحدى الأغانى الشعبية الشهيرة أن إحدى النساء تصف القطار بأنه ضرتها . لأنه ينقل زوجها إلى بلد بعيد . وهناك أشكال أخرى من الأدب الشعبى أيضا تدل على استجابته للقوى الحديثة على اختلاف أنواعها

ويبدو أن تفاعل التيارات القوية للثقافة الشعبية في البلاد النامية مع القوى الحديثة التى ظهرت في الشطر الأخير من القرن العشرين يفتح آفاقا لنمو الحضارة في اتجاهات جديدة . وقد طرأ تغيير هائل على القوى التكنولوجية والاقتصادية والأيديولوجية منذ بداية عهد التصنيع والتحديث ولذلك فان نتائج تأثير هذه القوى على المجتمع الزراعى والثقافة الشعبية لن يكون مدمرا كما حدث في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ففى هذين القرنين كان الفحم هو المصدر الرئيسى للطاقة . ولذلك تركزت الصناعات حول مناجم الفحم . لأن نقله بكميات كبيرة يتطلب نفقات باهظة . وكان من المحتم أن تؤدى الصناعة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الى تقويض الحياة المستقرة في المجتمعات القروية . أما اليوم فإن مصادر الطاقة الجديدة كالكهرباء يمكن نقلها بسهولة إلى القرى . وبتطور التكنولوجيا في بعض المجالات كالألكترونيات قل حجم الآلات كثيراً بحيث أصبح الآن من الممكن توزيع الصناعات ونقل بعضها الى القرى . وبذلك يمكن أن يظهر نوع جديد من الاتصال والتكامل بين التكنولوجيا الحديثة والأسلوب الشعبى في الحياة .

ثم ان القوى الاقتصادية والآيديولوجية قد سارت شوطا بعيدا منذ بداية التصنيع . ففى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وصلت الأفكار الجديدة الداعية للنزعة الفردية والمنافسة إلى ذروة نفوذها ، وصار الناس ينظرون بعين الاحتقار الى القيم الشعبية المرتكزة على الحياة الجماعية والأمن والقناعة . ويسعون لمحوها . أما اليوم فقد وهنت تلك الأفكار الجديدة . فأصبح من الضرورى الحد من النزعة الفردية . وظهرت حركات ايديولوجية عديدة تؤكد قيمة التعاون والأمن . كما ظهر حافز جديد للجمع بين الجمال والمنفعة . وربط العمل بالحياة . وأصبح المناخ الفكرى كله غير معاد للأسلوب الشعبى في الحياة كما كان الحال في بداية عهد التصنيع . وحيال هذه الظروف المادية والايديولوجية المتغيرة لم يصبح من المستحيل أن تجد الثقافة الشعبية آفاقا للنمو على أسس جديدة . ولا ريب أن الثقافة الشعبية لا يمكن أن تبقى في صورتها القديمة . ولكن لا يمكن إغفال الفرص المتاحة لها لتعيش في وفاق مع القوى الحديثة في النصف الأخير من القرن العشرين . فاذا تحقق هذا الاحتمال أمكن أن تقوم الثقافة الشعبية بعض الجوانب المعوجة في الحضارة الحديثة .

●●●



●● المقال في كلمات

حركة اقتصادية جديدة ، روادها أساتذة في بعض جامعات الولايات المتحدة ، بدأت من جامعة شيكاجو منذ حوالى خمس عشرة سنة ، وسماها البعض لذلك « مدرسة شيكاجو » ، كما سماها البعض أيضا « الحركة الليبرالية الأمريكية الجديدة » . بدأت الحركة كتوسيع وتعميق في نظريات الاقتصاد الجزئى الكلاسية الجديدة ، وفي مجال التحليل الاقتصادى ، والاقتصاد القياسى وتطبيقهما على دراسة الظواهر السياسية والقانونية والحركة محاولة للتجديد العلمى في تحليل الأحداث الاقتصادية والسياسية والاجتماعية عن طريق أربع قنوات : التيار النقدى ، ونظرية رأس المال البشرى ، وحركة حقوق الملكية ومدرسة الاختيار العام .

وجارى بيكر أهم رواد نظرية رأس المال البشرى ، عمل على توسيع

الكاتب : هنرى لوباج

ولد عام ١٩٤١ . حاصل على دبلوم معهد الدراسات السياسية بباريس (قسم المالية العامة) عام ١٩٦٢ . أجرى دراسات بجامعة كولورادو . ومدرسة الاقتصاد بلندن . رئيس التحرير المساعد بصحيفة « انتربريز » (١٩٦٧ ـ ١٩٧٥) . رئيس تحرير مجلة « ريفيو » (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) . ويضطلع بمهمة بمعهد المشروع منذ شهر سبتمبر ١٩٧٥ . له كتابان يطبعان الآن : الإدارة الذاتية . والرأسمالية (ماسون) . و « رأسمالية الغد » (هاشيت) .

المترجم : أحمد رضا

مدير بالادارة العامة للشؤون القانونية بوزارة القومية والتعليم (سابقا) . ليسانس الحقوق من جامعة باريس . دبلوم القانون العام من جامعة القاهرة . صدر له حوالى عشرين مؤلفا مترجما في القانون والقصة والمسرح والباليه

تطبيق المعالجة الاقتصادية ليشمل العلاقات والأنشطة الاجتماعية غير التجارية وعالج نظرية الأسرة ، ونظرية المستهلك الجديدة .

أما حركة حقوق الملكية فترتبط برونالد كواس وجامعة ولاية فرجينيا .

وأما مدرسة الأختيار العام فيتزعمها جيمس بوكانان ، وجوردون تلوك ، وهى ثورة فكرية تتعلق بتحليل مشاكل « الاقتصاد العام » وتهتم بالبحث في العلاقات القائمة بين التنظيمات السياسية والاقتصاد الأمثل . ويرتبط الأختيار العام بالبحث الاقتصادى وعلم السياسة وعلم الاجتماع والفلسفة .

ويعتبر ظهور « الحركة الليبرالية الأمريكية الجديدة » حدثا من أعظم

الأحداث الفكرية في العقد الثامن ، فهى على مستوى العلمى تجديد لنظرية الاقتصاد الجزئى الكلاسية الجديدة ، وتوسيع في مفاهيم هذه النظرية يؤدى الى تفجير الحدود القائمة بين مختلف العلوم الاجتماعية . وهى على المستوى الأيديولوجى تضفى بعدا جديدا على الأيديولوجية الليبرالية . وعلى المستوى السياسى تعتبر أن أخطر الآفات الاجتماعية في العصر الحاضر ، وليست مرتبطة برأسمالية متطرفة ، وإنما ترتبط بقصور في النظام الرأسمالى .

ونتيجة لهذه الحركة ظهر على مسرح السياسة الأمريكية حركة أيديولوجية جديدة تسمى حركة « التحرر » تكفل تصالحا بين مذهب تحررى مطلق « فوضوى » وبين محاولة قوية لتشكيل مجتمع رأسمالى قائم على حرية اقتصادية كاملة .

ومن المتوقع أن يظهر مذهب حر جديد يعمل على اكتشاف نظرية عامة للرأسمالية .

في موازاة « اليسار الجديد » . ذى التأثير القوى على الرأى العام الفرنسى . ينمو في الولايات المتحدة منذ قرابة خمسة عشر عاما حركة جامعية جديدة تحمل ثورة فكرية وعلمية لابد أن يكون لها أهمية بالنسبة لمستقبل مجتمعاتنا الغربية في مجالات الاقتصاد والسياسة . حركة تعادل في حجمها ما كان يمثله في ربع القرن الماضى « ثورة كينز » في العقد الرابع (١)

هذه « الحركة » التى بدأت كتوسيع وتعميق في نظريات الاقتصاد الجزئى الكلاسية الجديدة لا اسم لها . ولم يفرد لها مؤلف شامل . حتى ولو كان أمريكيا ، وسوف نستعمل للدلالة عليها عبارة « الحركة الليبرالية الأمريكية الجديدة » . غير أن لنا مع ذلك أن نطلق عليها أيضا مصطلح « مدرسة شيكاجو » بسبب التأثير الذى يمارسه أو قد مارسه الاقتصاديون والباحثون في جامعة شيكاجو . وترجع أصول هذه الحركة الى العقد السادس حيث ظهرت مجموعة من الأعمال الرائدة التى أسهمت في توسيع مجال تطبيق تقنيات التحليل الاقتصادى . والاقتصادى القياسى : تفسير ظواهر التفرقة (بحث جارى بيكر » الذى كتب عام ١٩٥٥ ونشر عام ١٩٥٧) . تطبيق التحليل الاقتصادى على دراسة الظواهر السياسية (« نظرية في الديمقراطية » تأليف أنطونى داونز . نشر عام ١٩٥٧) . استخدام الاقتصاد في تحليل الظواهر القانونية وتطور القانون (اصدار رونالد كواس « صحيفة القانون والاقتصاد » في عام ١٩٥٨) . الخ . وتتبدى هذه الحركة الليبرالية الأمريكية الجديدة اليوم بنوع رئيسى في شكل محاولة للتجديد العلمى في تحليل الأحداث الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى ينتشر تأثيرها عن طريق أربع قنوات كبيرة :

(١) هذا المقال مأخوذ من كتاب « رأسمالية الغد » الذى يطبع الآن في دار النشر هاشيت ، مجموعة « بلودييل » لكتب الجيب .

- التيار « النقدى »
- نظرية « رأس المال البشرى »
- حركة « حقوق الملكية »
- مدرسة « الأختيارالعام » ·

ولما كانت أفكار المدرسة النقدية معروفة نسبيا فسوف نقتصر على تقديم التيارات الثلاثة الأخرى دون أن يغيب عنا وجود روابط وثيقة بينها وبين النظريات النقدية ·

نظرية رأس المال البشرى :

نشأت نظرية رأس المال البشرى في مستهل العقد السابع · وأننا لنجد بدايات تبشر بها في أعمال سابقة . وبخاصة في رسالة الدكتوراه لميلتون فرايدمان (١٩٤٥) التى تبحث في « دخول المهن الحرة » · غير انه لم تظهر أولى الاشارات الصريحة الى نظرية رأس المال البشرى الحديثة إلا في عام ١٩٦٢ · في صحيفة الاقتصاد السياسى »

ونظرية رأس المال البشرى هذه هى نهاية المطاف لمجموعة من الأعمال التى قام بها في العقد السادس باحثون في مصلحة الاقتصاد بشيكاجو . وبجامعة كولومبيا في موضوعات من قبيل : تحليل « الطب » في التعليم . ونشاط سوق العمل . وتفسير تطور معدل نشاط السكان الاناث . وأسباب اختلاف الأجور . الخ ·

وفي ذلك الحين كانت طرافة هذه الأعمال تقوم على فكرة أن بعض المسائل مثل التعليم والصحة لا يجوز أن تعتبر مجرد أشياء استهلاكية من قبيل شراء فرشاة أسنان أو سيارة . وإنما هى أعمال اقتصادية تستلزم من جانب الأسر والأفراد حسابا استثماريا · كتب مارك بلوج البريطانى (١) : « أساس نظرية رأس المال البشرى اننا نعتبر أن الناس لا يقصرون نشاطهم الاقتصادى على الموازنة بين مختلف المنتجات التجارية التى يعرضها عليهم السوق . وانما هم يمارسون في الوقت نفسه مجموعة من الموازنات بين الاستهلاكات المباشرة وبين اشباع الحاجات المستقبلة . المالية وغير المالية · ويعتبر التعليم والنفقات الصحية . والتأهيل المهنى . من هذه الوجهة بمثابة استثمارات مماثلة لاستثمارات المشروع المادية التى يقوم بها الأفراد أنفسهم . أو تقوم بها جماعة باسمهم » ·

بناء على ذلك نجد فكرة « الدورة الحيوية » الأثيرة لدى أصحاب النظريات النقدية . ولكن مع فرق دقيق : ذلك أن موازنة الأسر لا تقتصر على الاختيار بين الاستهلاك وبين الأدخار ولكنها تتضمن

---

(١) صحيفة الأدب الاقتصادى ، ١٩٧٦ ·

معطيات غير نقدية (تحسين آفاق المهنة ، آمال التحرك الاجتماعي ، على سبيل المثال) ، وكذلك معطيات نقدية بحته (الدخول المأمولة) ۰ ونتفذ من ذلك الى عنصرين أساسيين هما ،

ـ من جهة ، يؤدى ذلك بالاقتصاد الى معالجة موضوعات كانت من الناحية التقليدية خارج نطاق التحليل الاقتصادى متروكة لعلماء الاجتماع وعلماء النفس واخصائيي السياسة . مثال ذلك تفسير تطور بعض الحاجات التى كانت حتى الوقت الحاضر معتبرة ظواهر خارجية المنشأ . ولكن يمكن من الآن أخذها في الاعتبار بادخال البعد الزمنى « لدورة الحياة » في الأسر (مثال ذلك ، كلما تقدم العمر بالانسان قلت الأسباب التى تدعوه الى « الاستثمار » للمستقبل وخصص مزيدا من الموارد للاستهلاك البحت . الأمر الذى يتيح تفسير بعض الانتقالات الظاهرية للأفضليات) ۰

ـ من جهة أخرى أصبح عالم الاقتصاد من الآن قادرا على أن ينسب تفسير بعض « التفاديات » الاجتماعية الظاهرية الى مجموعة من العوامل والاختيارات الفردية (قارن على سبيل المثال كل الأعمال الحديثة بشأن توزيع الدخول ، وهو مجال لم يكن لرجال الاقتصاد حتى ذلك الحين شيء هام ومقنع يقولونه بشأنه . وأيضا التفسيرات الجديدة بشأن البطالة « الاختيارية » التى نجدها في النظريات « النقدية » بخصوص التوظف والتضخم)

ويقترن مجال « رأس المال البشرى » في الوقت الحاضر بأسماء مثل تيودور شولتز (٧٥ سنة) ، وجاكوب منسر (٥٥ سنة من جامعة كولومبيا) ، ويورام بن بوارت (هارفارد) ، وجلين كين (٤٤ سنة ، جامعة ونكونسن) ، وفينس ولسن (جامعة كاليفورنيا ، ٣٩ سنة) ، وروبن جرونو (جامعة القدس) ، وروبرت ميخائيل (٣٥ سنة ، المكتب القومى للبحث الاقتصادى) ، وزفي جريليش (٤٧ سنة ، هارفارد) ، وغيرهم ۰

وبعد هذا فإن أهم هؤلاء هو بلا نزاع جارى بيكر المولود في عام ١٩٣٠ ، ويعمل الآن استاذا لشيكاجو بعد أن قضى عدة سنوات في كولومبيا ۰ والواقع أن جارى بيكر هو أنبغ علماء الاقتصاد من الجيل الذى تقل أعمار ابنائه عن خمسين سنة ۰ ويرى الكثيرون بالفعل أنه نظير لأعظم الأسماء في تاريخ علم الاقتصاد ۰

وجارى بيكر مؤلف غزير الانتاج (من أعماله الأساسية ، « رأس المال البشرى » في ١٩٦٤ ، و « النظرية الاقتصادية » التى نشرت في عام ١٩٧١) ، وهو أكبر من يسهم في الوقت الحاضر في فتح مجال التحليل الاقتصادى على آفاق جديدة ، وهو بذلك الحافز الأكيد لثلاثة من أهم التطورات التى ثبتت من عشر سنوات في مجال النظرية الاقتصادية نظرية الأسرة ، وتوسيع تطبيق التحليل الاقتصادى ليشمل العلاقات والأنشطة الاجتماعية غير التجارية ، ونظرية المستهلك الجديدة ۰

نظرية الأسرة :

كانت الأسرة والأنشطة الأسرية تشكل ، اعتبارا بالتعليم ، والصحة ، وسلوك الأفراد من ناحية العمل ، منطقة امتداد طبيعى لمنهجية رأس المال البشرى ، تحليل الزواج باعتباره اختيارا اراديا عقلانيا ، وثمرة قرار يسمح للزوجين « باستيفاء » مجموع مطالبهما بالنسبة الى ما قد يكون عليه وضعهما لو بقى كل منهما عزبا ، تفسير تطور معدلات الخصوبة بتحليل العوامل الاقتصادية التى تحكم القرارات الأسرية بشأن اختيار انجاب الطفل ، الخ · وتتجلى أهمية هذه الأبحاث بنوع خاص في ادخال الظواهر السكانية في داخل العمليات الاقتصادية وتطورها الديناميكى (ويؤدى ذلك الى نظرية عامة جديدة بشأن السكان تتيح اقامة صلات بين الظواهر السكانية وتطور المعطيات الاقتصادية العامة الكبرى) وذلك في اطار طريقة تتيح بوساطة الاقتصاد القياسى (المترى) اعادة ادخال عناصر كمية (ومن ثم فهى عناصر تكهنية) في المجالات غير القابلة للتقدير الكمى ، مثال ذلك أن يؤخذ في الاعتبار الحب والايثار والاحسان والتقوى الخ ·

اقتصاد العلاقات غير التجارية

يؤدى ما سبق ذكره الى تعميم المعالجة الاقتصادية بحيث تشمل مجموع الأنشطة والعلاقات الاجتماعية تجارية كانت أو غير تجارية (مثال ذلك ، الاحسان ، أو الأنشطة السياسية) · وقد شرح جارى بيكر ذلك في ندوة عقدت حديثا في باريس في شهر سبتمبر ١٩٧٧ قال ، « يدخل علم الاقتصاد في مرحلة ثالثة · ففى المرحلة الأولى كان الاقتصاد يعتبر محدودا بدراسة أساليب انتاج الأموال المادية وحدها واستهلاكها ، لا يتجاوزها الى غيرها (نظرية الأسواق التقليدية) · وفي مرحلة ثانية اتسع مجال النظرية الاقتصادية فشمل دراسة مجموع الظواهر التجارية ، أى تلك التى تعطى مجالا لعلاقات تبادل نقدى · واليوم يمتد مضمار التحليل الاقتصادى الى مجموع التصرفات البشرية والقرارات المقترنة بها · وليس ما يعرف الاقتصاد هو الصفة التجارية أو المادية للمشكلة المراد معالجتها ، وانما طبيعة هذه المشكلة ، فكل مسألة تطرح مشكلة متعلقة بتخصيص الموارد ، والأختيار في نطاق حالة من الندرة تتميز بالمواجهة بين الغايات المتضاربة تنتمى الى الاقتصاد ويمكن معالجتها بالتحليل الاقتصادى » · ومن ثم ظهر الجيل الجديد من الأعمال التى تستخدم المعالجة الاقتصادية ، وهى أعمال قد دهشت غير المتخصصين ، يستخدمها لتحليل مشاكل الاجرام (ايرلبش ، أوزن ، لاند) ، وأسباب الانتحار (هامرش ، وسوس ١٩٧٤) ، والتصرفات الايثارية والتفاعلات الاجتماعية (بيكر ١٩٧٤ ، وهير شلايفر ١٩٧٧) ، والمواقف الدينية (ازى ، وايهرنبرج ١٩٧٥) ، والطلاق ، الخ · كذلك ظهر التحليل الاقتصادى في مجالات غير متوقعة ، كتطور اللغة (مارشاك ١٩٦٥) والانتخاب الطبيعى لأنواع الحيوان (سميث ١٩٧٥) ، ومجال السلوك الآدمى (بيكر ١٩٧٦ ، تولوك ١٩٧٧) ، والتصرفات السياسية (انظر فيما بعد ، مدرسة الاختيار العام) ، والنظرية الاقتصادية للثورة (تولوك) ، وتطور أبنية المجتمع التنظيمية (أنظر نظرية حقوق الملكية) ·

نظرية المستهلك الجديدة

مهد لهذه النظرية الجديدة بشأن الاستهلاك الاسهامات العديدة التى قام بها جارى بيكر، وصاغتها حديثا أعمال كيرفن لانكاستر. الأسترالى الذى بلغ من العمر ثلاثا وخمسين سنة وتشكل بذاتها ثورة فكرية حقيقية غير معروفة الى الآن في اوربا. في حين أن لها مضامين سياسية غير عادية. هذه النظرية تملأ الفراغات في نظرية الطلب الكلاسية الجديدة. وهى تجديد يتيح أخيرا الرد على كل « خصوم الاقتصاديين » الذين يبنون نقدهم للمجتمع على تمييز مزعوم بين الحاجات « الحقيقية » و « الكاذبة » وفكرة أن المستهلك عبد المنتجين (عن طريق الاعلان). أو فكرة أن وفرة المنتجات الجديدة دليل على الطبيعة الانتحارية لمجتمعنا. مجتمع الاستهلاك وفضلا عن ذلك فان هذه النظرية تتيح أخيرا اقامة جسر بين التحليل الاقتصادى وممارسات الادارة أو التسويق من حيث انه يوفر تفسيرا صحيحا لظواهر اختفاء المنتجات الحالية. أو ظهور منتجات جديدة.

وبالاجمال فان مجموع هذه الأعمال الصادرة عن موضوع رأس المال البشرى يؤدى الى النتيجة الآتية: في نطاق التصرفات والقرارات الآدمية فإن نصيب اللامعقولية أقل بكثير مما يسود الاعتقاد عامة أو مما يقنعنا به العلماء في سائر العلوم الاجتماعية. من ذلك ما أوجزه جراى بيكر قائلا: « إن الحديث عن لا معقولية البشر ليس في أغلب الأحيان سوى حجة العلماء للتستر على عجزهم عن تفسير بعض الظواهر وان ما أصبح في وسع البحث الاقتصادى أن يزود به العلوم الانسانية هو بالأخص أداة تتيح نقص مجال الأمور المجهولة ».

وبهذا الصدد فإن البحث الاقتصادى لابد أن يكون أكثر فاعلية من سائر المعالجات التقليدية للعلوم الاجتماعية من حيث انه لا يعترف باللامعقولية (بالنسبة اليه. كل ماهو لا معقول ظاهريا ليس إلا نتيجة « نفقة » موضوعية لم ينجح المجرب في عزلها)، ويمنع الباحث من التوقف عند تفسيرات ليست صحيحة ».

حركة حقوق الملكية

يرتبط تاريخ نظرية حقوق الملكية أيضا ارتباطا وثيقا برجل واحد. وجامعة واحدة. أما الرجل فهو رونالد كواس وهو انجليزى منفرد بعض الشيء. في السابعة والستين من عمره. مؤسس « صحيفة القانون والاقتصاد » عام ١٩٥٨. وأما الجامعة فهى جامعة ولاية فرجينيا الكائنة في شارلوتسنيل. مسقط رأس توماس جيفرسن (المؤيد لمذهب « حرية الارادة » والمنافس لجورج وشنطن ابان وضع الدستور الأمريكى). ورولاند كواس في الوقت الحاضر أستاذ الاقتصاد بمدرسة الحقوق بجامعة شيكاجو. ولكنه درس عدة سنوات في شارلوتسنيل. (من ١٩٥٨ الى ١٩٦٤). ومن ثم كانت تسمية « مدرسة فرجينيا » التى كثيرا ما تستعمل الى اليوم لوصف الحركة الفكرية المرتبطة بنظرية حقوق الملكية. فى حين أن مركز

ثقل هذه الحركة قد انتقل الى منشآت جامعية أخرى كجامعة كاليفورنيا (حيث يقوم بالتدريس أرمن الشيان . وهارولد دمستز) . أو جامعة ولاية وشنطن في ستيل (مع دوجلاس نورث . وستيفن تشونج . وجون ماك جى) .

وترجع أصول نظرية حقوق الملكية الى عام ١٩٣٧ حين نشر رونالد كواس في مجلة « اكونوميكا » (وكان وقتها أستاذا بمدرسة لندن للاقتصاد) مقالا بعنوان « طبيعة الشركة » بقى شهورا الى الآن . غير أن النظرية لم تنطلق بالفعل إلا في العقد السابع وتقوم على أربع ركائز : فكرة « نفقة المعاملة » ونظرية « انتاج الحق » والتحليل المقارن لفاعلية المنظمات الاقتصادية وتطبيق البرهان الاقتصادى على اعادة اكتشاف التاريخ .

فكرة « نفقة المعاملة »

هى فكرة أساسية . استخدمها رونالد كواس لتفسير مصادر المشروع من جهة (مقاله في عام ١٩٣٧) وتفسير العلة الحقيقية لوجود الملكية من جهة أخرى (في مقال آخر بتاريخ ١٩٦٠) .

وتبدأ الفكرة من أساس كل فلسفة ليبرالية . وهى النظرية العامة للمبادلة والأسعار . وتقرر أن أحسن وضع اجتماعى ممكن هو الذى ينتج من عالم تتخذ فيه كل اقرارات المتعلقة بمشاكل تخصيص الموارد في نطاق من المبادلات الاختيارية والتعاقدية بين كل العملاء الاقتصاديين المعنيين . وهذا هو تعريف اقتصاد السوق .

غير أن السوق لا يمكن أن تحل المشاكل كلها . فهى جهاز باهظ التكاليف . فالتفاوض عمل يكلف من يتولاه بعض النفقات فعليه أن ينتقل من مكانه (الى « السوق » مثلا) . ويستعلم عن صفات وأثمان الأشياء التى يقدمها العارضون ويختبر المنتجات كل هذا يكلف جهدا ومعلومات . ووقتا .

وليس هناك أية مشكلة من ناحية بعض المنتجات الموصوفة بدقة . وذات النمط الموحد بطبيعتها (كالتفاح . والبرتقال .. الخ) فنفقات المبادلة التى يتحملها الطرفان طفيفة . ولكن كلما دخلنا في اقتصاد معقد زادت نفقات المعاملة وصارت السوق أداة أكثر « تكلفة » بالنسبة لسائر أشكال التنظيم الاجتماعى القائمة على الطلب (لا على المبادلة) . عند هذا يظهر « المشروع » : فالمشروع تنظيم يحل محل السوق ليؤدى بعض المعاملات التى تزداد نفقاتها بدرجة مفرطة لو استخدمت التبادل الصرف . وهو بالنسبة الى المجتمع مصدر « لوفورات » . وبذلك يسهم في تحسين رخاء مجموع الهيئة الاجتماعية بالنسبة الى ما تكون عليه لو حرمت من خدماته .

ونشير الى أن هذا البحث في فكرة المشروع ينفذ الى تعاليم واقعية للغاية . وهو بنوع خاص في

أساس نظرة جديدة لظواهر تركز تناقض معظم المبادىء التى تقوم عليها فى الآونة الحاضرة سياساتنا « المكافحة للتكتل » . وبهذا الصدد فإن من خصائص نظرية حقوق الملكية حمل مدارس القانون الأمريكية منذ بضع سنوات على استخدام عدد متزايد من رجال الاقتصاد المحترفين مثل ، بيل بروزن في شيكاجو . وشارل جونز في شارلوتزفيل وروجيه لوروى ميللر في ميامى ..

النظرية الاقتصادية للحق

التبادل عن طريق السوق هو عملية توزيع الموارد الأكثر فاعلية بالنسبة الى المجتمع . غير أنه ينبغى لكى تؤدى السوق مهمتها أن يتمتع الذين يتعاملون بها بحق ملكية معين . قاصر على أصحابه . ويمكن نقله بحرية مع الشيء الذى يتبادلونه

يؤدى بنا هذا مباشرة الى الطبيعة الاقتصادية للحق . فالاقتصاديون الذين ينتمون الى حركة حقوق الملكية يعتبرون أن الحق هو نشاط اجتماعى غايته الاسهام في زيادة الفائض الاقتصادى وذلك بتعريف القواعد التى تسهم في خفض مستوى نفقات المعاملة في داخل المجتمع . ولهذه القواعد طبيعة مزدوجة ، فهى اما تتعلق بتخصيص حقوق ملكية جديدة في مجالات كانت حدود الملكية فيها حتى ذلك الحين غير كافية (بتسهيل المبادلات . يؤدى تخصيص حقوق ملكية جديدة الى استخلاص موارد بشرية واجتماعية يمكن استخدامها في أنشطة أخرى يكون عائدها بالنسبة الى المجتمع أكثر ارتفاعا) ، واما تستهدف تسهيل علاقات المبادلة والتفاوض وذلك بأن توجب احترام عدد من القواعد المشتركة (بتنظيم الموازين والمكاييل في أسواق العصور الوسطى مثلا . أو كل ما يتعلق بالقانون التجارى وقانون الشركات ، وتأثير هذا القانون الأخير خصص نفقات تأسيس وتشغيل الأنشطة التجارية والصناعية بالنسبة الى ما قد يكون عليه أمرها لو لم يكن هناك أية قاعدة) .

وعلى هذا يمكن تحليل ظهور القانون (أى ظهور « دولة ») بأنه « انتاج » تنظيم مهمته تمكين المواطنين من اقتصاد الموارد التى قد يخصصونها في حالة الفوضى (أى لو لم تكن هناك قوانين) إما للاتصال بين بعضهم وبعض أو للصراع بين بعضهم وبعض من أجل الاستحواذ على الموارد النادرة .

هذا الحديث الذى يبدو نظريا للغاية ينصرف ايضا الى نتائج عملية شديدة الأهمية . وبخاصة الى تلك الفكرة الأساسية التى تقول ان مشاكل التلوث أو التكدس في عصرنا الحاضر ليست مرتبطة بمنطق نظامنا الرأسمالى . وانما بعدم كفاية حقوق الملكية المتعلقة باستخدام بعض الموارد الطبيعية التى أصبحت نادرة . ومن ثم فان حل هذه المشاكل يتم عن طريق إنشاء حقوق ملكية جديدة (إنشاء يعتمد على التقدم التكنولوجى والتنظيمى الذى يتيح تفريد الحقوق التى يصعب تفريدها في الوقت الحاضر) .

من أهم نتائج هذه المعالجة الجديدة لحقوق الملكية الوصول الى تجديد في التحليل التاريخي عن طريق استخدام النظرية الاقتصادية كيف ظهرت الملكية الفردية في أوربا بعد عصر الاقطاع ؟ كيف يمكن تفسير ظهور الدولة . الأمة الحديثة ؟ لم تطورت انجلترا في اتجاه نظام ملكي دستورى في حين غاصت فرنسا واسبانيا في نظام الحكم المطلق ؟ ما هي أصول النظام الرأسمالي ؟ على مثل هذه الأسئلة يحاول دوجلاس نورث الإجابة بتحليل اقتصادى في كتابه الذى ترجم في دار النشر فلاماريون ، « نشأة العالم الغربى » ·

ويدل هذا البحث الاقتصادى في التاريخ الحديث بنوع خاص على أن منشأ الثورة الصناعية لا نجده في حدث تكنولوجى بقدر ما نجده في التكون البطىء على مدى العصور . منذ عصر الاقطاع لمجموعة من النظم وحقوق الملكية التى تتيح الاستغلال بفاعلية متزايدة للحوافز الفردية لكفالة توجيه رؤوس الأموال والطاقات نحو الأنشطة الأكثر نفعا من الوجهة الاجتماعية ·

الدراسة المقارنة للمنظمات

المشروع كما رأينا هو نوع من البديل للسوق . يحل محلها حين لا يكون في وسعها أن تؤدى مهمتها بصورة فعالة · غير أنه لكى يكون لهذا البدل ما يبرره . يجب أن يعمل المشروع بفاعلية وأن تكون القرارات التى تتخذ فيه مستجابة على أحسن الوجوه لمصالح المجتمع وثمة ما يؤدى الى الاهتمام بالتشغيل « الداخلى » للمشروع . واستظهار جانب آخر من نظرية حقوق الملكية . ذلك هو دراسة تأثير مختلف مكونات حقوق الملكية على السلوك البشرى . دراسة تجلت في أعمال رجال مثل أفسى دومار ، واريك فوروموتن . وسفيتوزار بيجوفتش (وهما مهاجران يوغسلافيان . أخصائيان في الادارة الذاتية . وهما الآن أستاذان . الأول بجامعة تكساس . والثانى بجامعة أوهيو) .

هذه الأعمال مازالت غير معروفة بدرجة كافية في فرنسا . ومع ذلك فهى على درجة كبيرة من الأهمية وتقوم على تصنيف الهياكل التنظيمية تصنيفا يستخدم معيارا له درجة الرقابة الفعلية التى يمارسها مالك (أو ملاك) المشروع على قرارات المديرين (مشروع رأسمالى بمساهم واحد . أو مساهم يملك الأغلبية . مشروع « ادارى » برأس مال موزع . مشروع تعاونى أو لا يستهدف الربح . مشروع مدار ذاتيا . مشروع عام أو ملك الدولة الخ) · وتذكرنا هذه الأعمال بأن ما يهم المجتمع ليس الكيفية الشكلية التى ينسق بها داخل المشروع مختلف حقوق الملكية . وانما الكيفية التى تتيح بها هذه التكوينات الشكلية . أو لا تتيح . لعناصر خارج رأس المال في المشروع أن تتملك دون وجه حق جزءا كبيرا أو صغيرا . من الدخل المتبقى للشركة ·

وبهذه النظرة تنتهى نظرية حقوق الملكية الى إثبات أن المشروع الفردى هو المشروع الذى يضمن أكبر قدر من الفاعلية لأن أصحاب رأس المال فيه هم الذين لديهم أكبر حافز لتجنب كل تبديد في الربح لا مبرر له . وعلى العكس من ذلك فان الشركة العامة هى التى تتجمع فيها كل الفرص لكى تظهر من الوجهة الاجتماعية أقل فاعلية اذ ليس فيها أى مالك فردى لنتائج نشاطها .

هذه النظرية المقارنة للمنظمات تؤدى بنا بنوع خاص الى تحليل ظاهرة البنيان التقنى الذى يدل على أن سلطة المديرين مرتبطة ارتباطا مباشرا بوجود أو عدم وجود بورصة أوراق مالية نشيطة وفعالة (معنى هذا انه ليس « بتأميم » المشروعات تضعف السلطة الادارية. بل الأمر على عكس ذلك).كما تؤدى الى معالجة اقتصادية للشركة « المدارة ذاتيا » تدل على حدود الادارة الذاتية . وتؤدى أخيرا الى طرح مشكلة « اصلاح المشروع » في رؤيا تختلف كل الاختلاف عن الرؤيا العادية . وذلك باظهار العلاقات الموجودة بين السلطة والملكية والمسئولية بمزيد من الوضوح .

مدرسة الاختيار العام

آخر مكونات هذه الحركة « الليبرالية الجديدة » مدرسة الاختيار العام . وزعيماها استاذان بمعهد بوليتيكنيك فرجينيا . وهما من مؤسسى « مركز دراسات الاختيارات العامة » . جيمس بوكانان (٥٨ سنة) . وجوردون تلوك (٥٥ سنة) . رجلان وضعهما فكرهما الجرىء . وأصالة أعمالهما . وثراؤهما العلمى مثل جارى بيكر . في الصف الأول بين كبار علماء الاقتصاد المعاصرين .

بدأ جيمس بوكانان وجوردون تلوك عملهما المشترك في أواخر العقد السادس ــ وهما شديدا الارتباط بحركة حقوق الملكية ــ وذلك حين كانا مدرسين بجامعة فرجينيا . هذان المؤلفان من رواد ثورة فكرية حقيقية تتعلق بتحليل مشاكل « الاقتصاد العام » ثورة تتمثل في ضم مجالين من الدراسات . منفصلين تقليديا الى علم اقتصاد وعلم سياسة . ضمهما في معالجة نظرية واحدة . من جهة الدراسة (القاعدية) لأساليب الاختيار العام (أين وكيف ينفق مال الدولة) . ومن جهة أخرى دراسة (موضوعية أو « ايجابية ») لعمليات اصدار القرارات التى تحدد في مجتمعاتنا توزيع الأموال العامة .

بعبارة أخرى يهتم الأختيار العام بحساب التأثير الاقتصادى والمالى لضريبة مدنية . أو سياسية خاصة بالميزانية (المجال التقليدى « للميزانيات العامة ») بقدر أقل من اهتمامه بالأمور الآتية .

ــ البحث في العلاقات القائمة بين التنظيمات السياسية والأقتصاد الأمثل . في أى نطاق يساعد نظام سياسى أو انتخابى معين . أو لا يساعد الفاعلية الاجتماعية ؟

ـ تطوير نظرية اقتصادية تتعلق بالبيروقراطية ، ما هو سلوك البيروقراطى النموذجى ؟ ما هى آثار البيروقراطية على أساليب تخصيص موارد المجتمع وفاعلية استخدامها ؟

ـ التعمق في منطق تشغيل النظم السياسية ذات التمثيل البرلمانى .

ـ وأخيرا تعريف العوامل الاقتصادية التى تتيح استعراض التطور التاريخى لبعض التنظيمات السياسية ، الاستكشاف « المنطقى » لفكرتى الدولة والمشروعية الاجتماعية ونظرية « العقد الاجتماعى » الحديثة . ومحاولة تعريف مفهوم « العدالة » .

يوضح جيمس بوكانان في مقدمة يحاول فيها أن يعرف مجال أبحاث الحركة التى يعمل على احيائها . بأن : « الشىء الذى نريده هو أن يطبق على الدولة وعلى كل أجهزة الاقتصاد العام التقنيات التى كانت مستخدمة منذ أربعين سنة لاحصاء عيوب اقتصاد السوق ونقائصه . والاختيار العام ليس إلا محاولة لصياغة نظرية عامة للاقتصاد العام تتيح أن يجرى في مجال الاختيارات الجماعية ما كان يجرى منذ زمن بعيد على مستوى الاقتصاد الجزئى في الأسواق . والمقصود هو تكملة نظرية انتاج الأموال أو الخدمات التجارية وتبادلها بنظرية معادلة لها ومتوافقة معها بقدر المستطاع ، تتعلق بتشغيل الأسواق السياسية . وتشكل هذه النظرية محاولة « لاغلاق » النماذج الصورية للسلوك الاجتماعى التى نملكها في الوقت الحاضر ، ومن خصائصها انها تعامل اساليب اتخاذ القرار معادلة تختلف تبعا لما اذا كان الفرد يعمل في سوق اقتصادية او في سوق سياسية .

« والاختيار العام » بهذا التعريف حركة علمية ترجع أصولها مثل أصول « رأس المال البشرى » أو نظرية « حقوق الملكية » . الى المحاولات التى بذلت في العقد السادس لمد تطبيق المنهجية الاقتصادية الى مجال الاختيارات « غير التجارية » والاختيار العام بارتباطه بالبحث الاقتصادى (استعمال النماذج الاقتصادية القياسية) ، وعلم السياسة (دراسة مقاومة لنظم التصويت) ، وعلم الاجتماع (دراسة منطقيات السلوك) والتأمل الفلسفى (أبحاث بشأن الأسس المنطقية لفكرة « الحرية ») . يتجسد في تلك الانطلاقة الحديثة للنظرية الاقتصادية الى مجالات كانت الى الوقت الحاضر غريبة عليه .

واذ لم تزل أبحاث مدرسة « الأختيار العام » المعروفة قليلا في فرنسا (وأكثر من ذلك في انجلترا وألمانيا) قائمة على الاستخدام المنهاجى للمفهوم السابق ذكره الخاص « بنفقة الاستعلام » فانها تؤدى الى مجموعة من الأفكار الجديدة المتعلقة بأسباب نمو ظاهرة الدولة أو البيروقراطية في مجتمعاتنا الغربية . وبخاصة الى الفكرتين الجوهريتين الآتيتين :

١ ـ أولا فكرة أن متاعب مجتمعاتنا المعاصرة (التضخم ، البطالة ، الحساسية من ناحية التفاوتات والظلم ، تصاعد حركات المعارضة) تكشف عن افلاس مؤسساتنا السياسية أكثر مما تكشف عن افلاس اقتصاديات السوق . ذلك أن المؤسسات السياسية المصممة في القرن الماضى في اطار

تكنولوجيا سياسية تتفق هى ومعطيات بداية الثورة الصناعية ولم تتطور من ذلك الحين . قد أصيبت في الواقع باحتلال داخلي أساسي في توازنها (تركيز توزيع أرباح النشاط العام . تخفيف توزيع النفقات) . الشيء الذى يترتب عليه أن أصبحت مجتمعاتنا أسيرة لمنطق لا تستطيع معه الدولة إلا أن تنمو وتتطور لصالح فئة متميزة من المواطنين . الفئة البيروقراطية

٢ ـ بعد ذلك فكرة أن تحدى عصرنا ليس تحديا اقتصاديا (ايجاد وصفات خارقة جديدة تتيح حل المعضلة المشهورة ، التضخم ـ البطالة) . وانما هو تحد تنظيمى وسياسى ، تصور تكنولوجيا سياسية جديدة . وأساليب جديدة للتعبير الديمقراطى ، تلغى اختلالات التوازن في النظم الحالية وتتيح ايقاف تصاعد البيروقراطية الادارية المستمر .

ثورة علمية وايديولوجية

بعد أن درسنا بايجاز خصائص المكونات الأربعة الكبرى لهذه الحركة « الليبرالية الجديدة » بقى لنا أن نحاول عزل ما يمثل بالاجمال أصالة هذه الحركة ويؤدى الى اعتبار ظهورها (الذى ثبت بنوع خاص منذ بداية العقد الثامن بوجود عدد متزايد من اقتصاديى شيكاجو في مجموع الجامعات الأمريكية ، حتى ما ظل منها الى الوقت الحاضر أكثر انغلاقا في وجه أساليب مدرسة شيكاجو) يشكل حدثا من أعظم الأحداث الفكرية في العقد الثامن لذلك فانا نقف من هذه المسألة على ثلاثة مستويات على التوالى المستوى العلمى . والمستوى الأيديولوجى . والمستوى السياسى .

على المستوى العلمى ، تتماثل أعمال هذه الحركة الليبرالية الجديدة أساس مع مشروع يتعلق بتجديد نظرية الاقتصاد الجزئى الكلاسية الجديدة وتجاوز هذه النظرية

ان كل من أجرى بعض الدراسات في الاقتصاد يعرف أن هناك مقابلة تقليدية بين « الاقتصاد الجزئى » (نظرية الشركة التجارية . نظرية تكوين الأسعار نظرية الأسواق . المنافسة التامة والناقصة . الاحتكارية . الخ) وبين « الاقتصاد الكلى » القائم على دراسة المجموعات الكبرى من الحسابات القومية (الادخار . الاستهلاك . الاستثمار . التنمية) .

ومنذ انتشار أفكار كينز في أعقاب الحرب أصبح الاقتصاد الكلى على رأس علوم الاقتصاد لدرجة أنه عندما يتحدث اليوم انسان عن تعليم مبادىء الاقتصاد فانه يشير عادة الى خطوط الاقتصاد الكلى . وان ما في التيارات العلمية المقترنة بالحركة الفكرية الليبرالية الجديدة من أصالة هو كما لاحظنا (وحتى بالنسبة للفكر « المتعلق بالنقود ») تفضيل العودة الى الدراسات من نمط « الاقتصاد الجزئى » وذلك في

اطار معالجة جديدة تماثل نظرية الاقتصاد الجزئى لا بالتحليل المحدود لمشاكل تكون الاسعار في اقتصاد السوق وحسب (وهذا هو التعريف التقليدى للاقتصاد الجزئى في الكتب الوجيزة) . وانما أيضا بمفهوم واسع يمكن تعريفه بأنه « نظرية عامة للاختيارات والتصرفات البشرية في نظام من التفاعلات الاجتماعية » ·

وليس شك في أن هذا التوسع في مفاهيم نظرية الاقتصاد الجزئى لا يعنى شيئا بالنسبة لمن لا يعرف مبادىء علم الاقتصاد ومع ذلك فانه يتضمن أمورا كثيرة

ويؤدى رد اعتبار التحليل الاقتصادى الجزئى الى مجموعة من الابتكارات التى تجعل من الآن أغلبية الانتقاءات التقليدية الموجهة الى النماذج الاقتصادية الكلاسية الجديدة غير ذات موضوع · فقد قيل لنا ان هذه النماذج قائمة على فروض وحجج بعيدة كثيرا عن الواقع مما يجعلها غير صحيحة أو غير ذات فائدة عملية . وانها تشكيلات فكرية رائعة ولكنها مع الأسف لا صلة لها بالواقع « الحى » هذه الانتقادات كانت صحيحة حتى خمس عشرة سنة مضت ولم تزل كذلك بالنسبة للنماذج التى تظهر في الكتب التعليمية ولكنها لا تأخذ في الاعتبار ضروب النجاح التى حققتها منذ أواخر العقد السادس تلاميذ مدرسة شيكاجو في المجالات التى ذكرناها على التوالى لذلك فان الاستمرار في مواجهة أسس المجتمع الرأسمالى . كما يفعل الكثيرون باستخدام الثغرات الموجودة في النظرية الاقتصادية الكلاسية الجديدة ، لم يعد له اليوم معنى أكثر من المعنى الذى تحويه ادانة الطب المعاصر باسم النظريات الطبية التى ترجع الى ما قبل اختراع الميكروسكوب ·

أما النماذج الاقتصادية الجزئية الجديدة فانها مع اندماجها في العرف الكلاسى الجديد لا تشبه بأية حال النماذج التى يتخذها خصوم الاقتصاديين هدفا لهجماتهم او نماذج أولئك الذين لا تفوتهم حتى في المعسكر الليبرالى ، أية فرصة لاظهار الاختلاف التام بين النظرية الاقتصادية وبين الممارسات الاقتصادية العملية اليومية ·

لنضرب لذلك هذا التأكيد الكلاسى الذى استخدم كثيرا ، ويتمثل في ذكر حدود التحليل الاقتصادى على أساس أن نماذجه تفترض اعلاما كاملا اعتباطيا لدى القائمين به · هذا الاتهام لم يعد له اليوم أية قيمة ملموسة حيث تسنى لنا من قبل أن نرى أن فكرة « تكلفة الاعلام » هى نفسها أساس الأبنية النظرية الجديدة في كل من نظرية حقوق الملكية والتحليل الكلاسى الجديد لمشاكل النظم السياسية ·

لنتناول أيضا تلك الفكرة التى تقول ان كل النماذج الكلاسية الجديدة لها تطبيق محدود من حيث انها قائمة على مبدأ « التوازن العام » ومن ثم تستبعد من الحياة الاقتصادية كل اشارة الى الابعاد « البشرية » وبخاصة استبعاد ما هو في صميم الديناميكية الاقتصادية أى ، المقاول وهذا أيضا لم يعد ثمة

مبرر للانتقاد الذى كان صحيحا من قبل . ذلك أن معظم الأعمال التى أشرنا اليها تقوم على رد اعتبار الدور الرئيسى الذى يتولاه « من يصدرون القرارات » (وبخاصة مع استخدام وفير لنظرية الاحتمالات) وذلك في اطار معالجة لظواهر السوق التى تطرح من الآن المشاكل بصورة عمليات ديناميكية أكثر منها بعبارات توازن استاتيكى (كما في العرف القديم) ·

هذا التوسع في المفاهيم الاقتصادية الجزئية يؤدى الى تفجير الحدود القائمة بين مختلف العلوم الاجتماعية وفي مجال رؤية رجال الاقتصاد الذين يدورون في فلك مدرسة شيكاجو لم يعد التحليل الاقتصادى مجرد فرع خاص من العلوم الاجتماعية يطبق على مجال نوعى من الأنشطة والعلاقات الانسانية (العلاقات التجارية والنقدية) فكل أعمالهم تتجه الى انكار تقسيم العمل التقليدى بين العلوم الاجتماعية (علم السياسة ،علم الاجتماع . علم النفس . علم الانسان . علم الاقتصاد ..) واثبات أن النظرية الاقتصادية الجزئية « أداة علمية » يتجاوز نطاق استعمالها الدائرة المحدودة . دائرة المشاكل « الاقتصادية » البحتة (بالمعنى المعتاد لهذا المصطلح) ·

وبالاجمال فان الخاصية الكبرى لمدرسة شيكاجو هى انها في أصل مشروع يبين انه يمكن من الآن تطبيق الأسلوب العلمى (التحليل . النظرية . المراجعة التجريبية للفروض) على مجموعة من المشاكل والمجالات التى كانت تعتبر حتى الآن مستعصية على كل محاولة للتحديد الكمى النظرى ·

وعلى المستوى الايديولوجى يقلب هذا النفاذ العلمى في النظرية الاقتصادية الآفاق المستقبلية لنمو الفكر الحر ·

كل هذه الأعمال « الاقتصادية الجزئية » تشكل في الواقع مشروعا ضخما يتولى الفحص التجريبى لنموذج « الانسان الاقتصادى » هذا النمط البسيط من الانسان الذى يحسب . ويخترع . ويعطى الأشياء أكبر قيمة . ويصلح أساس لكل تحليل اقتصادى ·

على انه لا يجوز أن يعزب عن البال الصلات الوثيقة التى تربط بين المذهب السياسى الليبرالى وبين الرأسمالية والنموذج العلمى الذى يستخدم أساسا للنظرية الاقتصادية والليبرالية في أساسها ليست إلا فلسفة تتعلق بتنظيم الأنماط الاجتماعية . وتقوم على نظرة خاصة بسلوك الناس . النظرة « الاقتصادية » التى تعتبر الانسان لا بمثابة مسخ انانى . وانما مجرد فرد « عاقل » يتخذ قرارات مترابطة حسب أفضلياته ومشاكل الاختيار أو التحكيم التى تفرضها عليه ندرة الموارد المتاحة في عالمنا · ومن ثم فإن كل ما يسهم في تعزيز الصلاحية العلمية لهذه الأداة التحليلية . أى النموذج « الأقتصادى » للكائن البشرى . يدعم بناء المذاهب والأبنية الحرة (وبخاصة نظرية السوق التى تستند الى فكرة « التبادل » الرئيسية بين الافراد العاقلين) ·

ان كون التحليل الاقتصادى لم يطبق حتى الآن إلا على اختيارات مادية قد أدى الى نقص قيمة النموذج الليبرالى ومدى الثقة به حيثما يسهل الكشف عن الحدود الضيقة لفكر سياسى قائم على رؤية تحصر كل انسان في حجمه باعتباره منتجا ومستهلكا للسلع التجارية · ومن اللحظة التى يثبت فيها أن نظام الادراك والتحليل الاقتصادى له قيمة تفسيرية كبيرة بالمثل في الكثير من المجالات الأخرى الخاصة بالتقرير والسلوك البشرى في المسائل غير التجارية وغير المادية يتغير الموقف تغيرا تاما ويضفى التعمق العلمى بعدا جديدا على الأيديولوجية الليبرالية · ولم يعد الدفاع عن هذه الأيديولوجية نتيجة لمفهوم سياسى مسبق أو ثمرة فكر عقيدى يختلط بمفاهيم لم تعد الذاكرة في الكثير من الأحيان تعى أصولها المنطقية ولكنه يغدو نهاية المطاف لاجراء علمى يتيح استبدال طاقة علاجية تجريبية بالحجج الأيديولوجية وهكذا ليس من قبيل الصدفة أن يوجد بين الاقتصاديين الليبراليين المحدثين الذين ذكرنا أسماءهم عدد كبير من قدامى « علماء الاجتماع » أو حتى من قدامى الماركسيين المتعصبين قد تحولوا الى اقتصاد السوق والرأسمالية عن طريق تفكيرهم العلمى وحده ·

وعلى المستوى السياسى يقدم أعمال هؤلاء الليبراليين المحدثين الأمريكيين وكتبهم مظهرين هامين هذه الأعمال هى الأساس في ظهور أدب علمى يقوم على استخدام تقنيات تحليل « النفقات والمزايا » الحديثة (مع أخذ المعطيات « غير التجارية » في الاعتبار) ومن ثم يفضى الى معارضة قوية للحسنات الاجتماعية المزعومة للدولة الحديثة التى تتولى حماية الشعب ، محاولة لتقدير النتائج الحقيقية لكل البرامج الاجتماعية الكبرى التى كلفت الخزانة الأمريكية منذ عهد كنيدى مليارات الدولارات ، الكفاح ضد الفقر ، التجديد الحضرى ، الاندماج العنصرى ، الأمن الاجتماعى ، الخ وجهد لتحليل الفاعلية الحقيقية لأعمال مختلف الوكالات الاتحادية التى حصرت منذ خمس عشرة سنة المشروعات الأمريكية في نطاق يزداد ضيقا من اللوائح الاقتصادية والاجتماعية بحيث أضفت على اقتصاد الولايات المتحدة في نهاية المطاف وجها لا يختلف كثيرا عن اقتصادياتنا الأوربية المختلطة ، لجنة التجارة الفيدرالية ، ادارة الغذاء والصحة ، لجنة أمن محصول المستهلك ، ادارة الأمن والصحة المهنية ، الخ

وتؤدى هذه الأعمال الى تشخيص ينتهى باعتبار أن أكثر آفات مجتمعنا ازعاجا ليست مرتبطة برأسمالية متطرفة وانما هى على العكس من ذلك مرتبطة بقصور في النظام الرأسمالى · تقول هذه الأعمال بنوع ما انه اذا كان الغرب عليلا ، وأصبحت أنهاره مجارير ، ومدنه غير صالحة للمعيشة ، واستمر به الفقر والتعاسة رغم الارتفاع الاجمالى في مستوى المعيشة ، ورغم الجهود السياسية واعادة التوزيع ، فليس ذلك لأن مجتمعنا رأسمالى وانما لأنه « ليس رأسماليا بالفعل » ولم يكن يوما كذلك

وفي نظر هؤلاء « الليبراليين المحدثين الأمريكيين » أن القضية التى يتبين بحثها في الوقت الحاضر ليست قضية الرأسمالية أو اقتصاد السوق ، وانما هى القضية « الدولة » وذلك لعلة اقتصادية محددة ، ذلك أن وجود دولة قوية ، مسيطرة تتدخل في كل شىء يؤدى الى أن يصير من الآفيد للمواطنين أن يسعوا

للاستحواذ على الأداة الحكومية والتلاعب بها بدلا من اقامة علاقاتهم على أساس من المبادلات التى تخلق أعلى زيادة في القيمة الاجتماعية .

أصحاب مذهب « التحرر »

والجدير بالذكر في هذا الخصوص أن من بين نتائج هذا السعى في تجديد الفكر الاقتصادى الحديث أن ظهر على مسرح السياسة الأمريكية حركة ايديولوجية جديدة . « حركة التحرر » وهى لا تمثل الآن سوى فئة صغيرة من المفكرين الثانويين ولكن طرافتها تتبدى في انها تكفل تصالحا مدهشا بين مذهب تحررى مطلق (فوضوى) قائم على مبدأ ينازع المجتمع (حرية تداول العقاقير ؟ الامتناع عن التجنيد . الحياد الدولى ...) وبين دفاع شديد لاعادة تشكيل مجتمع رأسمالى قائم على حرية اقتصادية على أكمل وجه . ولما كان لأصحاب مذهب التحرر هؤلاء في الكثير من الأحيان صلات وثيقة للغاية بالفلسفة الراديكالية (اليسار الجديد) ـ فلسفة شجب « الرأسمالية الاحتكارية للدولة » ـ فانهم يعتبرون أن وجود الدولة بذاته شر ينبغى مكافحته . وغايتهم على المدى البعيد زوال الدولة ولكن في اطار نظام اجتماعى تكون فيه الوظائف العامة ذات طبيعة فردية . ومن ثم كان الاسم « الرأسماليون الفوضويون » الذى أطلقه عليهم بعض قادتهم مثل دافيد فراديمان (٣٥ سنة) ابن الحائز على جائزة نوبل .

وليست كل الاقتصاديين (الليبراليين المحدثين » أو التابعين لمدرسة شيكاجو من أصحاب مذهب التحرر وهناك على العكس من ذلك الكثير من المتحمسين لمذهب التحرر يرفضون تعاليم مدرسة شيكاجو الكلاسية الجديدة ويتهمونها بأنها لم تزل مفتوحة لفكرة وجود الدولة فمثلا كل أولئك الذين يلتفون حول بعض الاقتصاديين أمثال : مورى روثبارد . واد دولان . واسرائيل كيرزنر . وم . لاشمان ... يشكلون ما يسمونه المدرسة « النمسوية الجديدة » وفي هذا الاتجاه ينبغى التمييز بوضوح بين ما هو من جهة حركة تعمق علمى بحت وبين ما هو من جهة أخرى حركة ايديولوجية وسياسية بحته لا تتردد أسوة بسائر الحركات الايديولوجية أمام بعض المبالغات « الطوباوية »

وعلى ذلك فلا جدال في أن عددا كبيرا من هؤلاء الاقتصاديين « الليبراليين الجدد » لا يخفون تعاطفهم مع النظريات التحررية . وذلك بسبب منطق أسلوبهم العلمى . في حين أن الحركات التحررية على العكس من ذلك تدين بنصيب كبير من ديناميكيتها الحاضرة من جهة الى التأثير الطاغي الذى يمارسه بين أعضائها بعض الاقتصاديين الشبان من تلاميذ أساتذة شيكاجو من المرتبة الأولى أو الثانية ومن جهة أخرى الى تجدد شباب نموذج المذهب الفردى في الاقتصاد الذى يؤدى اليه أعمال الاقتصاديين الليبراليين الجدد .

وختاما لعلنا نتساءل عما اذا كان التأثير المتزايد في بعض شرائح الطبقة الأمريكية المفكرة للرسائل المنبثقة من مدرسة شيكاجو قد شرع في اجراء تطور سياسى مماثل بعض الشىء للتطور الذى جرى منذ قرنين من الزمان بنشر أعمال آدم سميث في انجلترة وكان لابد من انقضاء نصف قرن لكى يبدأ مذهب الحرية الاقتصادية لآدم سميث ـ في وجه الدولة الأمة النقابية في ذاك العصر ـ في الظهور في الحياة العملية ويصبح النمط السائد في الفكر السياسى ·

ولعلنا نشهد اليوم لدى الاقتصاديين الأمريكيين ولادة المذهب الحر الجديد القائم على اعادة اكتشاف نظرية عامة للرأسمالية ·

•••



●● المقال في كلمات

١ - يبدأ الكاتب حديثه بجملة على جانب كبير من الأهمية لفهم هذا المقال حيث يقول ما مؤداه ان الأمور اليومية المألوفة لا تجذب الأنظار اليها نظرا لقربها منا .

٢ - ويرتب الكاتب نتيجة هامة على هذه الحقيقة الواضحة ، وهى ان هذه الأمور لا يمكن رؤيتها واستجلاء معانى الجمال فيها الا اذا ابتعدت عنا ، سواء من حيث المكان أو الزمان ويعبر الكاتب عن هذا الابتعاد بكلمات موحية ذات دلالة بالغة فتارة يعبر عنه بالانفصال ، وتارة بالانفصام وتارة بالاعتراب . وكل هذه الكلمات مؤادها واحد في حقيقة الامر ويوضح الكاتب ذلك بأن الشىء لا يمكن ان يعد شيئا الا اذا فصلناه بوضوح عن الذات الفاعلة له . وبعبارة أخرى يجب التمييز بين الفاعل والمفعول : بين الذات الفاعلة والمادة المنفعلة ، بين المؤثر والأثر . ومتى انفصلت المادة عن الذات أو

الكاتب : جان بيير كيلر

عالم من علماء علم الاجتماع يقوم بالتدريس في مدرسة الفنون العليا وفي الجامعة في جنيف . له عدة مقالات ومحاضرات عن العلاقة الجمالية بين الأشياء العامية والحياة اليومية

المترجم : أمين محمود الشريف

الأثر عن المؤثر أمكن للانسان أن يرى هذا الاثر ويستشف فيه سر الجمال لأنه في هذه الحالة يصبح هناك راء ومرئى ، وناظر ومنظور وهذا هو ما يحدث الآن اذ تعرض المنتجات المعاصرة لتصبح بارزة للعيان سواء في واجهات العرض بالمتاجر أو على شاشة التلفاز ، أو على جدران المدن .

٢ ـ وفي موضع آخر من المقال يبسط المرشال مكلوهان هذه الفكرة بطريقة أخرى فيقول ان العالم المحيط بنا لا تمكن رؤيته . ولذلك لا بد من استخدام وسائل تكنولوجية (كسفن الفضاء) حتى يتسنى لنا أن نرى العالم المحيط بنا رؤية كاملة لأول مرة ، على الرغم من أنه ظل مألوفا لنا . ويضرب المرشال مثلا يوضح هذه الفكرة فيقول ان السمك لا يعرف ما هو الماء حتى يحين اليوم الذى يخرج فيه من الماء . وكذلك الأنسان لا يستطيع أن يرى العالم الذى يعيش فيه الا اذا انفصل أو انفصم أو اغترب عن هذا العالم .

الأمور اليومية المألوفة هي أقرب عناصر البيئة المادية والاجتماعية إلينا ، ولذلك لانكاد نراها .
والسر في ذلك أن هذه الأمور لقربها منا ـ لا تجذب الأنظار اليها ـ ولا تقع العيون عليها

على أن هذه الأمور اليومية قد حظيت بأهتمام العلماء والدارسين خلال فترة من الزمن ، من عهد علماء التحليل النفسي الذين عنوا بدراسة الهفوات والزلات الصغيرة التى تعرض للإنسان الى عهد علماء الاجتماع الامريكيين الجدد الى الكاتب اى جوفمان مؤلف « دراما الحياة اليومية » . وقد استلهم علماء الأجتماع هؤلاء في أبحاثهم هذه الظواهر اليومية التى فتحت الطريق أمامهم ، فكان العالم هوسيرل يرى أن عالم الحياة اليومية هو ميدان الدراسة الأول وكذلك كان يرى هيدجر الذى نعرف تعليقاته على الامور اليومية التافهة المعروفة لنا جميعا ومن ناحية أخرى شارك هـ . ليفيفو الماركسى في تمجيد الظواهر اليومية المألوفة ، ونوه بمزاياها الخاصة ، وما تنطوى عليه من معان ثقافية كبيرة .

والواقع أن العلوم الأجتماعية قد قطعت شوطا بعيدا في دراساتها . ولكن من الغريب حقا أن هذا لشوط لم يذهب بنا الى آفاق بعيدة ، بل ـ على العكس ـ مر بنا من المشاهدات اليومية وتتضح أهمية هذه الحركة المركزية الجارية بصورة أجلى إذا نحن قفونا أثرها في جميع الفنون المعاصرة التى تعنى بمشاهد الحياة اليومية بل تخلع عليها سيما الجمال . ولسنا نريد هنا أن نذكر كيف عالج الفن الأمور المعادية المألوفة ، وبخاصة الأشياء اليومية ، ولكن حسبنا أن نقول إن الفن تحرر بالتدريج بعد العصور الوسطى من المفاهيم الدينية والروحية ليرسم صورا من الحياة المادية كالأزهار والثمار ، ثم أصبح بعد ذلك ، مع ظهور الحركة الانطباعية في الفن ، يصور الأشياء كما هى دون تغييره اللهم الا في الشكل لا المضمون . ويجب أن نذكر أن هذا الاتجاه سوف يعززه تطور فن التصوير في المستقبل فمن الحركة التكعيبية الفنية الى الفن الشعبى والسيريالية المفرطة ومعظم الحركات الفنية الأخرى التى ظهرت في بدأية القرن الحالى سوف تحظى أتفة الأشياء وأقلها أهمية بأهتمام الفنان ، فيكشف النقاب عن وجهها ، ويجلى جمالها للناظرين . ومن الآن فصاعدا سوف يشاهد الجمال في كل مكان سوف يتجلى في القدور والاوانى وعلى جدران المطبخ البيضاء وربما بدت هذه الأشياء التافهة أروع وأجمل في صالون القرن الثامن عشر ، بل من المتاحف الرسمية . والواقع أن الفن يتجه بعد الفنان دو شامب الى نبذ الأصفاد والأغلال التى ظل يرسف فيها حتى يصبح عملا فنيا وطريقة مثلى لادراك معنى الجمال . يقول ر . روشنبرج : « ليس هناك ما يمنع من أن نعتبر العالم كله صورة ضخمة وكذلك القول في الموسيقى ، ففى رأى بعض الموسيقيين المحدثين الذين جاءوا بعد جون كيج أنه يجب التوسع في مفهوم الموسيقى بحيث تشمل كل صوت يتردد على الأسماع حتى ولو كان صوتا تمجه الآذان .

ومن حقنا الآن أن نسأل ، هل يدل ظهور الأمور اليومية المألوفة على مسرح الفنون بالتدريج على تطور (أو طفرة) في اهتمام الأنسان المعاصر بالأمور المألوفة ؟ والجواب عن ذلك أن هناك حقائق معينة تؤكد هذا الافتراض .

المناظر الحضرية :

لم يعد تعبير « المناظر الحضرية » من التعبيرات الغريبة التى تثير الدهشة . بل أصبح من الاصطلاحات المألوفة . على أن هذا التعبير يخفى تحت ظاهرة البرىء نوعا من الغرابة . ذلك أن كلـ « منظر » تفيد بمقتضى تعريفها اللغوى (فى الانجليزية) كل ما تقع عليه العين على بعد . أى ذ الجزء من العالم الذى يقع فى دائرة النظر من بعيد فكيف اذن يستطيع الرجل الحضرى أن يرى مشاه حياته من بعيد مع كونها قريبة وملابسة له .

وبعد نصف قرن من عهد الفنان كورت شفتر الذى نصب نفسه ـ اذا جاز هذا التعبير ـ حارسا على متحف الشوارع حيث درج على جمع المتناثر فى الطريق . والتقاط المهملات والأشياء الملقاة على الأرض . وبعد ثلاثين عاما من عهد الفنان فرناند ليجيه الذى بهرته البيئة الحضرية فأعلن أن الشارع التجارى الجديد جدير بأن يحسب فى عداد « الفنون الجميلة » بعد هذين الفنانين جاء الفنان كليز ألد نبرج الذى خلبت مناظر الشوارع فؤاده . فقال ، يبدو لى أن الشوارع لها حياة خاصة لا يشاركها فيها غيرها لقد اكتشفت فيها مجموعة كاملة من الأشياءالتى كانت تعافها عينى من قبل . فأدوات التعبئة القديمة (م أوعية وأغلفة وأكياس الخ) هى فى نظرى أشبه بفن النحت والتماثيل . والنفايات التى ترى فى الشارع هـ فى نظرى أمور لطيفة التكوين صنعتها يد الصدفة » .

ولكن الفنان لم يعد هو الشخص الوحيد الذى يرى فى الشارع ومحتوياته أعمالا فنية ثمينة . بل أصبح الناس . فى كل مكان ينظرون نظرة جديدة الى الأشياء العادية . فلا يهتمون بفائدتها . بل يرون الحسن فيها مجسما والجمال ممثلا . ومن أمثلة ذلك اقبال الناس على سوق البراغيث (ســوق فى أوربا تباع فيه الأدوات المستعملة والملابس القديمة) . وجواسق (جمع جوسق وهو الكشك) الأدوات المستعملة . واقبالهم على شراء سقط المتاع . والأنماط والأزياء التى عفى عليها الزمن ومن مظاهر الاهتمام بالأشياء العادية المألوفة أنه أقيم فى باريس أخيرا معرض بعنوان « الناس يجمعون » عرض فيه شتى الأدوات والسلع القديمة من كل نوع ولون . والمشاهد أن عدد هؤلاء الناس ليس قليلا . ولكنهم قوم مفتونون باقتناء سلع ومواد معينة . وقد استطاع أمثال هؤلاء أن يحافظوا على وجه الحياة اليومية حتى لا تجور عليها يد النسيان . وقد أصبح الآن كل إنسان يجنح الى تفحص بيئته « بعين الرجل الذى يعد نفسه قيما على المستقبل » .

وهذا هو السر فى الهوس الذى اعترى القوم فى الولايات المتحدة أخيرا . وحفز كل أمريكى على اقتناء السلع والمواد القديمة كالصوانى والمرامد (جمع مرمدة وهى منفضة السجاير) واقلام الحبر المزخرفة برمز مشهور . والتفاويم المزدانة بأسلوب القصر الرابع كل هاتيك السلع النادرة يشتريها القوم بأثمان عالية وقد بلغ الاهتمام باقتناء الأشياء القديمة أن طبع كتالوج فخم من ثلاثة مجلدات يتضمن أسماء

المواد والسلع التى أنتجت منذ نهاية القرن الماضى (جاء فيه أن أول تقويم يرجع تاريخه الى ١٨٩١ وأن أول صينية يرجع تاريخها الى ١٩٠٠) وهو كتالوج غريب . كل شيء مألوف فيه يحتوى ـ كما يزعمون ـ على سر مكنون من أسرار الجمال . وكأنه شاهد حي على عصر مضى لمن يريد أن يعرف أسرار هذ العصر من الأجيال المستقبلة .

ومعنى هذا أن الاهتمام بالشيء العادى المألوف هو أساس ادراكنا وفهمنا الجديد للبيئة التى تحيط بنا ومما تجدر الأشارة اليه في هذا المقام أن « الشيء » بالمعنى الذى سنذكره هنا هو من خصائص الحضارة الغربية فهو يعد على الأقل ـ حقيقة تاريخية ثابتة . وان تعذر علينا معرفة التاريخ الذى نشأت فيه هذه الفكرة .

وتفصيل ذلك أن الشيء لا يمكن أن يعد « شيئا » الا اذا فصلناه بوضوح عن الذات الفاعلة له وبعبارة أخرى يجب التمييز بين الفاعل والمفعول . بين الذات الفاعلة . والمادة المنفصلة بين المؤثر والأثر وقد عرض الفيلسوف الفرنسى سارتر لهذه القضية حين أشار الى تلك المجتمعات التى تدخل مع الميت في قبره كل أشيائه ومتعلقاته التى استعملها في حياته يقول سارتر في ذلك ، إن دفن الميت في قبره دون هذه الأشياء هو بمثابة دفنه بدون أحد ساقيه . فجثة الميت . بالأضافة الى الكوب الذى اعتاد أن يشرب منه والسكين التى اعتاد أن يقطع بها كل ذلك يعد جثة واحدة . وقد ردد هذا المعنى منذ عهد قريب هـ . فان ليبه الذى قال ان المجتمعات التى انبثقت حضارتها من الحضارة الاغريقية الرومانية تفرق بين الذات الفاعلة والمادة التى صدرت عن الذات في حين أن المجتمعات الأخرى ترى صلة مباشرة بين الانسان والمادة أو السلعة التى ينتجها فمن حين التفكير في صنع هذه المادة الى وقت انتاجها واستعمالها تظل هذه المادة جزءا منه بحيث يصبحان وحدة كاملة . أما في المجتمعات الغربية فان الانسان متى فكر في صنع مادة أو سلعة ثم أصبحت حقيقة مادية بعد أن كانت صورة ذهنية فأنه ينظر اليها نظرة موضوعية أى ينظر اليها على أنها شيء قائم بذاته وهذا ينطبق على كل ما يصنعه الرجل الغربى كالمنضدة والزهرية كما قال ڤان ليبه .

ومتى انفصلت المادة عن الذات أو الاثر عن المؤثر أمكن الانسان أن يرى هذا الأثر ويستشف فيه سر الجمال . لأنه في هذه الحالة يصبح هناك راء ومرئى . وناظر ومنظور . وهذا هو ما يحدث الآن فالمنتجات المعاصرة تبدو واضحة وبارزة للعيان سواء في واجهات العرض (فاترينات) بالمحلات التجارية أو على شاشة التلفاز أو على جدران المدن . والخلاصة أنها ترى في كل مكان . وبالتالى يمكن مشاهدة سر الجمال فيها . واذا كنا قد أصبحنا الى آلاف السنين لندرك أن منتجات العصر الحجرى أعمال فنية والى قرن من الزمان لنشاهد سمة الجمال في أدوات العصر الفكتورى . فانه يكفينا الآن عقد أو عقدان من السنين لندرك سر الجمال في المنتجات والأدوات القديمة . ولذلك أصبح في وسع التجار الذين يتاجرون في العاديات والسلع البالية أن يعرضوا سلعا « قديمة لا يزيد عمرها على سنتين أو ثلاث أن لم تكن جديدة تماما والواقع أننا دخلنا في عصر « الآثار الحديثة » على حد تعبير أحد الفنانين .

الاعلان والازدواج :

لما كانت الصورة الاعلانية مسئولة عن التعريف بالسلعة واعلام الناس بها . ومسئولة ـ فوق ذلك ـ عن اضفاء المفاهيم المختلفة عليها . فأنها تتجه دائما الى التحرر . والادعاء بأنها ذات لغة مستقلة تعبر بها كيفما تشاء بيد أن هذه الصورة الاعلانية لا تحيد عن جادة الصدق والأمانة في الاعلان عن السلعة . وقد يستلهم الاعلان بعد عشرات السنين ـ خلافا لفن التصوير المادى الذى أباح لنفسه في بداية هذا القرن الحرية في تصوير ما يريد ـ ما يتم من تقدم في الأساليب الفنية . ولكنه يظل ملتزما ـ من حيث المبدأ ـ بايضاح موضوعة وتصويره بطريقة هادفة . ولذلك فأنه اذا ادعت الصورة الاعلانية أنها مستقلة غير مقيدة بتصوير موضوعها تصويرا يمثل الحقيقة كان هذا الادعاء منطويا على نوع من التناقض .

بيد أن التصوير في الاعلان يكتنفه ضرب من الغموض الأساسى . وبيان ذلك أن الصورة الاعلانية تسلك طريقتين في الاعلان عن السلعة أولاهما توضيح وظيفة السلعة المعلن عنها حتى يتسنى للزبون ان يعرف فائدتها ولكن بيان هذه الوظيفة يكون في أغلب الأحوال أمرا لالزوم له (اما لأنها غير ضرورية واما لأنها تتحقق في منتجات مماثلة) . ولذلك تستخدم الطريقة الثانية بدلا من الأولى . وهى ذكر مجموعة من الرموز الخاصة بالسلعة . وهاتان الطريقتان هما المحوران اللذان يدورحولهما الاعلان واذا تركز الاعلان حول وظيفة السلعة (كما هو الحال في بعض الكتالوجات) فقد تلبى هذه السلعة حاجة ما . ولكن الاعلان لا يخلق هذه الحاجة واذا دار الاعلان حول الرموز الخاصة بتعبئة السلعة تم ذلك على حساب فائدة السلعة مما يؤدى الى انصراف الأنظار عنها وهذا هو السبب في أن توجيه الاعلان عن السلعة نحو هدف أخر غير الفائدة لا يجعل الاعلان وافيا بالغرض . وربما كان مثل هذا الاعلان مضللا للزبون . ولكنه يساعد على عرض السلعة و « تحريرها » (كما هو الشأن في الفن الشعبى) .

وفضلا عن ذلك فان الحاجة ملحة هنا الى الاعلان عن السلعة بصورة مستقلة نسبيا . وذلك اذا ورد الاعلان عنها في سياق مواد كثيرة يخشى معها أن لا تلتفت الأنظار اليها . ففى هذه الحالة يتعين ذكر بيان مماثل عن السلعة ويكون هذا البيان في صورة تفسير مكتوب يجذب الأنظار اليها . أو في صورة مزدوجة بمعنى أن يتم الاعلان عنها استقلالا بصورة مكبرة على هامش الصورة الاعلانية . الى جانب الاعلان عنها في سياق المواد الكثيرة المذكورة . .

ومعالجة الاعلان عن السلعة على هذا الوجه يسوقنا الى معرفة ميزة هامة من مزايا فن التصوير الاعلانى هى الازدواج في الصورة وهذا الازدواج يتم بطريقين أولهما تصوير المادة استقلالا داخل الصورة الاعلانية نفسها اذا تضمنت هذه الصورة مواد كثيرة كما سبق وثانيها وهو الأهم ـ تصوير المادة كما هى في الحياة العملية اليومية تصويرا مزدوجا ويوضح لنا ج . بنينو هذه الطريقة حيث يقول : « لما كان الاعلان عن المنتجات لا يتعرض لذكر فائدتها بل يتحدث عنها للجمهور عن طريق رسالة تدور حول هذه المنتجات وحدها . ولما كان الاعلان لا يتحدث عن صناعتها وانما يهتم بأبرازها . فان هذه المنتجات

تبدو في صورة أخرى خلاف صورتها الأصلية الحقيقية لأن الاعلان يضفى عليها صفات ثلاث، الفردانية . والمزية ، والمثالية . بمعنى أنه يصفها بأنها « فريدة في بابها » متميزة عن غيرها . مثالية في حد ذاتها والاعلان لا يغير اهتمامنا بالمادة تغييرا سطحيا وانما يغيرها تغييرا أساسيا ذلك أن الاعلان بطريق الازدواج يؤدى الى الجمع بين الغيرية والعينية . بمعنى أنه يجعل السلعة تبدو في صورة مغايرة لها وفي الوقت نفسه يبرز السلعة عينها » للأنظار .

وهذه هي الغاية النهائية . فالجانب الجمالى للصورة الاعلانية لا ينحصر في المعالجة الشكلية التى تعرض بها المادة ولا في استخدام الأساليب الفنية الجمالية . (كالمذهب السريالى وغيره) ولا في استخدام الأساليب التشكيلية المؤثرة وكل ذلك مبنى على الحقيقة الأولية التى سبقت الاشارة اليها وهى انفصال المادة المنفعلة عن الذات الفاعلة ذلك الانفصال الذى يؤدى الى ظهور المادة أمام عين الرائى وميزة الصورة الاعلانية المزدوجة أنها تعرض المادة على أنظار الجميع (في الصحف . وعلى شاشة التلفاز . وعلى الجدران) ولكنها تعرضها في صورة مغايرة بارزة تصل الى الجمهور .

وللتعبئة شأن كبير في هذا المجال . اذ لم يعد من الممكن القاء نظرة مباشرة على المادة فمن المحتم أن يتدخل بين العين والمادة العلامة التجارية للسلعة . وثمنها . والارشادات الخاصة بطريقة استعمالها . والصندوق الذى تعبأ فيه والغلاف اللدائنى المصنوع من البلاستك) الذى تغطى به . فهل تراني مغاليا اذا قلت لك أن طريقة التعبئة هى التى تخلق المادة على الحقيقة . وأن الرسم أهم من الأسم ولأضرب لك مثلا يوضح لك هذه القضية ان القيم ليس مسحوقا يحمل اسم « القيم » وانما هو « علبة » وما كلمة « قيم » الا عنصر من عناصر كثيرة تتكون منها هذه العلبة وهذه العلبة تحتوى على مسحوق (....) ، يستعمل في التنظيف .

ومن عجب أن أهمية التعبئة والملصقات وأفلام الدعاية والاعلانات تدل على الوضع المعكوس في كل مكان . ذلك أن المادة أو السلعة لم تعد هى التى تحدد الرموز والصور . بل أصبحت هى التى توضح هذه الرموز والصور . وهذه الرموز والصور دائمة . أما المادة فهى زائلة ونسبية وعرضية . لأنها هى « موضوع الصورة » فهى عرض . والصورة هى الجوهر .

عالم المستنسخات (الصور المتكررة) :

لا تستطيع الصورة أن تتجنب المصير الذى كتب على السلعة وبخاصة عند ما تكون صورة فنية . فكلما ازداد عدد النسخ المستخرجة منها ازداد تكاثرها وذيوعها . واتخذها الناس عوضا عن الأصل .

واذا كان أندريه مالرو قد نوه بمزية المستنسخات الفنية . وهى الحصول على أعمال فنية بعيدة عنا زمانا ومكانا . فقد بين أيضا عيب هذه الطريقة وهو تجانس هذه الصور المتكررة . ذلك أن الصور

المصغرة . والصور الجدارية . والنوافذ ذات الزجاج الملون . والطنافس . بل التماثيل كل ذلك قد تحول الى رواسم (كليشيهات)

وقد أوضح د . بنيامين في مقال له مشهور النتائج السلبية للمستنسخات الفنية بالقياس الى تذوق الفن بطريقة مباشرة ولخصها فيما يلي « نهاية الوجود الفريد للعمل الفنى زمانا ومكانا . وهبوط مكانة العمل الأصلى وفقدان الابتكار . وتبدد الهالة التى تحيط بهذا العمل » .

واذا توخينا الدقة في التعبير قلنا ان العمل الأصلى لا يختص، وانما يهبط الى مكانة ثانويه بالنسبة للمستنسخات التى يتم استخراجها منه على نطاق كبير . والتى يتعرف الناس منها على ذلك العمل يضاف الى ذلك أنه من الخطأ القول بأن فردانية العمل الأصلى تكمن الآن في أنه الأصل الذى استخرجت منه المستنسخات والدليل على خطأ هذا القول أن الثقة في النسخ المتكررة قد أصبحت من القوة بحيث يذهل المرء اذا علم أن المبرر لبقاء أى عمل فنى هام ليس هو القالب الأصلى الذى يمكن استخراج النسخ منه .

وقد نشأ رجال الفن الشعبى في عالم المستنسخات الفنية التى أدت وفرتها وكثرتها الى تحويل الروائع الفنية الماضية الى رواسم ولذلك يقول ليختنشتاين أنه عاش أولا في أهايو وكانت صلته الأولى بفن التصوير عن طريق المستنسخات . وهو يعترف بأن الاستنساخ الفنى أصبح موضوع عمله . وان كان المتأمل لا يرى فيه أثرا للصفة . ومما لا ريب فيه أن هذا الفنان يلجأ الى الخدع الفنية في عمله حتى يبدو مطابقا للأصل وهو يتساءل : أليس ثمة من وسيلة لاستعادة تذوقنا للفن بدلا من احتقار الصور المستنسخة التى تساعد على اشتراكية الفن وتعميمه في وقت حلت فيه المستنسخات محل العمل الاصلى الذى يتحولَ الى رسوم على الدوام .

ويخيل الينا أن ليختنشتاين يتكلم على سبيل الفكاهة والهزل (ان لم نعتبره أحد المدافعين عن الحرب كما حدث أحيانا) عندما يقترح أنه يجب البحث عن حقيقة القنابل والطائرات في الرسوم الهزلية (الكاريكاتورية) لا في فتنام . ولو أنك أنعمت النظر في الأمر لوجدت أن الحيل الفنية التى تلجأ اليها هذا الفنان لاخفاء الحقيقة ليست الا في ظاهر الأمر فحسب . إذ الواقع أن ليختنشتاين وزميله وارهول يصوران الحقيقة فعلا ولكنها حقيقة محلية من الناحية التاريخية . لا تكمن جدتها في طابعها الفعلى بقدر ما تكمن في القنوات التى يوصلان بها هذه الحقيقة الينا . وهما في الواقع لا يصوران الحياة بقدر ما يصوران أسلوب الحياة عند الجماهير في صورهما الاعلانية وبعبارة أخرى ان هذين الفنانين يتحدثان الينا بوسائلهما الملائمة لهما ـ عن « حضارة الصور » التى يتحدث عنها علماء الاجتماع المعاصرون وان لم يستطيعوا حتى الآن تحديد معنى هذه العبارة تحديدا دقيقا .

والمشاهد في المجتمعات الصناعية المتقدمة أنهم يهتمون بالاعلان عن السلع التى ينتجونها قبل اهتمامهم بالأحداث والمشاهدات اليومية

ويقول بور سفون الذى يردد هذا القول في كتابه ، « لقد جاء وقت كان الناس يقولون فيه عندما يقرأون جريدة تغص بما يغص ، « لقد أصبحت الدنيا كلها مملة » . ولو أن قارئا معاصراً اطلع على مثل هذه الجريدة لما وسعه الا أن يقول ، « أف لهذه الجريدة . ماأشد ماتبعثه في نفسى من الملل والضجر » . ويشدد ديبور النكير على مجتمعاتنا التى تحول فيها الرجل الايجابى المبدع الى رجل سلبى يقف موقف المتفرج « كلما ازداد تفكيراً قل مارأى » لأن « حركاته واشاراته المميزة لم تعد حركاته واشاراته هو . ولكنها الحركات والاشارات التى صورها له الفنان » . ويقول هـ . ليفيفو، « لم يعد من الممكن في مجتمع يسير فيه استهلاك المنظر . ومنظر الاستهلاك جنبا الى جنب . معرفة الحقيقة بطريقة مباشرة . وذلك لأن الصورة حلت محل الأصل . والرمز حل محل الحس » .

وترتب على ذلك أن أصبح السائح ـ بعد أن كان يمتع بصره برؤية المنظر الأصلى ـ يتأمل الصورة التى تطوف به الى اقصى البلاد . وفي وسع المرء أن يتساءل ، هل أصبح من الممكن الآن رؤية البانثيون أو ناهيتى رأى العين ؟ الواقع أن عدسة المصور أصبحت تحول الآن دون رؤية العين للآثار القديمة بحيث لايمكن مشاهدتها الا في أوطانها الأصلية . ذلك أن الصورة قد بلغت درجة غير عادية من الروعة والشفافية بحيث تجردت من وظيفتها الأصلية ـ وهى محاكاة الأصل ـ وأصبحت هى المعيار لرؤية الحقيقة .

ومتى علمت كل ذلك فهل بنا من حاجة الى التنويه بالدور الواضح الذى تقوم به السينما والتلفاز ؟ يقول إى . مورين ان « السينما تحيى الأصل . وتحيى صورته في القرن العشرين » . واذا صح أن السينما تضفى على الحقيقة الأصلية صورة مطابقة لها . أما يجب علينا أن نعترف بأن أثرها لايتضح الاعندما يؤثر الفيلم في حياة الناس بحيث تحاكى الحياة الفيلم . فتصبح الحياة هى الصورة والفيلم هو الأصل ؟ وقد تحول الفيلم الآن الى عالم مستقل بحيث يمكن القول دون مبالغة ان الصور التى يعرضها لاتمثل مخلوقا من لحم ودم وانما تمثل صورة أخرى مماثلة . ان هذا هو الوضع المعكوس الذى يتمثل اليوم في عالم الاعلام الجماهيرى ، أى أن معيار صدق الصورة لايكمن في أنها صورة لحقيقة خارجية . وانما يكمن في مطابقتها لصورة أخرى .

ولما كانت الطريقة الجديدة لرؤية العالم من خلال صوره لاتزال في طور التكوين (الأجيال الأولى التى ربيت على التلفاز في سبيلها الآن فقط الى الالتحاق بالمدرسة) فإنها لاتبدو واضحة للناس . ولكن ، أليس الشعور بهذه الطريقة سائداً على نطاق واسع ؟ تقول مجلة « كورس » التى خصصت عددها الأول

لهذا الموضوع ، « ان الشعور السائد في ١٩٦٨ لم يكن هو الشعور بالثورة التى هبت على فرنسا وعلى غيرها بل الشعور بالخوف من ظهور عالم الدرجة الثانية » الذى لا يرى فيه الانسان الأشياء رأى العين بالدرجة الأولى وانما يراها بالدرجة الثانية عن طريق الصور الوسيطة . وجدير بالذكر أن عالم الدرجة الثانية هو من أعراض الحضارة الدائمة حين لانرى الدم يتدفق قانى اللون في شرايين الجسم وانما نراه بقعة رمادية اللون على الصورة الفوتوغرافية . وحين لاترى العين الا من خلال النوافذ ولاتمسك اليد عن طريق المفاهيم . والخلاصة أنه عالم لا يدرك فيه شيء الا عن طريق شيء آخر ليست له جذور طبيعية . ولا أى اتصال بالحقيقة .

ومن الصعب أن نرى في هذه الكلمات ما يعبر عن احساس الفنان وحده . لأنه عندما تصبح الدنيا متحفا لأشياء سبقت رؤيتها بوسيلة أخرى فمن ذا الذى يشك في أن عالم الدرجة الثانية سوف يحمل لكل انسان ـ كما يحمل لكل فنأن ـ حياة بغيضة كل يوم ؟

هل نستنتج من ذلك أن الفرق بين الوجود الحقيقى والوجود الظاهرى الذى كان قطب الرحى في مشكلة المعرفة منذ بدأت الفلسفة سوف يختفى ؟ هل تؤدى وسائل الاتصال الجماهيرية الى انهاء النزاع بين الواقعيين والمثاليين ؟ هل يتدخل أمر ثالث بين الفاعل والمفعول . والذات والموضوع ؟

قد يجاب عن هذا السؤال بأن الأمر كان كذلك دائما . نظراً لأن الأنماط الثقافية هى التى تولت دائما توجيه الادراك البشرى . ولكن اطار التفسير الآن لم يعد وظيفة من وظائف العقل . لأن هذا الإطار كله لم يعد من صنع الانسان . ذلك أن السمة الأساسية لفن التصوير الفوتو غرافي اذا قيس بالتصوير الزيتى ـ كما يقول إى فلشجنونى ـ هى أنه لأول مرة في تاريخ الثقافة لا يتدخل بين الشيء الأصلى وصورته سوى العنصر المادى لشيء آخر . وهو عنصر خامل لانشاط له . ولكن علينا أن نعترف بأن نوعا آخر من العلاقة التى تربطنا بالعالم قد برز الى حيز الوجود بواسطة فن التصوير الحديث .

ويقول سارتر . « ان التخيل هو النظر الى شيء معين من خلال « شبيهه » إذ بهذا الشبيه يكون الشيء موجوداً بالنيابة ولكن الحقيقة الجديدة في حضارة الصور هى أن « الشبيه » لم يعد انتاجا رمزيا يتحقق ماديا (زجاج ملون . صورة زيتية الخ) ولا تأليفا عقليا ـ فرديا أو جماعيا ـ بل أصبح مادة يتم انتاجها بطريقة فنية ويمكن لمسها وادراكها ـ بصورة مباشرة ـ كالحقيقة نفسها .

الاغتراب والرؤية الجمالية

ان الاغتراب الذى يشاهد الآن في المجتمع بين المشاهدات اليومية والصور التى تعرضها وسائل الاتصال الجماهيرية المنتشرة في كل مكان يناظر الاغتراب القائم بين مختلف النظم والجماعات وبين

مختلف مجالات النشاط . وقد أفاض الكتاب الماركسيون في بيان هذا الاغتراب فلا حاجة بنا الى الاشارة اليه في هذا المقام . وقد أوضح ج . ديبور وغيره الارتباط بين هذين النوعين من الاغتراب حيث يقال . ان حياة المجتمعات التى تسود فيها ظروف الانتاج الحديثة قد أصبحت عبارة عن مجموعة ضخمة من « المناظر » . فكل شىء فيها قد أصبح « صورة » بعد أن كان يرى رأى العين . وقد أصبح الواقع الاجتماعى في البلاد الرأسمالية والبيروقراطية على السواء منقسما الى حقيقة (أصل) . وصورة . وهذه العلاقة الاجتماعية التى انحرفت عن مسارها الطبيعى وتفككت عراها بسبب الشعور بالعداوة والاغتراب بين الناس تعنى أن الحياة قد أصبحت « مرئية » .

ولايخفى عليك أنه متى أصبحت الحياة مرئية أصبح من الممكن رؤية الجمال فيها . وقد أشرنا فيما سبق الى المرحلة التى حظيت فيها مظاهر الحياة اليومية بالاهتمام الكافي . حتى أصبحت موضوعاً لموقف جمالى . ولكن يجدر بنا أن نبين أن هذا الموقف الجمالى نفسه ليس « طبيعيا » بل هو ينتمى الى عالم الاغتراب . لسببين في وقت واحد ، أولهما أن رؤية هذا الجمال مبنية على أساس حدوث انفصام في النظام الطبيعى للأشياء (أى أغتراب عنصر ما عن مجال الفائدة) . وثانيهما أن هذا الانفصام لايتيح رؤية الجمال الحقيقى الا في بيئة تاريخية تألف هذا النوع من الرؤية . وبعبارة أخرى ان هذا الانفصام لايتيح هذه الرؤية الا منذ اللحظة التى تغترب فيها الرؤية الجمالية فتصبح مستقلة عن الفائدة بمعنى أن يبدع الفنان العمل الجميل حبا في ذاته لا في فائدته .

ومن المسلم به بوجه عام أن المجتمعات « البدائية » لاتعرف حقيقة الفن بالمعنى الذى نفهمه اليوم . فالأشكال والألوان والزخارف والمساكن الخ مهما بلغت من الأناقة والاتقان لا يراها الرجل البدائى مجرد علاقات شكلية أو مجرد توازن بين الألوان . والمشاهد في المجتمع الذى لاتزال فيه المجالات المختلفة المعروفة لنا (المجال السياسى والمجال الدينى والمجال التعليمى الخ) غير مستقلة . بعضها عن بعض . أن « زخرفة » الأشياء تقترن بمعان رمزية . مثال ذلك أن ألوان العمود الطوطمى (١) ترمز الى عقائد جماعية . كما أن الزجاج الملون يرمز الى معنى معين عند المسيحيين . ولذلك يجب على مؤرخ الفن أن يركز عينه على العمود الطوطمى والزجاج الملون اذا أراد تقويم مافيهما من أشكال وألوان . دون نظر الى معانيها الرمزية .

ولا يزال عدم التمييز بين الجمال وغيره من الأمور واضحاً بين الأغارقة . ويتجلى ذلك في المعنى المزدوج لكلمة « تكنى **Tekhn** » عندهم التى تدل على الفن والحرفة في وقت واحد . وقد اكد هيدجر هذا المعنى المزدوج حيث قال ، « ان هذه الكلمة (تكنى) لاتعنى فقط الحرفة التى يمارسها الصانع .

---

(١) عمود يزدان بمجموعة من الرموز الطوطمية (نسبة للطوطم ، وهو حيوان أو نبات تتخذه الأسرة أو العشيرة رمزاً او شعارا لها) تمثل أنساب الأسرة أو العشيرة ، وتتخلله غالبا اشارات الى الحوادث التاريخية أو الأسطورية ، وينصب هذا العمود عادة أمام بيوت قبائل الهنود الحمر في الساحل الغربى من أمريكا الشمالية : المترجم

بل تعنى ايضا الفن بمعناه الاسمى . والفنون الجميلة جميعا ثم يضيف ، لم تكن الأعمال الفنية بأى حال موضعا لتذوق الجمال . ولم يكن الفن عنصراً من عناصر الانتاج الثقافي . ولاريب في أن رؤية الأشياء كانت شاملة وغير متخصصة . وذلك في عالم لايفرق فيه الناس بين النافع والجميل . بل يرون أن المنفعة والجمال صنوان لايفترقان . ولذلك لم يكن بد من حدوث تطور حقيقى تطور من العصور الوسطى التى كان العمل فيها كاملاً في معناه . وجماعيا في لغته (يجمع بين المنفعة والجمال) . الى عصر النهضة الأوربية الحديثة التى شهدت استقلال عالم الفن . ثم الى عصر الرومانسية التى نادت بنظرية « الفن للفن » وماتبع ذلك من ظهور الأشكال الفنية المتحررة من القيود التى لاتمت للفن بصلة تلك الأشكال التى ألفناها في القرن العشرين . يقول جون كيج : « لا يمكن تذوق فن الموسيقى الا اذا فصلناه عن الحياة » .

هذا ووراء استقلال الفنان ، واستقلال أعماله ، واستقلال الرؤية الجمالية . يوجد نوع آخر من الاستقلال وهو استقلال الرجل المعاصر الذى أصبح عرضة للاغتراب . وصار موزع الفؤاد بين ضروب النشاط المختلفة التى استقل بعضها عن بعض . يضاف الى ذلك أن ثمة مايدعو لرد هذا التحول الذى طرأ فجأة على الرؤية الجمالية الى ظاهرة تحويل الذاتى الى موضوعى (خارجى) . ومن أمثلة ذلك أننا ننظر اليوم الى ظروف حياتنا نظرة أثنولوجية (قومية) لأن هذه الظروف قد أصبحت خارجية ان لم تكن معادية لنا . وبذلك أصبح من الممكن رؤيتها رؤية موضوعية لاذاتية . وكذلك يمكن القول بأن الرؤية نفسها في عالم تسيطر فيه الشؤون والعوامل الخارجية قد نبذت مفاهيمها المعوقة لها الى حد أنها تطالب الآن بالتحرر والاستقلال لتصبح ملكة مستقلة قائمة بذاتها كملكة الذكاء وملكة الخيال التى تنزع كل منهما الى أن تكون ملكة مستقلة ومما تجدر الاشارة إليه في هذا المقام أن هذه العلاقة الجديدة التى تربطنا بالعلم تظهر وتتطور في وقت احتلت فيه التجارة مكان الصدارة في العالم . ولكن عندما نربط الأسلوب الجديد للرؤية بعصر التجارة خاصة وبالنظام الاجتماعى والاقتصادى عامة فاننا نخشى أن نهمل عاملا آخر على جانب كبير من الأهمية أيضا هو الاتجاه الى رؤية العالم والاطلال عليه من شرفة المستقبل . وبعبارة أخرى رؤية الحياة اليومية رؤية استعادية (١) .

الرؤية الاستعادية

عندما هبط ألدرين وأرمسترونج على القمر في ٢٠ يولية ١٩٦٩ هللت وسائل الاعلام لهذا الحادث التاريخى . ولكن من الغريب أن المشتغلين بعلم الاجتماع لاذوا بالصمت . وكان عرض من أعراض الشلل الطبيعى الذى يحول دون الإمساك بجسم متحرك قد اعتراهم فمنعهم من أن يدركوا حدثا لم يكن من

(١) الرؤية الاستعادية هى استعادة ذكريات الماضى واستعراض أحداثه : المترجم

المكن أن يظل ساكنا . ولكن رجال الفن كانوا اكثر ادراكا لما كان يحدث . وبخاصة ادراكهم لتلك النظرة الشاهقة التى اشعرتنا لأول مرة بأننا أبناء الأرض . ففى أواسط العقد السابع بينما كانت الأقمار الصناعية تسلط عدسات التصوير على الأرض ظهر الفن الأرضى بعد الفن الشعبى ، دوائر عملاقة فى الصحراء، وتشكيلات صخرية متحركة، وأشكال واضحة فى مساحات شاسعة مغطاة بالثلوج. ولم يكن من المكن رؤية هذه الأشكال والمناظر بصورة واضحة من مستوى الأرض بل كانت رؤيتها تتطلب النظر اليها من علو شاهق وهم يقولون لنا ان الأرض كلها عبارة عن رقعة منقوشة . أليست الأرض تبدو كذلك فى صور الأقمار الصناعية ؟ وقد تحدث رواد الفضاء الأولون بحماسة عن منظر « نور الأرض » وكانوا فى الواقع يبشرون باكتشاف شىء جديد ، بطريقتهم الخاصة ، ومن حيث لا يعملون .

ولكن غزو القمر لم يكن سوى مظهر واحد من بين مظاهر عديدة (التلوث ، الخطر الذرى) لعملية « تجسيم » الكرة الأرضية أى رؤيتها على شكل جسم خارجى بارز للعيان . ورؤية الأرض على هذا النحو ترتبط ارتباطا وثيقا بالتطور التكنولوجى الذى طرأ خلال العقود الماضية . اذا كانت الثورة الألكترونية شرطا مسبقا للطيران فى الفضاء خاصة . ولم يترتب على ذلك نتائج فنية فحسب . بل تغيرت بسببه علاقتنا بالعالم المحيط بنا تغيرا عميقا . ولقد كان من مزايا المرشال مكلوهان أنه اكد الرؤية الجديدة للبيئة التى أدت اليها التغييرات التكنولوجية . وعلى الرغم من أنه لم يخصص أى دراسة فاحصة لها فان هذه الفكرة تسرى فى كتابه كله سريان الماء فى العود، وهى ان العالم المحيط بنا لاتمكن رؤيته . ولذلك لا بد أن تحل بيئة تكنولوجية محله ، أو تبرز ازاء الأفق القديم ، لتجعل هذا العالم مرئيا لنا . فيصبح مادة أو محتوى للبيئة الجديدة التى تتحول الى بيئة مضادة أو مقابلة للعالم المحيط بنا ، وحينئذ يتسنى لنا أن نراه لأول مرة ، على الرغم من أنه ظل معروفا لنا دائما . ويحلو للمرشال مكلوهان أن يكرر هذه العبارة : أن السمك لا يعرف ماهو الماء حتى يحين اليوم الذى يخرج فيه من الماء .

يضاف الى فكرة الرؤية هذه فكرة أخرى لاتنفصم عنها فى الواقع . وهى أن الانتقال من بيئة الى أخرى هو الخطوة الأولى فى طريق العمل الفنى . وبعبارة أخرى أن الشىء الذى تتعلق به الرؤيا الجمالية يعمل دائما داخل البيئة الأولى ، أى يكون « محتوى » لها . وبذلك يتحول هذا المحتوى الى عمل فنى عند استخدامه من الداخل . مثال ذلك أن الطوب فى البناء الأثرى القديم يصبح بمثابة نوع من الزخرف فى البيئة الجديدة . وكذلك عند الاستغناء عن الروافد الخشبية أو الحديدية فى المبانى تصبح هذه الروافد محلا للرؤية الجمالية . ومما يثبت صحة رأى مكلوهان ولع الناس الى درجة الهوس باقتناء السلع والازياء القديمة التى عفى عليها الزمن . وجدير بالذكر أن مكلوهان لا يرى أن الأشياء هى فقط التى تتحول الى عمل فنى بمرور الزمن بل العصر كله يتحول كذلك . فالآلة حين استخدمت حولت الطبيعة الى عمل فنى واختراع المطبعة حول العصور الوسطى الى عمل فنى . والعصر الصناعى حول عصر النهضة الى عمل فنى .

والعصر الصناعي بدوره قد برز للعيان . واصبح محلا لرؤية الجمال . بعد أن أصبحت السيارات والقاطرات والطائرات جزءاً من المتاحف . وعلى مستوى وسائل الاتصال أصبح التلفاز بيئة للسينما أى أن الأفلام السينمائية أصبحت محتوى للتلفاز تستخدم فيه وتعرض على شاشته وبذلك تحولت السينما الى عمل فنى يتذوق الناس فيه معنى الجمال . وسوف يحل الدور على التلفاز فيصبح هو الآخر عملاً فنيا عندما يحاط ببيئة جديدة . والواقع أننا نقترب من الزمن الذى تصبح فيه شؤون الانسان كلها عملا من أعمال الفن . وفي عصر الفضاء أصبحت الأرض كلها عملاً فنيا في الحقيقة . ذلك أن الكبسولة والقمر الصناعي قد خلقا بيئة جديدة تحيط بكوكبنا الأرضى . وكوكبنا هو الآن محتوى لأشكال جديدة من الفضاء خلقتها التكنولوجيا الجديدة . ومعنى هذا أن كوكبنا الأرضى قد أصبح بيئة مضادة . وعملا من أعمال الفن .

ومهما تكن الانتقادات التى توجه الى نظريات مكلوهان القاطعة فلا شك في أنه أبرز السمات الجديدة للعصر الذى دخلنا في رحابه . على الرغم مما يشوب أقواله من مغالاة . وماتتسم به نظراته من العمق . ومما لاريب فيه أنه يتعين علينا الاشارة الى عوامل أخرى كان لها أثر في الرؤية الجمالية لبيئتنا اليومية . منها : غروب شمس أوربا والسيادة التى بسطتها على العالم (استئصال شأفة الاستعمار) . ومنها التناقضات التى تنطوى عليها الأحوال غير الانسانية السائدة في البيئة الحضرية . وعلى رأس ذلك كله التدهور الذى بدأ منذ العقد السابع يعترى حديقة نيويورك ـ العاصمة العالمية للتجارة والحياة الفنية ـ ولذلك لم يكن عجبا أن تكون نيويورك مسرحا لتطور (ان لم يكن ظهور) الفن الشعبى . لأن هذا الفن يعنى بأظهار ماتتسم به البيئة الحضرية من طابع خاص ونسبى في وقت واحد . ويعنى ظهور هذا الفن في هذه المدينة الكبرى أنها أصبحت قبلة الأنظار لما تحتويه من العمائر التى تعد أعلى المبانى في العالم . ومن هذا الوجه يمكن القول عن الفن الشعبى ان البيئة قد أصبحت هى المحتوى لهذا الفن .

ولذلك فإن الفن الشعبى يؤيد صحة نظريات مكلوهان لسببين الأول أنه يؤيد فكرة البيئة المضادة. وهى الفكرة التى تعد عاملاً من عوامل « الرؤية » الجمالية . والثانى أنه يوضح أن وسيلة الاتصال (الصورة في هذه الحالة) أهم مما توصله هذه الوسيلة . ولكن هناك مظاهر أخرى للفن الشعبى على جانب كبير من الأهمية من الناحية الاجتماعية . وهى تعلل حدوثه . ويمكن تلخيصها فيما يلى : جفوة البيئة الحضرية المعاصرة . وظهور المجتمع الاستهلاكى . ومايترتب عليه من فيضان السلع . وظهور بيئة يشيع فيها فن التصوير (الاعلانات والتلفاز الخ) . وطابع الانعزال والسلبية الذى يتسم به عالم يعتقد أن القنبلة الهيدروجينية هى وسيلة المحافظة على السلام . كل هذه العوامل تحتوى على عنصر الحقيقة . ولكن من الخطأ أن نستنتج من ذلك ـ كما يفعل البعض ـ أن الفن الشعبى يدل على ظهور « واقعية رأسمالية » . أو أنه يعلمنا شيئا عن « الواقعية الاشتراكية » فلاهذا الاستنتاج يدل على جهل مطبق بمقصد الفن الشعبى الذى لا يهتم باستكشاف الحقيقة . بل يقف بعيداً عن الحقيقة . ثم يكسوها ثوب الخيال .

ومن التناقض أن هذا البعد عن الحقيقة هو الذى يجعل صلة هذا الفن بالحياة الاجتماعية أوثق ماتكون . والدليل على ذلك أنه ماكان لهذا الفن أن ينشأ تلقائيا في أماكن مختلفة في نهاية العقد السادس لو لم يكن هو استجابة حقيقية لمطلب اجتماعى . وهذا يدل على تكيف هذا الفن مع ظروف المجتمع . شأنه في ذلك شأن كل انتاج فنى وثقافي . ولكننا نلاحظ في حالة الفن الشعبى أن الحياة الاجتماعية لاتحتوى العمل الفنى . لأن هذه الحياة ليست حيزاً مغلقا يشق فيه التعبير الفنى طريقه . بل هى ـ على العكس ـ حيز يسعى الانسان للخلاص منه . ولذلك فان « حضارة الصور » التى سبق أن ذكرنا أنها من شروط الموقف الجمالى لايمكن أن تكون سببا للفن الشعبى . ذلك أن الفن الشعبى حين يعود الى الثقافة الجماهيرية لكى يخلق منها بيئة مضادة يقوم بدور المهين على هذه الثقافة . فليست اذن حضارة الصور هى السبب في الفن الشعبى . بل ـ على العكس ـ نجد أن هذا الاخير يسلط نظره عليها فيبين لنا لغتها ومعانيها . ومن هذا الوجه نقول ان الفن الشعبى يعبر عن الحياة الاجتماعية .

فهدف الفن الشعبى اذن هو اظهار الحياة الاجتماعية . ومن الناحية الأبستمولوجية (ناحية المعرفة) يتيح لنا هذا الفن أن نفهم أن هذا العالم لايظهر للعيان لاستجلاء معانى الجمال فيه الا بشرط أن تنفصم علاقتنا به (ليصبح هناك راء ومرئى) . وليس هذا الانفصام ـ أو الاغتراب ـ مجرد الوقوف على بعد من العالم . أو طرح ذا تيتنا جانبا كما يقول الفلاسفة الوضعيون . كما أنه لا يعنى تغيير العالم كما يقول الماركسيون الذين أكدوا العلاقة الوثيقة بين المعرفة النظرية والممارسة العملية .ولذلك يجب علينا أن نعكس هذه المصطلحات فنقول ان الممارسة العملية تحجب الحقيقة . وأن ما يمكن رؤيته هو الذى ينعكس عمله الطبيعى . ويصبح « غريبا » بالنسبة لنا . وقد أوضح هيدجر ذلك على المستوى النظرى عندما ميز بين « العمل » الذى يسمح لنا بالتعرف على الآلة وبين « الوجود » الذى يجعل هذه الآلة بارزة للعيان . كما أوضحه دوشامب على المستوى العملى حين قال بتجريد الشىء عن الفائدة والمنفعة .

ومن ذلك يبدو أن العلاقة التى تربطنا بالعالم على ثلاثة ضروب . الممارسة العملية (ومثالها الكلام أو القول) . والمعرفة النظرية (ومثالها علم اللغويات) . والرؤية الجمالية (ومثالها نظم القريض) . والظاهرة الأخيرة هى تجعلنا نقف أمام الأشياء وجها لوجه لنتذوق معنى الجمال فيها . أما فيما يتعلق بطرق الانفصام المختلفة فان الفن الشعبى يضيف عنصراً جديداً وهو وضع الأشياء اليومية على بعد ثم كشف القناع عنها وتجليتها « بواسطة لغتها نفسها » . ويمكن القول بأن حضارة الصورة هى صورة الحضارة . وليس هذا الكلام من قبيل تفسير الماء بالماء . لأننا رأينا أن الصور السائدة يطرأ عليها تغيير مخالف للحقيقة مما يجعلها محلا للرؤية الجمالية . يضاف الى ذلك أن الفن الشعبى ـ وان لم يكن هذا قصده ـ ينطوى على نقد ضمنى لأغلب نظريات المعرفة التى تتجاهل وسائل الاتصال الجديدة . أو ترى ـ في أحسن الأحوال ـ أنها مرشحات أيديولوجية (عقائدية أو مذهبية) لتصرف انظارنا عن الحقيقة . دون أن تلاحظ أن هذه الأخيرة تعتمد على الأولى .

والخلاصة أن الأهمية الاجتماعية للفن الشعبى لاتكمن فيما يقوله عن المشاهد اليومية والصور الجماهيرية فقط بل تكمن أيضا في قدرته على تحويلها إلى موضوعات للبحث والحديث. وكل منا يشعر ـ ولو أنه شعور يشوبه الالتباس ـ بأن عالمنا المألوف هو الآن. كما يقول مكلوهان. « محتوى » لبيئة جديدة حدودها الألكترونات وغزو الفضاء. ولما كانت حضارتنا يزعجها شبح المستقبل، وينتابها التفكير فيه. فانها تتأمل نفسها في مرآة آفاقها. قلب النظر ـ مثلاً ـ في أفلام الخيال العلمى التى تلقى رواجا كبيراً. وقلب صفحات الكتاب المرسوم « صدمة المستقبل » لمؤلفه ألفين طوفلر. واذا كان المستقبل هو حياة الغد فانه موت اليوم. اننا نعرف الآن أن أعمالنا وأساليب تفكيرنا سوف تعتبرها ذرياتنا « عادات وتقاليد »، وان أشياءنا سوف يعتبرونها آثاراً قديمة.

والواقع أن الفن الشعبى، ورؤية الجمال في مظاهر الحياة اليومية بوجه عام. يشعران بأن العالم المعاصر وشيك الزوال. ان النظرة الجمالية التى قال سارتر انها « رؤية الحياة من زاوية الموت » لتدل على معرفة الذات في عصر يرى لأول مرة في التاريخ أن حاضره هو ماضيه.



●● المقال في كلمات

في الطبيعة ظواهر تعاونية تجرى في ظروف خاصة بين الوحدات الطبيعية من جماد أو حيوان أو انسان . وهذا المقال محاولة لدراسة هذه الظواهر ، بالوصف والشرح ثم التحليل ، وأخيرا محاولة استخلاص قواعد مشتركة يمكن تطبيقها على المجتمعات البشرية . وقد ضرب الكاتب لذلك بعض الأمثال : في الأحياء سمكة منفردة تسبح كما يحلو لها ، فاذا اجتمعت مع غيرها وكونت سربا شاع في السرب ظاهرة تعاونية ، وسلك سلوكا مشتركا . وضرب في مجال الفيزياء الحديد الممغنط ، والماء الذى يسيل من صنبور فيملأ دلوا ، وطبقة من ماء تسخن من أسفل . واستخلص من هذه التجارب قواعد أطلق عليها بعض المسميات من قبيل : الأنظمة الحرة والأنظمة القسرية ، التماثلات . والتماثلات المتقطعة والانتقالية ، والنقطة الحرجة ، وقوة المزاوجة (أو التجميع) ، والحساسية الفردية ،والحساسية الجماعية ، والتقلبات التلقائية ،

الكاتب : بيير جيل دى جين

فيزيائى تلقى تأهيله بدار المعلمين العليا . وبالمركز النووى بساكلاى · تناولت أعماله البداية المغناطيسية . وانتشار النيوترونات ؛ ثم أنشا في كلية أورساى مجموعة متخصصة في « المعادن فائقة التوصيل » (١٩٦٢) . ومجموعة متخصصة في « البلورات السائلة » (١٩٦٩) · مارس التدريس منذ ١٩٧١ في « كوليج دوفرانس » . واستحث هناك فريقا يبحث في « الغرويات » . كما أسهم في عمل مشترك بين المعامل (« ستراساكول » ؛ ستراسبورج . ساكلاى . كوليج دوفرانس) بخصوص « البوليمترات » (المركبات المضاعفة الأصل : المترجم) · ومنذ عام ١٩٧٦ وهو يتولى ادارة المدرسة العليا للفيزياء والكيمياء الصناعيتين بمدينة باريس · ومع أنه نظرى حسب تأهيله فإنه يعمل جاهدا على أن يحافظ في عمله على روح عملية وتجريبية خاصة لا تلقى في فرنسا دائما من يدافع عنها ·

المترجم : أحمد رضا

ودلالات الاستجابة واضطرابات التقلب ، وأمثلة الليزر ، ونزوات « الموضة » .. وما الى ذلك

ثم انتقل من كل هذه التجارب والمشاهدات وما ترتب عليها من تفسيرات ونتائج وقواعد الى حالات مناظرة لها في المجتمع البشرى : في دور الحضانة ورياض الأطفال ، وفي عمليات الانتخاب للرؤساء ، والأنتاج الزراعى السنوى .. وانتهى الى بيان نواحى الشبه والأختلاف بين الظواهر التعاونية في عالم الفيزياء والكيمياء ، وبين نظيراتها في عالم الأحياء ، ثم في المجتمعات البشرية ، وفي كل هذه الظواهر تلعب كل من الصدفة والضرورة دوراً معينا له أثره في السلوك النهائى للوحدات والمجموعات .

١ ـ سمات عامة للظاهرة التعاونية

أولا :

١ ـ المغناطيس والسمك

تسير السمكة المنفردة بلا تبصر . ولكن إذا جمعنا عددا كبيرا من السمك من نوع واحد بحيث يتسنى للأفراد المتجاورين أن يتبادلوا بعض الإشارات فإنهم يتخذون في سيرهم اتجاها مشتركا .

أمامنا إذن ظاهرة « تعاونية » ، فهناك العديد من الأفراد يتفاعلون بقوة بعضهم مع بعض . ويتأثر بذلك سلوكهم الإجمالى .

وتزودنا العلوم الفيزيائية بتشكيلة كبيرة من مثل هذه الظواهر . مثال ذلك داخل بلورة من حديد ، نجد على كل ذرة بوصلة ميكروسكوبية ، « عزم » ذرة الحديد . وكل هذه « العزائم » متزاوجة . وفي درجة حرارة غير مرتفعة كثيرا تتجه كلها وجهة واحدة ويقال عندئذ إن المعدن « حديدى ممغنط » .

وفي زمن مبكر اعتقد بعض الباحثين أنه توجد علاقة وثيقة بين ظواهر تعاونية شديدة الاختلاف ، سواء كانت هذه الظواهر مغناطيسية ، أو سمكا ، أو مجتمعات بشرية (تبدى مثلا تأرجحا في الفكر) . والتماثل هنا مغر ، ولكنه دقيق ، وينبغى أن نذكر بعض الفروق الواضحة : (أ) الأشياء الأولية (مثل قطع المغناطيس الفردية) في الطبيعة أو الكمياء بسيطة نسبيا ومعروفة . فإذا كان « الشىء الأولى » هذا كائنا حيا يجب لوضعه بنفس العبارات إجراء « اختزال » خطير ، باختصار حالته الى عدد من المتغيرات الكمية المختارة . (ب) التكنولوجيا التى نجدها في العلوم الطبيعية أكثر خشونة بكثير من تلك التى نصادفها في العلوم الاجتماعية ، ولكنها على العكس من ذلك يمكن أن تكون موضوعا لتجريب « فعال » يخضع فيه الإنسان نظام الطبيعة لمختلف الاضطرابات ، ويتتبع استجاباته لكل من هذه الاضطرابات ومن شأن ثراء التجريب أن يعوض عن فقر المادة « النسبى » (ج) العلوم الطبيعية علوم قديمة نسبيا ، بلغت منهجيتها درجة معينة من التوازن ، وللباحثين فيها خبرة كبيرة بتركيب النماذج الكمية « الدنيا » (التى تعطى الجوانب الخاصة بالظاهرة) .

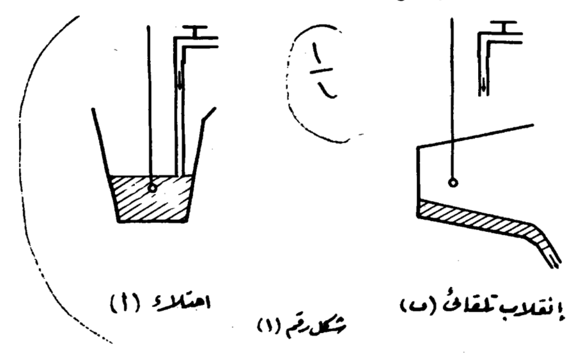
أما العلوم الأحدث فإنها على العكس من ذلك تجتاز مراحل متتابعة ومتعارضة ، مرحلة النظريات النوعية ، ومرحلة استخدام العلوم الرياضية المتقدمة (ويشجعها الآن وجود المنظمات الآلية) ، الخ .

والغرض من هذا المقال تقديم بعض الأفكار الرئيسية التى برزت في دراسة أبسط الظواهر التعاونية الفيزيائية الكيميائية بأمل أن يكون لبعض هذه الأفكار فائدة بالنسبة للظواهر الاجتماعية .

وسوف نمضى الى الأمام بعض الشيء ، فانطلاقا من مختلف الأوضاع الفيزيائية يمكن أن نقترح بعض الانتقالات الى المشاكل الاجتماعية . وسوف تجرى هذه المحاولات « من الخارج » دون الرجوع الى مؤلفات علم الاجتماع (التى لا يعرفها كاتب هذا المقال) . ثم إننا لا ندعى أن هذه الاقتراحات جديدة ؛ فالمفاهيم الكبرى الموصوفة فيما بعد من داخل العلوم الفيزيائية نفسها قد اكتشفها مرارا كثير من الباحثين في أمثلة مختلفة .

٢ ـ أنظمة حرة ، وأنظمة قسرية

تؤكد بعض التركيبات الفيزيائية أن النظام الجارى دراسته يمكن أن يحقق توازنا مستديما في داخل نطاق معين (كصندوق حرارته متماثلة) . وثمة تركيبات أخرى تبقى بذاتها النظام في حالة غير متوازنة (بوضع النظام مثلا داخل صندوق له وجهان مختلفان في درجة الحرارة) . فنحن في الحالة الأولى بصدد نظام حر . أما في الحالة الثانية فهناك على العكس من ذلك بعض التيارات التى تجتاز النطاق (تيار من الحرارة يتجه من الجدار الساخن الى الجدار البارد) . ومن ثم سمى النظام قسريا . هذه التفرقة هامة ، فالأنظمة الحرة تتجه الى حالة التوازن بموجب قوانين بسيطة نسبيا . ولا تتحول عن هذه الحالة الا إذا حدثت تطورات متقلبة . أما الأنظمة القسرية فإن لها تحركات أكثر نشاطا وخصوبة . ويبين المثال الموضح بالرسم رقم (١) إمكانيات الأنظمة القسرية . فالدلو يمتلىء ماء من صنبور بكيفية مستمرة . فعندما يكون الماء به قليلا يكون في الوضع رقم أ . ويستمر في الامتلاء . ولكن حين يتجاوز الماء مستوى معينا (المرحلة رقم ب) ينقلب الدلو ويفرغ من مائه . ويعود الى الوضع أ ؛ هذه حالة « تذبذب استرخائى » يتكرر الى مالا نهاية . وهى نموذج لبعض الأنظمة القسرية .



شكل رقم (١)

وسوف نناقش اولا الأنظمة الحرة . ونثبت مع فايدلش أن لهذه الأنظمة نظائر اجتماعية ليست تافهة ، ثم ننتقل الى الأنظمة القسرية التى تجلت أهميتها بنوع ما في الوقت الحاضر . ففى كل الحالات الاجتماعية الاقتصادية (أو البيئية أو الاحيائية) التى يدخل فيها تيار (من الطاقة أو المادة الأولية ...) في النظام . في الوقت الذى يخرج فيه تيار (من الحرارة أو الفضلات) يتعين التفكير بعبارات خاصة بالأنظمة القسرية .

٢ ـ تماثلات ، وتماثلات منقطعة .

يحدث كثيرا أن تخضع قوانين سلوك النظام الجارى دراسته لبعض « التماثلات » . مثال ذلك بالنسبة الى سرب من السمك : (أ) في حالة عدم وجود أى منبه خارجى لا تتوقف سرعة تنقل سمكة منفردة على الاتجاه الذى تختاره (شمالا أو شرقا) على المستوى الأفقى ، (ب) تجمعات الأسماك هى أيضا مستقلة عن الاتجاه الإجمالى للحركة . يقال عندئذ إن سرب السمك له مجموعة تماثل ج صفر (وهى هنا مجموعة الدورانات حول محور عمودى)

وبهذه الكيفية نتأمل في مجموعة من المغناطيسات الأولية . كما في الحديد . ونفرض مثلا أن لكل مغناطيس وضعين محتملين : الى أعلى . والى أسفل . (أ) فالمغناطيس المنفرد . في حالة عدم وجود أى تأثير خارجى . يحتمل أن يتجه الى أعلى أو الى أسفل على حد سواء (ب) طاقة المزاوجة بين مغناطيسين « الى أسفل » هى نفس طاقة المزاوجة بين مغناطيسين « الى أعلى »

يوجد هنا أيضا مجموعة تماثل ج صفر تصف المتبادل « أعلى » ـ « أسفل » .

الملاحظة الأساسية هى إذن الآتية : إذا حدث تبعا لظاهرة تعاونية أن اتسق النظام فإنه يتخذ تلقائيا وضعا يفتقد التماثل ج صفر . مثال ذلك الأسماك : إذا كانت تجمعاتها ضعيفة فإن كلا منها يسير بلا قصد . ولا يوجد اتجاه جماعى : فهنا قد روعى تماثل الدوران . ولكن إذا كانت التجمعات قوية فإن الأسماك ترتب نفسها بالتوازى جنبا الى جنب . وتختار لحركتها اتجاها مشتركا . وإذا أجريت اختبارات على مثل هذا السرب (وذلك مثلا بتسليط موجات صوتية مائلة بجهاز سونار) نجد سلوكا متباين الخواص . فقد انقطع التماثل ج صفر .

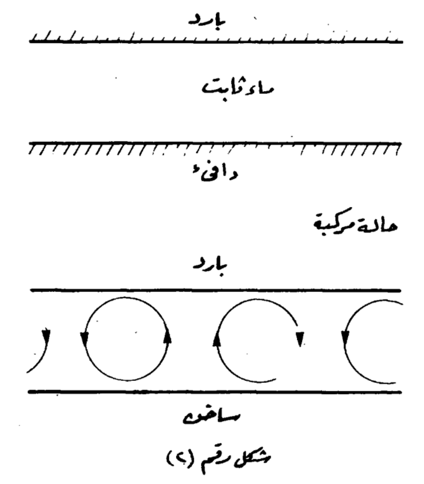
هناك في الواقع طريقتان لقطع التماثل ج صفر : (١) بوساطة مجال خارجى (بوضع طعام مثلا في اتجاه معين بالقرب من السرب) (٢) تلقائيا ، إذا بدىء من حالة معينة . وفجأة تعززت التجمعات (بتحسين شفافية الماء . أو أية خاصية أخرى تنظم تبادل الإشارات بين السمك) . فإن السرب يختار اتجاها معينا . بكيفية عشوائية . وعلى وجه أدق « بتنظيم المتغيرات » : فإذا كان هناك في البداية بضع أسماك زائدة (بالنسبة الى المتوسط) تسبح صوب الشمال الشرقى فإن مجموع السرب يتجه صوب الشمال

الشرقي . وانا لنرى في هذا اشتراكا هاما بين عاملي الصدفة والضرورة . إذ لا بد أن ينتج سلوك مشترك لدى الجماعة . ولكن اختيار هذا السلوك يرجع الى عامل الصدفة .

وإنا لنجد الفكرة دون شك في حالة المغناطيس . ففي الوضع المرتب تنزع قطع المغناطيس الى التوازي . وتختار أن تتجه مثلا الى أعلى وفي هذه الحالة ينقطع التماثل « أعلى / أسفل » .

٤ ـ الصلة بمبدأ كوري

أعلن بيير كوري منذ قرابة مئة سنة مبدأ عاما يتعلق ببنيان القوانين الفيزيائية : « تماثل النتائج هو هو تماثل الأسباب » . هذا مبدأ عام وصحيح في كل الأحوال تقريبا . ولكنه يختلف في حالة انقطاع التماثل انقطاعا تلقائيا : ففي لحظة الانقطاع توجد عدة حالات نهائية محتملة على حد سواء . فيختار النظام واحدة فقط منها . وليس لمبدأ كوري معنى صحيح إلا حين تكون الحالة النهائية (التي تعرف « النتائج ») واحدة فقط .



شكل رقم (٢)

٥ ـ انقطاع التماثل في النظم القسرية

مثال المغناطيس المذكور آنفا ينتمى الى نظام حر . غير أنه من المهم أن نرى أن الانقطاعات التلقائية في التماثل كثيرة الحدوث في النظم القسرية ، من ذلك مثلا أننا إذا سخنا طبقة من الماء من أسفل نشهد فوق مستوى معين حالة من عدم الاستقرار (تقليل بينار) بسبب أن الماء الساخن الأخف وزنا يميل الى الصعود . والأمر هنا نظام قسرى (يمر به تيار ساخن) ؟ كما يوجد أيضا انقطاع في التماثل كما يتضح في الشكل رقم (٢)

فطبقة الماء تحت المستوى المذكور لها « تماثل انتقالى » ، فإذا انتقلنا على طول المحور الرأسى صص ـ نجد الخواص نفسها في كل مكان . أما بعد المستوى . رقم ٢ فإن هذا التماثل ينقطع . فتظهر « تيارات حمل حرارى » .

لدينا هنا مثال بسيط للغاية من « التركيب في نظام قسرى » . ونجد الوصف النوعى فيما وراء العلوم الطبيعية في كتاب « التماثل في اللاتماثل » تأليف ر . كايوا . وقد عرف أ . بريجوجين أهمية هذه العملية وعموميتها (مثلا بالنسبة الى مناقشة أصل الحياة مناقشة شكلية)

٦ ـ تماثلات منفصلة وتماثلات مستمرة

يمكن في لغة الرياضيات أن تكون مجموعات التماثل ج صفر من نمطين ، مجموعات « منفصلة » ومجموعات « مستمرة » . ونذكر ، دون الدخول في تفاصيل هذا التعريف . أنه مرتبط بعدد من الحالات المحتملة بعد انقطاع التماثل ، ففى حالة المغناطيس لا يوجد سوى حالتين (أعلى وأسفل) . وعلى العكس من ذلك . بالنسبة الى السمك . يوجد عدد لا نهائى من الاتجاهات المحتملة للسير المشترك (كل زوايا البوصلة البحرية) . فالحالة الأولى منفصلة . أما الثانية فهى مستمرة .

وقد يبدو هذا الفرق الرياضى شكليا . ومع ذلك فهو جوهرى حين يهتم الإنسان بمواقف أكثر تعقدا . مثال ذلك : « التقاء سربين من السمك » . ففى مواقف ج صفر المنفصل يظهر بين مجالين من المجالات المختلفة « حد واضح » . أما في مواقف ج صفر المستمر فلا توجد أية حدود . وانما هناك تشوهات متزايدة باطراد . وأحيانا ظواهر شاذة في صورة « خطوط » أو « نقط » غريبة .

٢ ـ النتائج التعاونية المترتبة على التوازن

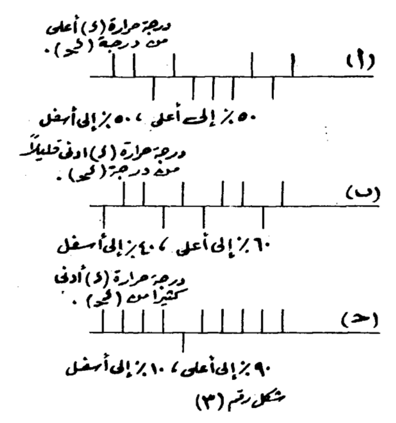
يتحرك النظام الطبيعى الحر متجها صوب التوازن . وعندئذ يسلك سلوكا عاديا بسيطا . ومع ذلك فكلما رأينا من قبل تتغير الأمور إذا لم تكن حالة التوازن هذه وحيدة ، أى إذا « تردد » النظام بين عدة أحوال .

وسوى نرى الآن كيف يمكن أن يبدو هذا التردد عند نقطة حرجة حين ننوع بعض متغيرات التوجيه .

ثانيا

١ ـ فكرة النقطة الحرجة

عند درجة حرارة مرتفعة ، تصير المغناطيسات الأولية في بلورة الحديد في حالة اضطراب شديد ، وليس لها اتجاه غالب . وبالعكس تحت درجة حرارة حرجة دج T_c تنظيم المغناطيسات ويأخذ معظمها اتجاها واحدا ؛ ومنها ما يأخذ وضعا « ضد التيار » ، ولكن كلما ازدادت البرودة ازداد التنظيم دقة كما تبين من الشكل التالي :



شكل رقم (٣)

وحتى يمكن إدارك حقيقة ما يحدث نقترح هنا مثلا آخر ، حدسيا ، ولكنه مجازى ، مبنى على سلوك اجتماعى لدى الأطفال (في دار حضانة) . فتحت سن حرجة معينة (حوالى سنتين ونصف سنة) يتبادل الأطفال الإشارات ويلعبون . ولكن ألعابهم ليست مدبرة . وبالعكس فوق السن الحرجة يميل عدد كبير من المجموعة الى الاشتراك في لعبة واحدة . ولنبدأ من الفرض بأن الصلة بين المغناطيسات والأطفال فرض له معنى ماذا نستخلص إذن من تجربتنا الفيزيائية على النظم المغناطيسية ؟ إنها توحى إلينا اولا باستخلاص متغيرين أساسيين ، (أ) قوة المزاوجة (او التجميع) بين الأفراد . (ب) الحاسية الفردية التى تقيس قدرة الشخص على الإجابة على الإشارات الخارجية (في حالة المغناطيس) تضعف هذه الحاسية حينما ترتفع درجة الحرارة .)

وعندما يتجاوز حاصل الضرب المزواجة × الحاسية حدا معينا يصير السلوك تعاونيا ، عند هذا يجتاز الفرد نقطة حرجة . ومن المفيد أن نعرف هل هذه الأفكار قد طبقت (أو يمكن تطبيقها) على المسائل الخاصة بسلوك الأطفال الاجتماعي .

٢ ـ دالات الاستجابة

عرضنا آنفا موضوع « الحاسية الفردية » . وثمة كمية هامة أخرى تتمثل في « الحاسية الجماعية » التى تعيش استجابة الفرد حين يخضع النظام في مجموعة لفعل خارجى مشترك ، مجال مغناطيسى بالنسبة للمغناطيسات ، أو مكبر صوت يرسل موسيقى الى أطفال الحضانة . وقد تكون الحاسية الجماعية « أكبر بكثير » من الحاسية الفردية ، فكل طفل لا يتلقى فقط الصوت الصادر من مكبر الصوت . وإنما يرى أيضا جيرانه وهم يدقون الوحدة الموسيقية . الخ .

وعند النقطة الحرجة تصير الحاسية الجماعية لانهائية . والقوانين التى تحكم هذا الشذوذ معروفة . ومن ثم يمكن التكهن باقتراب نقطة حرجة ، مثال ذلك بقياس الحاسية الجماعية لأعمار أطفال ينمون تحت السن الحرجة بقليل .

والحاسية الجماعية مثال من مفهوم أكثر شمولا ، مفهوم « دالات الاستجابة » . وهو مفهوم هام في دراسة كل النظم الاحصائية . وسوف نرى أمثلة أخرى .

٣ ـ التقلبات التلقائية ، ودالات الاستجابة

لنعد الى نظام المغناطيسات المتزاوجة ، ونفرض أن درجة الحرارة أعلى من النقطة الحرجة TC ($ج_د$) . لدينا في هذه الحالة ما متوسطه ٥٠ ٪ من المغناطيسات « إلى أعلى » ٥٠ ٪ « الى أسفل » ولكن هناك بالتأكيد تقلبات بالنسبة الى هذا المتوسط ، هناك إذن مجموعة كبيرة من النظم المغلقة تخضع لنظرية مفيدة ، تتناسب شدة التقلبات مع الحاسية الجماعية . وبنوع خاص إذا اقتربنا من النقطة الحرجة تصبح التقلبات كبيرة للغاية ، فلابد من اتباع طريقة أخرى للتحرى عن هذا الجوار .

٤ ـ نظم مجاورة

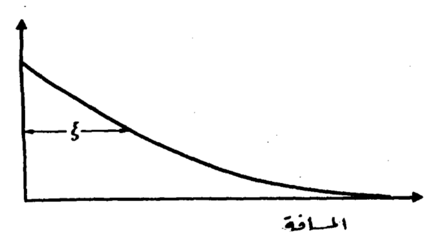
في الكثير من الأحوال تكون النظم الفيزيائية التى تجرى عليها مراقبة الظواهر التعاونية مواد صلبة ، تكدس فيها الذرات المكونة لها إما بنظام تام (بلورات) ، وإما بنوع من الاختلال (زجاج)

وفي هذه الأحوال تطرح مجموعة من المشاكل المرتبطة بالمدى « المكانى » للعلاقات المتبادلة بين الأفراد (تستهدف التطورات الكبيرة في الميكانيكا الإحصائية في عشر السنوات الأخيرة هذا النوع من الاسئلة) . وينطبق الوضع الذى عرفنا آنفا ، على المستوى الاجتماعى ، على مجموعة من الأفراد يشغلون مراكز ثابتة ولا يتبادلون المعلومات الا مع جيرانهم القريبين منهم . وهذا مانسميه بالنظام « المجاور » وفي مثل هذا النظام يمكن أن يخضع الأفراد أيضا لفعل « وسائل الاتصال بالجمهور » التى تؤدى دورا مماثلا لدور المجالات الخارجية بالنسبة الى المغناطيسات . غير أنه على العكس من ذلك لا يوجد تفاعل ثنائى مباشر بين فردين أحدهما بعيد عن الآخر .

هذا القيد الذى يقابل ما يجرى عادة في الفيزياء في المادة المكثفة يبدو أكثر تحديدا في علم الاجتماع ، على الأقل بالنسبة لمجتمعاتنا المعاصرة . فإن اختلاط الأفراد له تأثير كبير . وليس من شك في أن الشخص يتعامل بنوع خاص مع عدد محدود من الأشخاص الذين يتحدثون معه (زملاءه في العمل مثلا) . ولكن هؤلاء قد يكونون مقيمين في جهات بعيدة كثيرا عنه ، لذلك فإن العلاقات المكانية أقل تقيدا في المدينة منها في البلورة .

ولهذا السبب فاننا لن نلح كثيرا على الخواص المكانية للنظم المجاورة ، ولن نعرض لغير فكرتين أساسيتين مرتبطتين بهذه الخواص ، دالة الاستجابة غير المحلية وطول العلاقة المتبادلة .

تعرف « الاستجابة غير المحلية » بالعملية الآتية ، نسلط اقلاقا ضعيفا على شخص قائم في المنطقة (أ) أما الأشخاص الآخرون فلا يصحبهم أى إقلاق خارجى ولكن الشخصى (أ) يغير سلوكه ويؤثر في جيرانه الذين يغيرون بدورهم سلوكهم ويؤثرون من جهة على الشخص (أ) ومن جهة أخرى على جيرانهم الأكثر بعدا ، وأخيرا يمكننا أن نقيس تغيرا في سلوك شخص بعيد (قائم في نقطة أ) ، هذا التغيير يتناسب مع شدة الإقلاق في النقطة (أ) ، ويحدد معامل التناسب الحساسية غير المحلية (أ) وفي الكثير من الأحيان يتناقص (أأ) × حينما تبعد نقطة الملاحظة أ من نقطة الأقلاق أ (الشكل رقم ٤)



شكل رقم (٤)

وبالاجمال (١) تصبح الدالة × عديمة الأهمية فيما بعــد مدى معين موصوف (أ X) وهو طول العلاقة المتبادلة .

وفي حالة الاضطراب الشديد يكون طول العلاقة المتبادلة قليلا (بالنسبة البعد بين الجيران) ولكن إذا اقتربنا من النقطة الحرجة يزداد الطول ٤ زيادة كبيرة . ويتحول الى د = $\frac{د}{و}$ = T T واقتضى الأمر خمسين سنة ليمكن فهم القوانين الرياضية التى تحكم هذا التحول . ولكن الموقف أصبح اليوم منضبطا .

ملاحظة : في كل المناقشــة السابقة افترضنا أن المزاوجات بين الجيران موجودة بالفعل أما الحالة التى « ينقطع » فيها بعض الصلات بين الجيران . وينقص فيها الاتصال بدرجة كبيرة فإنها تتضمن ما نسميه بظاهرة « الرشح » . ونحيل القارىء بشأنها الى مقال افتتاحى آخر (٢)

٢ ـ صورة تخطيطية لتطور زمنى

ثالثا
١ ـ اضطرابات ضعيفة بالقرب من حالة توازن

يخضع النظام أو الأفراد الذين نلاحظهم دائما لمؤثرات خارجية : من ذلك أن سرب الأسماك يتلقى منبهات شديدة الاختلاف (إضاءة موجهة . تدرجات في الحرارة وفي الملوحة . الخ) . والى الآن لم نذكر سوى الاستجابة لمنبه ضعيف ومستمر . وفي وجود مثل هذا المنبه ينتهى النظام بتحقيق توازن داخلى

وهنا يظهر محوران للتعميم : (أ) حالة المنبهات الضعيفة . ولكنها تتنوع من حيث الزمن (ب) حالة الاضطرابات القوية والتقلبات الناتجة عنها .

نمر سريعا على الحالة (أ) : الأداة الأساسية لتحليل هذه الأوضاع هى فكرة « دالة الاستجابة المؤجلة » يستخدم اضطراب (الفترة قصيرة للغاية) في اللحظة t (ل) ونقيس الأستجابة في لحظة لاحقة (ا) $ل_{ع}$ t فدالة الاستجابة × ($ل_١$ $ل_٢$ $t_٤$ $t_١$) × تعطى معلومات دقيقة عن الديناميكية الداخلية للنظام . نذكر مثالا لذلك أن الاستجابات تصير بطيئة للغاية حين نقترب من نقطة حرجة .

(١) على الأقل حينما تكون في المرحلة المضطربة . أما في المرحلة المنتظمة ، حين تكون المجموعة ج صفر مستمرة ، فقد تظهر تناقصات بطيئة للغاية .

(٢) ت . ج . دوجين . « البحث ، ٧ » صفحة ٩١٩ ، ١٩٧٦ .

٢ - طائفتان من عدم الاستقرار

يمكن جعل النظم المألوفة كلها مضطربة .

أولا ، نظام من المغناطيسات الحرة المتزاوجة يصبح مضطربا إذا سلط عليه مجال مضاد للاتجاه الذى اتخذه .

ثانيا ، نظام قسرى تمر به تيارات شديدة ، يكون مضطربا في الكثير من الأحيان ، مثال ذلك القطاع المائى الذى سخن من أسفل ، والموضح بالرسم رقم (٢) ، رأينا كيف أنه مر من الحالة البسيطة ب الى الحالة المركبة م .

وتظهر الاضطرابات بصور منوعة للغاية ، وتعطينا « نظرية الكوارث » تصنيفا هندسيا ومن وجهة النظر التى تهمنا في هذا الموضوع توجد تفرقة رئيسية بين نوعين من الاضطراب ،

– اضطراب التقلب ، انحراف ، قد يكون صغيرا للغاية بالنسبة الى الحالة (ب) ، ينمو باطراد مع الزمن ، ويطور النظام من الحالة ب الى الحالة م (حالة رأيناها في مثال طبقة الماء بصفحة ٢١٧)

– اضطراب « التنوى » ، يظل النظام ب مستقرا بالنسبة لكل التقلبات الضعيفة الشدة ، ولكنها تصير مضطربة بالنسبة لبعض التقلبات القوية .

وسنوضح هذه الأفكار المبهمة بعض الشىء ببضعة أمثلة محسوسة .

٣ - نوعان من اضطراب التقلب :

الليزر ، ونزوات « الموضة » (الزى) .

الليزر نطاق نجد فيه جسيمات ضوئية (فوتونات) ف ، وذرات مثارة ذ بجهاز ملحق ، والعملية الأساسية هى ، فوتون واحد ف « يصل على ذرة ذ يمكن أن يزيل تهيجها (ذ ← ذ) ويتسبب في تكون فوتون ثان ف؟

ف + ذ ← ف + ف + ذ

هذه العملية (التى تكهن بها أينشتاين) تشكل ما يسمى « الابتعاث المستثار » ويمكن أن يؤدى الى اضطراب متقلب . والابتعاث المستثار يزيد من الفوتونات الموجودة ، فضلا عن أن عدد هذه

الفوتونات كبير من قبل . والعملية تتنافس بطبيعة الحال مع بعض أنواع النقص (امتصاص الفوتونات) ، ولا ينتج الاضطراب الا حين تزداد نسبة الذرات المستثارة ذ بدرجة كافية . عندئذ تشتد التقلبات في عدد الفوتونات . وهناك تنافس بين مختلف أنماط الفوتونات الممكنة ، فالنمط الذى يشتد أكثر من غيره هو الذى ينتصر ويستقر في تجويف الليزر إشعاع صاف بنوع خاص (إشعاع « مترابط »)

وكان لابد من انقضاء زمن طويل للانتقال من الانبعاث المستثار الى الليزر ولكن هذا النوع من عدم الاستقرار التعاونى يوجد الآن في فروع من العلم شديدة التنوع وكتاب هذ هيكن « مقدمة في التعاونيات » يفيد كثيرا القارىء الذى لا يخشى شكليات العلوم الطبيعية . من ذلك مثلا أن عملية تطور نوع من الأحياء (الفيروس) التى تخضع لتحولات عشوائية . ولتأثير الانتخاب الداروني (نسبة الى دارون) تحكمه معدلات قريبة الشبه من معادلات الليزر .

ونذكر هنا مثلا مختلفا بعض الشيء . يتعلق بنزوات البدع الشعبية (الموضة) . فثمة « موضة » جديدة تظهر بصورة مفاجئة طاغية ، فهى حالة اضطراب تعاونى تشمل عدة نظم (من مستهلكين ومنتجين) مقترنة بوسائل الاتصال الجماهيرى . ونختار من بحثنا هذا حالة بسيطة نسبيا لايبدوفيها، سوى ظاهرة أولية ، ذلك ما أسمية « الاضطراب بأسلوب فنتانج » . كانت السيدة فونتانج في حديقة في يوم اشتدت ريحه . وقد تطايرت خصلات شعرها . فراحت تربطها كيفما اتفق بشريط ما . وفي اليوم التالى فعلت كل النساء الأنيقات في البلاط مثلما فعلت هى . ولعل هذا المثال من الأمثلة الشاذة بسبب ما كانت تتمتع به السيدة من خطوة لدى الملك . ولكنى أقدم هذا المثال لأنه يوضح حالة لا يعتقد فيها ظهور « الموضة » بمشاكل خاصة بالسلع المخزونة (فالشريط ليس سلعة نادرة) أو بالانتاج أو السعر .

والعملية تجرى كما يأتى ، نبدأ من مجتمع يسوده نظام مستقر . وفيه عدد محدود من تصفيفات الشعر . وكلها مقبولة ومستعملة . ثم يحدث تغير غير عادى ، فثمة عضو (الآنسة فونتانج) تجد نفسها في وضع شاذ . هذا العضو الشاذ « ف » يقابل شاهدا « ذ » يدهش من الوضع الشاذ . وبعد فترة قصيرة جدا من الزمن (الوقت الذى ينقضى حتى يعود المشاهد أمام مرآته) يصبح المشاهد ممثلا ويتخذ لنفسه الوضع «ذ»

ف + ذ ← ف + ف

وتستمر العملية . وكل حالة ف تنشأ من جديد تولد ممثلين جددا . والشبه بين هذه الحالة وبين « الابتعاث المستثار » واضح للغاية . وفي هذه الحالة أيضا . وبطبيعة الحال آليات مبددة تكافح ضد الاضطراب (التعليقات القاسية التى يوجهها السيدات العجائز في البلاط ترد بعض النساء الصغيرات المتخوفات) . أما إذا كان الموقف البدائى ملائما وكان البلاط في هذه اللحظة في مستوى من الاستعداد الذهنى (المماثل للذرات المستثارة في تجويف الليزر) فان الاضطراب يحدث .

وهناك الكثير الذى يمكن التحدث عنه بشأن التطور اللاحق . ومختلف المراحل الزمنية المتضمنة . ودور الإنتاج ووسائل الإتصال . والتطور المركب لهذه النظم الثانوية المختلفة . غير أن هناك سؤالا هاما يتبدى بهذا الشأن ، هل لدينا على غرار ما في الليزر حالات نهائية من « الموضة » يختلف بعضها عن بعض من حيث معدلات تضمنها . بحث يختار النظام بالضرورة النهاية التى يكون معدل نموها أسرع من غيرها ؟ أو أننا بصدد وضع فيه العديد من الحالات النهائية المحتملة التى لها أساسا نفس معدل النمو الابتدائى ؟ فإذا كنا في الحالة الثانية فإنه لابد من وجود « تأثير تعاونى ثان » لكى نفهم السبب في اختيار أسلوب واحد فقط (وهذا ما يحدث غالبا) . وهذا التأثير الثانى قد يكون ذا طبيعة نفسية اجتماعية (تأثيرات التشجيع المتبادل بين « الشواذ » من نوع واحد) أو طبيعة اقتصادية (توجيه وسائل الإنتاج الى هدف واحد) ، وفي هذا شيء كثير يتعين الكشف عنه .

٤ ـ ظواهر « التنوى » (تكون النوى على سطح متحول الطور)

وأوضاع إنتخابية لإيضاح تأثيرات التنوى نعود أولا إلى مجموعة من المغناطيسات المتزاوجة (تحت نقطتها الحرجة) ونفترض أنها موجهة « إلى أسفل » (نختار هنا نظاما متجاورا . بالإضافة إلى مجموعة ج صفر منفصلة) . نفترض الآن مجالا خارجيا مسلطا على المغناطيسات وينزع إلى توجيهها « إلى أعلى » . أصبح الوضع البدائى إذن غير مستقر . ولكن كيف يجرى التغير ؟

يبدأ النظام « بتوليد » « بذرة » . أى مجموعة من المغناطيسات المتجاورة الموجهة اتجاها صحيحا (إلى أعلى) وتتيح التقلبات التلقائية للنظام (وهى موجودة دائما) إنتاج مثل هذه البذرة . ولكن مصير البذرة غير مؤكد . فإذا كانت صغيرة للغاية فإن تأثير المجاورات عليها يجبرها في الكثير من الأحيان على النكوص . ولكى تستطيع التغلب على مجاوراتها ينبغى أن تكون قد بلغت حجما خطيرا . غير أن التقلبات التى تولد مثل هذه البذرة نادرة .

وبالإجمال إذا كان المجال الخارجي ضعيفا كان الزمن اللازم لتولد البذرة طويلا . والتوانين الكمية في هذا الشأن معروفة . غير أن هناك تعقدا ، ذلك أن نشوء البذور حساس للغاية بالنسبة الى التباينات المحلية ، اى المجموعات الصغيرة التى يختلف سلوكها عن السلوك المتوسط . فعملية التنوى « تكشف عن عيوب البناء الأصلى » .

ملاحظة اخرى ، التنوى . كما وصفنا آنفا ، لا وجود له الا بالنسبة إلى النظم التى يكون فيها مجموعة التماثل المنقطع ج صفر « منفصلة » . أما بالنسبة إلى النظم ذات المجموعة ج صفر المستمرة فهناك وسائل أشد فاعلية لتعميم الاضطراب . ذلك لأنه لا يوجد هنا حاجز قاطع بين البذرة ومجاوراتها . وسوف نجعل هذه النظريات أكثر وضوحا بمثال عن الإنتخابات ، (ا) في انتخابات رياسى . مع مرشحين س ٢

ص . لكل ناخب ثلاثة مواقف محتملة (س . ص . وامتناع) ، فهنا ج صفر منفصل ويمكن أن ينشأ موقف « تنوى » إذا كان الناخبون يشكلون منذ البداية أغلبية تعاونيَة (بالتشجيع المتبادل) لصالح المرشح ·

س . ولكن وسائل الاتصال الجماهيرى تشن حملة لصالح المرشح ص . فإذا كان النظام متجاورا فقد تجرى عملية التنوى المشروحة آنفا . ومن ثم تعود الأغلبية ص · ب مثال مضاد في انتخاب يشترك فيه عدد كبير من المرشحين . مع حشد كبير وشبه مستمر من الآراء . تكون فيه المجموعة ج صفر مستمرة . ففى هذه الحالة إذا شنت وسائل الاتصال الجماهيرى حملة « ضد التيار » (بالنسبة الى الموقف التعاونى البدائى لهيئة الناخبين) نجد اضطرابا متقلبا قسما كبيرا من الناخبين (٢) ولا وجود هنا لأى « تنو » .

٥ ـ فيما بعد الاضطرابات

لنتدبر هنا نظاما قسريا خاضعا لتدفقات تزداد شدة ، مثال ذلك . طبقة الماء التى تسخن من أسفل . ففى هذه الحالة بالذات تتعاقب الأحداث التى نجدها في التسخين المتزايد . بكيفية معقدة لا يتصورها العقل . وليس في وسعنا أن نفهمها . ومع ذلك ففى مقدورنا أن نعطى تصنيفا واضحا للنظم (ذات التدفقات المتزايدة) :

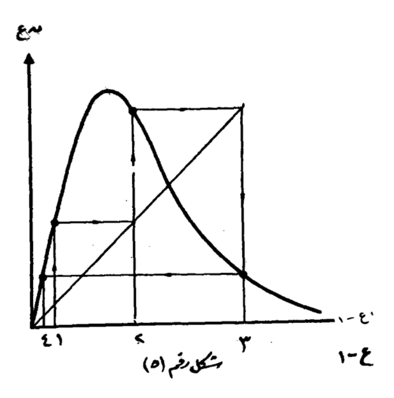
أ ـ نظام ثابت عادى قبل الاضطراب الأول .

ب ـ نظام ساكن مركب بعد الاضطراب الأول (انظر التيارات الدوارة) الشكل رقم ٢)

ج ـ حدوث ظواهر ذبذبية مع مرور الزمن (انظر الشكل رقم ١)

د ـ التشويش ، حالة يتطور فيها دواما بمرور الزمن ، دون أن يتبين فيها أية سمة دورية .

وبالنسبة الى تدفق السوائل يقابل التشويش ما نسميه « التدوم » (تكون الدوامات في سائل ـ المترجم) . ذلك النمط من الاضطراب الغريب غير المتوقع الذى نجده مثلا خلف دعامات القناطر . و « التدوم » ظاهرة غير مفهومة في الوقت الحاضر . غير أن هناك أمثلة أكثر بساطة لأوضاع التشويش . ولا شك أن أكثر هذه الأوضاع وضوحا هى مشكلة « الانتاجات السنوية » كما هو مشروح في كتب المبادىء العامة في الاقتصاد .



شكل رقم (٥)

نفرض ك ع كمية الخرشوف التى ينتجها مزارع في العام ع . والمعلومات الأساسية المتاحة لتقدير حجم الأنتاج للعام ع هى الربح أو الخسارة في العام السابق (ع - ١) . وهذا الربح نفسه يتبع الكمية الناتجة ك ع - ١ وبالإجمال فإن النموذج البدائى الذى يصف ضبط الأنتاج يفترض أن ك ع - لا يتوقف إلا على ك ع - ١

فإذا كانت الكمية ك ع - ١ صغيرة يكون التناسب هو ، ع = α ك ع - ١

أما إذا كانت الكمية ك ع - ١ كبيرة فإن الأسعار تهبط . ويعمل المنتجون على الحد من المجهود . ومن تم يهبط المنحنى البيانى (الرسم رقم ٥)

والعجيب أن هذا النموذج المعروف منذ زمن بعيد لم يفهم على حقيقته إلا أخيرا (في أعمال خاصة بعلم الأحياء السكانية بمدينة برنستون) . وهناك عدة نظم تبعا لقيمة « المنحنى الأول » α

أ - بالنسبة الى × α د ١ يقل الانتاج ويميل الى الصفر

ب - بالنسبة الى α أكبر بقليل من واحد صحيح . تميل الكميات ك ع نحو نقطة ثابتة ، فهنا نظام انتاجى مستقر .

ج ـ بالنسبة الى أكبر مما سبق بقليل . يميل النظام الى أظهار ذبذبات (إما سنوية . وإما كل سنتين . الخ . تبعا لقيمة

د ـ وأخيرا فبالنسبة الى مرتفع للغاية . نجد تشويشا فتتغير الكميات ك ع كل عام بكيفية غير منتظمة ، وهذه هى النقطة التى فاتت على مدارك جيل كامل من رجال الاقتصاد .

وفي المستطاع تمييز النظم الأربعة (أ ب × ج × د) جيدا . إما برسوم بيانية على المنحنى (ك × ك $_{ع-١}$) . واما بوساطة حاسب آلى يطلب اليه تقدير متوالية ك ع . وظاهرة التشويش تجذب الأنظار بنوع خاص ، فالمراقب الذى يتلقى متوالية الكميات ك ع يجد صعوبات كبيرة في تتبع قانون تكونها .

٤ ـ ملاحظات ختامية

وضعنا هاهنا قائمة بالوسائل الرئيسية التى اختلقها علماء الطبيعة والكيمياء لدراسة الظواهر التعاونية . وكل بند في هذه القائمة . كما في القوائم المعدة للجمهور العريض . غير مشروح ببطاقة تقنية . وانما بنص موجز يقترح مجالات الاستعمال . أما البطاقات التقنية فإنها موجودة . ويمكن الحصول عليها في المراجع التى ذكرناها . غير أننا نخشى وجود صعوبتين ، إحدهما تمميق القارىء . والأخرى تمضى به شوطا بعيدا أكثر مما ينبغى .

١ ـ تعقد « البطاقات التقنية » ، يقوم الأدب العلمى على لغة خاصة ـ يتعلمها مستعملوها في ثمانى سنوات تقريبا ـ ولا يوجد لهذه اللغة في الوقت الحاضر أى تأهيل سريع . فكيف يمكن التغلب على هذا العائق ؟

٢ ـ تقديس الأدارة العلمية تقديسا « فتيشيا » ، وفي الكثير من العلوم المتطورة شهدنا نمو مثل هذا التقديس للطرق أو الأساليب الشكلية . ولم تسلم العلوم الطبيعية هى أيضا من هذا الداء . وحين يعرض على الباحثين أداة إضافية يتبدى خطر حقيقى من استخدام هذه الأداة استخداما مفرطا و « دجاطيقيا ». كيف يمكن إذن تجنب تأثيرات تعاونية من هذا القبيل ؟

أعتقد أن حل هاتين المشكلتين لا يوجد في تحرير « البطاقات التقنية المبسطة » . وليس هناك كتاب ايضاحى لمؤلف واحد يتجنب أن يضل قراؤه في أحد هذين الاتجاهين . ولن يتحقق تقدمفي هذا الصدد الا بتشكيل « مجموعات عمل مختلطة » ينصهر فيها مختلف الثقافات العلمية وتسهم في عملية خلق مشتركة ـ وقد بدأ عملمنهذاالنوع في الوقت الحاضر في مجال تاريخ العلوم . ونأمل أن يحظى بالنجاح .. وأن يظهر تلقائيا مجموعات أخرى ذات أهداف منوعة . عن طريق أحد هذه التقلبات التى نرجو أن نفهمها في الوقت المناسب .

ثبت

المقال وكاتبه	العنوان الأجنبى وأسم الكاتب	العدد وتاريخه
• المستوى الثقافى عند الأميين بقلم : انديرا ديفا	The Cultural Level of the Unlettered Folk By Indra Deva	العـدد ١٠٠ شـتاء ١٩٧٧
• الاقتصاديون الأمريكيون الجدد بقلم : هنرى لوباج	Les nouveaux economistes americains Par Henri Lepage	العـدد ١٠٠ عـام ١٩٧٧
• رؤية الجمال فى الحياة اليومية بقلم : جان بيير كيلر	Aesthetic Perception in Everyday Life By Jean-Pierre Keller	العـدد ١٠٠ شـتاء ١٩٧٧
• الصـدفة والضـرورة فى الظـواهر التعـاونية بقلم : بيير جيل دى جين	Hasard et necessité dans les phénomènes coopératifs Par Pièrre Gilles de Gennes	العـدد ١٠٠ عـام ١٩٧٧

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر



١٠ أغسطس ١٩٧٩
١٠ آب ١٩٧٩
١٧ رمضان ١٣٩٩

●● محتويات العدد



● المقال في كلمات

١ ـ ذكر المؤلف ان العلم يشتمل على ثلاثة عناصر اساسية ، هى : المسائل او الاسئلة المطلوب حلها ، والفرضيات او الفروض التى تحل بها هذه المسائل ، والرسائل التى تقبل او ترفض بها هذه الفرضيات

٢ ـ وفيما يتعلق بالاسئلة ـ وهى العنصر الاول من العلم ـ ذكر المؤلف انها تنقسم الى قسمين : اسئلة مباحة ، واسئلة محظورة ـ وضرب مثلا لكل من هذين القسمين ، ثم اوضح ان العلم يبحث في الاسئلة المباحة دون المحظورة ، ويستخدم الفرضيات في حل هذه الاسئلة ـ

٣ ـ عالج المؤلف بعد ذلك موضوع الفرضيات في عدد من المباحث العلمية تحدث فيها عن كيفية صياغة الفرضيات ،

الكاتب : ف . ف . ناليموف

أستاذ علم الاحصاء بجامعة موسكو ولد في ١٩١٠ أهم مؤلفاته تطبيق علم الاحصاء الرياضى على التحليل الكيميائى (بالروسية والانجليزية) . نظرية التجربة (بالروسية والألمانية) . الأسس المنطقية لتصميم التجارب (بالروسية) .

المترجم : أمين محمود الشريف

عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

وقبولها ، والنموذج العلمى ومعناه وفائدته ، والتقدير الاحتمالى للفرضيات . ثم تكلم عن حقيقة العلم ، وتقدير الدور الابستمولوجى في الكشوف العلمية

٤ ـ وانهى المؤلف مقاله بالمقارنة بين العلم الاوربى الحديث والعلم في الهند القديمة ، وعقد مقارنة بين آراء العـــالم النمسوى الحديث المعروف باسم « بوبير » والفيلسوف الهندى المشهور المعروف باسم نجر جوانا ، وبين اوجه الشبه والخلاف في آرائهما ، ثم ختم مقاله بنظرة مشاهد من عالم اخر الى العلم ، تصور فيها ان مشاهدا من عالم اخر زار الارض ، متحررا من اهواء النظريات العلمية ، فابدى رأيه في العلم ، وقال انه نوع من الالعاب ، ولكل لعبة قواعد خاصة يعرفها كل انسان ، الخ .

● يجب ان لا يكون رائدنا هو الكشف عن حقائق لاشك فيها ، وانما يجب ان يكون هو الكشف عن موطن الشك فيما جرى العرف بانه لاشك فيه (نقلا عن كتاب « دروس في تاريخ المعرفة « بالروسية » لمؤلفه أ . لوبيشيف)

● لكل شيء وقت معلوم : لغرس النبات وقت ، ولحصاد ما غرس من النبات وقت (سفر الجامعة ، الاصحاح ٣ : ١ ، ٢)

يتجه اهتمام العلماء الان الى فرع جديد من المعرفة باسم « فلسفة العلم ، وأن كان الفلاسفة في هذه البلاد غير سعداء كثيرا بهذه العبارة ، لانهم يرون انها لا تعبر عن الواقع ٠ والحق انه يحسن أن نتحدث عن منطق التطور العلمي لا عن فلسفة العلم ٠ ذلك ان العلم نفسه قد اصبح موضوعا للدراسة ، وترتب على ذلك ظهور علم « ما وراء العلم » اى العلم الذى يدرس منطق العلم ٠ وهذا الفرع الجديد من فروع المعرفة لا يدعى الوصول الى نتائج مسلم بها وانما يفعل شيئا اخر هو وضع اسئلة جديدة ودقيقة ومناقشتها بطريقة مثمرة واصيلة ٠ ونحن نحاول في هذا المقال ان ندلى بدلونا في هذه المناقشة ٠ ولا ريب ان فلسفة العلم لم تعلم العلماء اكتشاف الحقائق ، ولكنها زادت ـ بلاشك ـ من تقدمهم لابحاثهم العلمية ، والكشف عن مواطن الشك فيها ، وهذا يعد انجازا رائعا على جانب كبير من الاهمية ٠

مسائل العلم

اذا لم نخش الاتهام بتبسيط الامور امكن لنا ان نشير الى ثلاثة عناصر اساسية وواضحة في العلم ، وهى : المسائل او الاسئلة المطلوب حلها ، والفرضيات او الفروض التى تحل بها هذه المسائل ، والوسائل التى تقبل او ترفض بها هذه الفرضيات

ويبدو اننا لا نفهم دائما بكل وضوح الدور العظيم البارز الذى تقوم به الاسئلة المقبولة والمباحة في نشاطنا الفكرى ٠

وتعتقد سوزان لانجر التى تشرح ما سبق ان قرره كوهن ان كل ثقافة من الثقافات تتضمن مجموعة من الاسئلة ، بعضها مباح متعارف عليه ، وبعضها محظور ٠ وهذا يدل على الاحتمال المحدود للاجابات العقلية عن الاسئلة ، او كما تقول لانجر ، ان السؤال هو جملة تحتمل معنيين ، والجواب هو الذى يحدد المعنى الصحيح ٠

والفرق بين الثقافات هو قبل كل شيء فرق بين الاسئلة المباحة والاسئلة المحظورة ٠ وخير مثل يوضح ذلك هو الحوار الذى دار بين المسيح وبيلاطس الذى ورد ذكره في انجيل يوحنا حيث قال المسيح مجيبا عن سؤال بيلاطس ، « لقد جئت الى العالم لكى اكون شاهدا للحق » ولما كان بيلاطس من اهل الثقافة الهلينية التى تبحث عن الحق والحقيقة فقد سأل ، وما هو الحق ؟ ولكن المسيح لم يجب عن هذا السؤال ٠

وقد دأبت المسيحية ـ في عهدها الاول على الاقل ـ على طرح اسئلة اخرى ، كمسألة الخير والشر ، ومسألة الجزاء · وما كان يمكن طرح مثل هذه الاسئلة الا اذا كان السؤال عن كنه الحقيقة محظورا ·

والعلم في كل مرحلة من مراحل تطوره لا يعني الا بمجموعة من الاسئلة المباحة · ومن السهل ضرب امثلة للاسئلة المحظورة في العلم مثل ، من اين جاء قانون اوم ؟ ولماذا يوجد ؟ واقوى من هذه الاسئلة ، كيف ولماذا ولاى غرض سنت قوانين الطبيعة ؟ وما الحكمة في وجود العالم ؟

واحيانا يتجاوز العلم قدره ، ويسبق عصره ، فيجيب عن اسئلة لم تطرح بعد · وفي هذه الحالة تكون الاجوبة سابقة لاوانها · مثال ذلك ان مندل اجاب عن سؤال لم يكن قد طرح في عصره ، ولهذا السبب ظل الناس زمنا طويلا لا يسلمون باجابته · وفي الوقت نفسه ظلت اسئلة عديدة مطروحة بوضوح زمنا طويلا دون ان يعترف بها احد · ويمكن التمثيل لذلك بحالة مالثوس الذى سبق عصره وطرح سؤالا ظل الناس زمنا طويلا يعتبرونه سؤالا غير جائز ، اى سؤالا محظورا ·

واذا رجعنا الى الوراء ، بدا ان العلم يمكن اعتباره سلسلة متعاقبة من الاجابات عن سلسلة من الاسئلة العميقة · وفي البحوث العلمية التى تجرى في ايامنا هذه تتجه العناية الكبيرة الى « تصميم التجارب » · ولكننا قلنا في كتابنا ان التجربة لا يمكن تصميمها الا عند تقديم نموذج رياضى للظاهرة موضوع الدراسة · ولكن تقديم نموذج رياضى يعنى اننا نسأل الطبيعة سؤالا يعبر عنه بالرموز · وعندما نصوغ سؤالا فنحن نقرر شيئا صادرا عن معرفة سابقة ثم نوجه السؤال · ولذلك فاننا عند ما نسجل نموذجا رياضيا نعطى سلفا الصيغة التحليلية والمتغيرات المستقلة فيها ، ثم نسأل ــ مثلا ــ ماذا تكون التقديرات البارامترية (الثابتة) المحسوبة على اساس نتائج التجربة ·

والاسئلة العميقة ـ صريحة كانت او ضمنيه ـ هى الظاهرة التى يمتاز بها اى نظام علمى يثرى نفسه بالمعلومات عمدا وقصدا · وقد حدثنى ابى ـ وكان عالما اثنوغرافيا (من علماء السلالات البشرية) ـ ان الفلاحين الصيادين من اهل الشمال يعرفون كل شىء يمكن مشاهدته في الطبيعة ولكنهم كانوا يشاهدون الطبيعة دون ان يسألوا سؤالا · ولذلك فانه على الرغم من حصولهم على المعرفه فقد كانت هذه المعرفة غير علمية بمعنى الكلمة · وهم لم يسألوا أية اسئلة الا لانه لم تكن عندهم فرضية من الفرضيات التى بدونها يتعذر توجيه اسئلة عميقة ·

ويبدو ان الحال كان كذلك في بعض فروع المعرفة ، وبخاصة في فروع العلم القديم ، مثل علم الاحياء ، وعلم النفس · وكم من مرة سألت القوم الذين يدافعون عن قضية من القضايا ، كم سؤالا اجبتم عنه ؟ ولكن يتبين لى ان السؤال كان معدوما منذ البداية ، وان الامر كله ليس سوى محض اجتهاد ·

وفي ضوء تجربتى اود ان اقول اننى اهتم عادة بالمؤتمرات والمناقشات والتقارير والمطبوعات التى تطرح فيها اسئلة جديدة · ومن هذا المنطلق احاول الان تقويم ابحاثى الخاصة ، ولكن كثيرا ما اضطر الى المشاركة في مختلف المؤتمرات العلمية ، حيث استمع في التقارير المعروضة الى اجابات عن اسئلة لم تطرح بعد ، واحيانا تكون هذه الاجابات مجرد تخصص لقضايا عامة او شرحا بسيطا لامر تم بحثه ، واحيانا تكون مثالا يؤيد ما سبقت معرفته ، واخيرا مجرد تعليقات على شىء سبق قوله ·

وفي الوقت الحاضر اصبح من المحتم ـ بعد تخفيض الاعتمادات الضخمة التى خصصت للعلم من قبل ـ اعادة توزيع هذه الاعتمادات على فروع المعرفة المختلفة · وهذا يتطلب وضع معيار لهذا التوزيع · واكبر الظن ان امكان صياغة المسائل بطريقة جديدة وهادفة سوف يصبح هو هذا المعيار ·

كيف تصاغ الفرضيات العلمية

لا نعرف اطلاقا كيف تصاغ الفرضيات في العلم . ذلك ان الفرضيات الجديدة لا يمكن استنباطها من نتائج الملاحظة بصورة مباشرة

وهذا القول يصبح مقنعا اذا قارنا - كما قال م . كنداك - قدرة الانسان بقدرة الحاسب الالى . ومن الفروق الاساسية في هذا المجال ان الانسان الذى يلاحظ ظواهر جديدة يستطيع ان يصوغ فرضيات جديدة مثمرة. ونحن لم نستطع حتى الآن ان نعلم الكمبيوتر ان يفعل ذلك . ذلك ان المنطق الاستقرائى لا يخضع لقواعد الحساب . وان النماذج العلمية التى اعتدناها يمكن التوصل اليها من مقدمات . لا من نتائج الملاحظة مباشرة . ويقول كارل بوبير : يجب ان نعترف بان اول خاصية . او اذا شئت اول تناقض ظاهرى في تطور العلم . هو ان عنصر الخلق والابداع العلمى . اى صياغة فرضية جديدة . لا يمتاز بسمات خاصة مقصورة على العلم وحده . ولا يمكن تمييزه بحال عن طريق الاساطير .

وهذا تصريح على جانب كبير من الأهمية . ويترتب عليه أن الانسان لا يجوز أن يساوره القلق من الأساس العلمى الذى يجب أن تقوم عليه الفرضية عند صياغتها ووضعها . بل الأهم من ذلك كما قال رسل هو الأيمان بها والاعتقاد بأنها صادرة عن حَدْس باطنى معين أى عن دوافع لا يمكن تفسيرها . أما الأسباب الجدية التى تقوم عليها أسس الفرضية فلا يمكن الوصول اليها الا خلال التطور النظرى أو التجريبى التالى . وليس من الخير أن يحاول العالم في المرحلة الأولى أى في وقت صياغة الفرضية أن يذكر شيئا يعلل به ما لا يمكن تعليله بعد .

كيف تقبل الفرضيات

لا يمكن إثبات صحة الفرضيات العلمية في أثناء أختبارها بالتجربة . وكل ما يمكن عمله هو أثبات أنه لا يمكن تفنيدها أى لا يمكن تفنيدها بنتائج التجربة . ولكن الملاحظات الواحدة قد تكون متفقة مع الفرضية موضوع الدراسة ومع عدد من الفرضيات التى لم تتم صياغتها بعد . وهنا تناقض مدهش . وهو أنه لا يمكن أن تعد أية تجربة مؤيدة لفرضية معينة سببا كافيا لقبولها والتسليم بها دون شرط أو قيد . ولكن تجربة سلبية واحدة تكفى لرفضها . ولذلك فأن الفرضيات تظل دائما عرضة لمزيد من الأختبار . وهنا - كما قال بوبير - يكمن مصدر تقدم العلوم الطبيعية . والواقع أن العلم يعيد النظر دائما في صحة فرضياته . وأن أمكان أجراء تجربة حاسمة يتوقف على مستوى تطور النظرية بأستمرار كما يتوقف على التجربة .

ويقول بوبير في تناقضه الظاهرى الثانى . أن الفرضيات لا يمكن أثبات صحتها . وأنما يمكن عدم تفنيدها . وعلى الرغم من أن بوبير بدأ حياته عضوا في « دائرة فينا » الفلسفية فانه يعد نفسه عالما واقعيا نقديا لا فيلسوفا وضعيا .

وفي وسعنا أن نجد تناقض بوبير الثانى - ولو في صورة مختلفة قليلاً - في أى كتيب من كتيبات علم الاحصاء الرياضى . والمهم هو أن بوبير أضفى صبغة فلسفية على هذا القول المعروف لكل عالم أحصائى . وهذا أثار نقاشا هاما . تأمل - على سبيل المثال - مجموعة الأبحاث التى تحتوى على أبحاث بعض الفلاسفة المشهورين في العلم . مثل . كوهن . ولوبير . ولكاتوس . وفيربند . ومسترمان . وواتكنز . وتولمين . ولذلك أشار لكاتوس الى أن الفرضيات العلمية تصبح مقبولة . وهذا القبول يتم عندما يتضح أنها تتنبأ بحقائق جديدة هامة . والواقع أنه من المناسب في هذا المقام أن نتحدث عن برامج العمل لا عن الفرضيات العلمية . وهنا لابد من تطبيق طريقة بوبير في التفنيد .

ولكن حدث في تاريخ العلم أن فنّدت نتاج التجربة أحدى الفرضيات . بيد أن هذه الفرضية لم ترفض . ويذكر لنا ج . فونود - وهو عالم بيولوچى مشهور ، وحائز على جائزة نوبل ، ومدير معهد باستير في باريس - الشرك الذى وقعت فيه نظرية دارون . ويرى بوبير أن هذه النظرية تعد من نظريات الدرجة الثانية لأنه لا توجد تجربة حاسمة لا ختبارها أى تجربة تعرضها للخطر . ولكن يبدو أن مثل هذه الملاحظات الحاسمة قد وجدت ذات مرة في التاريخ . وبيان ذلك أن طومسون أحد معاصرى دارون وأحد علماء الطبيعة القلائل في عصره أستطاع أجراء عمليات حسابية وأوضح أنه طبقا لما يقوله دارون من أن الشمس كتلة من الفحم - وهو الوقود المعروف بأنه يحتوى على أعلى درجة من الحرارة - فأنها لا يمكن أن تزود الأرض بالطاقة اللازمة لنمـو الحـياة الا لفترة قصيرة لا تكفى لعملية التطور والارتقاء . وكان هذا تفنيداً تجريبيا محضا لنظرية دارون ، لأن أبعاد الشمس وكمية الحرارة اللازمة كلها قيم يمكن تحديدها بالتجربة . وقد حزن دارون لهذه العمليات الحسابية وأضطر أن يعدل الطبعة الثانية من كتابه . ولكن نظريته لم ترفض برغم هذا التفنيد . ويقول حونود : أننا نعرف الآن أن هذه النظرية تنطوى ضمنا على مفهوم الطاقة الذرية الشمسية . ولكن من كان يدرى هذا في ذلك الوقت ؟

ونحن نعرف في الوقت نفسه ما كان لتجربة متشلسون مورلى من أثر عظيم في تقدم علم الفيزياء . ونحن نعلم أن النتائج السلبية ليست هى الأمر المهم ،وإنما المهم هو أمكان فهمها فهما نظريا . ولذلك نتساءل ، بأى وجه تقبل الفرضية أو ترفض ؟ أننا نعتقد أن في العلم « طرقا وقائية » غير طريقة التفنيد ، تحمى العلم من الأفكار الدخيلة ، وترسم مبادىء ثابتة تساعد على أستقرار العلم .

النموذج العلمى
طريقة وقائية في العلم

لعل أكبر مزايا كوهن أنه أدخل فكرة النموذج العلمى . وفي رأينا أن النموذج العلمى هو مجال عقلى ومنطقة هشة من البديهيات تحدد ما هو علمى ، وما هو غير علمى في مجال العلم . ومن مزايا النموذج العلمى أنه يحمى العلم من الأعشاب الضارة والنظريات الخاطئة غير العلمية .

هذا وتصريح نوربرت ڤينر مشهور وفحواه أن ٥٪ من الرياضيات هى من صنع الرياضيين ، والباقى وقدره ٩٥٪ يقوم بدور وقائى في حماية الرياضيات من آفة النظريات التى تفتقر الى قدر كاف من الدقة . ولكن كيف يتم ذلك ؟ أن مفهوم الدليل ذاته لا يمكن صياغته بدقة كما يتضح من دليل جوديل .

وقد شاء لى الحظ أن أكون عضوا في قسم مناهج البحث الرياضى بهيئة تحرير مجلة « المعمل الصناعى » ، فرفضنا نحو ٥٠ ٪ من الأبحاث المقدمة للمجلة بوصفها أبحاثا غير هامة أو غير دقيقة . ولكن النقاش كان يحتدم في الغالب بسبب الافتقار الى معيار واضح ويقوم النموذج العلمى بدور مزدوج ، دور أيجابى لأنه يتيح للعلماء أن يركزوا جهودهم في أتجاه واضح المعالم ، ودور سلبى حين يستنفد العلم أغراضه ويصبح عائقا في سبيل الأفكار الجديدة . ذلك أن الفرضيات « المجنونة » (تعبير بوهر) عند ظهورها قلما تفترق عن الأعشاب الضارة .

وقد يصبح ضغط النموذج غير محتمل . وهذا الموقف يتطلب بعض الطرق للتغلب عليه . ولأضرب لك مثلاً يوضح ذلك ، هو علم الأحصاء الرياضى . فهذا العلم هو ـ من جهة ـ فرع من الرياضيات . وقواعده النظرية تحافظ على مستوى الدقة في الرياضة البحتة . ومن جهة أخرى هدفه هو وصف الظواهر الخارجية . وهنا تتلاشى الدقة التى تتسم بها الرياضة البحتة . وقد ثبت أن هذا الموقف المتناقض قابل للحل . بدليل أن الاحصائيين الأمريكيين يفخرون بأنهم حرروا أنفسهم من رق الرياضة البحتة . وهذا أتاح لهم الفرصة لتنظيم أقسامهم في كثير من الجامعات . فأصبحت أقسام الأحصاء الرياضى مستقلة تمام الاستقلال عن أقسام الرياضة البحتة . وأصبح لها مجالاتها ومكانتها الخاصة ، مما جعل الأحصائيين لا يتجهون نحو دقة النظريات بقدر ما يتجهون نحو مغزى البيانات والمعلومات التجريبية التى يحصلون عليها نتيجة تطبيق هذه النظريات . ولكن ليس لدينا شىء من هذا القبيل في الاتحاد السوڤيتى . فعلم الاحصاء فيه أما فرع من علم الاقتصاد ، وأما فرع من الرياضة البحتة . وفي الحال الأخيرة لا يوجد لدينا ما نفخر به في مجال البحث الأحصائى التطبيقى .

والمثل الثانى يتصل بعلم النفس . فمند أول ظهور « السبرنيطيقا » ذهب كثيرون الى أن مشكلات التحكم العريضة يمكن حلها بواسطة الحاسب الألكترونى ، وفروع الرياضة المماثلة . ولكن أتضح أخيرا أن مشكلة التحكم الرئيسية هى « الانسان » نفسه . فمن الواضح الآن أن النموذج العلمى العام الذى تكون نتيجة تقدم العلوم الدقيقة قد عرقل تطور المجتمعات البشرية . ثم أن كل المظاهر الأنسانية النفسية العميقة ليست في أساسها نسخا مكررة . يضاف الى ذلك أن الباحث في الدراسات الأنسانية يعجز عن وضع نفسه في مواجهة موضوع البحث . ثم أن الادراك النظرى لما يسمى « بحالات الوعى المتغيرة » يؤدى الى أفكار ومفاهيم تبدو غير علمية في أطار العلم الحديث . ولكن وجد المخرج من هذا المأزق مرة أخرى . ففى الولايات المتحدة تصدر الآن ٩١ مجلة في علم النفس . وأذا أضفنا الى ذلك المجلات المتخصصة في مجالات المعرفة المتصلة بعلم النفس وصل العدد الى ١٤٨ مجلة . ولا شك أن كثرة المجلات الصغيرة المتنوعة هى محاولة لخلق كثير من النماذج العلمية الصغيرة . ومرة أخرى أقول أنه لا يوجد شىء من هذا القبيل في الاتحاد السوڤيتى .

ولذلك فان النموذج العلمى هو أداة دقيقة ، فمن جهة تراه يحمى العلم من الأفكار البالية ، ومن جهة أخرى قد يعوق تطوره . ومن الواجب علينا أن نعى هذه الحقيقة الثابتة القائلة أن « ما كان يعتبر علميا بالأمس قد يصبح اليوم غير علمى » . ومن الأهمية بمكان أن تكون المطبوعات العلمية مطابقة لمنطق التطور العلمى . ولكنى أسأل ، هل هذا الشرط متحقق في بلادنا التى تفرض قيوداً صارمة جدا على الأبحاث العلمية ؟

كيف ينمو العلم

هنا يجب أن نعترف بتناقض بوبير الثالث ، وهو أن تقدم المعرفة أنما يتم بحدوث تغيير ثورى فيها ، لا بتراكمها . ذلك أن المعرفة الأنسانية لا تتراكم مع نمو العلم كتراكم الكتب في المكتبات ، والمعروضات في المتاحف . وأن أهم شىء في تطور العلم ـ ومن بينه اللغة ـ ينهدم ، ويتغير ثم يعود فيبنى من جديد .

ويمكن تفسير رأى بوبير بأنه يعنى الثورة الدائمة في العلم . ويعارض كوهن هذا الرأى فيقول بوجود دورتين من التطور العلمى ، فترات طويلة من العمل العادى ، وفترات قصيرة من الثورات العلمية .

في خلال الفترات الأولى يتقدم العلم بهدوء صادراً عن معارف معينة وأفكار منهجية مسلمة بوجه عام تدل على المناخ الفكرى في ذلك الوقت . ولكن كوهن أدخل نموذجا علميا أفاض في شرحه خلاصته أن هذا النموذج يولد مجموعات علمية مبنية على هيئة المجتمعات المغلقة يحظر فيها التحليل النقدى .

ولا نعتقد أنه مما يتفق مع العقل أن نقول أن ثمة تعارضا عميقا بين هذين الرأيين . فكلاهما يصف ظاهرة واحدة . ويمكن التوفيق بينهما بأن نقول أنه على النطاق الزمنى الطويل يتطور العلم بصفة مستمرة . وعلى النطاق الزمنى القصير يتطور على هيئة مجموعات مغلقة منفصلة . وكثيراً ما تحيد هذه المجموعات عن الطريق القويم وتتدهور في عزلتها وأنفصالها . ولكن كثيرا ما نلاحظ صراعا خفيا بين هذه المجموعات . وأذا أختفى هذا الصراع فحينئذ نتحدث عن خطر العلم العادى كما أشار الى ذلك بوبير .

هل التقدير الأحتمالى للفرضيات ممكن

الخطوة التالية في تصور بوبير هى مكافحة الميل الشائع في العلم . الذى يرجع أصله الى لا بلاس . وهو الميل الى الكلام عن أحتمال الفرضية لا صدقها . يقول بوبير أننا أذا فهمنا من تقدم العلم أنه يعنى ظهور نظريات ذات محتوى متزايد . ترتب على ذلك مباشرة تناقص أحتمالها . أى كلما أزداد محتوى النظرية قل أحتمالها ولتوضيح ذلك يذكر بوبير المثل الآتى : أذا رمزنا الى القضية « ستمطر الدنيا يوم الجمعة » بالحرف (آ) . وللقضية سوف يكون الطقس جميلاً يوم الأحد بالحرف (ب) . كانت القضية المؤلفة من هاتين القضيتين . « هى (آ ب) ومن الواضح أن محتوى القضية المؤلفة من آوب يكون أكبر من محتوى كل من القضيتين المنفصلتين أو على الأقل مساويا له . وأن أحتمال وقوع الحادثين يكون دائما مساويا لا حتمال وقوع الحادثين المنفصلين أو أقل منه . والخلاصة أن زيادة محتوى القضية يقترن بنقص أحتمالها . ويرى بوبير أن هذه النتيجة التى تعد مبتذله وأساسية في الوقت نفسه هى نوع من الكشف العلمى .

وفي وسعنا أن نوجه الى هذا التناقض الرابع الذى يقول به بوبير نقداً جوهريا . فنحن نعتقد أنه يعبر عن فكرة خطيرة جدا بدون قدر كاف من الدقة . ومن هنا يأتى أحتمال فهمها الخاطىء . والمسألة الأساسية هى أنه لا يجوز التحدث عن أحتمال حادث ما الا عندما يبين مكان حدوث الحوادث الأولية بدون غموض .

(١) أذا تجاهلنا هذا نشأت تناقضات كاذبة على الفور . مثال ذلك تناقض مسيز . وبيانه أن نظرية الأحتمالات الكلاسيكية تتضمن التعريف الآتى . يسمى الحادثان متباينين أذا لم يمكن حدوثهما في وقت واحد . كما تتضمن القول بأن أحتمال حادثين متباينين يساوى مجموع أحتمالهما . وقد أخترع مسيز التناقض الآتى . لاعب تنس يستطيع أن يشترك في مباراة تجرى في موسكو أو لندن . والمباراتان تجريان في وقت واحد . وأحتمال فوزه بالجائزة الأولى في لندن (أذا ذهب اليها طبعا) هو ٠,٦ . وأحتمال فوزة في موسكو هو ٠,٩ . فما أحتمال فوزه بالجائزة الأولى هنا أو هناك ؟ الحل : تقول النظرية الكلاسيكية . أن الحادثين متباينان . ولهذا السبب فأن الأحتمال في المسألة المذكورة هو ٠,٩ + ٠,٦ = ١,٥ .

ونقول أن هذا التناقض هو في واقع الأمر نتيجة سوء فهم لأن الأحتمالين ٠,٩ و ٠,٦ يتصلان بمكانين مختلفين للحوادث الأولية .

وعندما نتكلم عن احتمال فرضية علمية خطيرة يجب علينا أن نذكر مكان القضايا التى يراد تقدير الاحتمال على أساسها، والا أصبح كل شيء لا معنى له. والنظرية الثورية الجديدة تظهر عادة في الميدان الفكرى الذى نشأت فيه النظرية السابقة التى تختلف اختلافا جوهريا عن النظرية الجديدة . واذا قدرنا احتمال النظرية الجديدة في مكان القضايا التى تضمنتها النظرية السابقة وجدنا ان احتمالها يكون ضئيلا جدا . ويزداد هذا الاحتمال ضآلة كلما ازداد الطابع الثورى للنظرية الجديدة واذا تتبعنا سير التطور العلمى وجدنا ان الفرضيات العلمية المثمرة وارجاها للقبول تثير وقت ظهورها معارضة جنونية في الدوائر العلمية مما يعنى ان احتمالها ضئيل في نظر المفكرين . والآن فلنفرض ان الفرضية الجديدة قد تنبأت بنتائج جديدة غير ناشئة عن النظرية القديمة ، وأن هذه النتائج قد تم اكتشافها بنجاح . عندئذ تعلو مكانة النظرية الجديدة على الفور وتحدد خطوط البحث العلمى . ثم يتكون ميدان فكرى معين حول النظرية الجديدة ، ويزداد احتمالها في المكان الذى نشأت فيه . وقد يبدأ هذا الاحتمال في التناقص مرة أخرى فيما بعد . وهكذا نجد أنه عندما تبرز فرضية جديدة غير عادية يكون احتمالها المقدر على أساس مكان القضايا السابقة جميعا ضئيلا وهذا يعنى أن هذه الفرضية ثورية وأن أحدا لم يكن يتنبأ بها . ونقول بهذه المناسبة ان النتيجة الضرورية هي استحالة التنبؤ بالتقدم العلمى والتكنولوجى لأنه كيف يتسنى لنا أن نختار من بين مجموعة من الفرضيات الضعيفة الاحتمال تلك الفرضية التى يزداد احتمالها بشدة في المستقبل ؟

وكل ما تقدم ذكره ليس اذا شئت ـ سوى اعادة صياغة لمعنى التناقض الرابع الذى قال به بوبير

ماهو العلم

يرسم بوبير خطا فاصلا بين العلم والقضايا الميتافيزيقية غير العلمية على أساس فكرة التفنيد التى يقول بها . وفي رأيه أن القضايا التى يمكن اختبار صحتها هى وحدها التى يمكن القول بأنها فرضيات علمية .

ولكن هذا الخط الفاصل لا يمكن التسليم به دون قيد أو شرط .

فهناك أمثلة مضادة عديدة توضح أن الظواهر التى لا يمكن تفنيدها تعد غالبا ظواهر علمية ، في حين أن الظواهر التى لا تفندها التجربة بصورة رسمية تعد أحيانا ظواهر غير علمية . ومن هذه الأمثلة نظرية التطور . وفرضية تكوين القانون البيولوجى وايديولوجية السيكولوجية (نظرية تستخدم المفاهيم السيكولوجية في تفسير الأحداث التاريخية) . وأخيرا نظرية بوبير أيضا فكل هذه النظريات لا يمكن تفنيدها بالتجربة ولكنها تعد علمية وان أثارت اعتراض بعض العلماء ومن ناحية أخرى فان ايديولوجية اليوجا أو ـ بعبارة أصح ـ التوجيهات العملية الصادرة منها قد تفندها التجربة ولكن العلم الحديث بنموذجه المعروف لا يسلم بها كنظرية علمية ولذلك فان الفيصل الصحيح للتمييز بين النظريات العلمية وغير العلمية يجب ان يكون هو قابليتها للتطور الذاتى . أى الفناء الذاتى وفي وسعك ان تقول ـ ان شئت ـ ان هذا التعريف للعلم تعريف ثنائى أى يحتمل المعنى وضده . بيد أن هذا الفيصل هو فيصل ضرورى فقط لا فيصلا كافيا . ونستطيع ان نشير في هذا المجال الى النظم الدينية التى تتغير في تطورها تغيرا تفنى فيه معالمها الأصلية .

والسؤال الآن ، كيف يمكن تحديد الفيصل الضرورى والكافي ؟

ونقول ، لا جواب عن هذا السؤال . لأنه من المستحيل تمييز النشاط العلمى عن النشاط الانسانى فكل شيء يفعله الانسان يحمل طابع التنوع الذى يتسم به الوعى الانسانى .

وهنا يبدو من المناسب أن نسأل سؤالا آخر ، هل منهج العلم عقلانى أم غير عقلانى ؟

ونقول مرة أخرى انه لا يمكن الادلاء بجواب قاطع عن هذا السؤال . فالعلم عقلانى بلاشك لأنه لا معدى عن الاستعانة بمنطق أرسطو لأثبات بعض الأفكار العلمية وهو غير عقلانى لأن الفرضيات الجديدة تنبع من الحدس والالهام الباطنى . فلكى يؤمن الانسان بفرضية جديدة ضعيفة الاحتمال ثم يبحث في الاتجاه الذى ترسمه هذه الفرضية يجب عليه أن يعتمد على شيء آخر غير المنطق المحض

وأخيرا وليس آخرا فان اختبار تجربة حاسمة والتفكير في نتائجها اجراء لا يستعان فيه بالمنطق استعانة كاملة . ويرى بوهر ان الحدس والمنطق يكمل احدهما الآخر وبعبارة أخرى يرفض بوهر استبعاد الحل الوسط .

كيف يمكن تقدير الدور الابستمولوجى في الكشوف العلمية

الفرضيات العلمية ـ أو أو معظمها على الأقل ـ قد تتنبأ بنتائج جوهرية جديدة لم تكن معروفة من قبل . ويرى الكثيرون ان القوة الأساسية للنظريات العلمية ـ ولمعيار صدقها احيانا ـ تكمن في احتمال تحقق هذه التنبؤات التى توجه نشاط الباحثين . والواقع اننا نعرف ان قدرا كبيرا من النتائج العلمية وبخاصة في علم الفيزياء قد تم اكتشافه لا بمحض الصدفة وانما نتيجة الأبحاث النظرية .

ومع ذلك لايزال محل البحث والنظر سؤال يقول ، أى قيمة يمكن أن تنسب للكشوف التى تتم في دائرة العلوم الطبيعية ؟ اذا كانت الفرضيات ليست سوى حلقات من الحدس والتخمين يحل بعضها محل بعض على التوالى ، وليست معرفة صادقة للطبيعة بالمعنى الدقيق الذى لا يعتريه شك فان الكشوف التى تتم بواسطة هذا الحدس والتخمين لا يجوز أن تفسر بأنها حلقات في تقدم المعرفة ، وانما هى سيطرة مستمرة وعميقة على الطبيعة تزداد يوما بعد يوم وان تاريخ الحضارة ليزودنا بأمثلة كثيرة للسيطرة الجدية على الطبيعة التى تحققت نتيجة أفكار نظرية غريبة في نظر العلماء المحدثين . لقد سبق أن تكلمنا عن اليوجا ، ويمكن القول بأن منجزات اليوجا الرائعة « تؤيدها الممارسة » ومع ذلك فالعلم الحديث لا يعترف باليوجا كخطوة في سبيل معرفة الحقيقة . ومن الأمثلة الأخرى حضارة قدماء المصريين التى كان الحافز الأكبر لمنجزاتها الفنية المدهشة هو تصورات أيديولوجية غريبة .

ولذلك نتساءل ، أليس من الحكمة أن نلزم جانب الحذر ، فلا نعزو الى ما نسميه الكشوف العلمية سوى فضل السيطرة على الطبيعة (لا معرفتها) . ان النظريات العلمية تستطيع أن تحفز هذه العملية وتعززها بدرجة تتفاوت قلة أو كثرة ، ويمكن أن تكون هذه العملية مقياسا لقوة النظرية في المساعدة على اكتشاف الحقيقة ونقول بهذه المناسبة انه ليس من السهل على الاطلاق أن نحدد ـ أو نفسر على الأقل ـ كنه المعرفة الحقة (١) . ثم ألسنا ننسب الى الكائنات البشرية ـ بعد أن تخلينا عن المفاهيم الدينية ـ ما

(١) كثيرا ما نسمع أن أبحاث الفضاء أتاحت لنا معرفة القمر . ولكن علينا أن نتذكر أننا نقول ان الرجل يعرف المرأة عندما يتصل بها لأول مرة . صحيح انه يعرف عنها الشيء الكثير . ولكن ما يعرفه يتضح في النهاية أنه لغز أعمق مما عرفه من قبل . وواضح ان الانسان لا يستطيع مباشرة المرأة الا اذا بلغ درجة النضج . وقد بلغت الانسانية الآن درجة النضج التى تستطيع معها أن تعرف القمر معرفة مباشرة ، وتعرف الخلايا البيولوجية والجنبات والدقائق الأولية . ولكن أليس من الأفضل في هذه الحالة كما في الحالة السابقة أن نتحدث عن الامتلاك والسيطرة بدلا من المعرفة ؟

كان ينسب من قبل الى دميورج ، خالق العوالم (عند افلاطون) ؟ واذا أخذنا بالرأى القائل بتطور وارتقاء العقل الانسانى كان من الطبيعى أن نعتقد أن هذه العملية نبعت من الرغبة في السيطرة على الطبيعة لا الرغبة في معرفتها • ولكن لعله يتعين علينا أن نسمى السيطرة على الطبيعة معرفة (نظرا لجهلنا بالمعنى الحقيقى لكنه المعرفة) ، وعندئذ تسقط كل الحجج والاعتراضات بيد أن العلماء يعتقدون أن العلم له قدرة ابستمولوجية أى القدرة على الوصول الى المعرفة • وهذا الاعتقاد هو جزء من النموذج العلمى المتعارف عليه بين العلماء وان كان السؤال « لماذا يعتقد العلماء ذلك ؟ » محظورا في اطار هذا النموذج • وقد حاولت فلسفة العلم الاجابة عن هذا السؤال ولكنها لم تستطع أن تقدم جوابا شافيا •

بعض النظائر التاريخية

والنتيجة الرئيسية لنظرية بوبير في نمو المعرفة

اذا أردنا أن نعرف الفرق بين أى دراسة فلسفية وغيرها من الدراسات وجب أن نقارنها بالأفكار المماثلة التى نشأت في بيئة عقلية مختلفة تماما • ونظرية بوبير هى حلقة نهائية في سلسلة العقلانية الأوربية الطويلة التى بدأت أولى حلقاتها بالعالم الهلينى • ولذلك يبدو من الطبيعى أن نقارنها بالمدارس الشرقية التقليدية للنقد المنطقى العقلانى لا بالمدارس الأوربية •

ومن هذه المدارس التقليدية للنقد المنطقى في الهند القديمة فلسفة « جينا » التى يرجع تاريخها الى القرن السادس ق • م (لمعرفة التفاصيل عن الفلسفة الجينية . انظر ـ على سبيل المثال ـ البحث الذى أعده مهالا نوبيس) • ويحاول مهالا نوبيس أن يبين مشابهة هذه الفلسفة للأفكار الحديثة الخاصة بنظرية الاحتمال •• ويصف الكتاب هذا المذهب الفلسفى ، ويذكرون تعريفات لفلسفة اللا اطلاقية والتعدد ، والنسبية • وفي هذا المذهب الفلسفى ـ وعلى أساس التحليل المنطقى للطبيعة ـ يقولون ان صدق أى قضية هو أمر عرفي اصطلاحى وان أى قضية مضادة أو مناقضة يجوز القول بانها صحيحة بهذا المعنى أو ذاك وانها تستند الى أسباب ومبررات مختلفة ، وانه يمكن النظر الى الحقيقة من زوايا مختلفة •

وقد عبر نجرجوانا (في أوائل هذا القرن) عن رأيه في عدمية (١) المنطق بلهجة أشد قوة • وجدير بالذكر أن نجرجوانا هو صاحب الفلسفة المعروفة باسم مذ ياميكا (الطريق الأوسط) التى تستمد اصولها من تعليم (بـوذا ؛ في وسع القارىء أن يكون فكرة عن احكامه المنطقية من الترجمة الانجليزية لرسالته) وقد توصل نجرجوانا بسلسلة متصلة الحلقات من الاحكام المنطقية الى النتيجة الآتية ، وهى أن الفكر لا يستطيع أن يعرف نفسه أو أى شىء آخر ، وأن التعبير عن الحقيقة غير ممكن وان المعرفة مستحيلة ، وانه لا فرق بين الحقيقة والوهم ، وان عالم التجربة ضرب من الاوهام • ويحاول نجرجوانا ان يثبت بطريقة التحليل المنطقى استحالة المعرفة التجريبية (المكتسبة بطريق التجربة) • وقد لخص رذكريشام النتائج التى توصل اليها نجرجوانا في كتابه المشهور المعروف باسم الفلسفة الهندية حيث قال :

« يوضح نجرجوانا الشروط اللازمة لامكان اجراء التجربة ويبين استحالة فهمها ، ويخلص من ذلك الى ان التجربة غير نهائية • ان عالم التجربة محدود بالعلاقة بين الذات والموضوع بين الذات والصفات بين الاثر والمؤثر ، والوحدة والتعدد والكل والجزء والرق والحرية ، وعلاقات الزمان والمكان ويدرس

٢

(١) Nihilism النهلستية أو العدمية : مذهب فوضوى يقول بأن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة ومعنى عدمية المنطق أن المنطق أمر باطل لا أساس له من الصحة (المترجم) •

نجرجوانا كل علاقة من هذه الملاقات ثم يكشف عما فيها من تناقض . واذا كان عدم التناقض هو محك الحقيقة فان عالم التجربة لا يكون حقيقيا .. ا هـ

ومع ذلك فان نجراجوانا لايزال يقف على « الطريق الأوسط » فهو لا يرفض الحقائق العقلية . ولو كانت غير نهائية . ومعرفة الحقيقة العلمية هى في نظره الطريق الى المعرفة السامية .

يبقى شىء آخر تنبغى الاشارة اليه . وهو ان النغمة التى تتكرر باستمرار في الفلسفة الهندية القديمة هى أن المعرفة هى ازالة الجهل فقط . وأن التحرر من رق الجهل هو الطريق الى « النرفانا » (١)

ويمكن الاستدلال من العبارة الآتية المقتبسة من سفر « ايشا يوبانيشار » على التحذير من الولوع بالمعرفة في الهند القديمة .

الذين يعبدون الجهل يهيمون في ظلام حالك . أما الذين يتفانون في تحصيل المعرفة فهم يهيمون في ظلام أحلك » اهـ

ويجب ان لا يغرب عن البال أن مفهوم المعرفة بالهند في ذلك العهد كان مفهوما غريبا . يختلف عن المفهوم الحديث . لانه يتصل بالاتجاه الفكرى الذى يهدف الى التمسك بالأخلاق تمسكا عمليا .

والآن فلنقارن بين مذهب الواقعية النقدية الذى أخذ به بوبير ومذهب العدمية العقلية الذى أخذ به الهنود القدامى . فنقول ، ان كلا المذهبين يدرك المشكلات المتصلة بالاحكام المنطقية . ولكن بوبير ونجرجوانا يختلفان في حل هذه المشكلات . وبيان ذلك أن نجرجوانا يأخذ بمذهب العدمية المطلقة أى يؤمن باستحالة المعرفة التجريبية . في حين أن بوبير يأخذ بمذهب النقد لا العدمية . فالفرضيات العلمية عنده ليست سوى ظنون وتخمينات ، غير مستمدة من التجربة على الاطلاق . ذلك أن مهمة التجربة في نظره هى تفنيد الفرضيات لا تأييدها . وفي هذه الحالة تزول كل المشكلات الناجمة عن المنطق القائل باستمداد المعرفة من التجربة . صحيح أن بوبير لا يجيب عن أعظم المسائل أهمية ، مسألة الخلق والابداع . ولكنه يرى أن هذه المسألة تدخل في باب الظنون والتخمينات اى العمليات غير المنطقية . وحقيقة الأمر أن مفهوم بوبير ليس سوى وصف حقيقى لما يجرى في مجال العلم الاوروبى . وهنا يمكن أن نسوق الفكرة الآتية . وان كانت متناقضة الى حد ما . وخلاصتها أن الهنود يميلون الى ازالة التناقض من أفكارهم . ولا يميلون الى السير على الطريقة المتناقضة التى سار عليها التطور العلمى في الفكر الأوروبى .

ولكن الأهم من ذلك هو القول بأن المعرفة هى ازالة الجهل . ويمكن التعبير بمثل ذلك عن نظرية بوبير . وبيان ذلك أن بوبير يرى أن العلم لا ينمو بمجرد تراكم المعرفة . وانما ينمو بخلق فرضيات جديدة دائمة ترفض الفرضيات القديمة . ومعنى ذلك ان نمو العلم ليس سوى عملية مطردة لهدم الجهل السابق . وهنا يتجلى أهم فرق بين نظرية بوبير ونظرية الهنود القدامى . وخلاصته أن نجرجوانا يقصر مكافحة الجهل على تنمية النقد . ويتخلى عن أى نظرية ايجابية جديدة . لأنه يرى أن وضع هذه النظرية يتعرض لمواطن الضعف التى صوب هو لها سهام النقد . أما بوبير فيرى أن مكافحة الجهل عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من جهل جديد أشد وأعظم من الجهل القديم . والسر في اتباع هذه الطريقة

---

(١) Nirvana النرفانا : السعادة القصوى في البوذية . ولا تنال الا بقتل شهوات النفس (المترجم)

الملتوية في تقدم العلم هو عملية السيطرة على الطبيعة التى تصاحب هذه الطريقة · ولكن عملية المعرفة تصبح سلسلة لا تنتهى حتما بالمعرفة الحقة اذا تصورنا أن عملية المعرفة تسير الى مالا نهاية · أسوأ من ذلك أننا نعتقد أن عملية المعرفة لا يمكن أن تستمر زمنا طويلاً دون انقطاع . ففى كل خطوة ينهدم صرح الجهل القديم ليحل محله جهل يشتد ويعظم بحيث تصعب ازالته بمرور الزمن · أليست هذه هى الحال التى وصل اليها كثير من علماء الفيزياء . وبخاصة في نظرية « الدقائق الأولية » ؟ ذلك أن النظريات القديمة في علم الفزياء قد أصبحت قاصرة عن الفهم العميق للمعلومات التجريبية الجديدة التى تراكمت بصورة مكثفة كما أصبحت قاصرة عن التنبؤ بنتائج جديدة · وفي الوقت نفسه أصبحت هذه النظريات من القوة بحيث تقاوم كل تغيير ثورى · واليك ما قاله عالم فيزيائى مشهور هو ل · أ · أرتسيموفتش في وصف ما آل اليه الحال في مقال علمى مشهور :

« انهم لم ينجوا حتى الآن من أخطر الامراض المسماة « أزمة النوع » (هذا المرض عبارة عن اختفاء المسائل العلمية المثمرة · وفي معاهد البحوث التى أصابها هذا المرض ترى الباحثين العلميين تكاد تتفجر الطاقة الكامنة بين ضلوعهم . وترى المديرين يسهرون الليالى الطوال وهم يفكرون كيف يستفيدون من هذه الطاقات المعطلة بين فئة كبيرة من الباحثين) الا بالتطبيقات التكنولوجية التى تزداد باستمرار من حيث تنوعها وقيمتها العلمية »

وعلى كل حال فان الأزمة المستحكمة في الفزياءالنظرية هى حقيقة مسلم بها · ولاشك أن تراكم النظريات العامة والمتعددة في الفزياء لا يحدث في كل مجالات المعرفة ·

ولكن دعنا نرجع الى نظرية بوبير في نمو العلم · ان هذه النظرية لابد أن تسفر عن جهل منظم بدقة . وان كان بوبير نفسه لا يخلص الى هذه النتيجة . بل لا يعتقد أنه رجل نسبى . فتراه يقول :

« لست نسبيا · أننى أومن فعلا بالحقيقة المطلقة او الموضوعية بالمعنى الذى ذكره تارسكى (وان كنت لا أومن بالحقيقة المطلقة الى حد الاعتقاد بأن الحقيقة في جيبى أو جيب غيرى) · اننى اعترف بأننا في أى لحظة سجناء محبوسون في اطار نظرياتنا . وآمالنا . وتجاربنا الماضية . ولغتنا . ولكنا سجناء بالمعنى المجازى · وفي وسعنا اذا بذلنا الجهد أن نتخلص من هذا الاطار في أى وقت · ولكن مما لاشك فيه أننا سوف نجد أنفسنا مرة أخرى في اطار آخر . ولكنه أفضل وأرحب· وفي وسعنا أن نخرج من هذا الاطار مرة أخرى » اهـ ·

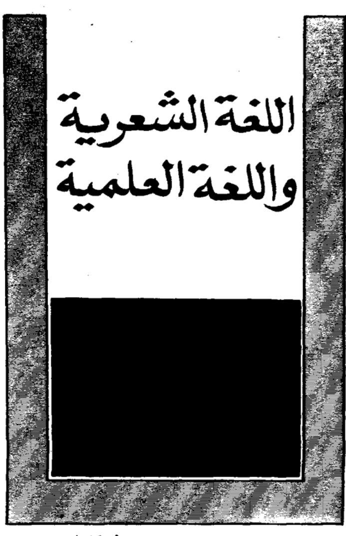
ونحن نستطيع أن نفهم تفاؤل بوبير . وان كان هذا التفاؤل يستقيم ـ منطقيا مع مقدماته · ويراودنا هذا السؤال . ألم تزل بعض الحضارات (كالحضارة المصرية مثلاً) وتندثر بعض الاتجاهات الفكرية البارزة (في الهند القديمة مثلاً) بسبب الوصول الى مستوى من الجهل (الصريح في الحالة الأخيرة نتيجة العدمية المنطقية المتطرفة)لا يسمح بازالته ؟ ومن يدرى الى اى حد سوف تبقى قوة الجهل في المعرفة الأوربية على ما هى عليه ؟

نظرة مشاهد من عالم آخر الى العلم ؟

تصور أن مشاهداً من عالم آخر زار الارض . متحرراً من اهواء النظريات العلمية . ترى ماذا يقول ؟ أعتقد أنه يقول ما يلى :

« العلم نوع من الألعاب · ولكل لعبة قواعد خاصة يعرفها كل انسان وان لم تصنف وتقنن قط · وقد ظلت هذه القواعد ثابتة خلال ٣٠٠ سنه · وقد اخترعت في تاريخ هذه اللعبة نظريات بارعة ومعقدة . ولكن اللاعبين لا يؤمنون بها ايمانا مطلقا · وعلى كل حال هم يرون أن المعرفة النهائية ضرب من

الاوهام . لانهم لا يعدون العالم موهوبا حقا الا اذا نجح في هدم ما سبق ابتكاره · وما هى الجائزة في اللعب ؟ هذا أمر غير واضح تماما . فبعضهم يرى أن الجائزة هى وضع نظرية في غاية البراعة . وغيرهم ممن لا يشتركون بصورة مباشرة في اللعب يرون أنها السيطرة على القوى الطبيعية التى كانت مجهولة من قبل . وذلك باستخدام نظرياتهم السريعة الزوال . وغير هؤلاء يرون انها الحصول على جائزة مادية صرفة · والأخيرون يلعبون اللعبة نفسها . ولكن طبقا لقواعد مختلفة تماما . ويشوشون على غيرهم · ومن القواعد الاساسية ان لا تكون اللعبة مملة · وحتى اذا فقدت جدتها نشأت فرضيات أخرى بارعة . وتعدلت القواعد المتبعة . وأغرب ما في الأمر أن يصبح كل شيء على ما يرام . ولكن اللعبة تزداد صعوبة ·



اللغة الشعرية واللغة العلمية

● المقال في كلمات :

يرى الكاتب أن اللغة الأولى التي تكلم بها الأنسان كانت لغة العلم والشعر والموسيقى في وقت واحد. ثم عفى الزمن على هذه اللغة، واختفت في زوايا النسيان، وتمزقت أوصالها، فتفرقت الى لغات شتى

ثم يعرض الكاتب لاراء العلماء في حقيقة هذه اللغة ، فيقول ان بعضهم يرى أنها اللغة العبرانية البدائية ، ويرى آخرون أنها هى اللغات البدائية في الجنوب التى تمتاز بأ نها لغات غنائية وعاطفية ومجازية ، ويرى غيرهم أنها لغة الأطالسة الذين كانوا ينزلون في المناطق الواقعة في شمال آسيا .

بعد ذلك ينتقل الكاتب الى الكلام على انفصال لغة العلم عن لغة الشعر ، ويتحدث عن أسباب ذلك الانفصال ، فيقول أنه يرجع الى عهد الفيلسوف الفرنسى ديكارت الذى رأى أن التأمل العقلى هو الوسيلة لادراك حقائق الأشياء وصرف النظر عن الادراك الحي والصفات الحية أو الكيفيات التى قال بها الفلاسفة القدامى وبخاصة أرسطو ، ورأى ديكارت أن العمليات الخاصة بالحياة العضوية محكومة بالقوانين الميكانيكية السارية في علم الفيزياء وعلم الكيمياء .

الكاتب : جان ستاروبنسكى

ولد في جنيف في ١٩٢٠ . دكتوراه في الطب وفي الآداب . قام بالتدريس في جامعة جونز هوبكنز (بلتيمور . ماريلاند) وفي جامعة باسل . يقوم حاليا بتدريس تاريخ الفكر وتاريخ الأدب الفرنسى بجامعة جنيف .

المترجم : أمين محمود الشريف

عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ورئيس مشروع الألف كتاب بوزارة التعليم سابقا .

وأنتقل المؤلف بعد ذلك الى الكلام على موقف العلماء من النظرية الميكانيكية فقال أنه يلخص في موقفين ، موقف المحاكاة والتقليد . وموقف المعارضة والمقاومة ·

ثم عرض لآراء جواشيم ريتر الذى أوضح أن مشاهد الطبيعة أصبحت مصدرا للمتعة الجمالية وأن دراسة الطبيعة بطريقة موضوعية في العلم الحديث أدت الى التخلى عن دراسة الكيفيات (الصفات) المحسوسة . كما أوضح أن علم الجمال الحديث الذى وضعه بومجارتن قد اهتم بهذه الصفات · ومنذ ذلك الوقت انفصلت لغة العلم عن لغة الشعر والفن . وأصبحت اللغة الأولى تهتم بدراسة العالم والطبيعة دون نظر الى صفاتهما المحسوسة . وأصبحت اللغة الثانية تهتم بالصفات المحسوسة · غير أن مجارتن مخترع علم الجمال يرى أن كلتا اللغتين مكملة للآخرى ·

من التصورات التى تطوف بأذهان العلماء أن اللغة الأولى التى تكلم بها الانسان كانت لغة الموسيقى والشعر والعلم في وقت واحد . وأن ملكة الكلام التى وهبها الله للأنسان في بادىء الأمر . أو أملتها عليه الطبيعة . تعبر عن الأشياء والأحاسيس والقوانين · ولم تكن في هذه الملكة الناشئة تفرقة واضحة بين الكلمة والأغنية . ولا بين القدرة على التغيير والقدرة الموضوعية على تسمية الأشياء . كما لم تكن هناك تفرقة بين استعمال الكلمات بالمعنى الدينى والمعنى الدنيوى . فكانت الكلمة تقوم في الأعياد الكبرى في أقدم العصور بدور كبير في الاحتفالات التى تقام بهذه المناسبة · وكانت الألفاظ بمعانيها المتكاملة تصيب الهدف . وتعبر عن المراد · وكان كل شىء يطلق الانسان عليه اسما يعد الها أو خليفة للإله يستمد المرء

منه الوحي والإلهام . وبهذا الوحي والإلهام استطاعت الكلمة الصوتية في أقدم العصور أن تجمع بين كمال « المعرفة » وكمال الموسيقى في قدرتها التعبيرية . ولكن لغة الفردوس المفقود هذه التي دلت على عصر لم يكن الانسان فيه منفصلا عن أخيه الانسان ، ولا منعزلاً عن الطبيعة أو عن الله ، قد عفى عليها الزمان ، وأنسحب عليها ذيل النسيان ، وتمزقت أوصالها ، وتصرمت حبالها ، وحلت محلها لغات متعددة ومتعارضة . ورانت غشاوة من الغموض على أنوار المعاني الواضحة التي تعبر عنها الكلمات .

وهذه الخرافة ـ خرافة اللغة البدائية الممتازة ـ لا يستطيع أن يتصورها سوى قوم كتب عليهم أن يصابوا بآفة من الضعف والقصور اللغوي بحيث بدا لهم مجال اللغة زاخراً بضروب من التفرقة لاحد لها ، تفرقة بين الموسيقى والكلمة ، وتفرقة بين اللغة الرفيعة واللغة العادية اليومية وتفرقة بين الاسطورة الشعرية والتفكير الدقيق . ولاريب أن الانسان موجود في عالم تعجز فيه الكلمات عن تحديد المعاني التي ينبغي أن تحددها ، ويعجز فيه الناس عن التفاهم والاتصال من اقليم الى اقليم ، ويتعذر فيه ترجمة الطبيعة الى لون من الكلام البشري . كل هذا القصور اللغوي يضطر الانسان الى أن يتصور أن كارثة حلت به ـ بحق أو غير حق ـ في لحظة عصيبة من تاريخه . ويتخيل عصرا في الماضي السحيق لم يوجد فيه مثل هذا القصور ، بل سادت فيه الوحدة اللغوية ، وتم فيه الأتصال الكامل بين الكائنات ، حتى استطاعت الحيوانات أن تتكلم وتتخاطب . ولذلك لم يكن بد من أن يتصور الانسان حدوث كارثة ككارثة الطوفان ، أو برج بابل ، ليعلل بها ذلك الانقسام الذي حول اللغة « الكاملة » الى لغات متناثرة كشذرات من الذهب في ردغة من الوحل .

• • •

وقد شعر الناس بهذا الحنين الى اللغة الأصلية المفقودة في أحقاب مختلفة . ولكنني اعتقد أنه اشتد في القرن الثامن عشر ، وتجلى في مؤلفات نظرية عديدة ، وأثار كثيراً من المناقشات المستفيضة ، إذ تخيل الباحثون وجود « عصر ذهبي للغة » في الماضي ، في أحقاب متفاوتة ، ومتطاولة ، بحيث لا ندرك مداها . ويرى بعضهم أن هذه اللغة الأولى هي العبرانية البدائية التي أصبحت اللسان القومي العام ، بحجة أن « الكلمات التي تتألف منها هذه اللغة تشبه الرموز الطبيعية الكثيرة التي يمكن أن نتبين فيها الاتصال الضروري بالكائنات »(١) . ويرى آخرون أنها هي اللغات البدائية في الجنوب بصفة عامة ، وتمتاز بأنها لغات غنائية وعاطفية ومجازية (روسو) . ويرى غيرهم ممن لهم صلة وثيقة بالماسونية أنها هي لغة الأطالسة « جمع أطلس » ، وهم شعب كان ينزل في المناطق الواقعة في شمال آسيا ، ويمتاز بالحكمة الكونية الدقيقة التي اقتبست منها الأساطير الاغريقية ، والكتابة الهيروغليفية المصرية . وفي رأي المؤلف أن الصفات العلمية أحيانا ، والصفات الشعرية أحياناً ، هي الميزة الرئيسية لهذه اللغة الأولى ، وهي ميزة تستنطق الألسنة بالثناء ، وتذكي لهيب الأسى في الفؤاد . ويميل أشد الباحثين جرأة الى الاعتقاد بأن « اللغة العالمية » التي يحلم بها العلماء قد وحدت في تلك العصور السحيقة ، ثم اندثرت . ولكن الباحثين الذين تغلب عليهم الحكمة يكتفون بالقول بأن اللغة الأصلية كانت ذات شحنة عالية من الطاقة العاطفية والشعرية ، ولكنهم يشعرون بالأسى ، لأن التاريخ شهد كارثة بعد اندثار هذه اللغة . وأخيراً هناك قوم يؤثرون الكف عن الخوض في بحر الظنون والحدس والتخمين ويعتقدون أن القدماء ـ سواء في المدن الاغريقية أو الجمهورية

---

(١) صاحب هذه النظرية هو فران دو ترمبلاي ، ولكنه لم يلبث أن عدل عنها . أنظر كتاب « خصائص اللغات » باريس ، ١٧٠٣ ، ص ٤٦ .

الرومانية ـ ملكوا ناصية البلاغة والخطابة التى لا تعرف المجتمعات الحديثة اسرارها . لأن الوصول الى ذروة البلاغة لا يتهيأ الا في جو يتمتع فيه الانسان بالحرية . وتتوافر فيه حرية الاجتماعات . ويتهيأ فيه وقت الفراغ الذى يمكن الانسان من شهود المناقشات العامة . وصفوة القول أن المزايا المشتركة للغة الأصلية الغابرة هى الأتصال . والوحدة . والكفاية في استخدام الكلمات على نحو يقضى على كل مظاهر الانفصال والانعزال ويمكن الانسان من أن يعيش في عالم خال من النقائص والعيوب .

نرى . لماذا كل هذا الاهتمام بأسطورة الدقة البدائية في هذا الوقت بخاصة ؟ أعتقد أن السبب في ذلك هو النجاح الذى أحرزته العلوم الدقيقة . وهى . الرياضيات . والهندسة . والفيزياء . والميكانيكا والفلك . ذلك أن هذه العلوم قد نمت وتطورت حتى أصبحت بمثابة لغات بلغت ذروة الكمال . ولم تلبث أن قدمت الدليل القاطع على صحتها وقوتها .

●●●

مما لا شك فيه أن العلماء والفلاسفة . وبخاصة في القرن الثامن عشر . لم يفتهم الادعاء بأن « لغة الحساب » و « لغة التحليل المنطقى » ليستا أصلح أداة لاكتساب المعرفة فحسب . بل هما أيضا الطريقة الشعرية الحقة . أكثر من ذلك أنهما أقرب الى اللغات البدائية منهما الى اللغات المستعملة في الوقت الحاضر . ولذلك كان بعضهم يؤملون من عهد براسيلوس (١) الى عهد الرومانسيين . بل الى وقتنا هذا . أن يجدوا في ملكة الخيال السمة المشتركة بين العبقرية الشعرية والعبقرية العلمية . ولكن كندياك (٢) يؤكد أن الخيال لا يفسر شيئا . قال :

« يقولون ان الاختراع هو اكتشاف شىء جديد باستخدام قوة الخيال . ولعل السبب في القول بأن قوة الخيال شرط للتوصل الى مثل هذا الاكتشاف هو اعتقادنا أننا نستخدم قدرا كبيرا من الخيال عندما نفسر أبسط الاكتشافات .

« ونحن نعتقد أن هذه القوة المزعومة هى من خصائص العباقرة . ولهذا السبب نريد أن يظن الناس بنا أن لنا خيالاً قوياً . فترى العالم الهندسى يقول لك انه لا شك أن نيوتن كان يملك من قوة الخيال ما يضارع خيال كورنيتى . لأنه كان عبقريا مثله . وغاب عنه أن كورنيتى لم يكن عبقريا الا لأنه كان يملك من القدرة على التحليل ما كان يملكه نيوتن . وعلى الرغم من أن التحليل يجعلهما يتكلمان بلغتين مختلفتين فانه ـ أى التحليل ـ هو الطريقة التى يستخدمها كل منهما . والدليل على ذلك أنه متى استقر رأى الكاتب على موضوع « المسرحية » فان ايجاد الحبكة . ورسم الشخصيات . وكلامهم يثير أمامه مشكلات كثيرة يجب حلها . وكل هذه المشكلات يمكن حلها بالتحليل ا . هـ .

ولذلك فان العبقرية ليست لغزاً غامضاً وانما هى « ذكاء بسيط يمكن الانسان من اكتشاف شىء لم يستطع أحد غيره اكتشافه من قبل (.....) . فالعبقرية تبدأ من البداية ثم تواصل المسيرة الى الأمام . وهذا هو سرها » . ولكى يتسنى القيام بالتحليل كما ذكر كندياك يجب اتباع القياس الصحيح . ومما يساعدنا على ذلك أن تكون اللغات الوطنية محكومة بالقياس . ولكنها لسوء الحظ ـ فقدت هذه الميزة . ويقول في ذلك :

---

(١) براسيلوس (١٤٩٣ ـ ١٥٤١) طبيب وفيلسوف سويسرى (المترجم)

(٢) كندياك (١٧١٥ ـ ١٧٨٠) فيلسوف فرنسى . كان من أتباع لوك الفيلسوف الانجليزى المشهور . ومن المشتركين في دائرة المعارف الفرنسية المعروفة (المترجم) .

« يمكن ان تكون اللغة اكبر عون لنا اذا نسنى لنا دائما فهم القياس الذى كونها وحدة . وحينئذ يمكننا أن نفكر كما علمتنا الطبيعة أن نفكر . ويمكننا أن ننتقل من كشف الى آخر .

« ولكن هذه الميزة مفقودة في كل اللغات القومية المعروفة . لأن هذه اللغات ليست سوى أنقاض لكثير من اللغات التى لم يعد أحد يتكلم بها (...)» .

« على أن اللغات البدائية كانت أمتن تركيبا من اللغات الحالية . وكانت تمتاز بأنها تبين لنا كيف بدأت المعرفة . وكيف تولدت . وبذلك فتحت أمامنا الطريق الى الاختراع . وعندما تأملت الشعوب المخترعة في لغتها رأت عن طريق القياس كيف تعلمت وكيف تستطيع الاستزادة من التعليم . ولكن أين ومتى وجدت هذه الشعوب ؟ » أ هـ .

ومهما يكن الأمل كبيراً في أن يصبح التحليل (لقد حلم ستندهال بذلك في شبابه) هو الطريقة العامة التى تنطبق على كل من الابداع الأدبى والاختراع العلمى فان ثمة فرقا لايزول بين اللغات القومية الدارجة التى تفككت وتدهورت وبين تلك اللغة المتينة التركيب التى يجب ـ كما قال كندياك ـ أن تكون لغة العلم الصحيح . يضاف الى ذلك أن غاية الشعر ليست هى تصحيح اللغة الدارجة . وانما غايته استخدام هذه اللغة وقبولها على علاقتها . ويدلنا التاريخ على أن المبادىء التى قررها كندياك ساعدت على تطور العلم لا الفن . ويمكن ان نقول أيضا ان الفلسفة الطبيعية للرومانسية الألمانية . والأفكار السحرية للشاعر الألمانى نوفاليس . تترجم شعراً . ولكن ترجمتها العلمية لا معنى لها . ولذلك فان النظرية القائلة بأن ملكة الخيال هى السمة المشتركة بين الشعر والعلم لم تلق نجاحا أكبر من نظرية كندياك .

ومن هنا لا نجد مناصا من التسليم بوجود لغتين منفصلتين ، سواء شعرنا بالحنين الى حالة عدم الانفصال السابقة على ظهور العلم الحديث أو حاولنا أن نتبين في الغايات البعيدة التى يتوخاها العلم والفن بطرقهما المنفصلة نقطة التقاء يجتمعان عندها . ألا وهى « المعنى » . وهذا ما يحاوله الفيلسوف كانط في كتابه « نقد الحكم » .

وأحب في هذه المناسبة أن أعرض بايجاز لعملية « الانفصال » الحاسمة التى ترجع الى نشأة العلم الحديث . فأقول ان كل من تخرج في مدارس « الليسيه » الفرنسية قد قرأ على الأرج الفقرة الشهيرة في كتاب « التأمل الثانى » للفليسوف الفرنسى ديكارت التى يثبت فيها « الكيفيات المحسوسة (الرائحة . واللون . والذوق) لقطعة من الشمع ليعود بعد قليل فينفى صحة الادراك الحسى اذا اعتمدنا على هذه الكيفيات في معرفة طبيعة الأشياء . ويقول ان هذه الأشياء لا يمكن ادراكها الا « بالتأمل العقلى » الذى يدل على أنها جواهر يمكن تفسير التغييرات التى تطرأ عليها بالشكل والحركة . ومن هنا يجب تجريد الكيفيات المحسوسة أو ادراكها بصفة مؤقتة حتى يتسنى تحويلها من « كيفيات » الى « كميات » أى الى نسب واضافات يمكن حسابها وتقديرها تقديراً كميا الخ . وهكذا نجد ديكارت يصرف النظر عن الكيفيات التى قال بها الفلاسفة القدامى (وبخاصة أرسطو) . ويستبدل بها « عمليات ميكانيكية » بمعنى أنه يرى أن العمليات الخاصة بالحياة العضوية محكومة بالقوانين الميكانيكية .

ولا ريب أن اكتشاف هارفي للدورة الدموية كان من الأمثلة الماثلة في ذهن ديكارت . نظراً لأنه لم يكن من الممكن تفسير هذه الدورة الا بعزلها وفصلها عن الجهاز الدورى العام واستخدام « عمليات حسابية » بسيطة . ولم يكن الحال كذلك عند العلماء الذين سبقوا هارفي . ابتداء من جالينوس (الطبيب الاغريقى القديم) . ويقول لنا في ذلك . « أوسى تمكين » . ان أقوال جالينوس تجاوزت علم

وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) . ولم يسلم بأن القلب هو مركز القوة الحيوية في الجسم . بل كانت أقواله نتيجة التوجيه الغذائى للطب الاغريقى القديم الذى اهتم بطعام الفرد وشرابه . والبيئة التى يعيش فيها . ورأى في ذلك كله الشروط والظروف اللازمة للصحة الجسمية والعقلية . وأسباب الأمراض . والعوامل القادرة على حماية الصحة واستعادتها · وقد أدى اهتمام الأغارقة بالبيئة في مجال الطب الى العناية بالمعدة . والأوردة . والكبد . والجانب الأيمن من القلب . من ناحية ثم العناية بالرئتين . ومسام الجلد . والجانب الأيسر من القلب . من ناحية أخرى . ولكن ذلك ترك عدداً كبيراً من الظواهر دون حل . وبخاصة وجود الدم في الشرايين (.......) · وقد أثنى العلماء على هارفي لأنه عمد الى عزل مشكلة محدودة . وعكف على حلها . وبذلك فتح الطريق أمام تقدم العلم الحديث · والأمر الجديد الذى جاء به هارفي يكمن في قراره بمعالجة الأوعية الدموية كجهاز هيدروليكى (سائل) منفصل وبفصل تكوين الدم وتجديده الخ · فنظر الى الدورة الدموية على أنها كتلة سائلة متحركة في تراكيب تشريحية يحددها شكلها وحجمها · وكما قال ب · لائن انترالجو . ان جالينوس رأى أن شكل ووظيفة كل عضو يرتبط أحدهما بالآخر . فلم يقدم الشكل على الوظيفة . ولا الوظيفة على الشكل . بل كان يرى ان الحياة بمثابة دائرة مقفلة . ومثالها ثعبان يبلع ذيله · أما هارفي وغيره من علماء الفسيولوجيا فكان يرى أن الوظيفة هى نتيجة الشكل التشريحى للعضو (......) · وقد قام جالينوس بتجاربه لكى يفهم كيف تتحقق القوى الطبيعية في الحيوان . أما هارفي فقام بتجاربه ليرى كيف أن الشكل التشريحى للعضو يحدد وظيفته · وبعبارة أخرى أن فسيولوجيا هارفي أضفت صبغةً ديناميكية على مفهوم التشريح عند فساليوس · وهكذا أمكن تحقيق تقدم حاسم عن طريق النظرة المجردة والكمية والميكانيكية . على الرغم من أن هارفي أشار الى وجه الشبه بين القلب والشمس والملك . وهو تشبيه يرجع الى فكر النهضة الأوربية الحديثة . ولكن هذا التشبيه كان مستقلا عن الوصف الفعلى للقلب . اذ لم يكن سوى توسع بلاغى في هذا الوصف · ولا يزال مثال هارفي من خير الأمثلة التى تؤيد عبارة جاستون باشيلارد المؤثرة : « ان العلم المعاصر يتعلم الكثير من الأجهزة المنفصلة » ·

لقد تضمن تاريخ الفكر موقفين مختلفين ازاء تطبيق النظرية الميكانيكية (١) على العالم والانسان :

١ ـ الموقف الأول هو موقف المحاكاة والتقليد لهذه النظرية بمعنى تطبيق الطرق والأساليب التى حققت نتائج رائعة في العلوم الدقيقة والعلوم الطبيعية على مجالات أخرى · ومن هنا توسع العلماء بطريقة تجافي الحكمة في تطبيق النظرية الميكانيكية على بعض العلوم التى لم تتوافر لدينا حتى الآن ذخيرة كافية من التجارب فيها · ولذلك وضع العلماء أحكاما عقلية عامة حاولوا تطبيقها على الفنون لا لبيان عللها وأسبابها ولكن لاخضاعها لنظام علمى موحد · ويعتقد كاسيريه أنْ علم الجمال الكلاسيكى مبنى على نظرية الفيزياء والرياضيات وأن « الوحدة في الكثرة » التى تطالب بها النظرية الكلاسيكية في علم الجمال انما تتحقق عن طريق محاكاة « الوحدة في الكثرة » المعروفة في الرياضيات · وتوضح لنا الفقرة التى اقتبسناها آنفا من كلام كندياك الى أى حد اتبع الباحثون مناهج الفكر العلمى والمنطقى (فكر لوك لا ديكارت) قبل نهاية القرن الثامن عشر . وطبقوا هذه المناهج على الفنون والشعر · ويحتمل ـ فوق ذلك ـ أن يكون التقدم العلمى المطرد والأفكار الجديدة التى جاءت بها العلوم والرياضيات قد شجعت ـ

(١) هى النظرية القائلة بأن العمليات الطبيعية وبخاصة عمليات الحياة محكومة بالقوانين الميكانيكية ويمكن تفسيرها بالقوانين الفيزيائية والكيميائية (المترجم) ·

بطريق العدوى ـ استحداث أفكار جديدة في مجال الفنون · ولا شك ان العادة التى جرت باعتبار أدب الأمس والأمس قبله أدباً عتيقا ترجع الى التغييرات التى طرأت على المعارف العلمية ، أو تدعو ـ بطريقة غير مباشرة ـ الى ضرورة استجابة الفن للتغييرات التى اعتورت الحياة نتيجة الأخذ بالأساليب التقنية · ولذلك اقتدت طلائع الأدباء بالرواد في مجال العلوم الطبيعية ·

٢ ـ والموقف الثانى هو موقف المقاومة والمعارضة للنظرية الميكانيكية · وترجع هذه المعارضة الى اعتبارات دينية · والحجة في ذلك أن منزلة القلب أسمى من منزلة العقل · ثم جاء بعد ذلك من خالجهم الشك في قدرة الانسان على ادراك كنه الطبيعة لأنه لم يخلقها بيده في حين أنه يستطيع فهم أسرار التاريخ لأنه من صنع يديه (فيكو)· ولم يشأ علماء التاريخ أن ينزلوا عن عرشهم ليطبقوا قواعد الحساب على التاريخ (جيبون) · يضاف الى ذلك ان النظرية الميكانيكية المتطرفة لم تلبث أن أدت الى ظهور النظرية الحيوية القائلة بأن الحياة لغز غامض لا يمكن كشف سره بقوانين المادة الجامدة غير الحية · وأخيراً فانه في الوقت الذى حققت فيه الميكانيكا الكلاسيكية انتصارات رائعة في العلوم الفلكية (لجرانج ـ لابلاس ـ هيرشيل) ظهرت حوالى ١٨٠٠ نهضة في الأدب والفن تستمد وحيها من نظرية الافلاطونية الجديدة وتقول ان المعرفة يمكن أن تستمد من الخيال ، والأحلام ، والرؤى السماوية · ولم يكن من العسير أن نجد تفنيداً ـ غالبا يكون قويا ـ لتفسير العالم طبقا لقوانين الميكانيكا والحساب ، مع انكار فكرة الروح · وقد سجل تاريخ الفكر ردود فعل ، ومقاومة ، ورفضا للنظرية الميكانيكية بعد انتشار الطريقة العلمية · وهكذا احتدم الصراع ـ في الحالات المتطرفة ـ بين أنصار النظرية الميكانيكية وأنصار النظرية الحيوية ، بين انصار فلسفة التنوير وخصومهم ، بين مؤيدى العقل والفكر ومؤيدى التقليد والنقل ·

واذا أردنا أن نقدم صورة مبسطة للصراع الفكرى قلنا ان الأمر لا يخلو من احدى حالات ثلاث ، اما أن ينتهى الصراع بانتصار أحد الطرفين المتصارعين ، واما أن ينتهى بالتعادل فتبطل حجج الفريقين ، واما أن تحدث هدنة توفق بين الأطراف المتصارعة باسم الأصل المشترك ، وفي هذه الحالة يلتقى الخصوم في وحدة عليا · بيد أننا ننسى أن الصراع ليس هو المظهر الوحيد للحياة الفكرية ، فهناك الانقسامات والاختلافات في الرأى ، وهناك التغييرات المتلازمة ، والحلول التى لا تتطلب تفنيداً · وعلى الرغم من مرور العديد من القرون منذ ظهور لغة الرياضيات ، والعلوم الدقيقة ، فإنه يجب علينا ان نعرف كيف حدثت بعض التغييرات ، وكيف استطاع الانسان أن يكيف نفسه مع السلطة والفاعلية المتزايدة للفكر العلمى ·

لقد كان جواشيم ريتر أول من أوضح في دراسته الرائعة عن ظهور مشاهد الطبيعة كمصدر للمتعة الجمالية كيف أن دراسة الطبيعة بطريقة موضوعية ومجردة على يد العلم (الكوبرنيقى) الحديث قد أدت الى التخلى عن دراسة الكيفيات (الصفات) المحسوسة التى حظيت باهتمام كبير في أبحاث بطليموس وجالينوس ، كما أوضح كيف أن علم الجمال قد تلقف هذه الأرض المنبوذة أو المهجورة · ثم أوضح أخيراً ان علم الجمال نفسه قد عاد فأخذ بزمام التفكير النظرى · ولم تعد الفيزياء الحديثة تهتم بهذا التفكير بعد أن أصبحت تبحث عن العلاقات العددية وهى علاقات محدودة ودقيقة · وليست المسألة في العملية التى وصفها ريتر هى ظهور علم بديل بل ظهور علم جديد · ذلك أن علم الجمال أخذ يعتبر عالم الوجدان (عالم المشاعر والأحاسيس) ، الذى يراه العلم مصدراً للخطأ والضلال ، أرضا شرعية

له . ومجالاً لاكتساب لون جديد من المعرفة • وعلى حين أن الفلسفة الديكارتية والعلم الذى انبثق عنها لم تشر إلا إلى التفكير والتأمل العقلى . استطاع الادراك الحسى أن يتبوأ مكانة جديدة باتباع المنهج الذاتى في دراسة مظاهر الوحدة والانسجام في الطبيعة • وكان بومجارتن (١٧٥٠) أول من استخدم كلمة « استطيقا » (علم الجمال) التى اشتهرت فيما بعد . ورأى أن هذا العلم هو منطق الادراك الحسى الذى يستطيع الوصول الى الحقيقة ولو بطريق أدنى مرتبة من طريق الادراك المنطقى المتبع في العلم والفلسفة • ويقول ريتر ، « لقد ظهر علم الجمال في وقت اهتم فيه العلم الكوبرنيقى بدراسة العالم والطبيعة دون نظر الى صفاتهما المحسوسة • مثال ذلك أن العالم الطبيعى والعالم الرياضى لا ينظران الى مسار الشمس في دائرة البروج طول العام كما ينظر اليها الراعى • ومثال آخر أن الشاعر اذا عاش بالقرب من البحر يقول ، « عندما يحين وقت الشروق يبزغ حاجب الشمس من البحر » صحيح أن هذه العبارة الشعرية لا تدل على حقيقة علمية . ولكنها تتضمن حقيقة جمالية . وبينما يدرس العلم الكوبرنيقى الطبيعة بأرضها وسمائها بوصفها بيئة الانسان . طبقا لمنهج موضوعى . فان علم الجمال يتولى بمنهجه الذاتى استحضار هذه الطبيعة في الوجدان والشعور . ويتولى الفن والشعر ابراز معانى الحسن فيها • وقال كاروس فيما تلا ذلك ، « متى ساد « العلم البالى » فان مهمة الخلق والابداع الخالد سوف تنتقل الى العبقرية الفنية بكل ما فيها من نشاط انتاجى » • ويقول ريتر ، « ان بومجارتن يرى أن كلا من الفن الجمالى والعلم المنطقى مكمل للآخر (......) ففى عنصر الوجدان والانتاج الجمالى تكشف القصائد الشعرية والصور الزيتية عن معان لا يمكن ادراكها بدونهما • وليس الكشف عن هذه المعانى الجمالية مبنيا على ذاتية مغلقة ومنعزلة . وانما مبناه الحاجة الى اظهار واستحضار معنى لا يمكن قوله أو النظر اليه » . ولذلك كان الكشف عن معانى الجمال في مشاهد الطبيعة معاصراً للنظرية الميكانيكية في تفسير العالم • ولم يكن ذلك الكشف الجمالى اعتراضا على الأساليب العلمية التى تغض من قيمة الجمال في المناظر الطبيعية بقدر ما كان استغلالاً للحرية وللأرض التى تركت خالية نتيجة السيطرة التقنية التى نشأت عن التقدم العلمى • ومن شأن الكشف عن مظاهر الجمال في مشاهد الطبيعة أن يجعل الطبيعة أقل تهديداً وخطراً ، ومصدراً لمتعة الانسان • ويقول ريتر مستطرداً ، « ان الحضارة والمجتمع اللذين يجلبان الحرية للانسان عن طريق « تمدية » (١) الطبيعة هما في الوقت نفسه يحفزان العقل الى ابتكار الوسائل التى تجعل معانى الجمال حية وحاضرة في نفس الانسان • وبدون هذه الوسائل لا يستطيع المجتمع الكشف عن وجه الحقيقة والتعبير عنها !

ويمكن التوسع في حديث ريتر الرائع عن مشاهد الطبيعة بحيث يشمل الفن الحديث والرومانسى وبذلك يمكن الاهتمام بجميع الأشياء الجديدة التى أصبح الاحساس الجمالى يهتم بها ، كالمدينة والآلة والسرعة والأحلام الخ . أى أن الأدراك « الذاتى » لكل شىء كان موضوعا للادراك المجرد والرياضى والتفسير العقلى • وليسمح لى القارىء بأن أضيف أن الحجج التاريخية التى ساقها ريتر تتيح لنا المزيد من فهم آراء بعض المؤلفين المعاصرين • وينصرف ذهنى في هذه اللحظة الى الفلسفة « ذات الرأسين » لجاستون باشيلار • وانما سميت بهذا الأسم لأنها تحتل « المنحدرين » الواقعيين على كلا جانبى خط التقسيم • فهو من جهة يثنى على روح التزمت الذى يقضى باستبعاد الخيالات والأحلام عن مجال العلم . ويرشد العلماء الى الطريقة المثلى فيقول ان الاختراع العلمى لا يمكن أن يكون مثمراً الا بالتفكير النظرى المجرد . والأرتقاء الى مستوى أعلى من التكمية (التحول الى كمّ) •

(١) التمدية هى تحويل الشىء الى شىء « مادى » ملموس (المترجم) •

ومن جهة أخرى فان المعرفة الخالصة التى تقوم على أساس المنطق دعت باشيلار الى استخدام الحواس لأنه أدرك أكثر من أى شخص آخر أن التفكير النظرى اذا اقتصر على المعرفة القائمة على أساس الرياضيات أصبح عاجزاً عن ادراك الأمور الأخرى والحكم بها . ومن هنا ظهرت سلسلة من المؤلفات التى ترى أن أساليب الوجدان والخيال وسيلة مشروعة لارتياد أسرار العالم والوعى . وليس باشيلار هو العالم الوحيد الذى يقدم لنا هذا المثال من الثنائية اللغوية . فالعالم ادنجتون في كتابه « طبيعة العالم المادى » يذكر المعادلة الهيدرو ديناميكية التى تمثل المراحل الأولى في تكوين الأمواج . ثم يستشهد بقصيدة للشاعر روبرت بروك يتحدث فيها عن رقصة الأمواج في أحدى ليالى الشتاء . ويضيف أدنجتون قائلا : « في مثل هذه اللحظات لا نشعر بأننا نحط من قدر نفوسنا . وعند التفكير في هذه اللحظات لا نقول انه من المضحك أن أنسانا أوتى ست حواس قوية وأوتى معرفة علمية يلهو ويمرح راقصا على هذا النحو . اننى سوف أحمل معى في المرة القادمة مقالى عن الهيدرو ديناميكا . أنه من الخير أن يعيش المرء هذه اللحظات . ما أسوأ الحياة وما أبعدها عن التطور اذا نحن لم نضف على العالم الخارجى معنى غير المعنى الذى نعرفه من قياسات الأجهزة الفيزيائية أو الرموز الرياضية أ هـ . ويضيف مارسيل ريموند تعليقا بليغا على هـذه الفقـرة حيث يقـول لا أظـن أن أحـدا يحـلم برفـع هـذين النقيضين كـأن يقـول ـ مثـلا ـ ان مـا تحـتويه الهيدروديناميكا هـو الحقيقـة وان مـا يقـوله الشاعر ليس سوى ضرب من الأوهام أو دخان يتبدد في الهواء . أو يقول العكس وهو أن الشاعر وحده يقول الحق وأن العالم يعيش في عالم الوهم (.....) . والواقع أن أدنجتون يعرض علينا لغتين مختلفتين (.....) . وهاتان اللغتان تدلان على حقيقتين . وتصلان الانسان بعالمين مختلفين . لأنه لا يمكن القول بأن كلام الشاعر يتضمن « المعنى » الذى يعرضه العالم الطبيعى في صورة رموز . ويجب أن لا يذهب بنا الظن الى أن تجربة الشاعر ـ على صحتها ـ يمكن تحويلها الى أرقام . وكميات قابلة للقياس . ويرى مارسيل ريموند أن الشاعر مخلوق يعيش « في صميم الأشياء » في حين أن العالم الطبيعى ينزوى عن العالم . كما يرى أن هذه « الطبيعة » التى نعيش في أعماقها لا تشابه تلك الطبيعة التى يمسكها العالم الطبيعى في شبكته ويصفها بلغة جبرية . ويستطرد قائلا : « اننى أعتقد أن هذه الطبيعة لا يمكن قياسها بأى حال من الأحوال . بل اننى اسميها ميتافيزيقية (وراء عالم الطبيعة) » . ولكن اذا كان هذا الكاتب يميل الى جانب الشاعر فان الحكمة تقضى بأن نقول ان لغة الشعر ولغة العلم تكمل احداهما الأخرى كما أشار الى ذلك ريتر حيث قال : نظرا لأن الشىء الذى يمـكن قياسه ـ وهو الشىء الموضوعى يتصف بالامتداد فان الشىء الذى لا يمكن قياسه وهو الشىء الذاتى ـ يصبح محلا لاحساسنا وشعورنا الباطنى . ومن هنا يتجه الشعر الى هذه الأشياء الذاتية . ويكشف النقاب عنها . ولولا الشعر لاختفت هذه الأشياء من حياتنا .

يرى روجر كايو في مقاله المنشور في هذا العدد أن ادراك الحقيقة يتطلب لغة العلم ولغة الشعر كلتيهما : فالعلم بلغته الرياضية ينفذ مباشرة الى مركز الحقيقة ويتغلغل الى جذرها أى الى النواة التى تكمن فيها الحقيقة بكل أبعادها . وأما الشعر والعاطفة فانهما يسكنان في السطح المتلألىء للعالم أى في المنطقة التى تتكاثر فيها الطاقات المنبعثة من المركز . وتتفرع الى مظاهر لا عد لها . للانسان مناهج ادراكية لمعرفة الحقيقة غير هاتين اللغتين . وهذه المناهج لازمة لمعرفة مجالات معينة في صميم العالم نفسه . ولمجموعة « التأثيرات المعقدة » في الطبيعة نظير يتمثل في مجموعة الأحاسيس والتلاعب بالكلمات والشعر ليس وسيلة أخرى لادراك الطبيعة فقط بل هو أيضا وسيلة لادراك منطقة معينة من الحقيقة الطبيعية . أى أنه مكمل للعلم . وهذا التكميل لا يظهر على مستوى النشاط الذى يقوم به الانسان

(اجراء عمليات حسابية أحيانا وأحاسيس وأحلام أحيانا) فقط بل يظهر أيضا في العالم نفسه أى بين القواميس المطردة في « المركز » وهي من اختصاص العالم الطبيعي) والاستثناءات الشاذة التى تظهر على « سطح » [وهي من اختصاص الشاعر) .

لا تعوزنا الوثائق اذا أردنا البحث في التاريخ عن دليل يثبت ازدياد الأهتمام بالشاعر والأحاسيس في علم الجمال كلما استكملت لغة العلم دقتها التجريدية . وكلما أوغلنا في الماضي البعيد ألفينا الشعراء يستخدمون عناصر الشعور والاحساس ويمزجون بينها . أو يقارنون بينها . أو يتفننون بالمتع الحسية . ولكن الشعراء والنظار (أهل النظر من رجال العلم) القدامى لم يفكروا في أن يجعلوا الأحساس المرهف شرطا ضروريا لنظم القريض . إذ الواقع أن اللجوء الواعى الى فكرة الشعور والاحساس من ثمرات الثقافة الحديثة .

وكان فن الشعر الكلاسيكي يتطلب أن يكون الشاعر حائزاً على خصلتين لا يستطيع الجمع بينهما بنسبة صحيحة الا فطاحل الشعراء . أحدهما العقل . والثانية استعداد الشاعر للاستغراق في نشوة غامضة تستحوذ فيها قوة إلهية ـ كما يزعمون ـ على وعى الشاعر . صحيح أن المذهب الكلاسيكي تحدث عن الخيال لا عن النشوة . ذلك أن التشابه بين الشعر والتصوير الزيتى دعاهم الى تعريف العقل بأنه يعنى « التصميم » (الذى يجب أن يأتى في المكان الأول) . في حين أن الخيال (يأتى في المكان الثانى) كان يزودهم غالبا باختيار « الألوان » . وعندما سادت استطيقا العبقرية بظهور ديدرو ومعاصريه لم تلبث الملكة الخلاقة عند الشاعر أن تحررت من رق الخضوع لتقليد الطبيعة وأصبح الفنان يخلق « مثل » الطبيعة لا محاكاة لها . وكان من الجائز أيضا أن يطلق على العبقرية اسم « العاطفة » ولكن بعد ظهور الرومانسية حان الوقت الذى أصبح فيه مفهوم العاطفة بمضمونها الأدبى ومحتواها البلاغى مشوبا بالغموض . وأصبح لفظ الحساسية (الشعور المرهف) أكثر ملاءمة عند المتزمتين من رجال الأخلاق أو عند أصحاب مذهب الجمال طلاب اللذة الشهوانية . يقول في ذلك بودلير : « لا تحتقر حساسية أى شخص . أن حساسيته هى مظهر عبقريته » . ويمكن القول بأنه مع بداية الرومانسية كان من الخطوط التى سار عليها تطور الفن أنه أضفى على « الشعور » أو « الاحساس » وظيفة متزايدة باستمرار هى الكشف عن الحقيقة . انه هو المركز الحقيقى لتجلى وجود الفرد في اسمى مظاهر فردانيته . وهو في الوقت نفسه مركز المظهر الغائى الذى يتجلى فيه الوجود الأرضى عن طريق فردانية الادراك الصحيح غير القابل للتجديد . ويرى بروست أن الأحساس ـ مستقلا عن الارادة أو العقل ـ هو مفتاح « الكتاب الداخلى » . ويقول أيضا . اضطررت أن أفسر المشاعر والأحاسيس بأنها رموز لكثير من القوانين والأفكار عند محاولة التفكير أعنى عندما حاولت أن أبرز من أعماق الظلام ما أشعر به وما أحسه . وأحوّله الى معادل روحى . وأقول الآن . هل كانت هذه الوسيلة ـ التى بدت لى هى الوسيلة الوحيدة ـ شيئا آخر غير صنع عمل فنى ؟ الواقع أن « الأنطباع » هو معيار الحقيقة . ولهذا استحق أن يفهمه العقل لأن العقل وحده هو القادر أن استطاع استخلاص هذه الحقيقة على أن يرقى بها الى درجة أعلى من الكمال . ان الانطباعات بالنسبة للكاتب هى بمثابة التجارب بالنسبة للعالم مع هذا الفارق وهو أن العمل العقلى عند العالم يأتى في المكان الأول أما عند الكاتب فيأتى في المكان الثانى » أ هـ . ولكن أمكن مع ذلك اعطاء دور أروع للحساسية . ونبذ العمل الاضافى للعقل الذى طالب به بروست . كما أمكن التركيز على الحساسية . ومنحها الحق النهائى في الربط بين الصفات الحسية للعالم الخارجى وبين العالم الداخلى للجسم الانسانى . ومن السهل أن نتبين في مؤلفات القرن العشرين ذلك الدور الذى يزداد أهمية باستمرار الا وهو دور الوعى الأولى للجسم الانسانى أى ذلك الادراك الجمالى الحركى الذى هو مظهر الحافز المرتبط بطاقة الحياة

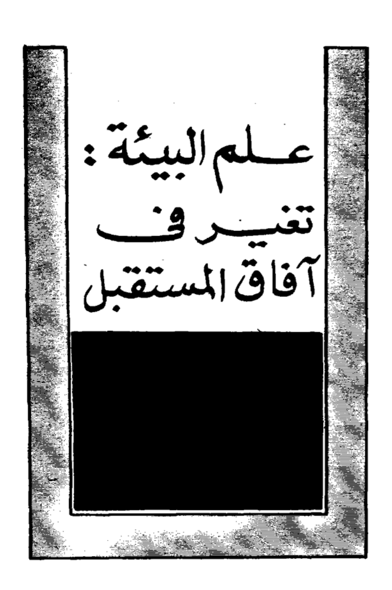
نفسها « التى نسميها في اساطيرنا الشهوة » . ونصل من ذلك الى القول بأنه بعدأن اكتشفنا أن المناظر الطبيعية الأرضية هى محل المتعة الجمالية استطاع الفن أن يوسع نطاق « تأمله » ليشمل البعد الداخلى في الجسم الانسانى . ويمكن تفسير ذلك التطور بأن الشعر اذ يقلد العلم يحاول باستمرار ان يتفوق على منجزاته . فيتجه الى ميدان جديد (ولكن مع ضآلة الأمل في اكتشاف أرض جديدة قابلة للسكنى) . كما يمكن تفسيره أيضا بأنه بعد تقدم العلم « الموضعى » في تمدية العمليات الميكانيكية الحيوية أصبح من الضرورى أن يظهر رد الفعل « الذاتى » . وذلك باستعادة الوجود الجسمى . والتعبير عن هذا الوجود بكلمات شفهية ومسموعة .

ومن التفسيرات الأخرى لضم العالم الداخلي للجسم الى اختصاص علم الجمال رفع جميع المحظورات المفروضة على أعضاء الجسم مما يتيح للكلمات وغريزة حب الاستطلاع مجالاً جديداً كان محرما عليها من قبل . وهكذا يبدو أن علم الجمال قد جنى محصولاً وفيراً من المناظر والمشاهد التى أتاحها له العالم مما أدى الى عودة الاحساس الى نفسه ليعرف ذاته عند مصدره الأصلى لا في الأشياء المحسوسة فقط بل أيضا في الأحساس الصرف أى الأحساس بالأحساس . وعندما يصل الأحساس الى هذه الدرجة من الاستقلال الذاتى فانه يفقد صلته بالعالم الخارجي . وحينئذ تحتل النزوات والخيالات والأحلام المسرح كله على أساس من الرسائل الباطنية . وهذه الرجعة الى « الأعماق » تحمل في طياتها خطر فقدان العالم الخارجي والانفصال عنه (وتسمى هذه الرجعة النرجسية أو الفصام) . ولكن هذا الخطر هو الثمن الذى يجب دفعه لكى يجد الوجدان ادراكا سابقا على انقسام بين العالم الخارجي والعالم الداخلى و بين الموضوعى والذاتى وكانت السريالية تصبو الى ذلك . ولكن الفلاسفة حذروا من هذا الخطر . ولذلك اعترف « كاسيريه » – دون أدنى اهتمام بمساعدة السريالية – بوجود صلة أولى بالعالم . صلة عاطفية وأسطورية . تشترك فيها الذات الداخلية مع الظواهر الخارجية اشتراكا لا ينقطع . ذلك أن كاسيريه يرى أن التجربة الأسطورية ليست هى المسرح السابق للمعرفة الفعلية فحسب . بل ان العقل نفسه بخصائصه المميزة ما كان ليوجد لولا هذه التجربة . وهكذا نجد أن الرجعة الى الاحساس والاتجاه نحو المصادر الجسيمة تعادل الرجعة في الزمن التى يحلم بها من أرقهم الحنين الى اللغة البدائية المفقودة . وبذلك تحيا الأساطير القديمة مرة أخرى لا في الذاكرة . بل عن طريق قوة موجودة دائما . ومنذ ذلك الوقت لم تعد القضية قضية لغة ثنائية – لغة الشعر ولغة العلم – بل قضية وحدة أساسية يبدو فيها الانسان في مظهره الأرضى سباقا على كل انقسام قبل أن يحدد العلم مناهجه ومجالاته .

ان هذه الوحدة الاساسية تعود بنا الى الحالة البدائية التى كانت فيها اللغة الأولى هى لغة العلم والشعر . ولكن التفكير في هذه الحالة البدائية (التى يمكن تشبيهها بحالة الطفولة والفردوس) يعد بمثابة خطوة الى الوراء . ذلك أن الوحدة لا تتحقق – كما رأينا – الا بالرجعة الى الوراء . وهذا يؤدى الى فقدان العالم وانقطاع صلتنا به كما سبقت الاشارة الى ذلك . والحق أنه كان يجب علينا أن نخلف الوحدة البدائية وراءنا ونتبذها حتى يتسنى لنا أن ندرك أنها وحدة أولية . ونشعر بفائدة تحقيقها مرة أخرى . لتعود كما يعود الفردوس المفقود الذى يزدهر الى الأبد . ومن هنا نرى أن الانقسام بعد الوحدة كان ضروريا حتى يتسنى لنا أن نرجع الى مصادر الشعور ودرجة الكمال السابقة . ونحن لا نستطيع أن ننسى الانقسام عندما نتطلع بشغف وحنين الى العودة (عاطفيا كما قال شيلر) بعد الانقسام الى عالم خال من الثغرات (أو عالم يمتاز بالكمال والوفرة) . والواقع ان الانقسام هو السبب الحقيقى الذى يجعلنا نرى الأفق الذى سبقه عالماً « أوليا » لا انقسام فيه .

وفي مواجهة هذه النظرة الى الوراء يلقى الشعر نظرة الى الأمام . أى يتطلع الى زمن مستقبل أو مكان ناء في المستقبل يمكن التغلب فيه على اختلاط اللغات والقسمة الثنائية بين المعرفة العقلية والعاطفة المشبوبة · ومنذ عهد الرومانسية أصبحت مهمة التغلب على هذه المتناقضات أكثر المهام الحاحا · ولذلك فان فريدريش شليجل حين وصف الشعر الرومانسى بأنه « شعر عالمى تقدمى » أسند اليه مهمة التوفيق التى تتلخص في العبارة الآتية ان تاريخ الشعر الحديث هو التفسير المستمر لهذا النص الفلسفى الوجيز . وهو « يجب أن يصبح الفن كله علما . كما يجب ان يصبح العلم كله فنا يجب ان يتحد الشعر والفلسفة » أ هـ

وبهذا التعبير تجاوزت مهمة التغيير المتبادل موارد العلم والفن على عهد شليجل · وحتى يومنا هذا لم تتم الوحدة بينهما · وأكثر من ذلك أنه ليس في مقدور اللغة الشعرية والعلمية تحقيق الوحدة المنشودة . فلا يزال من السابق لأوانه تحويل الفكر العلمى عن مهمته · والدليل على ذلك أن الرومانسيين الذين عنوا باضفاء الصبغة الشعرية على العلم ضلوا في ضباب التفكير والوحدة المبتسرة · ولكن الذى يستطيع الشعر أن يفعله هو أمر مختلف جدا . فهو يستطيع أن يجعلنا نعرف أن أكثر المعلومات موضوعية عن الكائنات الكاملة التى هى نحن لا يمكن أبداً أن تشمل الحياة والوجدان معا · ومن مزايا الشعر أنه يبصرنا بجزئيات حياتنا . كما يبصرنا بعيوبنا ومواطن النقص فينا · ومن ناحية أخرى فان الشعر يفتح أمامنا آفاقا من المعانى أوسع مما تحتمله الكلمات التى يستخدمها . فهو يدعونا الى الحرية التى لا يستريح بال كل من عرفها . وهى دعوة ليس لها مضمون محدد ولكنها قابلة لكل المضامين · وعندئذ تتجه نظرتنا الى المستقبل · هذا والأحساس المرهف الذى يستطيع الشعر التعبير عنه هو « الشكل » المتوقع لجميع الأحاسيس المرهفة الأخرى التى لانزال نفتقر اليها سواء في تشوفنا الى العلم أو في مجال حياتنا اليومية الجدبة · وعن طريق الأختراع الحر للصور الخيالية المعقدة يستطيع الشعر أن يقدم في الفاظ قليلة نموذجا متشابها من الاتصال الفكرى العالمى . وأن يتوج المعرفة بالتأملات والأفكار السعيدة · ويكفى أن يكون الشعر وحده هو الأمل الذى يعد وجوده بمثابة الماء الذى يغير وجه الصحراء ·



● المقال في كلمات ·

نظرة جديدة ثورية الى الصلة بين الأنسان وبيئته الطبيعية تستهدف الارتقاء بأطار الحياة في المستقبل بمكافحة تلوث الأرض والماء والهواء والفضاء بمخلفات الصناعات المعدنية والكيمالية وفضلات المدن والزراعة والاقتصاد في استهلاك الموارد الطبيعية .

ذلك أن التوسع المكانى الهائل وكذا ازدياد الأنشطة الصناعية والعادات الحديثة التى أوجدتها المدنية كل ذلكيستثيروفرة هائلة من الفضلات .. وأصبحت معالجة الفضلات موضوع الساعة . وكان الناس فيما مضى يشمئزون من الفضلات العضوية القابلة للتحلل من القمامة والافرازات الآدمية والحيوانية ولكن قابلية

الكاتب : لويس أرينيلا

ولد عام ١٩١٨ . خريج مدرسة المعلمين العليا بسان كلو . حائز على درجة الأستاذية في الفلسفة . نشر له ، « فكرة مقاومة الدولة ، وجهة نظر لوك » بمجلة ديوجين عام ١٩٦١ . « الكلفنية ومقاومة الدولة » . الحوليات . ١٩٦٧ . « العمل ومعرفته » . ١٩٦٥ . « الاقتصاد والتربية » . التعاون التقنى . ١٩٧١ . « نهاية التاريخ . وجهة نظر كورنو » . ديوجين ١٩٧٢ . « نزاع الأجيال . والمجتمع الصناعى » . تحليل وتنبؤ . ١٩٧٣ . « ج . جدورف وعصر الأنوار » . مجلة القرن الثامن عشر » . ١٩٧٥ . الخ

المترجم : أحمد رضا

ليسانس الحقوق من جامعة باريس . دبلوم القانون العام من جامعة القاهرة مدير بالإدارة العامة للشؤون القانونية بوزارة التربية والتعليم (سابقا) .

التحلل والتعفن أصبحت اليوم مطلوبة لأنها تنتهى بالتخلص من الفضلات في حين أن المشكلة الحاضرة تتمثل في مخلفات الصناعة من منتجات معدنية ولدائنية وكيمائية لا سبيل الى زوالها بالتحلل البكتريولوجى .

وهناك اتجاه حديث يدعو للعودة الى الحياة الفطرية البسيطة وايقاف عجلة النمو الحضارى الصناعى التكنولوجى والحد من الاستهلاك وتبديد موارد الطبيعة والاعداد لمجتمع زراعى يخلف المجتمع الصناعى والاهتمام بالأدب اليوطوبى فهل هذا الاتجاه معقول أومستطاع ؟ وهل يمكن حقا ايقاف التقدم في عصر العلم والتكنولوجيا ؟

ويعرض المقال في سياق دراسته لهذه المشاكل الجوانب الفنية التشكيلية ، والتاريخية ، والاقتصادية ، والفلسفية منها ، يتحدث عن الأساليب الفنية القديمة والحديثة في تصوير القاذورات، والنفايات ، والفضلات ، والأساليب الأدبية في وصف القذارة والقبح والدمامة ، والنظريات الاقتصادية بخصوص الماء والهواء والفضاء ، وكانت فيما مضى أموالا لا تفنى فهى متاحة للكافة بالمجان ، وأصبحت الآن من الأموال التى لها قيمة . كما يتحدث المقال عن الطبيعة ، وأرتباط الانسان بها ، وإمكانياتها الهائلة ، ومشكلة التوفيق بينها وبين الحضارة ، وتحالف الانسان مع بيئتة الطبيعية ، أو سيطرته عليها وأخضاعها عن طريق العلم والتكنولوچيا ، ومعالجة النظامين الرأسمالى والماركسى للطبيعة . ويشير المقال في هذا السياق الى بعض الأفكار الفلسفية عن الوجود ، عن المادة والشكل في رأى أرسطو والفيلسوف الألمانى بلوخ ، وغيره .

أن وحدة جوهر الانسان والطبيعة تفرض فهما جديدا للعالم ، وينبغى أن يستثير العلم والتقنية المعانى الكامنة في الطبيعة ، فالإنسان والطبيعة شريكان في الانتاج .

يلتقى المجتمع الصناعى اليوم بعلم البيئة . ففى إبريل ١٩٧٦ قدمت الحكومة الفرنسية للجمعية الوطنية نصوصا بشأن « ترميد » الفضلات والقائها في البحر ، ووقاية الطبيعة . وثمة حملات أنتخابية ، ومناقشات ، ومظاهرات ، تتركز في موضوع التلوث والبيئة . وكان تراكم الفضلات في القرن الماضى مشكلة حقيقية . كتب ب . ل . سيمونز في عام ١٨٧٥ « من أهم واجبات الصناعات التحويلية أن تستعمل الفضلات لأغراض مفيدة » وصدقت النصيحة . كما ذكر ج جوتمان الذى لم يتردد في أن كتب بعد ذلك بقرن من الزمان « اذا وصف عصرنا بأهم مادة أولية يختص بها ، مثلما وصف عصر البرونز وعصر الحديد . فلا يجوز أن نتحدث الآن عن عصر الصلب ، أو البترول ، أو عصر الذرة (الذى ربما يأتى في المستقبل) ، وأنما عن عصر القمامة » . إن التوسع الديموجرافى (السكانى) الذى أنتقل من خمسة ملايين نسمة في العصر الحجرى القديم الى أربعة مليارات من الأنفس في العصر الحاضر يستثير وفرة هائلة من النفايات المتخلفة عن كل من الآليات الطبيعية في الحياة ، والأنشطة الصناعية (نفايات المصانع) ، أو التصرفات الحاضرة التى تميل الى الإهمال (« المجتمع المتأهب للإلقاء » عند ألفن توفلر) . ويتبدى عالم مغمور بالنفايات يشبه العالم الذى ذكره أيطالو كالفينو في « المدن الخفية » في معرض حديثه عن مدينة ليونى ، « سوف تكتسح فضلات ليونى العالم بالتدريج إذا لم تتصد لها فضلات المدن الأخرى التى تلقى هى الأخرى بعيدا عنها جبالا من الفضلات . ولعل العالم كله فيما وراء حدود ليونى مغطى بقمم من الفضلات . في وسط كل قمة منها عاصمة تثور كالبركان ثورة مستمرة . وهكذا فان التخوم بين المدن الأجنبية أو المعادية حصون عفنة . تتساند فيها فضلات المدن . ويختلط بعضها ببعض ، ويتهدد بعضها بعضا » . ويقترب عالم « التحول » . الذى يبدو فيه الإنسان وقد استحال حشرة مغطاة بالأتربة وبقايا الطعام . تقضم فضلات خضراوات نصف متعفنة . ويصور القصص العلمى

علاجا لحجم المشكلة . ألسنا نرى في الواقع كوكبا متخصصا في تخزين الأقذار التي تتلخص منها مجرة بأسرها ؟

هذا الوسواس الذى يلح بشأن الفضلات ليس الا كيفية للنظرة الى الشىء حين يصل الى منتهاه » يتولد في مجتمع ينتج ، ويستهلك ، ويتخلص من الفضلات . غير أن وجود هذه الفضلات بصورة مكتسحة يكشف عن إسراف مجتمعاتنا الصناعية إسرافاً فاحشاً . إن فكرة نفاد الموارد يصاحبها فكرة تلف الطبيعة ، والفكرتان تغذيان الحملات التي يشنها علماء البيئة . وليست هذه الحملات حديثة . فنحن اذا استندنا الى الشواهد التاريخية استطعنا أن نميز المطالبات القديمة . والأوضاع الحاضرة التي تتضمن مظهراً جديداً للوضع القديم المعروف من قبل . مظهراً يبين مشكلة جديدة مطروحة . حقاً إن فكرة الدفاع عن البيئة حافلة بالمعاني المبهمة ، وبخاصة أن فكرة البيئة نفسها غامضة ، ونود أن نوضح انطلاقا من مفهوم ضيق لمصطلح البيئة بقصرها على حجمها الطبيعي الحيوي ، أنه من خلال مواقف الدفاع من بيئة حياتنا بدأ يظهر تحول في مظاهر السلوك الفكرى حيال العلم والطبيعة .

الم يكن تلوث الهواء والماء والأرض وهبوط التربة والضوضاء أشياء موجودة في كل زمان ؟ إن مدينة طوكيو تغوص كل عام أكثر من ثلاثة سنتيمترات بسبب الإسراف في ضخ المياه الجوفية . وأهل البندقية ، هل يعدون درجات الكنيسة التي يترددون عليها والتي تعلو سطح الماء . وهل هذا هو عدد الدرجات التي يرونها في تصاوير كاناليتو أو بللبنى للكنيسة نفسها ؟ ويجرى في البحيرات . ونهر الرين . والبحر الداخلي في اليابان . عمليات لمعالجة التلوث من السوائل المتدفقة من المدن والمصانع . وترفع محطات توليد الطاقة درجة حرارة الآنهار . ولم يعد الغبار يوصف بأنه « مادة في وسط غير مناسب » الا إذا كانت الجزئيات العالقة تحجب سماوات لوس أنجيليس أو كاواساكى . وفي عام ١٦٦١ أنب المؤرخ چون إفلين أولئك الذين يحرقون الجير والملح والصابون لأن أفرانهم تتلف « الهواء أكثر مما تتلفه مداخن لندن كلها » 9 وفي عام ١٢٧٣ صدر مرسوم يحظر أستعمال الفحم في لندن باعتباره « مضرا بالصحة » 9 مثلما تنظم السلطات العامة في الوقت الحاضر أستعمال الرصاص في مواد الوقود . وبعد چوڤنال شكا بوالو من ضوضاء المدينة كما يشكو معاصرونا منها . وتصف « لوحة باريس » لسباستيان ميرسيبه عاصمة تحولت الى مستودع قمامة . وأفسد جوها الروائح الكريهة الصاعدة من الأفران المنزلية . والمقابر . والغائط الملقى في الطرقات . ولكن المؤلف نفسه يعرض في عام ٢٤٤٠ صورة مشرقة لمدينة باريس حيث يسيل الماء النقى من الينابيع . والأسطح تكسوها الخضرة فتحيل المدينة حديقة يانعة . ويشيد ليدو بمنازل الأفراد التي تواجه الرياح . ويدعو فولتير المواطنين الى الاهتمام بمدينتهم بازالة ما بها من أشياء مزعجة . وتجميلها . مثلما فعل المهندسون المدنيون في « المدن الجديدة » بعد الحرب العالمية الثانية . وكلما فرض التصنيع أفاتة المزعجة ندد أدب البلاد التي تعاني منها بتعاسة المدن التي فيها مصانع . ولكن هناك في مقابل اليأس والشكاوى من الآثار المدمرة الناتجة عن التطور يبرز تفاؤل التقنيين الواثقين من التغلب على مختلف أضرار التقدم . وتقدر لجنة التحقيق الأنجليزية التي تشكلت عام ١٨١٩ لدراسة موضوع الآلات البخارية أن في الامكان . وهو أمر وأجب . ازالة أدخنة هذه الآلات . كما يؤكد علماء الفيزياء إمكان منع تصدع أو تهيج المولدات الكهربية العالية . ويدرك الناس على الدوام الآثار المزعجة أو الخطرة الناتجة عن نشاطهم والتى تضر ببيئتهم ،

ويبحثون باصرار عن علاج لها . وقد أوضح مؤتمر انعقد في نيروبى مسئولية الناس في كل الأزمان عن تحويل المناطق الجافة الى صحارى . ولم ينتظروا حلول القرن العشرين لكى يغيروا أشكال الطبيعة . فحينما حاصر الساكسون الأمبراطور الألمانى هنرى الرابع في هارزبيرج عام ١٠٧٣ اضطر لكى يفلت

من الحصار أن يجتاز غابة لم يمسسها بشر حتى وصل في اليوم الرابع الى اشويج . وبعد انقضاء قرنين من الزمان أصبح التسعون كيلومترا التى تفصل اشويج عن هارز برج مغطاة بحقول وقرى . وهكذا يقلب العمل الحضارى الطبيعة . ويحطمها . ويستنزفها . إن أجمل الاكتشافات الأثرية تتم في بقاع شبه صحراوية وثمة مدن رائعة تشهد بحضارة متقدمة ترقد الآن مدفونة في جهات مقفرة أو بائسة . وكأن أعمال الأنسان البارعة تدمر البيئة المباشرة . عندئذ يبرز السؤال المقلق ، « هل آن الأوان لزوال الحياة البشرية ؟ » .

وإزاء فداحة الخسائر يعود الإنسان الى فكرة المحدودية (أو التناهى) ، الفكرة التي طردها عصر النهضة ، في فجر النظام الرأس مالى ، حين ملأه شعور بالضخامة ، فاستبدل عالماً لا نهاية له بعالم المجتمع الإقطاعى اللاهوتى المغلق . والشيء الغريب المتناقض أنه في الوقت الذى يدرك فيه الجنس البشرى نمو قدراته نمواً لا حد له تقريباً يغذى في نفسه هواجس سوداء . ويدفع النمو السكانى والحضرى وزيادة المناجم والمصانع أوروبا القرن الثامن عشر الى اجتياز مرحلة اقتصاد الاستهلاك . وفي هذا العصر يجعل بايل من نفسه « نبى الرأسمالية المظفرة » . غير أن صيحة الانذار التى اطلقها مالتس في عام ١٧٩٨ تؤكد حتمية وقوع مجاعة قاسية . ولم يكد ينقضى قرنان من الزمان ، وفي أوج النمو الاقتصادى ، يتساءل كاتب وهو يضع بياناً باستهلاك منتجات المناجم عما إذا كانت الأرض لا تنضب مواردها . وتظهر النبوءة المتشائمة من جديد في وقتنا الحاضر . وتستعين بالدلالات الرياضية لمعهد ماساشوستس للتكنولوچيا ، فتعلن عن التهديدات المقترنة بالنمو . ألم يعد القلق المزعج الذى انتاب سكان لابوتا (في قصص جوليفار) وأملى على علماء المدينة مشروعاً باستخلاص « الخيار » من أشعة الشمس أوالبحث عن وسيلة لتحويل براز البشر وإعادته الى حالته الأولى يساور الناس في الوقت الحاضر بأشكال أقل إثارة للضحك والسخرية ، ولكنها لا تقل شدة عن سابقتها ؟ لقد أصبحت معالجة الفضلات من موضوعات الساعة ، ويجرى بانتظام الكفاح ضد التبديد ، وتبذل المساعى للحد من الإفراط في الحاجات . وهكذا بدأ التأهب لإدانة ما هو زائد عن الحاجة . وامتداح البساطة لا بل الزهد . إن أولئك الذين يزدرون التقدم التكنولوچى والنمو الاقتصادى ، يشجعهم التقشف المسيحى ، وتتسلط عليهم الأوهام التى تمجد العصر الذهبى للبشر الأوائل ، يعرضون حنينهم الى الوان الحياة الفطرية الأولى ، وهو حنين قوى ما دامت الاحداث الحاضرة تدعو الى نمط قوى من العصرانية . ويرفض الفيزيوقراطيون مستقبلاً صناعياً يتصورون له بنياناً يفزعون منه ، ويعرضون صورة لبلاد الصين ، وهى بطريقة زراعية . وفي القرن الماضى كانت انتقادات ملفيل بشأن المصانع ، و « صورية » أمرسون ، واحتجاج روسكين على قبح المدن الصناعية ، وضرب من الرومانسية ينزع الى طبيعة العصر الوسيط ، كل هذه الأشياء تبدى رفضاً انفعالياً للتصنيع الذى هو نقيض الرغبة في العودة الى الطبيعة . وثمة عداء غامض للمدنية يفضى الى صياغة أحلام تصور الهرب خارج المدن ، والتمريف بفن الحياة وفق الطبيعة ، وإطراء استهلاك « غذاء بيولوچى » . ويقترح عالم البيئة والكيمياء الحيوية السويدى المشهور جوستا أرينسفارد خطة للحد من الاستهلاك في كل المجالات ، في توزيع الكهرباء ، والوقود السائل ، والتوقف عن إنتاج السلع غير الضرورية للحياة (السلع الكمالية ، والأسلحة) ، والاقتصاد في توزيع الغذاء في كل البلاد الصناعية ، واعادة معالجة كل الاشياء المعدنية ، وإعطاء الأولوية للبحث في الطاقة الإندماجية ... الخ ، ولا يعنى ذلك اجتياز مرحلة صعبة انتظاراً لحلول تكنولوچية لمشاكل النقص في مطالب الحياة ، وانما المطلوب وضع الجنس البشرى في مرحلة انتقالية تعد العدة لمجتمع زراعى يخلف المجتمع الصناعى .

ويقترن هذا الفكر الرعوى المتسلط باهتمام شديد بالأدب اليوطوبى . حتى إذا كانت العودة المطلقة الى الطبيعة لا تتمشى مع الرغبة اليوطوبية في تنظيم شمولى للعالم فالحقيقة أن تاريخا متصلاً لليوطوبيا يستخلص. كعنصر ثابت ، نظاماً زراعياً في جوهره . وكلما نمت القدرة التكنولوچية . واستثارت ضروباً من المديح . ارتفعت المعارضة القلقة ضد العمليات التى تهدم الطبيعة . وينتقد تورو « الجنة التى في متناول الناس كافة » التى يعرض فيها اتزلر . وهو ألمانى مقيم في بنسلفانيا ، صورة مجتمع حررته الآلة . واليوم تضع النظريات اليوطوبية المضادة . لدى برابديرى ودوبلن . وبراجاڤيل في نهاية ما يعتبرونه مستقبلاً تقنياً سخيفاً وفاجعاً للجنس البشرى . ضروب العودة الى طبيعة كريمة حفية .

وتسهم التكنولوچيا في هذا الشأن فتوضح أن مجتمعات الصيادين في العصر الحجرى القديم كانت مجتمعات وفرة ورخاء . لا يشتغل فيها الناس الا بصنع ساعات في اليوم للوفاء بحاجاتهم المعيشية . فكانوا من ثمة « يعيشون حقا معيشة الأثرياء » . وعلى ذلك كان ظهور الزراعة من وجهة النظر هذه نكسة حقيقية . من ذلك أن الخطيئة الأصلية تتمثل في الحركات التى يعتدى بها الإنسان على الأرض ليستخرج منها موارده . وعندئذ فإن تطور الحضارة الصناعية ليس الا التاريخ الطويل للسيطرة التكنولوچية على الطبيعة . سيطرة ترفع بشدتها وحجمها الحاليين المخاطر والخسائر الى مستوى لا يقبله أحد .

غير أن المجتمع ينمى قدرته على القضاء على المخاوف والاحتجاجات التى يثيرها الأتجاه الذى يتخذه تطوره . فهو يهيىء على المستوى النفسى والفكرى . أو التقنى والاقتصادى . مواقف وأنظمة وإجراءات تصون أيديولوچيات التقدم أو تقويها .

وعلى المستوى النفسى لا تخفى الهيئات التى تتولى الإعلام أو تشكيل العقليات مظاهر الواقع القابل للنقد . ويهيىء التبليغ عن التلوث الناس لقبول الأمر الواقع أو الأستسلام له . وتعلن وسائل الإعلام عن تلوث ذرى ، أو غرق سفينة مثل تورى كانيون ، مثلما تشير الى مأساة عاطفية . أو عملية نصب . أو تدفق ثلجى مهلك ، أو عرض تكنولوچى . أو نصر رياضى . ويجتمع في باب الأخبار المنوعة خليط من الأنباء المتنافرة . المطمئنة أو المزعجة ، تشكل على هذا الوجه مجموعة متوافقة مقبولة . تتشكل فيها النكهات المتطرفة في انطباع محايد .

والحدث الذى يقدم في يوم ما في صورة كارثة لم يسبق لها مثيل يعود فيقدم في اليوم التالى بكيفية بارعة في صورة حادث ليس له عواقب . هذا العرض المتتابع للوقائع ، كأسنان المنشار ، يشبه العلاج بالحمام الأسكتلندى (نضح ساخن ثم بارد نبأ أو كلام مزعج يتبعه نبأ أو كلام مفرح : المترجم) والتحصين التدريجى ضد الأمراض ، القائم على تنظيم يزداد قوة بالتدريج .

وليس ثمة شيء يوضح جيدا هذا الإيلاف ببيئة تغيرت أو ازدحمت بفضلاتها مثل بعض الاتجاهات الأسطاطيقية (الجمالية) الحالية . من ذلك مثلاً أن « صناديق القمامة » لأريان . وفيها تتكدس الفضلات بجميع أنواعها ـ من علب المأكولات المحفوظة . وقمامة المنازل ـ والسيارات . والدراجات البخارية المحطمة لبالداشينى ، والفضلات لبويز . تعبر كلها عن مستودع عالمى للنفايات تتكدس فيه هياكل السيارات . والزجاجات الفراغة . والعلب المعدنية . والمواد اللدائنية (البلاستيك). هذا الاهتمام بالافرازات الآدمية يؤدى الى واقعية جديدة . إن لم تكن مجرد مرآة لواقعية محسوسة ، فإنها تشهد باهتمام يزداد قوة بتلك المظاهر الواقعية التى تتمثل في القبح والقذارة ، والتى كانت فيما مضى مكبوتة .

ويبين أودورنو أن أول هذين العنصرين يتضاعف في الفن الحديث . ولو أن الفونات والسلينات في الحضارة اليونانية . ومثال الإنسان بمظهر يبعث على السخرية في بعض منحوتات العصر الوسيط . في المسوخ العابسة في أعمال بروجيل الأكبر . أو جيروم بوش . والمخلوقات البشعة في أعمال فلاسكويز . قد عودتنا منذ زمن بعيد تصوير المنظر القبيح . غير أن هذا القبح لم يكن فيما مضى منفصلاً عن سائر خصائص الواقع . وكان مجاوراً لما هو جميل أو شاعري . هذه الصحبة الغريبة توضح ما يسميه باختين «الرؤية الكرنفالية للعالم » أى إدراك الوحدة والطبيعة الثرية التى لا تنضب لوجود يختلط فيه الموت بالحياة . والجمال بالقبح . والفكاهة بالمأساة . وتعبر « الواقعية البشعة » في العصر الوسيط وعصر النهضة التى درسها هذا المؤلف عن الشعور الحى بالأشياء المحسوسة التى تنتظم فيها كل التناقضات . من ذلك أن « رقصة الموت » لهولبن أو درر لا تخلو من عناصر الفكاهة . وفن الجروتسك (الهزلى . الغريب . أو البشع . المترجم) يتغيا تصوير ديناميكية الحياة . والنقص الدائم الذى يتسم به الوجود . كتب باختين : « هذا هو السبب الذى من أجله يجعل ـ الجروتسك ـ نفسه في تصاويره قطبى المصير . يضع في وقت واحد ما يرحل وما يقبل . ما يموت وما يولد . يظهر جسمين داخل جسم واحد . البرعمة وانقسام الخلية الحية . ولا تبقى أية جثة في المستويات العليا للواقعية والفلكلورية الجروتسك وكذا في موت الأجسام الوحيدة الخلية (يتوافق موت الجسم ذى الخلايا مع تكاثره . أى الانقسام الى خليتين أو جسمين دون أى « فضلات »). فالشيخوخة حبلى . والموت حامل . وكل ما هو محدود . ومتميز . ومتجمد . ومتأهب . يلقى في قاع الجسم حيث يعاد صهره . ويولد من جديد .

ولا يتأتى لبعث الجروتسك الرومانسى أن يستعيد هذا المعنى للعالم حيث يتصل البعث بالزوال اتصالاً جدلياً (ديالكتيا)، وتنصهر مختلف وجوه الحياة المتعددة في بوتقة واحدة . ويتوافق إبراز القبح مع ازدهار الصناعة في القرن التاسع عشر . ويلعب التقدم الصناعى دور المحلل . فلم يعد القبح مختلطاً بالصفات الأخرى . ولكنه ينعزل ويبدو كأنه نتيجة لعملية تجريد تجعل منه فئة مستقلة تتمتع بقدرة بنائية . وهكذا يجعل التفكير الأسطاطيقى (الجمالى) من القبح مفهوماً متكاملاً . وقيمة الى جانب الفئات الفنية الأخرى .

هذا الرضاء بالقبح . والموافقة على الخلو من الجمال . أصبح اليوم من سمات الماضى . أو أضيف اليه الاهتمام بالفضلات بمختلف اشكالها . وينتهى هذا الاهتمام الى رأى مبتسر في تحويل القيم . وليس ثمة ما يوضح هذا الاهتمام أفضل من بحث ساخر بعنوان « بحث على نطاق ما بشأن القذارة »حيث تعتبر القذارة من مراتب الوجود . فهى تنفث حياة ونمواً في اللغة . والقدرة . والبيئة . والمجتمع بأسره .

هذه الظاهرة . حين تفسر بأنها من دلالات التحرر تترجم التطلع الى حالة غير متميزة . من حالات الطبيعة البدائية تتجزأ فيما بعد الى ما هو « نظيف » وما هو « قذر » من العادات الاجتماعية السائدة . ويبدو التحكيم في الفضلات المعاصرة والشعور بالتقزز من افرازات الجسم أنهما نتيجة لاعداد ثقافى . ويستتبع طرحهما رفض بعض القيم باعتبار أنها جبرية . ولكن ألا يفى تطور الفكر الحديث الذى يسلم بهذه القذارة ويبرئها بأنه إعادة تقويم ما هو قذر . ودنس . ونفاية .؟ وقد وجدت هذه النفايا فيما مضى دناءتها وانحطاطها وأخيراً فناءها في عملية تعفن وتحلل ،

سطعت الشمس على العفونة ،
وكأنها تبغى إحراقها ،
وتعيد الى الطبيعة أضعافاً مضاعفة ،
كل ما كانت جمعته فيها .

(بودلير : أزهار الشر)

وأضاف القذر الى القبيح ، ما هو منفر ونتن .

على أن عصرنا أنتزع من النفاية هذا المظهر الخسيس المنفر . ففى مقابل « الجيفة الكريهة » نجد اليوم منحوتات سيزار بلداتشين بيها كل عرباته . أو المواد اللدائنية لا ولدونبورج . هذه الأشكال المتخلفة تفلت من عملية التمثيل البكتيرى . ويشعرنا عدم قابليتها تقريباً للتلف بالأسف على قابلية الأشياء للتحلل . ألا توجد قوة تخمر تستطيع أن تفكك سريعاً وبالكامل كل هذه المنتجات المستعملة . نوع من الكائنات يلتهم العفن ، فيعيش ويغتذى من ذهذ المواد اللدائنية والحديدية ؟ وتصبح قابلية التعفن التى كانت فيما مضى دلالة على الدنس صفة مرغوبة للأشياء . ألا يبحثون عن وسيلة لإعادة طبيعة الإنحلال الحيوى لهذه المواد غير القابلة للفساد التى تعدها الصناعة الكيميائية ؟ إن عدم قابلية الفساد تقص وضعف . و « القذر » في مجتمع « أنظف » مما كان في أى وقت مضى قد غير مضمونه ولم يعد شيئا منفرا ، كما لم يعد شيئا يتحلل ويتعفن . الزكام « القذر » هو الذى يدوم طويلاً ، وتقاس « نظافة » الانفجار الذرى بمدى تأثيره في الزمان والمكان . « القذر » اليوم هو الذى يصمد ، ويبقى موجوداً الى ما لا نهاية الذى يتباطأ في توقيع الضرر ، وذلك بأن يستقر في وضع منيع دائم .

هذا التحول المتناقض يفسر المشاعر ذات الحدين حيال « القذر » والفكرة تدمج نظامين متناقضين . منفصلين من الوجهة التاريخية ، القدرة على التحلل ، وهـذا أوضـح تعبير لما هو ضار بالصحة . وكان ينظر اليها فيما مضى باشمئزاز . وهى اليوم شىء مأسوف عليه . رد اعتباره ، وأكتسب قيمة جديدة . أما النفور الذى كان يستثيره « القذر » في الماضى فقد انتقل الآن الى نقيضه ، الى القدرة على الوجود دهراً طويلاً ، الى مالأ نهاية مما يتهدد بالأخطار . ان ظهور « القذر » باعتباره فئة من الفئات التى تشكل الكون يتضمن بصورة خطيرة ذلك الغموض الشديد الذى ينتاب الاحساس الذى يشكل « القذر » قرينه المادى والعضوى . وبظهور عدم قدرة الفضالة على التلف . والاندماج مرة أخرى في النظام البيئى ، هذا الظهور يوحى بعدم القدرة على التجدد ، ويعلن بالتالى عن نضوب محتوم . ويغدو ازدحام العالم دلالة على إفتقاره .

وفي هذا النطاق من الحساسية البيئية المرهفه لم يعد في المستطاع علاج الأدواء المعلن عن ظهورها عن طريق التبشير القديم بعودة خالصة الى الحياة الطبيعية . ويتمثل هذا العلاج في رأى البعض في تثبيت التطورات . وتنضم فكرة « ايقاف النمو » التى قال بها مانشولت . والأفكار الخاصة باقدام التنمية الى « حالة الاستقرار » الأثيرة لدى جون استوارت مل في القرن التاسع عشر .. ومن شأن استبعاد الافراط والمغالاة اللذين تشملها كل هذه التصريحات أن يضفى سمة من الحكمة المعقولة على ما قد يبدو تخوفا غير منطقى من المستقبل . وليس في الامكان ايقاف التقدم . وبخاصة في عصر تنمو فيه تكنولوجيا الصناعة في مجال من الاستغلال المنهاجى للبحث العلمى .ولا يمكن ، على مستوى السلام الاجتماعى ، أن نتصور

ايقاف حركة التنمية . والواقع أن مشاكل البيئة أصبحت وسيلة لتغذية الأنشطة الاقتصادية . فثمة سوق جديدة تنتج أمام المشروعات المتخصصة في صنع المعدات المضادة للتلوث . وفي عام ١٩٦٩ باعت الشركات اليابانية أكثر من ٢,٥ مليار من هذه المعدات . وفي عام ١٩٧١ قدر الأمريكيون معدل نمو المجمع الصناعى البيئى بنسبة ٢٠ ٪ في السنة لفترة الخمس السنوات القادمة . كما قدروا اجمالى مبيعاته في مجاله حماية البيئة بمبلغ ٢٥ مليارا من الدولارات . والواقع أن الهدف من التحديد الكمى للنمو يشجع توسعا جديدا في الصناعة تغذية الاعتمادات العامة والضرائب على الاستهلاك . وكما أبانت في عام ١٩٧٠ لجنة البيئة التابعة لهيئة التعاون والتنمية الاقتصادية بشأن اصلاح أحوال البيئة الصناعية ، « يتمثل الحل لا في الامتناع عن التنمية . وانما في تشجيع النمط الجيد من النمو عن طريق توزيع حكيم لمواردنا القليلة ، لا في ايقـاف الانتـاج . وانمـا في انشاء أجهزة وتنظيمات جديدة قادرة على معالجة العوامل الخارجية في اقتصاد السوق ، التى لا نهتم بها الآن معالجة أكثر فاعلية » .

ويسهم هذا الانتقاص في العوامل الخارجية . على مستوى علم الاقتصاد في اعطاء دفعة جديدة لفكرة الرخاء . فالواقع أن الماء والهواء كانا يعتبران لزمن طويل أموالا لا تفنى .ومن ثم مهما بالمجان . وبخاصة بالنسبة لمن يلوثونهما . فلا تكلفانهم شيئا حين يلقون فيهما مخلفاتهم .. ولكن اذا كان على الصناعة . والزراعة . والجماعات . والأفراد . أن يدفعوا مالا ليتخلصوا من فضلاتهم الضارة أو المتخلفة . فعندئذ يصبح الماء والهواء والفضاء أموالا نادرة . وأخذ العوامل المسماة بالخارجية في الاعتبار . أى تقدير تكاليفها عند تحديد الأسعار . يدخلها في دائرة الاقتصاد . أى في مجال الندرة . باعتبار أن الندرة هى ما يقاس بالتكاليف النسبية . وهكذا فان التلوث يحول الى ما يعد نقصا في المصطلح الاقتصادى . ما كان معروفا فيما مضى بأنه لا ينضب لأنه بالمجان . هذا الاحصاء لخواص النفع أو الضرر . الذى لم يكن له حساب في الانتاج أو الاستهلاك يشجع رؤية متفائلة للنمو . وتعيد ظاهرة التلوث تركيز المتضاد بين الوفرة والندرة ولا يدخل هذا التضاد في نطاق الأشياء المادية ولكن في النطاق الرمزى الخاص بتقدير ثمن هذه الأشياء . فلكل شيء ثمن · وبالتالى فان الغالى والرخيص يقيسان درجة من الندرة · وتحقيق الرخاء لا يعنى سوى أن تطرح في السوق سلع تزداد أثمانها انخفاضا · ان ظهور « ضروب جديدة من النقص » باتاحة انعاش النمو يغذى مقالا واقعيا مفعما بالثقة المعقولة . يفوق كلا من المقال اليوطوبى الخاص بسيادة الرخاء . والتنبؤ المزعج بتوقف النمو · ويمهد هذا التوسع في مجال الندرة مجالا لوفرة جديدة ·

وليس من قبيل الصدفة أن هذا الجهد المبذول للتحويل نظرى لهذه الضروب من الأداء العينى المجـانى ـ كالهـواء . والمـاء . والفضاء ـ او الأداء برأس مال يحتفظ به أو يتجدد . يصاحبه اهتمام خاص بالعوامل الطبيعية . وهناك كثير من التصريحات تبرز أهميتها بالحاح . ففى عام ١٩٧٤ انعقد في بوخارست مؤتمر للأمم المتحدة بشأن السكان في العالم . ويدعو « تقرير طوكيو . الى اعداد نظرية عن المناخ . وكشفت الصحف عن وثيقة لوكالة المخابرات الأمريكية تحتوى على استنتاجات متشائمة في هذه المشكلة . هذا الاهتمام بالأحوال الطبيعية في عصر يتمتع فيه العلم والتقنية بقدرة جبارة يكشف دون شك عن محنة طبقة حاكمة تواجه مشاكل رهيبة خاصة بالتلوث وتضـوب الموارد . ان الأضرار التى تصاحب التصنيع لا تمس الطبقات المحرومة فقط . وانما تمس أيضا الطبقة البورجوازية . فهذه الطبقة لم تشعر فيها بالقلق حين طالعت في عام ١٨٤٢ تحقيقا بشأن الأحوال الصحية لدى الجماعات الكادحة في بريطانيا العظمى . وضعته لجنة قانون الفقراء

ففي مانشستر عام ١٨٣٤ كان ٧٠٠٠ من السكان يملكون ٣٣ مرحاضا فقط تنتهي مواسير تفريغ فضلاتها في عرض الشارع كتب هانز ماجنس الذى ذكر هذا التحقيق ،

« لم يخطر لأحد أن يستخلص من هذه الحقائق استنتاجات متشائمة بشأن مستقبل التصنيع . ولم تنشأ الحركة البيئية الا منذ أن أصيبت الأحياء البورجوازية بالأضرار المصاحبة للتصنيع » وفي موازاة الشعور بالمصلحة المباشرة التى تصاب بالضرر فان ما يتأكد على هذا الوجه هو استراتيجية سياسية حقيقية ، موضوعها جعل الروابط الاجتماعية مجرد علاقات مع الطبيعة .

ان الموضوعات الخاصة المعقدة لذوبان الجليد وتلوث الماء والهواء تنحى الى المرتبة الثانية كل الموضوعات الخاصة بصراعات الجماعات أو الطبقات . وفي الحالة الحاضرة ترجع كل مشاكل الحياة اليومية الى تحسين حالة الماء والهواء والغذاء ، وانشاء مساحات خضراء ، وخفض المستويات الصوتية وأزمنة الانتقال . وتشغل مفاهيم « نوعية المعيشة » « والبيئة » وظيفة ايديولوجية ، اذ تفترض أن النظام النوعى للعلاقات الاجتماعية لا يعزى الى المبادىء التى تنظم المجتمع بقدر ما يعزى الى اقامة علاقة مباشرة بين الانسان والعوامل الطبيعية المحيطة به . وتنتج فكرة الدفاع عن البيئة فرصة « لازالة » التناقضات الاجتماعية ، بأن تحول ثمرة التاريخ الى ظروف طبيعية ، ومن ثم العثور على المعنى الأولى للمذهب العلمى الذى أنشأه أرنست هيكل عام ١٨٦٨ ، فقد كان علم البيئة يعرف وقتئذ بأنه فرع من علم الحيوان يتولى دراسة علاقات النوع الحيوانى ببيئته .

ونحن الآن بعيدون عن الرؤية الدعوية ، وعن الرغبة غير المعقولة في العودة الى بساطة « بدائية » نجدها تحت رواسب التحولات التكنولوجية . هذه الطبيعة التى تتبدى في الأحلام ، أو تستيقظ ، لا يمكن أن تحل محل الانجازات التقنية كما يقصد بذلك جماعة من الشباب يستهجنون مجتمع الاستهلاك ، ويطالبون في الوقت نفسه بشدة بمزايا هذا المجتمع ومع ذلك فان التقدمية الظاهرية لعلم بيئة رسمى يعبىء كل موارد العلم والتقنيات لتحسين اطار الحياة في المستقبل ، تنضم الى علم بيئة أكثر رجعية يطالب بالعودة الى الماضى برفض التقدم وبالرجوع الغامض الى الطبيعة ، وفي خلفية كل من الاتجاهين يبرز الخوف الذى ينتاب بدرجة ما مجتمعا يدرك عجزه عن أن يضفى سمة انسانية على قوى الانتاج .
وتتضمن الروايات المتباينة للمقال البيئى ايمانا واحدا بطبيعة خارجية على الانسان ، تتهدده في رأى البعض ، وتحنو عليه وتلائمه في رأى البعض الآخر ، ولكنها على أية حالة طبيعة مطلقة ، جبرية ، موجودة بذاتها ، وتواجه الانسان . هذا التركيب الذى يواجه الانسان بالطبيعة يتجاوز التأكيد بالتباين الوجودى البسيط ،ويستخلص رؤية رجعية بنوع خاص عملت بأشكال منوعة وعلى مر العصور على تقوية الاعتقاد بعدم مساواة الأجناس والشعوب والأفراد بسبب العوامل الأحيائية أو الجغرافية التى تحدد بصورة حتمية خصائصها ومصيرها . ان فكرة البرمجة التى يدعمها استعمال العقل الالكترونى اذا طبقت على العملية الوراثية تعمم بصورة خطيرة تخاذل القوى الحرة التى يمكن أن تعمل في ظروف معينة في المجال العملى للنشاط الاجتماعى والتاريخى .

واذا كانت الطبيعة تتجلى كشىء خارجى على الانسان فانها مع ذلك ليست الا حدثا واقعيا مرتبطا ارتباطا وثيقا بعمل الانسان . فالبترول الخامد المدفون في باطن الأرض لا يصبح قوة طبيعية الا بفعل المحرك الذى يستعمله . و « التاريخ البشرى للطبيعة » ينفى وجود حالة طبيعية مجردة من أى تدخل

آدمى . الطبيعة هى على الدوام بناء شيدته المعرفة . تعبر عن حالة الارتباط بين الانسان والبيئة الطبيعية . هذه الحالة « عضوية في مفهوم الاغريق . وآلية في العصر الكلاسيكى . ويمكن اليوم تعريفها بأنها سبرناتيكية » .

ويستجيب العرض المتوالى للحالات الطبيعية التى يعطى بها المجتمع تعريفه الثقافي للمادة لمطالب العصر . ويتوقف على نوعية القدرات والمهارات والمعارف المستخدمة . هذه العملية الارادية هى التى توسع باستمرار حدود الطبيعة وتجعلها تبدو في الأذهان لانهائية . وثمة أبحاث موجهة سوف تكتشف موارد في مناطق لم يطرقها أحد من قبل . والاهتمام بالعقيدات (عقد أو درنات صغيرة المترجم) المتناثرة على قاع المحيطات يزيد بدرجة كبيرة من احتياطى المعادن . وثمة تكنولوجيات دقيقة للغاية سوف تكتشف أشكالا جديدة من الطاقة . ولعلنا نشارك دنيس جابور رأيه الذى يقول ، « اذا فشل رجل الصناعة ذات يوم فلن يكون فشله راجعا الى نقص في الطاقة الصناعية أو في المواد الأولية »

ولا يخطىء علماء البيئة في خصوص امكانيات الطبيعة الهائلة . فهناك من جهة الطاقة الذرية المخيفة . ومن جهة أخرى المفعول غير المحدود لمخلفاتها الذى يبرر معارضتهم لأية سياسة خاصة بالطاقة النووية . وليس الخوف من نفاد الموارد هو الذى يلاحق عالم البيئة . وانما الخوف من عدم القدرة على التحكم في الانتاج الثقافي للظواهر الطبيعية .

وهكذا ففيما وراء تعدد الأوضاع البيئية التى تعزى الى طبيعة تعتبر جبرية حيال الانسان ، أو انتاجا غير محدود للانسان ، يبرز السؤال الجوهرى عن كيفية التوفيق بين الحضارة وبين المعطيات الطبيعية ، وكيفية تعريف شروط تحالف جديد بين الانسان وبين بيئته الطبيعية . فقبل الثورة الصناعية كان رجل العلم يتودد الى الطبيعة بنوع من الصلة الغرامية . محاولا أن يميط اللثام عن أسرارها ، ويهتم بتصويرها وفي القرن السابع عشر حذر فاسارى من نظرة علمية متطرفة « تغتصب الطبيعة بدراسات زائدة عن الحد » وعلى العكس من ذلك تنجح الحضارة التقنية باستغلال ثروات البيئة استغلالا كثيفا . وتستخدم الوضعية والتقنية عقلانية تغير العالم في نطاق النفعية ، فيعتبر كل شىء مجرد آلة . وتغدو الأفكار. والكلمات ، والأساليب ، والنظم ، وسائل عملية لا تبالى ما تتضمنه من معان ، وتتغيا الفاعلية وحدها ، وفي نطاق مفهوم خاص بالتحكم المتزايد في الطبيعة لدى « بيكون . » تتحول العلوم والتقنيات الى عمليات ارهابية تتغيا السيطرة التامة على الطبيعة ، بما فيها الطبيعة البشرية .

ويكمن المعنى الثورى لعلم البيئة في الرغبة في أن لا يكون العالم مجرد حقل للنشاط الآلى . وجدير بنا أن لا نخطىء الظن في ذلك ، فمثل هذا الرفض يناقض كلا من المنطق الرأسمالى الذى غشاه صنع المنتجات القابلة للتسويق ، والتفسير الضيق للنظرية الماركسية التى تجعل من العمل العنصر الأساسى الذى يكون العالم وفيما وراء الأهداف المختلفة يعالج النظامان الاجتماعيان الغامضان الطبمية باعتبارها مجرد شىء .

هل من الضرورى اذن تحويل الطبيعة الى موضوع بحث ؟ حلل ماركيوز المجتمع الأوربى المتقدم ، وأستنتج أن « التكنولوجيا أصبحت اكبر وسيلة لتحويل الأشياء المجردة الى أشياء مادية تحويلا أكثر كمالا وأقوى فاعلية . وتدين هذه التكنولوجيا بجبروتها الى المنطق العلمى الذى يضمن النجاح العملى

بقدرته على تحويل الأشياء كلها الى معطيات يمكن قياسها مثل هذا التحليل يؤدى الى جعل العلم نموذجا لكل أنواع السيادة . وتحدد أساليبه ومفاهيمه عالما يتميز بالسيطرة . ويجد مشروع اخضاع الطبيعة نظيرا له على مستوى العلاقات الاجتماعية . فالسيطرة على الطبيعة والسيطرة على الانسان مرتبطان أحدهما بالآخر . ويكفى تحطيم هذا الترابط لتخليص العقلانية العلمية والتقنية من هدفها التعسفى . وعندئذ « تتطور الافتراضات العلمية دون أن تفقد طبيعتها العقلانية في نطاق تجريبى بنوع أساسى (نطاق عالم سلمى) ومن ثم ينتهى العلم الى مفاهيم مختلفة بشأن الطبيعة » (انظر هو ماركيوز) . وبظهور هذا العلم الجديد هل تكف الطبيعة عن أن تكون خاضعة للسيطرة . فتصبح شريكا كاملا للانسان ؟ يعترف ماركيوز بأن مثل هذا التحليل للعلم الحديث قد يوحى بأنه « من المرغوب فيه أن تصبح الفيزياء بنوع ما فيزياء نوعية » . وأن تعود الفلسفات الغائية الى الوجود » . وينكر ماركيوز أنه يبغى انماء « أفكار غامضة من هذا القبيل » ولم يفت يورجن ها برماس أن يضم ماركيوز الى صفوف رفاقه من مدرسة فرانكفورت : بنيامين . وبلوخ . وهوركها يمر . وادورنو . الذين يرون أنه « بدون بعث الطبيعة المتخاذلة . وبدون عودة هذه الطبيعة المستبعدة . لا يأمل الناس في تحرير نفوسهم »

وفي هذا السبيل الذى استغلته الرومانسية زمنا طويلا لا يتردد الفيلسوف الماركسى ارنست بلوك أن يواجه اتهامه بالتصوف . والواقع أنه يرد الى مفهوم الطبيعة ديناميكية نوعية . استنادا الى تفسير أحادى (نسبة الى مذهب وحدة الوجود : المترجم) للفكرة الأرسططالية عن المادة . والمعروف أن ارسطو يرى أن المادة تبدو من خلال صلتها بالشكل (أو الصورة) بمثابة امكانية سلبية . فهى دعاء لارادة الشكل الايجابية . غير أن الصلة بين القدرة والفعل تقيم في صميم المادة قوة فعالة للارادة التى كانت تبدو آن ذاك مزية لا تتجزأ للشكل الخارجى . أما أولئك الذين يسميهم بلوك « الأرسططاليين اليساريين » (أفيسن . أنيرويس) فانهم انتهوا الى تزويد المادة بشكل فعال . وتزويد الشكل الفعال بمادة . والأشكال موجودة على أنها قدرة وأهداف كامنة في داخل المادة نفسها . فالمادة اذن تحتوى في ذاتها على ديناميتها وأبنيتها الخاصة . فهى اذن طبيعة فطرية توجه امكانياتها الفعالة الواقعية نحو اشكال كامنه فيها . وهى بذلك في وقت واحد شرط وجود وهدف مستقبلى . وهو ما يسميه أرنست بلوك . « المحتمل الواقعى موضوعاً . وهو ما يجوز أن نفهم منه أنه شكل تمهيدى لكائن متوقع وجوده على وجه اليقين . ولا أنه اللاتناهى النظرى لكل أنواع الامكانيات . ولكى نفهم منه أنه « العزم الذى يحمل المستقبل » . « الامكانية الواقعية ليست سوى المادة الجدلية »

هذه الخاصية الغائية للمادة تضفى على الطبيعة سمة قصدية بالمعنى الفينومنولوجى (المتعلق بالظواهر) للعبارة أو قدرة حقيقية على التعبير تتجلى بصورة « رموز (في الطبيعة . فهناك العديد من المجازات . (أسوأ الماء ماهو راكد ـ بمعنى أن لا يطمئن الانسان الى المظهر الهادىء ـ المترجم) . وثمة العديد من الصور . كصورة الشمس أو العاصفة أو قوس قزح . لا تتكون أصلا من مادة بشرية . « تشهد بالأحرى بوجود نوع من الكتابة تختص بها الطبيعة . نوع من الأرقام أو الرموز الحقيقية » .

وهكذا فإن الفيلسوف الألمانى بلوخ اذ وجد المكان الأساسى والخاصية الحقيقية للمادة فانه أقام جدلية للطبيعة تثبت أنها مترابطة مع جدلية الشعور . ففئة « المحتمل الواقعى موضوعيا » التى تعرف بها المادة يقابلها من ناحية الموضوع فئة « السابق الظهور » . ويعين بلوخ نموذجا لكائن يثير الشعور . ويبين له

مالم يحدث بعد في دائرة احتمالاته · وينضم النشاط السابق للشعور، الى التوتر المستقبلى للواقع، ويفوق الإثنين « الوظيفة الطوباوية » التى هى مادة العالم، والعمل الخيالى للموضوع في آن واحد ·

وفي ختام هذا التحليل يذكر بلوخ بعبارة ماركس، « المجتمع هو اذن الذى يحقق جوهر الانسان والطبيعة، والبعث الحقيقى للطبيعة، والنزعة الطبيعية الراسخة لدى الإنسان، والنزعة الإنسانية الراسخة لدى الطبيعة » ·

هذه الوحدة، وحدة جوهر الإنسان والطبيعة، تفرض فهما جديدا للعالم، وبالتالى علما آخر وتقنية أخرى · أما العلوم والتقنيات التى تطورت فإنها مازالت بعيدة كل البعد عن صفات الطبيعة ومعناها · أما التفكير الحسابى الذى ينصرف الى ما يمكن قياسه فإنه يجمد كل ما يمسه ويحوله الى مادة، ولا تخلو الماركسية من هذه الممارسات · ويميز بلوخ في هذا المجال تيارا ساخنا مكونا من روح تحررية، وبوطوبيا واقعية، وتيارا باردا يسوده التحليل والرغبة في تحويل الأشياء كلها الى أنماط تجريبية تحليلية وذرائعية ·

وينبغى أن لا نرفض مثل هذا الأسلوب في العلاج والعمل الذى يناظر مظهرا كميا ليكون لاشك فيه · غير أن التكوينات الرياضية والاستخدامات التكنولوجية لا تتناول ولا تستخدم سوى لحظة من الواقع · وكما كتب جيرار روليه، « إن تقنية ترفض أن تنقل على الطبيعة حال مروض الحيوانات له « تقنية ذات صلة واقعية » تهتدى الى « نقطة التماس » التى إن فقدتها أصبح موضوع ظواهر الطبيعة موضوعا أجنبيا » · كذلك لا ينكر أرنست بلوخ المغامرة التقنية، ولكنه بأسلوب يذكرنا بأسلوب روسو إذا نقل على مستوى النقد العلمى والتقنى، يكشف عن الظواهر الاجتماعية والأيديولوجية التى شوهت المعرفة العلمية واستخداماتها · وينبغى للتقنية أن تستثير المعانى الكامنة في الطبيعة · فالإنسان والطبيعة شريكان في الإنتاج، يضطلعان معا بصياغة التوقعات النوعية والغائبة التى تتناول كلا منهما تحت سيطرة « الوظيفة الطوباوية » ·

هذا الوضع الخاص « لطبيعة وموضوع » يمكن أن يدعم رؤية عالمية فلنانشنج (نظرية ميتافيزيقية للعالم مرتبطة بمفهوم الحياة، اشتهر بها الفلاسفة الألمان الرومنسيون، المترجم) ·

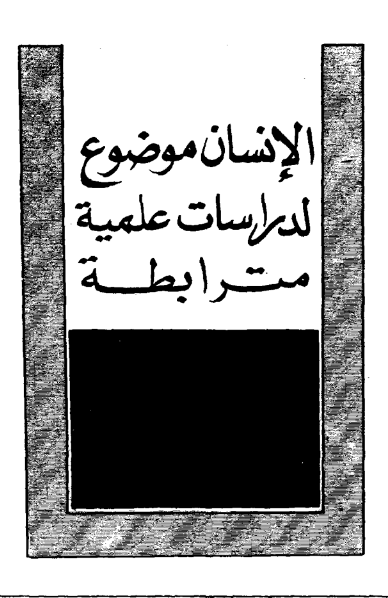
فمن خلال تراث رومانسى، بل صوفي، يمكن لهذا الوضع أن يغذى الرغبة في « فتنة العالم من جديد » حسب تعبير سيرج موسكوفيتشى · وليس المقصود نبذ المظهر الكمى للطبيعة، وانما أن نعتبر أنه ليس الا الأسلوب الذى نريد أن نعاملها به · كتب هيدجر وهو يشرح اللحن الجماعى الأول للجوقة في مسرحية انتيجونا لسوفركليس، « التقنية هى النشاط العنيف للمعرفة » · ويبدو في عصر ينتشر فيه المجتمع الصناعى ويغدو نموذجا لكل الجماعات البشرية، في الشرق والغرب، في البلاد الرأسمالية والبلاد الاشتراكية، أن التقنية تؤول الى نصر عنيف للواقع ·

هذا التوسع الكوكبى لتقنيات العنف يفسر طرافة خطة بيئوية (متعلقة بعلم البيئة) ترفض الادعاء بأنها تعالج أيا من النظامين الاقتصاديين · ويوضح استقلال علماء البيئة الذى أعلنوا عنه نظريا إبان الانتخابات التشريعية الفرنسية التى جرت عام ١٩٧٨ هذه الرغبة في السمو على الشكلين الحاليين، الرأسمالية والاشتراكية · وانه لهدف رهيب، إذ يتطلب تحولا جذريا في الأوضاع · ويدين موضوع المجتمع الصناعى بنجاحاته الهائلة التى لا مراء فيها لتصميمه المسبق على تأكيد ذاته بالقوة · ويشكل هذا التأكيد جوهر « التقنية » كشىء سابق على كل تجربة تمر بالكائنات والأشياء · وعلى ذلك تبدأ التكنولوجيا في خبرة الانسان بمثابة كيفية لرؤية الطبيعة والاحساس بها · أما عالم البيئة فانه يلقى على الطبيعة نظرة

أخرى . ومن ثم يجعل منها شريكا مساويا للانسان . ويقيم معها صلة مستمرة من التعاطف · ان استبعاد النزعة الى الضخامة في أعمال الانسان وظهور التكنولوجيات الرفيعة أو المتوسطة . وترك التصرفات الرادعة حيال الجسم . كل هذه الأشياء تعلن عن تعديل في المعالجة التقنية للعالم · وتنزع كل المجتمعات البشرية الحاضرة الى حقن هذه الآفاق الجديدة في التنمية بجرعات طفيفة . يشهد بذلك اللون الجديد اذى تتزين به كل الأحزاب السياسية ·

غير أن المقال البيئى الحقيقى يجرى على النقيض تماما من الأيديولوجيات الشائعة . من قبيل الفاعلية . والقدرة على الربح والإثمار . فلا يتوافق مع اتجاه اصلاحى ظاهرى . وبهذا المعنى يمكن أن يدعى أنه ثورى . ينقطع انقطاعا باتا عن الماضى . ويمثل مستقبلا في صورة مستحدثة تتبدى فيها خطوط مشروع جديد للمجتمع . مع صلات اجتماعية واقتصادية وسياسية لا وجه للمقابلة بينها وبين الصلات التى نعيش فيها في الوقت الحاضر · وسوف يمتنع العلم بخاصة عن أن يكون عبدا ومرشدا للتقنية . ولن يجعل نفسه بعد الآن في خدمة الإنتاج المكثف للسلع المادية التى كثيرا ما تكون عديمة الفائدة . ولكنها مجرد مصدر للربح . وسوف يستعيد مكانته ويعكف على معرفة العالم معرفة محايدة · ويقابل هذه النزعة الى تحويل المادة في الطبيعة الى طاقة إخفاء روحانية على مجتمع الاستهلاك تستحث إنتاج الثروات الثقافية ·

أهذه طوباوية أم مشروع جدى ؟ قد يكون المقال البيئى مجرد عرض لرغبات لا تتحقق . وتحول التصورات الخادعة في المجال الشفاهى بالرجوع الى الأساليب المعتادة التى تعوض في حلم ناطق متيقظ عن المشروعات الخطيرة الطائشة التى ينسجها الخيال · غير أنه قد يكون أيضا برنامجا لارادة واعية تتغيا ارتياد هذا المجال المكشوف لطبيعة جديدة يضفى عليها روحا وقدرة على التعبير · انها مغامرة رهيبة ينبغى لها لكى تحيد عن سيطرة قوى الطبيعة . أو التعرض لترويضها العنيف . أن تتجنب صخرة التصوف الحماسى الفارغ ·



● المقال في كلمات

الانسان في كل العصور والأزمان يسعى لمعرفة نفسه : جوهره وأهدافه ومصيره ومستقبله . ومشكلة الانسان أصبحت في العصر الحاضر مشكلة واقعية على جانب كبير من الأهمية . فهذا عصر التجديد الثورى الشامل للمعالم ، للانسان فيه دور أساسى في كل مجالات الحياة . ويترتب على التكثيف غير المألوف لكل مظاهر الحياة الاجتماعية مضاعفة التوترات وزيادة المتاعب والعلل مما يستلزم دراسة جديدة لموارد جسم الانسان . وخصائص التفاعل بين الانسان وبيئته .

وتتحول مشكلة الانسان الى مشكلة عامة للمعرفة العلمية ، تستلزم ضم الكثير من العلوم بعضها الى بعض لتعميق دراسة الانسان ، وتعميق دراسة نظم الترابط المعقدة بين الانسان والعلم والتقنية والمجتمع والحكومة ووسائل الاعلام والسياسة الخ

الكاتب : افجويني ميخايلوفتش بابوسوف

فيلسوف سوفيتى من بيلوروسيا (روسيا البيضاء) . دكتور في العلوم الفلسفية . ١٩٧١ . وأستاذ . ١٩٧٣ . وعضو مراسل بأكاديمية بأكاديمية العلوم بجمهورية روسيا البيضاء السوفيتية . نشر له ، « ديالكتيك التحليل والتركيب في المعرفة » (١٩٦٣) . « الكاثوليكية المعاصرة والعلم » (١٩٦٤) . « محاولة للجمع بين العلم والمسيحية » . (١٩٧٠) . « الثورة العلمية والتكنولوجيا » (١٩٧٣) . الخ

المترجم : أحمد رضا

ليسانس الحقوق من جامعة باريس . دبلوم القانون العام من جامعة القاهرة . مدير بالادارة العامة للشؤون القانونية بوزارة التربية والتعليم (سابقا) .

وقد ولدت السبرناتيكا معالجة اساسية جديدة لمشكلة الانسان . وتتلاقى العلوم التقنية والانثروبولوجية في مجالين رئيسيين من نشاط الانسان : العمل ، والاتصال .

ويواجه الاقتصاد السياسى نشاط الانسان وترابطه مع قوى الانتاج . أما علم النفس الصناعى فانه علم تقنى يدرس الآلات وعلم سيكولوجى يدرس الانسان . وعلم الشغل البشرى يدرس امكانيات الانسان للعمل . والاسطاطيقا الصناعية تدرس التصميم الفنى الصناعى وتضع قواعد تكنولوجية جمالية في مجال النشاط الانسانى . وعلم الاجتماع يدرس الانسان في صلاته بأحواله الاجتماعية من النواحى الديناميكية لهذه الصلات ، ويتصل في هذه الدراسة بالاقتصاد السياسى والتاريخ . أما التاريخ فينظر الى الانسان من ناحية نشوئه وتطوره ، وأنماط

نشاطه المادى . والقانون يعتبر الانسان من أشخاصه ، والانسان موضوع لقواعد قانونية تعكس الطبيعة الاجتماعية الاقتصادية للمجتمع . وعلم الاخلاق يدرس الانسان وأخلاقه باعتباره ظاهرة اجتماعية كما يدرس منشأه وطبيعته . ويدرس علم النفس الاجتماعى الانسان باعتباره كائنا اجتماعيا وكائنا بيولوجيا في آن واحد . والطب يعالج الوضع الأحيائى والاجتماعى للانسان في حالتى الصحة والمرض . والبيداجوجيا علم أصول التربية والتعليم ، تمس الفلسفة والقانون والأخلاق والجمال .

وهكذا يبدو الانسان ظاهرة فريدة في تنوع جوانبها ، موضوعا لعلوم مختلفة لا يدرس كل منها الا بصفة جوانب من شخصيته : العلوم الطبيعية تهتم ببنيانه ، والعلوم الانسانية تهتم بالموكنات الاجتماعية لشخصيته ، والفلسفة تواجهه بكيفية شاملة متكاملة .

تنتمى مشكلة الانسان الى تلك الطائفة من مشاكل المعرفة الانسانية التى هى في آن واحد أبدية وحالية متجددة على الدوام . وقد نشأ العديد من الأساطير ، والخرافات ، والنظم الفلسفية ، والعقائد الدينية ، والمفاهيم العلمية ، والرؤى الخيالية ، من طموح الانسان الشديد لمعرفة نفسه ، وجوهره ، وغايته ، ومصيره ، ومستقبله . وكم من افتراضات مبتكرة ، وتصورات مثالية (طوباوية) ، وحقائق علمية ، وأخطار مريرة ، ومشروعات جريئة ، ومعتقدات خرافية وجلة ، تضمنتها المدينة في بحثها الدائب عن « البلورة السحرية » التى تكشف عن طبيعة الانسان الحقيقية . وقد أسهمت كل العصور في هذا البحث الأبدى واعتمدت كلها على الحقائق القليلة التى ظفر بها الجنس البشرى في المراحل السابقة من نموه ، أما عصرنا أكثر العصور اثارة وثورة ، فانه لا يشذ عن سائر العصور في هذا المجال ، ولكنه يتميز عنها بواقعية المشكلة وحدتها بدرجة غير عادية .

الأم تعزى هذه الواقعية الخاصة لمشكلة الانسان في الوقت الراهن ؟

تعزى أولا الى أن عصرنا أصبح عصر التجديد الثورى الشامل للعالم ، والتحولات الاجتماعية الاقتصادية السياسية الجذرية التى ضخمت دور العنصر البشرى في كل مجالات الحياة الاجتماعية ردعمت بالتالى وبدرجة كبيرة أهمية الانسان باعتباره الفاعل الاساسى للعملية التاريخية في كل المجالات الرئيسية من انتاج وحياة اجتماعية وتطور فكرى .

وتعزى ثانيا الى أن الثورة العلمية التقنية ـ التى ربما كانت أكثر الظواهر نشاطا وفاعلية في عصرنا ـ تستتبع تحولات عميقة للغاية في معطيات الانتاج الفنية التكنولوجية حتى لقد أصبح الانسان في الوقت الحاضر خاضعا في نشاطه الجاد لمتطلبات نفسية وعضوية وخلقية ومهنية وثقافية على مستوى لم يسبق له مثيل . غير أن هذه المتطلبات لا يمكن الوفاء بها بصورة ملائمة الا باجراء دراسات كاملة ومتعددة لدور الانسان المتغير ومكانته في تطور الانتاج المعاصر .

وتعزى هذه الواقعية ثالثا الى التكثيف غير المألوف لكل مظاهر الحياة الاجتماعية . والتعجيل الذى لم يسبق له مثيل في معدلات نموها . وهما ظاهرتان أخلتا بالتوازن القديم في الظروف الاجتماعية الاقتصادية . والتقنية . والثقافية . والبيئية لحياة الانسان · ومن نتائج هذا الواقع التاريخى الجديد المحتوم مضاعفته التوترات . وما يتبع ذلك من ازدياد المتاعب . من قبيل انحطاط القوى . والأمراض القلبية العرقية . والعصبية النفسية . والاونطولوجية (المتعلقة بالوجود) على ما يحتمل . الأمر الذى يضع على مستوى جديد للغاية دراسة موارد جسم الانسان وأفضل الظروف الملائمة لنمو هذه الموارد . وكذا دراسة الوسائل الكفيلة بتوفير حماية علمية ومعقولة لصحة الانسان باعتباره أسمى قيمة في المجتمع ·

وتعزى رابعا الى أن تأثير الانسان على بيئته الطبيعية لم يكن قط من قبل مشابها لتأثيره الحالى على العوامل الجيولوجية والمحيط الحيوى الذى أصبح اليوم ملوثا بمخلفات الصناعة . ومشبعا بالمواد الكيمائية والاشعاعات المؤينة التى ليست ضارة بصحة الانسان فحسب . وانما هى أيضا خطرة على مستقبله الأمر الذى يستوجب أكثر من أى وقت مضى . اجراء دراسات عميقة للعديد من خصائص التفاعل بين الانسان وبيئته واتجاهاته . ودور الانسان باعتباره عاملا بيئيا ·

وأخيرا تفسر هذه الأهمية الحاضرة لمشكلة الانسان في العصر الحاضر بأن مختلف الاكتشافات الرياضية . والسبرنانيكية . والفيزيائية . والكيمائية . والبيولوجية . وغيرها قد أدت الى صنع الصواريخ النووية . والأسلحة الكيمائية والبيولوجية التى تتفيا الدمار الشامل . وتتهدد لا حياة الأفراد فقط . وانما أيضا حياة شعوب بأسرها ومدنية الانسان نفسها مما يجعل من الضرورى بنوع خاص ابضاح دو, المعايير الاجتماعية الأخلاقية في تقدير سلوك الانسان ونشاطه اليومى وحياته الروحية والمعنوية ومسئوليته حيال معاصريه وحيال الأجيال القادمة ·

هذه الآراء الخمسة (وفي مقدورنا أن نذكر غيرها) تدل على مدى الأهمية الحالية لتفهم علمى متعدد الجوانب وانسانى حقيقى لمشكلة الانسان وتوضح أيضا الحاجة الى معالجات جديدة للظاهرة البشرية . وخصائص الحياة الانسانية في عالمنا الحاضر · هذه المعالجات الجديدة التى تمليها وجوبا طبيعة العصر تميز أساسا بالتعقد لأن الانسان يسعى اليوم جاهدا لكى يجد عونا له خارج نفسه ـ في المجتمع وفي الطبيعة ـ وفى داخل نفسه ليعمل بمزيد من الثقة بالوسائل التى تحقق أهدافه ومثله العليا ·

وهناك بخلاف هذه المظاهر الخمسة للتطور العصرى التى تشكل بالاجمال السبب الموضوعى للأهمية المتزايدة ـ نظريا وعلميا ـ لمعرفة الانسان عوامل أخرى تدفع الى دراسة أكثر كمالا وتعددا وتعقدا تجرى على الانسان وبخاصة العلم الحديث الذى يتقدم بخطوات جبارة . ويزداد اتجاه محاوره الكبرى صوب الانسان ويبدو أن فكرة تحول مشكلة الانسان حتما الى مشكلة عامة للمعرفة العلمية وللعلم في مجموعه لا للعلوم الانسانية فقط . وانما أيضا للعلوم الطبيعية والتقنية . لم تعد موضوع جدال كذلك فانه من العسير أن ننكر أن التميز العام للمعرفة العلمية خلال العقود الأخيرة قد دعم بقدر كبير التخصص الدقيق لمختلف العلوم وبخاصة فيما يتعلق بدراسة مختلف المظاهر ـ الجديدة تماما في بعض الأحيان ـ للمشكلة العامة للانسان · وأخيرا قد يكون من العسير أن ننكر أن ضروب التقدم المستمر في المعرفة العلمية . والأهداف التى تخصصها المطالب البشرية للتطور العلمى المتزايد السرعة قد أكدت بقدر كبير الاتجاه الى ضم الكثير من العلوم بأساليبها ومعطياتها النوعية بعضها الى بعض من أجل تعميق دراسة الانسان · ويترتب على هذه الظاهرة انشاء وتطوير نظم علمية متغايرة . عرفت نتائجها العلمية فى دراسة حياة الانسان ونشاطه

ومعالجات علمية لمشكلة الانسان باعتباره القوة الرئيسية للانتاج في المجتمع وموضوعا للتربية وظاهرة نفسية فسيولوجية فريدة والمحرك الأساسى للعملية التاريخية الخ ·

ومن مقتضيات العملية الموضوعية للتطور الاجتماعى السياسى والاقتصادى والعلمى، التقنى والروحى في الحضارة الانسانية في زمننا العصيب ونمو دور العامل الانسانى الملازم لهذا التطور وضروب التقدم التى حققها الانسان في معرفته ذاته والتى تنعكس على المفاهيم العملية . والأعمال الفنية والنظم الاخلاقية أن تكتمل المظاهر التقليدية للمعرفة الانسانية بمظاهر جديدة مرتبطة بالسمة الخاصة للحياة الانسانية في الوقت الحاضر ·

واذا كان في الميسور فيما مضى التمسك بدراسة الروابط في ديناميات الانسان بينه وبين الطبيعة والمجتمع . والثقافة . الخ فانه من الواضح ان هذا لم يعد كافيا اليوم . وانه أصبح من الضرورى تعميق دراسة بعض نظم الترابط المعقدة بصورة متزايدة . لنظم الانسان والعلم . والانسان والتقنية . والانسان والمجتمع على الأرض وفي الكون والانسان والحكومة . والانسان والاتصالات الجماهيرية . والانسان والسياسة . الخ · غير أن مركز الاهتمام في كل هذه النظم . سواء كانت نظما « قديمة » يدرسها العلم بالأسلوب التقليدى أو « جديدة » لم يهتم بها العلم الا منذ زمن حديث نسبيا هو دائما الانسان الفاعل الرئيسى لكل المآسى المعاصرة اجتماعية . وعلمية تقنية . وبيئية . وتتجه صوب الانسان بدرجة متزايدة . وقد تتقاطع في كثير من الأحيان سبل البحث الكبرى في العلوم الاجتماعية والطبيعية والتقنية وفي كل المعرفة العلمية المعاصرة ·

هذه الظروف تفرض بنوع خاص في وقتنا الحاضر علاجا علميا مترابطا لمشكلة الانسان تتصل فيه وتتشابك أساليب مختلف العلوم وأفكارها حيث تؤدى أحيانا الانتصارات الأساسية للبعض الى تغيير تطبيقات البعض الآخر · مثال ذلك أن تداخل الأساليب النوعية لعلمى النفس والاجتماع على الحدود بينهما أدى الى مولد علم النفس الاجتماعى · كذلك أدى التفاعل التكاملى بين الأفكار العلمية الأساسية في الاقتصاد السياسى . وعلم الاجتماع وعلم النفس (بما في ذلك علم النفس الاجتماعى) الى مولد علم اجتماعى يبحث في مضمون العامل الانسانى وأهميته في الصناعة . ذلك هو علم الاجتماع الصناعى ·

وليس من النادر أن يتضمن التسلسل الذى يؤدى ببعض الأفكار العلمية الأساسية الى تطبيقاتها العلمية عدة درجات . وأن ينتقل الإنسان . مثلا . من العلوم الطبيعية الى العلوم التقنية . ثم الى العلوم الاجتماعية · من ذلك أنه بالاعتماد على الأفكار الرئيسية في نظرية الاحتمالات . ونظرية الاعلام . والمنطق الرياضى . ونظرية الحساب العربى (للخوارزمى) . ونظرية الانسان الآلى . ولدت السبرناتيكا معالجة أساسية جديدة لمشكلة الانسان . والمعالجة السبرناتيكية ـ وفيها يعتبر الانسان أشد النظم التى تكفل ضبط وتصحيح ذواتها تعقدا ـ معالجة لا يمكن تصورها دون استخدام الرياضيات والتقنيات في دراسة الأنثروبولوجيا · وفي وقتنا الراهن لم يعد في الامكان تصور ابحاث انثروبولوجية مجدية دون الاستعانة بصورة فعالة واسعة بالطرق والأساليب الرياضية والفيزيائيةوالكيميائية ومجموعة من العلوم التقنية · ثم وان استخدام السبرناتيكا في الابحاث الأنثروبولوجية يتمشى مع استخدام الأنثروبولوجيا في معالجة مضمونها السبرناتيكا نفسها · واليوم تطبق الطرق والوسائل الخاصة بالسبرناتيكا على الإنسان الذى يدرس بأكبر قدر من الاهتمام وبكل التفاصيل باعتباره نظاما مستقلا من نمط راق يحاول العلماء والمهندسون أن يستنسخوا بعض وظائفه في الانسان الآلى ·

ونتيجة لتداخل العلوم هذا الذى يميز المعرفة العلمية في القرن العشرين حيث تنساب طرق بعض العلوم ومبادئها في نسيج علوم أخرى ، في حين كانت هذه العلوم متباعده في المراحل السابقة من تطورها ، نشهد اليوم تلاقى العلوم التقنية والأنتروبولوجية وثراءها في مجالين رئيسيين من نشاط الانسان : مجال العمل ، ومجال الاتصال ، وبالتحديد مجال التنظيم الذاتى لعمليات الانتاج ، ومجال تقنية الاتصال ·

ويتيح هذا التطور اكتشافات جديدة في الوسائل المطبقة في دراسة الانسان باعتباره قوة منتجة أساسية من قوى المجتمع · ومنذ زمن بعيد جرت دراسة هذا المظهر الأساسى لنشاط الانسان بوساطة الاقتصاد السياسى الذى يواجه المظاهر الأساسية للقوى البشرية في ترابطها مع قوى الانتاج في نطاق معين من علاقات الانتاج وتتيح المعالجة الاقتصادية أن تفهم أن الانسان يحقق في نظام الانتاج المادى ..لا محصولا معينا فقط ، وانما يحقق أيضا نشاطه الشخصى ، وفي النهاية ذاته ، وأنه كلما اتخذ الانتاج طابعا اجتماعيا (انسانيا) تكشفت طبيعة الانسان الاجتماعية ونمت · والسؤال الكبير الذى يطرح في هذا النطاق هو : كيف ، وبأى طرق ووسائل يستطيع الانسان الذى يتجلى في نظام العلاقات الاقتصادية كشخصية متميزة من الوجهتين الاجتماعية والاقتصادية أن يفلت في الوقت نفسه من تحديد متواطىء وصارم ·

وتبين بوضوح أن مشكلة معقدة بهذه الصورة ، ومتعددة الجوانب ، لا تتسنى دراستها دراسة فعالة دون الاستعانة بالسبرناتيكا ، والسيكولوجيا الصناعية ، وعلم الشغالة (علم الشغل البشرى) ، وهى علوم ثلاثة ظهرت في أواسط القرن العشرين ، ،وحظيت بتقدم باهر · ولقد تحدثنا من قبل عن السبرناتيكا ومعالجتها النوعية لمشكلة الانسان ، ونستخلص الآن السمات الرئيسية لعلم النفس (السيكولوجيا) الصناعى · فهو باعتباره علما تقنيا ، يدرس الآلات ، والأجهزة ، والآليات ، من وجهة النظر الخاصة بالمقتضيات التى يفرضها على الانسان تقنية الانتاج والتكنولوجيا ، وهو باعتباره علما سيكولوجيا يدرس خصائص فكر الانسان وحساسيته وارادته ، ويحاول أيضا من ناحية خاصة أن يعرف في أى نطاق تتوافق الخصائص الفردية الظاهرة في الطبيعة الشخصية للعملية النفسية ، كالادراك ، والتأمل ، والذاكرة ، والانتباه مع المهنة التى اختارها الشخص ، وما هى الوسائل التى يتعين استخدامها لتحديد وتطوير القدرات المهنية لدى الانسان ، « ورفعها » الى مستوى المطالب المتزايدة لتقنية في أوج تطورها ·

ودراسة الانسان باعتباره قوة منتجة ، من وجهة صلاته بالمعطيات المادية لسائر قوى الانتاج (التقنية والتكنولوجية) في سياق العمل نفسه ، تميل باطراد الى ادخال فرع جديد تماما من المعرفة العلمية ، ذلك هو الشغالة (ارجونوميا) ، ويمكن تعريفها بأنها علم الشغل البشرى ، وتدرس امكانيات الانسان للعمل من وجهة المعايير السيكولوجية ، والفسيولوجية ، والاجتماعية الاقتصادية ، لفاعلية الشغل البشرى في مختلف الظروف التقنية ، وتدرس فضلا عن ذلك التقنية والتكنولوجيا باعتبارها جهازا ماديا ، واجتماعيا اقتصاديا ، للنشاط الجاد ، جهازا يتجلى كمجموعة من المكبرات والمحولات للوظائف السيكوفسيولوجية التى يؤديها الانسان ·

وعلى حدود « الشغالة » نجد «التصميم الفنى » ، أى « الأسطاطيقا ـ علم الجمال ـ الصناعية » ، وهو تركيب من النشاط الفنى والهندسة · والتصميم الفنى هو نظريا وقبل كل شىء علم تطبيقى ، ينظر الى الانسان فيما يتعلق « بالطبيعة الثانية » أى عالم الأشياء التى يصنعها الانسان · والمسألة الهامة هنا هى ظهور بعض القواعد التكنولوجية والجمالية في مجال النشاط الانسانى ، وتطورها ، وتطبيقها في العالم الغيرى الذى خلقه الانسان ، وتأثيرها المتبادل ، وبخاصة تفسيرها في سياق النشاط المادى الذى يمارسه

الانسان في ظروف انتاج يزداد استخدامه الأساليب التقنية . وأخيرا التأثير الذى تمارسة الأسطاطيقا الصفاعية على العالم الشخصى للانسان . على فكرة ومشاعره . وعلاقاته بالعالم الموضوعى المحيط به ·

ومع ذلك فاذا كان الانسان هو القوة الانتاجية الاساسية . ويخلق بعمله قيما مادية . فانه يخلق أيضا قيما فكرية · ويبدو الانسان أكثر من ذلك بمثابة القيمة العليا . الأكثر أهمية . في مجتمع ينزع الى تحقيق المثل والمبادىء الانسانية في كل مجالات الحياة الاجتماعية · معنى ذلك أنه لا يتسنى فهم دور الانسان باعتباره قوة انتاجية أساسية . وخالقا لقيم مادية وفكرية . وباعتباره أسمى قيمة اجتماعية دون اجراء دراسة علمية متعمقة لعملية البناء الاجتماعى . وبعبارة أخرى تلك العملية المعقدة ذات المظاهر المتعددة التى يصبح الانسان بوساطتها . تحت تأثير ظروف اجتماعية معينة وعمل تربوى موجه توجيها واعيا . عضوا مفيدا وفعالا على أكمل الوجوه في المجتمع · هذه العملية تدرس بكل تنوعات مكوناتها ومظاهرها في علم الاجتماع الذى يواجه الانسان باعتباره مادة وموضوعا في آن واحد للعمل الاجتماعى . أى في التفاعل النشيط بين الفرد وبيئته · والانسان باعتباره موضوعا للدراسة الاجتماعية يندمج في نظام محدد من الروابط الاجتماعية (المجتمع . والجماعة . والفرد . الخ) . ومن ثم يبدو في واقعة الفردى بمثابة مجموعة متراكمة من الروابط الاجتماعية ·

وللحكم على درجة التكيف الاجتماعى للفرد . وفائدة هذا التكيف في تطور الانسان . يراعى علم الاجتماع المعايير الآتية . (أ) انعكاس المؤثرات الاجتماعية في البيئة (وبخاصة البيئة الاجتماعية) على حوافز الفرد . (ب) مدى اندماج الفرد بأفعاله وسلوكه في نظام العلاقات البيئية المحيطة به . (جـ) درجة النشاط الاجتماعى للفرد . ويتمثل هذا النمط الخاص من التفاعل غير المتناسق بين الشخص والمجتمع (أى الجماعة) ومضمونه في تبادل القيم المادية والفكرية . والإعلام الاجتماعى . الخ ·

ويتميز هذا النشاط الاجتماعى للفرد الذى يمكن لمجتمع يعتبر الإنسان بمثابة قيمة سامية أن يتيح له إمكانيات حقيقية للنمو والإثراء . بالسمات الآتية . (١) استعداد واع للوفاء بالحاجات الاجتماعية والفردية . (٢) حافز للعمل ينبع بخاصة من الداخل . أى توجيه للعمل تبعا لسلم داخلى من القيم . (٣) « حالة فوق عادية » لنشاط الفرد . أى توتر أعلى تماماً من « المتوسط » وشدة . وثبات . ودقة في توجيه العمل تسمح له بأن يتجاوز المستويات القائمة على أساس القواعد أو العرف . (٤) الطبيعة التى تخلق النشاط وتوجهه صوب نتائج وأساليب وطرق جديدة في السلوك الاجتماعى .

ويدرس علم الاجتماع الإنسان في شتى صلاته بأحواله الاجتماعية الموجودة . من النواحى الديناميكية لا الاستاتيكية لهذه الصلات . أى في سياق تطور مختلف مظاهر نشاطه المتعددة . جاهداً أن يوضح التأثير الذى يمارسه في الانسان مختلف البواعث الواقعية التى تدفعه الى التصرف والتى تتنوع أساسا تبعا لمراحل السياق التاريخى . وبالاجمال يعرض علم الاجتماع نظرية تاريخية عريقة (أو نشوئية نوعية) للإنسان . ويدرس العملية التاريخية لتشكيل الفرد وتطوره في مختلف مجالاته الاجتماعية الاقتصادية . ويحلل الأنماط الاجتماعية في حالاتها التاريخية بالمجتمع والثقافة . معنى ذلك أن علم الاجتماع يتصل بالاقتصاد السياسى والتاريخ بل يختلط بها في بعض النقاط .

وينظر التاريخ الى الإنسان من ناحية نشوئه . وتطوره البشرى . وكذا ــ وهذا أمر هام بنوع خاص ــ من خلال الأشكال التاريخية لنشاطه المادى العلمى . قال ماركس . « الإنسان هو تاريخه ».

لذلك لا يقتصر التاريخ على دراسة التطور الأنثروبولوچى الفردى . وإنما يدرس أيضاً وبالتحديد أشكال النشاط العلمى الإنسانى . فضلاً على ذلك يعمل التاريخ على توضيح الكيفية التى يتحقق بها فى الزمان والمكان (وهما البعدان الوجوديان للأشياء) تطور الشخصية التاريخية . ويجتهد أن يعرف المحددات الواقعية . والبواعث التى تمهد لنشاط الناس (والإنسان) . وكذا الحقوق التى يتمتع بها الفرد (أو التى تقيده) فى أدائه أعمالاً يمكن أن توصف بأنها تاريخية تبعاً لدرجتها ومداها الاجتماعى . معنى ذلك أن التاريخ يدانى علم القانون حين يدرس الإنسان باعتباره موضوعاً للعملية التاريخية .

والقانون . باعتباره مجموعة من القواعد التى تسنها الدولة لتحكم سلوك الأفراد . يضم الإنسان الى نظريته باعتباره من أشخاص القانون . وحيثما كانت الروابط الاجتماعية الواقعية والتاريخ تقوم على الإنسان يجد الإنسان نفسه موضوعاً لقواعد قانونية يعكس الطبيعة الاجتماعية الاقتصادية للمجتمع . وفى مقدور الإنسان أن يخرج من الإطار القانونى حين يتعارض القانون مع وجوده كإنسان . إى حين يعتدى على شخصيته . وفى مقدوره على العكس من ذلك أن يستغل القانون للدفاع عن نفسه ضد الأعمال الموجهة ضده (أعمال الاناس الآخرين . وكذا أعمال المؤسسات الاجتماعية). ولكى نفهم جيداً عملية التكيف الاجتماعى (ويشترك فيها علم الاجتماع والتاريخ والقانون) يجب أن نرى بأية كيفية يسهم القانون فى التطوير الاجتماعى لموضوع العملية التاريخية ـ أى الإنسان ـ وكيف يؤثر بسيادته النسبية وتفاعله المعقد مع المبدأ الاجتماعى السياسى الذى يحكم المجتمع على تطور العلاقات الشخصية فى المجتمع . وكذا الوعى الفردى . والوعى الطبيعى ـ والقانون بدراسة القواعد التى تحكم الناس فى نطاق النظم الاجتماعية المحددة يمس علم الأخلاق الذى يدرس ويحدد القواعد الأخلاقية (الضابطة) لسلوك الإنسان .

أما علم الأخلاق فبأعتباره علم يبحث فى الأخلاق والسلوك الأخلاقى ومكانهما فى دائرة النشاط سانى فإنه يتجه بوضوح صوب الإنسان . بقصد أن يدرس فى نطاق نشاطه موضوع الأخلاق بأعتباره ظاهرة اجتماعية . ومنشأه وطبيعته . ولا يتسنى فهم الطبيعة النوعية لعلم الأخلاق بأعتباره منظماً لنشاط الإنسان إلا بالنسبة لنشاط الإنسان نفسه . وكل المشاكل الأخلاقية فى نهاية المطاف هى مشاكل إنسانية ويجب أن يقوم حلها بالضرورة على تفهم إجمالى للإنسان باعتباره « عالماً بشرياً ».

ويتيح التحليل التاريخى الواقعى للانسان . الذى يبدو كمادة من مواد علم الاخلاق . فهم الوعى الاخلاقى لدى الانسان وسلوكه . ويجب تقدير كل فعل اخلاقى يؤديه الانسان على انه فعل كلى . ووحدة تشمل الهدف وتحقيق هذا الهدف . ولا يتيسر هذا الا اذا ووجه الفعل على انه لحظة خاصة فى النشاط الاجتماعى الكلى للانسان . ويبدو لنا فى غاية الاهمية ان ندرك ان الانسان باعتباره مشكلة اخلاقية يجب فهمه من خلال الممارسة والعمل التحويلى الذى يجريه على الطبيعة والمجتمع والناس . وعلى نفسه . غير ان التحليل التاريخى الملموس للانسان من خلال البلورة التى تعكس مطابقة سلوكه او عدم مطابقته لقواعد الاخلاق المقررة يرتبط ارتباطا وثيقا بدراسة الانسان بوساطة علم النفس . والطب . وسائر العلوم .

وفى النطاق الذى يكون فيه الانسان كائنا جماعيا . لا يعيش فى عزلة . يمكن دراسته بعمق عن طريق علم النفس الاجتماعى الذى ينظر اليه من ناحية سلوكه فى الجماعة . وعلاقاته الشخصية . لا من وجهة استاتيكية (سكونية) . وانما من خلال نشاطه . مع ضرورة ان يؤخذ فى الاعتبار وعى الفرد وعلاقته الفعلية بالظروف الاجتماعية التى تحيط بوجوده . وتستعين العملية التى تتيح استخلاص السمات الرئيسية للنشاط الواعى الذى يمارسه الانسان فى بناء اجتماعى معين بالعديد من الاعتبارات . فهى

ليست احادية الاتجاه · فعلم النفس الاجتماعي يدرس تأثير العمليات النفسية الاجتماعية على تنظيم سلوك الانسان وتشغيل هذا السلوك وتطوره في النطاق المحدد للانتاج المادى والفكرى لمختلف التنظيمات الاجتماعية والحركات الاجتماعية الجماهيرية · ويتجلى الانسان في نظر علم النفس الاجتماعي كنظام متكامل بنفسيته المنظمة تنظيما اجتماعيا وبمختلف اشكال نشاطه · ويشكل تأثير هذه النشاطات بعضها في البعض الاخر عملية معقدة ومباشرة . ومهمة علم النفس الاجتماعي هى دراسة علاقاتها المتبادلة ·

ومع ذلك لا يتسنى تطبيق علم النفس الاجتماعي بصورة عادية في مظاهره الرئيسية دون ان يأخذ في الاعتبار ان الانسان ليس كائنا اجتماعيا فحسب . وانما هو ايضا كائن بيولوجى (احيائى) · معنى هذا ان سلسلة الارتباطات تمتد من علم النفس الاجتماعي الى علوم الاحياء . والوراثة . والفيزياء . والطب ·

والانسان . باعتباره كائنا حيا . ينتمى الى علوم الاحياء الذى يتولى تعريف قوانين تطوره الجوهرى المادى · ولكنه . باعتباره كائنا اجتماعيا . يضم الى صفاته التى يقال انها طبيعية واحيائية (بحتة) سمات نوعية تميزه عنها . ينفرد بها باعتباره كائنا اجتماعيا · وانطلاقا من فكرة ان الانسان كائن احيائى اجتماعي ينبغى ان نتبين فيه الرابطة بين السمة الاحيائية والسمة الاجتماعية . وان نقدر تقديرا صحيحا الديناميكية المعقدة للعلاقة المتبادلة بين الطائفتين من السمات (هل يحسن مثلا النظر اليهما على انهما متوازيان . او من خلال تشابكهما وتأثيرات كل منهما على الاخر ؟) · ويدرس علم الاحياء وهو يتعمق البنيان الاحيائى للانسان عوامل التغيير في هذا البنيان . لا على مستوى مظهره الخارجى فقط . وانما ايضا على المستوى الصغير للجزيئات · ولكن ينبغى ايضا تعرف دور العامل الاحيائى في الانسان باعتباره عنصرا اجتماعيا . وكذا تأثير تكوينه الاحيائى على وصفه الاجتماعي . وفي اى شكل تتحقق هذه الصلة المتبادلة · وهنا يتدخل علم الاجتماع وعلم الاخلاق بكل اختصاصاتهما · وولد علم الاحياء في تطوره مستعينا بهذين العلمين فرعا نوعيا جديدا من المعرفة العلمية . ذلك هو علم الوراثة ·

وموضوع علم الوراثة وضع القوانين التى تحكم الوراثة لتعديل ما يتعلق بها من علل · غير ان لهذا العلم وجها اخر . يتجه صوب الاخلاق · ذلك ان الرقابة الاجتماعية على ما قد يطرأ على الجنس البشرى (السكان) من تطور تتضمن امكانية الاحتفاظ بوحدات مرضية تطيل شذوذ النوع الانسانى في سياق التطور الوراثى · وعلى ذلك تتخذ مشكلة الوراثة بعدا اجتماعيا فلسفيا وعلميا في وقت واحد . ويتوقف حلها على ترابط العلوم . وتتخذ مكانا لها في دائرة تفاعل مختلف فروع المعرفة التى تشكل الجبهة الموحدة للعلم · وفي هذا التفاعل يتولى الطب وعلم التربية دورا جوهريا ·

اما الطب فانه يضطلع بمعالجة الوضع الاحيائى الاجتماعي للانسان في الظروف السوية والمرضية . ومهمته الرئيسية هى دراسة مهمة تصفية امراض البشر · ومن اهم مظاهره دراسة الظروف (الاجتماعية المادية للوجود والانتاج . الخ) التى يتعرض فيها الانسان للانحراف عن الطريق السوى . اى للاصابة بالامراض · ويشكل تحديد الظروف الملائمة الى اقصى حد لتوقى الامراض الموضوع الاجتماعي الفلسفى للطب ·

اما المظهر العلمى الفلسفى للطب فانه يتمثل في اجراء دراسة متعمقة (تأخذ في اعتبارها معطيات العلوم الاخرى . ومن ثم فهى دراسة تركيبية) تتناول طبيعة الانسان (بما في ذلك اشكالها المرضية المتنوعة) للاسهام في تطويره بصورة ملائمة ·

ويتبغى لنا ان نشير ايضا الى الجانب الاخلاقي لبعض المشاكل الطبية (زرع اعضاء جسم الانسان ، الخ) . كل هذا يوضح ان للانسان في مظهره الطبى بعدا نفسيا حقيقيا .

اما البيراجوجيا (علم اصول التربية والتعليم) فانها تدرس الانسان باعتباره موضوعا للتربية والتعليم ، وتنظر اليه على انه شخصية تتحول في سياق الدراسة والتعليم . وفي النطاق الذى يستوعب فيه الانسان القيم (المادية والروحية) التى توجد في النظام الاجتماعى المندمج فيه يتعين معرفة الكيفية التى يستوعب بها هذه القيم ، اى كيف يتشكل ، وكيف يدرك هذه القيم ويطبقها في نشاطه . والبيراجوجيا تدرس العمليات الاجتماعية الفكرية التى يزاولها الانسان ، وتطبقها في العمل من خلال مجموعة من المبادىء ، وموضوعها الاكبر معرفة كيف يتشكل الفرد (تفكيره ، ونشاطه ، وتكيفه ، وتفهمه للاشياء) ، وكذا كيف يتربى (الارتقاء بوعيه الاخلاقى ، وصفاته النفسية ، وقواعد سلوكه في علاقته مع الناس والمجتمع) . وتتمثل مشكلة البيراجوجيا في التساؤل عما اذا كان التعليم والمعرفة اللذان يتلقاهما الانسان يمارسان (وكيف ذلك ، او لعلهما لا يمارسان) تأثيرا على نظام القيم الشخصية (الانسانية ، او « القبلية » ، الخ) . ويجب دراسة هذه المسألة من عدة وجهات نظر ، لا من وجهة النظر البيراجوجية وحدها ، لانها تمس ايضا مظاهر خاصة ، بعلم المعرفة البحتة ، وكذا المظاهر النفسية ، والاجتماعية الاخلاقية ، والجمالية ، وغيرها . والبيراجوجيا من هذه الناحية تمس الفلسفة ، والقانون ، وعلم الاخلاق ، وعلم الجمال ، وعلوما اخرى تدرس الانسان ، منها باساليبه النوعية .

وهكذا يبدو الانسان ، الظاهرة الفريدة في تنوع جوانبها ، موضوعا لعلوم مختلفة ، لا يدرس أى منها الا جانبا واحدا أو بضعة جوانب من العديد من مظاهر شخصيته ، ويبدو في الوقت نفسه في نظر الباحث في كامل هيئته وكيانه .

وهو أيضا باعتبارة « كيانا » موضوع للعلوم الطبيعية (لأنه أساسا جسم مادى) ، وكذا للعلوم الاجتماعية (لأنه هو نفسه ، وكذا نتائج نشاطه ، صدى للعالم الاجتماعى الذى يعيش فيه) ، غير أنه اذا كانت العلوم الطبيعية (الاحياء ، والكيمياء ، والفيزياء ، الخ) لا تهتم الا ببنيانه (أى كيانه العضوى) وكانت العلوم الانسانية (التاريخ ، وعلم الاجتماع ، الخ) تهتم بنوع خاص بالمكونات الاجتماعية لشخصيته الانسانية ، فان الفلسفة تواجه الانسان بكيفية متكاملة (مع الاعتبار بكيانه العضوى) ، وهى بخاصة تتعمق طبيعته الاجتماعية ، وقد اقترح ماركس صيغة لفهم الانسان فهما علميا صحيحا ، باعتباره كيانا ، وبعبارة أخرى تفهم كيانه الاجتماعى ، « جوهر الانسان ليس شيئا مجردا » ليس شيئا ملازما للفرد باعتباره فردا ، وانما هو في واقعه مجموع الروابط الاجتماعية كلها » هذا التفسير للأنسان ، بمحو محوا تاما وضعه الميتافيزيقى (جوهرى الذى لا يتغير) ويتيح فهمه باعتبارة موضوعا تاريخيا ملموسا ، وهذا أمر ذو أهمية منهاجية كبيرة في معالجة مشكلة الانسان من زاوية العلوم الإنسانية .

أما فلسفة الانسان فانها نظرية جوهره ـ أى ما كان ، وما يكون ، وما سوف يكون ـ في تاريخه . الانسان يخلق العالم ، ويعبر عن نفسه في نشاطه وفي ثمرات هذا النشاط ونتائجه ولكن الانسان لا يخلق العامل فحسب ، وانما هو يخلق أيضا نفسه ، بأن يحقق ذاته في الأشياء المتعلقة بوجوده .

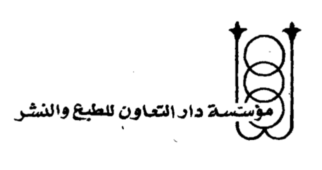
لذلك فان الفلسفة العلمية التى تقوم على معطيات العلوم الطبيعية (على نظريات الحياة العضوية للأنسان) ، أى الفلسفة الماركسية ، تفترض مسبقا أساسا أحيائيا للأنسان ولكنها لا تفسر بهذا الأساس

الأحيائى جوهر الانسان . ففى مفهوم هذه الفلسفة يكون جوهر الانسان في مجموع العلاقات المشتركة . في الموضوع التاريخى الملموس . ويتيح لنا هذا أن نفهم ونفسر نشاط الانسان وتطورة ووضعة الحقيقى . وفي هذه الفلسفة يبدو الانسان بمثابة الطبيعة المفكرة . لا الطبيعة كلها في عموميتها . ولكن « الطبيعة التى اتخذت سمة بشرية » في تاريخه . وتتيح الصلة التى لا تنفصم بين الانسان والطبيعة أن نفهم أن في مقدوره أن يتعمق الطبيعة تعمقا فعليا (بنشاطه المادى) . ويميز موضوع المعرفة ، والممارسة العملية ، ويشكل نفسه باعتباره من موضوعات التاريخ والانسان . من وجهة نظر الفلسفة العلمية ، لا يرجع الى مبدئه الروحى ـ أى الشعور ـ ولا الى بنيته العضوية ، مع أن كلا منهما ضرورى له . أنه وحدة ما هو طبيعى ، واجتماعى ، ومادى ، وروحى وموروث . وما أعد في غضون حياته .

ودراسة الانسان باعتبارة كائنا نشيطا وذكيا هى المشكلة الحالية للفلسفة ، ويمكن حل هذه المشكلة بالاعتماد على معرفة الانسان معرفة شاملة . وتشكل الفلسفة بالتحديد الأساسى المنهاجى الذى لا بد أن يقوم عليه التفاعل بين مختلف المعارف العلمية في دراسة الانسان .

ثبت

المقال وكاتبه		العدد وتاريخه
● قبول الفرضيات العلمية بقلم : ف . ف ناليموف	**The Beceptivity of Hypotheses by Vassil V. Namilov**	العدد ١٠٠ شتاء ١٩٧٧
● اللغة الشعرية واللغة العلمية بقلم : جان ستاردبنسكى	**Poetic Language and Scientific Language by Jean Starobinski**	العدد ١٠٠ شتاء ١٩٧٧
● علم البيئة تغير في آفاق المستقبل بقلم : لويس أرنيلا	**L'Ecologie Un Changement De Perspective par Louis Arénilla**	العدد ١٠٤ عام ١٩٧٨
● الانسان موضوع لدراسات علمية مترابطة بقلم اڤجوينى ميخايلوڤتس بابوسوف	**L'Homme Sujet D'Etudes Interdesciplimaires par Evgvéne M. Babossov**	العدد ١٠٤ عام ١٩٧٨


مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر



١٠ نـــوفمبر ١٩٧٩
١٠ تشرين الثانى ١٩٧٩
٢٠ ذو الحجـــة ١٣٩٩

تصدر عن: مجلة رسالة اليونسكو
ومركز مطبوعات اليونسكو
١ - شارع طلعت حرب
ميدان التحرير - القاهرة
تليفون : ٧٤٢٥٠٢

رئيس التحرير: عبد المنعم الصاوى

هيئة التحرير
د. مصطفى كمال طلبه
د. السيد محمود الشنيطى
د. محمد عبد الفتاح القصاص
عثمان نويه
صفى الدين العزاوى

الإشراف الفنى
عبد السلام الشريف
سعيد المسيرى

●● محتويات العدد



❋ **المقال في كلمات**

١ ـ بدأ المؤلف مقاله بقوله ان جمال البيئة قد أصبح من الأمور التى تشغل بال الكثير من الجماعات المختلفة فى السنوات الاخيرة ثم استطرد الى القول بأن جمال الطبيعة ليس بالأمر الغريب على الكثير من الفنانين المعاصرين ، ودافع عن الفكرة القائلة بأن الفن يجب أن يكون دائما على صلة بالحياة أى ان المؤلف ليس من انصار القائلين بأن الفن للفن ، ولكنه يؤيد القول بأن الفن للحياة .

٢ ـ انتقل المؤلف بعد ذلك الى وسائل تجميل المدينة أو البيئة الحضرية كما يسميها فذكر أن هناك نماذج أربعة

●● هذا المقال عبارة عن نسخة موسعة ومنقحة لبحث عرضته على الاجتماع السنوى الـ ٣٢ للجمعية الامريكية لعلم الجمال بجامعة نيسوتا فى ٢٤ من اكتوبر ١٩٧٤ . واود ان اعبر بصفة خاصة عن شكرى للمساعدة القيمة التى اسداها على الاستاذان الفى كارتر ستوك وديفيد لونشال .

الكاتب : ارنولد برليانت

أستاذ الفلسفة بجامعة لونج ايلاند منذ ١٩٦٣ قام بالتدريس سابقا بكلية ساره لوراني وبجامعة ولاية نيويورك في بفالو من مؤلفاته : المجال الجمالي ، ظواهر التجربة الجمالية وكثير من المقالات عن جمال البيئة وفلسفة الفن والاخلاق ونظرية القيمة

المترجم : أمين محمود الشريف

عضو لجنة الترجمة بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية

يمكن استلهام معاني الجمال فيها واضفاء هذه المعاني على المدينة وهذه النماذج هي :

(أ) غروب الشمس وهو ظاهرة كونية عالمية .

(ب) الكاتدرائية القروسطية (نسبة للقرون الوسطى) وهي ظاهرة ميتافيزيقية ذات طابع روحي .

(ج) السرك (ملعب الحيوانات) ومظهر الجمال فيه أنه يلهب الخيال بما فيه من العجائب والغرائب كما انه مصدر للمتعة والتسلية بمشاهدة الالعاب البهلوانية الغريبة .

(د) السفينة الشراعية ، وابرز جوانب الجمال فيها جانب المنفعة حيث انها تستخدم فيما ينفع الناس .

٣ ـ سرد المؤلف بعد ذلك مظاهر الجمال فى هذه النماذج الأربعة وشرح كيف يمكن الاستئناس بها فى تجميل المدينة .

لقد أصبح جمال البيئة من الأمور التى تشغل بال الكثير من الجماعات المختلفة فى السنوات الأخيرة ـ من المهتمين بصيانة البيئة ، الى رجال التشريع ، الى أرباب الصناعات (على كره منهم) ، بل تشغل ـ فى الواقع ـ بال الناس قاطبة . ويبدو أن لهذا الاهتمام غرضا واضحا ، الا وهو بذل الجهد ـ وان جاء متأخرا ويائسا ـ لانقاذ موارد العالم الطبيعى ومحاسنه من الاستغلال الذى يأكل الاخضر واليابس ، وما يترتب عليه من الخسائر ، وتشويه وجه الطبيعة . انه محاولة لتغيير الجو المسموم الذى يصعب الخلاص منه الى جو نقى يجدد فى الانسان روح القوة والنشاط ، كما أنه محاولة لاعادة بناء المدن ، قبل أن تصبح ركاما من الحطام المادى والاجتماعى ، يتعذر اصلاحه وعلاجه .

بيد انه اذا أريد أن يكون الاهتمام بتجميل البيئة اكثر من وضع برنامج لازالة لوحات الاعلان ، ومخازن المخلفات القديمة ، واستبدال مساكن جديدة مكان المساكن العتيقة فى الاحياء الفقيرة ، وجب الايقتصر الامر على مسكنات وقتية من صور الجمال والنظافة والنظام . ذلك أن الاهتمام الجدى بالبيئة يجب ان ينبه رجال الفن وعلماء الجمال الى تنمية الصور والمفاهيم والمبادىء اللازمة لترشيد المعتقدات والقيم التى ادت الى هذه الجهود ، بحيث تتجه الهمم الى أهداف أسمى وأجدى .

وقد يسبق الى الوهم أن تجميل الطبيعة يجشم الفلاسفة جهدا يشبه عملية « الخلق من عدم » . ولعل الدافع الى هذا الوهم أن الفلاسفة لم يولوا هذه المسائل اهتماما قط . واذا استثنينا قلة من المفكرين أمثال كانت ، ورسكين ، وسنتيانا ، الفينا أن الفلاسفة قد أغفلوا جمال الطبيعة جملة واحدة ، فقد أتخذ فلاسفة علم الجمال غالبا من الطبيعة مصدرا للالهام ، أو نموذجا للمحاكاة ، وقلما اتخذوها وسيلة للتجربة الحسية التى تضارع فى أهميتها وعمقها التجربة الفنية .

واذا كان جمال الطبيعة يمثل مشكلة جديدة بالنسبة لمعظم الفلاسفة ، فانه ليس بالأمر الغريب على الكثير من الفنانين المعاصرين الذين يهتمون بالمناظر الطبيعية والعادية فى البيئة . وقد اتجهت الفنون الجميلة فى هذا السبيل خلال عشرات السنين القليلة الماضية ، وذلك بابتكار اشكال فنية كالتجمعات ، والبيئات ، والأحداث ، والتماثيل ، المستمدة من الاشياء والحوادث والبيئات العادية . على أن كثيرا من الفنون قد تناولت دائما مظاهر ذات صلة مباشرة بما هو مشاهد فى الطبيعة والعالم العادى . ففن التصوير الزيتى والنحت ـ مثلا ـ يستخدمان الأبعاد الحسية الهادفة الى التوسع فى مشاهد الطبيعة وتجميلها ، وترى الامتداد والحجم فى فن النحت يماثلان الامتداد والحجم الطبيعى ، كما ترى اشكال التماثيل وموادها مستمدة بصورة مباشرة من أشكال الاشياء وسطوحها ومن المواد والأماكن

الطبيعية . وان فن التصوير الزيتي ليفتح لنا أيضا آفاقا من الامتداد والضوء واللون تتجاوز اطار الصورة . وهناك صلة بين المنظر المصور ، والمنظر الحقيقي وليست هذه الصلة كالصلة بين الاصل والصورة بل هي صلة مماثلة ومشابهة كما هو الحال في المسافة التي يمثلها رسم المنظور ، فهي تبدأ من عين المشاهد بحيث يحتل الناظر والصورة ما يماثل الحيز المحسوس . وفي الصور الزيتية التي تمثل ازهارا وثمارا طبيعية تتفتح أمامنا أيضا طريقة جديدة للرؤية تنقلها الى الاشياء العادية المألوفة التي تحيط بنا ، فنتعلم في الصورة النظر الى الأشخاص الذين نشاهدهم دائما في العالم الخارجي . وحتى حينما تتجه هذه الفنون الى التجريد ، فانها تظل نموذجا لمشاهدة العالم الذي يقع خارج اطار الصورة والمتحف (١) ، وتظل نفس الأبعاد الحسية من المسافة ، واللون ، والشكل ، والتكوين ، والمادة ، باقية على حالها اذا فقد المظهر الخارجي مشابهته للأشياء المألوفة (٢) .

بيد أننا لسوء الحظ لانزال نتأثر بتقاليد تجعل هناك فرقا واضحا بين موقفنا من الفن ، وموقفنا من البيئة الانسانية « العادية » . وقد ساعد على ذلك عاملان : أولهما التأثر بالميعاد العلمي للفن الذي يطالب بالتزام الفن لمقتضيات الحقيقة والمعرفة سواء في محتواه أو طريقة فهمه . ثم ظهر العامل الثاني وهو الاتجاه الى استقلال الفن ، وتفرده بهوية خاصة جعلته متميزا عن الأشياء والتجارب التي نراها في البيئة . وقد أدى هذان العاملان الى القول المعتاد بأن الموقف الجمالي يتسم بالتأمل ، والسلبية ، والخلو من الغرض ، والبعد عن الارتباط المادي الديناميكي الذي يربطنا عادة بالبيئة .

وفي هذا الامر بالذات تتحدى التطورات الحديثة في الفنون هذه العزلة الجمالية ، وتعمل على اعادة اتصال الفن بالأشياء والأوضاع القائمة في العالم .

---

(١) هذه النتيجة تقودنا ـ ربما في المستقبل البعيد ـ نحو نهاية الفن كشيء منفصل عن البيئة المحيطة بنا التي هي الواقع التشكيلي الفعلي . ولكن هذه النهاية هي في الوقت نفسه بداية جديدة للفن . فالفن لن يستمر وجوده فحسب ، بل سوف يحقق ذاته ويستكمل تحقيق اهدافه يوما بعد يوم ، اذ يتم خلق واقع تشكيلي جديد بالجمع بين فن العمارة والنحت والتصوير . فالتصوير والنحت لن يظهرا كفنين منفصلين ولا كفن « أخلاقي » أو « تطبيقي » ، بل يصبح الفن انشائيا محضا وبذلك يساعد على خلق بيئة تمتاز بالجمال المحض لا بيئة تتمثل فيها مظاهر المنفعة ومقتضيات العقل فحسب .

(٢) المقصود بهذه الملاحظات الموجزة عن الاتصال بين الفنون ، والعالم العادي ، وأهمية هذا الاتصال بالنسبة لعلم الجمال أن تكون على سبيل التمثيل لا الحصر . وهذه الملاحظات تؤيد التوسع في تطوير الفن في حد ذاته . وبيان ذلك في هذا المقام يجرنا الى الاستطراد . وقد يكون هذا الاستطراد طريفا ولكنه ليس ضروريا لتحقيق الهدف من هذا المقال . وقد عالجت هذه المسألة بتفصيل اكبر في عدة مؤلفات أخرى منها على سبيل المثال كتابي « علم الجمال والفنون المعاصرة » الخ .

ـامل ما صنعت هذه الفنون ! فى الفن الشعبى ، وفى فن « المواد الموجودة » وفن « المواقف والأحداث » ، انتزع الفنانون صورا ، ومواد ، ومواقف من الشئون اليومية فى عالم التجارة والصناعة ، وعرضوها علينا ، لا لكى نتأملها تأملا خاليا من الغرض ، بل لكى ننفعل بها ونتجاوب معها . ففى الفن البصرى ، والنحت الحركى قضى الفنان بسهولة على التذوق التأملى السلبى وحملنا على التجاوب والمشاركة الفعلية . وانضمت الموضوعات الجنسية الى الموضوعات السياسية لتجعل من الفنون البصرية والمسرحية ، فرصة للاندماج والاستغراق فيها لا لمجرد المشاهدة المنعزلة . وحملتنا الموسيقى والرقصات والأفلام على التأثر بها تأثرا مستمرا بحيث لا نستطيع أن نتجاهل هذا التأثر عند وصف ما حدث .

واننا اذ نعرف أهمية هذا التجاوب ، نستطيع أن ننظر وراءنا الى الفنون التقليدية لنجد هذا التجاوب ماثلا فيها على طول الخط ، اذ يتضح لنا أن فن العمارة ــ وهو من الفنون التى يصعب أن نجد فيها هذا التجاوب المشترك لانه من الصعب تجريده عن سمة الوظيفة والمنفعة الاجتماعية ــ ليس نموذجا بيانيا لتفسير الفنون الجميلة فحسب بل هو أيضا بمثابة الباب الذى تدخل منه الى ساحة الجمال تلك الفنون العملية التى دأبت التقاليد على الغض من قدرها . ويظهر نفس هذا الارتباط بين الابداع والمهارة والانتاج والاتقان ، فى فن التصوير والنحت والشعر بدرجة لا تقل عما نراه فى فن العمارة والتصميم . وتشمل الوظيفة الانسانية كل الفنون الآن ، وهذه الوظيفة تجمع بين الابداع والتذوق والمنفعة فى اطار احتياجات الانسان ، ونشاطه ، وأهدافه . على أن الامر الذى يتسم بأهمية خاصة هو أن تفسير هذا الوضع الجديد للفن يتطلب مفاهيم جمالية جديدة . ومما يمت بصلة اكبر لموضوعنا أن هذا الوضع المتغير للفن ينطوى على معان ضمنية لأوسع مجال من مجالات تجاربنا الا وهو مجال البيئة الانسانية .

ولعل أروع السمات التى تصر الفنون الجديدة عليها دائما ، هى الصلة والمماثلة بين نشاط الفن وموضوعاته من جهة ، ونشاط الحياة العادية وموضوعاتها من جهة أخرى . وهذا يتخذ صورا متنوعة ، ابتداء من استخدام الفنانين للمواد والصور والموضوعات الصناعية والتجارية ، مضافا اليها مواد الحياة اليومية وصورها وموضوعاتها ، الى الكمية والدقة والنفقات التى لا تتسنى الا عندما يصبح الانتاج الصناعى سمة من سمات الانتاج والاستهلاك الفنى . وفى مجال الادراك الحسى تتخذ هذه الصلة والمماثلة صورة الارتباط بالعمل الفنى والاندماج فيه على نحو يخالف المعايير التقليدية المتصلة بالمسافة والتأمل . ويذكرنا هذا الارتباط والاندماج بعنصر الرعب والخطر الشائع فى الاعمال السحرية المعروفة فى مذهب حيوية المادة البدائى ، والذى يمت بصلة الى الاحساس بالغموض والقوة الذى يستولى علينا دائما عندما نقع تحت سلطان الفن . يضاف الى هذه السمة ــ سمة الصلة

والمماثلة – سمة ثانية هى الطابع الديناميكى الجديد للفن الذى يحول الطابع الاستاتيكى (الساكن) للفن ، الى دور ينبض بالحياة ويموج بالحركة والنشاط .. وأما السمة الثالثة – وهى أكثر السمات شمولا – فهى الوظيفة الشاملة التى أصبحنا ننظر اليها الآن لا كمنفعة عقيمة ضيقة الأفق ، بل نراها فى شكل أوسع على هيئة تفاعل قوى بين الانسان والعمل الفنى .

هذه السمات الثلاث للجمال الجديد – الاتصال بين الفن والحياة ، والطابع الديناميكى للفن ، والوظيفة الانسانية للعمل الفنى الجمالى – تشكل اطارا للمفاهيم التى تتجاوز الحدود التقليدية ، اطارا يتيح لنا رؤية العالم رؤية حسية كاملة ، لا تقتصر نتائجها على الناحية الجمالية فقط ، بل تمتد الى الناحية الأخلاقية والسياسية أيضا .

ومن مزايا الطابع العريض لهذه المفاهيم ، أنه يساعد على تطبيقها على المواقف الجمالية غير التقليدية التى لا تجدى فيها المعايير التقليدية . وفى وسعنا أن نقول ان البيئة – بالذات – هى أحد هذه المواقف ، سواء أكانت بيئة صناعية أم طبيعية . هناك – على سبيل المثال – شروق الشمس وغروبها حيث يبدو الأفق دون حائل أو عائق ، ويغمر الكون فيض من الضياء لم يره الانسان قط . وهناك الكاتدرائية القروسطية (نسبة للقرون الوسطى) التى تعد بمثابة بيئة مادية واجتماعية شاملة لاتضم معظم الفنون فحسب ، بل تتطلب أيضا استخدام كل الحواس . وهناك السفينة الشراعية التى تجمع بين الوظيفة الكاملة والجمال الرائع ، وتتطلب من المشاهد الاندماج التام فى البيئة التى يتكامل فيها الجانب الحسى مع الجانب النفعى تكاملا تاما . وهناك السرك الذى هو عالم مشحون بالخيالات والمغامرات ، والذى يحيطنا ببيئة كثيفة بالاصوات والمناظر والحركات ، وعالم من الأحلام حافل بالأعمال السحرية التى تخلب اللب ، والحركات الغريبة التى تبعث على الضحك ، والمغامرات التى تنطوى على الخطر .

على أن هناك بيئة أخرى الا وهى عالم المدينة الذى يناسبه هذا الجمال الجديد بصفة خاصة . ومن مزايا البيئة الحضرية أنها تجمع بين الحياة الشاملة والفن الشامل . انها مثوى الأنشطة الحيوية العملية ، فنها مقر العمل ، والاسرة ، والتعليم ، والتجارة والأعمال الفنية الجمالية ، والثقافة ، والاختلاط الاجتماعى وهذه الأمور كلها لا تقبل الانفصال ، ولا تحرز اكبر قدر من النجاح الا اذا اتصل بعضها ببعض ، شأنها فى ذلك شأن الفنون الجديدة .

والآن فلنعالج البيئة الحضرية فى ضوء هذه الأفكار والمفاهيم الجمالية الجديدة ، بأسلوب يجمع بين الطرافة والجد . وذلك بتفصيل المواقف البيئية الأربع التى ذكرتها باعتبارها نماذج لتجميل المدن ، اذ يبدو لى ان تجربة السرك

والكاتدرائية والسفينة الشراعية ، وغروب الشمس ، تمثل بوضوح ابعاد تجربة المدينة التى لا يعرفها الناس غالبا ، والتى لا تظهر لهم الا بطريقة عرضية ومتى اتضحت هذه الابعاد بدقة ، أمكن ان تصبح مرشدا لايجاد بيئة حضرية تحل محل مظاهر الابتذال والملل التى تشيع فى المدينة الحديثة جوا من الكآبة والسآمة وبذلك يمكن تحويل المدينة من بيئة تتعرض فيها آدمية الانسان للخطر الى مكان تتحقق فيه هذه الآدمية بأوسع معانيها ، وتظهر بأتم مجاليها .

(٢)

لقد كان هوراشيو جرينو هو الذى تباهى فى أواسط القرن التاسع عشر بأن تصميم السفن الشراعية هو نموذج لفن العمارة . يقول ما نصه : « تأمل احدى السفن فى البحر ! تأمل هيكلها الفخم وهى تمخر عباب الماء . لاحظ انحناء بدنها الرشيق ، وانتقاله اللطيف من الاستدارة الى الاستواء . تأمل قوة مؤخرتها وانسياب أقواسها ، وتناسق ادقالها ، وحبالها ، وما ازدانت به من زخارف كثيرة تأمل أشرعتها التى هى عضلات الريح القوية .... هنا تبدو ثمرة الدراسة التى قام بها الانسان فى المحيط العميق حيث تحدثت اليه الطبيعة عن قوانين البناء والعمارة فى الرياح والامواج ، لا فى ريش الطيور وازهار الأشجار . لقد أصغى الانسان الى حديث الطبيعة ، وامتثل ما أشارت به » اهـ .

بيد أن السفينة الشراعية تحتاج الى ما هو أكثر من هيكلها المادى . انها لاتحتاج الى بناء سفن فقط ، بل أيضا الى مدير الدفة ، ولاتحتاج الى مدير الدفة فقط ، بل أيضا الى ربان ، وملاح ، وبحار ، أعنى أن البيئة الوظيفية للسفينة الشراعية تتألف من مجموعة من القوى الميكانيكية التى تتمثل فى هيكل السفينة ، والماء ، والرياح ، والقلوع ، والحبال ، وكل ذلك تحت القيادة اليدوية للملاح . ولاداء ذلك كله على الوجه الاكمل يتعين أن ترتبط العناصر الحسية والمادية فى البيئة معا ، فلا يقاوم هيكل السفينة المنحنى ضغوط الوسط السائل الذى تسير فيه السفينة فحسب ، بل يجب ايضا تصميم هذا الهيكل على نحو يمكن السفينة من ان تخترق الماء ، وتمخر عباب الأمواج ، وتسير فى البحر باتزان ، وتشق طريقها الى الامام ، فى ظل العديد من ظروف البحر التى تتراوح بين الجو الهادىء الى الريح العاصف. ولكن هيكل السفينة ليس سوى ضلع واحد من اضلاع القوى الأربعة (الهيكل ، والماء ، والريح ، والشراع) . ولما كانت الريح هى القوة الدافعة التى تدير الدفة ، فان وضع وشكل الاشرعة والادقال والحبال ، يجب أيضا ان يتفق مع الأحوال الجوية السائدة . وبذلك يتطلب الأمر عددا لا نهاية له من انواع

الهياكل ، وتصميمات الأشرعة ، ابتداء من قلائب (١) المحيط الى السواكن (٢) الساحلية ، ومن سفن الصيد فى الخلجان والسواحل الى يخوت السباق والرحلات . وفى كل ذلك يجب أن تتفق التصميمات المختلفة مع مقتضيات الظـروف المحلية .

بيد أن الضرورة تقضى على الملاح المحترف ، كما تقضى أسباب المتعة على قائـد اليخت ، أن يستخدم كل منهما قواه الجسمية فى أداء العملية الوظيفية ، ويتحكم فى حركات سفينته بمهارة هى فى ذاتها لون من الجمال . هنا يجب الربط بين الكيان الحسى للملاح ، والكفاية الذاتية للسفينة الشراعية ربطا وثيقا ، لا تنفصم عراه ،بمعنى أنه يتعين على الملاح أن يراقب الأفق والسماء مراقبة دقيقة ، بحيث تسجل عيناه وأذناه ، وجلده ، كل تحول يطرأ على اتجاه الريح ، وكل تغير يطرأ على قوتها . ثم أن خرير الماء ، وهديره ، وتلاطمه ، واصطخابه ، علامة على ما يحدث فى البحر . حين تمخر السفينة عباب الماء . بل ان رائحة الهواء والضباب فى البحر ومـذاق رذاذ الماء الملح ، يضيفان الى عمق التجربة . بيد أن اليقظة الحسية للأمارات الدالة على تغير الأحوال ، يجب أن تقترن بالقدرة الجسمية على التحكم فى السـفينة . فالاحساس الدائم بضبط العجلة أو الدفة هو مرشد دائم لمسار السفينة ، ودليل واضح على القوى المؤثرة فى سيرها خلال الماء . ثم ان العمل الدائب على ضـبط الأشرعة بشبكة من الحبال ـ كل حبل منها له غرض خاص ـ يعكس العمل على اكتساب الكفاية والمهارة التامة فى ظروف متغيرة باستمرار . وفضلا عن ذلك فان ظل الماضى والمستقبل يكتنف الادراك الحاد للحاضر ، لأن الملاح يتنبه على الـدوام للعلامات الدالة على تغير السحب ، والرياح ، وسطح الماء ، ولون الأفق والبحر ، ويكمل ويعدل مشاهداته وملاحظاته فى ضوء تجاربه السابقة . والى هذه المجموعة من الادراكات الحسية يضيف الملاح المتمرس مجموعة من المعلومات الحية عن الطقس والملاحة ، والبراعة الفنية ، لان البيئة الحسية تكتسب أهميتها من هذه المجموعة اللانهائية من المعلومات الملاحية .

وهكذا تتولد تجربة متسقة ومنسجمة ، تقترن فيها حركة الجسم مـع حركة السفينة فى قوة مستمدة من وحدة الهدف . هنا نجد بيئة شاملة ، وبيئة وظيفيـة يمتزج فيها العنصر الميكـانيكى الآلى مع العنصر العضـوى الحى فى عالم زاخـر بالاحساسات الكثيفة .

وهناك أوقات نستطيع أن نلمس فيها هذه الوحدة التجـريبية حتى عنـدما نكون فى موقف الملاحظة والمشاهدة من الخارج . فكما نستطيع ان ندرك ان المنزل الريفى القديم على نهر المين والواقع على جـانب الجبـل هو جزء لا يتجـزأ من

---

(١) القلائب جمع قلوب (بفتح القاف) وهى السفينة الشراعيه السريعة ، والكلمة معربـة
(٢) السواكن جمع سـاكنة وهى السـفينة الشراعية ذات صارين او اكثر ، والكلمـة معربـة المترجم .

البيئة وليس وجوده عنصرا غريبا فى البيئة الطبيعية ، كذلك نستطيع أن نـدرك أن السفينة الشراعية فى الخليج هى جزء لا يتجزأ من هذه البيئة وليس دخيلا عليها

(١) وربما اعترانا عند رؤية ميناء خال من كل السفن بعض الاحســاس بالنقص الذى يعترينـا عندما نرى سـفينة خارج الماء . ويمكن التوســع فى هذا المعنى فنقول أنه لولا السـفينة الشراعيـة لما احسسنا بوجـود البحر ، بل كنـا نحس بوجـود الشـاطىء فقط ، وحينئـذ نعتقـد أن هذا الشـاطىء يمثل حــدود البر لا حدود ابحر (٢) ومع ذلك كله تنشأ بيئة شاملة من امتزاج البحــار ، والسفينة الشراعية ، والماء ، والرياح ، والسماء ــ بيئة وظيفية ذات صبغة انسانية كاملة . ويتجلى فى هذه البيئة ــ بصورة عجيبة ذلك المزيج الذى ذكره « ديـوى » وربط فيه بين « السبب والنتيجة ، والوسيلة والغاية ، والعملية والمـادة المنتجة (بفتح التاء) والاداة الوسيطة والادارة المكملة » وكل نشاط يجمـع بين هذين الأمرين فى وقت واحد هو الفن .

* * *

لعله لا يوجد شىء يختلف عن السفينة الشراعية كالسرك ، فلا يظهر فيه اى أثر للمنفعة أو الفائدة التى تظهر فى السفينة ، بل هو عالم من الخيال ، حافـل بالمشاهد والمناظر التى تخلب ألباب الاطفال وأشباه الاطفال . وعلى الرغم مما يتسم به السرك من مظاهر الخداع المخالفة للحقيقة ، فانه يستهوى الافئدة ، لان عــالم الخيال الذى ينقلنا اليه يدخل الرعب فى قلوبنا ، ويهزنا من الاعماق ، فى نفس الوقت الذى يثير فينا شعور الاعجاب ، ويروح عن نفوسنا بأسباب اللهو والتسلية . وهناك صفة غريبة تسترعى انظارنا عندما ندخل الى أرض السرك ، وهى أنه ــ برغم قلبه الحقيقة رأسا على عقب بالاشكال المبالغ فيها بطريقة تثير الضحك ــ يحمل معه فى الوقت نفسه تيارا خفيا من الحقيقة تكاد تشبه الحقيقة الكامنة فى القصص الأدبية الخيالية . والواقع أن السرك يقذف بنا فى عالم مقلوب رأسا على عقب ، ففيه ينقسم اللاعبون الى فريق من البشر ذوى القدرة الخارقة وهؤلاء هم اشاوس السرك وفريق ادنى من هؤلاء منزلة ، واقل قدرة ، الا وهم المهرجون الهازلون ، وفى السرك أيضا تظهر الخصائص والصفات الانسانية فى الحيوانات وحدها .

---

(١) يجدر بنا أن نتوخى الحذر فى هذا المقام ، فقد نكون مخطئين ــ ونحن فى مــوقف اللاحظ من الخارج ــ فيما نحسب أنه الوحدات التجريبية للبيئة ، وبخاصة عنــدما لا نستطيع أن نشارك فى البيئة كجزء من الوسط الاجتماعى الذى يكون فيه للبيئــة معنى وقيمة . انظر ما قاله ريموند وليامز فى كتابه « الريف والمدينة » .

(٢) قد نعجب من عزلة المحيطات المفتوحة او وحشتها . ولكن الواقع أنه لا يوجد محيطـات او بحار مفتوحة ، لاننا موجودون دائما كملاحظين ومشاهدين والواقع أنه لا توجد بيئــة حسية يغيب عنها الانسان . وكل تفكير فى وجود مثل هذه البيئة انما هو من صــنع الخيال ولا صلة له بوجود مثل هذه البيئة فى الواقع .

ولنتكلم عن أشاوس السرك فنقول ان البهلوانيين الجويين ينقضون بأجسامهم من الجو برشاقة كاملة وتنسيق خارق حتى ليكاد الرائي يلهث من الاعجاب أمام مايراه من سمو الانسان المخلوق من الأرض ! تأمل أيضا كمال الاشكال فى راكبى الجياد غير المسرجة ، وراكبى الافيال الذين يتحدون الجاذبية الارضية بتوازنهم العجيب ، اذ تراهم يقفون متوازنين فى شكل جميل وهم يعتلون اللاعبين الذين يسيرون بخطى وئيدة واقدامهم ثابتة على الارض . وكما أن الفنانين الذين يلعبون على الاراجيح ، والفرسان الذين يمتطون ظهور الخيل والافيال يظهرون الرشاقة والسرعة واللطافة ، كذلك يملأ مروض الأسود قلوبنا رعبا بجرأته وشجاعته حين يخوف ملوك الحيوانات بصوته وسوطه بينما يقف وحده فى القفص متحليا بكبرياء الاسود ، هادئا ، ساكنا رابط الجأش قوى العضلات ، ويؤكد لنا قوته ، فيقف عارى الصدر معرضا نفسه للخطر ، ويتفوق على الحيوانات ويحملها على الطاعة والانصياع . وعلى هذا النحو يظهر الحواة مهارتهم اليدوية فى أعمالهم السحرية ، ويظهر البهلوانيون قوتهم وخفة حركتهم الفائقة .

ويقابل هؤلاء الاشاوس ، المهرجون وهم اضعاف . منهم السذج المغفلون الذين يلطخون وجوههم بالطلاء الابيض .. وهؤلاء يقعون فى أفدح الاخطاء ، ويتعرضون للعثرات والزلات والكبوات . وهم قوم معتوهون وسذج مخدوعون ، يحاكون فى سخرية ما يرتكبه الناس من حماقات وتفاهات ورعونات ، بدقة تحير الألباب ، شأنهم فى ذلك شأن المهرجين فى عالم اللهو أمثال الاخوة ماركس وودى الين . وهم ـ مثلنا ـ تخامرهم أوهام العظمة ، فمنهم من يحاول دائما محاكاة الأشاوس بالمشى على الحبل المشدود الذى يؤدى البهلوان ألعابه عليه ، ومنهم من يجمع بين الكبرياء الأرعن ، والغباء الأعمى ، فيحاول تمثيل لعبة « السقوط » ثم ينجو من مسقطته الانتحارية بما يتوهم أنه الشجاعة والحظ ولكن الواقع أنه ما كان لينجو بجلده ، لولا أن تداركه رحمة من ربه ! وعلى عكس أصحاب الوجوه البيضاء ، المهرجون المهيبون أو المضحكون وهم ممثلون خبثاء يحاولون دائما اظهار العيوب ، والتعبيرات ، والمشاعر الانسانية والصنف الثالث والأخير المهرجون الذين يمثلون الشخصيات ، وهم فنانون يحاولون محاكاة نماذج بشرية معينة ، كرجال الشرطة والباعة المتجولين والمدرسين وغيرهم من الشخصيات الاجتماعية ، وذلك بطريقة تجعلنا نضحك من انفسنا .

وأن تعجب من شيء في السرك ، فعجب أن ترى الحيوانات فيه هى التى تمثل أخص صفات الانسان ، خلافا للاعمال الرائعة التى يقوم بها الاشاوس ، والاعمال الخرقاء التى يقوم بها المهرجون . ترى الحيوانات ، فى تصرفاتها وأعمالها تعكس صورة الهدوء والرزانة والرصانة ، فالفيلة تمشى بخطى وئيدة ، ثم تجلس أو تقف حسبما تقضى به الحال ، والنمور تتبختر بانتظام دقيق فى الاطواق ثم تجلس على المقاعد فى سكينة ووقار ، والكلاب التى ترتدى ملابس الاطفال تمشى أو تجرى أو تشترك فى اداء أعمال شبه انسانية أو تشترك فى العرض كما يفعل الأطفال ، والجياد تعدو الخبب فى دوائر كاملة . وكل هذه الحيوانات تبدى من سمات

النظام والعقل والضبط ما ندعى نحن ــ فى زهو وافتخار ــ انه من سمات البشر دون غيرهم ! وقد ترى الحيوانات تمثل الجانب السىء من سلوك الانسان ، فترى الكلاب مثلا التى تعمل غالبا بالاشتراك مع المهرجين تفوق سادتها (فيما يزعمون) فى الحيلة والدهاء دون أن تتأثر بالسلوك الهزلى العجيب الذى يبديه المهرج على الطرف الآخر من المقود .

بيد أن لبيئة السرك جانبا آخر : فهذه البيئة بكل ما تشتمل عليه من المنادين الذين يجذبون الناس الى الدخول فى السرك ، والداعين الذين يطوفون الشوارع للدعاية للسرك ، والعروض الجانبية ، والجماهير الحاشدة ، ومظاهر السرور الصاخبة والغامرة ، كل ذلك يوقظ فينا تيارات خفية من التجاوب ذات صبغة بدائية غريبة . ذلك أن السرك هو من الأماكن الحديثة القليلة التى يسمح فيها بالأعمال البدائية التى تجعلنا نسترسل فى الافتتان وابداء مظاهر الأعجاب بكل ما نشاهده من الأعمال العجيبة والغريبة ، والمضحكة ، والمرعبة ، دون أن نخشى الاستنكار من احد . فالى جانب الابتهاج الذى تثيره المناظر الخيالية الغريبة الملابس البراقة التى تبهر الأبصار ، والعروض البهلوانية التى لا تخطر على بال ، هناك الافتتان بالخطر والرعب الذى يثيره هذا العرض ، والذى يجذب الكثيرين الى أرض السرك . ذلك أن عروض نجوم السرك ليست عروضا رائعة فحسب بل هى أيضا مثيرة وأخاذة تعمد أصحاب السرك تصميمها على نحو يثير الرعب فى النفوس . وجدير بالذكر ان الفيلم التعبيرى الالمانى المعروف باسم « معرض دكتور كاليجارى » هو ايضاح نموذجى لهذا السحر الذى يعرضه السرك ، ومزيج من الاحلام والاوهام ، والجنون ، والرعب ، والسحر ، والموت ، مما يعكس نماذج فنية من مشاهد السرك . والواقع أن السرك يمثل ضربا من جنون الجماهير الذى تشترك فيه بعض المناظر العامة الأخرى مثل الاستعراضات والمجالدات الرومانية (التى تحولت بعد تهذيبها والسمو بها الى العاب الملاكمة ، والمصارعة ، وكرة القدم، والانزلاق ، والهوكى وما شابه ذلك منالالعاب التى يختفى فيها وميض العنف ويوشك أن يتحول الى ضرام فى بعض الاحيان) ومشاهد الاعدام العامة ، بل مشاهدالنيران وحوادث الشعب . ولاشك أن ألعاب مهرجى السرك تتضاءل أمام كل هذه المشاهد .

هذا والانتقال من عالم السرك الى الابعاد الروحية للكاتدرائية القوطية يتطلب تغيرا سريعا آخر فى المشهد ، بيد أن للكاتدرائية ــ كالسرك ــ جذورا فى بحر عميق من التجربة تمتد الى مدى بعيد وراء اطراد الحياة العامة ونظامها . ذلك ان الكاتدرائية تثير ما يمكن ان يسمى بالبيئة الميتافيزيقية وهى بيئة تتيح الاتصال بالوجود فى مظاهره المادية ، والاجتماعية ، والروحية .

ومن العسير علينا نحن الذين تغذينا بلبان الثقافة العلمانية والتكنولوجيا الاوربية التى اعقبت القرون الوسطى ، وما أفضت اليه هذه الثقافة من تقسيم التجربة الانسانية الى قطاعات منفصلة ، غير متصلة ، أن نتعرف تلك الوحدة الثقافية التى ترمز اليها الكاتدرائية شكلا وموضوعا . فالكاتدرائية بناء أثرى يمتاز

بالشموخ والهيبة والقوة ، ولكن هذا الصرح الأثرى ــ كما قال فيليب جونسون ــ صرح وظيفى على نحو غريب . فقد احتلت الكاتدرائية مكانا خاصا فى الوعى الاجتماعى ، ولكن كانت لها اهمية مباشرة بالنسبة للافراد ، فاذا جردناها من الرداء الدينى استطعنا أن نلمس المعانى الانسانية التى تنطوى عليها عندما ندخل من ابوابها ، لأنها مكان مقدس تظهر فيه طبيعتنا الروحية على حقيقتها دون ستار أو حجاب ، حيث يعمل كل شىء فى الكاتدرائية على تحقيق هذا المعنى .

وكأى أثر من الآثار ، ترتفع الكاتدرائية القوطية فوق سقوف المبانى المحيطة بها . ولما كانت تقع فى المركز وتبدو شامخة الذرى فانها لا تحتجب عن الأنظار ، ولا تغيب عن اذهان الناس . وكل من عاش بجانب الجبل يعلم أن وجود الجبل الدائم لا يفارق وعيه ابدا لأنه يستظل دائما بظله ، وهو يعرف أن الجبل قائم فى مكانه لا يريم ، وان لم تره النواظر . وعندما يخرج الانسان الى الخلاء فان الجبل يصبح هو البؤرة التى تتركز عليها الأبصار ، فالناس ينظرون اليه كما ينظرون الى الشمس ليعرفوا أحوال العالم . والكاتدرائية القوطية هى اثر من صنع الانسان ولكنها قمة يصعد اليها الانسان من الداخل والخارج ، ويصعد اليها بروحه كما يصعد اليها بجسمه .

والكاتدرائية ــ فى الداخل ــ ليست مجرد حيز داخلى ، بل هى بيئة شاملة انها ــ فى الواقع ــ بيئة تشغل جميع الحواس ، وتستولى على نفس المؤمن من جميع أقطارها . والكاتدرائية هى البيئة الأصلية التى تتعدد فيها وسائل الاتصال بشكل عجيب . وهى ــ من الناحية البصرية ــ تحيط الانسان بأماكن معتمة بعضها واسع ومكشوف ، وبعضها منخفض ومغشى بالظلام ، تتخللها أشعة ملونة من ضوء الشمس ، أو تتوهج بهالة من نور الشموع . وان النوافذ المزدانة بالحلى والجواهر ، والصور والتماثيل الكثيرة العدد ، والنقوش التى تعلو المذبح وتوجد خلفه ، وكراسى الاعتراف وغيرها من التحف الفنية والمصنوعات الجميلة ــ كل ذلك يعطيك صورة من « المدينة السماوية » . والى جانب حاسة البصر ، تدخل حاسة اللمس فى « الكاتدرائية » أيضا ، لا باعتبارها من لوازم وتوابع حاسة البصر ، بل باعتبارها حاسة قائمة بذاتها . ويتجلى أثر هذه الحاسة فى خشونة ملمس المقاعد بسبب كثرة الايدى التى لمستها ، وفى عدم استواء الأرضية الحجرية بسبب الاقدام الكثيرة التى دامت عليها . ثم أن وسائل منع الصوت والصدى تساعد على تكبير الترانيم ونغمات الارغون ، وهو الالة الوحيدة التى تتناسب فى مدى وحجم أصواتها مع الأعماق الكبيرة للاماكن الداخلية فى الكنيسة . ولا يقتصر الأمر على حاستى البصر واللمس ، بل أن لحاستى الذوق والشم دخلا فى الكاتدرائية أيضا ، وذلك فى العشاء الربانى المؤلف من الخبز والخمر ، وفى رائحة البخور التى تفوح فى بطء وريث . يضاف الى ذلك أن الطقوس الكنسية الأنيقة تضم كل ذلك فى عرض رائع حافل بالمشاهد المثيرة .

بيد أن الكاتدرائية ليست بيئة حسية فحسب ، بل هي أيضا مستودع للمعاني الروحية فهي ــ في وقت واحد ــ معبد ، وضريح ومستودع ، ومصلى ، ومكان مقدس تغمر فيه الانسان معان لا يمكن التعبير عنها ، ويعبد الها لا تدركه الأبصار ، هنا يرى الانسان كنوزا من الاماني التي تجمعت على مر القرون ، ومآسي انسانية يجددها المتضرعون الى الله في كل حين ، وانك لتقابل كل هؤلاء متى وطئت قدماك أرض الكاتدرائية .

هنا اذن بناء يستولي على الانسان من جميع اقطاره . اننا حين ندخل الكاتدرائية نصبح مثل كواسيمودو ، أحد شخصيات فكتور هوجو ، اذ نجد أنفسنا في كنف كاتدرائية هي بيتنا ، ووطننا وعالمنا (1) اننا نجد أنفسنا بين جدران عالم من الاسرار والخوارق يمتزج بمعان تسمو على مداركنا ، ولكنها لا تسمو على تجاربنا . هنا عالم ينقلنا الى حالة أسنى ، ومعنى أسمى ، عندما نذهب بأنفسنا ونقترب من عالم السماء المجيد . والحق أن الكاتدرائية ــ في مدى قوتها وسعة معناها الانساني ــ هي احدى العجائب التي أبدعتها يد الانسان !

***

ولنتكلم أخيرا (وبأختصار شديد) عن آخر حلقة في هذه السلسلة من البيئات ، وأعني بها غروب الشمس . ويمكن القول بأن الاتصال بالوجود في البيئة الميتافيزيقية للكاتدرائية ينتقل بنا بسهولة الى الحديث عن البيئة الكونية (العالمية) لغروب الشمس . والحق أن هناك كثيرا من أوجه الشبه بين البيئتين .

فغروب الشمس يلفنا في أوسع بيئة ممكنة ــ بيئة تستخدم حركة الكواكب والزمن السماوي لايجاد بيئة تولد الشعور بالعجب والرهبة ، وغروب الشمس يجرنا الى بيئة ذات أبعاد عالمية ، شأنه في ذلك شأن الشروق ، وهو العنصر المتمم للغروب ، وليس هو النقيض الدقيق له . وعلى الرغم من اننا نفهم سبب الغروب جيدا ، فان شعورا بالرهبة يخالج نفوسنا حين نشاهد ما يحدث . ولم يؤد السفر للفضاء الى الاقلال من هذا الشعور بل ــ على العكس ــ لقد زاد منه لأننا قد استطعنا أن نشاهد في هذا السفر حركة القمر والأرض . ولذلك فاننا حين نشاهد غروب الشمس نشعر بأننا نشارك في هذا العمل .

---

(1) لقد كانت الكاتدرائية (كاتدرائية نوتر دام بباريس) بالنسبة لكواسيمودو . عبارة عن « بيضة ، وعش ، ومنزل ، ووطن ، وعالم » على التوالي . وفي وسع المرء أن يقول أيضا انه تقمص الكاتدرائية على نحو ما يتقمص الحلزون محارته أو صدفته . لقد كانت الكاتدرائية هي منزله ، وجحره ، وغطاءه .. فقد كان ملتصقا بها التصاق السلحفاة بغطائها الخارجي الواقي . ولذلك كانت الكاتدرائية بمثابة درعه الواقي . ولست بحاجة لأن اذكر القارىء الا يأخذ العبارات المجازية التي ذكرتها هنا بمعناها الحرفي ــ تلك العبارات التي اضطررت الى استعمالها هنا لأعبر عن الصلة الوثيقة المباشرة التي تربط بين الانسان وأحد المباني .

وان غروب الشمس ليخلق لنا ـ كما تخلق الكاتدرائية ـ آفاقا عظيمة ، وهو يحدونا الى البحث عن موقع ممتاز نستطيع منه مشاهدته دون عائق . ولا يشمل هذا المشهد الأفق الغربى فقط ، بل يشمل أيضا الأفق الشرقى الذى يخيم الظلام عليه ، كما تخيم غياهب الغيوم فوق الرءوس . هنا نرى فيضا من الأضواء ، وهنا يغير الضوء اتجاهه كما يغير اللون درجته ، منتقلا من اللون الذهبى الى الوردى الى الارجوانى الشاحب ، الى الارجوانى الرمادى ، كلما تحول الضوء من مصدر فوق الأفق الى مصدر أدنى منه . ومرة أخرى أقول اننا نحس ـ كما نحس فى الكاتدرائية ـ بصمت رهيب يخيم على الطبيعة والانسان ويصاحب هذا الحدث السماوى . فنحن نقف امام حدث جرى على سنن ثابت مطرد على مر الادهار ـ والاعصار ، قبل أن يبرز الانسان الى الوجود على سطح هذا الكوكب . انه حدث أساسى لابس الحياة كلها منذ وجودها ، وشهده كل مخلوق ، كما شاهده كل انسان حديث وقديم منذ أن أصبح فيه نفس يتردد ، وعرق ينبض ، وقلب يخفق . هنا تتجمع أحقاب الزمن ، مع الفضاء النجمى ، مع الحركة الكونية . والحق أنه اذا كان وجود الله يثير الخشية فى نفوسنا ، فان وجود الكون يطغى على كياننا ، ويستولى على مشاعرنا .

(٣)

والان فلنرجع الى الوراء لنستحضر شيئا من تجربة هذه البيئات المختلفة مما ينعكس أثره على ما يهمنا فى المقام الأول الا وهو المدينة . واحب أن استعرض ما يمكن الاستفادة به فى دراسة البيئة والتجربة الحضرية من كل من بيئات التجربة الانسانية هذه : البيئة الوظيفية للسفينة الشراعية ، والناحية الخيالية للسرك ، والبعد الميتافيزيقى للكاتدرائية ، والطابع الكونى لغروب الشمس . والحق أن اى بيئة من هذه البيئات الأربع هى نموذج لبعض من أبعاد المدينة يمكن اغفاله فى غمرة ما يطغى على المدينة من ضروب النشاط ، والاضطراب والضغط ، والتوتر ، والاخطار . والحق أيضا أن كل بيئة من هذه البيئات تضىءأبعاد البيئة الحضرية التى يغفلها الناس غالبا كما يمكن أن تستخدم الوضع مقاييس عامة ودقيقة لتجميل المدينة على نحو أسمى وأرقى .

ولم يعد اليوم من غير المألوف أن ينظر الناس الى المدينة على أنها بيئة وظيفية . بيد أنه يجب أن يتضمن معنى الوظيفة ما هو اكثر من المصلحة والمنفعة العملية كأن تراعى الاعتبارات المتعلقة بالحركة والزمن والادراك الحسى فى المناقشات التى تقتصر عادة على الناحية المكانية دون مراعاة الناحية الانسانية . فالمدينة ليست مجرد مكان لمجموعة من الاشياء . انها معدة للكائنات البشرية لأداء الأنشطة الاجتماعية على مستوى معين من الكثافة ، وعلى مستوى معين من التعقيد ، وهكذا يتضح أن البيئة الحضرية عملية ديناميكية لا استاتيكية ، بمعنى أنها تضم شبكات معقدة من الحركات المتوازية والمتعارضة : شبكة لنقل المشاة والعربات من اجل سهولة تنقل الافراد ، تتألف من الدراجات والدراجات البخارية (الموتوسيكلات) ،

والسيارات ، والحافلات (السيارات العمومية) وعربات الترام ، والأنفـــاق ، والمعديات ، وشبكة للتوزيع تتألف من الشاحنات (سيارات نقل كبيرة) والقطارات، والسفن ، وشبكة للاتصال تتألف من البريد ، والمذياع ، والتلفاز ، والصحف والمجلات ، وشبكة للتعليم والثقافة تتألف من المدارس والمكتبات ، وقاعات للحفلات، والمتاحف ، وصالات العرض (للآثار الفنية) ، وشبكة لتصريف المنتجات تتـألف من المخازن العامة ، والمحلات التجارية ، وشبكة للخدمات تتألف من مراكـــز الاصلاح ، والمرافق العامة ، ونظام المجارى ، وجمع القمامة . يضاف الى ذلك كله أن المدينة هى بيئة لمزاولة العديد من الانشطة الانســانية من انتــاجية ومحليــة ، وترويحية ، وثقافية .

وفضلا عن ذلك ، لا نستطيع ان نفهم وظيفة المدينة على حقيقتهــا دون أن نعرف أهمية الزمن فى حركتها الداخلية ، فالزمن هو الذى ينسق الانماط اليوميــة للانتقال من والى العمل ، والمدرسة ، والمحلات التجارية ، كما ينسق الـــدورة الاسبوعية للعمل والفراغ ، والدورة الموسمية للاقامة والترويح والسفر ، والى كل ذلك يجب أن يضاف الزمن التاريخى ، اى تذكر الازمان الماضية فى أوجــه الاستعمال التى انتفع بها السكان القدامى – كأن تتذكر ان الممرات الهنديــة فى الطرق الوعرة قد تحولت الى شـــوارع وطرق مرصوفة ، وأن المعابد الوثنية قد تحولت الى كنائس مسيحية ، وربما تحولت الى متاحف أو مبان مدنية . وكذلـك يتجلى الزمن المستقبل فى الاقتراحات الخاصة بالتغييرات الـواردة فى الخطط والمشروعات الكبرى وتقارير لجان التخطيط ، وهذه التغييرات هى عمليـــات مستمرة من اعادة البناء ، واعادة التنظيم واعادة التشكيل فى البيئة الحضرية .

اكثر من ذلك أن الوظيفة النموذجية للسفينة الشراعية تذكرنا أن الانســان يحتل مكانا رئيسيا باعتباره مرجعا ماديا لتطوير المنشآت والمبانى ، ومراعاة النسب المعمارية فى البيئة . وقد عرف المهندسون المدنيون ذلك منذ زمن طويل ، اذ حاولوا اقتباس النسب الواجب مراعاتها فى فن العمارة وتخطيط المدن ، من مضـاعفات أبعاد الجسم الانسانى ابتداء من المهندس المدنى الرومانى مركوس فتروفيوس بولبو الى البرتى ، ولى كوبسييه . ولذلك يجب أن تعكس فكرة الوظيفة الاحتياجـــات والقدرات الانسانية الخاصة بالتجربة . وهذا هو السبب فى أنه يجب على المهندس المدنى أن يراعى فى تصميم المدن – بقدر ما – الحجم الانسانى ، واتاحة الظـروف المناسبة لكى يحيا الانسان حياته الخاصة فى راحة تامة ، ويعيش فى بيئة تتســم بالجمال والبهاء . هذا وتصميم المدن هو – فى التحليل الاخير – تخطيط محلى . ولكى ينجح هذا التخطيط فى توفير المكان الذى يصلح ان يكون منـزلا يجب أن يهدف الى تكميل الانسان لا الى اعاقة نموه ، والتضييق عليه ، واغراقه فى حمأة الشقاء .

والعامل الحاسم فى توفير بيئة حضرية ذات أبعاد انسانية هو القدرة على تحديد الأحوال التى تشكل الأنماط « الحسية » لحياة المدينة . ولذلك يجب – الى

جانب مراعاة الأبعاد البنائية والانشائية التى تتفق مع مطالب الشكل الانسانى ـ ان تكون البيئة « محسوسة » أى مريحه ومقبولة بالنسبة لسائر الحواس . ولهذا السبب لا يجوز أن يقتصر التصميم المدنى على ترتيب الأشياء فى البيئة بل يجب أن يستخدم فى خلق سلسلة من التجارب والمشاهد المتتابعة . ويمكن أن يتحقق ذلك بأشكال عدة : أحدها ما يسميه كفين لينش « سهولة تصور المدينة » أو « وضوح المدينة » . والمقصود بذلك هو السمات المرئية التى يهتدى بها الانسان الى معرفة موقعه فى مجموعة مبانى المدينة ، بحيث يتسنى له أن يتبين طريقه فيها بسهولة . وعلى ذلك فالمراد بالمدينة « التى يسهل تصورها » أو المدينة الموصوفة بالوضوح هى المدينة التى تتضح فيها الطرق ، ونقط التقاطع ، والأقسام ، والحدود، والمعالم بحيث يعرفها الانسان بسهولة . بيد أن البيئة المحسوسة تتجاوز المشاهد الخاصة بحاسة البصر لتشمل التجارب والمشاهد الخاصة بالحواس الأخرى . ومن الغريب أن الحضارة الأمريكية تتجاهل هذه الامور بشكل غريب . ففيما يتعلق بحاسة السمع يجب أن تخلو المدينة من الاصوات المؤذية لحاسة السمع كأزيز عربات النقل فى الشوارع ، وزئير الآلات فى المصانع . وفيما يتعلق بحاسة اللمس يجب أن تكون الطبقات السطحية للطرق ، والارصفة ، والواجهات حسنة اللمس . وفيما يتعلق بحاسة الشم يجب أن تخلو المدينة من الروائح الكريهة المنبعثة من احراق الوقود ، والمصانع ، والاسواق ، والمطاعم ، والمتنزهات . وفضلا عن ذلك يجب أن تشترك الحواس كلها فى جميع المواقف التى تتطلب الادراك الحسى وذلك عندما نقود العربات فى الطريق ، أو نمشى فى منتزه أو نتجول فى سوق أو نجلس فى ميدان ، أو نشرف على مدينة من أحد أبراج المراقبة . ويجب أن يقوم التخطيط بدوره كاملا فى تشكيل التجارب والمناظر الجوهرية والثانوية .

وهكذا نجد أن اكتمال المنبهات الحسية يساعد على توجيه النشاط الانسانى، ويتيح للانسان التنقل فى راحة وأمان ، كما يتيح له السير فى متعة وابتهاج خلال بيئة هيئت لتكون نموذجا طيبا للوظيفة الانسانية . وحينئذ يتضح أنه لكى تصبح البيئة بيئة انسانية يتعين أن تكون صالحة للتجربة الحسية ، وأن تيسر طرق التنقل طبقا لما يروق الحواس . وهذا لا يجعل المدينة تعمل بكفاية فحسب ، بل أنه يعلى من شأن الرموز والمعانى والذكريات المشتركة ، ويهيىء أسباب الأمن العاطفى ، ويساعد على توفير تلك الاحوال الاجتماعية التى قال أرسطو منذ زمن طويل أنها تجعل الانسان انسانا كاملا .

واذا قارنا بين الجسم الانسانى وغيره ، اتضح لنا بكل جلاء أن الناس على اختلاف ثقافاتهم مضطرون بمقتضى حاجتهم للغذاء ، والتناسل ، والوقاية ، الى تغيير البيئة كما هم مضطرون الى التكيف معها . وبالضرورة لا يستطيع الناس أن يأخذوا من البيئة سوى النزر القليل اذا تركوها على حالها . ولذلك فان تغيير البيئة ليس محلا لاختلاف الرأى وانما محل الخلاف هو كيف يكون هذا التغيير لكى نصنع بيئة انسانية ؟ ومع ذلك فقد تدهش اذا علمت أنه ما من نظام اجتماعى يهتم

بالحياة المادية ويقتصر على تدبير شئون المنزل فحسب . فمهما نجحت البيئة فى هذه الشئون فانها لن تصبح بيئة انسانية حتى تتوافر فيها الاحتياجات الثقـافية كما تتوافر فيها الاحتياجات المادية . وفضلا عن ذلك فان المظاهر المادية والثقافية للبيئة ليست امورا اضافية . ولذلك فاننا سنعمد الى النماذج البيئية التى ذكرناها فنتحدث عنها باختصار ، لان ذلك يساعدنا على تحديد مجالات التجربة الثقافية التى يتعين توافرها ، واقتراح بعض الوسائل لتحقيقها .

ان البيئة الخيالية التى يمثلها السرك توضح لنا مدى الثقافة الحضرية . فهذا النموذج الجمالى الذى يعرض فيه كل ما هو غريب وعجيب وكل ما لا يخطر على البال يدل على أن البيئة التى يطلق عليها اسم المدينة تتيح فرصا لمثل هذه المشاهد والتجارب . وقد توافرت فرص من هذا القبيل فى حياة المدنية التقليدية ، فمتاحف الفن ، ودور السينما ، والمكتبات ، والمسارح ، والملاعب ، وصـالات الحفـلات الموسيقية وأرض الاسواق والمعارض والمتنزهات كلها وسائل نموذجية لتلبية مطالب الخيال . والنقص فى هذا المجال لا يتمثل فى نقص المنشآت ، وأن كان الكثير منها كالمسرح والباليه والأوبرا مقصورا على بعض الطبقات الاجتماعية ، ومتاحا لعدد قليل من الناس ، او مخصصا كالمتاحف والحدائق لاغراض الحفظ ، والصيانة ، والعرض ، بدلا من اتاحة الفرصة لمشاهدة الغرائب والعجائب والخيالات .

ويجب ان يلبى تخطيط المدينة هذه الحاجة عن غير طريق المنشـآت ، وذلك باتاحة الفرصة لهذه المشاهد فى صميم كيان المدينة ذاته . ولذلك يكمن عـالم الخيال بالمدينة ، فى كل مظهر غريب وأخاذ تقع عليه العين فى الشوارع والمبـانى والمحلات التجارية . والواقع أن المدينة ذات الصبغة الانسـانية ليست هى المدينة الخاضعة لتخطيط منطقى يتمشى مع أحكام العقل ، فهناك كما قال (بول جودمان) حد قانونى للتخطيط ولو كان على حساب الكفاية و « فضل» الحلول . ولذلك يقترح الابقاء على الزوايا والاركان ، والاماكن المنعزلة والمظلمة فى البيئة التقليدية بـدلا من ادخال التحسينات عليها حتى تنطمس معالمها . ذلك أن المدينة التى تستهوى الخيال تتطلب وجود الازقة والحوارى والمنعطفات والمنحنيات التى نجد لها سـحرا وجاذبية فى الشوارع القروسطية ، كما تتطلب وجود الميادين الغريبة والنافورات ، والمطاعم ، والمحلات المندمسة فى الأماكن الغريبة ، والابراج الشاهقة التى يصـعد الناس عليها ، والحدائق الموجودة على السطوح ، والمتنزهات الواقعة على قمم التلال، والمناظر البانورامية (الشاملة العريضة) والمسرحيات والحفلات العامة التى تقام فى الشوارع .

والاضاءة من امثلة المصادر الجمالية الشاعرية التى قلما يستخدمها النـاس فى تجميل المدينة . فهذه الاضاءة يمكن استخدامها فى اضفاء الصبغة الدراميـة على المدينة بدلا من قصرها على تعرف الاماكن فى البيئة وتوفير اسباب الأمن فيها . ومن الممكن تحويل مبنى عادى تغمره الأضواء الى عالم غريب من النقوش البـارزة والظلال العميقة . ويمكن أن ينبعث الضوء من الداخل او الخارج ومن اسـفل أو

اعلى ، وان يكشف لنا سطوحا مستوية وزوايا ومناظر طبيعية ، ومياها ، ومجموعات من المبانى . ويظهر كل ذلك احيانا فى مشهد مكشوف أو فى منعرج مفاجىء من أحد الطرق . والحق ان الضوء يمكن أن يغير المشهد المألوف للمدينة كما يحدث عندما يغير أحد المناظر الجوية فى الليل كتلة المدينة الى رسم تخطيطى أو شبكة هشة من الرسوم المضيئة .

وهكذا يتسنى ـ بطرق يتحكم فيها الخيال والارادة اكثر مما تتحكم الفرص المتاحة انتزاع الطابع الخيالى للمدينة من تضاريسها الجغرافية كالبحيرات والتلال والأنهار ، ومن الصفات الغريبة لأحيائها وأعيادها ، ومن عرض السلع الغريبة والمحبوبة فى المناطق التجارية ، ومن تاريخها الفريد ، وغير ذلك من كل أمر غريب لا يخطر على البال . ويتطلب تحقيق هذه الغاية وجود مخططين ومهندسين مدنيين يدركون شاعرية التجربة وفائدتها .

هذا وتعد الكاتدرائية نموذجا مختلفا لتجميل المدينة ، وهى تؤيد القول بأن العمارة تمثل رمزا مرئيا للمثل العليا التى تستهدفها المؤسسة . ولما كانت مؤسساتنا الشهيرة قد تحولت من المظهر الدينى الى المظهر العلمانى (الدنيوى) فقد تحولت ضخامة الكاتدرائية الى ناطحة السحاب ، ففى حين يغلب على الكاتدرائية طابع العقيدة الدينية ، يغلب على ناطحة السحاب طابع المعرفة المادية . وهذه العمارة الشامخة المشيدة من الصلب والزجاج ترتفع بجرأة فى فوضى صارخة وسط العاصمة ، وهى ترهبنا بما ترمز اليه من سلطان المال والقوة والحجم ، بدلا من أن تهذب نفوسنا بالمعانى الروحية والأدبية التى رمزت اليها الكاتدرائية فيما مضى . بيد أن ناطحات السحاب التى تقوم فى قلب العاصمة الحديثة ترمز الى المدينة الصناعية بقدر مارمزت قبة برولنشى ، فى مدينة فلورنسا ابان عصر النهضة الى ما امتازت به هذه المدينة من القوة والثروة الارستقراطية . والحق أن ناطحة السحاب المعروفة باسم « امباير ستيت بلدنج » التى ظلت الى عهد قريب تمثل ـ دون مضارع أو منازع ـ أعلى عمارة فى مانهاتن كانت هى (المحور الواقى) (١) للحركة التجارية فى أمريكا .

على أن ناطحة السحاب الضخمة يمكن أن تكون أكثر من رمز للقوة القاهرة . انها يمكن أن تستجيب لحاجة الانسان لا لجشعه ، وذلك بتحويل الفراغات التى توجد بينها الى بيئة انسانية . فاذا أقيمت على ساحات تجذب المارة بما تزدان به من نباتات ، ومقاعد ، ونافورات ، وغيرها من وسائل الترفيه والتجميل التى تخفف من أثر الوحدة المعيارية لواجهتها ، واذا أقيمت ونظمت على هيئة مجمعات سكنية تتيح الاتصال والجاذبية عن طريق شكلها ونظامها واتجاهها ، أمكن ان تقف هذه الناطحات جانبا لتهيىء مكانا للمشاة وتندمج فى العالم الانسانى بدلا من اقحام هذا العالم

---

(١) المحور الواقى عبارة عن عمود مقدس كانت تحمله القبائل الاسترالية البدوية وتنصبه أينما حلت . وتقول الاسطورة أن المألوه اشلبا صعد الى السماء على هذا العمود ، وبذلك أصبح رابطة عالمية لكل من يؤمن به .

فى عالمها هى .. وفى هذا ما هو أكثر من محاكاة الكاتدرائية . وكل ما يحتاج اليه الامر هو يد « صناع » ، وبصيرة نافذة ، تعمل على تشييد العاصمة على نحو يتفق مع مطالب التكنولوجيا دون اغفال مطالب الانسان فى تيه الأبراج والممرات المنبثة على الأرض التى يقف ويسير الانسان عليها .

أكثر من ذلك أن الكاتدرائية من الاماكن التى يسهل معرفتها ، وهى معرفة مفقودة فى المدينة الحديثة غالبا . وليست هذه المعرفة مقصورة على معرفة المدينة بوجه عام ، بل تتحلى هذه المعرفة بكل وضوح فى الشعور بأن البيئة هى منطقة خاصة : أرضها مألوفة للانسان ومعروفة له بصفة شخصية والوحدة بين مبانيها وشوارعها تتحقق بحكم الارتباط المعتاد بين الأمرين ولذلك يتعرف الانسان عليها فى راحة ، ويتبين طريقه فيها بسهولة ، ويخفق قلبه بالحنين حين يذكرها . ولاريب أن كل شىء يعمل على تحقيق وحدة البيئة ويولد دفء العلاقة الشخصية معها من شأنه أن يحولها الى مكان نربط انفسنا بمعالمه ، ونشعر بالراحة فيه .

على أن نموذج الكاتدرائية يشير فى اكمل صوره الى أن معرفة المكان هى معرفة بشىء مقدس ــ مقدس لدى الفرد ، ومقدس لدى الجماعة . ولما كان من المضحك ومن غير اللائق أن توصف أماكن المدينة بأنها مقدسة ، لم تعد المدينة شيئا قيما وثمينا فى عين سكانها . بيد أن اهمية هذه الصفة ــ صفة القداسة ــ هى السر فى استمرارية الصلات الثقافية مع العصور القديمة ومراحل الحضارة المختلفة ، فمن الواضح أن الناس كانوا دائما ينظرون بعين القداسة الى بعض الأماكن ، وان ما نختاره نحن من هذه الاماكن لا يختلف كثيرا عما اختاره اسلافنا فى العصور الغابرة . ذلك أن الأماكن التى تجذبنا لمالها من اهمية خاصة غير محسوسة تتسم بطابع القداسة فالميدان الذى يلفت الأنظار لما له من صفة غريبة ، والجبل الذى نستطيع من قمته أن نطل على المنطقة المجاورة بأعيننا ، والايكة الملتفة الاغصان ، والغابة التى اجتثت منها الاشجار ، والاخاديد والوديان والوهاد التى يفوح منها عبير السحر ــ كل هذه الأماكن تتسم بطابع غريب يحملنا على الخشوع فنتكلم بأصوات خافتة ، ونمشى بخطى وئيدة . وهذه الأماكن خاصة فى اغلبها ، ولكن هناك أماكن عامة أيضا تتبوأ مكانة عالية لما تحظى به من قداسة وشهرة عامة : من ذلك المقابر ، والاضرحة التاريخية ، والنصب التذكارية الوطنية ، والميادين العامة المزدانة بالتماثيل والنافورات ــ كل هذه أماكن مقدسة حافلة بالمعانى الخفية التى نحس بها دون أن نفهمها ، والتى تشعرنا بالوشائج التى تربطنا بالماضى البعيد ، وتذكرنا باشتراكنا فى استمرارية الثقافة . والمكان المقدس فى أعلى درجاته يبعث الاحترام والمهابة فى النفوس ، ويضفى لونا من القدسية على كل من دخل فيه .

وماذا يعنى غروب الشمس بالنسبة للبيئة الحضرية ؟ صحيح انه حدث متعاقب لا شأن له بالأغراض البشرية ، ولكنه ــ فيما اعتقد ــ يمثل مظهرا جوهريا من مظاهر البيئة الحضرية قلما نلتفت اليه ، فهو يذكرنا أن المدينة ليست مكتفية بنفسها ولا قائمة بذاتها . وكما أن الرؤية المعمارية تنقلنا من المبنى الى البيئة ثم

الى تصميم المدينة باكملها ، كذلك المدينة لا يمكن اعتبارها وحدة كاملة بل هى تنقلنا الى ما يقع وراءها اى تنقلنا الى العالم الذى تقع هى فيه .

على أنه يجب علينا فى هذا الصدد أن ننأى بأنفسنا عن الاستمرار فيما جرت عليه العادة فى الماضى . وبيان ذلك أن المدن الحديثة قد تحررت عن بعض الوظائف والمهام التى اضطرت المدن القديمة الى الاضطلاع بها فبفضل التكنولوجيا الصناعية لم تعد المدينة قاعة محصنة لصد العدوان ، أو ملجأ يلوذ الناس به ضد الجوائح والكوارث الطبيعية . وان اختفاء هذه الاخطار او استحالة الوقاية الكاملة منها ، قد جعل من الممكن ، بل من الضرورى ، النظر الى المدينة على أنها امتداد للطبيعة ، وعلى أنها مستعدة للاستجابة لمطالب الثقافة الانسانية وكما أن فن العمارة يجب أن يستجيب للمؤثرات الجوية والمناخية ، كذلك البيئة الحضرية يجب أن تعلم أنها تعيش فى ظل الفصول المنتظمة وفى اطار السمات الجغرافية والاقتصادية لموقعها الطبيعى، وللاقليم الذى تمارس فيه حياتها ، وللنظام العالمى الذى هى جزء منه والذى لا يمكن أن تنفصل عنه فى العصر الحديث .

وليس معنى هذا أننا نؤيد القول بوجوب الاتصال والارتباط بين المدينة والريف . ذلك أن بعض المشكلات التى تعانيها الضواحى تنبع من أنها تحاول الجمع بين ثقافة المدينة ، وطابع المدينة الصغيرة وعزلة الريف . وغالبا ما يتم ذلك بحجة أنه يجب ان يكون للضاحية طابعها الفردى الخاص . ولذلك لا ندهش لما أصاب هذه الضواحى من فشل اجتماعى .

وربما يمكن الاستدلال بغروب الشمس على امكان الجمع بين الطابع الانسانى للمدينة والاعتراف بما لها من مكان فى سلسلة النظم التى تزداد شمولا فى مجالها واتساعا فى مداها على نحو يشبه كثيرا النظام الفلكى عند ارسطو الذى قال ان الأرض هى مركز الكون وان الشمس والقمر والكواكب والنجوم تدور حولها فى دوائر متحدة المركز . ان المدينة ليست متكاملة مع الريف بل هى — على العكس — تتكامل مع النظم الطبيعية ، وتستخدم قوى الطبيعة وسننها ، وأحوالها وفرصها وتستجيب لكل ذلك فى انسجام مثالى نستطيع أن نتصوره دون أن نلاحظه . وهكذا نجد أن الطبيعة جزء من بيئة عامة وشاملة — جزء من عملية تشمل أبعادا مكانية كبرى ابتداء من الصناعة الاقليمية الى الغلاف الجوى وأشعة الشمس . ان الحتمية الكونية لغروب الشمس هى دليل ملموس على تلك العمليات الثابتة التى تؤثر فى التكوينات الطبيعية للأرض كما تؤثر فى المحيطات والجو والفضاء . وان معرفة ذلك كله قد تؤدى الى زيادة وعينا بقصة المدينة وقوتها ، فلا نعود نراها ملاذا من قسوة البيئة الطبيعية وتخلف وجهالة الريف الغريب ، بل نراها زهرة من زهرات الحضارة تضرب جذورها فى أعماق الأرض ، وتزين أوراقها أديم السماء .

ولهذه الطائفة من النماذج التى اتينا على ذكرها أثرها الهام فى فهم طبيعـة التخطيط الواجب مراعاته فى انشاء المدينة . وما هذه النماذج سوى مقاييس يهتدى بها فى هذا التخطيط ، وأمثلة للملامح التى يتسنى بها تحويل البيئة الحضرية الى بيئة يستطيع الناس فيها أن يعيشوا فى رخاء لا فى صراع من أجل البقاء . وقـد وجدت هذه الملامح فى البيئة حتى الآن بطريق الصدفة ، لا بطريقة مخططة طبقـا لمنهج مرسوم . ولاريب أن فهم طبيعة هذه الملامح وهدفها لا يساعدنا فقط على تخطيط المدينة ، بل يساعدنا ايضا على تهيئة الظروف التى تمكن هذه الملامح من أن تتجلى من تلقاء ذاتها . وعلى الرغم من أننا درسنا بعض هذه الملامح ، فان النماذج التى ذكرناها تتضمن من هذه الملامح ما هو اكثر مما ذكرناه . بيد أن هذه النماذج باعتبارها نبراسا يستضاء به ليست ذات قيمة فى حد ذاتها ، وانما قيمتها الوحيدة فى الاستئناس بها فى اخراج الطاقة الجمالية والادبية للمدينة من حيز القـوة الى حيز الفعل .

وعلى الرغم من أن الناس قد تكيفوا بشـكل عجيب مع الحيـاة الحضرية والصناعة ، ونشروا هذا النمط من الحياة الاجتماعية على نطاق واسع ، فقد ترتب على ذلك نتيجتان هامتان : أولاهما ظهور البوادر الدالة على احتمال فقدان المدينة بضرورتها الاقتصادية . ذلك أن التغييرات التى طرات على أنماط الانتاج والاستهلاك قد أدت الى لامركزية الكثير من الصناعات وسهولة الحصول على السلع عن طريق الطلبات البريدية ، والاسواق المجاورة ، وأسواق الضواحى وغيرها من المصـادر المحلية والمناسبة ولهذا انتفت الحاجة الى وجود المدينة كمركز لتوفير فرص العمل والسلع . اكثر من هذا أن الاتصال المادى بمراكز المعلومات ، مثل قاعات الاجتماعات والاسواق ، ومكتبات المراجع لم يعد ضروريا بعد أن أمكن تثبيت أجهزة طرفيـة للكمبيوتر فى مراكز تخزين المعلومات واسترجاعها وبعد ظهور النظم الجديدة فى تسليم الكتب ، وصدق الصحف الواسعة الانتشار فى الاقاليم ومجلات الأنبـاء القومية ، والمذياع ، والتلفاز .

واذا لم تعد المدينة ضرورية لتلبية الاحتياجات الاقتصادية فى عالم صـناعى متقدم ، فماذا بقى من المبررات التى تزكى وجودها ؟ نقول : انه على الرغم من أن المدينة لم تصبح ضرورية ، فانها لاتزال مطلوبة لما تهيئه من الظـروف والاحـوال الاجتماعية والثقافية التى لا يمكن أن تتوافر فى أى مكان آخر . وهنا يمكن أن تكون النماذج التى ذكرناها ذات قيمة كبيرة فى بيان الامكانيات الحضارية للمدينة ، فهى ـ أى المدينة ـ تستطيع أن تبقى ـ أو تصبح بطريقة واقعية ـ عاملا قويا فى نشر الصبغة الانسانية بما تتيحه من فرص عديدة ومتنوعة لانطلاق ملكة الخيـال ونشر الثقافة مضافا اليهما نظرة تجمع بين كل ضروب النشاط الانسانى ، والنظام العالمى .

ومن الموضوعات الملحة التى دأب كثير من الكتاب على تناولها ، موضوع يتركز حول أهمية التنوع وضرورته لبقاء النوع الانسانى وبقاء الحضارة ، واشباع الحاجات الأدبية الخاصة . وهذا يؤدى بنا الى الكلام عن النتيجة الثانية للتكيف مع الحياة الحضرية والصناعية ألا وهى التجانس الثقافى والاجتماعى ، وانتشاره بصورة شاملة . وعلى الرغم من أن هذا التجانس يتيح سهولة معينة فى ادارة الانتاج الكبير والاستهلاك الكثير ، والسكان الكثيرين ، فان تجانس النوع الانسانى يحول دون التكيف البيولوجى والثقافى مع التغييرات التى تطرأ على أحوال البيئة (١) . أكثر من ذلك انه اذا كان البقاء البيولوجى قد لا يتأثر فى المدى القصير ، فان مسألة التكيف لا يمكن أن تتجاهل عامل السعادة الانسانية ، وبادخال ذلك البعد الأدبى يتغير معنى التكيف ذاته (٢) . وهذا يحمل بعض البيولوجيين امثال رينيه دوبوا على المطالبة بضرورة التحول من التجانس الانسانى الى التنوع الواسع فى البيئة التى يصنعها الانسان بيديه ، قال « ان تنوع البيئات الاجتماعية هو مظهر هام من مظاهر وظيفة المدينة سواء فى تخطيط المدن أو تصميم المساكن أو ادارة الحياة (٣)

واذا صرفنا النظر عما تنطوى عليه النماذج المذكورة من معانى الجمال ، وجدناها تتضمن بعض اشكال التنوع الذى نرجو أن نراه فى البيئة الحضرية :

ـ تنوع الادراك الحسى ، تنوع النشاط ، تنوع المعانى . وفى مثل هذا التنوع نجد امكانيات كثيرة للنجاح البيولوجى ، وأهم من ذلك امكانيات كبيرة للنمو

---

(١) انظر كتاب « الغابة والبحر » لمؤلفه مارستون باتس ، الفصل ١٦ (وبخاصة ص ٢٥٣ ؛ ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٨٢) حيث قال « وهكذا تؤيد جميع المبررات الاخلاقية ، والجمالية ، والنفعية ، ضرورة الحفاظ على تنوع الطبيعة ، وهذا هو الامر الواجب عمله من الناحية الادبية لأنه يتيح للاجيال القادمة تجربة أغنى وأوفى مما لا يمكن اتاحته بوسيلة أخرى ، كما انه يحول دون وقوع كارثة بيئية » أ.هـ .

(٢) ..الانسان يتكيف بشكل عجيب مع المجتمعات الحضرية والصناعية ، ويتزايد السكان فى هذه المجتمعات باستمرار ، وينشرون التحضر والصناعة فى أرجاء واسعة من الارض يوما بعد يوم . واذا علمنا ان الانسان الحديث يقع باستمرار فريسة للاضطرابات المزمنة الناجمة عن الأساليب التى يتبعها فى حياته ، وأن المنجزات التكنولوجية لا تساعد كثيرا على توفير أسباب السعادة له ، وجدنا أن هذا الفشل قليل الاهمية من الناحية البيولوجية المحضة .. وان مشكلة السعادة لا تظهر فى هذا المجال الا عندما يتحول الاهتمام من المظاهر البيولوجية المحضة للحياة الى المشكلات المعقدة المتعلقة بالقيم بالقيم الانسانية . لذلك يجب عند تطبيق مفهوم التكيف على الانسان ان نستخدم معايير تختلف عما يستخدم فى علم البيولوجيا العام » رينيه دوبوا فى كتابه « صلاحية البيئة الانسانية » ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .

(٣) وفى نفس المصدر أيضا « من الواضح أن التجانس الثقافى والاجتماعى الناجم عن الثقافة التكنولوجية التى تسير على وتيرة واحدة ، وطرق التعليم الموحدة ، وانماط الاتصال الجماهيرى الواحدة ، يحول دون استغلال الثراء البيولوجى للنوع الانسانى كما أنه يهدد بقاء الحضارة ، لذلك يجب علينا أن ننبذ تجانس البيئة بقدر ما ننبذ تجانس السلوك الانسانى ، وان نعمل على خلق البيئات المتنوعة» . ويقول ديفيد لونثال : من تناقض المخططين أنهم فى الوقت الذى يمتدحون فيه فكرة التنوع ، يتبعون التجانس والوحدة فى التصميم، فتراهم يبنون احيانا نماذج ناجحة جدا من الناحية الفنية ولكنها خالية من مظاهر الجمال الى حد يثير الاشمئزاز ، كما أنها تقع فى أماكن غير مناسبة » .

الاجتماعي والثقافي . يقول جون بوشرد في كتابه « الانسان والمدينة الحديثة » : «ان جوهر المدينة المثالية هو اتاحة الفرصة لعدد كبير من الافراد الذين يقيمون فيها لممارسة حياة فردية خصبة اذا ارادوا و .... ان تكون المدينة الانسانية ذات طابع فردى ، وبذلك تكون لها اهمية عميقة من حيث توفير الامكانيات الأدبية للحياة الاجتماعية ، فتجعل الحياة ميسورة في بيئة توفر أسباب السعادة ، وذلك بخلق حضارة تشجع النمو ، وتوسع أفق الوعى الانسانى.

بيد أن المدينة لا توفر الامكانيات الأدبية فحسب بل توفر أيضا امكانيات جمالية تضارع تلك في شمولها وأهميتها وضرورتها . والواقع ان احدى الحقائق الرائعة التى كشف عنها هذا البحث هى ان خلق بيئة انسانية معناه خلق بيئة جمالية . واذا نظرنا الى البيئة الحضرية برمتها اتضح لنا أن المدينة ــ فى مجلاها الأتم ــ تجمع بين كل العوالم الأربعة التى ذكرناها : العالم الوظيفى ، والعالم الخيالى ، والعالم الميتافيزيقى ، والعالم الكونى ، وكل هذه العوامل تعمل معا فى تفاعل مثمر . ولا شك أن البيئة التى تحول ملكات الانسان الحسية واحتياجاته وقيمه الى شبكة وظيفية من الأبعاد الانسانية ، والتى تستجيب لمطالب الخيال ، والتى ترمز الى مثلنا الثقافية ، وتثير فينا الفهم الصامت ، والتى تمكننا من تعرف نسبة الانسان (العالم الصغير) الى العالم الاكبر ، والتى توسع ــ باختصار ــ من مدى وعمق وحيوية التجربة المباشرة ــ أقول : ان مثل هذه البيئة الحضرية هى فى الوقت نفسه بيئة جمالية .

وهكذا يجتمع الجانب الأدبى والجانب الجمالى . ومن مزايا البيئة الانسانية أنها تجذب اهلها الى الحياة عن طريق النشاط المتناسق الذى يعلى من قيمة التجربة فى البيئة الكلية . وبهذا التكامل بين الانسان والبيئة تتحقق أعلى درجة من الوظيفة الجمالية . ومتى توافرت هذه الشروط تم الوصول الى التفاعل بين الفن والحياة ــ ذلك التفاعل الذى كان ولايزال هو الباعث الخفى لمعظم الفنون ، والهدف الواضح لكثير من الفنانين المعاصرين .

ومعنى ذلك أن تحليل تجربة البيئة تؤدى الى هذين البعدين المعياريين على السواء . وعندما تتضمن البيئة الحضرية التنوع الانسانى الذى تدل عليه النماذج الأربعة ، فانها تعيد صياغة الاطار الشامل للتجربة وبالتالى صياغة التجربة ذاتها . وعندما نضفى على البيئة معنى الجمال فاننا فى الواقع نضفى عليها المعنى الجمالى والمعنى الأدبى معا . وقد توقع « ثورو » بوعيه الحساس الجمع بين هذين المعنيين فى البيئة حيث قال :

« ان القدرة على تصوير صورة أو نحت تمثال ، وبذلك نضفى معنى الجمال على أشياء قليلة هى فى حد ذاتها امر رائع ، ولكن أروع منه تصوير ونحت نفس الجو والوسط الذى ننظر من خلاله . والواقع أن القدرة على تغيير نوعية الأشياء هى أسمى درجات الفن » اهـ .

يتضح لنا مما تقدم اننا نستطيع أن نصوغ تجربة البيئة بطرق عدة . واذا القينا نظرة شاملة على النماذج الاربعة وجدنا أنها تتعارض مع القول بأن الجمال هو جمال المظهر فقط كما انها تتنافى مع القول بأن البيئة شيء غريب عن الانسان ، يضمر له العداء بحيث يجب أن نحمي انفسنا منه بالانزواء والعزلة . والحق أن النماذج الأربعة تمثل سمات الجمال الجديد الذى بدأ مقالنا بالحديث عنه الا وهو الصلة الدائمة بين الفن والحياة ، والطابع الديناميكي للفن ، والوظيفة الانسانية للعمل الجمالي . واذا جمعت البيئة بين المعنى الجمالي والمعنى الأدبي ، اظهرت لنا الصلة المستمرة بين الفن والحياة . وحينئذ نستطيع أن ننظر الى المدينة نظرة شاملة على مثال المناظر الجوية التى صورها « دوبافيه » ، فنرى أن المدينة مجموعة من الأماكن ، والكتل ، والاحجام ، ومجموعة من الخطوط الكنتورية (المحيطية) الجغرافية ، والخطوط التى تفصل بين الاماكن المتجاورة ، وشرايين النقل والمواصلات ، ومناطق خضراء من الأشجار والبساتين ، ومنازل ومساكن ذات ألوان شتى ، وصور منعكسة من البحيرات والنافورات ، وأسطح الطرق والشوارع والمباني . وربما كان هذا بداية لتحقيق نبوءة « موندريان » بأنه سيأتي الوقت الذى ينتهى فيه « الفن كشيء منفصل عن البيئة التى هى الواقع التشكيلي الفعلي (١) . ولكن هذا يمكننا أيضا من النظر الى المدينة على أنها بيئة ديناميكية للنشاط الانساني ، وانماط الحركة الاجتماعية ، والتجمع فى العمل واللعب ، وفى دور العبادة ومغاني الغرام . واخيرا فاننا اذا خلقنا بيئة حضرية تجمع بين ما هو عملي وما هو جمالي ، يتحقق فيها الوعي كما تلبى فيها الاحتياجات ، كانت وظيفتها أكمل ما تكون ، وكانت أوثق اتصالا بالمعاني الانسانية ، وكان الحكم الجمالي المستنير اداة اجتماعية نحو هدف أدبي .

---

(١) كل من الفن والحياة يزيد الاخر اشراقا وسناء ، يوما بعد يوم ، ويكشف كل منهما عن عن قوانينه التى تساعد على خلق التوازن الحقيقي .



* المقال فى كلمات

** مشكلة الأغذية والتغذية من أهم المشاكل العالمية الاقتصادية والبشرية فى السبعينات ، يهتم لها الافراد ، والمنظمات المحلية والدولية ، والحكومات ، وتخطط لها البرامج ، وتنعقد من أجلها الندوات والمؤتمرات ، وتجرى بشأنها الأبحاث العلمية والتجارب العملية .

وفى هذا المقال بحث تحليلى لأسباب هذه المشكلة ، عرض الكاتب فيه بشىء من التفصيل تاريخ الانتاج الغذائى منذ التاريخ القديم ، مع التركيز على زراعة النجيليات ، من ذرة ، وقمح ، وأرز ، والبقول وبخاصة فول الصويا ، ثم مصادر البروتين من لحوم الماشية والدواجن ، ومنتجات الألبان ، ومصايد الأسماك .

وكان اقتصاد الغذاء العالمى متزنا ، وافيا بحاجة سكان العالم كله الى الغذاء ، بالاضافة الى كميات كبيرة من الحبوب

الكاتب : لستر . ر . براون

رئيس معهد (ربرلدورتشي) حائز على درجات علمية فى الزراعة ، والاقتصاد ، والادارة العامة من (رونجوز) جامعة ميريلاند وهارفارد . اخصائى زراعى بوزارة الزراعة بالولايات المتحدة منذ عام ١٩٥٩ ، ومستشار بوزارة الزراعة لشئون السياسة الزراعية الخارجية منذ عام ١٩٦٤ ومدير الادارة الدولية للتنمية الزراعية منذ عام ١٩٦٦ وعضو بمجلس التنمية لما وراء البحار من مؤلفاته التى نشرت : (الانسان والارض) (والغذاء وبذور التغير) و (العالم بلا حدود) و (فى صالح البشر) و (بالخبز وحده) و (اليوم التاسع والعشرون : التوفيق بين حاجات الانسان واعداده وبين موارد الارض ، وقد ترجمت الى اثنتى عشرة لغة ، وكذا العديد من المقالات

المترجم : أحمد رضا

مدير بالادارة العامة للشئون القانونية والتحقيقات بوزارة التربية والتعليم (سابقا)

المخزونة ، ومساحات شاسعة من الأراضى البور المستخدمة كاحتياطى لزراعة الحبوب . غير أنه طرأ تحول كبير على هذا الاقتصاد بسبب انخفاض انتاجية الأرض ، والانفجار السكانى الهائل ، وانخفاض معدل استهلاك الفرد للغذاء . وبذل المجتمع الدولى جهودا جبارة لمعالجة نقص المحاصيل ، وبخاصة فى البلاد النامية والفقيرة ، والقضاء على الجوع وسوء التغذية : فعمل المزارعون على رفع انتاجية الارض باستخدام الوسائل التقنية الحديثة ، من مخصبات كيمائية ، وآلات الاحتراق الداخلى ، وزراعة انواع الحبوب الصغيرة الحجم العالية الانتاج من القمح والأرز فى نطاق ما سمى بالثورة الخضراء ، كما عملت الحكومات على زيادة رقعة الأرض الصالحة للزراعة بالاهتمام بمشروعات الرى ، ودراسة المشروعات التى تعالج الدورة المائية ، كاصطناع المطر ،

وتحويل مجارى الانهار ، وازالة ملوحة ماء البحر والاستعانة في ذلك باستخدام الطاقة النووية .

وفي مجال دراسة هذا الموضوع الخاص بالأمن الغذائي ، تصدى المقال لشرح بعض الشئون الهامة ذات الصلة الوثيقة بهذا الموضوع : احتياطيات الغذاء ومخزوناته ، عامل الطلب ، ارتفاع اسعار السلع الغذائية ، وكذا اسعار البترول والمخصبات ، النمو السكاني المطرد ، تناقص رقعة الأرض المزروعة ، الثورة الخضراء ، زحف الصحارى ، سلسلة البروتين ، التكنولوجيا الحديثة ، الغذاء وعامل الطاقة ، استخدام احصائيات الحبوب ، انتاجية الأرض ، الأراضي البور ، الخ

وهكذا فان المشكلة شديدة التعقيد ، تنطوى على مشاكل عديدة يستلزم كل منها دراسات خاصة متعمقة ، ويتطلب المجموع جهودا جبارة تبذل على وجه الاستعجال والتعاون والتضامن ، على أسس علمية احصائية ، وعلى المستويات الفردية والمحلية والحكومية والدولية ، مع ضرورة منح الزراعة وتنظيم الأسرة أولوية كبيرة للغاية .

طرأ على اقتصاد الغذاء العالمي خلال السبعينات تحول اساسى ، فلم يكن العالم في مستهل هذا العقد يملك فائضا من الأغذية المخزونة ، ومزيدا من طاقة الانتاج فحسب ، ولكن كان يبدو أن كلا منهما سوف يستمر لزمن طويل في المستقبل وفجأة اختفى المخزون في عامى ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ ، وجعل العالم بأسره يحاول اعادة هذا المخزون من موسم حصاد الى الموسم التالي . وفي منتصف السبعينات كان انعدام الأمن الغذائي أكثر خطورة من أى وقت مضى منذ السنوات العصيبة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية .

ويتبين التوازن الدقيق بين اجمالي المواد الغذائية ، وبين طلب الغذاء من الحساسية الشديدة لأسعار السلع الغذائية بالنسبة الى التنبؤات الجوية . فثمة تقرير جوى من غرب كنساس يشير الى توقع هطول الأمطار في أواخر الاسبوع يمكن أن يهبط بأسعار القمح عن الحد الادنى العام للأسعار في دوائر التجارة بشيكاجو . وثمة تقرير بالاتحاد السوفيتي بأن اصابات الشتاء في محصول القمح الشتوى سوف تكون أشد مما هو متوقع لها يمكن أن يرفع أسعار القمح فوق حدها الأعلى . وعندما يكون التوازن بين العرض والطلب مزعزعا بهذه الصورة فان هبوطا في المحصول في بلد منتج كبير يمكن أن يؤثر تأثيرا محسوسا في معدلات التضخم الاجمالية ، وقد يكون له تأثير سكاني شديد في البلاد الفقيرة ، بالنظر الى أن اسعار الغذاء المرتفعة ترفع معدلات الوفيات .

* مصادر جديدة لاختلال الأمن الغذائى

كان العالم طوال معظم الفترة التالية للحرب العالمية الثانية يملك احتياطيين كبيرين للغذاء : مخزونات الحبوب فى البلاد الرئيسية المصدرة للحبوب ، والأراضى الزراعية المعطلة عن الانتاج فى برامج الزراعة بالولايات المتحدة . فثمة ٥٠ مليون ايكر (الايكر مقياس للمساحة يساوى ٤٨٤٠ ياردة مربعة او نحو ٤٠٠٠ متر مربع ـ المترجم) من بين اجمالى الأراضى الزراعية فى الولايات المتحدة وتبلغ ٣٥٠ مليون ايكر ابقيت دون انتاج دعما للأسعار . وكانت أكداس الحبوب المخزونة بالاضافة الى احتياطى الأراضى الزراعية فى الولايات المتحدة توفر الأمن الغذائى للجنس البشرى كله ، فهى وقاية من أية كوارث غذائية يمكن تصورها .

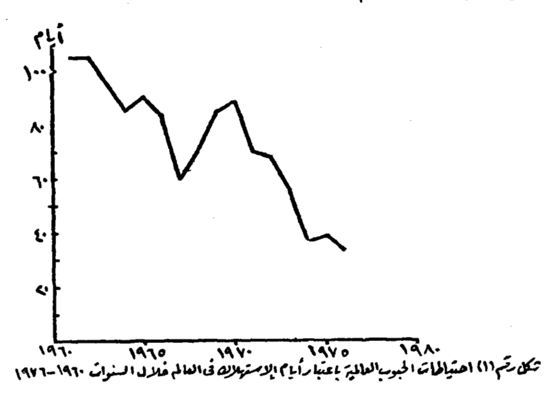
وحتى عام ١٩٧٢ كان يبدو أن المخزونات الفائضة والأرض الزراعية المعطلة فى برامج الزراعة سوف تبقى جزءا من المسمات الطبيعية للمستقبل المنظور . ولكن التزايد السريع فى الطلب الاجمالى للغذاء بدأ عندئذ يفوق الطاقة الانتاجية للمزارعين وصائدى السمك فى العالم . وتوقفت زيادة المصيد من السمك . وفى عام ١٩٧٤ بدأ استغلال كل الأراضى الزراعية المعطلة فى الولايات المتحدة ، غير أن احتياطيات الغذاء لم تتوفر من جديد .

فى عام ١٩٦١ كان مجموع الاحتياطى المخزون من الحبوب فى البلاد المصدرة لها ، والأراضى الزراعية المعطلة فى الولايات المتحدة يبلغ ما يعادل ١٠٥ أيام من الاستهلاك العالمى للحبوب . عندئذ بدات الاحتياطيات تهبط بصورة فجائية الى ٥٥ يوما فى عام ١٩٧٣ ثم ٣١ يوما فى عام ١٩٧٦ . وفى عام ١٩٧٤ كانت الأراضى الزراعية المعطلة كلها قد استغلت للانتاج ، كما استغل كل هذا الاحتياطى بالكامل . وثمة رقم قياسى لمحصول الحبوب فى عام ١٩٧٦ فى ثلاثة من أكبر البلاد المنتجة للغذاء فى العالم وعددها أربعة : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ، والهند أدى الى اعادة تكوين قدر متواضع من المخزونات ، لا يكفى مع ذلك لمساندة محصول عالمى ضعيف مساندة مناسبة . ولما كانت الولايات المتحدة وكندا تتأثران بدورة مناخية واحدة ، فان المحصول الضعيف فى احداهما يقابله فى الغالب محصول ضعيف فى الأخرى .

وكان من شأن القرار الذى اصدره القادة السياسيون السوفيت فى عام ١٩٧٢ بالتعويض عن نقص المحصول بزيادة الواردات أن زاد من حالة عدم الاستقرار .

والى جانب الضغوط الاضافية على تموينات الحبوب القابلة للتصدير ، اصبحت التقلبات الشديدة من عام الى عام فى محصول الحبوب السوفيتى أكبر من المكاسب السنوية فى المحصول فى العام الواحد . وحدثت تأرجحات واسعة فى حجم المحصول السوفيتى الذى كان يمتص فى داخل البلد فى وقت من الأوقات ، فأصبح من الضرورى أن يمتص فى جهات أخرى . وقد لا يكون القرار السوفيتى الخاص بالاستيراد قرارا غير قابل للالغاء ، ولكن لا يتيسر مع ذلك تغييره جزافا ،

فقد شجع على زيادة قطعان الماشية والدواجن التى رفعت بدورها توقعات المستهلكين السوفيت وشهيتهم .



شكل رقم (١) احتياطات الحبوب العالمية باعتبار أيام الاستهلاك فى العالم خلال السنوات ١٩٦٠-١٩٧٦

وتتخذ النفقات المرتفعة التى تترتب على عدم استقرار أسعار الأغذية أشكالا كثيرة ، اقتصادية وسياسية واجتماعية . ويعانى المستهلكون من هذا الأمر ، وبخاصة الفقراء منهم ، ولا يستطيع معظم الأسر بسهولة أن تتكيف مع التقلبات الكبيرة فى أسعار الأغذية . كذلك لا يستطيع المنتجون أن يقرروا بسهولة كم ينبغى لهم أن يزرعوا ويستثمروا فى الانتاج حين تكون الأسعار متقلبة على الدوام . وحين ترتفع أسعار الحبوب يجد أصحاب مزارع الألبان والماشية انفسهم فى كل مكان فى مأزق حرج : فاذا أبقوا على سعر اللبن أو لحم البقر عند مستويات مناسبة لقدرة المستهلك الشرائية ، لم يستطيعوا شراء الحبوب التى تلزمهم لاطعام الماشية .

كذلك فان التقلبات الشديدة فى أسعار الأغذية تجعل التخطيط للغذاء مهمة صعبة بالنسبة الى الحكومات . وأسواق الغذاء غير المستقرة تحدث ارتباكا شديدا فى موازين التبادل الخارجى ، وبخاصة فى البلاد التى تعتمد اعتمادا كبيرا على الواردات الغذائية ، كذلك فانها تقوض الجهود التى تبذل لمكافحة التضخم . والواقع ان أسعار الأغذية المرتفعة قد أسهمت بقدر كبير فى التضخم المزدوج فى أواسط السبعينات .

* عامل الطلب فى المعادلة

ينجم اختلال الأمن ليس فقط عن القصور فى الانتاج ، ولكن بالأرجح عن النمو الذى لم يسبق له نظير فى طلب الغذاء . ويبذل المزارعون وصائدو الاسماك مزيدا

من الجهد ، أو يزيدون الانفاق لزيادة الانتاج عن ذى قبل . ويضاف الى النمو الفائق فى طلب الغذاء الذى بلغ حوالى ٣٠ مليون طن من الحبوب فى السنة ، فى الجو الملائم أو السىء ، كل من النمو السكانى المطرد ، والرخاء المتزايد .

ولما كان الاستهلاك المتوسط للفرد لم يزد الا قليلا ، او لم يزد على الاطلاق طول التاريخ البشرى ، فان النمو السكانى هو الذى ولد النمو فى طلب الغذاء . غير انه منذ الحرب العالمية الثانية أصبح نمو الرخاء عاملا هاما فى المستوى الاجمالى . ففى المانيا الغربية حيث توقف نمو السكان ، وفى اليابان حيث النمو السكانى قليل لا يعتد به ، تنتج الزيادات فى استهلاك الغذاء كلها تقريبا من الرخاء النامى . وبوجه عام فان الرخاء المتزايد هو المسئول عن ٨ الى ٣٠ مليون طن من الحبوب اللازمة لاشباع النمو السنوى فى الطلب .

وفى الطرف المقابل ، نجد البلاد الأكثر فقرا مثل الهند التى لا يرتفع فيها متوسط دخل الفرد الا بقدر ضئيل ، أو لا يرتفع بالمرة ، كما أن النمو السكانى فيها هو المسئول بالفعل عن الزيادة فى استهلاك الغذاء . وفى البرازيل انضم النمو السكانى السريع الى النمو الاقتصادى السريع فنتج عنهما أسرع ماخبره أى بلد من زيادات اجمالية فى الطلب ، ويساعد هذا على تفسير السبب الذى من أجله ظهرت البرازيل كواحد من أكبر البلاد المستوردة للحبوب فى نصف الكرة الغربى .

وتأثير النمو السكانى على المطالب الغذائية تأثير مباشر ومطرد . ففى كل سنة يتعين على المزارعين وصائدى الأسماك فى العالم ، الذين يبذلون الجهد لاطعام حوالى أربعة بلايين من الأنفس أن يعملوا على اطعام عدد اضافى من الناس يقدر بحوالى ٦٥ مليون نسمة . وفى كل يوم يظهر ١٧٨٠٠٠ وجه جديد على موائد الافطار . وعلى الهند وحدها أن تتحمل زيادة سنوية فى السكان تعادل مجموع سكان استراليا .

ولعل من الأسهل فهم العلاقة بين التغيرات التى تطرأ على متوسط دخل الفرد ، والتغيرات فى مستويات استهلاك الغذاء باستخدام الأرقام المعبرة عن الحبوب . فالحبوب تسيطر على نظم التغذية ، سواء بالاستهلاك المباشر ، أو غير المباشر فى شكل منتجات المواشى والدواجن ، ومن ثم فهى مؤشر مفيد لأنماط الاستهلاك . فضلا عن ذلك فانه يمكن بسهولة الحصول على البيانات الخاصة باستهلاك الحبوب وهى موثوق بها أكثر من البيانات الخاصة بسائر المواد الغذائية .

وفى مقدور الشخص المتوسط فى البلاد الأكثر فقرا أن يحصل على ٤٠٠ رطل فقط من الحبوب فى السنة ، اى حوالى رطل واحد فى اليوم . وعندما يتيسر الحصول على هذا القدر فقط من الحبوب ، فانه لابد من استهلاكه كله استهلاكا مباشرا لاشباع الحد الادنى من متطلبات الطاقة البشرية . غير أنه كلما ارتفعت الدخول ارتفعت مستويات استهلاك الحبوب .

وفى المجتمعات الصناعية الأكثر ثراء يستهلك الشخص المتوسط أربعة أخماس الطن من الحبوب فى السنة ، يأكل منها مباشرة من ٢٠٠ الى ٣٠٠ رطل فقط خبزا ،

وفطائر ، وحبوب لطعام الافطار ، ويستهلك معظمها بطريقة غير مباشرة كلحم ، ولبن، وبيض .

والواقع ان الثراء يساعد الأفراد على التقدم درجة فى سلم الغذاء البيولوجى وهكذا فان الروسى او الأمريكى المتوسط يستخدم على وجه التقريب خمسة أضعاف الأرض والماء والسماء التى يستخدمها الهندى أو الكولومبى او النيجيرى . هـذه النسبة غير قابلة للزيادة كثيرا ، ذلك لأن الحد الادنى للاستهلاك يتعين بمستوى المعيشة ، كما يتعين الحد الأعلى بقدرة الانسان على التهام البروتين الحيوانى .

ويتمثل التغير السائد فى عادات التغذية منذ منتصف القرن الحاضر فى الزيادة الهائلة فى استهلاك منتجات الماشية والدواجن فى كل من البلاد الغنية والفقيرة . وكان هذا الاتجاه أكثر وضوحا فى الولايات المتحدة حيث زاد استهلاك بعض منتجات المواشى والدواجن بأكثر من الضعف عما كان عليه فى الجيل الماضى . وفى القطـاع الشمالى من البلاد الصناعية ، الممتد شرقا من بريطانيـا ، وايرلنـدا ، ويشـمل اسكندناوة ، وغرب أوروبا وشرقيها ، والاتحاد السوفيتى ، واليابان كانت الأنماط الغذائية تشابه بنوع ما نظيراتها فى الولايات المتحدة فى جيل سابق . وقد نشـأ عن الدخل النامى فى هذه البلاد طلب اضافى لمنتجات الدواجن . غير أن القليل من البلاد هى التى فى وسعها أن تواجه هذا الطلب المتزايد باستخدام الموارد المحلية وحدها ، ويتحتم على معظمها بدلا من ذلك أن تعتمد ، بدرجة جزئية على الاقل على منتجات الدواجن المستوردة ، أو تستورد الحبوب الغذائية أو فول الصويا لانتاج الدواجن . وفى عام ١٩٧٥ استهلك ما يقرب من ثلث محصول الحبوب العالمى ـ حوالى ٤٠٠ مليون طن ـ كغذاء للماشية والطيور الداجنة . والأثر النهائى لمثل هذا النمو فى طلب الغذاء ، حيثما ينشأ ، هو ضغط متزايد على موارد العالم الأرضية والمائيـة .

*** الأرض والمـاء**

حتى حوالى عام ١٩٥٠ كان اتساع رقعة الاراضى المزروعة هو المسئول عن الزيادة فى تموين العالم بالغذاء . ومن ذلك الحين ، انقلبت الأوضاع ، اذ تباطأ نمو رقعة الارض الزراعية بشكل ملحوظ فى حين أصبح استمرار النمو فى المحصول الغذائى ناتجا فى الغالب عن ارتفاع قدرة الأرض على الانتاج . وبينما ازداد عدد السكان ، قل نصيب الفرد من الأرض المنتجة . وهناك اليوم أقل من ايكر واحد لكل فرد من سكان الأرض البالغ تعدادهم اربعة بلايين نسمة . واذا لم تكتشف طـريقة قليلة التكاليف لرى الصحارى فانه لا يحتمل أن تزيد رقعة الاراضى الزراعية زيادة كبيرة .

وانتشرت زراعة الغلال من واد الى واد ، ثم من قارة الى اخرى حتى اصـبح اليوم حوالى ٣ر٣ بليون ايكر ، اى قرابة ١١ فى المائة من سطح اليابسة ارضـا مزروعة . ومع ذلك ففى بعض بلاد افريقيا وجنوب اوروبا تقل مسـاحة الأرض المزروعة فى الوقت الحاضر ، اما بسبب تآكل التربة الذى يؤدى الى ترك الأرض

الزراعية القليلة الانتاج ، واما بتحول استخدام الأرض الزراعية الى أغراض غير زراعية ، واما بأن تزحف عليها الصحارى .

وعندما تقدر المساحة الكلية للأرض الجارى زراعتها بالنسبة الى سطح الكرة الأرضية تبدو بالاحرى صغيرة ، ولكنها تبدو كبيرة اذا اعتبرت كنسبة مئوية من الأرض النادرة على دعم الحياة النباتية المنتجة . والغالبية من رقعة اليابسة شديدة الجفاف أو البرودة فلا تصلح للحياة النباتية . وتغطى الصحارى معظم القارة الأفريقية واجزاء شاسعة من آسيا . ومعظم الجزء الداخلى من استراليا أرض صحراوية قاحلة . وهناك أيضا مساحات مجدبة شاسعة فى جنوب أوروبا ، وعلى الساحل الغربى من أمريكا اللاتينية ، وشمال شرقى البرازيل ، وجنوب غربى الولايات المتحدة .

وقد يكون الموقع أو الارتفاع أو المناخ عاملا يحد من صلاحية الأرض للزراعة ، حيث لا يكون لسقوط المطر أثر فى هذا الخصوص : فجبال روكى ، والأنديز ، والألب والهملايا لا تصلح غالبا لزراعة المحاصيل التجارية .

وهناك وفرة من التقديرات للأراضى الاضافية التى يمكن فلاحتها ، ولكن أغلب هذه التقديرات لا تفيد كثيرا لأنها لا تحسب النفقات الاضافية اللازمة حتى تصير الأراضى منتجة . فالتقديرات المفيدة يجب أن تأخذ فى الاعتبار العلاقة بين تكاليف الغذاء الذى يمكن انتاجه ، وبين ما يستطيع الناس أن يدفعوه .

وقد استغلت بالفعل معظم الأراضى الزراعية ، والقليل جدا من الأراضى الجديدة الصالحة للزراعة فى اوروبا وآسيا تنتظر الحرث ، ويوجد القليل منها نسبيا فى الاتحاد السوفيتى . ومعظم بلاد شمال افريقيا والشرق الأوسط لا تستطيع بالفعل أن تزيد مساحة أراضيها المنتجة للمحاصيل دون أن تطور موارد جديدة لمياه الرى . والمناطق الوحيدة الباقية وبها وفرة من المياه وصالحة للزراعة وتحتاج لمن يستغلها هى حزام ذباب تسى تسى على مشارف الصحراء الكبرى الأفريقية ، وجنوب السودان ، والرقعة الداخلية الشاسعة فى البرازيل . غير انه من الخطأ الكبير النظر الى افريقيا والبرازيل على أنهما مستودعان كبيران للأراضى الزراعية الخصبة . والكثير من « الأراضى القابلة للزراعة يقع فى المناطق الاستوائية » ، ومشاكل زراعة هذه الأراضى على أساس سليم كثيرة لا حصر لها . والطريقة الفعالة لاعداد مساحات كبيرة جديدة للزراعة فى جنوب الصحراء الكبرى الأفريقية هى القضاء على ذبابة تسى تسى الناقلة لطفيليات مرض النوم الذى يقتل الماشية . وفى البرازيل يحتاج الأمر لرصد أموال ضخمة لانشاء الطرق ، ونظم التسويق ، ومؤسسات الائتمان ، والخدمات التقنية الاستشارية قبل أن يتسنى استغلال أراض جديدة .

وفى حين أن الأرض الخصبة غير المستغلة نادرة ، فان نقص الماء العذب قد يكون قيدا اشد على الجهود المبذولة لزيادة انتاج الغذاء العالمى . وفى بلاد الثورة الخضراء المتباعدة بعضها عن بعض كالمكسيك وأفغانستان ، يكون النقص فى الماء

العذب هو القيد الرئيسي على انتاج الرقعة المزروعة بانواع القمح المرتفعة المحصول . وفى الاتحاد السوفيتي يترتب على نقص الماء العذب احباط الجهود المبذولة للتوسع فى انتاج الحبوب اللازمة لتغذية قطعان الماشية والدواجن .

وازدادت حدة المنافسة بين البلاد المشتركة فى نظم انهار واحدة فى سبيل الحصول على الماء . وكان لابد من اجراءات مفاوضات مطولة من أجل توزيع مياه نهر الأندوس (السند) بين الهند وباكستان . وربما لم يكن من الميسور تنظيم رى هذا النهر من غير الوساطة التى قام بها البنك الدولى . وفى عام ١٩٧٦ ثارت المنازعات بشأن الحقوق فى مياه نهر الجانج واستعمال مياه هذا النهر بين الهند وبنجلاديش . والمنافسة شديدة أيضا بين اسرائيل والبلاد العربية بشأن مياه نهر الاردن . وكان لزاما اجراء مفاوضات شاقة لتوزيع مياه نهر النيل بين السودان والجمهورية العربية المتحدة (جمهورية مصر العربية) وتوزيع مياه نهر كولورادو وتلوث هذه المياه مشكلة مستمرة تتسبب فى اضطراب العلاقات بين المكسيك والولايات المتحدة .

وحين تتناقص الامكانيات الجديدة المتاحة للرى تزداد الصلة بين الجزر والماء وضوحا . فالرى قد ادى دورا رئيسيا فى زيادة قدرات الأرض على انتاج الغذاء . والزراعة التى تعتمد على الرى لا على سقوط المطر أتاحت المزيد من الغذاء والقوة الدافعة للتنظيم الاجتماعى الشديد الأهمية للحضارات الباكرة فى بلاد ما بين النهرين ومصر . ولم يكن التحكم فى نهرى الدجلة والفرات المضطربين والخطرين فى الكثير من الأحيان مهمة سهلة ، ففيضاناتهما تحدث فجأة ولا يمكن توقعها ، وقد تكون عنيفة . وعلى عكس ذلك فان فيضان النيل منتظم ومعتدل نسبيا ، ومتزامن بصورة مثالية مع موسم الزراعة الفعلى . وقد حملت هذه الخصائص هيرودوت على أن يصف مصر بأنها « هبة النيل » . كذلك تطور الرى فى زمن مبكر على طول الأنهار الكبرى فى جنوب آسيا ، وبخاصة نهرى السند ، وهوانج هو ، أو النهر الاصفر بالصين .

ورغم أن الانسان مارس الزراعة عن طريق الرى منذ قرابة ستة الاف سنة ، فان الرى لم يبدأ يغطى قسما كبيرا من سطح الأرض الا فى القرن العشرين . ففى عام ١٨٠٠ كان يروى حوالى ٢٠ مليون ايكر من الأرض الزراعية فى العالم . وفى حوالى عام ١٩٠٠ بلغت هذه المساحة ١٠٠ مليون ايكر . وفى عام ١٩٥٠ بلغت ٢٦٠ مليون ايكر . غير أن اكبر قدر من الزيادة هو الذى حدث منذ عام ١٩٥٠ بمساحة مروية بلغت حوالى ٥٠٠ مليون ايكر فى عام ١٩٧٥ . وفى الصين وحدها زادت مساحة الأراضى المروية بأكثر من ٦٠ مليون ايكر من عام ١٩٥٠ ، وهى الآن تزيد على مائة مليون ايكر . وأمكن تحقيق هذا الجهد الانشائى الكبير بفضل التعبئة الجسيمة للعمل الريفى الوفير .

ومع ازدياد الضغوط لانتاج المزيد من الغذاء تضطر الحكومات الوطنية الى دراسة مشروعات طموحة تعالج الدورة المائية . فهى تدرس ، من بين مختلف

الخطط ، اصطناع المطر عن طرق نثر السحب ، وتحويل مجارى الأنهار . ولزيادة كمية مياه الرى فى القسم الجنوبى من البلد ، تخطط القيادة السوفيتية لعكس اتجاه تدفق أربعة انهار متصلة بالقطب الشمالى ، وذلك بسد مجراها المتجه شمالا وبناء قنوات تحويلية .

وفى منتصف الستينات تركز الاهتمام العام فى امكانية ازالة ملوحة ماء البحر كوسيلة لزيادة كميات المياه اللازمة للرى . وتطلعت بعض الاقتراحات الى بناءمجمعات زراعية صناعية ضخمة تعمل بالطاقة النووية . وقد ذوى هذا الاقتراح ، شأنه شأن الكثير من الأحلام القائمة على تكنولوجيات جديدة مثيرة .

ولم يزل من الضرورى جعل التحسينات المرجوة فى تكنولوجيا ازالة الملوحة ممكنة فى الواقع العملى ، ونفقات الطاقة التى تزداد ارتفاعا تجعل استعمال ماء البحر المزال ملوحته للأغراض الزراعية مرتفع التكاليف بدرجة مفرطة .

والاحتياجات للماء من أجل الزراعة فى المستقبل كبيرة ومتزايدة ، وترتفع ، مثلها مثل احتياجات الفرد للحبوب مع تحسن الأغذية . فالشخص الذى يعيش على غذاء نباتى يتكون من ٥ر٢ رطل من الحبوب فى اليوم ، يستخدم بصورة غير مباشرة ٣٠٠ جالون من الماء يوميا . وانتاج الطعام فى نظام غذائى غنى يتكون من رطلين من المواد النباتية ورطل من لحم البقر والدهن الحيوانى فى اليوم الواحد يتطلب بالاجمال ٢٥٠٠ جالون من الماء يوميا . و « تكلفة الماء » لرطل من لحم البقر ، بما فى ذلك الماء المستعمل لانتاج العشب واطعام البقر وشربه ، تبلغ ٢٥ ضعف التكلفة اللازمة لانتاج رطل من الخبز .

الجدول رقم ١ : احصائية بمساحة اراضى العالم المروية من عام ١٩٠٠ الى ٢٠٠٠

السنة	المساحة المروية مقدرة بمليون ايكر	معدل الزيادة السنوية فى المائة
١٩٠٠	١٠٠	٩ر١
١٩٥٠	٢٦٠	٩ر٢
١٩٧٠	٤٦٠	١ر١
٢٠٠٠	٦٤٠	

المصادر : منظمة الأغذية والزراعة ، حولية الانتاج (أعداد مختلفة) ، وتقديرات المؤلف .

يتوقف مستقبل تغذية السكان تغذية وافية على احتمالات زيادة المساحة المروية بتطبيق نظم نهرية على نطاق واسع ، وهى احتمالات تبدو فى الربع الأخير من القرن

الحالى اقل ملاءمة من الربع الذى انقضى . واسهل مشروعات الرى الضخمة تنفيذا ، سواء فى الصين او الهند او الاتحاد السوفيتى او الشرق الأوسط او افريقيا او أمريكا الشمالية قد تم تنفيذها بالفعل . وتحقق على نطاق واسع امكانيات الرى القائمة فى معظم أنهار العالم الكبرى بما فيها نهر النيل ، والنهر الأصفر ، والسند ، والجانج ، وكولورادو . ومن الانهار التى لم تستغل بعد ، نهرا ميكونج والامازون . غير ان من شأن اتساع النهر الاخير اتساعا كبيرا ، وسهوله العريضة التى يغمرها الفيضان أن يجعل من المستحيل استغلاله . وعلى ذلك ففى حين اتسعت المساحة المروية فى العالم بمعدل ٣ فى المائة سنويا من عام ١٩٥٠ الى ١٩٧٠ ، فانها سوف تنمو بمعدل واحد فى المائة فى السنة بالكاد فى القسم الباقى من هذا القرن .

* الغذاء : عامل الطاقة

يحتاج انتاج الغذاء الى طاقة خلاف الطاقة المستمدة مباشرة من الشمس . وفى النظم الزراعية البدائية : كانت الطاقة المنتجة الرئيسية ، الى جانب الطاقة الشمسية ، هى تلك التى ينفقها الانسان نفسه فى انتاج غذائه . وبمرور الزمن ابتكر الناس وسائل تستخدم مصادر أخرى للطاقة لزيادة الموارد الغذائية .

من هذه الوسائل استئناس « العواشب » (الحيوانات آكلة العشب) كطريقة لتحويل العلف الى لحم ولبن . وهناك وسيلة أخرى تتمثل فى تسخير هذه الحيوانات للتوسع فى انتاج الغذاء .

ومع ذلك ، فحتى ظهور آلة الاحتراق الداخلى فى زمن حديث ، كان الوقود الاحفورى يستخدم على نطاق واسع فى فلاحة الارض . وكان ظهور المخصبات الكيمائية ، وبخاصة النيتروجين وثبة هائلة فى استخدام الطاقة لانتاج الغذاء . ويجرى فى الوقت الحاضر ، وعلى نطاق واسع تثبيت النيتروجين الجوى صناعيا فى شكل كيماوى ينافس عمل الطبيعة نفسها . وفى حين تتولى الطبيعة تثبيت ما قدره ١٢٠ مليون طن من النيتروجين الجوى عن طريق الخضروات والنباتات الميكروسكوبية والاضاءة ، يضيف الانسان الآن حوالى ٤٠ مليون طن من النيتروجين الى التربة فى صورة مخصب نيتروجينى .

وتقوم أنماط الزراعة الأساسية الثلاثة على ثلاثة أنواع من الطاقة . وأبسط هذه الأنواع ، وهو الذى يعتمد على قدرة الانسان العضلية ، لم يزل يمارس فى بعض اجزاء العالم ، ويتمثل بوضوح فى زراعة الذرة بالفأس فى المكسيك ، أو الأشكال الأكثر بدائية لزراعة الارز ، وتتطلب أكثر من مجرد بذر التقاوى والحصاد باليد . والنوع الثانى يستخدم حيوانات الجر كمصدر اساسى للطاقة ، وكان سائدا فى جميع أنحاء العالم حتى الحرب العالمية الثانية ، ولم يزل يمارس فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية . أما النوع الثالث فيستخدم طاقة شديدة الكثافة ، ويعتمد على المحرك داخلى الاحتراق ، كما يستخدم مخصبات كيمائية مناسبة ونظام رى مناسبا ويتبع هذا الاسلوب اكثر من نصف الزراعة فى العالم .

وتستخدم الطاقة فى الزراعة لرفع انتاجية الشغل والاراضى . وفى الولايات المتحدة وكندا واستراليا وبلاد اخرى حيث الارض متوفرة نسبيا ، والعمل نـادر نسبيا ، حلت الطـاقة بالتـدريج محل العمل عن طريق الميكنة على نطاق واسع .

وقد استخدمت الطاقة فى الجيل الأخير فقط استخداما مكثفا لرفع انتاجية الأرض . وفى الصين واليابان حيث الأرض على مدار التاريخ نادرة والعمل متوفـر نسبيا ، كان الاهتمام الاول موجها الى رفع انتاجية الأرض عن طريق الاستخدام المكثف للعمل والطاقة .

ولما زاد الطلب الاجمالى للغذاء بسرعة أكبر من اتساع رقعة الأرض المزروعة ، كانت الحاجة الى مزيد من الطاقة لرفع انتاجية الارض . ومنذ عام ١٩٥٠ حتى ارتفاع أسعار البترول ارتفاعا كبيرا فى عام ١٩٧٣ ، استخدم الفلاحون فى العالم كله طاقة البترول بسخاء فى الزراعة .

وقد أمكن جعل زيادة الثلثين فى ثلثى سكان العالم أمرا محتملا بفضل الزيادات فى انتاج الغذاء ، وهى زيادات تيسرت بدورها باستخدام طاقة رخيصة . غير أن ارتفاع تكاليف الطاقة فى عالم تقنياته الرئيسية المتاحة للتوسع فى انتاج الغـذاء (كالمخصبات الكيمائية والرى) تقنيات مكثفة للغـاية أمر لا يبشر بخيـر . وفى حزام الذرة فى وسط غربى الولايات المتحدة ، تزيد الطاقة الكامنة فى المخصب الازوتى المستخدم فى زراعة الذرة على الوقود المستخدم فى الجرارات للحـرث ، والغرس ، والزرع ، والحصاد . فلو تعرضت الطاقة اللازمة للزراعة للخطر فسوف يتعرض للخطر كذلك السكان الذين يعتمدون عليها .

والفرص المتاحة للحفاظ على الطاقة فى نظم الغذاء الحديثة كثيرة لا حصر لها ، ولكن الموجود منها فى قطاع الزراعة قليل . ومعظم الطاقة التى تبدد بلا ضرورة فى نظام الاغذية تضيع فى توزيع الغذاء لا فى انتاجه . مثال ذلك أن ربع الطاقة المستخدمة فى نظام الغذاء العصرى الممتاز بالولايات المتحدة هى فقط الطاقة المستخدمة للانتاج ، أما الثلاثة الارباع الباقية فانها تنفق فى نقل الغذاء ومعالجته وتعبئته بعد أن يخرج من المزرعة . وبعامة فان رقائق الالومنيوم التى يلف بها الغذاء فى الكثير من الاحيان تتضمن طاقة أكثر مما يتضمنها الغذاء نفسه . ومن العيوب الفادحة فى كفاءة النظام الغذائى استخدام سيارة حمولتها طنان لنقل ٢٥ أو ٣٠ رطلا من مواد البقالة من « السوبر ماركت » الى المنزل .

وكلما زاد اعتماد الناس فى حياتهم على الغذاء ، زادت الحاجة الى الطاقة لنقل الغذاء وتصنيعه . والواقع ان التحضر الهائل الذى تحقق منذ منتصف القرن الحالى اعتمد اعتمادا كبيرا على الطاقة الرخيصة . واذا أصبحت الطاقة أكثر ندرة وتكلفة ، فان التحضر سوف يتباطأ ، ولعله سوف ينتكس .

* الثورة الخضراء

يعبر مصطلح « الثورة الخضراء » بايجاز عن ادخال ونشر الانواع الصغيرة الحجم العالية الانتاج من القمح والارز فى البلاد النامية . وقد قام فريق من علماء الزراعة بمؤسسة روكفلر بتطوير انواع القمح الغزيرة المحصول فى المكسيك ، وطورت هذه الأنواع أولا فى اليابان ، ثم ادخلت فى المكسيك عن طريق شمال غربى الولايات المتحدة حيث زادت من انتاج القمح زيادة هائلة فى البقاع التى تروى وتزرع قمحا فى الشمال الغربى .

والخاصية المميزة للبذور العالية الانتاج هى استجابتها للمخصب . فاذا استخدمت جرعات كبيرة من الاسمدة الكيمائية على الأنواع المحلية من القمح أو الارز ذات السيقان الطويلة الرفيعة فانها تتهاوى .. أما انواع القمح والارز القزم المتينة فانها رفعت الحد الأقصى من استخدام المخصبات من حوالى ٤٠ رطلا للايكر الواحد الى ١٢٠ رطلا . وفى مقدور الانواع القزم التى تعالج جيدا أن تنتج ضعفى كمية القمح ـ فى الأيكر ـ التى تنتجها المعالجة العادية المتبعة . هذه الأنواع الجديدة من القمح ؛ اذ تتكيف مع مجال واسع من ظروف النمو ، مع الاضافات المصاحبة لها والممارسات الزراعية تمثل مجموعة كاملة من الزراعة المكثفة التى تطورت من قبل فى البلاد المتقدمة زراعيا .

وتشجعت مؤسستا روكفلر وفرنكلين بقابلية الأنواع الجديدة من القمح للتكيف فتعاونتا فى عام ١٩٦٢ لانشاء « معهد بحوث الارز الدولى » فى لوس بانيوس بالفليبين . وفى مصنع سنين ادت الأبحاث التى استخدمت الجينات (المورثات) الصغيرة فى اليابان الى تطوير انواع من الارز العالية الانتاج التى وزعت عندئذ سريعا فى أنحاء آسيا .

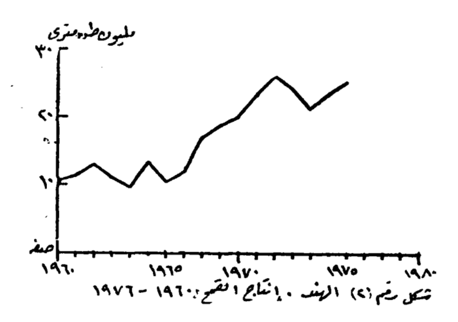
وليست الأنواع الجديدة شديدة الاستجابة للمخصبات فحسب ، ولكنها تستفيد من الأرض والماء والعمل بدرجة أكثر فعالية من الأنواع التقليدية ، وبدلا من أن تنتج من ٥ الى ١٠ أرطال من الحبوب الاضافية فى الايكر الواحد مع كل رطل من المخصب فانها تغل مقدارا يصل الى ٢٠ رطلا اضافيا . وفى مساحة معينة من الأرض ، يمكن بسهولة للأنواع الجديدة المعالجة بصورة ملائمة أن تضاعف الانتاج ، وتزيد بنسبة الثلث أو أكثر من انتاجية الماء والعمل المستخدمين فى الزراعة .

واذ ظهرت الحبوب العالية الانتاج فى وقت كانت فيه ضروب النقص فى الغذاء تتفاقم فى البلاد الفقيرة ، وتنهال طلبات المعونة الغذائية على واشنطن ، فانها أصبحت تلقى ترحيبا كبيرا فى كل مكان . وبالتأكيد يمثل انتشارها عبر الحدود الوطنية جهدا من أعظم الجهود الناجحة فى سبيل نشر تكنولوجيا جديدة ذاع صيتها . وفى عامى ١٩٦٤ ـ ٦٥ كان مجموع الرقعة المزروعة بأنواع القمح والأرز العالية الانتاج فى آسيا يبلغ قرابة ٢٠٠ ايكر ، معظمها أراض مخصصة للعرض والتجريب . وبعد اربع سنوات زرع ٣٤ مليون ايكر بالبذور الجديدة . فاذا زاد

المحصول نصف طن تقريبا فى الايكر الواحد ، تكون المؤونة الغذائية فى آسيا قد زادت بمقدار ١٧ مليون طن ، مما يكفى لاطعام اكثر من مائة مليون شخص .

وعندما وصل فريق روكفلر الى المكسيك فى أواخر عام ١٩٤٤ كان هذا البلد بلدا جائعا يستورد الكثير من غذائه من الولايات المتحدة . وفى عام ١٩٦٧ ، أى بعد مضى أقل من ربع قرن ، زاد انتاج القمح ثلاثة أضعاف ، كما زاد انتاج الذرة ضعفين ، وزاد الغذاء الذى يتناوله المكسيكى المتوسط بمقدار ٤٠ فى المائة ، واصبح القمح والذرة يصدران ، وانتعشت الحالة الاقتصادية .

وكانت ضروب التقدم فى آسيا فى بعض الحالات اشد اثارة منها فى المكسيك ، وضاعفت الهند من محصول القمح بها خلال ست سنوات ، وهذا عمل فذ لم يكن له نظير فى اى بلد كبير بالنسبة الى سلعة رئيسية كهذه . وفى باكستان ، كانت ضروب التقدم فى انتاج القمح ابطأ من هذا بقليل . وفى حين كانت الزيادات فى انتاج الأرز أقل من هذا بكثير ، الا انها كانت مع ذلك كبيرة ، وبخاصة فى الفيلبين ، وسريلانكا ، واندونيسيا ، وماليزيا .



شكل رقم (٢) الهند . إنتاج القمح : ١٩٦٠ - ١٩٧٦

وساعدت الثورة الخضراء الكثير من البلاد على خفض واردات الحبوب ، كما ساعدت بعض البلاد على تصديرها . وكانت الهند ، وهى على ذروة الثورة الخضراء على وشك الاكتفاء الذاتى فيما يختص بالحبوب فى اوائل السبعينات ، واعلنت السيدة غاندى بفخار أن الهند لم تعد تعتمد على معونة الولايات المتحدة فى الغذاء . وانهت ضروب التقدم فى انتاج الأرز فى الفيلبين ، بصورة مؤقتة على الأقل نصف قرن من الاعتماد على الارز المستورد .

ويستمر التقدم فى انتاج الغذاء فى بلاد الثورة الخضراء بسرعة اقل . أما انتاج القمح فقد انتشر بسرعة اكبر ، فى حين يتوقف انتشار أنواع الأرز العالية

الانتاج على الاستثمارات فى مشاريع الرى المتقدمة ، والتحكم فى المياه ــ وهذه مطالب تستهلك راس المال والوقت ، ومع ذلك فان الوثبات الأولى فى الكميات التى صاحبت الثورة الخضراء قد انقضى عهدها ، واولئك الذين اشتركوا فى اطلاق الثورة الخضراء مثل دكتور نورمان بورلوج الذى نال جائزة نوبل للسلام من أجل عمله فى أنواع القمح العالية الانتاج قد حذروا منذ البداية من أن الثورة الخضراء ليست علاجا شاملا لجميع الأدوار ، أو حلا لمشكلة الغذاء العالمية : قالوا انها على اكثر تقدير سوف تكسب وقتا ، ربما عشر سنوات ، أو خمس عشرة ، أو عشرين سنة يتسنى فى خلالها للحكومات أن تسيطر على النمو السكانى .

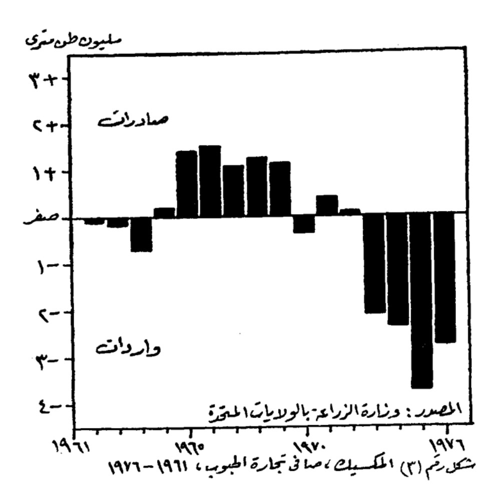
وفى وسع الحكومات أن توجه الى الثورة الخضراء نظرتين اساسيتين . فهى قد تراها وسيلة لكسب وقت تستغله فى توسيع خدمات تنظيم الأسرة ، أو تراها وسيلة لتأجيل بعض القرارات العسيرة فى السياسة السكانية . ومع الأسف اتخذت معظم الحكومات النظرة الثانية ، والقليل منها اتخذ النظرة الأولى الطويلة . ومن ثم انقضى عقد طويل منذ اطلاق الثورة الخضراء على نطاق دولى ، والزيادة السكانية تسبق التموين الغذائى فى بلد بعد أخر .

وفى منتصف السبعينات عادت المكسيك ، وهى الموطن الاصلى للثورة الخضراء تستورد قدرا كبيرا من الحبوب التى تحتاج اليها (انظر الرسم رقم ٣) . وكذلك اضطرت الهند الى شراء كميات ضخمة من الحبوب من الأسواق الأجنبية ، فى حين تستورد الفليبين من الحبوب مقادير أكبر مما كانت تستورده من قبل

غير أن الصين التى قلما اعتبرت من بلاد الثورة الخضراء قد أدمجت مبادىء الثورة الخضراء (أى استخدام الأنواع القزم التى تستجيب للمخصب) دون أن تتراجع عنها عندما يتحقق انتاجها الكبير . وتعتبر الصين استثناء من القاعدة لان بصيرة حكومتها كانت نادرة المثيل : فمع أن الأمة كانت تحصل على مكاسب وفيرة فى محصول القمح ، كانت الحكومة تبذل جهدها لتنفيذ تخطيط طموح فى تنظيم الأسرة . فقد قطعت الصين معدل نموها السكانى بمقدار نصف المعدل فى العقد الماضى ، وهى الآن تزيد انتاجها الغذائى بأسرع من معدل زيادة السكان .

* انخفاض انتاجية الأرض

كان القدماء يحسبون الانتاجية على انها النسبة بين الحبوب الناتجة وبين البذور المزروعة . وكان المحصول فى الغالب منخفضا ، بعكس الطبيعة الحدية للأنشطة التجارية البدائية . واليوم ينتج القمح الذى ينمو فى السهول الكبرى بغرب أمريكا ثلاثين رطلا لكل رطل من البذور المستعملة . وبالنسبة الى الأرز الذى ينمو باستخدام التكنيك اليابانى الخاص بشتل الأرز ، قد تبلغ النسبة ٣٠٠ الى واحد . وبالنسبة الى الذرة ، وهى الحب الوحيد الذى موطنه العالم الجديد ، تبلغ النسبة ٥٠٠ الى واحد . والذرة ، التى يعتقد أنها آخر الحبوب الثلاثة الكبرى التى انتشرت زراعتها ، فانها من بعض النواحى أكثرها انتاجا .



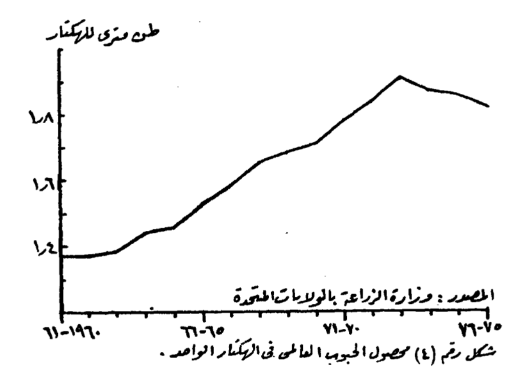
شكل رقم (٣) المكسيك ، صافي تجارة الحبوب ، ١٩٦١ - ١٩٧٦

ومع انتشار الزراعة وازدياد رقعة الأرض التى يجرى فلاحتها ، انتقل مركز الاهتمام من انتاجية البذرة الى انتاجية الأرض . وباستخدام محصول الهكتار الواحد كمعيار تظل الذرة على رأس القائمة . ومحصول الذرة فى الولايات المتحدة الذى يتجاوز ستة أطنان فى الهكتار الواحد يفوق محصول الأرز اليابانى نفسه . وفى الولايات المتحدة يزيد محصول الذرة فى الايكر الواحد بأربعة أضعاف محصول القمح ، وهو من الحبوب التى تنمو بوفرة فى الجهات شبه القاحلة . ومحاصيل القمح منخفضة أيضا فى مناطق شبه قاحلة أخرى ينمو بها القمح ، كتلك الموجودة فى كندا ، والاتحاد السوفيتى ، وشمال افريقيا ، والشرق الأوسط ، واستراليا .

ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى بداية السبعينات ارتفعت انتاجية الاراضى الزراعية فى الغالب ارتفاعا ثابتا . وبين ١٩٦٠ ، ١٩٧٢ زاد المحصول العالمى المتوسط للحبوب من ١٫٣٨ طن للهكتار أو أقل بقليل الى ١٫٩١ طن . ومع ذلك فمن هذا الحين هبطت المحصولات الى ما متوسطه ١٫٨٤ طن فقط فى عام ١٩٧٦ .

ولما كانت الأراضى الجديدة القابلة للزراعة قليلة فى الوقت الحاضر ، أصاب هذا الانكماش فى المحصول اقتصاد الغذاء العالمى بالضرر ، اذ أسهم فى ندرة الغذاء وارتفاع أسعاره . ويبدو أن هذا الانخفاض قد نتج من عدة عوامل ، منها

انخفاض جودة الأرض التى استصلحت حديثا (بما فيها بوجه خاص الخمسون مليون ايكر من الأرض الزراعية المتعطلة فى الولايات المتحدة) .



شكل رقم (٤) محصول الحبوب العالمى فى الهكتار الواحد .

وثمة عامل آخر لهذا الانخفاض يتمثل فى ارتفاع تكلفة الطاقة . ان ارتفاع ثمن البترول ستة اضعاف خلال السبعينات قد انقص استخدام الطاقة الزراعية الى أدنى مما كان ينبغى ان يكون عليه . وهناك عامل ثالث وثيق الصلة بالموضوع ، هو ارتفاع تكلفة المخصب ، فقد ارتفعت اثمان المخصبات فى اواسط السبعينات ، وبلغت أرقاما قياسية اذ تأثرت جزئيا بارتفاع اسعار الطاقة .

وثمة عامل رابع يؤثر فى انتاجية الأرض الزراعية ، يتمثل فى انكماش مساحة الاراضى البور فى العالم . والارض تترك بورا اما للاحتفاظ برطوبة التربة أو لتزويدها بما ينقصها من المواد المغذية . وفى المساحات التى ينمو بها القمح حيث لا يكفى هطول الأمطار لضمان استمرار الزراعة ، استخدم المزارعون نظاما من الغلة المتناوبة سنويا : فالأرض تزرع قمحا فى سنة ، ثم تترك بورا وتحفظ خالية من النبات فى السنة التالية . وتتيح ابارة الأرض للتربة ان تجمع الرطوبة وتحتفظ بها ، وتضمن الحصول على غلة طيبة فى العام التالى . وتؤدى دورة المحصولات هذه الوظيفة فى السهول الغربية الكبرى بالولايات المتحدة . فزراعة الشقق (او الشرائح) بالتناوب يقلل من تأثير التعرية بفعل الريح على الشقق العارية . ومع ارتفاع أسعار القمح العالمية خلال السبعينات ، انخفضت مساحة الأرض البور من متوسط ٦٥ ايكر لكل ١٠٠ ايكر مزروعة قمحا فى الستينات الى ٣٧ ايكر فى عام ١٩٧٦ . ونتيجة لذلك هبطت محاصيل القمح بالولايات المتحدة ، وظهرت العواصف الترابية الشديدة التى تذكرنا بعواصف الثلاثينات .

وفى المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية ، يمكن فى أغلب الاحيان ان تغل الأرض بضع سنوات قبل ان تتلف التربة وتستنفد ما بها من مواد مغذية . وفى هذه الظروف تطور أسلوب فن الزراعة المتنقلة حيث يقوم الزراع بتنقية الأرض من النباتات التالفة المتخلفة من الغابات ، وذلك بالحرق عادة ، ثم يزرعونها بضع سنين ، ثم يتركونها حين تهبط خصوبتها . وبعد انقضاء عشرين الى خمس وعشرين سنة ، وهى الزمن الذى تحتاج اليه التربة لتسترد موادها المغذية ، يعود اليها الزراع لتنظيفها وفلاحتها من جديد . ونجحت هذه الطريقة الى ان اجبرت الضغوط السكانية المتزايدة فى المناطق الاستوائية المزارعين المتنقلين الى تقصير دورات المناوبة . وعندما تقصر الدورات تنخفض الانتاجية ، كما حدث فى عدد من البلاد مثل نيجيريا ، أكثر بلاد افريقيا سكانا (انظر الرسم رقم ٥)



شكل رقم (٥) نيجيريا : محصول الحبوب الإجمالى فى الهكتار الواحد ١٩٦٠-٧٥

وثمة تأثير سلبى آخر على المحاصيل يتمثل فى تلف يصيب تركيب التربة والخصوبة مصحوبا باستفحال أزمة حطب الوقود فى البلاد النامية . وعندما يؤدى استهلاك حطب الوقود الى ازالة الغابات فانه قد يؤثر تأثيرا سيئا على انتاج الغذاء ، وذلك بطريقتين : فمع زوال الغابات يشتد تآكل التربة ، ثم ان القرويين حين يصيرون غير قادرين على الحصول على حطب الوقود ، يحرقون روث البهائم بدلا منه ، وبذلك يحرمون التربة من المواد العضوية المغذية الضرورية .

ولكل من الضغوط السكانية المتزايدة ، وزوال الغابات ، وفلاحة انواع التربة الفقيرة أثره على التربة السطحية التى تعتمد عليها الزراعة . وان فقد بوصة واحدة من التربة السطحية فى « نطاق الذرة » بالولايات المتحدة مثلا (حيث يبلغ عمق

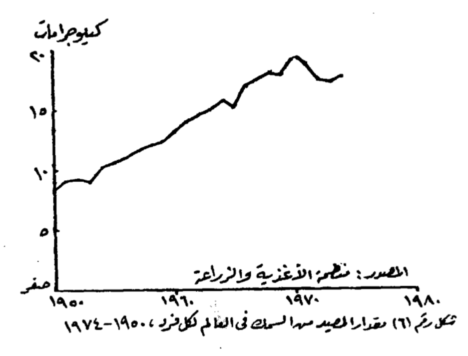
قاعدة التربة السطحية حوالى تسع بوصات) يمكن أن يقلل محصول الذرة بمقدار ٤ر٥ بوشل فى الايكر (البوشل مكيال للحبوب وغيرها يساوى ٨ جالونات أو نحو ٣٢ر٥ لتر) .

وبينما يزداد طلب الغذاء فى العالم بمعدل قياسى لم يسبق له مثيل ، تتضاعف صعوبات رفع خصوبة التربة ، او الاحتفاظ بخصوبتها فى بعض الأحوال . وباستخدام مقادير متزايدة دواما من المخصبات يستطيع المزارعون الابقاء على خصوبة التربة . ومع ازدياد تكلفة الطاقة تزداد كذلك تكلفة المخصب .

* سلسلة البروتين :

المعياران الأساسيان لقياس جودة الأغذية هما « السعرات » والبروتين . أما السعرات فانها تقيس الغذاء من حيث الكمية ، وأما البروتين فيقيسه من حيث الجودة . ويعانى مئات الملايين من الناس بصورة مزمنة من نقص التغذية ، من ناحية نقص السعرات أو نقص البروتين فى الغذاء ، أو منهما معا . ولما كانت زيادة كميات البروتين بمعدل مناسب قد أصبحت أمرا عسيرا فى السبعينات ، فان الافتقار الى البروتين قد يتفاقم فى السنين القادمة .

وثمة ثلاثة مصادر للبروتين تسيطر على اقتصاد البروتين العالمى ، وهى : السمك ، ولحم البقر ، وفول الصويا . والاثنان الأولان هما نتاج النظم الطبيعية ، مصايد السمك والمراعى ، وكلاهما معرض للضغط والاجهاد .



شكل رقم (٦) مقدار المصيد منها السمك فى العالم لكل فرد ، ١٩٥٠-١٩٧٤

ويرى بعض علماء الأحياء البحرية أن مصيد انواع سمك المائدة لا يمكن أن يزيد زيادة محسوسة فوق مستوياته الحالية ، ويقولون ان زيادة البروتين البحرى يعنى الهبوط بالسلسلة الغذائية الى درجة اكل الأنواع الدنيا من السمك . وبالمثل فان

استخلاص مزيد من اللحم من قطعان الماشية فى العالم (وتنتج حاليا قرابة ٤٠ مليون طن فى السنة ، اى ٢٢ رطلا للفرد) قد ادى بالفعل الى زيادة استهلاك المراعى الخضراء بأكثر من طاقتها ، وبالتالى تلفها فى بعض البلاد . اكثر من ذلك ان رفع كفاية وانتاجية عمليات تربية الماشية والدواجن أمر عسير بالنظر الى أن معظم بقاع الرعى فى العالم مراع طبيعية ، أو غير معالجة فى مناطق شبه قاحلة .

وهناك عوامل احيائية هامة تعوق انتاج البروتين ، وبخاصة لحم البقر . فالبقرة وهى من أوائل انواع الماشية التى استأنسها الانسان ، لم تزل تنتج عجلا واحدا فى السنة . ولما لم تكن كل بقرة تحمل عجلا كل سنة ، حتى فى احسن القطعان التى تحظى بعناية كبيرة ، فان معدل انتاج العجول يهبط الى أقل من مائة فى المائة بكثير . وعلى ذلك ففى مقابل كل عجل يدخل فى دائرة السوق يجب الاحتفاظ ببقرة لسنة كاملة . ويمكن بالطبع زيادة القطعان زيادة كبيرة اذا أمكن وضع ماشية أكثر فى الزرائب . غير أن الماشية فى هذه الأماكن تزاحم الناس مباشرة فى الحصول على الحبوب . وغالبا سوف تنقص قوى السوق من كمية الحبوب التى تغتذى بها الماشية اذا استمرت أسعار الحبوب فى الارتفاع .

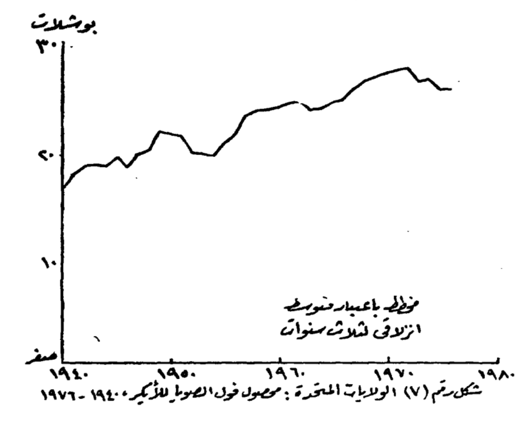
والمصدر الرئيسى الثالث للبروتين المرتفع الجودة هو فول الصويا ، وهو محصول تنتجه ثلاثة بلاد فقط : الولايات المتحدة ، والبرازيل ، والصين حيث نشأ هذا المحصول ، ومن ١٩٥٠ الى ١٩٧٥ زاد محصول فول الصويا العالمى من ١٦ مليونا الى ٦١ مليون طن . وتذبذب المحصول فى الصين عند حوالى تسعة ملايين طن ، فلم يبد أى ميل الى أعلى أو الى أسفل . وحدثت معظم الزيادة فى انتاج فول الصويا فى الولايات المتحدة . وبمحصول عام ١٩٧٦ البالغ ٤١ مليون طن تجنى الولايات المتحدة الآن ثلثى المحصول العالمى .

ومنذ ان زادت أسعار فول الصويا ضعفين فى عام ١٩٧٤ ، زادت البرازيل مساحة الأراضى التى تزرعها بفول الصويا زيادة كبيرة ، من قاعدة أساسية صغيرة حتى سبقت فى عام ١٩٧٦ .

ولم يتيسر لأى من البلاد الثلاثة المنتجة لفول الصويا أن يحقق تقدما فى انتاجية الهكتار الواحد ؟ فالمحاولات التى تبذل لرفع محاصيل فول الصويا تتعارض مع العوامل الأحيائية التى لا تقبل الجدل : فالبقول تحدد بنفسها مقدار ما بها من أزوت (نيتروجين) ، ولا تستجيب الا بدرجة بسيطة لاستخدامات المخصب الأزوتى . ولم ترتفع المحاصيل الا بقدر ضئيل . وزادت محاصيل فول الصويا فى الولايات المتحدة بنسبة ٢٥ فى المائة فقط منذ عام ١٩٥٠ ، فى حين زادت محاصيل الذرة ثلاثة أضعاف تقريبا فى هذه الفترة .

والواقع أن الزراع يحصلون على مزيد من فول الصويا بأن يزرعوا فقط مزيدا منه . ومن ١٩٥٠ الى ١٩٧٣ تحركت مساحة الأرض المزروعة بفول الصويا

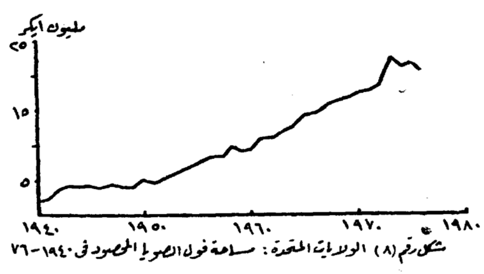
بالولايات المتحدة الى ذروة جديدة كل عام ، فزادت من ١٦ مليون ايكـر الـى ٥٥ مليونا (انظر الرسم رقم ٨)



شكل رقم (٧) الولايات المتحدة : محصول فول الصويا للأيكر ١٩٤٠ - ١٩٧٦

وفى عام ١٩٧٣ توقفت هذه الفترة من الزيادة المستمرة فى المساحة بالايكرات المزروعة فول الصويا ومحاصيلها ، وخاصة لأنه لم يعد هناك أراض بور .

اما المكاسب المستقبلة فى المساحة بالايكرات ، فسوف تاتى على الراجح على حساب المحاصيل الأخرى .



شكل رقم (٨) الولايات المتحدة : مساحة فول الصويا المحصود فى ١٩٤٠-٧٦

وفى ايكر واحد مزروع اليوم بفول الصويا ، من كل ستة ايكرات فى مزارع الولايات المتحدة ، كم من الأرض الزائدة يمكن للمزارعين ان يحولوها الى انتـاج

فول الصويا ، ويمكن فى الوقت نفسه اشباع طلب العالم المتزايد من سائر المحاصيل ؟ فى كثير من انحاء البلد ينافس فول الصويا الذرة التى ترتفع محاصيلها بصورة مثيرة .

وفى حين لا تستطيع الولايات المتحدة أن تستمر فى زيادة مساحة الأرض المزروعة فول الصويا كما فعلت من ١٩٥٠ الى ١٩٧٣ ، فان لدى البرازيل فرصة كبيرة لتحقيق هذا التوسع . ففى البرازيل اثبت فول الصويا وسائر الحبوب من فصيلة النجيليات وبخاصة القمح أنها أكثر تكاملا وأقل تنافسا منها فى الولايات المتحدة . وفى جنوب البرازيل تتناوب زراعة فول الصويا بنجاح ، وهو محصول صيفى ، مع زراعة القمح وهو محصول شتوى ؟ ومن ثم تستطيع البرازيل انتاج محصولين فى السنة . وبالاضافة الى ذلك يثبت فول الصويا الأزوت الذى يساعد فى انتاج محصول القمح .

ولسوء الحظ يتنافس فول الصويا فى بعض أجزاء البرازيل مع الفاصوليا . وان شدة اقبال بلاد أوروبا الغنية والاتحاد السوفيتى واليابان على فول الصويا البرازيلى كغذاء للدواجن ، يؤثر فى زراعة الفاصوليا ويرفع أسعاره ، الأمر الذى يزيد بدوره من حدة جوع البروتين لدى البرازيليين ذوى الدخول الصغيرة ، والفاصوليا هى غذاؤهم الرئيسى . وفى سبيل الحفاظ على انتاج فول الصويا والتوسع فى زراعته ، حددت الحكومة البرازيلية سعر الدعم الزراعى لفول الصويا بمبلغ خمسة دولارات للبوشيل ، وهو يزيد على تكلفة الانتاج المقدرة بمبلغ ٤ر٥ دولار للبوشيل . وعلى هذا فان أية زيادة كبيرة فى انتاج فول الصويا لن يحدث على الأرجح بأقل من خمسة دولارات للبوشيل . قصارى القول ان فول الصويا الرخيص من سلع الماضى الترفية .

وبالنظر الى الصعوبات التى تعترض التوسع العالمى فى انتاج البروتين عالى الجودة ، من سمك أو لحم أو فول الصويا يبدو أن الضغط القوى لرفع أسعار البروتين سوف يستمر . والواقع أن أسعار فول الصويا قد زادت ثلاثة أضعاف فى السبعينيات . فاذا استمر ارتفاع سعر فول الصويا ــ ولعله أحسن مؤشر يدل على انخفاض انتاج البروتين العالمى ، فان الاقلال من حدة جوع البروتين فى المستقبل القريب قد يكون أمرا أصعب مما كان فى الماضى .

ملف التكنولوجيا

تميزت فترة الثلاثين سنة من ١٩٤٠ الى ١٩٣٠ بضروب من التقدم فى الزراعة لم يسبق لها مثيل . وسرعان ما تطورت تكنولوجيات جديدة واستخدمت فى أغراض تجارية : واسهمت فى الحصول على مكاسب سريعة فى الانتاج الزراعى. وثمة خطوات تقدمية كبيرة ميزت علم الزراعة ، وعلم وراثة النبات ، وتغذية الحيوان ، وخصوبة التربة ، وتجهيز المزرعة . وحصل علماء الزراعة الذين يعمل معظمهم لحساب الشركات المشتغلة بالشئون الزراعية على مكاسب عظيمة فى تربية

الدواجن وتغذيتها . وفى مقدور بعض ابقار مزارع الألبان أن تدر أكثر من ٤٠٠٠٠ رطل من اللبن فى السنة ، أى حوالى ٥٠ كوارت يوميا (الكوارت يساوى ربع جالون ـ المترجم) . وفى أحسن الظروف ، تضيف الدجاجة اليوم الى وزنها رطلا فى مقابل مالايزيد على رطلين من غذاء الدواجن . وثمة بعض انواع القمح القزم يمكنها أن تضاعف المحصول فى أى مكان ينمو به القمح اذا توفر الماء والسماد .

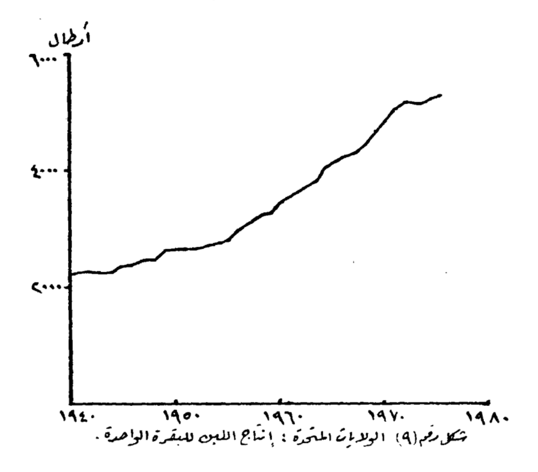
كانت فترة الثلاثين سنة هذه فترة غنية ومثمرة بالنسبة الى علم الزراعة ، تحولت فيها المبادىء والمعرفة العلمية الى تكنولوجيات الانتاج على نطاق قياسى . وقد استغل أخيرا على نطاق شامل العمل الذى أداه فى علم التربة والتغذية النباتية العالم الالمانى يوستوس فون ليبيج فى أواسط القرن التاسع عشر ، ووضع الأساس لصناعة المخصبات الكيماوية . واستفاد القائمون بتربية الحيوان والنبات فائدة كبيرة من معارف علم الوراثة القائمة على أعمال القس النمساوى جريجور مندل ؟ وطبقت هذه المعارف وسائر ضروب التقدم العلمى الجامع على نطاق واسع . ومع ذلك ، ومع انضغاط التموينات الغذائية فى أوائل السبعينيات ضعفت الثقة فى قدرة العلم على ازالة القيود التى تعيق انتاج الغذاء بسرعة كافية لمواجهة الطلبات المتزايدة .

ويبدى العالم الزراعى لويس طومسون بجامعة ولاية ايوا أن التكنولوجيات الزراعية غير المستعملة أصبحت تتناقص . ففى عام ١٩٦٠ كان متوسط محصول الذرة الذى انتجه المزارعون فى ايوا يبلغ بالكاد نصف المحصول الذى انتجته محطات التجارب . على أنه من ذلك الحين ارتفعت المحاصيل فى محطات التجارب ارتفاعا بسيطا فى حين زادت المحاصيل التى انتجها مزارعو الولاية زيادة كبيرة واقتربت بثبات من المستويات التى بلغتها المحاصيل فى أراضى التجارب .

وانتاج الغذاء عملية بيولوجية ، وهو كسائر الأنشطة البيولوجية يجب أن يتوافق مع الضغوط المطلقة التى تقع على النشاط البيولوجى . ويجب أن تتوافق الاتجاهات ، سواء فى انتاج الهكتار الواحد للمحصول ، أو انتاج البقرة الواحدة من اللبن مع النمو حرف S ، أو « منحنى النمو النسبى » . ويتحدد انتاج المحصول فى الهكتار الواحد أساسا بتأثير الطاقة الشمسية . وتتحدد انتاجية الغابة بقدرتها على التجدد فى أحسن الظروف . وفعالية تحويل العلف الى لحم عند الطيور الداجنة محدودة أساسا بفسيولوجية الطيور نفسها ، وأيضا (تحولها الغذائى) .

وفى امكان التربية الانتقائية والتغذية الجيدة لكل من النبات والحيوان أن ترفع حدود الانتاج ، ولكن الى حد ما . وقد تم الاقتراب من بعض هذه الحدود فى بعض الأحوال . فمحاصيل « السرغوم » (نوع من الذرة ـ المترجم) ، وانتاج البقر من اللبن فى الولايات المتحدة ، ومحاصيل الأرز فى اليابان امثلة تبين أن النمو فى المحاصيل قد تجاوز نقطة الانقلاب على منحنى حرف S وبدأ يتباطأ ، أن

لم يستقر . وقد تكون محاصيل الذرة فى الولايات المتحدة والقمح فى غرب أوروبا قد تخطت نقطة الانقلاب على منحنى النمو النسبى .



شكل رقم (٩) الولايات المتحدة : إنتاج اللبن للبقرة الواحدة .

والظروف التى سوف يحاول فيها المزارعون وصائدو السمك فى العالم التوسع فى انتاج الغذاء خلال الربع الأخير من هذا القرن أقل ملاءمة منها فى الماضى . والمسألة لا تتعلق بقدرة العالم على التوسع فى انتاج الغذاء ، وانما بعلاقة التكلفة بالقدرة الشرائية لدى فقراء العالم .

ولقد شهدت السبعينيات انقلابين مشؤومين ومزعجين فى اقتصاد الغذاء العالمى . أحدهما انخفاض انتاجية الأرض ، والثانى انخفاض معدل استهلاك الفرد للغذاء . ورغم أن الانقلاب الاول عرضى وسوف يستعيد بالتأكيد دفعته الصاعدة ، فان المستقبل بالنسبة الى الانقلاب الثانى أقل وضوحا بكثير . كان المستهلكون والحكومات متفائلين . غير أن متوسط مستويات الاستهلاك جعل يهبط منذ عام ١٩٧٢ . وبالنسبة الى أولئك الذين كان الاستهلاك قد بدأ يشبع حاجاتهم الغذائية، كان هذا الانقلاب ضربة ساحقة . ولما كان الغذاء يوزع أساسا عن طريق القوة الشرائية ، فقد أصاب فقراء العالم حصة غير متناسبة من التخفيض .

ان عالما فيه غذاء رخيص ، اسعاره ثابتة ، وسلع فائضة مخزونة ، واحتياطى كبير من الأرض المنتجة غير المزروعة ، مثل هذا العالم قد أصبح الآن ذكرى من

ذكريات التاريخ . وبتخطيط بعض المكاسب المثيرة فى الأولـــوية لتنظيم الأسرة والانتاج الغذائى ، يتكهن المعهد الحاضر بمستقبل اشد قتامة بنوع ما ، مستقبل يتسم بندرة مزمنة الى حد ما ، لا ينعشه سوى فضلات متقطعة ذات طبيعـــة محلية قصيرة الأمد . وتكاليف انتاج الغذاء التى ترتفع بثبات واستمرار قد تجعل التضخم الاجمالى أقل قابلية للعلاج . وقد يؤدى فشل الجماعة الدولية فى معالجة نقص المحاصيل فى البلاد الفقيرة معالجة فعالة الى تفاقم ازمة الغذاء ، وارتفـاع معدلات الوفيات .

والتقدم فى القضاء على الجوع وسوء التغذية امر عسير ، دون اجراء توزيع اكثر عدالة للموارد الغذائية المتاحة داخل المجتمعـات وفيما بينها . ولما كان طلب الموارد الزراعية ينمو فى قطاعات اخرى ، فانه يتعين تحديد أولويات بين استخدام الأرض والماء والطاقة لانتاج الغذاء ولسائر الأغراض . وفى عالم اصبحت فيـه الندرة أمرا شائعا ، ولم يزل الغذاء شيئا أساسيا ، لا لبقاء الانسان فحسب ولكن أيضا للاستقرار الاقتصادى والسياسى ، فانه لابد من منح الزراعة وتنظيم الأسرة أولوية كبيرة للغاية .



* المقال فى كلمات

١ ـ لعل أول ما يلفت النظر فى هذا المقال هـو عنوانه الذى يتضمن عبارة المركزية البشرية ، ومعناها المركزية .

٢ ـ وقد فسر المؤلف معنى هذه العباره فى صدرالمقال حيث قال ان فكرة المركزية البشرية قد ولدت مع مولـد الانسان ، اذ كانت بعض القبائل البدائية أو السلالاتالبشرية تعتقد أنها مركز العالم ويطلق اعضاؤها على أنفسهم اسـم ((الناس)) ويعدون غيرهم عنصرا معاديا من عناصر البيئة . ثم أدت فكرة وحدة الجنس البشرى فيما بعد الى مركزيـة بشرية عامة ساد فيها الاعتقاد بأن خلق العالم يمتد بصـلة مباشرة لخدمة الانسان ، ان لم يكن العالم قد خلق ليكـون مسخرا لخدمة الجنس البشرى

الكاتب : بيير أوجير

ولد فى ١٨٩٩ ، وتخرج فى مدرسة المعلمين العليا . مدير التعليم العالى ، ١٩٤٦ – ١٩٤٨ ، ومدير ادارة العلوم الدقيقة والطبيعية باليونسكو ، ١٩٤٨ – ٦٠ ، والمدير العام للهيئة الاوروبية لابحاث الفضاء ، ١٩٦٠ – ٦٧ ، وعضو اكاديمية العلوم من مؤلفاته الاشعة الكونية ١٩٤١ و(الانسان الميكروسكوبى) ١٩٤٢ و (الاتجاهات الرئيسية فى البحث العلمى)

المترجم : أمين محمود الشريف

عضو لجنة الترجمة بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعيــة ، ورئيس مشروع الالف كتاب بوزارة التعليم ، ومدير دائرة المعارف بوزارة الثقافة سابقا

---

٣ – ثم يتوسع المؤلف فى معنى هــذه العبــارة أن الانسان هو الكائن الحى الوحيد الذى عرف مكانه كحلقة فى سلسلة التطور وأنه ما من نوع سابق على النوع الانســانى استطاع – حين تطوره أن يعرف مكانه كحلقة فى سلســلة الحيوانات . وقد أتيح ذلك للانسان بفضل ما أوتيــه من الوعى والعقل .

٤ – ثم تحدث المؤلف عن المبرر لوجود الانسان على ظهر الأرض فأبان أن الهدف من ذلك هو بقاء النوع واقامــة صرح المجتمع وبناء الثقافة .

٥ – ثم تحدث المؤلف عن العلاقة بين الثقافة والعلم كما تحدث عن معنى تقدم العلم والتكنولوجيا . وختم حديثه بقوله ان الانسان قد استطاع أن يدمر البيئات المســتقرة بأستخدام الطرق التكنولوجية المترتبة على العلم ولكنــه

يستطيع ان يقيم توازنا جديدا فى البيئة باعتباره اول كائن حى قادر على أن يعرف طبيعته ذاتها ومكانها فى الكون .

لقد ولدت فكرة المركزية البشرية مع مولد الانسان ، اذ كانت بعض القبائل البدائية أو السلالات البشرية تعتقد انها مركز العالم ، ويطلق أعضاؤها على أنفسهم اسم « الناس » ، ويفقدون غيرهم عنصرا .. معاديا من عناصر البيئة (طبقا للاصطلاح الحديث) .

ثم ادت فكرة وحدة الجنس البشرى فيما بعد الى مركزية بشرية . عامة ساد فيها الاعتقاد بأن خلق العالم يمت بصلة مباشرة الى الجنس البشرى ، ان لم يكن العالم قد خلق ليكون مسخرا لخدمة الانسان ثم تولت التقاليد الايديولوجية تقنين هذا الاعتقاد ، فطبقته على شعب مختار واحد او على جميع الافراد الذين رئى انهم ينحدرون من صلب أحد الالهة بطريقة ما . ومن هنا نرى تلك المقاومة العنيدة والعنيفة التى عارضت ــ ولا تزال تعارض ــ نظرية دارون فى التطور ، وتستنكر بشدة ما تدعيه من أن التطور يشمل الانسان ايضا . على أنه يجب الا يغرب عن البال ان الزعم الساذج بأن الانسان من نسل القرد قد اختفى ليحل محله القول بأن الانسان والقرد يشتركان فى سلف واحد .

ولاشك ان هذه المركزية البشرية يمكن أن ترتبط بطريقة « طبيعية » بالسلوك المشاهد فى جميع الحيوانات . فالحق ان الأفعال المباشرة لأى كائن حى تتجه نحو تحقيق مصلحته الذاتية اى نحو بقائه . وعلى الرغم من أن هذه الأفعال ذات أصل فسيولوجى محض فى الحيوانات الدنيا ، فانه يضاف اليها فى الحيوانات الراقية غرائز محكمة تتضمن الجهاز العصبى المركزى . يضاف الى هذه الافعال المتصلة بالمصلحة الذاتية ، أفعال وراثية تعمل دائما على بقاء « النوع »، وتتجلى بصفة خاصة فى التناسل وتربية الذرية . زد على ذلك أن بقاء الافراد بين الحيوانات الاجتماعية لا يكمل الا ببقاء الجماعة التى تتألف من هؤلاء الأفراد . ومن أمثال هذه الجماعات كثيب النمل ، وخلية النحل ، والقبائل والمجتمعات البشرية . ومما تقدم يتضح أن هناك ثلاث مركزيات : المركزية الذاتية وهدفها بقاء الذات أو الفرد والمركزية النوعية وهدفها بقاء النوع ، والمركزية الاجتماعية وهدفها بقاء الجماعة أو المجتمع .

ونعود فنقول : هل المبرر لوجود الانسان على ظهر الأرض هو بقاء النوع باعتبار أن هذا البقاء مرحلة ضرورية من مراحل التطور فى المستقبل ؟ نقول : ان جميع الذين فكروا فى هذه المسألة ــ باستثناء الفيلسوف نيتشه ــ قد رأوا أن المبرر لوجود الانسان ليس هو الرغبة فى ظهور السوبرمان) الانسان العالى (وانما الهدف من وجوده هو بناء صرح المجتمع والثقافة أى بقاء النوع . وهذا يشبه موقف الحيوانات ولكن الفرق هو أن ثقافة الهيئة الاجتماعية تعادل الغرائز عند الحيوانات الاجتماعية . ولاشك أن مثل هذه الاتجاهات قد ظهرت وبقيت مئات

السنين بل آلاف السنين على مدى التاريخ ، ثم جاءت التقاليد الراسخة متممة لوظيفة الغرائز والميول البيولوجية الوراثية ولم يتردد رجال الفلسفة والدين فى القول بضرورة « بقاء » هذه الجماعة أو تلك و « بقاء » هذه الايديولوجية أو تلك بحجة أن المبرر لوجود الانسان على وجه الارض هو الاسهام فى ذلك البقاء .

وقد حدث تطور ثقافى منذ بدء ظهور الانسان ، فالاختراعات والتغيرات الوراثية الفجائية (الطفرة الوراثية) قد ظهرت واستقرت حيثما ظهرت فائدتها فى مجال البقاء والتنافس . وهنا نجد تشابها فى موقفين وهو أن الانسان يرى أن المبرر لوجوده هو عضويته فى الهيئة الاجتماعية ومشاركته فى الثقافة التقليدية. ويتجدد هذا المبرر كلما طرأ تغيير هام ، ثم يصبح هذا المبرر جزءا من التقاليد وأساسا لثقافة جديدة .

وقد ادت السرعة التى تظهر بها اليوم جميع انواع الاختراعات سواء أكانت ايديولوجية أم دينية أم حزبية الى صعوبة الابقاء على المبررات المتعاقبة . بيد أن « الانتخاب » يلعب دورا معينا فى هذا المجال ، وانه اخذ يفقد فاعليته يوما بعد يوم بسبب كثرة انتقال التقاليد ـ بفعل المؤثرات المختلفة ـ من جماعة الى جماعة .

ففى العقود القلائل الماضية شهدنا مولد نظم اجتماعية ـ ثقافية قوية ، كما شهدنا موتها ، بكل ما تتضمنه من المبررات المختلفة ، واستطعنا أن نتبين أثر « الانتخاب » فى استمرار وجود بعضها واختفاء بعضها الآخر أو ـ فى بعض الحالات ـ استمرار معارضتها تحت أسماء جديدة مثل « الحرب الباردة » أو « التعايش السلمى » . واذا قيل ان المعارضة هى معارضة نظم اجتماعية لا ثقافية كان الجواب هو الاستشهاد ببعض العبارات مثل عبارة « الثورة الثقافية » وهى عبارة ينتحلها المعارضون أنفسهم .

وقد ذهب بعض المفكرين ـ ومن بينهم جوليان هكسلى ـ الى أن هناك شبها بين التطور البيولوجى فى النوع الحيوانى (تطور ينتهى بظهور الانسان) وتطور النظم الاجتماعية ـ الثقافية الانسانية ، واعلنوا أن الفكر الانسانى يسير على نهج الحياة العضوية فى تطور عظيم عام ، وان تطور النوع الانسانى يعقبه تطور الثقافة الانسانية ، وان هذا التطور يتسم أولا بالطفرات الوراثية ثم بظهور ايديولوجيات جديدة . ولكنهم أرادوا أن يذهبوا الى أبعد من ذلك فتساءلوا : هل هذا التطور الثانى يمكن أن ينجو من الآلية ولأعمال اللا ارادية التى تسود فى الانواع الحيوانية أى ميكانيكية الطفرة والتنافس الداروني ؟ ورأوا أن الأمر ينتهى بوجود جنس بشرى كامل الوعى يقرر مصيره بنفسه .

***

ويبدو لى اننا نستطيع أن نذهب فى الواقع الى ما هو أبعد من ذلك . ولكى يتسنى لنا ذلك ، يتعين علينا أن نحقق بالنسبة للثقافات ذلك « المخرج » الذى

حققه الانسان بالنسبة لسلسلة الانواع ، وذلك بمعرفة مكانه فيها ورفض هذا المكان فى الوقت نفسه . وبيان ذلك أنه ما من نوع سابق على النوع الانسانى استطاع — وقت تطوره — أن يعرف مكانه كحلقة فى سلسلة الحيوانات ، ولكن الانسان وحده هو الذى عرف مكانه فى سلسلة التطور حتى ولو كان هو نفسه حلقة حاضرة فى تلك السلسلة أو آخر حلقة فيها . وقد يستحيل علينا أن نطالب أى نوع من الثقافات التقليدية أن تعرف مكانها معرفة تامة فى تطور الثقافات جميعا . ولاشك أن الثقافة تعرف أوجه الشبه والخلاف بينها وبين الثقافات الاخرى . حاضرها وماضيها ، ولكن بعض هذه الثقافات يشوبه القصور ، واكثرها يتسم بالهمجية وبعضها يثير السخرية أحيانا . والخلاصة أنه من الصعب ادراك القيمة الموضوعية للصورة الكلية للتطور فى اطار النظام المغلق للقيم والاحكام والمبادىء والأساليب التى تنطوى عليها احدى الثقافات التقليدية .

وقد قدم لنا بعض المؤرخين العظام أمثال « توينبى » وكذلك بعض الفلاسفة نظرات شاملة لهذا التطور . ولكنهم عندما حللوا مختلف الثقافات رجعوا بوجه عام الى ثقافتهم الخاصة ، والقيم التى يدينون بها . ولكى يقوموا بتحليل موضوعى يتعين عليهم أن « يخرجوا » من مجالهم الثقافى الخاص وهنا يقضى المنطق باتخاذ خطوة يمكن ان تلعب فيما يتعلق بتطور الثقافات التقليدية ذلك الدور الذى لعبه فى فكر الانسان تطور الانواع ومكان الانسان فيها .

وقد اضطر الانسان لكى يعرف طبيعته البيولوجية كنوع من الأنواع . ويعرف مكانه فى سلسلة التطور أن يدرس ذلك من « الخارج » . ولاشك أن خروج الانسان من طبيعته الضيقة كحلقة فى سلسلة التطور يتيح له ماسماه بعض الفلاسفة الانسلاخ من مجموع الأنواع وذلك بفضل الوعى الذى انفرد به دون سائر المخلوقات. وفى وسع الانسان أن يفعل ذلك دون أن ينكر طبيعته كحلقة فى سلسلة التطور وطبيعته كحيوان ثديبى فى العائلة البشرية ، وذلك لأن فكره ، وطبيعته البيولوجية يختلفان فى الجوهر ومن ثم يمكن أن يتعايشا دون أن يندمجا . وانى اقترح هنا نفس هذا النوع من الخروج — الخروج من السلسلة الثقافية الذى يتيح لنا ان نلقى على التطور نظرة من أعلى . وسأبين أن الفضل فى اتخاذ هذه الخطوة يرجع الى ظهور التفكير العلمى .

وسأبدأ حديثى باقتراح العدول عن فكرة وجود ثقافتين تجعل العلم معارضا للثقافة التقليدية التى توصف بأنها انسانية ، وتدعى ان العلم عبارة عن ثقافة جديدة أى ثقافة ثانية . فالحق أن هناك اكثر من ثقافتين ، وهذه الثقافات فى مجموعها تؤلف سلسلة تطورية تختلف طبيعة كل منها عن طبيعته الأخرى ، ولكنها أيضا تتشابه فيما بينها من حيث تكوينها الاساسى . وليس للعلم مكان بين هذه الثقافات ولذلك يتعين حذفه من القائمة ، لأنه منهج فكرى تحكمه قواعد دقيقة معينة تختلف عن القواعد التى تحكم أساليب التفكير فى الثقافات التقليدية . وهذه الحقيقة تعد حدا فاصلا بين التفكير العلمى والثقافات والايديولوجيات

المختلفة . ولفهم هذا الاختلاف على نحو أفضل يتعين علينا أن نحلل العمليات العقلية التي تصاحب الانتقال من ثقافة الى أخرى ونقارن بين هذه العمليات ، والعمليات التي توجد في الانتقال من أحدى هذه الثقافات الى التفكير العلمي .

وأول مانلاحظه في هذا الصدد ان الانتقال التام من ثقافة الى أخرى يتطلب في المقام الأول منذ سلسلة كاملة من العمليات الفكرية ، والقيم ، والاحكام قبل الانغماس في ثقافة أخرى . وهذه العملية أشبه « بتجريد » عقلي أو ـ كما يقول كلود ليفي ـ شتراوس ـ أشبه بنوع من « الانسلاخ » . ووصف الخلافات الدينية غني بالتفاصيل المتعلقة بهذا التجريد الذي يقضي بتجرد الانسان من الثقافة والايديولوجية القديمة حتى يتسنى له أن يرتدي ملابس الثقافة والايديولوجية الجديدة . وهذه الضرورة تفسر لنا الفشل الذي نواجهه عندما نحاول التوفيق بين الثقافات المختلفة أو المزج بينها أو خلق تفاهم عميق بينها . وهذا هو ـ مثلا ـ حال الثقافة الغربية والشرقية التي حاول رجال الفكر والجمعيات الفكرية ، والمنظمات الدولية الجمع بينهما . ويلاحظ أن مؤيدي كل من الثقافات المتعارضة يفهمون كلمات الثقافة الأخرى وعباراتها وأفكارها . ولكن المشكلة هو قصور المعلومات عن الثقافة الأخرى أي ارتداء ثوب تنكري فوق الملابس الأصلية . وغني عن البيان أن الملابس لا تغير من طبيعة الانسان .

وليس من الضروري أن تكون الثقافات المختلفة متعارضة ومتناقضة . فعبارة « الرجل المثقف » تستخدم لوصف الرجل الذي يلم بالثقافات الأخرى الماما أوسع من المامه بشئون جماعته وأسرته . على أن الأمر الجوهري في هذا الشأن هو قدرة الرجل المثقف على تذوق الأعمال الأدبية والفنية والفلسفية والاخلاقية والشعرية التي أبدعها الناس في شتى الاقطار والاعصار . وهذه الاعمال ليست سوى انعكاس لتجارب ثقافية مختلفة ولذلك فان الانغماس الكامل في هذه الثقافات واستيعاب أفكار رجالها يتطلب مجهودا عقليا عنيفا اذ أن الامر لا يقتصر على مجرد القراءة الذكية ، وزيارة المتاحف ، وتجشم الأسعار . وقد وصف لنا « رينان » امكانية هذا التبادل الفكري ، والكفاح المفتوح بين نظامين فكريين في داخل العقل الواحد . ومع ذلك فانك اذا سألت أحد الخبراء بثقافتين مختلفتين ـ أيا كان هذا الخبير ـ فانه ـ اذا كان امينا ـ لن يدلك الا على ثقافة واحدة فقط مهما اتسع تعريفه للثقافة

***

واين وضع العلم في هذا كله ؟ هل توجد أولا علوم متعددة مبنية على ايديولوجيات ، وقيم ، ومبادىء مختلفة تمثل آراء مختلفة عن العالم ، ويستطيع بعضها أن يحل محل بعض بمقتضى ثورة داخلية ، كما تستطيع في الوقت نفسه أن تعيش كمجموعة متعددة لا كوحدة كلية ؟ الجواب عن ذلك بالنفي ، لأن مختلف فروع العلم لا تمثل سوى مجالات محددة من الطبيعة ، تتبع طريقة واحدة ، وتؤلف وحدة حقيقية . ولنذكر ان الطريقة العلمية تبدأ بالملاحظات والمشاهدات التي

يراعى فيها اكبر قدر ممكن من الدقة ، والتى تتم تحت ظروف محددة تحديدا واضحا لكى يبنى منها نموذج يتفق مع احكام العقل ، ثم يتم اختبار هذا النموذج ـ الذى لا يزال فى مرحلة الفرض ـ عن طريق مواجهته بتجارب وملاحظات جديدة. والفرض من هذه المواجهة هو تحويل الفرض الى نظرية علمية . ولنذكر ان مثل هذه النظريات لا تدعى أبدا انها « حقائق » ، لأنها تخضع دائما لمحك التجارب الجديدة التى قد تتطلب تعديل هذه النظريات أو رفضها ، واستبدال نماذج جديدة بها . وهذا الرجوع المطلق والمباشر الى الطبيعة التى ينغمس فيها الانسان ويؤلف جزءا منها ، وهذا التوافق المحفوف بالمخاطر دائما والدقيق والشامل دائما بين النموذج العقلى وبين مجموعة الظواهر الطبيعية ـ هو الفرق بين العلم ، وبين جميع المناهج الفكرية الثقافية . أنه يعنى أن العلم أشبه شىء بنهر كبير يتحرك باستمرار نحو محيط بعيد ، ولكن حركته لا تتألف من سلسلة من المحطات كما هو الحال فى تطور الانواع والثقافات ، بل هو ـ اى العلم ـ سلسلة من المعالم الرمزية ذات حركة تخضع لمبادىء ثابتة وتسير الى الأمام دون توقف ودون عودة الى الوراء . وسنرى ان الرجوع الى العالم الخارجى يوجد أيضا فى تطور الانواع والثقافات ولكنه رجوع غير مباشر ينتقل بوساطة أشياء ذات طبيعة ثابتة فى حين أن رجوع العلم الى الطبيعة والاهتداء بها يتم بطريقة مباشرة ودون وسيط .

ويستطيع العلم أن يتعايش مع الثقافة أو الدين أو الفلسفة بسبب هذا الاختلاف العميق فى طبيعة كل منهما . ومن هنا نستطيع أن نفهم بسهولة امكان تعايش الفكر العلمى والفكر الثقافى فى العقل الواحد وبخاصة الافكار المتصلة بالايديولوجية أو العقيدة الدينية ، وبالجمال أو الأخلاق . والأمثلة التاريخية لذلك كثيرة . كتب بسكال يقول : « للقلب أسبابه التى لا يستطيع العقل أن يفهمها ويتجلى هذا التعايش أيضا بين المفكرين المحدثين ، واقول بصراحة ان كلا منهم يستطيع ان يلاحظ ذلك فى نفسه . ولقد قيل انه توجد حواجز فى المخ ، ولكنى اعتقد أن هذه العبارة تفرض قيودا لا لزوم لها ، لأن الأسلوبين المختلفين من التفكير قد يؤثر كل منهما فى الآخر دون أى اندماج ، تماما كما نرى الأمم الكبرى تنتهج سياسة التعايش السلمى بعضها مع بعض .

ويخيل الى ان هذا الراى يلقى ضوءا جديدا على ماسمى (أزمة العلم) التى اثارت أصواتا تعلن « فشل العلم » . وفى رأيى أنه حدث سوء تفاهم فى هذا الشأن ، فقد كانت هناك رغبة فى ان يدخل العلم فى عداد الثقافات وأن يقبل أساليب التفكير ويستخدم المفاهيم التى هى بطبيعتها مغايرة له . وطولب العلم بأن يحدد فى اطاره معنى الخير والشر ، والحسن والقبح بل أيضا الحقيقة المطلقة التى تتحدث الثقافات عنها عادة بعبارة « الحقائق الدينية » أو « الأمر المطلق » (عند الفيلسوف كانط) وترتب على فشل العلم فى ذلك ابعاده عن دائرة الثقافات وتجنب أوجه الشبه بين العلم والثقافة . ولاشك أن النظريات الحديثة المتعلقة بالادوار والوظائف المتميزة لكلتا منطقتى اللحاء المخى ذات مغزى فى هذا الشأن ،

فهى تقول ان الجانب الأيسر من المخ مخصص للتفكير المنطقى المجرد واللغة التى تعبر عنه ، وان الجانب الأيمن مخصص للتفكير والسلوك المادى المتصل بالعالم الخارجى مباشرة (١)

وكيفما كان الأمر ، فانه يكفى أن نثبت التفاعل المستمر بين هذين المنهجين من التفكير : العلم والثقافة . ولذلك فان الانتشار الحالى للعلم ـ وهو يرجع فى أساسه الى النجاح التكنولوجى الناجم عن تطبيقه ـ يحمل بعض رجال الثقافة والفلسفة بل ورجال الدين على الاستشهاد بالعلم فى محاضراتهم وكتبهم ـ بصفة اسمية وباستخدام المصطلحات العلمية على الأقل .

وعلى العكس من ذلك فقد اعترف العديد من العلماء ومنهم جاك هادا مرد ، وهنرى بوانكاريه ، بما للحدس والالهام وبخاصة حرية الخيال من أثر كبير فى ابداع الفكر العلمى . ولعل الابداع الروحى والافكار العلمية الجديدة هى ثمرة الافكار المتولدة من الحدس والخيال وهى أفكار قد توصف ـ على سبيل السخرية ـ بالغموض ومخالفة المنطق والعقل ، لأنها لا تسير فى الدروب الضيقة التى تسير فيها الأفكار الهندسية .

وبالاضافة الى هذا التعاون بين العلم والثقافة كشريكين عاملين وجد نوع آخر من التأثير المتبادل بينهما منذ زمن طويل . ذلك أن كلا منهما يتخذ الآخر « مادة دراسية » له : مادة للدراسة والتحليل العلمى من جهة ، ومادة للابداع الأدبى والفنى من جهة أخرى . وقد استخدم العديد من الفلاسفة ، والكتاب ، والشعراء ، والفنانين ، المادة التى وفرها لهم رجال العلم فى أبحاثهم . ومن الأمثلة الرائعة لذلك فى عالم الأدب أمسية مع السيد « الاختبار » بقلم بول فاليرى ، و « البحث عن المطلق » بقلم بلزاك . وقد استخدم الكثير من النتائج النظرية والتجريبية فى النوع الأدبى من القصص الخيالى العلمى .

***

يجب علينا الآن أن نلقى نظرة أدق على ما يحدث فى مجال الزمن ، ويجب أن تشمل دراستنا أزمنة متعددة لازمنا واحدا ، فيقول ان كل ثقافة ، وكل نوع من أنواع الحيوان ، وكل جماعة أو مجتمع من الناس أو الحيوانات يمتاز بخاصية الدوام أو البقاء ، خلافا لما يحدث فى العالم الخارجى « غير العضوى » الذى يتسم

---

(١) اعتقد انه يجت ان يضاف الى ذلك الغرائزوالعواطف والانفعالات التى هى صفات انسانية تابعة من الجزء المركزى للمخ الموروث عن اسلافنا الاقدمين : الدماغ القديم . وقد خصص عدد كامل من رسالة اليونسكو اخيرا (يناير ١٩٧٦) للدراسات الخاصة بهذا الموضوع . وفى وسعنا ان نقول تتميما للفكر الفسيولوجى : (نحن نعلم انناسنموت (النصف الايسر من المخ) ، لانؤمن بذلك (الدماغ القديم) ، لانستطيع ان نتصور ذلك (النصف الايمن) وهكذا نجد ان التقسيم الثلاثى للفكر هو نتيجة هذه الدراسات التجريبية التى تبرز الافتراض بتقسيم ثلاثى فى الافكار اشرت اليه فى كتابى (الانسان الميكروسكوبى) وفى مقالى بمجلة ديوجين

بالتقلب وعدم الاستقرار . ويمكن تفسير ذلك اذا لاحظنا ان الثقافات ــ كالانواع ــ تتطــور وتتغير على مراحل الى أن تظهر الطفـرات . وهـذه الطفـرات قـد تكون ذات أهميــة كبيرة أو صــغيرة ، ولكنهــا تمثل دائما انتقالا وتحـولا سريعا من حالــة مســتقرة الى أخرى مســتقرة . بيد ان المواقف الثقافية الثابتــة ــ كالكائنات الحية ــ ليست غير قابلة للتغير ، بل تعتريها تغييرات بسيطة تصيب الافراد والجماعات الصغيرة . وعندما يطول أمد الاستقرار والثبات ، فان تطـور الثقافة خلال حقبة طويلة من الزمن يكون حافلا بالأحداث الناجمة عن التفاعل مع البيئة ، ولكن هذا التطور يظل دائما فى اطار القيم والمبادىء التى تحكم سـيره وعمله . وبالطبع كل شىء يتغير حتى كان التفاعل من القوة والسرعة بحيث يؤدى الى طفرة تنبىء عن ظهور ثقافة جديدة .

وهنا يجب أن نلاحظ على الفور الفرق العظيم بين الطفرات (التغيـرات الفجائية) التى تحدث فى الكائنات الحية والتى تحدث فى الثقافات الاجتماعية . فالأولى هى فى جوهرها تغيرات فى التكوين الوراثى الخاص بالانواع ، وهى تظهر بالصدفة ولذلك تعتمد فى بقائها ــ بواسطة الانتخاب ــ على الظروف الخارجيــة والداخلية وبخاصة اذا استطاعت الظروف الخارجية أن تزيد أو تنقص من كثرة واهمية التقلبات والتغيرات الناجمة عن الصدفة . أما الطفرات الثانية فهى ــ على العكس من ذلك تظهر فى طبيعتها ذاتها ذلك التأثير القوى والمباشر الناجم عن الأحداث الخارجية والداخلية ، فنجد فيها ــ خلافا للتطور البيولوجى ــ نوعا من الوراثة التقليدية ذات الخصائص والصفات المكتسبة .

ولكى يكفل الاتصال (شفهيا كان أم كتابيا) استمرار وجود الافكار يجب أن يجلب كل تحول وتغير مزية خاصة ، كما هو الحال فى الانواع الحية . وهــــذه المزية قد تكون داخلية كضمان الدوام أو التوسع أو سرعة التناسل وقـــد تكون خارجية وهى ميزة التكيف مع الكائنات أو الجماعات أو الثقافات الأخرى التى تدخل بذلك فى غمار المنافسة المباشرة بدرجة تتفاوت قلة وكثرة .

وهكذا نصل الى حالة أوسع نطاقا من المنافسة التى قال بها دارون أعنى بقاء الاصلح فى الصراع من أجل البقاء . ذلك أن الظروف الداخلية اللازمة للبقاء فى حالة الفئات الثقافية ــ الاجتماعية ليست جامدة كالظروف البيولوجية اللازمــة للبقاء فى حالة الكائنات الحية الفردية .

وهنا يتطلب الأمر مزيدا من الشرح والبيان لتحليل الفرق من هذه الناحيــة بين الجماعات « أحادية الأصل » التى يأتى جميع أعضائها من بيضة واحدة أو ــعلى الاقل ــ من نفس الأبوين ، والجماعات « متعددة الأصل » كالمجتمعات البشرية وبعض فئات الحيوانات الاجتماعية كالتدربيات . ففى الحالة الأولى لا يوجد تنافس داخلى بين أعضاء الجماعة المتماثلة من الناحية الوراثية ، فى حين انه فى الحالة الثانيــة قد يؤدى الصراع الداخلى الى الاخلال بتوازن البنية مما يؤدى الى تغييرها أو تدميرها . ومن ناحية أخرى فان نوعا من الانتخاب الداخلى قد يظهر بين الفئــات

الثقافية ـ الاجتماعية المختلفة عندما تعود فتتكيف خلال حقبة من الـزمن مع الظروف الخارجية أو الخارجية الجديدة . ومما لاشك فيه أيضا أن بعضها يتجنب ـ أو يؤجل على الأقل ـ التدهور الداخلي عن طريق الركود الذى قد ينجم عن نقص النشاط الناشيء عن غياب الاتصال والتبادل مع الفئات الأخرى ، والناشيء من باب أولى عن غياب المنافسة الحقيقية . وهناك أمثلة عديدة ـ فى جميع عصور التاريخ ـ لما للنشاط الناجم عن المنافسة الخارجية من أثر قوى فى الفئـــات الثقافية ـ الاجتماعية وتنتهى هذه المنافسة عادة بتعزيز الوحدة الثقافيـة ودعم الجماعة لفترة من الزمن على الأقل .

ولذلك فان تطور هذه الثقافات مشروط بما تحققه الفئات الاجتماعية من نجاح خارجي وداخلي . وقد يتحقق هذا النجاح على مراحل من التطور البطيء والأمـد طويل تتخلله فترات من التغيرات السريعة : تغيرات داخلية بطيئة أو سريعة تنجـم عن المخترعات التكنولوجية وتؤدى الى تغيير وسائل الانتاج ومن أمثلة ذلك ثـورة العصر الحجرى الجديد المبنية على ابتكار الزراعة . واقل من ذلك فى الأهميـة اختراع طاحونة الماء (تعمل بانحدار الماء) وطوق الجواد . ومما تجدر الاشـــارة اليه فى هذا المقام ـ لأنه يحدث بشكل مختلف فى مجال العلم ـ هو أن الفشــل أو النجاح يتسم بطابع الشمول والعموم . وقد تتفتت النظم المتماسكة التى تؤلف الثقافات تحت الظروف التى تختبر هذا التماسك . ومن هذه الظروف الصراع الداخلى أو الخارجى ، على سبيل المثال ، وقد تنتقل الأجزاء التى تنفصل نتيجة هذا التفتيت الى جماعات أخرى . وقد وصف ليفى ـ شتراوس هذا الأمر الذى يشبه تكوين أسطورة من الأجزاء المستمرة من أساطير مختلفة وأطلق عليه اسـم « الرتق » . وقد تبدو ظاهرة من هذا القبيل خلال تطور الكائنات العضوية ، وقد أوضح فرانسو جاكوب ، أن مثل هذا النوع من الرتق قد أتاح تكوين مجموعاتمزودة بوظيفة عامة متناسقة ، وفى وسعنا أن نتبين فيها الاجزاء ـ أو الاعضاء ـ المستمدة من الانواع السابقة فى التطور ثم أعيد استخدام هذه الاجزاء بدرجات متفاوتة من التعديل . وانك لتجد فى الثقافات أن تحليل النصوص المأثورة قد يكشــف عن اقتباس أجزاء من نصوص سابقة من المأثورات الأخرى ثم اعيد استخدامها لتكون ـ بفضل عملية الرتق ـ مأثورات جديدة . وأعتقد أن الغرض من عملية « الرتق » فى التطور الوراثى والتقليدى (الثقافى) هو ايجاد وسيلة آلية لتوفير الجهــــد الخلاق . وانك لتجد هذه الظاهرة ـ ظاهرة الرتق ـ فى المجال التقنى بل فى مجال الفرضيات العلمية ولكن بصفة مؤقتة الى أن تعرض هذه الفرضيات عـلى محـك التجربة .

وكما هو الحال فى التطور العضوى كذلك الحقائق الداخلية والخارجيـــة بما فى ذلك الجماعات والثقافات الأخرى لابد أن تواجه التجربة . ولكن هـذه المواجهة التى تؤدى الى نجاح الجماعات الثقافية أو فنائها والتى تؤدى الى انتخاب وتطور الثقافات انما تتم بوساطة النجاح الداخلى والخارجى لأعضاء هذه الثقافات.

وهكذا يتضح ان مجموع الحقائق التى سيتم بها الانتخاب ، والمرجع فى النجاح والفشل يتركز فى الانسان نفسه فمن جهة يتركز فى بنية الانسان ذاته ووظائف أعضائه وغرائزه وميوله بالاضافة الى احتياجاته الطبيعية والوسائل الفنية التى يتم بها تلبية هذه الاحتياجات ، ومن جهة أخرى يتركز فى الفئات الاجتماعية الثقافية الأخرى فى مجال المنافسة المحتملة . ولما كان المرجع يتعلق بالانسان ، كان مرجعا نسبيا لا مطلقا ، ولذلك فانه ليس واحدا بالنسبة للكائنات الاجتماعية المختلفة . ويجدر بنا أن نشير فى هذا الصدد الى ان أفراد الجماعة الثقافية ـ الاجتماعية يعجزون ـ عادة ـ عن أن يحملوا معهم كل المعلومات الخاصة بتلك الثقافة ولا يستطيعون اعادة تكوينها اذا اضطرتهم الظروف الى الخروج من الجماعة. وليس الحال كذلك بالنسبة لخلايا الكائنات الحية المعقدة لا بالنسبة لبعض الحيوانات الاجتماعية التى تحمل فى طياتها كل المعلومات الخاصة بالجماعة حتى ولو لم تستخدم هذه المعلومات بطريقة فعالة .

***

وفى عالم العلم تطور يختلف عن ذلك اختلافا تاما ، فلا يوجد فيه بل يجب الا يوجد فيه مذاهب أو عقائد كالتى توجد فى عالم الثقافة ، واذا وجدت فيه أحيانا مثل هذه المذاهب أو العقائد فقد كانت مظهرا غير مناسب لبعض خصائص الطبيعة البشرية التى تظهر عادة فى الثقافات . ثم ان العلم يتقدم عن طريق العمليات المتبادلة بين النظرية والتجربة ، وتكون الأخيرة أحيانا هى مصدر الأولى. والنظرية فى جوهرها منهج متماسك ذو منطق داخلى ، ولكنها بطبيعتها خاضعة للمناقشة بعد عرضها على محك التجربة ، وقد يتم رفضها أو « تفنيدها » على حد تعبير كارل بوبير . واذا كان واضع النظرية قد بنى نظريته على المنطق السليم فليس فى وسعنا أن نصمه بالخطأ ولكن فى وسعنا ان نقول أن النظرية غير صالحة للتطبيق بقدر ما تتناقض مع التجربة . وهذه الأخيرة ـ على العكس ـ قد تخطىء اذا تطرفت بعض العيوب الى القياس او الملاحظة . ومع ذلك فان التجربة السليمة تظل سليمة الى أجل غير مسمى تحت الظروف التى أجريت فيها . والنظرية التى يثبت أنها صحيحة لمدة معينة قد تصبح فجاة نظرية فاسدة اذا عجزت عن تفسير بعض التجارب الجديدة تفسيرا كاملا بيد انه يجب الا يغرب عن البال أن كثيرا من النظريات تظل « صحيحة » فى مجالات محدودة معنية من التجربة ، ولذلك تكون مفيدة جدا حتى ولو استبدلت بها نظريات جديدة تغطى نفس المجال أو مجالا أعم منه .

وبالاضافة الى نظريات معينة يوجد فى العلم أيضا (مبادىء) او قواعد عامة ، تقترب أحيانا من أن تكون مذهبا أو عقيدة بالمعنى الثقافى للكلمة . وهنا مكمن من مكامن الخطر لم ينج منه بعض رجال العلم . بيد ان المبادىء ليست سوى

اطار عام تصاغ فيه النظريات ، وبذلك تسدى خدمات جليلة كما انها قابلة لاعادة النظر .

***

في أى ضوء اذن ينبغى النظر الى تطور العلم ؟ أعتقد انه فى وسعنا القول بأن انتخاب الافكار العلمية يتم ـ خلافا لتطور الثقافة ـ بالاستناد الى مرجع مطلق مستقل عن الانسان وبالتالى يتم دون أى وسيط كان حتى ولو كان هذا الوسيط هو الانسان أو مجموعة من الناس يعتنقون هذه الأفكار . والتجربة الجديدة تناقض النظرية القائمة ، فتحذف هذه الاخيرة من قائمة كل مصادر المعلومات فى العالم كله . وقد تؤدى النظرية الجديدة الى تجارب تفوق فى دقتها التجارب السابقة ، وعندئذ تصبح هذه الأخيرة فى ذمة التاريخ مع النظرية التى أيدتها هذه التجارب .

وقد قوبل هذا الرأى المعتمد بشأن تطور العلم بالمعارضة من جانب أصحاب نظريات أخرى وبخاصة توماس س . كوهن صاحب النظرية التى يمكن أن توصف بأنها « نسبية » فى حين ان النظرية الأولى ـ وهى نظرية مدرسة فينا خاصة ـ توصف بأنها « واقعية » أو نظرية « التجريبية المنطقية » . وهذا التعبير الأخير ينم على الطابع الثنائى للافكار العلمية أى الصياغة المنطقية لنماذج ذهنية تصورية : فرضيات ثم نظريات ومبادىء ، والبرهنة على صحة ذلك بالتجربة . صحيح أن هذا الرأى المتبع مغرق فى البساطة لأنه يشوبه عيب هام هو قصر الجانب الانسانى للعلم على أمرين : المنطق الداخلى فى الفكر واقامة البرهان بالتجريب . فالفكر العقلانى المحض يعقبه عمل واقعى أو تجريبى . والواقع أن وضع النظريات لم يكن قط ظاهرة مستقلة بل قد تأثر ، وأحيانا تحدد بالظروف الاجتماعية أو الثقافية . وهذا يفسر لنا وجود فترات فى التاريخ سادها الهدوء فى التفكير ان لم يسدها الجمود والركود . وفى أثناء هذه الفترات اعتمد رجال العلم على وضع المقدمات والنظريات التى يقتنعون بها والتى يسميها كوهن نماذج ، واكتفوا بتكميلها بطريقة بالغة التعقيد أحيانا حتى يتسنى لهم تفسير الملاحظات والمشاهدات ، وغالبا ما تحدوهم الرغبة فى تفسير التجارب الدقيقة عن طريق اضافة الفرضيات الخيالية التكميلية والمتفقة مع الحقائق التى يراد ادخالها فى النظرية .

وسرعان ما يتم اقتحام هذا الطريق المسدود أو الحصار المضروب عندما تظهر نظرية جديدة تأتى بعناصر جديدة تستطيع أن تفسر الملاحظات السابقة تفسيرا مباشرا ومقنعا وتدعو الى اجراء تجارب جديدة . وكان هذا هو شأن الثورات العلمية التى ظهرت على يد كوبرنيق ، ونيوتن ، وداروين فيما مضى ، والثورة التى احدثتها نظرية الكم ، ونظرية النسبية ، ونظرية الوراثة التى نادى بها سنيرل ، فى العصور الحديثة . ويعترف مؤيدو نظرية توماس كوهن بنماذج عديدة فى هذا المجال ويتنبأون بفترة جديدة من الجمود والركود ولكن يبدو أن تطور العلم فى

العصر الحاضر لايؤيد رأيهم ، فالنماذج التى يصفها هؤلاء العلماءأحيانابأنها (عقائد) لا تعيش زمنا طويلا فيما عدا بعض المبادىء التى كتب لها البقاء .

ومن المشاهد فى فترات الركود ان الباحثين يميلون الى تنحية الظواهر التى لا تتفق مع النماذج السائدة فى زمنهم . وهذا العزوف عن مواجهة المسائل التى لا تتفق مع النماذج هو من الخصائص المفيدة فى العلم ، خلافا للعمليات الثقافية التى تؤدى الى وضع نظرية عاجلة للاجابة عن بعض المسائل الرئيسية . ولاشك أن قدرة رجال العلم على اعلان جهلهم دون ضعف ودون أن يخدعوا أنفسهم بشأن قيمة نظرياتهم هى من الصفات الكبرى التى يتحلون بها ، كما أنها من الشروط اللازمة لتطور العلم وارتقائه . ولاشك أن العالم الفيزيائى الذى ظل يعمل على تحسين تحليله لطيف الذرات المتألق كان يعمل عملا عمليا عاديا ــ كما قال كوهن ــ لأنه لم يكن يسعى الى تفسير الظاهرة وكان يعلم انه لا يستطيع ذلك ولكنه كان على يقين ان احدى النظريات سوف تظهر فى المستقبل وتتولى تفسير هذه الظاهرة . ولقد كان العالم الذى صرح أنه لن يعرف أبدا التركيب الكيميائى للنجوم عالما ضعيفا . لقد كان الجدير به أن يقول « اننا لم نعرف هذا التركيب بعد »

ويخيل الى أننا نستطيع أن نعرف ان ثمة بعض أوجه الشبه بين عمليات البحث العلمى ، وعمليات الثقافات والايديولوجيات التقليدية ويتمثل هذا الشبه فى العزوف عن نبذ (النماذج) وتحميلها مالا تطيق من التفسيرات الكثيرة لتأييدها فى مواجهة الحقيقة . والسبب فى ذلك أن « البحث » هو نشاط انسانى ذو طابع تكنولوجى واجتماعى معا . وهذا هو السبب أيضا فى أنه يجب أن نجعل رجال العلم وأعوانهم هدفا للبحث العلمى كما يحدث بالضرورة فى حالة الثقافات . ولكن من الخصائص الغريبة ــ ولكنها جوهرية ــ للمعارف العلمية هو طابعها المجهول وانفصالها عن شخصية الفرد . ولاشك أن هذه الخاصية هى التى تجعل العلم يبدو عملا (غير انسانى) فى بعض الاحيان ، ولكنها ميزة جوهرية للمعارف العلمية متى تمسك بها الباحث فصلته عن الحوادث والعوارض الخاصة بهذا الانسان ، فلا تعود تنتمى اليه كفرد ، بل تصبح تراثا للانسانية جمعاء بدلا من أن تكون غيرانسانية) . وهذا هو السبب فى ان العالم حين يعرض نتائجه العلمية يمحو نفسه امامها فلا يقول (انا) ، بل يترك مهمة الكلام فى اغلب الاحيان للاجهزة ، والذرات ، والاجسام العضوية ، والكواكب السيارة . ترى الفنان أو المهندس يقول : « لقد اخترت ورأيت هذا وفعلت ذاك » ، وهو على حق فى ذلك لأن شخصيته لازمة لعمله . أما العالم فيقول : « هذا يحدث تحت هذه الظروف » يعنى بذلك « لو لم اكن موجودا لاتولى المشاهدة والملاحظة بنفسى لحدث هذا بدونى ، لانه قانون طبيعى . وكل الذى فى ذهنى هو نموذج لهذه القوانين » . والانتخاب العلمى يعنى بالنماذج لا بالذين يتصورونها ويقولون بها .

وهذا أيضا هو السبب فى أننا لا نستطيع فى الواقع أن نتحدث عن الطفرة (التغير الفجائى) فى العلم . والطفرة هى ظهور شىء جديد فى مجال وراثى أو

تقليدى يمثل تحولا فى الكائن الحى أو الفئة الاجتماعية ، ويعرضها لعملية الانتخاب . وهى ـ أى الطفرة ـ ليست هى النظرية الجديدة التى تعرض على محك الاختيار ، ولكن الذى يعرض على هذا المحك هو قبول الناس لها ونتائجها . والمشاهد فى العلم أن النظرية الجديدة ذاتها ـ النموذج الجديد ـ هى التى تنتخبها التجربة بصورة مباشرة .

ومن نتائج هذه الطريقة المباشرة والعامة فى الانتخاب العلمى أن أصبح العلم يتسم بطابع عالمى . فهو ـ بسبب طريقة تكوينه وانتخابه ـ شيئا واحدا بالنسبة لجميع الذين يطبقون طريقته . وكانت نتيجة ذلك تكوين « المجتمع العلمى العالمى » المؤلف من العلماء ، والباحثين ، والاساتذة ، والمنتفعين ، والهواه ، وأهل المعرفة بالعلم ـ وهذا المجتمع هو عبارة عن جمعية أخوية دون دستور أو قواعد ـ اللهم الا التسليم التام بالطريقة العلمية . وقد تحققت هذه النتيجة بفضل وسائل الاتصال التى اصبحت اكيدة وسريعة . وقد نتساءل : هل هذا المجتمع مقصور بالضرورة على الانسان ثم نتخيل ماذا يحدث لو أن نوعا آخر من الكائنات المفكرة ـ ربما يعيش فى كوكب بعيد ـ أخذ يدرس مسألة القوانين الطبيعية . وعندى أن الجواب واضح : ان علم هذه الكائنات ذات القدرة على التفكير والتجريب سوف يكون مماثلا بالضبط لعلمنا نحن ، مع درجة من التطور والتوسع تختلف قلة وكثرة طبقا لطول الزمن الذى تستغرقه جهودهم . وبهذه المناسبة أقول أن هذا هو الموقف الفلسفى للكاتب الانجليزى الشهير هـ.ج. ولز فى كتابه « أول انسان فى القمر » .

***

يختلف طابع التطور فى الكائنات العضوية وفى الثقافة عن طابع التطور العلمى تبعا لاختلاف عمليات التطور فى كل منهما . ويظهر الفرق الأول بينهما فى معدل التطور أى سرعته . فالعلم يتطور فى شهور وسنين وبسرعة مطردة فى حين تتطور الثقافات فى عشرات السنين أو القرون والكائنات العضوية فى عشرات الألوف من السنين بل فى ملايين السنين والطريقة غير المباشرة فى الانتخاب هى التى تؤخر تطور هذه الأخيرة .

والفرق الثانى ـ وربما كان هو الفرق الجوهرى بين التطور العضوى والثقافى من جهة ، والتطور العلمى من جهة أخرى يرتبط بفكرة التقدم ذاتها . فنحن نعلم ان هناك مدرستين للفكر بين البيولوجيين والفلاسفة بشأن التطور العضوى : المدرسة الاولى تبحث فى تعاقب الكائنات الحية التى يتولى ظهورها على وجه الارض ، وترى فى هذا التعاقب والتسلسل تقدما موجها خطوة خطوة نحو كائنات اكثر كما لا تنتهى بالانسان . أما المدرسة الأخرى فترى معنى الغائية ، فى المدرسة الأولى وتقول ان التطور ليس موجها بأى حال من الأحوال وانه لا يوجد مبدأ اسمه التقدم يوجه الخطوات المختلفة . المدرسة الأولى ترى أن مبدأ التقدم

دائم السريان فى الوجود أو ترى فى الوجود ما يسمى « بالمبدأ الخلاق » على حد تعبير هنرى برجسون أو على الأقل مبدأ التركيب والتعقيد أى انتقال الكائنات من البسيط الى المركب أما المدرسة الأخرى فترى ان التطور هو نتيجة « ارتياد فى عالم الممكنات » أو هو أشبه بنقطة من الزيت انتشرت شيئا فشيئا فى محيط الممكنات أعنى وجود كائنات عضوية قادرة على الحياة تظهر فى كل عصر دون تقدم فى اتجاه محدد طبقا لمعيار سابق . وعلى ذلك فالتقدم فى نظر المدرسة الثانية تقدم احصائى أى أن مجموعة الانواع الموجودة فى عصر معين اكثر تعقيدا من مجموعة الانواع فى العصور السابقة . وفى وسعنا أن نتبين تقدما حقيقيا فى سلسلة محدودة من الانواع كسلسلة اسلاف الحصان ولكن هذه السلسلة تنتهى بطريق مسدود او تنقطع بالكلية . وهذا هو حال الأمونيات (أصـواف حضرية) والديناصورات فى العصر الجيولوجى الثانى ، والذرية المنقطعة لانسان نياندرثال اسم واد بالقرب من مدينة دسلدورف بألمانيا وجدت فيه جمجمة لانسان بدائى فى العصر الحجرى القديم) .

وفى هذا الغزو التقدمى لميدان الانواع الممكنة – أى القادرة على الحياة – نجد نموا محسوسا فى التعقيد بين الكائنات وذلك الى جانب الركود بل النكوس (الانحلال الى أحد الأطوار السابقة) كما هو الحال فى الانواع الثابتة وفى الطفيليات . وقد وجد الركود والنكوص ايضا فى جوانب خاصة وسلاسل خاصة فى المجال الثقافى الى جانب الزيادة فى شراء القائمة كلها . فاذا قارنا بين الأعمال الأدبية والتشكيلية التى تزداد بها الثقافات وجدنا كثيرا منها ينم على أفكار جديدة طيبة ولكن كلمة التقدم لا تنطبق عليها . واذا اخترنا عمدا واعتباطا طائفة من الأعمال فى صنف معين فقد نرى فيها تقدما لفترة محدودة من الزمن ، ثم يتوقف لاستنفاد أغراضه وحينئذ يجب أن نغير هذه السلسلة من الأعمال لكى نجد شيئا يمثل التقدم مرة أخرى . وأعتقد أننا نستطيع أن نرى أيضا نوعا من « ارتياد الممكنات » فى عالم الأخلاق ، فالى جانب القيم العليا فى العلاقات بين الناس وفى نظمهم الاجتماعية نشاهد نكسات فجائية حتى فى الايام الأخيرة ، وهكذا نجد أن الطريق الذى تقدم فيه الانسان قد يرتد الى الوراء ويسير فى دروب قديمة جدا خلال هذا الارتياد !

ولكن هل يمكن القول بأن العلم يتقدم لان فيه ارتيادا لجميع انواع الممكنات نظرا (النظريات العلمية) وعملا (التجارب العملية) ؟ أعتقد أن وجود التقدم فى العلم ينبع من أن للعلم مرجعا مطلقا (مناطا مطلقا للاستناد) لا يوجد فى الكائنات العضوية والثقافات التقليدية . هذا المرجع المطلق أو مناط الاستناد هو جميع القوانين الطبيعية التى يستند اليها العلم فى مقرراته ، سواء من هذه القوانين والنواميس ما كان عاما وما كان خاصا .

ولاشك أن الانواع الحية المتطورة تخضع أيضا للمرجع المطلق الذى يتألف من الطبيعة التى تعيش هذه الانواع فيها . وكل طفرة تعادل التجربة ، انها تخضع

ـ بوجه ما ـ (لاعتبار) هذا المرجع ولكن هذا الاختبار يتم بطريقة عشوائية دون نموذج سابق ، ودون مناقشة وهذا يفسر لنا الارتياد العشوائى فى عالم الكائنات العضوية الحية .

والسائد فى تطور النظم الفكرية سواء أكانت تقليدية أم دينية أم فلسفية هو ـ على العكس ـ النماذج الذهنية التصورية لا الطرق التجريبية . ولكن الشرط الثانى ـ وهو المواجهة المباشرة مع المرجع المطلق للقوانين الطبيعية مفقود ! ففى الأنواع الحية مواجهة دون نظام ، وفى الثقافات التقليدية نظام دون مواجهة مباشرة . أما العلم فهو نتيجة مواجهة مزدوجة بين أفكار الانسان ، والعالم الذى يعيش فيه . وفى هده المواجهة نرى أن الطبيعة هى التى تأمر والفكر هو الذى يطيع . ومن هنا تنشأ نماذج تتفق مع احكام العقل بالوسائل التى فى متناول أيدينا وبذلك يمكن تجربتها على الطبيعة .

ولذلك فانه كلما أظهرت الدراسة المستفيضة والدقيقة عيبا فى التكيف ، وجب وضع نظرية جديدة دون نبذ النظرية السابقة لأن هذه الأخيرة قد تستخدم غالبا لأمد طويل تحت ظروف مقيدة ثم يؤول الامر بها الى أن توضع فى متحف التاريخ وتصبح أثرا بعد عين . فهل هناك ـ اذن ـ تقدم بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ؟ اذا درسنا النظريات وحدها ، ألفينا أنها عبارة عن ارتياد لكل الأفكار الجديدة التى يستطيع العقل البشرى أن يتصورها . فهناك تقدم متى ظهر بالتدريج توافق أفضل وأوسع مع العالم الخارجى ـ توافق يزداد اتساعا ودقة فى كل مرة دون أى نكوص الى الوراء . وفى هذا التوافق أو التطابق الذى يمكن ان يطلق عليه اسم (المعرفة) يحدث التقدم بمعناه المطلق . وفى رأيى أن هذا هو أيضا السبب فى أن العلم لا يمكن أن يدخل فى عالم الثقافات .

ومن المنطقى فى ضوء ما سبق أن نبحث فى الحدود الممكنة لهذا التقدم العلمى ، فنسأل : هل يمكن أن يسير قدما الى مالا نهاية أم أن له حدودا يقف عندها ؟ لقد سأل الكثيرون أنفسهم هذا السؤال ، وقد حاولت أنا نفسى الاجابة عنه فى مقال نشر منذ عدة سنوات فى مجلة انجليزية اسمها « العالم (بكسر اللام) الجديد » . ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا المقام أن نحدد ثلاثة اتجاهات يسير فيها تقدم المعرفة : اتجاه الامتداد نحو أشياء مادية اكبر أو أصغر ، اتجاه الكمال نحو دقة القياس ونقاء المادة ، وأخيرا الاتجاه نخو التعقيد وبسبب هذا الاتجاه الثالث لا أستطيع أن أتصور ان للعلم حدا يقف عنده . ذلك أن تعقيد الخلايا العصبية فى المخ يمكن أن يكون له حدود ولكن هذا التعقيد يمكن أن يزداد بواسطة الآلات الالكترونية التى تزداد هى نفسها تعقيدا يوما بعد يوم .

واذا كانت قضية العلم واضحة ، فان قضايا الطرق التقنية (التكنيك) وقضايا البحث العلمى التجريبى هى أشد تعقيدا . ويخيل الى أنه من المفيد فى هذا المقام الاستعانة بالطرق الفنية المتبعة فى الثقافات ، واضعين نصب أعيننا

ان ما يسمى « ثقافة » الناس الذين عاشوا قبل اختراع الكتابة تتألف في جوهرها من أعمالهم الفنية ، فالمبتكرات الفنية هى الانسان (من صنعه) وللانسان (من اجله شأنها فى ذلك شأن أعمال الفنانين والحرفيين وهى بهذا الاعتبار يصنعها المهندسون والبناءون . وقد كانت الفنون والصناعات فيما مضى مشتركة : الفنان والصانع واحد . وخير مثال على ذلك ليوناردو دافنشى ، فهذا المثال يكفى للدلالة على هذا الاشتراك . وهكذا نجد ان انتخاب الأفكار الجديدة يتم بصورة غير مباشرة تبعا لنجاحها على المستوى الانسانى ، بل لنجاحها على المستوى الاجتماعى . ويجب أن تجلب الطرق التقنية مزايا للافراد والجماعة التى تملكها. ومن بين هذه المزايا الوسائل الفنية للبحث العلمى ، حتى ذلك البحث الذى يجرى حبا فى العلم ذاته لا بهدف التطبيق المفيد المباشر . ولعل تدخل التقتية فى البحث العلمى — وهو التدخل الذى يزداد أهمية باستمرار — هو الذى يضع العلم فى عداد الانشطة الاجتماعية ويقربه من الثقافات كما حدث فى الطرق التقنية ذاتها . ولكن علينا أن نلزم جانب الحذر فى هذا المقام فقد قال باستير انه لا يوجد علم تطبيقى وانما توجد استخدامات أو تطبيقات للعلم . ومن بين هذه التطبيقات وسائل البحث ذاتها ، وان كانت لاتفرض — بأى حال — على العلم طابعها النسبى أو ارتباطها بالحالة الاجتماعية أو الثقافية .

ويخيل الى أن هذه الاعتبارات قد تساعد على توضيح الخلاف بين الاتجاهين الابستمولوجيين (المتعلقين بنظرية المعرفة) العظيمين السائدين فى الوقت الحاضر الا وهما الاتجاه المطلق والاتجاه النسبى وهذا هو السبب فى القول بأن فكرة التقدم هى نسبية سواء فى الطرق التقنية أو الثقافات . فالتقدم ليست له صفة الاطلاق التى تتسم بها المعارف العلمية القائمة على التنظير (النظريات) والتجريب (التجارب العملية) . ومن الشائع اليوم تساؤل الناس عن موضوع « التقدم » التقنى . مثال ذلك سؤالهم عن تقدم الطاقة النووية : هل هو تقدم بالمعنى الصحيح ؟ أقول : ان هذا يتوقف على المعايير الاجتماعية التى تستخدمها . والمعيار الوحيد الذى يقاس به التقدم هو سيطرة الانسان على العالم الخارجى ونحن نعلم أنه لا يمكن الظفر بشىء من الطبيعة الا اذا عرفنا قوانينها ثم أطعنا هذه القوانين .

يبقى هنا أن نبحث بعض جوانب الحد الفاصل بين الثقافة والعلم وهى جوانب مثيرة بصفة خاصة . لقد رأينا أن الأخير قد جار على اختصاص الأولى ، فهو يستخدم أدوات الفكر التى هى جزء من الوراثة والتقاليد الثقافية . وعلى العكس نجد الثقافة تجنح الى القضاء على النتائج والأفكار العلمية . بيد انالتعايش يمكن ان يظل سلميا بينهما بشرط احترام كل منهما لمجال الآخر . وخير مثال لهذا الاحترام المتبادل هو رد « دى لابلاس » على نابليون حين سأله « أى مكان لله فى نظام الكون ؟ » فاجاب لابلاس (سيدى لا حاجة بى الى هذا القول !) اى أنه لا خلط بين الأمرين . فنلدع الثقافة تنمى ثروتها المتضاعفة من العقائد ، والقيم، والاخلاق ، والفلسفة ، واصول العلاقات بين الناس ، والحياة الشخصية . انها

ـ اى الثقافة ـ تبنى « قيمها » على الأوضاع الوراثية للفكر ، على مبتكرات العقل المبنية على التقاليد ، على النظريات الفلسفية كالوضعية ، والبراجمتية (فلسفة الذرائع) والاوامر المطلقة (عند الفيلسوف كانط) والنبوءات والتأملات . والمبرر غير المباشر لهذه الثقافات هو نجاحها فى توفير أسباب الحياة السعيدة للافراد والمجتمعات . وهذا المبرر يشبه المبرر لتطور الانواع واذا اردنا تعميم فكرة التبرير هذه ، وسلمنا بأن المبرر لتطور الكائنات الحية يصدق على الحياة عامة ، استطعنا أن نضع نوعا من أخلاق البيئة ، فالانواع التى تعيش فى توازن بيولوجى مكونة بيئة مستقرة تمثل حالة مثالية (من ناحية الأخلاق البيئية) لا يهزها سوى التغييرات الهامة التى تطرأ على الظروف الخارجية ، أو ظهور انواع جديدة تؤدى بعد فترة مضطربة الى حالة مستقرة جديدة . ونريد أن نسأل الآن : هل يستطيع الانسان أن يبنى فكرة البيئات الثقافية المستقرة على وجود ثقافة بيئية ؟ وكما أن الانسان ـ ذلك الكائن الحى الذى « خرج » من التطور بفضل ملكة التفكير ـ قد استطاع أن يدمر التوازن البيئى ولكن فى مقدوره أيضا أن يعيد هذا التوازن ببذل مجهود بيئى ، وكما أن الانسان ـ ذلك الحيوان الثقافى ـ قد استطاع أن « يخرج» من تطور الثقافة بفضل العلم ، وان يدمر البيئات المستقرة باستخدام الطرق التقنية المتولدة من العلم ـ فهل يستطيع أيضا أن يقيم توازنا جديدا مرضيا فى البيئة ببذل مجهود على المستوى الثقافى ؟ ان هذا ـ لو تم ـ يكون مبررا حقيقيا لهذا العلم الخارج عن دائرة الثقافة بالاضافة الى العلم الناجم عن التقدم المطلق . ولكن لعل فى ذلك أيضا مبررا لوجود الانسان لا كفرد ولا كنوع ولا كعضو فى مجتمع ولا كصاحب ثقافة تقليدية ولكن باعتباره أول كائن حى قادر على أن يعرف طبيعته ذاتها ومكانها فى الكون .



* المقال فى كلمات

الألعاب ، والفولكلور ، والمهرجـــانات مظاهر للابتكار الرمزى ، لكل منها اساليبه ، وهناك علاقات تربطهـــا ، ومبادىء تحكمها ، ومراحل انتقال بينها ، وتصب كلها فيما اصطلح على تسميته بالفن ، وبالنص الأدبى .

فأما الألعاب . فان لها ثلاث خصائص من حيث الانتاج الرمزى : فهى تشغل مجال الخيال ، وهى أول تشـــكيل للزمان والمكان ، ويحكمها مبدأ المتعة .

اللعب يشكله نشاط الخيال مدعما بالايماءة ، والمادة المستعملة ، والرموز ، وهو وليد حيوية مفرطة ، وهـــو أول دعامة موضوعية لمظاهر الرغبة والحلم ، وأول بناء يتخـذ الطابع الاجتماعى . اللعب ينقل الطاقة اللبيدية (الشهوانية) بسهولة ، والطفل المحروم من اللعب يشكو الضعف والتعب، والانطواء . واللعب مظهر طبيعى لحب الاختلاط بالناس .

الكاتب : ادمون رادار

ادمون رادار : استاذ فى المعهد العالى للعمارة ، سان لوك ببروكسل ، يشترك بالتحرير فى العديد من المجلات البلجيكية المتخصصة فى الفن والتاريخ . اهم مانشر من اعماله (الوجه الجديد لنيقولا مكيافيللى) بالمجلة البلجيكية العامة و (اللعب فى اعمال بيير بولى روبنز) بالمجلة الجديدة ، (الفن والعمارة ، ١٩٧٥ بروكسل ، (ابتكار العلامات وتحولها) ١٩٧٨ باريس

المترجم : أحمد رضا

مدير بالادارة العامة للشئون القانونية والتحقيقات بوزارة التربية والتعليم (سابقا)

واللبيدو ، التجسد العصرى لايروس (اله الحب عند الاغريق) يبحث عن التسامى فى اللعب .

وأما المهرجان ، فانه العاب جماعية ، ملازمة لتجربة المشاركة ، يحكمها مبدأ المتعة ، ولابد أن تتوافق الألعاب الجماعية فى المهرجان مع الأعمال والأيام والمواسم . وتختلف مظاهر المهرجان عن مظاهر الالعاب لان الاولى تتصل بأساطير الجماعات .

ويعبر المهرجان عن رمزيته فى أوج الممارسة ، وتنتشر الرموز فى أوقات المهرجان وتتخلل العاب القبيلة اشارات الى المقدسات والأساطير والشعائر والآلهة تتحول بالتالى الى انماط دنيوية . وينتمى الى الفولكلور كل اشارة أو موضوع يستحق الظهور فى المهرجان . وأما الفولكلور فانه يمكن أن يقدم اعمالا تستجيب لدواعى الفن ، غير

ان هناك فرقا بين اشكال الفولكلور ، واشكال الفنون الجميلة . والتعبير فى الفولكلور تحكمه اصول التقاليد الشفوية ، اما الاشكال الفنية فتحكمها تكوينات النص . والتقاليد الشفوية متطلبات خاصة ، ومن صفاتها الحضور والمشاركة الجماعية . وقد تأثرت العاب الفولكلور بايروس، ويسودها طقوس الشهوة الجنسية . واليوم نرى الأعمال غير المدونة فى نصوص ، وتعتمد على ذاكرة الأحياء ، وحماسة المؤدين ، واقبال الجمهور تختفى بزوال المجتمعات التى نشأت فيها ويظهر الفولكلور الآن فى المتاحف ، والمسارح ، والرحلات السياحية دون حاجة الى المهرجان وهناك فولكلور معاصر ، يظهر فى الأوساط الصناعية والحضرية .

واخيرا فان الفن لعبة علمية تسهم فى وعى الجماعة ، يتحدد بناؤه بالنص ، وهو عمل متفتح ، شاعريته يحكمها أيروس . والفن يشبه اللعب فى مظاهره وانشطته.ويمكنأن يتحول اللاعب الى فنان . أما النص الأدبى فله وظيفته وسماته ، وعلاقة بالماضى والحاضر والمستقبل ، وهو وثيقة تنشىء وعيا تاريخيا بمرحلة لغوية .

وفورية الايماءة لدى الفنان يمكن أن تستغنى عن الوعى الفكرى والنقدى . أما المعرفة فانها لا تكفى لخلق فنانين مبدعين . وعلى العكس من ذلك لا يوجد تاريخ للفن وعلم الجمال الا عن طريق النص المكتوب .

ولا يجوز للكاتب المشتغل بالنص أن يزعزع أو يقوض أبنية التقاليد والأساطير او القواعد الأكاديمية ، فالكتابة تعيد بناء التقاليد والأساطير ولكن فى ضوء جديد .والانتاج الكتابى ، بخلاف الفن اللاكلامى لا صلة له بالممارسة الفنية الا من خلال وعى تقدمى تاريخى ونقدى .

الالعاب ، والمهرجانات ، والفولكلور المشتق منها ، والتعبير الفنى ، كل هؤلاء مظاهر للابتكار الرمزى ، وتجرى المقابلة بينها باظهار الفروق فى الانتاج الرمزى . ومن ثم يختلف ادراكنا الحسى للطريقة التى يعمل بها كل منهما ، وكذا نسبة كل منهما الى الاخر . والواقع تتجلى سلسلة نسبية مع العمليات التى تحكم الانتقال من وسيلة تعبيرية الى أخرى . ومن خلال تفرق التكوينات الراسخة ، وهى على التوالى اللعب والمهرجان والفولكلور ، يتولد نظام معقد ينتهى بالفن بديناميات المتفتحة لكل الابتكارات التعبيرية . ولابد فى نهاية المطاف من اكتشاف النص

الأدبى باعتباره عملا فنيا محاطا بالتعبير ، أو مسبوقا به ، فيتبدى من ثمة ، حسب فكرة النص بمثابة انتاج (من المجتمع والتاريخ) صادر عن الظاهرة الاجتماعية فى مجموعها . كتب روجيه كايوا : « لست أجرى فقط دراسة فى علم اجتماع الألعاب ، ان فكرتى هى أن أرسى قواعد علم اجتماع يبدأ بالألعاب » . ولعلنا نقول انه علم اجتماع يتيح لنا أن نلقى نظرة خاطفة على تحقيق مهمة شرح «الظاهرة الاجتماعية نفسها ، فى مجموعها

(١)

هل هناك فن للالعاب ؟ ولكن هل هذا هو السؤال الصحيح الذى ينبغى توجيهه ؟ أليست الفكرة الصحيحة هى أنه لا يوجد فن الا بوجود الألعاب ؟

وفى البداية ، دعنا ندرس ظواهر اللعب من زاوية الانتاج الرمزى . هذه الظواهر تجذب الأنظار لثلاث خصائص يكفى تحديدها بذكر الفروق بينها :

١ ـ فهى تتكشف فى مجال الخيال

٢ ـ وهى أول تشكيل للزمان والمكان

٣ ـ ويحكمها مبدأ المتعة . تلك ثلاثة أنماط من الظواهر تنمى بناء واحدا يتمثل فى الابتكار الرمزى ، ونموذجه الاصلى هو اللعب ـ باعتبار أن تعبيرات المهرجان والفولكلور والفن هى أشكال مشتقة اكثر تفتحا من الوجهة الاجتماعية .

١ ـ تجرى أنشطة اللعب فى حقل من الخيال . فالطفل الذى يلعب ببكرات أمه الفارغة ، فيدحرجها على الأرض أمامه انما يحاكى قدومها الى الغرفة والفرحة التى يشعر بها فى تلك اللحظة ، كما يحاكى خروجها من الغرفة والضيق الذى يشعر به وقتئذ . معنى هذا أن هذه اللعبة الأولية تستعمل الحركات اليدوية تمثيلا لتصورات ذهنية خالصة ، وتتخذ هذه التصورات ذريعة لها . هذا الاسقاط للفرح والكدر على شىء لا حياة فيه يرينا التغيرات الأولى التى تطرأ على الحياة النفسية ، كما يتيح لنا فى الوقت نفسه أن نلتقى بالأشكال الأولى للنشاط الرمزى .

تلك حقيقة أساسية لم تفت على بول فاليرى الذى كتب يقول : « الانسان مخلوق رمزى ، أى أنه يبيح عمليات استبدال ، فيجعل بدلا من «الصلة المباشرة بشىء ما العناصر الفعالة المتعلقة بهذا الشىء . فالخوف والعواطف انما هى رموز » .

هذا العرض فى مجال الخيال ذو أهمية كبرى . وقانون الألعاب الثابت لدى الطفل الصغير هو فى الواقع انبثاق الخيال الذى تعززه الالعاب . وليست الايماءة أو الأشياء المتداولة ، أو الرموز المستعملة هى التى تشكل جوهر الألعاب ، وانما الذى يشكله هو نشاط الخيال الذى تدعمه الايماءة والاشياء المتداولة والرموز . وعلى ذلك فاللاعب يلازم نفس الاماكن التى تنشأ فيها قدرتنا على الابتكار ، حيث يدرك المواقف التى يكون فيها التصور مناسبة للاستبدالات ، ولحفز الأداء ، ومقدمة لتكوين الأحداث الداخلية ، وفرصة لتداعى الأفكار المستقلة .

هذا وهم نسبى . فاللاعب يحاول تحقيق تصورات ، وحين يتحمس لها ، يكررها ويسترسل فيها . وثمة من يقول ان الطفل الذى يلعب بسيارة مصفرة يكون فى عالم آخر . عالم آخر ؟ حقا ، عالم أحلامه ، ورغباته ، ومخاوفه ، وسعادته . هذى بالتالى صلات واقعية ، صلات لا تعد بطبيعة الحال من الأشياء المرئية ، فهى ليست أشياء أو رموزا ، ولكنها على مستوى القوى النفسية التى يتردد صداها فى الشعور ، تحولات فى اسهام عاطفى فى الأحداث .

ويلاحظ مايكل دوفرين أن « اللعب يفتح الطريق للخيال » . انها تجربة هامة للغاية يكتشف فيها الانسان أن فى مقدوره أن يضفى معنى على الأشياء ، وأن يستثير فى نفسه صدى لأشياء أوجدها بذكائه ، وأن يكون مرحلة فى اتصالات قائمة — لا حدود لها هذه المرة — بكائنات قادرة على التعبير .

وهكذا تتولد الألعاب ، دون أن يتوقع أحد أنها مجالات ومناسبات لأحداث تجرى فى الشعور . فاللاعب يبتكر لنفسه شيئا قادرا على الاتصال بالغير . واذ هو يملك أداة للفكر والشعور ، فانه يجد نفسه مصدرا متميزا الى مالانهاية لتنبيه الآخرين .

غير أن هذا النشاط الرمزى انما هو تنظيم للمدركات الحسية ، يعبر عن نفسه من خلال تعقد هذا التنظيم ، وهو أول مظهر له . وتعقد التنظيم الحسى يعكس الحدث المدرك على نفسه ، ومن خلال نفسه . ويلاحظ بول فاليرى أن « مثل الشعور كمثل ومضة فى قاعة من المرايا تبعث الحياة فى أشكال لا آخر لها ، وفى العلاقات بين هذه الأشكال » . لنتخيل شعورا فتنته هذه التأثيرات ، والأفضل أن نتخيل شعورا تولد منها .

المكان والزمان يتخذان أشكالا ليست فى الأشياء ، ولكنها تنتمى الى مجال العقل ، أى أنها تنشأ عن علاقات عصبية فسيولوجية قائمة — من الاشياء المحسوسة الى العواطف — وترتد عند مستوى الذاكرة . والتعبير عن هذه العلاقات بايماءة أو رقصة أو أغنية أو ايضاحها على شيء ما ، على (كنفا) (صورة على قماش) أو آلة موسيقية هو انشاء شكل ينتمى الى أماكن وأزمنة باطنية .

والبنات اللواتى يلعبن بحصاة لعبة الحجلة ، قد « سحرن » ساحة القرية التى لا شكل لها — فى نظرهن — فرسمن مربعات لوثباتهن المتتابعة . وانقسم الوقت الذى لا لون له فى عصر يوم من أيام المصيف الى وثبات مليئة بالحيوية ، وصيحات بهيجة أو ساخرة . كم تبدو الساحة موحشة ، والمساء طويلا مملا بلا ألعاب ! ومع ذلك فهذه اللعبة ليست فى الواقع شيئا هاما ، أو يستحق الذكر : انها مجرد خطوط قليلة مرسومة على الأرض .

ويقول بول فاليرى فى النهاية : « حقيقة الألعاب موجودة فى الانسان وحده »

٢ ـ اللعب هو أول تشكيل للزمان والمكان . ويتوقف النجاح على فرض اللعب فرضا اداريا على انشطة الحياة الزاخرة . كتب مايكل دوفرين : « علاقة الانسان بالطبيعة هى موضوع المخاطرة فى اللعب » ، وهى علاقة تثير الاهتمام ، أولا لأنه لا شكل لها ، وتتضمن احتمالات شتى لما سوف يحدث ، وما هو غير متوقع، أى للصدفة والتحدى الموجه الى نظم الجهاز العصبى . وبالمحاولة والخطأ ، تحت تأثير رغبة جامحة ، تتبدى وتنفذ ضروبا من السلوك تعمل بمثابة دعامات لنشاط الخيال. وعلى هذا تعرف الالعاب بأنها دعائم ايمائية لبرامج خيالية . ولما كانت وليدة حيوية مفرطة ، فانها تطور نظما ذات نمو داخلى . وهى توزع تبعا لنظام متدرج من تكوينات القصور والتحكم العقلى . وقد بين روجيه كايوا فى دراسته للألعاب كيف أنها مقسمة بين مواجهة اضطرابات الحياة ، وماتستثيره من دوار واخطار ، وبين سلوك السيطرة فى العاب المنافسة ومحاكاة الوظائف الاجتماعية .

ولكن ما يشرحه كتاب « الألعاب والناس » (روجيه كايوا) أيضا هو أن الالعاب بطبيعتها اقرب ما تكون الى انعدام التوازن والفوضى . ولما كانت الالعاب تكوينات تنظيمية ، فانها تعمل فى مجالات عدم الاستقرار التى تنشأ عن الألعاب المنحرفة . وهكذا تبدو بمثابة أول تشكيل لما لا شكل له .

وسواء أدى الانسان تمثيلا ايمائيا صامتا ، أو رقص ، أو نحت ، أو صور ، أو غنى ، أو تلا شيئا بمصاحبة موسيقى أو بغير موسيقى ، فهو يصوغ شكلا للزمان والمكان اللذين لا دلالة لهما سوى الخلجات التى تنبض فى الشعور ، وهى سمات انثروبولوجية . والطفل حين يشكل العابا ، يتعرف على القدرات التى سوف تصير قدرات فنان ، وعلى صنع بعض الادوات ، وباستعماله هذه الادوات يتعرف على المهارات العلمية .

ومسرح (الماريونيت) (الدمى المتحركة) يرجع الى اصول متواضعة للغاية ولعل البكرات الفارغة التى تعطيها الأم لطفلها هى أول مظهر لهذا المسرح . والماريونيت هو الدليل الاصلى الذى يشير الى عرائس (دمى) الطفل ، ولم يزل أحسن الامثلة لهذا المسرح محتفظا بهذه الصورة . والماريونيت سواء كان القاء تصاحبه ايماءة حية نشيطة ، او حكاية تميل مع الرغبة اللاواقعية ، او قصصا مرتجلا ، لعبة شعبية : وهو مع ذلك « فن المسرح الرومانى » كما يقول جلدرود ، قدم اعمالا منحوته ، وذخيرة (ربرتوار) تسمو فى بعض الاحيان الى مستوى الفن الرفيع فى النص المكتوب . ذلك ان المسرح الصغير يصوغ انطباعات الطفولة العابرة ، ويعطيها شكلا أوليا موضوعيا ، فينتج لها مجال التصوير الرمزى الذى لا حدود له سوى حدود وعى له قدرة على النمو الى مالا نهاية . ان الوعى الممتد الى مشارف الخيال لابد ان يسهم فى التجربة الفنية ، وهذا ما يفسر كيف ان التعبيرات الطبيعية للفرح ، والضيق ، والقسوة ، وتصورات الخيال البعيدة عن العقل الباطن ، مما يتجلى فى مسارح الماريونيت التى يديرها جارى ، وماترلنك وجلدرولد تبلغ أسمى درجات التأثير الفنى .

٣ ـ يخضع اللعب لمبدأ المتعة ، ويضفى عليه هذا المبدأ سـمة خاصة به .

ان اضفاء شكل على الزمان والمكان خلال مزاولة اللعب انما هو ابراز شبه مباشر لنبضات الرغبة والحلم . وعلى ذلك فاللعب هو فى آن واحد نشاط نفسى أولى ، خيالى ، لا واقعى ، وعرض موضوعى للايماءات العملية المبرمجة . وتصدر خاصية اللعب الفريدة عن هذا « الازدواج فى المستوى » حسب تعبير لورى لوتمان . وعلى ذلك فالالعاب هى اول دعامة موضوعية لمظاهر الرغبة والحلم ، وأول بناء يتخذ الطابع الاجتماعى ، ومن ثم تتسم بمبدأ الواقعية والعقلانية الملازم للانشطة الثانوية .

والسهولةالتى تتولى بها الالعاب نقل الطاقةالليبدية (الشهوانية) تأتى من طبيعتها الخيالية ، وقد رأينا أنها تنقل أولا احد أثا من الحياة العقلية . وليس فى اللعب تشكيلات الا لنشر الحالات الانفعالية التى هى فى الاصل حالات شخصية . والتمرينات الحركية التى تنشط الانفعال المطلوب فى الذاكرة وتضفى عليه وجودا موضوعيا واجتماعيا خلال الالعاب والايماءات هىالاداة الاولىالتىيستخدمها نشاط متيقظ او واع ، يتلقى نبضات الرغبة والحلم ، ويربط تخيلاتنا بعالم تتصل فيه ايماءاتنا بالاشياء والقواعد التى تحكم تداولها المادى ، اى تتصـل بمبادرات الآخرين .

ترى ما مصير موجات السرور والضيق المتواصلة التى تنتاب نفسية الطفل اذا لم تكن هناك العاب ؟ يكفى لمعرفة ذلك التفكير فى حالة طفل محـروم من الألعاب بالنسبة الى طفل آخر أسعد حظا فى هذا الخصوص : فالضـعف ، والتعب والانطواء ، وعدم القدرة على الاتصال بالغير كلها أمور واضحة فى الطفل المحروم . وفى فيلم يصور ايماءات طفلة انطوائية ترمى كرة الى مرَبيتها ، يظهر لنا « بتلهيم » اللحظة الاولى فى تحرر فردى كان يبدو امرا مسـتحيلا . واللاعب النرجسى (المولع بذاته) والمغرور مستعد مع ذلك للاتصال بالغير عن طريقة علاقة طبيعية نشيطة . ومن خلال الضحك ، والعواطف المرحة المنبسطة ، وكذا من خلال المبادلات الصامتة شبه السحرية ، يثبت اللعب أنه مظهر طبيعى للغاية لحب الاختلاط بالناس ، وهو بهذه المثابة ليس له بديل ، والألعاب ، باعتبارها برامج لنشاط مملوء بالحيوية ، ومتوالية من ايماءات ، وأشكال ، واشارات ، ورموز حرة مهيأة للمبادلة والتعرف على الآخرين تتيح الفرصة للاندماج والظهـور فى مواقف تبادلية تشكل خطوطا اجمالية لعلاقات موضوعية ، وتدريبات على قـواعد الحياة الاجتماعية . ان الافتتان المرتبط بمشاعر الضيق او الـرغبة الجـامحة أو العدوان العنيف مما لا يخضع لسيطرة المجتمع ، يمتد الآن (فى اللعب) الى تبادلات متفق عليها فى برنامج رمزى : وعلى ذلك فان هذا الافتتان يتباعد ويتنوع ويبـدو كمادة مركبة من اختبارات منوعة : لقد ترك اللاعب دون ان يشعر الانفعال الشبيه بالهذيان ، واختار سلوكا مرنا يتمشى مع الاصول الاجتماعية .

من الصحيح اذن القول بأن اللبيدو ــ التجسد العصرى لايروس اله الحب عند الاغريق) ــ يبحث عن (وبصورة ما يرغب فى) التسامى فى الألعاب (لو كان فى وسع اللبيدو أن يرغب فى شىء موصــوف) لانه يجــد فيها تحقيقا لديناميكية غريزية ، واللعب بايماءاته يرسم أخيلة ، ويصور هلوسة تواقة ، ويصـــبح فى مقدوره اداء عروض لا موضوع لها . وباختصار يبدو الامر كما لو كانت الالعاب تكيف مبدأ الواقعية ، لا من خلال الصراع ، ولكن من خلال التجربة والخطأ ، بأسلوب سيبرنتيكى (بالتحكم الذاتى) فى نهاية ايضاح تحكمه الرمزية .

يستغرقنا هذا فى فكرة مختلفة عن أسلوب الاعلاء (او التسامى) ؟ فلم يعد هذا الاسلوب نشاطا تعويضيا عن الحذف الذى تجريه الرقابة ، ولكنه قدرة ابداعية مصاحبة لظهور الايروس (غريزة الحب) .

وهكذا تعمل الألعاب كأداة ضبط لادق أساليب ايروس ، عن طريق تبادل العلامات والرموز التى تدخل فى العلاقة بين الناس ، تلك العلاقة التى تكرس لهــا الطاقة الجنسية . وتعمل الالعاب الرمزية لتحقيق غايات أيروس ، بمعنى انها تعمل على تحويل صلة الأفراد الذين اعتادوا تبادل الاشــارات بحــرية الى ادق الوان المشاركة . وفيما بعد يتيح ايروس للزملاء المشتركين فى الالعاب الغزلية أن يواصلوا الابداع عن طريق المبادلات فيما بينهم من صفات مختلفة .

ويعتقد نيتشـه انه من خلال قواعد المجاملة وفن الشعراء البروفانسيين (من مقاطعة بروفانس بفرنسا) عرف أهالى غرب اوروبا عاطفة الحب . وقد طــور الحب الرقيق بوعى لعبة الغزل ؛ فكيف كان ذلك ؟ أصبح الحب شريكا لقــوة الرغبة ، وترك لتصريفها فى اللعب المكان الذى اتاحه الشـــعراء والغنـــاء والموسيقى . ولم يكن ذلك عن ضلال او عجز ــ والحق انهما أتيا فيما بعد ــ ولكن لطبيعة شبيهة بطبيعة الاطفال ، وفرط الحيوية ، وولع تلقائى بالشكل .

يتبين مما سلف السبب الذى من اجله مدت اللحظات العظمى فى الحضارة ــ التى استمدت اليوطوبيا الديمقراطية منها آمالها ــ مدت نطاق الالعاب الى مظاهر السياسة الاكثر رحابة . وشجعت اثينا القديمة ، وأمبراطورية مايا ، وفلورنسا فى عصر النهضة واليابان القديمة ، ودول الباروك الملكية ، ورعت الألعاب فى أكثر أشكال الحياة الاجتماعية جدية : فى السياسة والحرب والعلم والاقتصـــاد . هذى لحظات فى الحضارة نتعرف فيها على طاقة خلاقة محملة فى كل نقطة فيهـا بنبضات ايروس ، وتحتفظ فى نطاقها بكل من الطفولة والعلم ، وهكذا تبدو مظاهر اللعب فنا من الفنون .

(٢)

الانتقال من اللعب الى المهرجان أمر يحدث على الدوام . ومع ذلك ففى الامكان التمييز بين هذا وذاك اعتبارا من الخصائص المكونة للعب ، ولكن بأسلوب جــديد يعطى بدوره تعريفا للفولكلور ، أو على الأصح يدل على ظهوره .

ومظاهر المهرجان هي الالعاب ، ولكنها العاب جماعية : غزارة وحيوية ولكنها ملازمة لتجربة المشاركة ، وهي أول شكل يعطى للزمان والمكان ، ولكن حسب قوانين النقل الشفاهي ، يحكمها مبدأ المتعة ، ولكنها متعة تصاغ في هياكل وشعائر وتقاليد القرابة . وهي ليست فقط سلوكا للاعمال الحضارية ، ولكنها العمل الحضاري نفسه .

وهكذا نرى نطاق اللعب وقد تخلله نطاق المهرجان دون أن يفقد أيا من عناصره الاساسية ، وكذلك دون أن يطرأ على اي من هذه العناصر تحول يجعل منه نشاطا مهرجانيا . انه انتقال من بنية الى أخرى بازالة عامل الاستقرار من الأولى لصالح الثانية عن طريق استحالة تمتد فتشمل كل الألعاب .

والجدير بالذكر أيضا عامل التحولات التي تنشط في هذا المجال : فالتنظيم الاجتماعي يستولى على مظاهر الألفة غير المتكونة في اللعب ويدمجها عن طريق التعبير الرمزي في هدفه الذي يتمثل في تكوين الجماعة الاجتماعية .

١ — فالمشتركون في العاب المهرجان ينتمون الى جماعة تتميز بصفات التضامن في العمل . وعلى ذلك فالمسألة الى تستثيرها الطبيعة الجماعية لبعض الألعاب لا تتعلق بمعرفة ما اذا لم تكن كل لعبة صورة لمجتمع من المجتمعات — وهي بلا شك كذلك — ولكنها تتمثل في أن مثل هذه الجماعة الاجتماعية تحتفظ بزمان ومكان لألعاب يدعى افرادها كلهم للاشتراك فيها ، الامر الذي يفترض وجود أوقات فراغ تتسع لمجتمع بأسره . وحتى يتاح للكافة ان يشتركوا — في المهرجان — في مجتمع تقليدي ، ذي اقتصاد زراعي وحرفي لا تنظم هذه الاوقات ، ولا يمكن ان تنظم بكيفية عشوائية . ومن الضروري ان يخلى الجميع من اي عمل مفيد ومنتج ولابد أن تتوافق الالعاب الجماعية في المهرجان مع الأعمال والأيام ، وأن تحدد مواسم الزرع والحصاد ، وتخصص أوقات للقاء والترفيه والاحتفال . ومع ذلك فان هذه الفترات الزمنية التي تخصص على هذا النحو تتخذ سمة خاصة بها : فهي اذ ترتبط بتتابع المواسم ، فانها تعود في تواريخ محددة تتصل بظهور بعض النجوم في السماء ، وتدون في تقويم مقدس ، حسب مشيئة الآلهة .

٢ — وعلى ذلك يمكننا أن نقول ان مظاهر المهرجان تختلف عن مظاهر الألعاب لانها تتصل اتصالا ضروريا ومباشرا بأساطير الجماعات ، أساطير ترجع الى أصول توضح بالأسلوب الرمزي الاحكام السياسية والاقتصادية والكونية التي تبني المجتمع المعنى .

أن الحشد الذي يمتد فيشمل شعبا بأسره ليدل وحده على أول انتصار على العوز ، واعتراف بنظام اساسي واجتماعي ، ودوام تنظيم اجتماعي . أكثر من ذلك أن هذا الحشد الشعبي لا ينظم بكيفية ما الا ليظهر هذا الانتصار على الضرورة وذلك بالاحتفال بالتأييد العام المشترك . وتصير الألعاب التي تجمع هذا الشمل جزءا من قدر جماعي . وهكذا يتطهر الجوع والحرب والاوبئة والعنف

والموت من الارواح الشريرة ، أو بالاحرى تتجلى التعاويذ التى تطوع هذه الاشياء كأنها قوة مسيطرة ، لحظة سعيدة من لحظات الحياة طوعها الانسان . وهكذا تتسم ألعاب المهرجان بالبراعة والجراة . غير انه ينبغى ان نرى فى هذا الأمر تعويذا جريئا على قاعدة من العنف المهلك والكوارث ؛ فحياة الجماعة معرضة للهلاك وكل فرد فى الاوساط البدائية يعانى هذه التجربة اليومية .

٣ ـ والمهرجان لا يحتفل فقط بما تتميز به جماعة من الناس على غيرها ، ولا يقر الفرق بينها وبين غيرها باعتراف عام شامل ، ولكنه يعبر عن رمزيته فى أرج الممارسة . يلاحظ سوسير انه « لا وجود لأى رمز الا اذا شاع استخدامه » . والواقع ان الرموز تذيع فى لحظات المهرجان : مثال ذلك الاداة الرمزية التى تستخدمها قبيلة ما حفاظا على بقائها ، وطرد مخاطر الموت التى تتهددها ، وتمثيل العنف بالطقوس ، وتحاشى الانقسام ، وتنظيم الانتاج . وهكذا فان برمجة ضروب الحيوية الجماعية المفرطة التى تتكون منها تنظيمات المهرجان تحول الى أشكال رمزية تقنيات الجهاز المسيطر وتنظيماته ، وظروف بقاء القبيلة . فهناك أولا ، وهذا هو الشىء الأدق المبادىء التى تحكم الترابط السياسى والاجتماعى العرقى ، ثم البراعة والذكاء اللذان يتجليان فى ممارسات الانتاج .

ولا يسعنا فى هذا المجال الا ان نحيل القارىء الى اخر وابدع مؤلف لبيير كلاستر : « المجتمع فى مواجهة الدولة » . والواقع أنه ليس ثمة تصور يذكرنا بالأدوات الرمزية التى تملكها السلطة السياسية اكثر جاذبية من الوصف الذى قدمه هذا المؤلف للطرق التى استخدمتها الاعراق التى تعيش فى غابة الامازون لاقامة انماط سلطة سياسية تمارس وظيفتها دون عنف . ويتجلى من ذلك اننا كنا دائما نتخيل السياسة فنا من الفنون ، أى باعتبار انها مجرد ممارسة للاداة الرمزية . ولكن نترك جانبا السلطة السياسية ونلحق بهذا الابتكار الرمزى الذى هو دعامته الضرورية .

ولما كانت ألعاب المهرجان حماسة مبرمجة من خلال علامات ورموز ، فانها تستخدم المخيلة القبيلية وتحولها الى العاب . ويترتب على ذلك انه فى أوقات تأكيد الذات ، حين يتمثل قدر القبيلة بعبارات التحدى فى مواجهة الشدائد الناتجة عن الجوع والحرب ، فان ألعاب القبيلة تتخللها اشارات الى المقدسات ، والأساطير والشعائر ، والآلهة : اشارات تتحول الى انماط عامية دنيوية مع درء الاخطار التى حاقت بالجماعة . وعلى هذا الوجه تفسر ظاهرة أن أنماط الفولكلور تنتقل من الشعيرة المقدسة الى اللعبة المثيرة . واذ تختفى ما كان بها من شياطين ، فانها تصير مجرد استخدام لاشارات لها شكل وليس لها مضمون :

ومن ثم يتبدى معيار يحدد الاشارة ، أو الرمز ، أو الموضوع ، أو الممارسة مما ينتمى الى الفولكلور . فالى الفولكلور تنتمى الاشارة أو الموضوع الذى يستحق الظهور فى يوم المهرجان . فثمة العاب ، ورقصات ، وأغان ، وتصاوير ، وأشعار ،

وملابس وصحون ،وطعام،ومباريات وحكايات تنتمى الى الفولكلور اذا كانت تستحق أن تظهر فى المهرجان ، وتشترك فى اللحظات الحاسمة التى تطلق فيهـا الرموز فى الجماعة ويجرى التبادل بينها . هذا الانتماء ضرورى وكاف ، ويكسب الاشارة والايماءة والموضوع خصائصها المميزة : أى أن تكون تعبيرا تلقائيا ، وكذا ، ولانهـا تظهر فى هذا اليوم ، فانها تكون تعبيرا موجها الى الجماعة ، وصادرا منها ، كما لو كانت الجماعة معترفة بها .

٤ ــ معنى هذا انه يتجلى هنا الأداء الثقافى للجماعة وقدرتها وبراعتها ، وكذا بالتأكيد عبقـريتها فى ابتكار العلامات والرموز ونقلها . فالتمثيليات الايمـائية والرقصات ، والأغانى ، والأشعار ، والنحت والتصوير كلها تعبيرات تسـتدعى وتمتدح . وهكذا فالثابت أن الفولكلور الحى كله يمكن ان يقدم أعمالا لا تستجيب لدواعى الفن ، أى انها تستقر فى مسـتوى التكوينات المبتكرة للتعبيرات التى تستخدمها . والشيء الذى يميز أشكال الفولكلور من أشكال الفنـون الجميلة ليس هو درجة الجودة ، وانما اللغة المنغمة أو الأسلوب . وقد أوضح هذا الفرق أساسا « رومان جاكوبسون » فى (الفولكلور ، نمط خاص من الابداع) ، فذكر أن التعبير فى الفولكلور تحكمه أصول التقاليد الشفهية ، فى مقابل الأشكال الفنية التى تحكمها تكوينات النص . هذا تمييز نتصدى لدراسة مداه على مستوى الابتكار الرمزى .

ولم تزل قواعد التقليد الشفهى التىلم تبدأ دراستها الا حديثا غير واضحة لنا باعتبارها علما من العلوم ، ومع ذلك فهى معروفة لنا معرفة كافية باعتبارها أشكالا نوعية من الابداع الرمزى . وعلى هذا يمكننا أن نرسم الخطوط العريضـة للبناء الذى يحكم الانتاج الفولكلورى أو الابداع الرمزى ، والذى ترجع أصـوله الى المهرجان . والاداء الشفهى اسلوب خاص فى حياة العمل الفنى ، يتطلب فى كل لحظة تركيزا نفسيا قويا ، وتجسيد للاشارات التى تجذب الجمهور الـى تجـربة ومشاركة حية . مثل هذه الاعمال توجد فقط لأن الجمهور يطلبها . والأشكال الفنية التى يساندها الفولكلور تملك فى أعلى درجة صفات الحضور والمشاركة . وتتأكد أبنية الأسلوب الشفهى بالتنفس ، والايقاع ، والدينامية ، وتوازن فريق الممثلين المؤدين كل هذه الابنية تبدى محاكاة تمثيلية ايقاعية ، استخلص مارسيل بوس قواعدها الانثروبولوجية (انتروبولوجيـا الايماءة) . وفى المشاركة الجماعية تنظم فنون الشعر والبلاغة الانفعال والتفهم ، حتى فى مظاهر الحياة القبلية المضطربة ، اعتبارا من تلك الايماءات التذكارية المدرجة أصلا ضمن احتفال شعائرى ، وتخلدها الشعائر . ولا يبدو فى هذه الفنون أى علم معروف ، غير أن الفن ، باعتباره وسيطا للمشاركة الجماعية ، لا يمكن ان يكون اكثر منها دقة وحذقا ، وهى كما ذكـر كلـود ليفى شتراوس موسيقية حقيقية فى كمالها . والأعمال الشفوية الكبرى التى وصلت الينا بهذه الصفة نادرة . غير ان هناك اعمالا مكتوبة تدانيها ، بصفتها تسـجيلات أولية ، منها الفيدا ، والالياذة ، وقصص الانجيل ، وحكايات بيرو . وتتطلب هذه

الأعمال نمطا جديدا من تفسير الأسلوب ، اذ لا يمكن دراسة فنها البلاغى عن طريق علوم « النص » . ولا تتعلق هذه الاعمال فى الواقع بالنص المكتوب ، ولكنها تنتمى بابداعها وانشائها الى مصادر الحكاية الشفوية .

من ذا الذى يقول ان تفوق بعض الأعمال المكتوبة انما يرجع الى انها لم تخرج عن الطابع الاصلى ؟ اليست هى من ابنية التقاليد الشـــفوية التى انتقلت بحرية وسخاء الى أعمال شكسبير ، ولوبيه دى فيجا ، وبيرانديلو ؟ من أين أتى هذا النوع من التفوق على سائر انتاجات عصرهم ؟ من بناء نص متفتح لسلاسة التعبير الشفوى بتأثير فن انشائى لم تكشف حتى الآن عن اسراره .

قلنا ان الألعاب يحكمها مبدأ المتعة . وليس من شك فى أن العاب الفـولكلور قد تأثرت بايروس ، أى انها تخضع للقواعد التى تنظم بنيان القرابة فى الجماعة العرقية . وتنشأ الألعاب من دوافع المتعة المتعددة الألوان لدى الاطفال . ويســـود الفولكلور طقوس الشهوة الجنسيه التى تحكم تبادل النساء ، والقوانين القبليـة الخاصة بالمصاهرة . وما تشكله وتعرضه ألعاب الفولكلور والموضوع الذى تعبر عنه نظمها وصورها ، هذه الاشياء ليست ، من الوجهة الوظيفية سوى برمجة شعائرية للممارسات التى تجمع الرفاق البالغين سن الزواج . والمواكب المتناوبة من الفتيان والفتيات ، والشخوص المتقابلة فى التصميمات الراقصة ، ومجموعات المغنين التى يواجه بعضها بعضا ، وتكريم جماعة من الجيران فى مناسبة أحد الأعياد ، كل هذه الامور برامج جماعية من شأنها تشجيع الزيجات وتجديدها من موسم الى آخر . يشهد بذلك تصميم رقصات الباليهات الشعبية فى الوقت الحاضر ، حتى التأليف الموسيقى للكورس الشعبى فى باليه « بتروشكا » لبيجارت ، الخالية من أية اشارة قواعدها الى الفولكلور سوى ما فيها من أثارة جنسية .

لقد بين كلود ليفى شتراوس وظائف البقاء البيولوجى والثقافى التى هى أبنية أساسية فى الحياة الاجتماعية لدى الجماعات البدائية . غير أن هذه القوانين لا تكفل فقط البقاء البيولوجى للجماعة : ذلك أن فعاليتها تفترض أيضا التغلب على أعمال ايروس العنيفة . وثمة العاب ماجنة ، ورقصات محلية ، وأعياد الربيع تمحو تلك الحالة من الاضطرابات الجنسية غير المتميزة التى يدل تقليد قديم للغاية على انها كانت موجودة فى أعياد اليونان القديمة .

٦ ـ ليس هناك دون شك اية دلائل اشد تأثيرا وفتنة او اقوى تعبيرا عن الروح الانسانية من تلك الأعمال غير المدونة فى نصوص ، المجردة من اى سند موضوعى والتى لم يكن لها لكى تمتد عبر الأجيال المتعاقبة سوى ذاكرة الأحياء الهزيلة ، وحماسة المؤدين ، وانصات جمهور مولع بالفن . انها احمال يتجلى لنا ضعفها : نراها اليوم تختفى بزوال نمط الحياة الاجتماعية التى ســاعدت هــذه الاعمــال على تنظيمها ، كان كل ذلك موجودا فيما مضى ، وهاهى شواهده الاخيرة : قطع مفككة متناثرة من اللعبة البدائية الكبرى .

والفن الفولكلوری مع التعبير عنه مثقل اليوم بالغموض . قلنا انه ينتمى الى الفلولكلور كل موضوع يستحق الظهور فى أيام الأعياد . ولكن هذا الموضوع يظهر اليوم فى متاحفنا ، وحفلاتنا الموسيقية ، ودوراتنا السياحية ، دون ان يقام لذلك مهرجان حقيقى . واليوم ، يعرض علينا الفولكلور فى صورة المهرجان من غير المضمون الذى نعرفه عنه . والحيوية ، والرغبة ، والمتعة التى ينقلها المؤدى فى اللعب ، والتى يحملها المهرجان الى مستويات التكوينات الجماعية للتعبير الرمزى اصبحت اشياء شبه بائدة . وثمة عرض منقطع الصلة بمشاهديه حل محل الجماعة المختلفة ، وأصبح موضوع الفولكلور ، موضوعا للسخرية .

هل ضروب الفولكلور التى تبعث حية تستحق تقديرا افضل ؟ قد يتيح انواع التضامن فى العمل التى تنشأ فى الاوساط الصناعية ، وروابط الجوار فى الأوساط الحضرية ابتكار فولكلور معاصر . فهناك وهناك مهرجانات شعبية تحافظ على الممارسات الشفوية والاداء الحر . فالحدث ، ومسرح الدمى ، والاغانى الشعبية ومسرح التمثيل الايمائى الذى لا يستخدم أى نص ، واحياء فولكلور غرب اوروبا من حين الى حين : كل هذه الامور تطالب صراحة بالالعاب والمهرجانات ، وبذلك تسهم فى نمط من الفولكلور مشترك فى كل مدن العالم الصناعية . غير ان هذا الفولكلور يتسم بغموض يعرضه للزوال الذى يطرأ على مظاهر « المودة » : ذلك أن مبتكراته ، وهى شفهية فى أصلها ، ومعبرة عن احساس جماعى بالاحتفال بالأعياد سرعان ما تغزوها تقنيات الاتصالات الجماهيرية : فبث العلامات ، اذ لم يعد شفهيا ، لم يعد أيضا معبرا عن الفولكلور . وعلى هذا الوجه فان مثل هذا التدخل يشكل انحرافا ــ يجعل مصدر هذه العلامات عقيما ، ومن ثم يستنفد ابتكار هذه العلاقات، فلا يتقدم الا اذا اتصل بالابنية الفنية الراسخة . وقد آن الآوان لنسأل أنفسنا كيف أن ابنية النص التى هى نماذج التراكيب التى كانت تسود الفن غير الشفهى ، تفرض بدورها التعبير الذى كان حتى ذلك الحين مجرد احساس فنى حدسى .

(٣)

الفن لعبة علمية ، وهو على خلاف الفولكلور الذى تحكمه أساطير الأولين يسهم فى وعى الجماعة ، وبذلك يسوق الأسلوب الذى يستخدمه الى مشارف الابتكار . و « تركيبه » الذى يتحدد بتركيب النص ، وهو تركيب العمل المتفتح ، و (شاعريته) التى يحكمها ايروس تدمج وحدة الرغبة الغرامية فى خبرات الحياة .

١ ــ الفن لعبة علمية ، فهو يشبه اللعبة فى مظاهره الحسية ، وفى افراطه وحيويته ، وكاللعبة ينتشر فى مضمار الخيال . وانشطة الفن ، على غرار انشطة اللعب تتعلق بالوعى وبالتمثيل الرمزى ؟ ويبدأ من اغراء ، ويسعى الى الاغراء . غير أن هذا الافراط ، وهذا النشاط فى الخيال ، وهذا الاغراء تجرى كلها تحت شارة التأليف المنسق .

ويندهش اللاعب من نمو ذاته من حيث حيويته ومشاركته الواعية فى الخيال الذى يتيح اللاعب مجالا له ؟ يندهش ، ويحب ذلك . وهو اذ يعبىء فى هذه الدهشة انتباهه وقدراته وبراعته ، فانه يستخدم بوعى خبراته التى اكتسبها بفضل مشاركته المبدعة . وانه ليركز موارده التعبيرية فى العلامات والرموز التى خبرها بنشاطه الخيالى فى مجال اللعب الحر . وكل ما يتلقاه الفنان من تقاليد اللعب والأعياد يستحوذ عليه ، ليس فقط ليستخدمه ويستغله فى نشاط حيوى مرح ، مثلما يفعل اللاعب ، وانما ليخضعه لتأثيرات المشاركة الرمزية التى افتتن بها ، وكذا لأساليب انتاج العلامات التى تحدد ، كما يقول جاكوبسون الوظيفة الجمالية فى مركز تبادل الاتصالات . ومن خلال هذه الجهود يتحول اللاعب الى فنان . وبهذه الطرق ايضا توصل الفنان الى أن يمارس بوعى وسائل التعبير التى تنطوى على تقاليد اللعب . وعلى هذا النحو استطاع ان يدرس فى ذاته عناصرها الاساسية ، ويمضى بهـا ، حسب يقظته ومهارته الى حدودها من حيث الرنين والتعقيد . ولما كان لاعبا متحمسا ، فانه يدفع برامج لعبته الخيالية الى حدود الابداع الرمزى الذى تنبثق منه هذه البرامج ، ويركز كل ما لديه من علم فيها . فى فجر كل يوم من أيام حياته كانسان ، كان يحلو لبول فاليرى أن يفاجىء أفكاره وهى تنبثق . غير ان صفحات مؤلفه (كراسات) الست والعشرين الفا تشكل عملا بارعا هائلا بما بـذل فيه من جهد ، وما يتجلى فيه من اصرار قوى على استعراض الحياة الفكرية فى حركتها التلقائية المستمرة . هذا العمل الفريد يبين كيف أن الغاية الفنية تعدل مضمون اللعبة فى حركة اللعبة نفسها . وكل صفحة من كتاب (كراسات) تنبثق من لعبة . ولكن ليس ثمة صفحة من هذه الصفحات لا تشكل نصا أدبيا . فاللعب يقتصر على الاستخدام (النرجسى) للطاقات التى يساندها ، فى حين يتنـــاول النشاط الفنى عناصر اللعب ولكنه يخضعها للعملية التى تحكم ابتكار العلامـــات والألعاب فى الفن تحكمها مقتضيات النص ، اى مقتضيات عقل يراعى الأساليب الواعية لانتاج لغة ما وربطها وشرح معناها . واخيرا يتحدد الفن أساسا بتشغيل القدرة العقلية فى أنشطة متصلة تتناول التفسير وفك الرموز . وانه لنشاط لا نهائى لانه غير محدود بموضوع معين ولا حتى ببرنامج خيالى ، وانما بخبرة فى تفسير العلامات ، وقدرة لا حدود لها على الاستكشاف ، والصلات الوثيقة والابتكارات المتواصلة .

وفى هذا كتب لورى لوتمان بأسلوب موضوعى ، وليس فقط مجازى أن « النماذج الفنية تمثل مزيجا نوعيا من النموذج العلمى ونموذج لعبى » تنظم الفكر والسلوك فى آن واحد : أو أنها ، كما عرفها بول فاليرى نموذج علمى فى أضـيق معنى : « لنمو فى التنظيم ، والوعى ، والصلات » ، ولكنه أيضا نموذج فنى يتناول مادة معينة : (تقوم الفنون على ما يجهله الفكر ــ على توافقاته الرائعة ، ووضوحه النادر ، وتطوره البسيط المدهش) .

٢ ــ الفن ليس الا ألعابا تدفع اللغة التى تستخدمها الى حدود الابداع . أما العلامات والرموز التى تستدعى فى المهرجان فانها ترجع بصورة اسطورية الى

فجر الزمان . وفى ذلك ابان كلود ليفى شتراوس انها « تقـــدم الى المجال المقدس الطاقات البدائية ، وتعيد احياءها ، وعلى هذا فانها تنكر اى تطور محتمل ، ومن ثم كل وعى تاريخى » . أما المهرجان فانه يخضع لنفوذ أساطير الأولين . وبتنفيذ لعبة تفسيرية يتعزز تأثيرها الخيالى الساحر بنقل العلامات شفاهة وتجسيدها ، يظل المهرجان حفلا من طقوس المشاركة ، وتجسيدا لبعض الرموز الجماعية . والاشارات ذات السمة التاريخية التى يحتويها المهرجان تنطوى فى دوامات مثيرة للمشاعر تشكل موضوع الاحتفال . ويسود المهرجان كله هيجان مجازى . وهكذا فان البعد التاريخى ، ومعالم البقاء والتطور ، والمقارنة الموضوعية تكون ثمة غير واضحة ومهزوزة . ويسيطر دائما على المهرجان تكوينات الأداء الواقعى ، وبنوع أساسى تكوينات الاتصال والنقل الشفهى .

يتبين من هذا ان الاداء الفنى فى الفولكلور لحظة رائعة من لحظات المهرجان ، تسمو بالاحتفال ، وتنتهى على اية حال بتجربة يشترك فيها الجمهور المدعو بنصيب كامل ، فيستوعب العلامات والرموز كلها . وهنا تتعلق العلامات بتعبيرات التقليد الشفهى وحدها ؟ وأداة النقل هى أساسا من تقنيات تنشيط الذاكرة ، ولا تبلغ قوانين الابتكار التى تحكم تشغيل هذه العلامات مداها الا فى لحظة تطبيقها . وعلى ذلك فاننا حين نواجه الفنون العابرة فى الألعاب والمهرجانات ، نتطلب طبيعة متميزة تحدد هذا الاستمرار الموضوعى للتعبير والأسلوب الذى نقر بانتمائه الى الأعمـال الفنية .

وفى مركز الاعمال الخاصة بالابتكار الرمزى ، لا يمكن أن تظهر هذه الطبيعة الا من خلال تجربة حاضر نعيشه باعتباره لحظة ازمة ، وزمنا محصورا بين ماض ومستقبل لم تعد الأساطير القديمة تكفى لادراكه ، وباختصار تجربة وقت نعيشه باعتباره انحرافا تاريخيا ، وقت متعدد الدلالات ، تتولى النصوص استدعاءه واحتجازه فى الوعى المتيقظ .

ويبدأ الوعى التاريخى بالشعور بانقطاع جذرى مع العرف ، والاعلان عن مستقبل غير متوقع ، ومعرفة نقدية لتفسيرات الأساطير . واستخدام النص ، فى نطاق الابتكار الرمزى هو الذى يفتح جبهة الانفصام والشك والازمـة ، ويبقى عليهـا مفتوحة ؟ ذلك لان النص الادبى يضاعف حتما فرص التصدى لمصادر متميزة ، والاختيار بين الاستعمالات اللغوية المتنوعة والقابلة للتنويع ، وتعميق غرابة زمن لن يعود . قصارى القول ان الامر لا يتعلق ، كما فى الفولكلور باحياء لحظة أصلية وبعث أسطورة تقليدية باداء شفوى لا رقابة عليه ما خلا الذاكرة الحاضرة للجماعة العرقية ، ولكنه يتعلق من خلال استعراض حقائق التطور بابتكار مستقبل غير واضح المعالم .. المسألة تتمثل فى الموافقة على تحديد تاريخ للحكايات التى يعلم الوعى الجماعى من خلالها أنه منساق مع تيار لا أمل فى رجوعه ، وملقى فى تاريخ لم يعد تاريخ الابطال والالهة ، ولكنه تاريخ بشر فان .

٣ ــ أما النص ، فانه ينشيء قبل كل شيء ، وفى شكل « وثيقة » معرفـة تعريفا موضوعيا ، وعيا تاريخيا بمرحلة لغوية ، ويهييء اعدادا نقديا للاسطورة . والشاعر الملحمى ، فى اهاب الكاتب ، لم يعد يؤلف تبعا للعرف ، ولكن فى مواجهته: فالنص يزوده بمجال للمقارنة والاختيار لم تعد تحكمه أسـاطير الاولين والاداء التقليدى . ولدينا من ذلك مثال مشهور : فثمة قانون سنته مدينة اثينا القديمـة انشيء مسرح التراجيديا ، ومن ثم نظمت رسميا ألعاب رائعة كان يعهد بها حتى ذلك الحين الى تقاليد الاعياد وطقوسها وعاداتها ، غير ان انشاء المسرح يعين فى الوقت نفسه ادوارا ، وينظم هيئة للتحكيم ، وجوائز ، ومهمات خاصة بالابداع ، ويضفى شرعية ومجدا على النص المكتوب . والمسرح الذى كان العابا واعيادا ، ولم يكن يعطى قبلا أى نص مكتوب ، شرع من ذاك الاوان يعطى نصوصا . ومع ذلك فان انشاء النص المكتوب ينشيء أيضا وحدة لغوية كلية ذات صلة بتاريخ اللغة والذاكرة الأسطورية لدى الجماعة ، وتطلعها الى المستقبل ، ولم يعد الشاعر المسرحى شارحا للتقاليد ، ولكنه صار خالقا يعالج فى حدود مداركه المتطورة المادة اللغوية والاسطورية المتداولة . أما الكاتب ، صانع الأساليب اللغوية ــ ومن ثم يتميز نشاطه عن سائر الأنشطة بالمدينة ــ فأنه صار واعيا باللغة عن طريق النصوص .

عملية نشهد ظهورها فى اثينا فى القرن الخامس ، ثم تتبلور من جديـد فى تلك الفترات التى تتميز كثيرا بالبراعة فى النصوص الكتابية ، فى روما فى عهد أغسطس ، وفى عصر التنوير ، وفى القرن العشرين الذى تسوده المفاهيم والأبنية الخاصة بنظرية عامة للاساليب اللغوية

لحظات لم تكن بعامل الصدفة لحظات رئيسية من الوعى التاريخى والنقدى ، لانها كانت تسهم فى كل مرة فى تكوين هذا الوعى ، أو اعادة تكوينه .

وتتمثل مفخرة النص بنوع خاص فى تكوين الوعى التاريخى والنقدى بالتراث اللغوى للجماعة العرقية : فالواقع أن الكتابة قد جعلت الابتكار الرمزى فى مستوى الأنشطة الواعية حيث ظل نشيطا من ذلك الحين .

نلاحظ مع ذلكان الاساليب الفنية الاخرى تقتفى اثر الادب فى هذا الوعى النقدى ، ولكنها لا تستخدمه ــ كما يلاحظ لورى لوتمان ــ إلا باعتباره « نمـاذج ثانوية » ، ويضيف لورى لوتمان أن السبب فى ذلك هو أن « وعى الانســان وعى لغوى » .

نلاحظ مع ذلك ان الاساليب الفنية الاخرى تقتفى أثر الادب فى هذا الوعى النقدى . ان فورية الايماءة لدى المصور أو النحات أو الموسيقى يمكن أن تستغنى عن وعى فكرى ونقدى ، والاشارة الى الأساطير لا يجعل الفنون غير الكلامية حتما مجرد قوالب عامة ثابتة . وتكفل الألعاب وضروب الأداء الفنى التى تقترن بهـذه الاشارة تجسيد الأبنية للتعبير المقصود ، وهو شيء لا يتأتى لشرح المؤرخ أو الباحث فى الجمال (الاسطاطيقى) أن يفعله . وعلى هذا الوجه يتبين السبب فى أن المعرفة

لا تكفى لخلق فنانين مبدعين ، فالمقال النقدى تعوزه تلك المشاركة الجسدية التى تمارسها ابسط الألعاب . أكثر من ذلك أن الفن اللاكلامى يشترك فى التاريخ على مستوى الابنية العميقة التى هى ايضا أبنية تعبيرية جماعية ، يفسر من خلالها توالد الأساليب ، وكذا تلك الحياة العجيبة للاشكال التى وصفها هنرى فوسيون . وعلى العكس من ذلك لا يوجد تاريخ للفن ولعلم الجمال الا عن طريق النص المكتوب. كذلك يكتسب الوعى التاريخى والنقدى عن طريق التأويل الأدبى . وتشيع الثقافة التاريخية عند الفنانين بنوع خاص فى العصور الأكاديمية ، ولا تظهر اليوم فى الممارسة العملية الا باعتبارها من علوم البيان المقارن .

أما الصور الجدارية فى كهف لاسكو ، وهى آثار باقية من بعض شعائر التلقين ، فانها خارجة عن الوعى التاريخى . أكثر من ذلك أن العلامات المرسومة لم يقصد بها الدوام ، كما يدل على ذلك التصاوير التى ترجع الى ازمنة مختلفة والتى رسمت بعضها فوق بعض ، ومع ذلك فانها تضفى على الجدار لغة واضحة تعبر عن مستقبل الانسان . ورسوم لاسكو الجدارية ، وهى أشكال رسمت فى المظلمة بقوة الخيال الارادى وحدها تجعلنا حيال العمل الباهر الذى يشكل الأساليب التعبيرية التصويرية، على مستوى التكوينات الابتكارية ، فى علاقة يتردد صداها فى تاريخ البشر .

وتسترجع عروض المهرجان الزمان الماضى دون أن تلغيه ، ولا تفتح المجال الا الى تكرار الأصول الأسطورية . فاذا ظهر بالمهرجان بعض المبتكرات ، فان الماضى والاصل يتخذان معنى للمستقبل الذى يستحوذ ويسيطر عليهما . واسلوب التعبير فى فن المجتمعات البدائية هو أسلوب المهرجان : وهو أسلوب شفهى ، الا أن ثمة آفاقا تنبثق منه ، ليست هى آفاق القبيلة ، اذ يتجلى فيها مصير أكثر رحابة فى حدود البشر . هذا التحول هو الذى وجه أنظار مالرو الى الأعمال البدائية . وقد لامه الاخصائيون لعدم مبالاته بمقتضيات تحليل موضوعى ونقدى للماضى الأثرى : فالواقع أن وصف الماضى لا يثير اهتمامه . ان ما يهمه فى أعمال الماضى هو ما يبحث منها فى حاضرنا ، كما يقترح علينا نوعا من المستقبل . والوعى النقدى باللحظة الحاضرة هو الذى يستحث شرح مالرو ، ويحدد مجال هذا الشرح . ويبحث مالرو فى أعمال الماضى ، لا بأعتبارها كذلك ، ولكن باعتبارها اعمالا تتضمن مستقبلا للبشر ، وأعمالا تبتكر التعبير ، لذلك فان هذا البحث فى موضوع المصير والأسلوب اللغوى الذى يتعين أيضا فك رموزه هو الذى يجعل من عمل الماضى عملا فنيا : « المعنى المتضمن فى اجابة أبدية على السؤال الذى يطرحه على الانسان نصيبه فى الأبدية — حين ينبثق فى الحضارة الأولى التى تدرك جهلها بمعنى الانسان » .

٤ — وعلى العكس من ذلك لا يجوز للكاتب المنهمك بكليته فى انتاج النص أن يزعزع أو يناقض أبنية التقليد والاسطورة ، أو حتى القواعد الاكاديمية ، بل ينبغى له أن يتكفل بالأزمة التى تستثيرها المقابلة وحدها بين النصوص .

واذ تنحصر الكتابة فى شبكة النصوص المترابطة ، فانها تعيد بناء التقاليد والاساطير ، ولكن فى ضوء جديد من خلال وعى يختار ويصدر احكامه . ولم تعد اللغة التى كانت حتى ذلك الحين تنقل شفاهة المجال الوحيد للاسطورة ، وأعقب ذلك انتاج عن طريق النصوص يمكن أن ينمو ويتطور تحت رقابة اللغة عند مستوى أبنيتها الابتكارية المندمجة مع انشطة وعيه المتيقظ : بناء يتطلب لأول مرة ، بالنسبة الى اللعب والمهرجان الى الممارسة الواعية للمناهج التى تحكم الأعمال الفنيـــة . ومن ثم فان الانتاج الكتابى ، بخلاف الفن اللاكلامى لا صلة له بالممارسة الفنية ، اللهم الا من خلال وعى تقدمى تاريخى ونقدى ، وعلى الاقل يعمل هذا الانتـــاج على ظهور هذا الوعى .

ولكنا باقرارنا للعمل النصى مثل هذا المصير النقدى الضرورى ، ألسنـــا نحكم عليه فى الوقت نفسه بالشتات والتفرق الذى سوف يقضى عليه .

الواقع انه سوف يتلاشى لولا الطاقات المعبأة لصالحه والتى وجـدناها فى الاعلاء . فايروس ، كلاعب ، يبسط على العلامات والرموز نشاطه فى الاغراء ، والابتكار ، وتوجد الطاقات الغريزية . وفى منابع الشعر ، يكتشف اللعب الرمزى جوهره الغرامى المولد لمشاركة تمتد الى كل الفوارق .

ان الحاجة تولد الرغبة عند مستوى اللاوعى ، رغبة تميل الى الهلوسة . غير أن تخيلات اللعب ليست من قبيل الهلوسة ، بل انها خدع ، واغراءات بارعة ، وابتكارات ذات أشكال معقدة وغنية للغاية : انها « مواجهة للعالم ، ومجموعـــة كلية متفتحة لرغباتنا » .

(مايكل دوفرين)

ذكرنا منذ هنيهة أن من يؤدى الفولكلور يلقى بنفسه فى مغامرة خطيرة ، ويسهم بما تسعفه به الذاكرة فى لعبة تجرى فى الوقت الحاضر .

وعلى العكس من ذلك يشكل استخدام النص مباعدة مستديمة تفقد الأساطير سحرها ، والهلوسة أوهامها . ويجب أن ينبعث النشاط الرمزى من بعيـــد ، من الحركة التى انشأته ، وكان هو ثمرتها ، الحركة التى تستخدم الكلمة ، والرغبة فى الاتصال وتبادل الاشارات التى تستخدمها فى تفسير العالم ، وتبادل الافكار .

وهكذا يحافظ النص على فضائل اللعب ، من تلقائية ، وحيوية مفرطة ، وأنشطة يحكمها مبدأ المتعة . مبدأ المتعة ؟ لا ، بل يحكمها شىء اشد حماســـة وأكثر براعة ، بقوة تصمد لمبدأ الواقعية نفسه : بايروس الذى لم يعد طفلا ، بل صار بالغا يدرك الواقع ، ويستطيع وهو حى عار أن ينفذ الى الواقع .

فى الشعر الذى يسوده ايروس ، تضيف الحضارة الصناعية بعدا واحدا الى المآثر الفنية يجعلها أكثر جراة : ذلك هو ادماج المعانى التى اتى بها العلم والتكنولوجيا الحديثان . والمطلوب هو اعادة بناء مجموعة كلية متعذر جمعها ، انطلاقا من مجتمع

وأسلوب لغوى متناثرين . والموضوع التقنى وسيط بين العالم وبين الشخص المؤدى . فالتقنى ، والعالم ، والمستهلك يقفون حيال الوظائف الوسيطة « حيال السيطرة على الطبيعة وتملكها » . ومع ذلك يتابع الفنان أهدافا من الحساسية ، والتحرر ، والمشاركة . فكيف يتأتى له ان يصل اليها ؟

أولا ، عن طريق اللعب ، ويجب عليه أن يغير نظاما خاضعا للصياغة الآلية ، وربما لا يتسنى هذا الا عن طريق تأليف شعرى يرتب العلاقات من أجل مطالعة أولية ، بعيدا عن الأساليب الآلية ، أو كما قال مالارميه : « حساب اجمالى تحت التكوين » . عمل مفتوح ، وممارسة النص المكتوب ، وبلاغة مقارنة ، ومسرح القسوة . وتعبر قصائد هولدرلن عصرنا باشارة استهلاكية لأنها تستدعى اللعب الايقاعى وأساطير الجزر اليونانية الوضاءة ، ومهرجان اللغة الى اغوار الجنون المظلمة . والأمر اليوم كذلك بالنسبة الى العمل الفنى الذى يظهر فيه ايروس فى صورة حرمان ، أو حنين ، أو مطالبات على غير أساس ، أو انقطاع ناجز وفى نفس الوقت مرفوض ، ومتناقضات ، وتباينات وتناوبات ، وتصدعات ، وأزمات فى التوازن ، وترابطات ، وانتقالات الى الحدود التى تقدم العمل النصى على أنه فكرة معرضة دواما لمخاطر الحياة ، وبأختصار تقدم الفن على أنه وحدة كلية من الوعى والمخاطرة .

ثبت

المقال وكاتبه	العنوان الاجنبي	العدد وتاريخه
* نماذج الجمال فى البيئة الحضرية بقلم : ارنولد برليانت	**Aesthetic Daradigms For an Urban Ecology** by Arnold Berleant	العدد ١٠٣ خريف ١٩٧٨
* مستقبل الغذاء بقلم : لستر .ر. براون	**The Food Prospect** by Lester R. Brown	العدد ١٠٣ خريف ١٩٧٨
* نحو مركزية بشرية حديثة بقلم : بيير أوجير	**Towards a Modern Inthropocentrism** by Pierre Auger	العدد ١٠٣ خريف ١٩٧٨
* فى علم الانساب اللعب والفولكلور والفن بقلم : ادمون رادار	**A Geneology : Play, Folklor and Art** by Edmond Radar	العدد ١٠٣ خريف ١٩٧٨

مطابع شركة الاعلانات الشرقية



١٠ فبراير ١٩٨٠
٢٣ ربيع الأول ١٤٠٠
١٠ شباط ١٩٨٠

●● محتويات العدد



● يرى المؤلف ان شعور الانسان بالأعلى (الجهة العليا أو الارتفاع) والأسفل (الجهة السفلى أو الانخفاض) شعور طبيعي ناجم عن الجاذبية الأرضية التي تشد الانسان الى أسفل ، وفي رأي المؤلف ان الفرار او التخلص من هذه الجاذبية أمر مستحيل وهو يؤكد انه لو ان كائنا من كان ولد خارج مجال الجاذبية ثم جيء به فجأة الى الأرض لأحس من فوره أنه مقيد الى الأرض بالسلاسل والاغلال ، وأن قدميه مربوطتان بالكرة الأرضية الثقيلة •

●● ثم يتحدث المؤلف عن رغبة الانسان الغريزية في الطموح الى أعلى ويدلل على ذلك بامثلة كثيرة سردها في مقاله • ومن ابرز هذه الأمثلة في العصر الحاضر طموح الانسان الى غزو الفضاء ولكن الانسان حين ينتقل الى

الكاتب : ادواردو جوتزالث لانوزا

ولد باسبانيا فى ١٩٠٠ ، واقام فى الأرجنتين منذ ١٩٠٩ ، اسس مع جورج لويس بورجس حركة «التريستا» فى ١٩٢١ ، وحرر معه مجلتى برزما وبروا • منح جائزة قومية فى الشعر • نشر مقالات عديدة فى نقد الشعر والنثر والدراما •

المترجم : أمـــين محمود الشريف

عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنـــون والآداب والعلوم الاجتماعية •

الفضاء يخرجَ عن حكم الجاذبية مع أن تكوينه الجسمي يفرض عليه مسايرة الجاذبية او أن هذا التكوين خلق بحيث يساير هذه الجاذبية وهو مظهر من مظاهر أزمة الأعلى والأسفل التى يتحدث عنها المؤلف فى مقاله •

ولذلك يهتم الخبراء اهتماما جديا بالمشكلات النفسية والجسمية التى تواجه رواد الفضاء عندما يمكثون فترة طويلة خارج مجال الجاذبية • ومن ذلك أنهم يدرسون امكان خلق مجال اصطناعى للجاذبية داخل سفن الفضاء • وفى رأى المؤلف ان الانسان يستطيع أن يعيش على الأرض فى رغد وراحة بادنى قدر من التفكير السليم وأنه من الصعب غزو الفضاء والعيش فيه بسبب فقدان الجاذبية •

يلوح لى أن الأهمية البالغة للتكيف الذى خضع له كياننا الجسمى وكياننا العقلى لم يلق اهتماما كافيا بسبب نموهما فى مجال معين من مجالات الجاذبية الأرضية • ويبدو أن التطور الطويل المدى للنوع الانسانى ينبع من رغبتنا فى الغاء ثقل الأجسام أو التخفيف منه على الأقل • وقد استخدمت قبل ظهور الانسان بقرون عديدة وسائل تعويضية ، منها المثانة المائية ، والجناح والقفز البسيط عند الحيوانات الثديية الكيسية •

ولما ظهر النوع الانسانى على مسرح الوجود وجد محور الأعلى ــ الأسفل قائما، فأكمله الانسان بالوضع العمودى الذى كانت الأنواع السابقة تصبو اليه •

ويتجلى الشعور بالفرح عند الانتقال الى أعلى فى ألعاب اليوم والأمس وفى تحليق الطائرات الورقية الهشة فى الهواء ، وانطلاق السهام النارية البهيجة فى جو السماء ، كما يتجلى فى وثب الكرة الى أعلى وأسفل ، والتعاقب الايقاعى لصعود وهبوط الأرجوحة ، وفى الانزلاق على الجليد حيث يشعر الانسان بالتحرر من الثقل الذى يشعر به فى أثناء الصعود • وليس فى وسع الانسان باعتباره كائنا أرضيا أن يتجاهل العناء الذى يكابده من الحتمية الأبدية لظاهرة الارتفاع والانخفاض ، ابتداء من رفع أحد الأثقال بل رفع احدى اليدين ، الى المجهود الذى يبذله الصوفى فى التضحية بروحه •

وهناك حالات نستطيع أن نسعد فيها برؤية الأعلى بصورة مباشرة • مثال ذلك أنه ليس علينا الا أن نرفع رءوسنا لنمتع أبصارنا بمشاهدة روعة السموات فى مظاهرها الفخمة المتغيرة ، وأننا نحسد الطير والحشرات الطائرة لقدرتها على الطيران فى جو السماء • وما من أسطورة من الأساطير الا وتتجلى فيها رغبة الانسان فى الطيران ، وما من رجل صوفى الا واستخدم كلمة « السمو » للدلالة على ما يشعر به من نشوة الوجد •

وشعورنا بالأسفل أمر ملموس فى العادة ، اذ تزل بنا القدم ، فنسقط على الأرض ، واذ تنحنى أجسامنا المرهقة وتهدد الوضع العمودى الذى حققناه بجهد ومشقة •

ونحن نقول ان الحياة تبرز وتتجه الى أعلى ، وعندما يولد الطفل نقول انه ولد « ليرى نور النهار » الذى يأتى الينا من أعلى • أما الموت فينقض علينا بالنزول الى غيابات القبر • والخط الذى يمثل التطور التدريجى من الجمادات الى النباتات ومن الحيوانات الى الانسان يمكن أن يوصف بأنه خط صاعد ، وهو يحاول ــ بقدرته المحدودة ــ أن يخلصنا من وطأة الثقل الذى يشدنا الى الأرض •

ولا يتجلى هذا المعنى فى شىء بمثل هذا الوضوح كما يتجلى فى الدين واللغة التى تعبر عن مفاهيم هذا الدين • فالناس يصفون الله دائما بأنه العلى الأعلى • وعبارة « أبانا الذى فى السماء » من صيغ الثناء التى يثنى بها على العلى الأعلى • وليس من

قبيل الصدفة أن الله تعالى جعل الملائكة أولى أجنحة ، وان رجال الفن الرومانيسكى يصورون الملائكة بأجنحة كثيرة حتى يتسنى لهم الصعود الى آفاق شاهقة ·

وهناك كلمة واحـدة هى « السماء » تستخدم دائمـا للدلالة على معنيين : أحدهما : المظهر السماوى لقوس القبة الزرقاء والثانى مثوى الأبرار والمصطفين الأخيار · وقد اتخذ اليوم « صعود المسيح » الى السماء معنى رمزيا ولكنه كان فى الاصل معنى حسيا صرفا · ثم ان المسيحيين يثنون على الله بهذه العبارة « المجد لله فى الاعالى » ·

وليس هذا المعنى مقصورا على العقائد المسيحية واليهودية · فمثوى الشهداء فى الاساطير الاسكندنافيه وكذلك جبل أوليمبوس عند الاعريق دليل على تفضيل الآلهة للمرتفعات الجبلية · وقد أكد يهوه (اسم الله عند اليهود) هذا المعنى عندما اختار سينا مكانا أوحى فيه الوصايا العشر الى موسى ، كمـا تؤكده « الخطبة على الجبل » (المنسوبة الى المسيح) ·

ومن المرتفعات أيضـا نزل الغضب والعقاب الالهى ، كمـا نزلت صـواعق زيوس ، والنار التى أحرقت مدينة سدوم ·

ويلاحظ أن كلمة interno ومعناها الجحيم تعنى من ناحيـة الاشتقاق « ما يوجد فى الاعماق » أى أسفل الأماكن · وكان كبار الفلاسفة يعتقدون أنه من الممكن تحـديد موقع جهنم من الناحيـة الطبوغرافية ، شأنها فى ذلك شأن جزر التوابل فى أرخبيل الملايو بالنسبة لمن لا يعيشـون فيها · فليس من الحـكمة انكار وجودها حتى ولو كنا نعتقد أنه لا يمكن لنا « الوصول اليها » · والأمر المهم هو ان الناس اعتقدوا دائما ان جهنم مكان للعذاب يختفى فى باطن الأرض وأنها فى الدرك الأسفل من الأماكن السفلية ·

وقد آثر الفلاسفة ـ ميلا منهم الى تشـبيه الله بالكائنات دون أن يعترفوا بذلك ـ أن يطلقوا على الله اسم « الكائن الأعظم » وهو اطلاق لا يغير من حقيقة الأمر شيئا ، نظرا لأن وصف الله « بالعظمة » يعنى الاعتراف بأنه العلى الأعلى ، فى حين ان مثوى الشيطان فى أعماق الجحيم ·

ومما تجدر الاشارة اليه أنه ما من أسطورة من الأساطير مهما أغرقت فى الخيال تقول ان مكان جنة النعيم التى يثاب فيها الأبرار يوجد فى أعماق الأرض ، وأن مكان العذاب الأبدى يوجد فى الأعالى ·

ومثـل هذا الاجماع العالمى يماثل أمرا مشتركا بين الأساطير وهو تصورها لفكرة الأعلى والأسفل الناجمة عن الجاذبية الأرضية ·

ونستطيع أن نلمس التفرقة بين الأعلى والأسفل فى المملكة الحيوانية حيث

تشعر القبرة بالطرب عندما تطير ، مما يجعلها تشدو بصوت رخيم ، وكذلك الحيوانات اللاحمة (الآكلة للحوم) ترفع رأسها عندما تشم رائحة الفريسة ٠

وقبل أن يكتمل وعي الانسان بنفسه كان يسكن في عالم يخضع كل شيء فيه لمبدأ الأعلى والأسفل ، فالنباتات تخضع لقانون « الانتحاء الضوئي » فترفع الأشجار عددا وفيرا من الأوراق التي تكتسب بهجتها من ألوان الأزهار والثمار ، في حين أنها تخفي في باطن الأرض الجذور الدنيئة المغذية ٠

واذا أنعمنا النظر قليلا ، أدركنا أن هذه الأمثلة ليست سوى المرحلة النهائية لعملية ترسيب العناصر المعدنية التي استمرت منذ البداية ٠ ثم وجد الانسان من المناسب أن يضع كل شيء يوليه أهمية كبيرة في أرفع مكان عنده ألا وهو الروح فجعل من كل شيء خفيف رمزا للفضيلة ، ومن كل شيء ثقيل رمزا للرذيلة ٠ مثال ذلك أنه اتخذ الحمام رمزا لروح القدس ، في حين جعل الافعى رمزا للخطيئة ٠

وقبل أن يدرك الانسان التفرقة بين الأعلى والأسفل ، كان يعبر عن هاتين الفكرتين بعبارة الموجب والسالب ، والخير والشر ، والنور والظلام ، والحياة والموت ٠ وأضفى الانسان على هذه الاضداد قيمة مطلقة ، وأقحمها في كل الأشياء على اختلاف أنواعها بفعل الجاذبية التي خضع لحكمها دون أن يشعر بها ٠ وتنعكس هذه الفكرة في لغتنا اليومية عندما نتحدث عن « المثل العليا » و « الشهوات المنحطة » ٠ وانك لترى اليوم الصحافة العالمية تستخدم عبارات مثل « المستوى العالي » ومثل « مؤتمرات القمة » ٠ وقد دأبنا دائما على أن نسمي أصحاب الرتب العالية « رؤساء » ومن يلونهم في الرتبة « مرءوسين » (وكلتا الكلمتين مشتقة من الرأس)٠ ومن المشاهد أن أهل « الطبقات العليا » في المجتمع لا يخفون احتقارهم لأهل « الطبقات الدنيا » ٠ ونحن نصف دائما المنصب الحسن بأنه « رفيع » ٠ واذا حكم على انسان بانزال رتبته فلأنه لم ينجح في عمله ٠ وهناك مثل واحد فقط نستخدم فيه كلمة « رفيع » بمعنى الذم والقدح ، وهي كلمة « أرفستي » الاسبانية التي يطلقها الاسبان من أصحاب المقام الرفيع على كل من يتطاول الى مقاماتهم الرفيعة ٠ وفي فن العمارة يتحدث المهندسون عن « المعنى العلوي » و « المعنى السفلي » ٠ وفي علم التحليل النفسي يعمل الأطباء النفسيون على تخليصنا من « عقدة النقص » ٠

وقد يكون من المفيد أن نشير الى العلاقة الغريبة بين محور الأعلى والأسفل الناشيء عن الجاذبية الأرضية ، ومحور الجهات الأصلية في بيت الابرة التي تبين جهة الشمال والجنوب ٠ وربما يرجع هذا الى أن أول من رسموا الخرائط الجغرافية كانوا من أهل الشمال ، فوضعوا نصف الكرة الشمالي في الجزء الأعلى من الخريطة رغبة منهم في تحسين موقع بلادهم ٠ وكان النجم القطبي الذي تدور حوله ظاهرا قبة النجوم يقع في جهة الأعلى التي تقترب شيئا فشيئا من سمت الرأس كلما سار الانسان في اتجاه الشمال ٠ ولذلك لم يكن من الغريب ان الشمال اقترن بالارتفاع

فى المساقط الهندسية التى رسمها واضعو الخرائط ، والنتيجة الحتمية لذلك اقتران الجنوب بالانخفاض .

وليس أقل من ذلك غرابة أن ترى أهل الشمال فى كل بلد أوربى ينسبون الى أنفسهم صفات خاصة ، فهم يرون أنهم يمتازون بالجد فى العمل ، وأنهم أرزن عقولا من سكان الجنـوب . وهذه المزاعم صحيحة الى درجة أن كلمة « الجنـوب » أصبحت من كلمات الذم . وليس من خطل القول أن ذلك نشأ عن وضع الجنوب فى الجزء الأسفل من الخريطة . وهذا يدل على أن تفوق الشعوب الشمالية المزعوم يرجع الى خطأ بسيط فى وضع الخرائط .

ولكن ثمة ما هو أغرب من ذلك فى هذه الخرائط : ذلك أنه يبدو أن شـكل البلاد المرســومة على الخرائط قد انتحل اقتران الشمال والجنـوب بفكرة الارتفاع والانخفاض . يدلك على ذلك أن القارات ــ دون استثناء ــ تمتد الى الجنـوب وكأن قوة ما تشدها الى أسفل . فلو أنت ألقيت نظرة سريعة على الخريطة لرأيت ان الامريكتين، وأفريقيا ، واستراليا ذاتها تمتد نحو الجنوب . وفيما يتعلق بقارة أوراسيا الشاسعة الأرجاء نجد أن العديد من أشباه الجزر فيها يتجه نحو الجنوب : اسبانيا ، وايطاليا ، والبلقان ، وبلاد العرب ، والهند ، والهند الصينية . كذلك نلاحظ أن هناك بلادا منفصلة عن بلاد أخرى ومتدلية نحو الجنوب . مثال ذلك انفصال جزيرة صقلية عن ايطاليا ، وأرخبيل اليونان عن البلوبونيز ، وسيلان عن الهند ، وأندونيسيا كلها عن الهند الصينية ، وتسمانيا عن أستراليا ، ومدغشقر عن افريقيا ، وتيرا دل فويجو عن أمريكا الجنوبية . ومثل ذلك يقال عن كاليفورنيا وفلوريدا وكلتاهما انفصلت عن أمريكا الشمالية مع انتشار فلوريدا خلال أرخبيل الكاريبى . وتشير كل الدلائل الى ارتباط الجنوب بالانخفاض . ولكن هـذا الشكل الذى يبـدو على الخريطة ليس بالطبع ســوى توافق غـريب له أسبابه الجغرافية الصحيحة . ومن الواضح انه يرجع الى وجود قوة تجذب هذه البلاد الى الجنوب . وأهم من شـكل الأرض التى نعيش عليها ، تركيب الجسم الانســانى الذى لا يخضــع للارتجال ولا للصدفة . ففى أعلى نقطة فى هذا الجسم نجد أسمى أجزائه الا وهو الرأس . هنا نجد الأعضاء المتحكمة فى السلوك والفكر ، والحواس ألتى لا غنى عنهـا فى التوجيه : البصر والسمع والشم . ويقع الوجه فى جهة عالية فى الجسم حتى يتسنى له أن يقوم بوظيفة « الرادار » ليرسل معلوماته بأقصر الطرق الى مركز التحكم وهو الجهاز العصبى المركزى . وكل هذه الوظائف يحكمها الجهاز العصبى السمبتاوى وهو نفسه خاضع لجهاز النمو الذى يجعلنا على صلة بعالم الحيوان . وفى أسفل الجسم يوجد الساقان وهما جهاز التنقل كما أنهما دعامة الجسم . وينتهى الساقان بالقدمين اللذين يرتبطان بعالم الجمادات الذى يرتكزان عليه ، وهما يماثلان جذور عالم النباتات . على أن « جذورنا » قد انفصلت عن الأرض التى تجذبها ، وذلك طوعا لأوامر حتمية صادرة من أعلى .

ويمكن القول بأن ذلك كله هو نتيجة الترسيب الطويل والحكيم الذى قضى

بوضع الأعضاء الثانوية فى الجزء الأسفل من الجسم وفوقها وضعت الأعضاء الدقيقة التركيب التى انتهت بألطف الأعضاء وأخفها وهو الروح • ويستجيب الجسم الانسانى لمقتضيات مفهوم الأعلى والأدنى بفضل نضجه البيولوجى العظيم • ومن بين جميع المخلوقات التى عاشت على الارض كان الانسان هو الكائن الوحيد الذى نجح فى التكيف مع الجاذبية الأرضية ، فاستجاب لمقتضيات الأعلى والأسفل التى مكنته فى النهاية من التصرف بأعظم قدر من الحرية •

وما نلاحظه على المستوى الفسيولوجى فى أجسامنا ، نلاحظه أيضا فى كياننا النفسى • فهذا الكيان مبنى على وظائف وخصائص متدرجة فى أهميتها ، وموجودة فى أجهزة متقلبة الى أقصى حد يمكن تصوره ، ولكنها مع ذلك تستجيب لمقتضيات الأعلى والأسفل • وبدون هذا النظام الدقيق تلقى بنا المدركات المتراكمة فى أحضان الفوضى ، فلا نستطيع أن نقوم بالاستجابات المناسبة ، كما لا يسع المخ مع قدرته العظيمة الا أن يزيد من عقد الكبت الضارة بمستقبل النوع الانسانى ولا ريب فى أن التنظيم الدقيق للفكر هو الذى يساعد الكائنات البشرية على الحياة • وهذا التنظيم لا يمكن أن يقاوم الجاذبية المادية ولا النفسية التى تحافظ بدقه على نظام الأعلى والأسفل •

ان مفهوم القيم لم يظهر الا فى عهد متأخر فى مباحث القيم التى تعالجها أشد المذاهب الفلسفية تعارضا • ولكن هذه القيم كان لها برغم عدم صياغتها فى صورة علمية دقيقة بعض الأثر منذ أن وجد كل ما هو جدير باسم الفكر الانسانى •

ويجب أن تصاغ القيم دائما فى صورة الجمع ، لأنه لا يمكن أن يوجد شىء يعد قيمة فى « حد ذاته » دون أن تكون له صلة بأى قيمة أخرى • وهذا هو السبب فى أن مفهوم القيمة لا ينفصل عن مفهوم السلم • ومعروف أنه لا يكون للسلم أى معنى الا اذا خصصت درجة معينة لكل قيمة على محور الأعلى والأسفل ، وبدون هذه الدرجات العلوية والسفلية لا يكون للسلم أى معنى • ولما كان هذا هو الشكل الأساسى للسلم فاننا نضع فى أعلى درجاته أسمى القيم التى أجمع الناس عليها الا وهى الحق ، والخير ، والجمال • وهناك أيضا قيم نسبية تتحدد أهميتها طبقا للمسافة التى تفصلها عن هذه القيم العليا أى طبقا لكونها عاليه أو سافله على السلم المذكور •

ويبدو أن تفكيرنا المجرد (المعنوى) يعجز عن أداء وظيفته اذا لم يعتمد على الصور المادية • وهذا يضطرنا الى الاستعانة فى هذا التفكير بفكرة الأعلى والأسفل المستمدة من بيئة الجاذبية الأرضية •

وتبدو صورة الجاذبية هذه ـ دون أن تترك العالم المادى ـ فى مجالات لا تمت لها بصلة كبيرة • مثال ذلك أننا اذا استخدمنا كلمة السلم المذكورة بمعناها الموسيقى ، فاننا نقسم الأصوات الى السبران (أعلى أصوات السلم الموسيقى) والرنيم (صوت خافت فى الغناء) دون أن نجد سببا يفسر لنا : لماذا تقترن أعلى ترددات الذبذبة بفكرة « الأعلى » على سلم القيم ، ولماذا تحظى بأعظم تقدير •

والشيء المؤكد هو ان كل شيء ـ سواء في العالم المادي أو العالم الفكري ـ يحدونا الى الاخذ بمعايير بطليموس التي تقول ان هناك قوة مطلقة لفكرة « الأعلى والأسفل ».

وهكذا كنا نعتقد الى أن حدث منذ زمن غير بعيد أن سقوط التفاحة الذي استدل به نيوتن على جاذبية الأرض نبه الفكر الانساني الى أنه وراء كوكبنا الأرضي الذي نعيش عليه يجب التخلي عن القيمة المطلقة لفكرة الاعلى والاسفل ، وان هذه الفكرة تقتصر على المدى المحدود لجاذبية الأرض . أما خارج الأرض أى في الفضاء اللانهائي فان الجسم والفكر الانساني يتحددان من ميزة الثبات والاستقرار ، اذ ليس في الفضاء شمال أعلى ولا جنوب أسفل . ويبدو ان نيوتن نفسه لم يدرك في عصره النتائج البعيدة للنظرية التي وضعها .

ولقد كان نيوتن محبا للاهوت الذي أولاه من الاهتمام أكثر مما أولاه علم الفلك . ولكنه لم يشعر أنه حين جرد « الأعلى » من قيمته المطلقة ، قد أبعد « أبانا الذي في السماء » عن مقره التقليدي . ولحسن الحظ لم تثر نظرية نيوتن من ردود الفعل العنيفة ما أثاره كوبرنيق بيد أن نظرية نيوتن انطوت على خطر ليس بالهين على الفكر التقليدي . وقد اعتبرت افتراضا نظريا يمكن أن يثير على الاكثر عددا قليلا من خريجي الجامعات ذوى الخيال الجامح ، افتراضا من نوع ما يسمى « أكاذيب النجوم » ومن النوع الذي يقول عنه المثل الأسباني « انها أكذوبة غير ضارة « **لا أحد** » يستطيع الاقتراب منها بحيث يراها » . ولكن لقد جاء الزمن الذي تحولت فيه عبارة ((**لا أحد**)) الى عبارة ((**كثير من الناس**)) الذين جازفوا بحياتهم ليتقربوا منها حتى يروها . ولم يكن هؤلاء بحاجة الى السفر الى النجوم فقد تكفل جارنا القريب ــ القمر ــ بتقديم الدليل على صحة ما نادت به نظرية نيوتن .

وتمت في كبسولة الفضاء تلك التجربة التي ألغت صورة الاعلى والاسفل ، ولم تعد هذه الظاهرة هي النتيجة المتوقعة لبعض المعادلات الرياضية التي تحل بطريقة صحيحة بل أصبحت تجربة يقوم بها الجسم الانساني نفسه ، فسرعان ما وجد رواد الفضاء أنفسهم وهم يطيرون لا في أعلى ولا في أسفل . وهكذا لم تعد الرأس الفخور تتباهى بسيادتها التي دامت ألف سنة حين وجدت الأقدام التي لا تبصر تشاركها في هذه السيادة ! .

كما تم الالغاء الفجائي لنظام المحاور الذي كيف كياننا الجسمي كما كيف كياننا النفسي والمعنوى . وأصبح التطور الشاق للنوع الانساني الذي أدى ــ في زعمنا ــ الى الوضع العمودي ، وهو محل فخرنا ، أمرا مهجورا وعتيقا ، وعدنا القهقرى الى الحركات غير المتباينة لأسلافنا من البرزويات (الحيوانات الأولية) .

. ولم يكن ذلك من الثورات التي تعد دائما في التحليل الأخير تكييفا لأوضاع

جديدة تقوم ـ شئنا أم أبينا ـ على أساس عناصر سابقة ، بل لقد كان شيئا أخطر من ذلك بكثير ٠

وقد واجهت فلسفة نيتشه مثل هذه التجربة اذ ألفى فكرة الأعلى حين زعم ان « الله قد مات » ، فأصبح العالم ـ بعد انكار وجود الله ـ بمثابة حجرة الدراسة التي هجرها المدرس ، فصارت نهبا للفوضى ، وعاث فيها التلاميذ فسادا ٠ ولذلك اضطر نيتشه أن ينادي ـ في نفس الوقت ـ بظهور ما سماه « السوبرمان أو الانسان العالي » الذي نوهنه « انسانيته العليا » لان يحل محل العلي الاعلى ٠ وكانت هذه المحاولة من جانب نيتشه محاوله غير مقصودة ـ او على الاقل من قبل السهو ـ لاثبات فكرة « الاعلى والاسفل » التي حاول الغاءها دون ان يحل محلها شيء ٠ ولم يكن اختفاء هذا المفهوم عنـد رواد الفضاء نتيجـة لنظريه الجاذبيه التي لم تقلق بال المفكرين في عصر نيـوتن ، لانهم لم يستطيعوا التنبـؤ بنتائجها البعيـدة ، ولا نتيجه لان ما سبقت معرفته قد اصبح مفهوما على حين فجاة ، بل اختفى هـذا المفهوم في أجسامنا وعقولنا التي بدأت تدرك أنه قد زايلها المفهوم الذي نمت في ظله واستبدت بها الحيرة عندما رأت إستحالة التكيف مع الظروف والاحوال التي تحكم الفضاء ٠ ثم ان الراسية (الوضع الراسي) الذي اكتسبناه بعد طول عناد والذي يشير الى وظيفتنا الملائكيه (الطيران) مما يدل على ذلك تكرار الاشارة الى هذه الوظيفه في كل الأساطير التي تدور حول الطيران ـ اقول : ان هذه الراسيه التي ظلت موضع فخرنا بحق لانها اكسبتنا التفوق على كل ما عدانا من سكان هذا الكوكب الارضي قد بدت اكبر عائق يحول بيننا وبين السيطرة على الكون !

فنحن في الفضاء لا ندري ماذا نفعل بأجسامنا التي خلقت هي وبيئتها بحيث تتواءم وظائفها جميعا مع أحكام الجاذبية التي اذا فقدت فلا يمكن أن يحل محلها شيء آخر ٠ ثم ان الكسل والتعب الذي يشدنا الى أسفل سرعان ما يعد احساسا لذيذا بالقياس الى شعور الاحباط والهلوسة الذي يستولى علينا عنـد رفعنا الى مكان مطمئن نستقر عليه ٠ يضاف الى ذلك تغير العادات الثابتة التي اعتدناها على الدوام في شأن الطعام والتخلص من الفضلات ، وكلها عادات متجهة الى أسفل لكي يؤدي الجسم وظائفه على أكمل وجه ٠ وفي هذه العادات يتخلى الطعام عن طبيعته «العالية» عندما يغادر المكان الذي تتلذذ فيه حاسة الذوق بطعمه ، ثم ينزل الى المكان الذي يبرز منه على هيئة فضلات ٠ ولا ندري حتى الآن مدى الاضطرابات التي يمكن أن تنشأ عن نبذ هذه العادات التي تتواءم مع وظائف الجسم الطبيعيه ٠ واعجب ما في الأمر أن مبدأ الأعلى والأسفل مفقود في بيئة الفضاء في حين أنه مركوز في كياننا ذاته !

وأغرب ما في هذه الأحـداث هو التوافق العجيب (الفجوة التاريخية أقل ما تكون) بين التجربة الجسمية التي عانتها قلـة قليلة من رواد الفضاء ، وبين ما يجري حولنا في المجالات الأخرى ، فما جربه رواد الفضاء في الفضاء ، شاهدناه نحن يوميا في المجالات الاجتماعية والعقلية دون ما حاجة لأن نغادر كوكبنا الأرضي ٠

وقد حدث كل شيء كما لو كان الجنس البشرى قد هرب فجأة من مجال الجاذبية ، وكما لو كنا قد تخلصنا ــ مؤقتا ــ من محور الأعلى ــ الأسفل الوراثى فى كل شيء ما عدا الناحية الجسمية ٠

ففي الوقت الحاضر نرى اتجاها عاما نحو القضاء على كافة النظم والأوضاع أو الاغضاء عليها ــ وهذا أسوأ من ذاك ــ لا لشيء الا لقلب لمعنى القيم التى تنطوى عليها هذه النظم والأوضاع ٠

وأول ظاهرة تسترعى أنظارنا فى هذا الصدد ــ وفى مختلف بلاد العالم ــ ما يسمى « بثورة الشباب » التى يغضون الطرف عنها ، وان لم يشجعوها ٠ ولا شيء أكثر جاذبيــة بل أكثر ضرورة من ثورة الشــباب الطبيعية حين يرى الظلم بكافة أشكاله وحين تدفعهم الخبرة والحماسة الى المطالبة بالاصلاح ٠ على أن هذا الهدف يعد اليوم سذاجة بورجوازية ٠ قالت احدى الفتيات : « لو عرفت ما أردت ، لوقعت فى حيرة » ، وقالت أخرى : « فلتحى قوة الخيال ! » ٠ والقوة تمثل دون مواربة فى حين ان الخيال ــ فى خفته التى تعوزها التجربة ــ يمثل الأسفل ٠ واذا كانت الكلمات لا تزال تحتفظ بقيمتها وجب أن نترجم هذا الشعار بهذه العبارة «فليحى الأسفل !» وهى ترجمة يسلم بها صاحب الشعار بلا شك ٠

ويبدو أن اللغة تخضع لأحكام الجاذبية ، شأنها فى ذلك شأن كل الظواهر الانسانية ، فالأسلاف فى النظم التقليدية للأسرة يحتلون دائما مكانة عليا كالآباء والأجداد ، فى حين أن ذراريهم « المنحدرين من أصلابهم » يحتلون درجات سفلى متوالية : الأبناء ، والحفدة ، وكل من سيولد فيما بعد ٠ ونحن نعرف مدى الاحترام الذى يظهرونه للأسلاف فى الأسرة التقليدية : فى الصين وفى كل المجتمعات الأبوية والأمومية ٠ وقد عدت التجربة الكبيرة مزية ولم تعد شيئا شائنا فى أى وقت من الأوقات ولكننا اليوم نرى الشاب الذى لا يخضع لأى قيد من قيود القوة يعلن نفاد صبره على وضعه ، ويرى أن خيــاله هو الحكمة بعينها بل نراه أيضــا يتوجه الى المدارس والجامعات بدعوى طلب العلم ولكنه فى الواقع انما يذهب اليها ليضع نفسه فوق معلميه ليعلمهم ما يجب عليهم أن يعلموه لتلاميذهم وكيف يعلمونهم ٠ وهذا هو السبب فى أن الاحترام التقليدى للأستاذ قد ضعف فى حين أن الأستاذ وضع دائما فى مستوى أعلى من تلاميذه ، مراعاة لراحته الجسمية على الأقل ٠

وعلى العموم فالحال ليس أفضل من ذلك كثيرا فى المجال الاجتماعى ٠ فمن الأمور ذات المغزى ان كلمة « ثورة » قد أصبحت تحتل مكانة كبيرة بحيث تستخدم فى أشد المواقف معارضة للثورة ، ولكن يتم التخفيف من وقعها حين توصف بأنها « قومية » ٠ ومن السهل أن نتبين أن الثورة القومية تكون فى معظم الأحوال ثورة مضادة ٠ ولكن ما هو المهم فى ذلك ؟ المهم أن كل ثورة وكل ثورة مضادة انما تحدث حول محور يدور عادة من أعلى الى أسفل وهذا هو السبب فى ان الحركات التى تمجد

الثورة تسمى بحق حركات « هدامة » لأنها تهدف الى قلب النظام القائم رأسا على عقب • ففي الثورة الفرنسية ارتفعت البورجوازية فوق الارستقراطية ، وفي الثورة الروسية ارتفعت البروليتاريا (طبقة العمال الكادحين الأجراء) فوق البورجوازية • والشعار الذي يهتف به رجال الثورة ليس دائما « فليحيي ! » (نحو الأعلى) وانما « فليسقط ! » (نحو الأسفل) •

على أننا نرى في عصرنا ثورات تسمى ببراعة « ثورة بلا قضية » لأنها تعلن أو تدعي أنها تعلن ـ وهذا أسوأ من الأول ـ أنه ليست لها قضية تبرر ما ترتكبه من العنف دون قيود ، فلا يوجد مدافعون نظريون عن هذه الثورة التي هدفها ألا يكون لها هدف ، وما هدفها الا أن تقلب كل شيء رأسا على عقب لا أن تضع مكانه نظاما جديدا ، وأن تحدث التغيير عن طريق العنف الذي لا حد له • وانك لتجد في الماركسية الكلاسيكية ان القضاء النهائي على الدولة ـ وهو أمر تصبو اليه الماركسية ولا نرى عليه دليلا ينبيء عن تحقيقه حتى الآن ـ يعادل القول بالغاء مجال الجاذبية ـ ذلك المجال الذي يفرض علينا ـ ما دام قائما ـ استقرارا طبيعيا •

وقد ساعد على هذه الحركة عبادة « التحليل النفسي » عبادة عمياء ، يخشى أن تكون لها عواقب وخيمة ، اذا مارس هذا التحليل غير الأكفاء (كما هو شأن معظم من يمارسونه) • وقد كنا ـ حتى ظهور هذا التحليل ـ نخضع لنوع من الاستقرار النفسي الذي يظهر فيه « وعي عال » من الإلهام الصوفي السامي ، يعقبه « وعي » انساني يرتكز على « الدو ـ وعي » ، (ما دون الوعي) • ثم حدث تغيير في هذه المصطلحات النفسية فظهر اصطلاح « الأنا العليا » (في مقابلة الوعي العالي) واصطلاح الأنا (في مقابلة الوعي) واصطلاح الهذا (في مقابلة الدو ـ وعي) • وفي غمرة هذا الهوس الصبياني في سبيل المصطلحات ، كان من السهل علينا أن تكتشف استمرار بقاء مفهوم الأعلى والأسفل • والواقع أنه حدث شيء خطير في اللحظة التي طلب فيها المحلل النفساني الى المريض أن يرقد على الفراش ، اذ كان معنى هذا الرقاد أن يعدل المريض عن وضعه الرأسي حتى يتسنى له أن يتحدث عن أحلامه بل يطيل هذه الفترة حتى ينتقل الى حالة شبيهة بالغيبوبة توجه اليه فيها الأسئلة ، وبذلك يستطيع المحلل أن يستحضر الى دائرة الوعي (من أسفل الى أعلى) أمورا استطاع الرقيب الفطن أن يخفيها في دائرة الدو ـ وعي • ويبدو أنه أمكن بهذه الطريقة الوصول الى « علاج » مدهش ، لا ينتهي باستئصال العصاب (الاضطراب العصبي) بل يفهم أسبابه وأعراضه • ولذلك أمكن المريض أن يعبر ويكشف عن كثير من الاضطرابات النفسية التي تنتابه ، وعلى الأقل استطاع العقل اللاواعي أن يحصل على جواز بالدخول في دائرة الوعي • ولم يعن أحد بالبحث فيما اذا كانت الوحدة بين الأعلى والأسفل التي استقرت بعد قرون طويلة من التطور ، ضربا من التهور والطيش ، بل توغل بعضهم في التفرقة بين الأعلى والأسفل

فكان مثله كمثـل الفلاح المتحمس غير المجرب الذى تعمق فى حفر الأرض فخلط التربة الخصيبة بالطبقة غير الخصيبة التى تقع دون التربة ، وبذلك استحال الحقل الى حقل غير منتج بسبب التعمق فى الحفر الى حد الاسراف •

ولا شك أن سيطرة الدوت وعى ليست بدعا فى العلاقات الانسانية ، ولكن الجديد فى الأمر أن نراها تقع على مستوى ايجابى فى سلم القيم •

ويبدو أن الاضطراب لا يقل عن ذلك فى مجال العلوم الفيزيائية • فمنـذ بداية هذا القرن شاعت أهم نظريتين فيه هما نظرية النسبية ونظرية اللاحتمية • على أنه قبل منتصف القرن أمكن التوصل من هاتين النظريتين الى الجزم بامكان صنع القنبلة الذرية الرهيبة التى تهدد بجعل عالى الأرض سافلها •

وأخذت الفيزياء تلقى ظلال الشك على الأمور اليقينية المتصلة بالمادة التى يتوقف عليها مجال الجاذبية ، والتى كان اليقين المحسوس بها يسر الماديين ، ويمدهم بحجج لا تقبل التفنيد • أما الآن فقد سقطت المادة من الأيدى التى حملتها ولاطفتها • فنحن نعرف اليوم ــ وربما كان هو الشىء الوحيد الذى نعرفه ــ أن هذا اليقين الذى يزجى الطمأنينة الى النفس ، لم يكن سوى تعمية غير متوقعة من حواسنا الكثيفة • وبعد محاولات شاقة بذلها علماء الطبيعة لتقديم نماذج ذرية تقريبية جدا ، يقولون لنا اليوم بحصافة لا تخلو من الرثاء والاشفاق انه يجب علينا أن نطرح جانبا جميع الصور الحدسية التى نحاول بها أن نصور حقيقة المادة ، لأن هذه المادة ــ أو بعبارة أكثر حذرا ما يظهر لنا أنه مادة لا يتفق اطلاقا مع حدود حدسنا • وعلى ذلك لم يبق أمامنا سوى الاشارة الى رموز الرموز المتصلة بمعادلات عويصة وتقريبية لا يمكن أن تتفق أبدا مع الواقعية المحضة للأمور اليقينية التى نشاهدها كل يوم ، وهكذا اختفى الحد الفاصل بين ميتافيزيقا الأعلى وفيزيقا الأسفل • وكأن ذلك لم يعد كافيا ، ففى يوم صنفا فيه الجو شاهدنا « البوذترون » السريع الزوال وبعد زمن قصير شاهدنا « البروتون » السلبى والوهمى ثم لجأ الباحثون الى مفهوم فلم تطمئن اليه النفس الا وهو مفهوم « المادة المضادة » • وهكذا اصطدم الكون كله ــ بكل مجراته ــ بصورة شفافة لاحتمال ظهور كون مضاد يتعين علينا الآن أن نحدد معالمه • ازاء هذا الانقلاب الأساسى فى المفاهيم اضطرت المادية الجدلية التى سادت قبل عصر كوبرنيق والتى ارتكزت على محور الأعلى ــ الأسفل الذى حكم كل مسلماتها ، أن ترتجل مادية مضادة يجب أن تكون غير جدلية أيضا •

ولم تكن الميتافيزيقا التى تبحث فى « الوجود » ذاته أحسن حظا من الفيزيقا فقد عمدت قيمها التى لا تنفصل عن مفهوم السلم كما ذكرنا ، كما عمدت مقولاتها البليغة الى تغيير اتجاهها تغييرا كاملا حين ذهبت الى سبق الوجود على الماهية ، وجعلت كل ما فى الكون أمرا وهميا ، وهددت بالتحول الى ميتافيزيقا مضادة معاصرة لفكرة المادة المضادة •

ماذا يمكن ان نقول عما حدث فى الفن ؟

دعنا نذكر أنه قبل أن يسمى الفن بهذا الاسم كان يحمل اسما متواضعا الا وهو اسم « الحرفة » . وفى ظل هذا الاسم أنتج روائعه طوعا لمفاهيم الكفاية والمهارة التى تهدف الى قيمة عليا تصدق على كل الجماعات الثقافية ، وهى قيمة الجمال ، وتتجنب قيمة دنيا وهى القبح البغيض .

وقد رأى الشباب دائما - بسبب ضجره ونفاد صبره - وبخاصة منذ القرن الأخير - أنه يجب النظر بعين الارتياب الى هذه المعايير لا بقصد القضاء عليها بل بقصد تجديدها سعيا وراء الأصالة دون التخلى عن فكرة الوصول الى الجمال بوسائل أخرى . وبوجه عام اتجه الشباب الى العودة الى ما لم يستطع أسلافهم المباشرون أن يروه ، فى زعمهم ، أو بعبارة أصح اتجه الى تغيير الأسماء بدافع الحماسة . ولكن فجأة أصبح القول بأن الجمال هو غاية الفن قولا طفوليا غير مقبول فى الوقت الذى لم يستطع فيه أحد أن يضع مكان الجمال أى مفهوم آخر . وهكذا أصبح القبح يستخدم لذاته فى المذهب التعبيرى . ولم يكن ذلك بداية لقلب الأوضاع ، فقد نادت « الدادية » (مذهب فنى) بالتخلى عن أى مجال من مجال الجاذبية فى فن الجمال ، وفرضت الاغراق فى الخيال والرغبة فى خدش حياء الجمهور المحتشم بموافقة هذا الجمهور نفسه . ومن ذلك الوقت فصاعدا شاهدنا الاكثار من هذا السخف ، والانخفاض فى مستوى الموهبة ، والمهارة . ولا تزال هذه الظاهرة المحيرة مستمرة فى الانتشار .

ونحن نستيقظ كل يوم دون أن ندرى أى مذهب نرفضه ولا أى رأى نتبعه قبل أن نستبدل به رأيا آخر .

وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن مشاهير النقاد - محاكاة لموقف العلماء بلا شك - لم يترددوا فى المناداة بالتوقف عن اصدار الحكم ، والامتناع عن محاولة فهم أى عمل فنى فضلا عن تذوقه ، لأن ذلك أمر لا فائدة فيه بل هو مضر فى الواقع، اذ أن المسألة لم تعد مسألة فن . ولكنهم لم يحدثونا : ما هو هذا الفن الذى لايخضع للجاذبية ولا يعرف ما هو الأعلى وما هو الأسفل .

بيد أن عدم فهم أهداف الفن قد تكون له عواقب أخطر بكثير من عدم فهم النظريات العلمية . ذلك أن الرجل العادى - ولا أحد يمكن أن يتجرد من هذا الوصف تماما - قد تقبل ثمرات الكشوف العلمية دون أن يدعى التغلغل فى النظريات التى تحكمها ، بل تراه يكتفى بقدر ضئيل من المعلومات ويستخدم النتائج العملية المترتب عليها .

أما فى مجال الفن فان الأمر على عكس ذلك تماما لأن عدم فهم الفن معناه عدم الاستفادة به حيث ان المشاركة الشخصية فى الجمال أمر لا غنى عنه . ولهذا السبب فاننا قبل أن نحكم على الفن بأنه فن عدوانى ، نثور عليه ، على بصيرة ، وعلى الرغم

من امتداحنا له من باب الرياء والنفاق فانه لا يسعنا الا أن نعده من الأشكال العديدة للعنف الذى يهددنا من كل جانب ·

وفى وسعنا أن نتوسع ونتعمق الى ما لا نهاية فى تحليل الأزمة الحالية التى يتعرض لها مفهوم الأعلى والأسفل · ومن مظاهر هذه الأزمة أن كل جيل من الأجيال يتخيل بشىء من الكبرياء الصبيانى أن موقفه التاريخى يمثل قمة المأساة على نحو استثنائى لم يسبق له مثيل ، وأن مصيره مهدد بكارثة لا مرد لها · ومظهر الكبرياء الصبيانى فى ذلك أن شعور الشعب بأنه هالك لا محالة دون أى أمل فى العفو كان دائما وسيلة تدعوه الى الشعور بأنه شعب مختار · ثم يأتى بعد ذلك قوم ينظرون الى موقفهم من زاوية مختلفة فيرون أيضا أن موقفهم التاريخى يمثل قمة المأساة على نحو استثنائى لم يسبق له مثيل ، وما دروا أنهم جميعا صور متغيرة لقانون واحد هم جميعا أمثلة له لا استثناء منه · ومعنى ذلك أنه ما من زمان ــ مهما كان مفعوحا ينذر الهلاك لأهله ومعاصريه ، الا وقد رأى من جاء بعده أنه كان زمانا حافلا بأسباب الهدوء والطمأنينة · أقول ذلك بعد كل ما كتبته فيما سبق لأنى موقن تماما أننى أتعرض لمثل هذا الموقف · والحق أن أزمة الشك فى صحة مفهوم الأعلى والأسفل قد ظهرت منذ زمن طويل ولكنها لم تظهر بوضوح الا عند منعطف هذا القرن ، وكانت بدايتها ازدهار المفاهيم العلمية والجمالية والفلسفية فى وقت واحد ، وقد وصلت الى ذروتها فى التجربة الجسمية التى عاناها رواد الفضاء ، على أن هـذه التجربة لا تخلو من السوابق التاريخية ·

ومع ذلك فانه بالنظر الى قدرتنا على التكيف مع الأحوال غير المألوفة ، يتعين علينا أن نسأل أنفسنا : هل ينتهى الأمر بنا الى مسايرة ظروف وأحوال يبدو لنا اليوم أنها سوف تكون غير ملائمة لأبنائنا · ان تجاربى ومشاهداتى من وقت استعمال الشموع فى الاضاءة الى استخدام أشعة الليزر ، ومن وقت استخدام الريش الصغير فى الطيران الى استخدام مركبات المريخ يضطرنى الى عدم التسرع فى القول بأن ذلك « مستحيل » · ولذلك فانى سأحاول أن أتحاشى هذه الكلمة · على أنه من المجازفة أن نغض الطرف عن كل ما أشرت اليه من أن لتكويننا الجسمى والعقلى حدودا لاترجع الى الصدفة وانما ترجع الى تأثير قاعدة الأعلى ــ الأسفل التى لا تنفصل عن مجال جاذبية كوكبنا الأرضى ــ ذلك الكوكب الذى بدأ يظهر قبل الأوان أنه لم يعد صالحا لسكنى البشر فى الوقت الذى نعمل فيه نحن لسوء تصرفنا على أن نجعله كذلك ·

وقبل سلفنا الأحادى الخلية ، وقبل الجزيئات البسيطة للأحماض النووية ، وقبل كل ما يمكن أن يطلق عليه اسم « الحياة العضوية » التى لا غنى عنها لأدنى بصيص من « الوعى » أقول : قبل ذلك كله كانت العناصر غير العضوية البسيطة خاضعة لقانون انجذاب الكتل ، ابتداء من النواة المركزية الكثيفة الى ذرات الهواء اللطيفة · وقد خضعنا نحن لهذا القانون الحتمى من قديم الأزل لا منذ أمس فقط · وفى وسعنا أن نؤكد أنه لو أن كائنا من كان ولو خارج مجال الجاذبية ثم جىء به

فجأة الى أرضنا لأحس من فوره أنه مقيد الى الأرض بالسلاسل والأغلال ، وأن قدميه مربوطتان بالكرة الأرضية الثقيلة . والظاهر أن كل التطور الفنى طرأ على التنوع الإنسانى قد اتجه نحو الغاء هذه الجاذبية بدافع الرغبة الغريزية فى الطموح الى أعلى الذى تحدثنا عنه .

وقد فصل أشباه الانسان - وهم أسلافنا المباشرون - أذرعهم عن الأرض ، وحولوها الى أعضاء « علية » ، وبذلك استطاعوا أن يرفعوا رءوسهم الى أعلى ، فهيأوا الظروف والأحوال الملائمة لنمو العقل فيما بعد ، نموا انتهى الى خلاف النتيجة المتوقعة الا وهى اساءة فهم ذلك الاعلى » الذى وصلنا اليه بشق الأنفس

وبيان ذلك أن تطورات غير مرئية ، وسلسلة من الفشل والنجاح قد استمرت عدة آلاف من السنين ثم انتهت بتكوين الهيكل العظمى الداخلى ، والعمود الفقرى المرن ، والجمجمة الصلبة القادرة على حفظ المخ الشديد التعقيد الذى مكننا من تكوين الوعى بالذات فى الصراع الدائم ضد قطب «الأسفل» السالب . ونحن اليوم - اذ يحدونا الطمع المشوب بالزهو الى التفكير فى غزو الكون - نعمد الى « حرق مراكب » مفهوم الأعلى - الأسفل ، مع أننا ندرك أنه لو لم نحترم هذا القانون لما أمكن قط أن تنمو أجسامنا وأفكارنا الى الحد الذى أصبحت فيه قادرة على التفكير فى مراكب الفضاء وصنعها - تلك السفن التى اختفى بالذات مفهوم الأعلى - الأسفل الذى مكننا من صنعها ، ففى هذه السفن واجهتنا صعوبة لم ترض كبرياءنا وزهونا الا وهى عجز أجسامنا وعقولنا عن مسايرة مشروعات غزو الفضاء . وسيتعين علينا اذا أردنا غزو الفضاء والكون أن نعدل من تكوين أجسامنا وعقولنا الذى عاد علينا بالفائدة فى كوكبنا القديم وهو الذى نستطيع بأدنى قدر من التفكير السليم أن نحيا عليه فى رغد من العيش رغم القيود التى يفرضها علينا .

ومتى حاولنا أن نخلص أنفسنا من ربقة هذه القيود ، لاحظنا أن الحيرة الناشئة عن تعدد « الأعالى والأسافل » التى نخترعها عندما نتغاضى عن محور الأعلى - الأسفل التقليدى ، تقضى على الحرية التى توهمنا أن هذا التعدد يتيحها لنا ، شأننا فى ذلك شأن حمامة « كانط » التى عاقتها مقاومة الهواء عن الطيران ، مع أن هذا الهواء بالذات هو الذى أعانها على الطيران . ماذا يبقى علينا اذن أن نفعله ؟ ان كلمة « المستحيل » تطل علينا فى هذا المقام . ولذلك يجب أن نقتصر على الاشارة الى أننا لا نستطيع ن نتنعم بالراحة فى عالم الفضاء ، كما لا تستطيع الحمامة أن تطير فى فراغ . لقد كون محور الأعلى - الأسفل العمود الفقرى لكياننا الجسمى والنفسى معا . وليس من قبيل الصدفة أن رواد الفضاء فى « غواصاتهم الارتيادية » يشبهون الرخويات الراسية الأرجل أو الأخطبوط البطىء الحركة ، وأن الكبسولات التى يركبونها تشبه الرخويات الرقيقة . وأنا واثق أنه لا أحد من القراء سوف يستشف من هذه الكلمات أدنى محاولة من جانبى للغض من قدر المنجزات المدهشة التى قام بها هؤلاء الرجال ، ولكن يجب على أن أبين أن ملابسهم ومعداتهم قد تم تصميمها بحيث تهيىء

أدنى قدر من البيئة الأرضية الوراثية والضرورية التى يلتصقون بها التصاق الحلزون بصــدفته ·

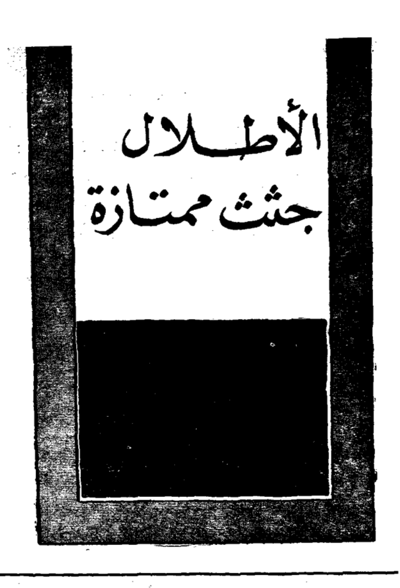
ولذلك يهتم الخبراء اهتماما جديا بالمشكلات الجسمية والنفسية التى تواجه رواد الفضاء عندما يمكثون فترة طويلة خارج مجال الجاذبية ، بل انهم يدرسون بكل المثابرة المقترنة بروح التكنولوجيا الحديثة امكان خلق مجال اصطناعى للجاذبية داخل سفن الفضاء · ومعنى هذا أن مجال الجاذبية يعد أمرا ضروريا يوازى فى أهميته الصيانة الاصطناعية لجو مصغر بواسطة الاكسجين المضغوط · وفى وسعنا أن نتنبأ باعادة خلق محــور الأعلى ـ الأسفل فى هـذه السفن ليعيد الينا حالتنا الطبيعية ككائنات أرضية ·

وليس أقل من ذلك أهمية والحاحا أن نتوسع فى ذلك المجهود الذى يبذل لصالح الجسم ، بحيث يمتد الى الجانب العقلى والأخلاقى والدينى المضطرب ·

والى الأسباب العديدة لزيادة القلق الذى يستولى على الانسان المعاصر يجب أن نضيف ذلك السبب الذى ربما كان هو أكبر هذه الأسباب ألا وهو الغاء مفهوم الأعلى والأسفل ، الذى يجعل الانســان عاجزا ومرتبكا ويفقده الاحســاس بالزمان والمكان · وعلينا أن نسأل أنفسنا : ألم يحن الوقت الذى نقيم فيه المعادل لمجال الجاذبية فى كل نظام من نظم الحياة · ومهما كان هذا المعادل اصطناعيا فانه سوف يتيح لنا العــودة الى حالتنا الانسانية التى لا نفصل ـ كمــا رأينا ـ عن مســايرة الجــاذبية ·

ولذلك يجب علينا عندما نزمع الرحيل بعيدا عن أوطاننا أن نحمل معنا المعادل لقاعدة الأعلى والأسفل التى تتحكم فى وجودنا ، شأننا فى ذلك شأن الرومان الذين كانوا يحملون معهم الآلهة الحارسة للمنزل عندما يهاجرون من وطنهم حتى يتسنى لهم أن ينقلوا فكرة الوطن الى موطنهم الجديد · ويرجع الخطر الأكبر الذى يواجه البشرية الآن الى أن نهر العقل قد فاض على جانبيه : لقد خرج هذا النهر عن مجراه الطبيعى ، ويبدو أنه يتجه الى التخلى عن الدعامة الأصلية التى يرتكز عليها ، وقوة التحكم التى يمتاز بها ·

وقد يكون بطء التفكير الانسانى فى كبسولات الفضاء الأسرع من الصــوت عائقا كبيرا فى أثناء حركتها العلوية · ولكن هذا العائق يمكن التغلب عليه بالأوامر الفورية التى تصدرها الحاسبات الالكترونية الصماء ، والبكماء ، والعمياء · وعلى هدى هذه الأوامر يتخذ رواد الفضاء القرارات !



١ ـ بدأ المؤلف مقاله بتعريف الأطلال بأنها أنقاض مبنى نافع فقد فائدته وعندما يفقد الشيء المفيد فائدته فانه يظل قائما دون أن يكون له وجود حقيقى تماما كما لو كان جثة هامدة ٠

٢ ـ يؤيد الكاتب هذا الرأى بأن جميع الشعراء قد شبهوا الأطلال بالجثة فالشاعر فولنى وصف بالمير (تدمر) بأنها هيكل عظمى ، ووصف غيره الأطلال بأنها جثة وجيفة وركام من العظام ، ورماد وقبر ٠

٣ ـ بنى المؤلف مقاله على الدراسة التى قام بها « رونالد مورتييه » لأن هذه الدراسة تزودنا بجميع المعلومات والوثائق التى يحتاج اليها فى هذا الموضوع ٠ واستخلص

الكاتب : الكسندر سيورانسكو

ولد فى ١٩١١ ، حاصل على الدكتوراه فى الآداب من جامعة السربون ، أستاذ بجامعة لا لاجونا بجزر الكنارى • ألف العديد من الكتب فى التـاريخ الأدبى والثقافى ، والأدب المعاصر ، ونشرت باللغة الرومانية والفرنسية والأسبانية •
من بين أحدث مطبوعاته مصادر الأدب الفرنسى (من القرن ١٦ الى القرن ١٨ فى سبعة مجلدات) ، ومستقبل الماضى الخ

المترجم : أمـين محمود الشريف

عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنـون والعلوم الاجتماعية •

الكاتب من هذه الدراسة ملاحظتين هامتين : احداهما أن الاهتمام الحديث بالأطلال اشتد فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه النهضة الأوربية الحديثة Ranaissance
وقد تحول ذلك الاهتمام الى عبادة تشبه ما نكنه للموتى من تقديس واجلال والثانية ان الطلل ليس شيئا عديم الفائدة كما سبق فى التعريف المشـار اليه وانما تغيرت وظيفته فقط وأصبح للوظيفة الجديدة مفهوم أدبى فى عصر النهضة حين أصبحت الأطلال حافزا قويا للتأمل فى المشكلات الكبرى المتصلة بالحياة والزمن والموت ثم اكتسبت مفهوما فنيا وجميلا فى القرن الثامن عشر •

٤ ـ وأنهى المؤلف مقاله بالتنبيه الى ضرورة العنـاية بآثار الماضى ، ومعرفة الأصول القديمة للحضارةواللغة حتى

يتسنى أن نعيد أمجاد الماضى ونحقق للغة سلامتها ونقاءها، وهذا هو الدرس المستفاد من هذا المقال ٠

يمكن تعريف الأطلال بأنها أنقاض مبنى نافع ، فقد فائدته ، ووظيفته ، بسبب عوادى الزمن ، أو أى سبب آخر ٠ وعندما يفقد الشىء المفيد فائدته ، يظل قائما ، ولكن دون أن يكون له وجود حقيقى ، تماما كما لو كان جثة هامدة ٠ فالقفاز الذى تمزق اربا ، والدراجة التى فقدت عجلاتها ، لا يجوز أن تسمى باسمها الحقيقى ٠ ومن الصعب علينا بالطبع أن نسلم بأن الأشياء التى اعتقدنا دائما أنها مفيدة ، لم تعد ذات فائدة ٠ ولذلك تراودنا الأوهام دائما بالاستفادة من هذه الأشياء ، بقدر الامكان ، كأن نحاول الانتفاع من السيارة المهجورة بفك قطع الغيار منها ، والاستفادة من منزل متهدم باستخلاص بعض مواد البناء منه ٠ بيد أنه لابد أن يأتى الزمن الذى نسلم فيه بالأمر الواقع ، ونعترف بأن هذا الشىء قد أصبح عبئا ثقيلا علينا ٠

وهنا نجد أول وجه من أوجه الشبه بين الأطلال ، والجثة الهامدة ٠ ففى كلتا الحالين ينتهى بنا الأمر الى التخلص من هذا العبء الثقيل ، ونحاول أن نسدل عليه ستار النسيان ٠ فنحن ننسى الشخص الميت ، كما ننسى شكل ولون المنزل الذى قام قبل المنزل الذى نسكن فيه ، والذى يحتمل أنه لم يأت عليه الزمن الذى يتحول فيه الى أنقاض ٠ وهناك مبان أخرى لا تسقط من تلقاء نفسها أو تنتظر من يهدمها ٠ فمعظم الكنائس القديمة بنيت على أطلال كنائس أخرى ، وهذه ـ بدورها ـ قامت على معابد قديمة ، مثلها فى ذلك مثل الأزهار التى تتغذى بدبال النباتات السابقة٠ ومن العبث الافاضة فى هذه الدورة ـ دورة الحياة والموت ، لولا وجود بعض الأنقاض الممتــازة ٠

وبيان ذلك أن المبانى القديمة التى تموت وتختفى لا تشغل بالنا واهتمامنا ٠ وانما الذى يشغلنا ويهمنا هو شظايا الجدران التى ترفض أن تموت ، واسطوانة العمود التى نحاول أن نقيمها على قاعدتها ، وكأن ذلك من جلائل الأعمال التى يتعين علينا أداؤها ٠ هذه الأنقاض هى محل عبادة غريبة ، يقتصر أمرها فى الغالب على نخبة قليلة من المؤمنين بها ، ولكنها عبادة قوية وحديثة العهد سواء أكانت ضربا من الهوس البرىء ، أو نوعا من الخرافات والترهات أو ديانة حقيقية ٠ وكثيرا ما نرى فى مدننا منــازل جميلة وحديثة يتم اخلاؤها وهدمها بحجة انقــاذ بعض الأطلال القديمة عديمة الفائدة ٠ ولكن حدث ـ على النقيض من ذلك ـ منذ عهد بعيد أن تم هدم بعض المبانى والمعابد القديمة والقصور المهجورة للانتفاع بما فيها من رخام ، أو الانتفاع بما هو أقل من ذلك شأنا ، ألا وهو الجير الذى يمكن استخلاصه بنفقات قليلة ٠ هنا نرى اتجاهين متناقضين فى ظاهرهما ، ولكن يجب التسليم بأنه من الممكن أن يظهر هذان الاتجاهان فى وقت واحد ٠ وعلى كل حال يمكن القول أن ثمة

فرقا ظاهرا بين هذين الاتجاهين ، يمكن ارجاعه الى العادة المتبعة أو اختلاف المستوى الثقافى أو التطور التاريخى • والواقع أن التغيير فى الاتجاه قد حدث بصورة قوية بحيث يتسنى لنا أن نتبين مراحله ، ونتتبعه منـذ لحظة ظهوره • ويجمع الذين درسوا تاريخ هذا التغيير على أن عبادة الأطلال استحوذت على الأفئدة خـلال عصر النهضة الأوربية الحديثة (رينباسنس) • ومن السهل علينا اثبات هذه الحقيقة ، ولا حاجة بنا الى الافاضة فيها بعد الدراسات الكثيرة التى قام بها الباحثون فى هذا الموضوع الغريب ، وآخرها الدراسة التى قام بها رونالد مورتييه وهى تلخص كل ما نعرفه عن هذا الموضوع ، وتزودنا بجميع الوثائق التى نحتاج اليها فى هذا البـــاب •

ومن هذه الدراسة نعرف أن الصورة الذهنية للأطلال ذات محتوى عاطفى عظيم قبل كل شيء • وهذا المحتوى ، وان تغير مع الزمن ، حقيقة تاريخية ثابتة • ونستخلص من هذه الدراسة ملاحظتين يجدر بنا أن نضعهما نصب أعيننا لأنهما تســاعداناعلى تتبع سلسلة الأفكار عن الأطلال •• احداهما أن الاهتمام الحـديث بالأطلال قد اشتد فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه النهضة الأوربية الحديثة ، وأنه ظهر – أول ما ظهر – فى الاهتمام بروما لأنه كان فى بداية أمره يتركز فى الأطلال الرومانية التى ظلت قائمة زمنا طويلا • والثانية أن تعريف الطلل الذى أوردناه فيما سبق ليس تعريفا دقيقا تماما • ذلك أن الطلل ليس شيئا عديم الفائدة ، وانما تغيرت وظيفته فقط • وكان للوظيفة الجديدة مفهوم أدبى أخلاقى فى عصر النهضـــة حين أصبحت الأطلال حافزا آليا ومثاليا للتـــأمل فى المشــكلات الكبرى المتعلقة بالحياة ، والزمن ، والموت ، ثم اكتسبت مفهوما فنيا وجميلا فى القرن الثامن عشر •

كل هذه الحقائق التى ستكون ذات فائدة ليست بالقليلة فى مقالنا هــذا قد أشار اليها وأوضحها رونالد مورتييه • ولن تكون بنا حاجة الى تكرارها ، فهناك ذخيرة وفيرة من النصوص تثبت أن عبادة الأطلال ظهرت فى عصر النهضة • وكان الشاعر الايطالى بترارك أول من رأى أن الأطلال هى مشاهد تدعو الى التأمل والتفكير كما كان أول من نبه الأذهان الى فكرة النهضة الحديثة فى مراحلها الأولى •

وكانت نظرة بترارك الى الأطلال الرومانية نظرة نموذجية ، فهو لم ينظر الى الجدران المتهدمة ، والأعمدة التى ظلت قائمة ، ولا الى المبانى ذاتها ، وانما رأى فيها تاريخ روما • وربما جاز لنا أن نقول انه رأى فيها التاريخ نفسه • وفى جميع القرون التالية نظر جميع الشعراء الى الأطلال على هذا النحو أى اعتبروها مرجعا أو نموذجا يذكرهم بمشكلات الانسانية ، وربما بمشكلات الشاعر نفسه • وعندما وضع ديدرو

بعد ٤٠٠ سنة من ذلك أساسا لشعر الأطلال ، لم ينبذ المعانى التى اكتشفها رجال النهضة ، وانما أضاف اليها بعدا أستلهمه من تجربته مع الفن • ومنذ عصره صار الناس ينظرون الى الأطلال بنفس المعايير المتبعة حاليا فى فحص الأعمال الفنيـة • وقد يتبادر الى الذهن أن الاهتمام بالطلل أصبح ينصب على الشكل المحض ، لا على المضمون • ولكن ذلك لا يمثل حقيقة الحال • ذلك أن كلا من جانبى الطلل ــ الشكل والمضمون ــ يرتبطان ارتباطا وثيقا بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر • والحق أن الطلل يصبح ضئيل الشأن اذا انصرف الاهتمام الى الشكل ، ولم تكن لديه القدرة على تذكيرنا بانقضاء الزمن ، وما يهددنا به ذلك من أخطار •

وكيفما كان الأمر ، فان الشكل والمضمون يخاطبان المشاعر • ومن هنا ينشأ اللبس ، فيتجه الاهتمام الى الوظائف الفنية المحضة للأطلال • على أننا نعلم أن اتصال الفن بالأخلاق أمر ثابت فى التاريخ • وعلى كل حال لا يتعذر ــ علينـا أن نجد هذا الاتصال فى الشكل والمضمون •

والواقع أن الأطلال لها صلة بالقصد أو الحافز الأخلاقى • ولقد قيل ان الأطلال كانت تتيح لرجال النهضة مشهدا أو سببا للتأمل فى مشكلات الوجود الكبرى • ومن هنا يمكن القول بأن وظيفة الأطلال قريبة من وظيفة الطبيعة • فالناسك الذى يلتمس العزلة والوحدة فى الغابة أو الصحراء يقف أيضا الى الخلف ، حتى يتسنى له أن يشاهد منظرا يساعده على التـأمل : ذلك أن التفكير فى الطبيعة حافز للتـأمل والتفكير وهو يعد ، الى حد ما ــ مرشدا للمتأمل • بيد أن الاتجاه الذى يأخذه الذهن عن مشاهدة الأطلال والآثار يختلف عن ذلك اختلافا تاما • ذلك أن تأمل الزائر الذى يشاهد الأطلال والآثار هو تأمل دنيوى بخلاف تأمل الناسك•وبعبارة أخرى نقول ان هذا الأخير يرى دليلا عند مشاهدة الطبيعة على سمو القدرة الالهية فى حين أن السائح المفكر ، ومحب الآثار القديمة ، يرى فى هذه الآثار مصير المجتمع البشرى، وعلى ذلك يكون اهتمامه بها ذا صبغة دنيوية محضة • وهذه الآثار والأطلال هى مادة التاريخ ، وليس من قبيل الصدفة أن نرى كلا من جيوفانى فيلانى ، وجيبون يستلهم تاريخه من الأطلال الرومانية •

وهـذا لا يعنى أن رجل النهضة كان مقطوع الصلة بالتأمل الروحى ورؤية الدليل فى مشاهد الطبيعة على سمو القدرة الالهية • ولا شك أنه لم يكن يدرك أنه فى سبيله الى أن يفعل هذا بالذات • والدليل على ذلك ان الموضوع الذى عالجه رجل النهضة فى قصائده الشعرية ــ وهو البكاء على الأطلال الرومانية ــ كان تكرارا لما سبقه من الموضوعات الأخرى المعروفة منذ العصور الوسطى ، والممزوجة بالعاطفة الدينية • وعلى كل حال فان بترارك ــ شاعر النهضة ــ لم يفكر فى أن يفعل خلاف ذلك ، وقد كرر نفسه وكرر قصائده » الانتصارات « التى أوضح فيها أن المجد

أقوى من الموت ، وان الزمن أقوى من المجد ، وأن الأبدية التى تتمثل فى الله أقوى من الجميع ٠

وكل هذه المعانى التى تنبع من المأثورات الأدبية والدينية تشيع فى شعر الأطلال الذى ظهر خلال عصر النهضة ٠ والجديد فى ذلك هو الموضوع الذى يعالجه الشعراء ويشيرون اليه فى قصائدهم ٠ وايضاح ذلك أن الموضوع الذى كان مطروقا فى فن البيان والبلاغة ابان العصور الوسطى هو البكاء على طروادة ، وموت النساء الجميلات فى الماضى ٠ ولكنهم كانوا لا يشيرون الى امرأة جميلة بالذات بل يغيرون بسهولة أسماء النساء لأن القصد الأساسى عندهم هو استخراج العبرة والدرس طبقا لمبادىء الدين المسيحى ٠ ولم يكن الحال كذلك عند دى بيلاى ـ مثلا ٠ صحيح أنه انتهج فى تفكيره هذا المنهج نفسه ، ولكنه سار فى الاتجاه المضاد بمعنى أن تأمله كان يولد التفكير ، وأنه لم يقصد استنباط العبرة الأخلاقية من المشهد ، بل كانت هذه العبرة نتيجة تلقائية لهذا المشهد ٠ فالبكاء والرثاء يعقب المشاهدة المباشرة ، ولذلك كانت الأطلال خلال عصر النهضة محلا للمشاهدة قبل كل شىء ولم يكن الموت شبحا مرعبا غامضا ، بل نتيجة محسوسة لانحلال الجسم ٠

★★★

والواقع أن شعر الأطلال يبدأ بالتأمل فى الجثة ٠ ويمكن أن نرى هذه الصورة التى تثيرها بالطبع فكرة الموت عند كل الشعراء ٠ ولذلك فان الشاعر « فولنى » الذى وصف بالميرا (تدمر) بأنها هيكل عظمى لم يأت بجديد ، فقد وصف الشعراء الأطلال بأنها جثة (يانوس فيتاليس ، بائيف ، جاك جريفين) ، وجيفة (جان دوبليه) ، وركام من العظام (كويفيدو) ، ورماد (كاستجليونى ، دى بيلاى ، أرجويجو ، لوبى دى فيجا) ، وقبر (دى بيلاى ، جريفين ، أرويجو) ، وقد نظم دى بيلاوى فى ديوانه الموســوم « الآثار القديمة فى روما » مقطـوعة شعرية من ١٤ بيتا (سوينتة) لتكون شاهدا ينقش على قبر روما ٠ وهذه المقطوعة منقولة حرفا بحرف من شاهد قبرى نظمه « بيترو بمبو » تخليدا لذكرى أحد الموتى ٠

ردى بيلاى مثل مفيد فى هذا الباب ، فنحن نعلم أن ديوانه « الآثار القديمة » كان يقترن فى ذهنه بديوانه الموسوم « الحسرات » ٠ وهذان الديوانان متعاصران ، وكل منهما ثمرة لتجربته الرومانية ٠ ونعلم أيضا أن ديوان الآثار القديمة يقدم للقارىء « وصفا عاما لعظمة روما ورثاء لأطلالها »٠ وهذا الوصف دقيق ، فى ظاهره على الأقل ٠ ونحن لا نهتم عادى بأن دى بيلاى وصف هذا الديوان بأنه هو « الكتاب الأول » وهو أمر يدعو الى الدهشة ، ولا يزال يثير دهشة المؤرخين ٠ والتفسير الذى يخطر بالبال والذى يذهب اليه « فرانسو » هو أن الديوانين اللذين يتفقان فى

مضمونهما وزمن تأليفهما هما كتاب واحد وأن ديوان « الحسرات » هو المجلد الثانى من هذا الكتاب · واذا سلمنا بهذه الفرضية تسنى لنا أن نتبين فى هذه المجموعة من القصائد الشعرية نفس المنهج الذى اتبعه بترارك فى ديوانه الموسوم « كانزنيير » الذى يعرف الجميع أنه يتألف من جزأين هما « حياة مادونا لورا » و « موت لورا » · ويحق لنا أن نقول ان دى بيلاى سار على هذا المنهج ورأى أن يخلد ذكرى روما الحية من جهة ، وروما الميتة التى تحولت الى جثة هامدة وذكرى غابرة من جهة أخرى · ويقوى هذا الاحتمال أنه قل أن يوجد ديوان من السونيتات (قصائد تتألف من ١٤ بيتا) فى القرن ١٦ دون أن يحمل بصمات بترارك ولكن قصد الشاعر شابه التعقيد وأصبح أقل وضوحا مما ينبغى أن يكون ·

ذلك أن الشاعر عكس فى الواقع وضع القضية فجعل موت روما هو حياتها الحقيقية وجعل مدينة روما الحالية التى تبدو عليها سيماء الحياة ميتة من الناحية الروحية ، فالحسرات وهو الجزء الثانى من كتابه عبارة عن أهجية طويلة لانحطاط روما وتدهورها بكل ما تنطوى عليه من « الأسرار المقدسة عند الكهنة الرومانيين » و « الرذائل المحتجبة تحت « كبرياء التاج البابوى » وجهل رجال الكنيسة وفساد الكرادلة ، فى حين أن الشاعر يشيد فى ديوانه الأول (الآثار القديمة) بعظمة ومجد روما الخالدة التى يقف الموت أمامها عاجزا ·

وفى وسعنا أن نفهم كل ذلك بسهولة · ومع ذلك فان النظرة الشاملة لكلا الجزأين يشوبها شىء من اللبس والغموض الذى ينعكس على مراد الشاعر ، فالتناقض بين الحياة والموت عند بترارك نراه عند دى بيلاى ظاهرة غريبة تصنع الحياة من الموت والموت من الحياة · وعلاوة على ذلك نرى فى الحسرات سحابة من الكآبة لا تمت بصلة مباشرة الى صورة الأطلال ، وانما هى نتيجة لاستحواذ فكرة الحياة الضائعة على ذهن الشاعر ومقته للمجتمع الذى لا يمكن أن تخفى فيه الملابس الجميلة ما يشوبه من فراغ وقبح · كل ذلك يجعل التوازن بين الجزأين مفقودا ولكن ظاهرة الحياة والموت هى الموضوع الأساسى والعامل المشترك بين المجلدين الصغيرين·

أضف الى ذلك أنه اذا كانت روما جديرة بالاهتمام فان أطلالها ليست هى الوحيدة التى تذكرنا بأمجاد العصور القديمة ، بل هناك مدن أخرى تشاركها فى ذلك مثل طروادة (أرجويجو) ، وقرطاجة (برناردو تاسو ، وجونيير دى ستينا ، وفرناندو دى هيريرا ، وارجويجو) وايتاليكا (ردريجو كارو ، وفرنسيسكو دى ريوجا ، وفرنسيسكو دى مدرانو) وساجونتى (لوبى دى فيجا) ، وغيرها · ولكن ذلك لا يغير من الأمر شيئا · فهذا الالهام المتنوع هو من خصائص القرن السادس عشر الذى تكررت فيه أحيانا كل المعانى التى سبق اكتشافها فى روما ·

وقد آن لنا أن نلخص بايجاز ما تم التوصل اليه من نتائج ، وأولها أن الأطلال رسالة محسوسة من رسائل الموت ، رسالة تعنينا جميعا • وليست هـذه الرسالة ضربا من التهديد ، وانما هى تذكرة لنا يقارنها « كويفيدو » بالمشاعر والاحاسيس العميقة التى تخالجنا فى الهزيع الأخير من الليل أو فى أوقات الشيخوخة • والأطلال كالمقابر لأنها تذكرنا فى أغلب الأحيان بأنفسنا لا بالراحلين عنا • ولكن على الرغم من ذلك فان تأمل الأطلال يضفى على فكرة الموت بعدا يتجاوز المرء نفسه • ذلك أن هذه الآثار التاريخية تثبت أن المواد الجامدة المصنوعة من البرونز أو الرخام التى نعتبرها رمزا للأبدية لا تنجو من الموت (بيترو أرتينو ، كويفيدو) وأن الزمن يفضى الى زوال الانسـان وزوال كل أعمـاله ، بما فيها الأشياء التى تبـدو لنا خالدة (فونسيسكو دى ديوجا) كتب فاليرى يقول : اننا نعرف الآن أن الحضارات يمكن أن تموت ، وهذه الحقيقة لم نكتشفها اليـوم فقط • لقـد سبق أن أدركها رجال النهضة • ولا ريب أن « بومبو نيو ليتو » حين بكى خلال تأمله فى الأطلال الرومانية انما بكى حزنا على مصير عظمة روما ومصير الانسانية لا على مصيره هو نفسه •

فالأحجار الهاوية والمعابد المتهدمة ، والتوابيت الخاوية : كل ذلك يمثل ما هو أكثر من مجرد الذكرى • انها « خلاصة التـاريخ وروح التـاريخ » : هكذا قال «هانيبال دى لودتيج» ، وهو شاعر متوسط ، ولكنه كان كثير الزيارة للكابيتول (هيكل جوبيتر القديم) والفورم (الساحة العامة) • وهذه الاثار ـ حين تنكر المستقبل وتتحداه ـ تسمح لنا ـ على الأقل ـ بالصعود من جديد على منحدرات الزمن لنجد مرة أخرى الأصول الأولى للحضارة • وقد تحدث الشاعر الألمانى جوته عن الأطلال فقال : ما من كارثة أثارت قط فى نفس الانسان شعورا بالارتياح أكثر من هـذه الكارثة •

وفضلا عن ذلك فانه من الطبيعى حين نتكلم عن الموتى أن نبحث فى أسباب زوالهم • وهذا البحث ضرب من العبث بكل المقاييس لأنه لا يرد ميتا ولا يغير من واقع الأمر شيئا • ولكنا نقول مرة أخرى ان الجثة الهامدة أقل أهمية من تاريخهـا الذى سوف يكون تاريخنا أيضا بلا شك • اننا نبحث فى الأعراض والعلامات الدالة على موت من سبقنا لأننا فى الواقع ندرس حالتنا نحن • ويمكن القول بأن موت الآخرين يزجى الى نفوسنا شعاعا من السكينة والطمأنينة لأن هذا الموت لم يصبنا نحن ، ولكنه يقلق بالنا أيضا لأنه نذير خفى ـ وان لم يكن عاجلا ـ بما سوف يحل بنا • وجدير بالذكر أن الذين تأملوا الآثار الرومانية فى عهد النهضة لم يقصروا تأملهم على تذكر عظمة الامبراطورية الرومانية بل فكروا أيضا فى أسباب سقوطها وحضارتها •

والذين شخصوا هذه الأسباب ، ذكروا أسبابا واحدة • ولم يكتشف الشعراء هذه الأسباب وانما اكتشفها العلماء الانسانيون ثم اقتبسها الشعراء منهم وروجوها• وقد لا يكون من المفيد في هذا المقام أن نحلل كافة جوانب هذه المسألة التى ورثها علم التاريخ الحديث والتى تعلمناها جميعا في المدرسة ، الا وهى أن سبب سقوط الامبراطورية الرومانية هو البرابرة الذين قدموا من الشمال وغزوا أوربا ونهبوا ايطاليا ، وبذلك ظلت الحضارة الأوربية تغط فى سبات عميق مدة ألف سنة • وكان بترارك أول من اعتنق هذه الفكرة ثم رددها رجال النهضة ورددها فولتير ورددتها كتب التاريخ • وسار الشعراء على هذا النهج • فقد كتب دى بيلاى يقول: ان ظلام العصور الوسطى يرجع الى « البرد القوطى » أى العواصف التى هبت من شمال أوربا والى الغراب الألمانى الذى أصاب النسر الرومانى بجرح مميت •

ولكن الغزو القوطى لم يكن هو السبب الوحيد في سقوط روما ، فهذا التفسير الوحيد غير كاف لتعليل سقوطها ، لأنه من المبادىء الثابتة فى الفلسفة الانسانية أن الصدفة وحدها لا تستطيع قهر سلطان الفضيلة • وقد قال العالمان الفلورنسيان « كولشيو سلوتاتى » ، و « ليوناردو برونى » انه ما كان فى وسع البرابرة أن يقضوا على الحضارة الرومانية لولا أنهم وجدوا من العوامل الداخلية ما ساعدهم على ذلك ، وهو طغيان الأباطرة ، وغياب الحريات المدنية • وعلى ذلك كان اتهام الامبراطورية بأنها هى السبب فى سقوط روما هو من سمات عصر النهضة • وكما كان الحال دائما ، كان بترارك أول من قال بذلك بحيث نستطيع أن نقول ان مرحلة التغيير الذى طرأ على تفكير الناس تنحصر بين اللحظة التى أثنى فيها دانتى على قيصر والامبراطورية واللحظة التى وصم فيها بترارك قيصر بأنه كان أول طاغية من الطغاة الذين يمثلون الحلقات التى تربط بين العصور الوسطى وعصر النهضة • ولم يتردد الشعراء فى تلقف هذه الأفكار الجديدة التى نراها مرة أخرى فى دى بيلاى وكويفيدو • ولذلك لا يسعنا الا أن ندهش حين نرى الناس يصفون أفكار » فولنى » فى هذا الشأن بأنها جديدة حين رأى فى أطلال بالميرا درسا فى الحرية ، ونصح للطغاة أن يمعنوا النظر فى الزمن والموت ، وان الصلة التى عقدها بين الأطلال والطغيان ، وزوال الامبراطوريات ليست فكرة مبتكرة ، بل هى عرض بارع للأفكار القديمة التى يسهل العثور عليها فى كتابات ليوناردو برونى ، ومكيافيلى قبل أن يؤلف كتابه الشهير « الأمير » •

وربما كان من المهم أن نلاحظ أن التشخيص المبنى على هذين السببين لم يقنع كل انسان فى عصرنا كما لم يقنع كل انسان فى عصر النهضة • فقد كان « فلافيو بيوندو » ــ الشديد الاعجاب بروما ــ يعتقد أن الأسباب الآتية تقوم على أساس صحيح وخلاصتها أن القوط لم يكونوا برابرة كما يظن الناس بل ــ على العكس ــ نرى أن ثيودريك ــ وكان قوطيا حكم ايطاليا مدة ٣٨ سنة ــ اهتم باعادة روما وحافظ

عليها وعمل على رخائها . وقال فلافيو : لا الأباطرة ولا القوط هدموا روما وانما السبب الرئيسى فى خرابها هو مسلك هؤلاء « الرومانيين التعساء » الذين استخدموا الأحجار القديمة فى المبانى الأخرى ، وصنعوا الجير منها . وعلى الرغم من أن تعليل فلافيو قد يتفق مع الحقيقة المؤلمة ، فانه ليس بذى بال . صحيح ان الناس نهبوا الأطلال الرومانية لمدة تربو على ألف سنة ولكن صاحبنا غاب عن باله ان هذه الأطلال كانت قد أصبحت خرائب وان هذا النهب كان مستحيلا فى عصر الجمهورية أو الامبراطورية (١) .

وبالاضافة الى معنى الموت والحرية يظهر لنا معنى ثالث عند تأمل الأطلال الرومانية . وبيان ذلك أن الخيال يرفض التسليم بفكرة الموت الكلى . وربما كان ذلك من وسائل الخيال الدفاعية . فقد فكر الناس دائما ــ منذ أن وجد الفكر ــ أن الموت ليس سوى فترة قصيرة فاصلة بين حياتين متغيرتين لا تعرف حتى الآن طبيعة كل منهما : بمعنى أننا نموت لنولد من جديد ، كالعنقاء أو الفراشة . واذا كبر علينا الايمان بذلك حاولنا ــ على الأقل ــ أن ننقذ خير ما فينا الا وهو الروح ، فتراانا اذا اعترانا اليأس نؤكد بقاءنا باستمرار عن طريق وسطاء هم ذرياتنا المباشرة . واذا لم تكن هناك حياة أخرى ، فان الوهم يزين لنا أن شيئا ما سوف يحدث فيما بعد . ومن هنا يراود هذا السؤال خيالنا : ترى : هل أتيحت لروما أيضا فرصة البقاء أو : أليس لخرائبها ورمادها معنى سام ؟ وبعبارة أخرى ان الأثر الذى ينطبع فى خيالنا عند مشاهدة الأطلال يماثل الأثر الذى ينطبع فى أذهاننا عند مشاهدة جثة هامدة .

وقد اقترح جوابان لهذا السؤال الأخير فى وقت واحد . والحق أنه يوجد جواب ثالث نذكره باختصار وهو أن مجد روما قد قبر نهائيا دون رجعة وهو جواب سلبى ينسم بروح التشاؤم ، كما أنه يتسم بالهرطقة لأن الكتاب الذين ذكروه لا يؤمنون بعبادة روما . أما الجوابان اللذان أشرنا اليهما فأحدهما يقوم على الدين (المسيحى) والآخر على أوهام الشعراء والأدباء والفنانين .

فالدين المسيحى يؤكد أن عرش القديس بطرس خالد الى الأبد : وعلى ذلك فقد كتب على روما ألا تزول أبدا : أطلالها قائمة ولكنها تنتمى الى عصور قديمة سابقة على مجىء « المخلص » (المسيح) ، وما يحدث بعده يحمل طابع الخلود .

---

(١) يعترف فيلافيو ــ مع ذلك ــ بأن عصر الامبراطورية كان عصر انحلال وانحطاط ، فقد فقد الناس فيه الفضائل التى سادت فى عصر الجمهورية الى حد أن المفسدين من الرومانيين كانوا يستحمون « كل يوم تقريبا » .

فروما لم تمت الا لكى تفسح الطريق لروما الجديدة • وهذه الفكرة التى نجدها فى كتابات بترارك هى فكرة جميع الكتاب الانسانيين المسيحيين ابتداء من فلافيو بيوندو ، كما أنها فكرة كثير من الشعراء منهم سنازارو وجورجوى • بل ان لورتيج الذى يمقت روما بدرجة لا تقل عن مقت دى بيلاى وجريفين يقرر أن روما اكتسبت صفة الخلود عندما استبدلت المفاتيح التى تفتح بها أبواب السماء ، بقيصر والسيطرة الرومانية • هذا والأطلال ليست غاية فى ذاتها ، ولكنها هى التربة الخصيبة التى سوف يغرس فيها الصليب الخالد •

فأما الجواب الآخر فيقوم على أوهام الشعراء الذين يضفون صفة البقاء على الأطلال الرومانية • وهذا وهم مبنى على الحماس أكثر من الأمل ، وان كان فيه رائحة من كليهما • ذلك أن فكرة المجد قد غذت الشعراء والفنانين منذ عهد هومر ، وربما غذتهم قبله بزمن طويل • وكثيرا ما تباهى الشعراء بأن أعمالهم الأدبية خالدة ، لا تبلى مدى الدهر بل تقاوم عوادى الزمن بصورة أقوى من البرونز • ولعلهم غير مخطئين فى هذه الفكرة ، فقد أجريت بحوث مستفيضة فى هذا الحافز القوى للخيال الجماعى وأهميته فى الحياة الادبية والاجتماعية فى الغرب بحيث لا نرى داعيا للافاضة فيه • وعلى كل حال فهو لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام التى تبحث عن علاج لداء الموت • ولا شك أن المجد لا يلغى الموت ولكنه يلغى صمته • وهذا أمر لا يقل أهمية عن أى اعتبار آخر يؤكد البقاء • أليس المجد هو أكمل الصفات التى تسبها القديس بولس الى الله ، وأليس المجد هو الصفة السامية التى لا تزال تراود خيال المسيحيين • وعلى كل حال فان احتمال وجود حياة بعد الموت يسرى على الأطلال •

وسرعان ما ولدت أخيلة الشعراء استعارة مزدوجة ، فجعلوا من المدينة الميتة جثة ، ومن روحها مجدا مؤثلا بعد موتها • ونتيجة ذلك أن الأطلال أصبحت مقدسة شأنها فى ذلك شأن كل الموتى• «فالطلل المقدس» الذى يشيد به «برناردو تاسو» تنبعث فيه الحياة بفضل « الذكريات القوية والمجيدة » التى يفوح شذاها من خلال أحجاره وتطيل من حياته • وهذا المجد يمكن الوصول اليه والحصول عليه فى اللحظات الأخيرة من الحياة كما كان شأن قرطاجة التى ذاع صيتها بسبب أطلالها وآثارها أكثر مما ذاع بسبب سنوات رخائها وثرائها التى أصبحت نسيا منسيا برغم طول أمدها • على أنه يجب علينا أن نضيف أن المجد ليس خالدا كما هو حال الروح • ولذلك فان ما قاله بترارك صحيح وخلاصته أن للذاكرة والذكريات حدودا مهما طال الأمد • ذلك أن صورة الانحلال هى أقوى وأصدق ما تكون فى مشهد الطلل ، وأن شهود الماضى ـ كما قلنا ـ يمحو مناظر المستقبل •

ربما تكفى هذه الملاحظات القليلة لاثبات ما سبق أن قررناه فيما سبق وهو أن الخيال فى عصر النهضة شبه الطلل بالجثة باستخدام استعارات متعددة ، وأضفى

عليه مفاهيم الجثة والصور المرتبطة بها بقصد تحديد خصائصه ومصيره • واذا كان ثمة فرق بين الطلل والجثة فهو أن جثة الطلل لا تثير من الرعب ما يثيره منظر الموت فى العادة • ذلك أن جثة الطلل ذات اغراء وفتنة ولذلك لا تلبث أن تصبح عملا فنيا ومصدرا للذة • وقد ذكر كويفيدو أن منظر الطلل أحب الى النفس من منظر الحياة ذاتها • واذا أدخلنا فى اعتبارنا هذا الفرق الذى يمكن تفسيره بأن تحلل الطلل أبطأ من تحلل الجثة اتضح لنا أن المآل الذى يضفيه الخيال على الأطلال مستعار من موت الانسان نفسه •

وليس ثمة ما يدعو الى الدهشة فى تكوين هذه الصورة • ذلك أن كل جديد يستمد اسمه من الاستعارة فى أغلب الأحيان ، ودور الخيال فى هذا يقتصر على اضافة المجهول عن طريق التوسع والتجوز • على أن وجود الاستعارة ذاتها ، ولجوء الخيال الى صورة الجثة يدل على وجود صلة بين الطلل والجثة • ولما كان ثمة شبه بين الاثنين ، فان هذا الشبه يظهر فى وجوه أخرى مشتركة بينهما ومن هذه الوجوه أن الموتى كانوا أحياء فيما مضى ، ومنها أنهم بعد أن استحالوا الى جثة هامدة أصبحوا محل عبادة وموضع قداسة • وربما يساعدنا هذا الجمع بين فكرة الحياة السابقة ومعنى العبادة اللاحقة على أن تفهم السبب فى أن الاهتمام بالأطلال لم يظهر الا فى عصر النهضـــة •

واذا طبقنا ذلك المعنى على روما قلنا ان الحياة تتمثل فى المدينة القديمة فى العصر الكلاسيكى • ولكن يجب ألا نفهم روما على أنها محصورة فى اطار الأطلال ، ومجموعة الشوارع والمبانى مهما بلغت من الفخامة والضخامة • بل يجب أن نفهم روما على أنها مجتمع مثالى ، ولحظة عظيمة فى تاريخ البشرية ، وفى كلمة واحدة انها كانت « حضارة » • فاذا تأملنا آثار المدينة القديمة ، فان شخصا قد يرى فيها ظل قيصر أو بروتس وآخر ظل فرجيل ، وثالث ظل الصراع بين الحرية والطغيان ، والمجد العسكرى الذى تنطوى عليه الانتصارات الحربية ، ونظام « السلم الرومانية » ، أو ــ على الأصح ــ يرى كل ذلك فى وقت واحد • فكل ما زال واختفى يصبح حقيقة بشهادة الأحجار والأطلال • وكل ذلك هو الذى يجعل روحا من الجثة التى نتأملها • وعلى ذلك فليس الأمر هو موت فرد أو موت مدينة وانما هو موت حضارة وموت عالم بأكمله • والخلاصة أن منظر روما يثير فى أذهاننا موت العالم القديم كله •

وتتضح لنا هذه الحقيقة من كل ما ذكرناه حتى الآن • واذا كانت صورة التاريخ التى رسمها بترارك ــ مثلا ــ تبين لنا أن العالم شهد فترة من الظلام تقدر بألف سنة بعد سقوط روما ، وأن العودة الى التقاليد الطيبة القديمة قد بدأت ، فان ذلك يعنى أن حقبة الألف سنة التى كانت تقترب من نهايتها ، ما كانت لتبدأ الا عند موت المدينة القديمة ، وتبين لنا هذه الصــورة أيضا أن هذا الموت قد حدث فى

القرن الرابع · ولكننا نعرف ـ عن طريق بترارك نفسه ـ أن القرن الرابع لم يشعر بذلك ولا القرن الثاني عشر ، ولا معاصرو بترارك ، ولا بترارك نفسه ، فقد كان هو لايزال ينظر الى روما على أنها امرأة عجوز على قيد الحياة ، ولكنها سيدة فانية أخنى عليها الدهر · وعلى ذلك كانت هناك لحظة تاريخية اكتشف فيها الوعى واذا صح ذلك كانت فكرة موت العصر الكلاسيكي قد استقرت فى وعى الجماعى فى ايطاليا أولا ، وفى أوربا فيما بعد ، أو فهم أن العصر القديم قد مات · وقد حاولت أن أثبت فى كتاب آخر أن هذه اللحظة قد حدثت حوالى ١٤٠٠ م وأن هذا الكشف قد اهتدى اليه المؤرخون والمفكرون الفلورنسيون · واذا لم اكن مخطئا فهذه أول مرة فى التاريخ يعترف فيها المفكرون بموت الحضارة ، وحياة التاريخ · واذا صح ذلك كانت فكرة موت العصر الكلاسيكى قد استقرت فى وعى الناس فى بداية القرن الخامس عشر ، أمكن أن نستنبط أن صورة جثة روما التى ظهرت بعد ذلك بوقت قصير ما كان يمكن أن تدرك فى غير ذلك الوقت · وفوق ذلك لم تكن هذه الصورة اختراعا فرديا ، بل ان الامر كان ببساطة ان مجموعة الافكار والصور العامة ثم اثراؤها بحيث أمكن اختراع وقبول الفكرة التى يبنى عليها مقالنا · ولكن من الخطأ الاعتقاد بأن هذه الفكرة هى اختراع أدبى خال من المعانى السامية · انها صورة جماعية وجدت حيث لم تجد من يعبر عنها طالما كانت الظروف الثقافية متكافئة · وهى ترمز الى الاعتقاد السائد ، وقد أصبحت منذ ذلك الوقت ـ كأى شىء يتعلق بالموت ـ جزءا من المفتاح الذى يحل لغز مصير الانسان · وليس من السهل اثبات ان هذا القول الاخير خال من المبالغة ، ولكنه ليس من المستحيل ·

★★★

ولقد أشرنا فيما سبق الى عبادة الأطلال منذ عهد النهضة · وهذه العبادة لم تنغرس فى النفوس جملة واحدة ، فقد ظل الكثيرون يستفيدون من أطلال روما قرونا طويلة ، كما حدث فى القرون الوسطى · والدليل على ذلك أن بنفنيتو سيلنى ، برغم كونه من رجال النهضة ، كان يرى أن الاطلال الرومانية من الأراضى الصالحة لصيد الحمام · وكانوا يستغلون العزلة الشاملة التى تخيم على الكولوسيوم (مدرج روما القديم) فيقومون فيه بالقيام السحرية السرية التى لا يشهدها أحد · ولم يكن للطلل قيمة اذا نظر اليه بمفرده ، ولكن مجموعة الأطلال هى التى اكتسبت معنى خاصا وفرضت احترامها على الناس بسبب ما كانت تمثله · ومع ذلك فقد عبد الناس الأطلال وكانت هذه العبادة شبيهة بما يكنه الناس للموتى من احترام وتقديس · وفى وسعنا أن نتصور أن المدن فى المستقبل سوف تغزوها الآثار والمتاحف التى يتعين علينا المحافظة عليها وهذا انتقام عادل للفترة التى قامت فيها المدن بغزو الآثار والأطلال ·

والسؤال الذى يطالعنا الآن هو : هل هذه العبادة نتيجة آلية للاستعارة التى رددناها عدة مرات فى هذا المقال ، وبعبارة أخرى : هل نقدس الآثار ونعنى بها بطريقة ميكانيكية لأننا نشاهد فيها جثة الماضى الذى انصرفنا منذ زمن طويل عن تقديســه ؟ ربما كان التفسير يصدق علينا نحن الذين فقدنا معنى الأشياء وفقدنا المفتاح الذى يكشف النقاب عن معظم صورنا الجماعية • أما بالنســبة لرجــال النهضة ، فكان السؤال معروضا على نحو مختلف •

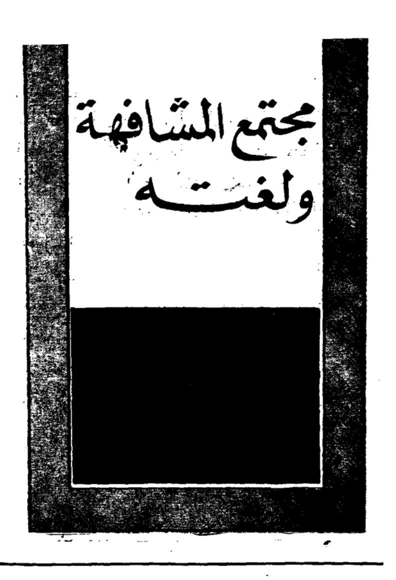
★★★

وقد أشار مرسيا الياد فى كتابه « مظاهر الأســاطير » (١٩٦٣) الى أمرين ثابتين عامين فى الخيال الجماعى يبدو أنهما يمتان بصلة الى ما ذكرناه فى هذ المقال: أحدهما أن العقلية البدائية تضفى أهمية بالغة على معرفة العصور البدائية والاوضاع الأصــلية معرفة دقيقــة لاعتقادها أنهــا أسعد حالا من العصــور والأوضاع التى تلتها ، والآخر ـ وهو غير منقطع الصلة بالاول ـ أن جميع الاساطير المتعلقة بنهاية العالم تتنبأ باحتمال عودة العالم المفقود الى الظهور • وبعبارة أخرى ان نهاية العالم مرتبطة « بالرجعــة الخالدة » التى قد تجىء « بالعصر الذهبى » ، وذلك عن طريق معرفة معينة بالعصور البدائية والأوضاع الأصلية وتتم هذه المعرفة بواسطة التذكر المقصود الذى هو ضرب من الذاكرة الجماعية • ويستشهد الياد على صحة قوله ببعض الأمور المشابهة المقنعة • مثال ذلك أن التحليل النفسى يقرر وجود حالة سعيدة بدائية وأن الوسيلة لاستعادة هذه الحالة هى الذاكرة ، ثم ان الماركســية الثورية تقيم من جديد بروح متفائلة أسطورة « نهاية العالم » وترى ان هذه النهاية سوف يعقبها حتما « العصر الذهبى » الذى يتحقق بطريقة علمية • ولعل النهضــة (الأوروبية الحديثة) ليست سوى استقطاب مزدوج لهذين المفهومين البدائيين هذا والوعى الجماعى بموت العصر القديم هو نظرة تاريخية توضــحها الخرافة البدائية القائلة بنهاية العالم • ونحن لا نستطيع أن نقول انهــا حقيقة تاريخية نظرا لأن موت الحضارة هو مجاز لا حقيقة • واذا أردنا أن نتفادى هذه الصــعوبة واجهتنا صعوبة أخرى وهى أن الحقائق التاريخية لا تفرض نفسها على الوعى الجماعى بعــد مرور ألف سنة بل تثير ذعرا وشعورا بالنبذ والاهمال وهو ما يسمى فى التحليل النفسى « موت الأب » ، فالابن ـ عند موت أبيه ـ يشــعر فجأة بأنه رجل ولكنه يشعر فى الوقت نفسه بأنه وحيد ، يجذبه المستقبل وتتخلى عنه الدعامة التى اعتقد أنه يستطيع الاعتماد عليها ، فيضطر الى أن يأخذ مصيره الجديد بيده • ولكن الموت

ـ كما سبق ان رأينا ـ لا يحول دون عودة الحياة ، بل ـ على العكس ـ يعزز الحياة ويطلقها من عقالها • وروما لا تحيا في أحجارها واطلالها القديمة بقدر ما تحيا في أطفالها الذين يحتاجون اليها • وليس من قبيل الصـــدفة أن الصـورة التى كونها رجال النهضة عن روما تشبه الصورة التى كونها القدماء عن طروادة كما هو الحال في قصيدة الشاعر لو كان ـ مثلا • ففى كلتا الحالين نجد أن نهاية المدينة يعوضها حادث مجيد ، ولذلك تبدو الاستمرارية ـ بل يتحتم أن تكون مؤكدة على الرغم من الفجوة الضخمة المتوسطة •

ومن المؤكد أن الحياة مستمرة في واقع الأمر • وأصح من ذلك أن نقول ان « الرجعة الخالدة » لابد أن تفضى الى « العصر الذهبى » مرة أخرى وهناك وسـيلة وحيدة لتحقيق ذلك ، وملء فراغ الألف سنة المخيف الذى يهيم فيه الفؤاد على غير هدى • هذه الوسيلة هى بذل مجهود كبير لاستعادة هذه الحياة عن طريق التذكر المقصود • فبهذا التذكر نستطيع أن ننقذ أبناء العصر القديم التائهين ونساعدهم على أن يعرفوا حقيقة أنفسهم • ومن هنا تأتى الثقة المطلقة والشاملة في الآثار القديمة وفقه اللغة التاريخى والمقارن • ومتى اقفلت دائرة الزمن وجب البدء لا من المكان الذى اقفلت فيه الدائرة بل يجب القفز فوق فراغ الدائرة الميتـــة حتى يتسنى الوصول الى النقطة التى بدأت فيها الدائرة الأخرى وهى الدائرة الصحيحة • ولاشك أن المعرفة الدقيقة بالأصول الأولى والأوضاع السابقة هى الوسيلة الوحيدة لانقاذ العالم الحديث • ولذلك كان من الضرورى تكرار جميع أحداث الماضى واعداد بيـان مفصل بالحكمة التقليدية حتى نستطيع أن نتأسى بالماضين ونعمل كما عملوا « هم » • ومن الضرورى أيضا معرفة الأصول القديمة للغة حتى يتسنى تحقيق النقاء اللغوى على أعلى مستوى ، والمحافظة على الآثار القديمة التى من شأنها أن تعطى صـورة صحيحة عن الماضى للجيل الحاضر • ان عبادة الأطلال والآثار القديمة لا تشبه عبادة الموتى بوجه عام بل هى أشبه بعبـادة عظماء الموتى وهى في المجتمعات البـــدائية تشبه عبادة الأسـلاف والطواطم (جمع طوطم وهو نبات أو حيـــوان تتخذه الأسرة شعارا لها) ويحكى أن البابا ليو العاشر تلقى عظما كتفيا قيل له انه من رفات القديس تيطوس ليفى ، فقدسه البابا واعتبره أثرا دينيا • هذا والفتشبة والسحر القديم هما بطبيعتهما ومقاصدهما يماثلان موقف الرجل البدائى الذى كان يحمل طوقا من عظام أسلافه حول عنقه أو موقف العروس الصغيرة التى ترتدى ثوب زفاف أمهـا •

ولقد فهم أوغسطين ثيرى حاجة العقل أو الخيال هذه ، ووصفها وصفا جيدا وان لم يستطع أن يعبر عنها بالاصطلاحات المعروفة فى التحليل النفسى ، قال : عندما تعرض لنا حاجات جديدة فاننا ـ بدلا من دراستها وادراكها ـ نجد من الأيسر علينا ـ بسبب قصورنا الذاتى ـ أن نرى صلة غامضة بين ما نريد أن نكونه ، وما كانه غيرنا من قبلنا » . وأيضا : « لأن قوة ما تشدنا الى الأمام ، ترانا ننجذب الى الوراء » . وهذه الحركة تقع فى منتصف الطريق بين الغريزة والعقل . وهى ليست ضربا من الكسل والتراخى أو نزوة من نزوات الهوى بل ترجع الى أن شعورنا بأن الأب لم يمت تماما يعطينا مصدرا للأمان والسلوان ، وهذا الشعور يعد بوجه عام ضربا من المعرفة ولكنها معرفة عاطفية مكتسبة بالوجدان . ومن هنا كانت المحافظة على الأطلال والآثار حاجة لا محيد عنها للفرد المفكر ، لأنها تتيح له التذكر والتأمل الصحى الذى وصفه القديس توما بأنه « نظرة بسيطة الى الحقيقة » وقال انه يسبب رد فعـل عاطفيـا . والواقع ان الأطلال هى أعظم قيمة من أن تكون مجرد مملكة للمـوتى .



● ● يتناول المقال بالتحليل وضرب الأمثلة والاستشهاد بآراء بعض الفلاسفة وعلماء اللغة والاجتماع والانثروبولوجيا والاثنولوجيا موضوع الاتصال الاجتماعى بمجتمعات الحضارات الأولى البدائية ، المجتمعات التقليدية القبلية التى أطلق عليهـا تعبير « مجتمعات المشافهة » • واللغة بمعناها الواســع هى وسيلة الاتصال الرئيسية • ولكن ما هى أول وسيلة للاتصال فى المجتمعات البــدائية : اللغـــة المنطوقة ، الشفهية ، والمسموعة ، أو اللغة الخطية ، والايمائية ، والحركية ، أى المرئيـــة ؟ هنـاك أسـاطير تنسـب الى الآلهــــة منحت البشر اللغة المنطوقة ، غير انه ليس من الثابت أن اللغـة المنطوقة كانت سابقة على الرسوم والعلامات المنقوشـة على صخر الكهوف •

ويتعرض الكاتب فى سياق دراسته لهذا الموضوع لأمور هامة يتضمنها الاتصال الاجتماعى فى المجتمعات التقليدية ،

الكاتب : جان لوهيس

أستاذ بجامعة لوفان (تاريخ الاتصال الجماهيرى وصوصيولوجيته) ، مؤسس قسم الاتصال الاجتماعى بجامعة زائير الأهلية • مؤلف « الاتصال غير المسمى » ، و « الاتصال القبلى » ، ودراسة فى علم النماذج المتطورة فى العلاقات البشرية : « الاتصال والمجتمعات » (سوف يصدر قريباً) •

المترجم : أحمد رضا

ليسانس الحقوق من جامعة باريس — دبلوم القانون العام من جامعة القاهرة — مدير بالادارة العامة للشئون القانونية والتحقيقات بوزارة التربية والتعليم (سابقا) •

من ذلك : اللغة الطبيعية فى مقابل اللغة الاتفاقية ، والعلامات السحرية فى مقابل العلامات العقلانية ، ونصيب كل من السمع والبصر فى اتصال المجتمعات • فالحضارات الغربية والأسيوية والافريقية تختلف بعضهـا عن بعض من ناحية موقفها من الطبيعة ؟ أمثلة ذلك دق الطبول فى أفريقيا ، والرمـوز الصوتية فى ميلانيزيا والقبائل الهندية •

ومن مظاهر الاتصال الاجتماعى الزينات ، والرقص والأساطير ، والحكايات • الخ • هناك كذلك الخطوط ، والكتابة : الكتابة التصويرية (البكتوجرافيا) والتعبير الخطى الاسطورى (الميتوجرافيا ، وكذا « اللوجوجرافيا » وهو النظام الخاص بتدوين اللغة الشفوية • هناك أيضا العلامات الرمزية ، المباشرة وغير المباشرة •

ويجرى الكاتب تحليل اللغة الشفهية ، مفرداتهـا ومقاطعها ، ومجموعاتهـا ، وأشكالها المجازية وعنصر الايقاع فيها ، وينتهى الى فقد اللغات التقليدية القديمة فى الكلمات المجردة وغناها فى الكلمات المادية الواقعية • كذلك يجرى تحليل الحليات والتصاوير والرقصات والعلامات الرمزية ويضرب أمثلة • لذلك لدى الاسكيثيين، والاسكيمو ، فى شبه جزيرة أيبريا ، والصين •

وفي خصوص العلامات ، السحرية ، والرمزية ، والعقلانية يتساءل هل العلامة الخطية تصوير أو خلق ، وعن مدى تأثير السحر في الخطط ، والايماءات ، والكلام . يتحدث كذلك عن سحر الكلمات والتعزيمات ، وقـــانون المحرمات ، ولغة الرقص ، وارتباط الدين بالفن ، وأثر كل هؤلاء في الاتصـــال الاجتماعي لدى الجماعات القديمة التقليدية ، وبخاصة مجتمعات المشافهة حيث تبدو الخطاب عملا اجتماعيا فعالا ، وخلقا لا مجرد تصوير .

فالحضارات التقليدية تجعل لحاسة السمع مكانة فائقة ؟ ولم يكن لنظم الاتصال المرئية الدور الاساسي الذى كان للغة المنطوقة .

ويدرس المؤلف الاتصالات الاجتماعية في مجتمعات المشافهة ، فيرى في هـــذه المجتمعات ميلا الى تفضيل المجموع على الفرد ، والنفور من تصـــور الفرد بمعزل عن المجتمع ، وعدم استخدام الاتصال في خلق شخصية الفرد وتنميتها ، والتحرز من الافراط في اطلاق حرية الانفعال الفردى مما يؤثر في الاستقرار الاجتماعي .

والاتصــــال الاجتماعي في مجتمعات المشافهة عنصر ضرورى في الحيـــاة المادية للجماعة ؟ يكفل استقرارها وأمنها وترابطها ؟ ويؤدى وظيفة رئيسية في المجالين النفسى الاجتماعي ، والنفسى المرضى . كذلك ينزع الاتصال الاجتماعي الى التوحيد على الصعيد الثقافي ، مثال ذلك عن طريق اللغة ، والقناع ، والثياب التنكرية ، والاســـطورة ، والحكاية ، والرمز ، والوشم . كذلك فان الحرب هي أيضـــا من عوامل السلام والنظام والترابط في داخل المجتمع الواحد .

ويتساءل الكاتب في النهاية : هل الانسان الشفهى اذن انسان جماعي ، وما هو مفهوم « الجماعية » ؟ وينوه بأن ملاحظاته كلها انما تنحصر في نطاق الجماعات البدائية « القبلية » .

كان المعتقد لزمن طويل للغاية أن اللغة المنطوقة هي أول وسيلة للاتصال بين أفراد الجنس البشرى ، ولم تظهر اللغات المرئية والايمائية الا فيما بعد . يقول سفر التكوين :

« دعا آدم بأسماء جميع البهائم ، وطيور السماء ، وجميع حيوانات البرية . »

واليوم وقد انتشرت الافتراضات الشـــديدة التنوع ، فان النقطة الوحيدة التى اتفق بشأنها رأى العلماء ــ وهى نقطة سلبية في هذا الخصوص ــ هي أن مسألة أصول اللغـــة لم تزل مطروحة . هذه المســـألة لا تهمنا كثيرا ، ولن نتوقف أمام مشكلة الأصـــول هذه .

غير أن استدعاء بعض المواقف أو النظريات ــ الأكثر ارتباطا بالمفاهيم الفلسفية في عصر ما منهـــا بتحليل وقائع لا شك أنه لم يبق لها أى أثر ــ يثير التساؤل عن الخصائص الباطنة للاتصال الاجتماعي في المجتمعات التقليدية القديمة .

وثمة الكثير من الأساطير التي جمعت لدى الشعوب القديمة تنسب الى الآلهة أنها منحت البشر اللغة المنطوقه ــ ذكر أفلاطون فى مؤلفه « اقراطيلوس » أن سقراط قال : « انها قدرة تفوق قدرة البشر ، تلك التي وضعت في البدايه أسماء الاشياء » وانا لنجد تفسيرات مجازية مماثلة فى كل أنحاء العالم ، وتشهد هذه التقاليد ، بأسلوب سحرى أو قدسي بادراك مرهف للدور الجوهرى للاتصال الاجتماعى · وتتجدد هذه التفسيرات بظهور الكتابات الأولى ·

كان فيثاغورس ، وأفلاطون ، والرواقيون يعتبرون أن اللغة «طبيعية» وأنها ثمرة ضرورة فطرية ، فى حين يميل ديمقريطس ، وأرسطو ، والابيقوريون الى اعتبار اللغة موضوعا « لاتفاق » دون أن نعرف كيف يمكن بدون لغة أن ينشأ مثل هذا الاتفاق ·

وثمة فرض ، أقرب الى عصرنا ، كانت بدايته مع دارون ، وازداد عمقا عند آخرين من بينهم مارسل يوس ، يقول ان اللغة لم تكن فى البداية سوى حركة ايمائية يؤديها الفم بغرض تمثيل حركات اليدين تمثيلا لا شعوريا·غير أن هناك نظريات أخرى تبحث على العكس من ذلك من ناحية تقليد الانســـان الطبيعة · ونذكر أن مما يزيد الأمور تعقيدا أنه ليس من الثابت حاليا أن اللغة المنطوقة كانت سابقة على العلامات المرسومة أو المنقوشة على صخر الكهوف والمقصود بها نقل الرسائل أو اثبات بعض الأحداث ·

وسوف ندرس على التوالى الخصائص الثلاث التى تشير اليها الفقرات السابقــة وهى : اللغة الطبيعية ، فى مقابل لغة اتفاقية ، اصطناعية ، والعلامات السحرية فى مقابل العلامات العقلانية ؟ ونصيب كل من السمع والبصر أو اللمس فى اتصــال المجتمعات المسماة بمجتمعات المشافهة ·

لغة طبيعية
ولغة اتفاقية

فى رأى علمى مغر ، ولكنه قليل التنوع ، شديد الايجاز أن الحضارات الغربية تتميز بارادة السيطرة على الطبيعة وتحويلها ، أما الحضــارات الأسيوية فانهــا تتخذ بالأحرى ازاء الطبيعة بوقف الانفصال ، بل والهروب ، وأما حضارات أفريقيا السوداء فان لها نزعة أساسية الى الاندماج فى الطبيعة والتعايش معها :

يقول ر · باستير : « اشــتراك الانسان وجماعته فى الكون ، غزو البشر فى الأشياء والنبات والحيوان ، وغزو الذوات بالموضوعات ، والشعور بالتماثل بين الكائن الحى والعالم » ·

وفى وسعنا أن ننوه بالكثير من العناصر التى يبدو أنها تتخذ فى الاتصــــال الاجتماعى الأفريقى هذا الاتجاه · نذكر مثالا لذلك أن بث الرسائل بقرع الطبــول يعتمد على البناء الصــوتى وايقاع الجملة ، لا على رموز اتفاقيــة بحتة مما لوحظ فى

ميلانيزيا • وفي هذا الاتجاه نجد أن الايماءات الافريقية ، حتى ولو تسنى عند الضرورة جعلها طقوسية لم تعرف أبدا التقنين المنهجي الذى فرضه هنود أمريكا الشمالية على الايماءات •

ومع ذلك لا يجوز هنا أعمال قاعدة الاستثناء ، فمجموعة الرموز الصوتية التى يستخدمها بعض الجماعات الميلانيزية ، والاتفاق الايمائى لدى عدد محدود من القبائل الهندية لم تزل أمثلة فردية • وهناك على العكس من ذلك العديد من أوجه الشبه أو التماثل بين الحضارات الأولى كلها ، مهما كان المكان الذى نشأت فيه • وتكشف مفردات اللغة ، والحليات ، والرقصات ، والأمثال ، على مستوى العلاقة الاجتماعية وحدها الكثير من السمات المشتركة • وفى هذا ، فى عموم المجتمعات التى تتفاهم شفاهة ، وبالاقتصار على مظاهر الاتصال الإجتماعى ، نتبين تقاربا واتصالا وألفة شديدة مع الطبيعة •

وسوف نوجه اهتمامنا ها هنا بنوع خاص الى المظاهر الخطية ــ مع ايضاح الاستقلال المسلم بـه بدرجة ما فى الوقت الحاضر بين مختلف نظم الخطوط لدى المجتمعات التقليدية القديمة والمحاولات الأولى التى أجرتها المجتمعات اللاحقة للكتابة بمعناها الصحيح •

وفى وسعنا ، بخصوص التخطيطات برسوم تصويرية بقصد الاتصال أن نتحدث عن « البكتوجرافيا » (الكتابة التصويرية) ــ أى « تتابع الرسوم (البكتوجرام) التى تصور أفعالا أو أشياء ، دون أية دلالة صوتية » (لوروا ــ جورهان) • ونحن نفضل على هـذا التعبير الذى استخدم بافراط حتى صار غامضا بعض الشىء ، تعبير ال «ميتوجرافيا» (التعبير الخطى الأسطورى ــ المترجم) الذى عرفه تودوروف بأنه « نظام لا يرجع فيه التدوين الخطى الى اللغة الشفوية ، ولكنه يشكل علاقة رمزية مستقلة » ؟ وكتب : « ليست العلاقة باللغة الشفوية ضرورية بأية حال ، كما أنها ليست ممكنة فى الكثير من الأحيان • فالجمل والكلمات وحدات لغوية ، أما الميتوجرافيا فانها نظام من العلامات والرموز » •

وعلى ذلك فان الميتوجرافيا تشمل البكتوجرافيا التى لعلها الجزء المهم فيها ، كما تشمل كل نظم الخطوط الأخرى التى تتركز حروفها فى موضوع مادى ، وتكون تصويرية أو لا تكون كذلك كما فى العلامات والفراض (الفراض والفروض ، جمع فرض ، وهو الحز فى عود أو غيره ــ المترجم) • وتتضمن الميتوجرافيا أيضا تصوير الموضوعات ، والترقيم بالعقد ، وباختصار كل نظم العلامات خلاف النظام الخطى الخاص بتدوين اللغة الشفهية ، أى « اللوجوجرافيا » (الحروف أو الرموز أو العلامات التى تمثل كلمات كاملة ــ المترجم) •

واذا كان بعض المؤلفين قد تحدثوا فى هذا الشأن عن الكتابة ــ لأن هناك أثرا ما منها ــ فانهم قرنوا أيضا بهذا المصطلح صفات « المستقل » أو « المصطنع » ، يقصدون بذلك ان الأثر هنا يمثل معنى اجماليا • واستعمل البعض أيضا • مصطلح « الكتابة

البدائية » . يقول مارسل كوهن : « يمكن قراءتها بأية لغة ، وبأية كلمات فى اللغة ، ويمكن أن تفهم ، وأن تؤدى الغرض منها دون أن تنقل الى كلمات » .

هل تبدى « الميتوجرافيا » فى مجتمعات المشافهة « تقاربا من الطبيعة » بصورة متميزة ؟ لنتفحص بعض الأمثلة .

فالرسائل « العصوية » (نسبة الى العصا ـ المترجم) لدى الاستراليين هى عصى الرسول : « فان كانت العصى مغطاة بفراض ، فانها تصلح لنقل المعلومات والأوامر ، وأحيانا مجموعات من الأوامر ، معقدة للغاية لا يمكن للغريب أن يفسرها ، وعصا الرسول وحدها ، من غير الرسول نفسه بهمة ، غير مفهومة ، وتدل على عدد الأفكار وتسلسلها ، ولكن الأفكار نفسها غائبة عنها . » (ج . فندريس) لنتناول أيضا « الحبال ذات العقد » التى وجدت فى ميلانيزيا ، وأفريقيا ، وأمريكا ، ومنها « الكيبو » المعروفة لدى أهالى بيرو ، وهى التى اذا جمعت بين لون الحبال ، وتخانة العقد وموضعها ، وضمت الحبال بعضها الى بعض تبعا لبعض الأعراف فانها تعبر عن بعض الأفكار والروابط الفكرية .

ولنتناول أخيرا ، فى مجال الرسم ، المثال الذى نجده لدى هنود « كونا » فى بنما ، حيث يستخدم المرتل الذى يصاحب الموكب الجنائزى أثناء عملية الدفن قطعة من الجلد مغطاة بعلامات ورموز تمثل أفكارا (بكتوجرام) للتذكرة .

وفيما وراء الظواهر ، تحتفظ هذه العلامات كلها بصلة وثيقة بالعبارة التلقائية ، عبارة أنها « طبيعية » . واذا كانت رسوم « كونا » قريبة بأشكالها وتنسيقها من التصوير الواقعى ، فان الفروض المنقوشة على « عصى الرسائل » ، وتنسيق حبال « الكيبو » ، حتى ولو كانت فى نطاق الايقاع الحسى الذى يستعملها ، فانها لم تزل بعيدة كل البعد عن التكوين المنطقى المجرد . وان ما كتبه « فان جنيب » بخصوص الوسائل المنشطة للذاكرة والمساعدة لها يتعلق بما نقوله ويتمشى معه . ففى رأى المؤلف أن قدرات الذاكرة تؤدى وظيفتها بنفسها حين يضمر الفرد فى نفسه ، بوعى أو بلا وعى الحركات الافتراضية التى سوف يعبر بها فى الظاهر عما يدور فى عقله من أفكار . أما الوسائل المنشطة للذاكرة فانها على العكس من ذلك تكشف عن تدخل واع من الراوى (او المتحدث) الذى يستخدم بعض الحيل التى تساعد على الانطلاقة الأولى او التسلسل البدائى للحركات الافتراضية لالقاء ملحن والحفاظ على النسق الأصلى للالقاءات الملحنة هذه العلامات تصلح لانشادات الأنساب ، والأسفار ، والصيغ السحرية ، الخ ، كما تصلح لاستذكار انشادات نثرية عادية .

وربما يعترض البعض بحق بأنه طالما أن كل هذه الرسوم ليست سوى حواف للذاكرة ، فردية أو جماعية فانها لا تتعلق بالاتصال الاجتماعى ، أو

تتعلق به بدرجة ضعيفة أو غير مباشرة : وهي فضلا عن ذلك ليست الا « علامات » تستثير رد فعل معين ، ولكنها لا تشتمل على أية علاقة تعبر عن معنى ٠

أما « العلامات الرمزية » فانهـــا على العكس من ذلك تشـكل تعبيرات لغوية (بالمفهـوم السـلوكي لنظم فئــات علامات الاتصال) أو على الأقل نوعيات لغات مستقلة ٠ فمن جهة تأخذ « الرسـوم و « البكتوجرام » هنا معنى رمزيا خاصا ، واذا كانت تستعين أحيانا بالامكانيات التأليفية للغة الشفوية ، فانها لا تشير حتما الى هذه الأخيرة ، وهي من جهة أخرى رموز ذات معنى ، أو هي علامات اتصال ٠

أما المدرســة الحالية ،مدرسة « اتنولوجيا » الرموز ــ ومن ممثليها المبرزين جنفييف كالام ــ جربول ــ فانها نظهر الانسان التقليدي العادى فى عالم من صورته عالم عناصر كلها ذات صلة برؤية خاصة يراها عن نفسه ومشاكله٠فالانسان يبحث عن صورته المنعكسة فى مرايا عالم « مجسم » (موصوف أو مقصـور فى شـــكل بشرى أو بصفات بشرية ــ المترجم) فيه كل شقة أو ذبابة تحمل « حديثا » ٠ هذا ما يسميه الدوجون : « حديث العالم » و « الرمز » (الدوجون ، شعب أسـود فى مالى ــ المترجم) ٠

ويفضل «موريس هوى» فى مؤلفه « الانثروبولوجيا اللغوية بأفريقيا السوداء » أن يتحدث عن « العلامات غير المباشرة » التى يقابلها بالعلامات المباشرة ٠

ففى العلامة المباشرة تقوم علاقة الاسناد تبعا لتجربة لا يكون فيها موضـوع البحث الموضوع المدرك فقط ، ولكن أيضا الفكرة التى يكونها أصـحاب الشـــأن ومجتمعهم عن ظاهرة ما ٠ ويضرب المؤلف مثـلا لذلك زقاء الديك ، وهو فى فولتا العليـا نذير شؤم اذا حدث فى ساعات معينة من الليل ٠ وليس من شـك فى أن الديك ليس الا واســطة من قوة خارج نطاق الانســان ، ولكن العلامة مرتبطة بالمسند اليه ، ويبقى مستقبل الانسان فى وضع سلبى ، وليس فى وسـعه الا أن يأخذ علما بالنبأ ٠ وعلى العكس من ذلك حين لا تنجم العلاقة بالمسند اليه من مجرد ملاحظة ، أو من ملاحظة مفسرة ، فاننا نكون علامات « غير مباشرة » فاراقة شىء من الطعام أو الشراب على الأرض قبل الشروع فى تناول وجبة ، هى علامة اتفاقية تدعو الاسلاف بكل احترام الى الاشتراك فى الوليمة ٠

واذا كانت العلامة ــ غير المباشرة أو الرمزية ــ تتضـمن بذاتها نصـــيبا من الاعداد الاتفاقى ، فان درجة تجردها أو اصطناعيتها ، والمسافة التى تفصـلها عن « الطبيعى » تتنوعان بقـدر كبير من مجتمع الى آخر ، وتفصـــل بوضـــوح تبعا لنظريتنا بين حضارات المشافهة وحضارات الكتابة ٠

ويبرز تحليل اللغــة الشفوية واقعية مفردات هذه اللغــة واستعمالها ٠ ولم يكن العنصر الأول فى الأسـلوب الشفوى البــدائى هو الكلمة أو المقطع وانما

المجموعات غير المفككة التى تمثل معنى مفهوما • وفيهذه المجموعـات المركبة التى تؤثر فى الأشكال المجازية والمقارنات ، والجمل التركيبية أو الايجازية ، يلعب عنصر الايقاع الذى لا تهتم به الكتـــابة على الاطلاق دورا أساسيا ، كمـا يشـــهد بذلك أعمال « يوس » الرائعة ومن ناحية مفردات اللغة ، كثيرا ما أوضح البعض فقر اللغات التقليدية القديمة فى الكلمات المجردة وغناها فى الكلمات الواقعية : مثال ذلك وفرة فى الكلمات التى تعبر عن فكرة الحمل والسير ، أو التى تميز أنواع الامطار والرياح•

غير أن تحليل اللغـة المنطوقة هو وحـده الكفيل بابراز أهمية الحجم المادى لمجموعات الاتصال الاجتماعى التقليدى وممارساته •

وتحليل الحليات والتصاوير والرقصات الافريقية يطيل الى مالانهاية قائمـة العلامات (الرموز) « القريبة من الطبيعة » : من صلة وثيقة بتقليد سلوك الحيوان واشارات الى الجنس ، واتصال بعناصر الطبيعة — من أرض وماء وهواء ونار — عن طريق الاشكال والايماءات ، والألوان • ومن الخطأ الظن بأن مجموع الرموز الافريقية يشكل نوعا من الدليل أعد اعتباطا من أجل ضرورات« اسطاطيقية » (جمالية) وسحرية مبهمة • فمجموع الرموز هو لغة ، وهو بهذه الصفة يعبر عن حقيقة الكون باعتباره عالما مهيئا للبشر ، وحياة تشترك فيها مصائر الناس والأشياء (مفنج : الفن وافريقيا السوداء ، صفحة ٧٠)

وفى الأشياء ومجموعاتها مثل لذلك • ففى غطاء الصندوق ذى الحكم والأمثال ، وهو شيء نادر الوجود مثال واضح للرمز المرسوم القريب الشبه من الحقائق الواقعة المبـاشرة الملموسة • وانا لنعرف الرســالة المشهورة التى بعث بهـا الاسكيثيون الى داريوس : عصفور ، وفأر ، وضفدع ، وخمسة سهام ، ومعنى هذه الرســـالة عن طريق الأشياء هو : « اذا لم تهرب فى الهواء كالعصفور ، أو تحت الأرض كالفأر ، أو فى الماء كالضفدع ، فسوف تقتلك سهامنا » • وجوزة الكولا البيضاء المهـداة ، والسهم المكسور ، والخاتم المتبادل ، والعلم المقبل ، والصورة الفوتوغرافية المقطعة ، كل هؤلاء أمثلة متناظرة متفرقة فى الزمان والمكان • ويبقى هنا تحليل يتعين اجراؤه بخصوص الفروق فى العدد أو الصفة فى هذه التجميعات والموضوعات بين الحضارات الأولى والمجتمعات اللاحقة •

وهناك أمثلة كثيرة للعلامات التصويرية (البكتوجرام) الرمزية ؟ نذكر من بينها هذا المثال الذى وجد عند اسكيمو الاسكا : فالاسكيمو حين يخرج من داره يترك عند بابه رسالة مرسومة تعين وجهته والنشاط الذى يمارســـه • وقد فتح النقاش بشأن طبيعة هـذه الرسوم فى مستهل دراســـة النقوش والتصاوير التى تطورت — فى غـــير الأغراض الدينية أو الاهتمامات الزخرفية — الى علامات لتبادل الرسائل • وقد ألف الأب بروى كتابا متعمقا للغاية فى العلامات التى اكتشفت فى شبه جزيرة ايبريا • يقول « بروى » ان هذه العلامات تعكس فى مجموعها مرحلة فى التحول التدريجى للصـور الى رموز « ايديوجرافية » أو علامات بسيطة للغـاية •

وفي الصين انتهى مثل هذا القول في حوالى ٢٧٠٠ سنة قبل الميلاد الى الكتابة الخاصة بهذا البلد اعتبارا من عناصر مماثلة • غير أن هذه التصاوير في أسبانيا وغيرها من غالبية المجتمعات « الشفاهية » لا تشـــكل كتابات ، لأنه ينقص هـذه المجموعة من الرموز تنظيم وتعقيد متقدم ، وانما تطورت الى عدد كبير من التصاوير التى تعبر عن الحقائق الواقعية التي ليست طبيعية ، بسيطة أو مشتقة فحسب ، ولكنها أيضـــا مغنوية ومجردة •

وأقدم الرسوم الأثرية على وجه اليقين مجموعات من العلامات محفورة في العظم أو الحجر ، وهى نقط وخطوط ، ليست تصويرية واقعية ، يرى فيها لوروا جورهان دليلا على أقدم العروض الايقاعية التعبيرية : ومع ذلك فهذه الرسوم أشـــكال ذات ايقاع طبيعته بلا شك تعزيمية (متعلقة بالتعزيم) ، أو خطابية ، وربما حسابية ، مرسوم قرناها بالأحرى بالاشارة ، لا بالعلامة بمعناها الصحيح •

كتب لوروا ـ جورهان أيضـــا فى كتابه « الايماءة والكلام ، الجـــزء الأول ، صفحة ٢٦٣ » : « هناك نقطة أصبحنا الآن على يقين تام من صحتها : ذلك أن التعبير الخطى بدأ لا فى التصوير الساذج للواقع وانما فيما هو مجرد » ، ولا يتعارض هذا الرأى مع افتراضنا ، بل انه لا علاقة له به • ذلك أن المؤلف قد أجرى تحليله عن فترة ترجع الى ٣٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، فتبين له أن « الشكل الخطى لم يبدأ تعبيرا تصويريا دقيقا وحرفيا للواقع ، ولكنه انتظم ابتداء من علامات يبدو انها تعبر أولا عن ايقاعات لا عن أشكال (صفحة ٢٦٥) • ولذلك فان أقدم الرسوم المعروفة لاتمثل عمليات صيد ، أو حيوانات تموت ، أو مشاحنات عائلية مؤثرة ، وانما هى ركائز خطية ليس لها أية رابطة وصفية تساند نصا شفويا لم يبق له أى أثر • » (صفحة ٢٦٦) •

ومع ذلك فان ما يظهر ابتداء من نشأة الاقتصاد الزراعي (وهى الفترة التى يتعلق بها بحثنا) هو تيار مزدوج : فهو من جهة تيار التصوير الواقعى ، ومن جهة أخرى تيار التعمق في التجريد؟ ولكنا لانلبث أن نرى التعبير الرمزى « يتبع مسارا بدأ فى المجرد ، واستخلص بالتدريج مصطلحات الأشكال والحركة حتى وصل فى نهاية المطاف الى الواقعية » (صفحة ٢٦٨) •

ولنذكر أخيرا أنه اذا كانت الواقعية التى ابتدأت بالتعبير الخطى فكرة يتعين استبعادها ، فان التعبير الخطى يجب أن يعتبر هو الآخر نسبيا فى النطاق الذى يكون فيه مرتبطا ارتباطا جوهريا بالايقاع ، وهو عنصر بعيد عن « الاصطلاح التحكمى » ـ وهذا معنى نسبناه الى صـــفة التجريد ، ويستخدمه لوروا ـ جورهان بمقابلته بالتصوير المجازى فى مفهوم مختلف ، وهذا هو ما أضمرناه فى حديثنا عن درجات التجريد •

العلامات السحرية
والعلامات العقلانية

وثمة مشكلة أخرى تطرح وتتحدد بدقة فى صالح هذا التحليل الأول للعلامة الخطية : هل فى هذه العلامات « تصوير » أو « خلق » ؟

يتفق العديد من الدراسات التى أجريت بشأن العقلية المسماة بدائية فى اثبات أنه لم يظهر فى هذه المجتمعات القيمة العقلانية للعلاقة التصويرية ، ومن ثم فليس هناك فى المجموع تصوير ، وانما هناك خلق • كتب فندريس : « من جهة ، ليس التصوير منفصلا عن الشىء نفسه ، فصورة الشىء هى الشىء نفسه • ومن جهة أخرى فان استخدام التصوير عمل يتضمن العالم المرئى والعالم الخفى » •

هذه الملاحظة تدعو الى التوقف بضع لحظات عند البيانات التى تربط عددا كبيرا من دلائل الاتصال الاجتماعى بالسحر الذى يذكر مالينوفسكى أنه يشكل فى كثير من النواحى أهم مظاهر النزعة البرجماتية لدى الانسان « البدائى » أمام الحقيقة الواقعة ، وأكثر هذه المظاهر غموضا •

وتظهر أصالة هذا الارتباط وأهميته بصورة أكثر وضوحا حين نشهد التحول العميق والبطىء الذى يجرى على مستوى العقليات بظهور الكتابة وتطورها • على أنه من الاوفق حاليا اثبات أن هذا البعد السحرى فى الاتصال الاجتماعى ــ والذى يمكن ملاحظته فى كل القطاعات الأخرى للحياة التقليدية ــ لا يؤثر فقط فى العلامة الخطية، ولكنه يتعلق أيضا بالميتوجرافيا (بمعناها الواسع للغة الخطوط ، باستثناء الكتابة) ، والايماءات والكلام •

وفى المجال الخطى ، كثيرا ما قرن البعض العديد من الرسوم بالممارسات السحرية ، وبخاصة التعاويذ التى تصور القنيص ، ويكون من أثرها أن يصير الصيد وفيرا وميسورا • ومع ذلك فلسنا نقصد البحث فى استخدامات العلامات الخطية فى السحر ، وهى كثيرة ، ولكن غايتنا التأكيد على الجانب السحرى ، وأحيانا الثانوى أو الضمنى فى استخدام علامات الاتصال • فالرسم الندبى (نسبة الى الندبة ، وهى أثر الجرح فى الحيوان أو النبات) على سبيل المثال يتصل بالمجموعة التى تشمل ليس فقط الاحياء وانما أيضا الأموات الذين لهم قدرة فعالة • وقد يكون الشعار القبلى « نعمة » لهم • وعلى العكس من ذلك فانه من الخطر رسم بعض الأشياء لأن مجرد انعكاس صورها ، واثارة ذكراها يدعوها الى الحياة الشريرة •

والميتوجرافيا كلها تعرف القوى السحرية والقانون اللاحق لها ، قانون المحرمات : فارتداء بعض الأقنعة والحليات الأفريقية لا يمكن أن يكون ذا صلة بالاهتمام الساذج بجمال الجسم أو بالزينة • فالفن فى المجتمعات البدائية ، وبنوع خاص الفن الافريقى فن « نفعى » بمعنى أنه يخضع لمقتضيات وظيفة الشىء ، ومن ثم

ينبغي فهم هذه الوظيفة فهما صحيحا . فالطرز والزخارف والخطوط لا تتبع الا قليلا وظائف تشريحية ؟ ولكنها في تعبيريتها مظهر داخلي ، يخاطب ليس فقط الحساسية أو الخيال ، ولكن كذلك الذكاء بوساطة الرمزيات المنوعة التي تدمج الأشياء في العناصر فوق الطبيعية . وعلى هذا نجد الدين والفن مرتبطين ارتباطا وثيقا في أسلوب تعبيري يجعل الانسان في كون لم يحاول بعد أن يلم به بالاستدلال المنطقي.

وعلى هذا نجد نظام الاتصال الاجتماعي كله متداخلا في هذه الرؤية الشاملة وتجاهل ذلك يزيل كل احتمال لفهم بعد أساسي من ابعاد الاتصال الاجتماعي التقليدي

ويؤدي البحث في بعض النظم الاخرى للعلامات الى ملاحظات مماثلة . وبما ان لغه الايماءات غير معروفه كما ينبغي ، ولم تدرس بالقدر الكافي ، فانا نجد الكثير من التدوينات بالعلامات والرموز المتفرقة في الكتابات غير العلمية التي يحررها السياح او الدراسات الاثنوجرافية الاحادية الموضوع التي تذكرنا بالاعتقاد في قوة الخير والشر الكامنة في حركة أو ايماءة أو وضعة . وللوضع الذى يتخذه الانسان للكلام عند البمبارا ، كما يقول زاهان « ديالكتيك الكلمة عند البمبارا ، صفحة ٢٨ » (البمبارا شعب من السود يعيش في السنغال ومالي - المترجم) أهمية كبيرة وكقاعدة عامة ، فان الاوامر الهامه وكذا الاقوال الرسميه التي تودى الى قرارات تصدر في وضع الجلوس ، وهو وضع يضفي على كلام صاحبه ثقلا ورسوخا في حين ان الكلام الذي ينطق به الواقف يعتبر سطحيا وبلا جدوى . ويدل وضع القرفصاء على الحديث العابر الموجز ، في حين أن السجود والمرفقان على الأرض ، واليدان مضمومتان يفصح عن سمة الخضوع في الحديث غير أنه لا مراء في ان الرقصات ، وأشكالها العديدة ، وايقاعاتها هي التي يجب أن نذكرها هنا قبل أي شيء . وفي بعض رقصات المسارة » (تلقين الأسرار) تتجلى صلة وثقة بمحاكاة سلوك الحيوان ، وهو مخلوق أقدر من الانسان على التكيف مع الصلات غير المرئية ، مما يوضح بجلاء الرابطة التي نريد لفت النظر اليها .

واخيرا فيما يختص باللغة المنطوقة - ونشير أيضا الى سحر الاصوات المرتبط بقرع الطبول - فانا نشير الى العديد من المحرمات (التابو) التي تضع قيدا على التعبير وكذا التعزيمات (الرقيات) التي تفرضها طقوس دقيقة . وقد درس كاروزرس في طب الأمراض العقلية والنفسية ، نوفمبر ١٩٥٩ فكرة «قوة الكلمات» وهي اعتقاد أمي الطابع بأن الفكرة والسلوك يتأثران بما في الكلمات من قوة سحرية وقدرة على أن تفرض مضمونها بشدة . وأخيزا فان الكلمة التي تقال جيدا ، وفي اللحظة المناسبة يكون لها قيمة العمل نفسه .

واذا وجدنا السحر في المشاغل التي يلعب فيها عامل الخطر دورا كبيرا (مالينوفسكي) و « اذا كان الذعر هو الحالة الطبيعية لكل مجتمع شفهي يهتم بكل شيء » (ماك لوهان) فان العلامة السحرية (التي تتجاوز العادات وتميز عقلية

بأكملها) ، التى تمارس تأثيرها عن طريق العديد من مظاهر الاتصـــال الاجتماعى يمكن أن توحى بفكرة القوة المرعبة التى يتمتع بها الاتصال الاجتماعى فى مثل هذه المجتمعات •

بيد أنه ينبغى المضى الى أبعد من ذلك : فاذا كان مجتمع شفهى يعتبر المشافهة حتى الداخلية منها ـ عملا اجتماعيا فعالا ، يعتبرها خلقا لا تصويرا ، فهل حقيقة كما يقول كاروزرس أن الكلمة حين تصير مرئية ، أى مكتوبة ، تنتقل بذلك الى عالم لا يهتم نسبيا برؤية هذه الكلمة المكتوبة عالم لا وجود فيه لقوة الكلمات السحرية ؟ ألا يعنى تأييد هذه الفكرة أننا ننسى أن القوة السحرية موجودة أيضا فى النظم المرئية ، من علامات تصويرية وأسطورية حتى ولو كانت هذه لاتغطى الا قطاعات محدودة من التجربة فى حين أن اللغة الشفوية لها مدى شامل ؟

الاتصال السمعى
والاتصال البصرى

بقى الآن أن نبحث فيما يؤكده ماك لوهان من أن الحضـــارات التقليدية تجعل لحاسة السمع مكانة فائقة ، أى فى مدى صحة الوصف الذى يجعل للمجتمعات التى ليس بها كتابة حضارات شفاهية •

ان الشعور لأول وهلة بالتحفظ ، بل والشك حيال نظـريات ماك لوهاك المستترة ـ كما يقول كازنوف ـ تحت أكداس من الاستطرادات ، والافتراضات الجريئة ، والملاحظات الهزلية ، والأبحاث الأدبية أو شبه العلمية ، هـذا الشعور انما هو طبيعى • غير ان اندريه لوروا ـ جورهان يلاحظ مرددا ماقاله جريجوار دونيس حين كتب فى أواخر القرن الرابع « تكفلت الأيدى بالمهمة الشاقة الثقيلة مهمة التغذية ، وأطلقت حرية الفم ليؤدى مهمة الكلام » ، يلاحظ أنه قبل الكتابة ، كانت اليد تشتغل بالأخص فى الصناعة ، ويشتغل الوجه بالأخص فى التخاطب ، فى حين اننا نشهد بعد الكتابة استقرار التوازن ، ومن ثم فاننا لابد أن نبحث هذا الموضوع •

لقد صادفنا العديد من مظاهر الاتصال البصرى فى الحياة القروية التقليدية• ولسنا نفكر فى اللغة الايمائية لدى الهنود ، وهى قليلة الانتشار ، ولكنا نفكر فى الحليـــات والايماءات ، والهيئـــات ، والحركات ، والاضحيات ، والوشـــوم ، والتصاوير ، والرقص بنوع خاص • ففى المحكمة التقليدية ، قد يشرع القضاة فى الرقص حين يريدون التحدث بأسلوب رسمى • ألم يرد فى التوراة بهذا المعنى أن داود رقص أيام تابوت العهد ؟

وانا لنفكر أيضا فى التعبير الخطى الذى « يرد الى اللغة حجم ما لايمكنها التعبير عنه ، وامكانية مضاعفة ابعاد الواقع فى رموز مرئية تفهم للحال » (لوروا – جورهان • ونلاحظ أيضا أنه مهما بلغ جهاز المراجع اللغوية المعتمد رسميا واجتماعيا درجة الكمال ، فانه قد يحتوى على بعض القصور فى مجالات معينة ، ويتضح أنه أقل ثراء من مراجع أخرى • فالرمزية التى قد تجهل الايماءة نسبيا ، يمكن فى سياق معين تفسيرها بداهة بأنها أبلغ تعبيرا ، من الوجهة النفسانية من الكلمات المستعملة أن علامة « جوز الكولا الابيض المهدى الى ضيف » يمكن أن تخبر المضيف بالترحيب بقدومه بصورة أفضل من خطاب الترحيب •

والتقليـد أو السلوك الواضح ، والايحاء الاجتمـاعى هى من وسائل الاتصال اللاشكلية فى ذاتها التى لا تنطق بها اللغة الشفهية ، اذ لم يزل الكثير من وسائل الاتصال هذه غير قابلة للتعبير عنها شفاهة ، ومع ذلك فهى على قدر من الأهميـة • وقد يتحير شخص لم يألف هذه الوسائل بالبداهة ، يتحير من ناحية مدلول بعض أنماط السلوك حتى ولو كان على علم عميق بأشكالها الخارجية ، وبالرموز الشفاهية التى تصاحبها •

هل لنا ثمة ، فى مجال الاتصال أن نتفق مع كاروزوس على أن أهل الريف الاميين يعيشون بالاخص فى عالم من التعبيرات الصوتية ؟ ففى حين أنه لابد للانسان فى غرب أوروبا أن يعتاد الا يقيم وزنا للاصوات ، متبعا فى ذلك مبدأ أن « الرؤية يقين » فان الحقيقة عند الافريقى الريفى تكون بالاحرى فيما يقال أويسمع • ترى هل من طبيعة ملاحظاتنا بخصوص الاهمية الكمية والنوعية للاتصالات المرئية أن نطرح على بساط البحث ، على العكس مما ذكرنا ، الطبيعة الشفوية فى جوهرها التى تنسب بعامة الى المجتمعات التى ندرسها ؟

وفيما عدا التحاليل الأكثر تقـدما ، نقـدم الافتراضين التاليين • فهناك أولا مجال لدراسة ما يدعيه ماك لوهان من « عدم اهتمام الاميين بالمرة بالقيم المرئية فى تنظيم الخبرة والادراك » ومع ذلك فان فكرة المؤلف يشوبها الغموض ، ان لم يكن التناقضات • واذ يحاول ماك لوهان أن يبنى نظـرية للتغير الثقافى اعتبارا من التغيرات فى الروابط الحسية التى تنجم عن مختلف التغيرات الخارجية لحواسنا ، فانه يرى بالأحرى فى مرحلة أولى أو هى التى تسترعى أنظارنا هنا) اتصالا طبيعيا ، شفويا وايمائيا (ملموسا ومرئيا) يهم الحواس كلها ، فى حين أنه بظهور الكتابة تتشكل حضارة وعالم من المعرفة ، على أساس حاسة واحدة ، هى حاسة البصر •

والواضح أن هنا شىء مختلف كل الاختلاف عن الفكرة الأولية عن عالم السمعيات الذى تحدث عنه ماك لوهان وكاروزرس ، ولا يتعارض مع اقتراحنا الثانى ومضمونه أنه رغم أهمية الميثوجرافيا وسائر نظم الاتصـــال المرئية أو الايمائية أو اللمسية وانتشارها فان هذه لم يكن لها الدور الأساسى الذى كان للغة المنطوقة فى المجتمعات التقليدية • هذه اللغة المنطوقة التى لها وحدها هدف جامع شامل هى أيضــا فى

الواقع الوحيدة التي قدمت مجموعة تركيبية ثرية ـ ذلك لان عددا محدودا من الأصوات ينتج عددا كبيرا جدا من الكلمات • وهذه الكلمات تنتج بدورها عددا لا نهاية له من الجمل (تودروف) ، تتفتح ليس فقط على التكوين الرمزى للاتصال ، ولكن أيضا على الفكرة والمعرفة •

هـذه القدرة التى تتمتع بهـا الكلمة تبرر اذن تسمية الحضـارة « حضـارة المشافهة » بالمعنى الايجابى هذه المرة ، لا بالمعنى الاستهجانى باعتبارها حضارة مجردة من الكتابة •

الوحدة غير المميزة

اذا أردنا ، اعتبارا من العناصر التى حاولنا أن نستخلصها حتى الآن أن ندرس العلاقات الاجتماعية فى مجتمعات المشافهة ومختلف مظاهرها فى الاتصـــالات الاجتماعية ، فمن المهم للغاية الا يغرب عن بالنا الميل الى تفضيل ما هو اجمالى ، وروح الوحدة أو الاتحاد العميق ، وعدم وجود المقولات (الالفاظ الكلية) العقلانية مما يميز الحياة الكلية لهذه المجتمعات • فهل هو عدم القدرة العقلية على التمييز المجرد ، أو ارادة التلفيق التجريبى (التليفق بمعناه الفلسفى ، الأخذ من مختلف المذاهب دون الاستناد الى روح نقدية ـ المترجم ؟ لنقل بالاحرى انه الاحساس بتفقد العالم الذى ينفر من التدقيق والتحليل ، ويربط برباط وثيق كل ما هو كونى واجتماعى وبدنى باعتبار هؤلاء كلا حيا لايتجزأ • ولا يتعلق هذا الارتباط بمساعى البراجماتية النفعية وحدها ، كما أنه لايدين للعقائد الدينية المتشاركة وحدها ؟ والارتباط هنا أيضا كلى ، وكل محاولة للتفكيك غير مأمونة العواقب •

هذا الاتجاه أو تلك العقلية يمكن أن تفسر ، تفسيرا جزئيا على الاقل ، توقف التعبير الخطى عند المرحلة الميتوجرافية (التعبير الخطى الاسطورى ـ المترجم) • فاللغة لاتتخذ هنا كعنصر أول لها الكلمة أو المقطع ، وانما المجموعات المترابطة التى تقدم معنى مفهوما ، وتتيح أيضا فهم الاشتراك ، المتعايش بنوع ما ، بين اسم الشخص والفكرة المقترنة به ، مثل اندماج الموسيقى مع الكلمة ـ الى حد أنها تختلط أحيانا باللغة المنطوقة ـ ومع الرقص والاحتفال الذى يندمج فيه •

وقصدنا هنا هو البحث عن آثار هذا « التضامن » بمعناه الشامل على المفهوم العام للعلاقات الاجتماعية ، ودور الاتصالات التى تقيم هذه العلاقات • فاذا صيغت المشكلة بصورة عكسية ، فانها تتمثل فى رؤية ما اذا كانت المبادلات بين الناس تشهد هذا الاتجاه الجوهرى فيما يمارسونه من اتصالات ، وكيف يكون ذلك •

وفى هـذا الصدد تشهد ملاحظة أولى مستخلصة من تحليل دقيق لمجتمعات المشافهة يعجز هذه المجتمعات عن أن تتصور الانسان فردا منعزلا عن سائر أفراد العالم • أو على الاقل مقاومتها هذا التصور •

ونلاحظ بالتالى فى الحياة الاجتماعية فقرا شديدا وحذرا جماعيا من ناحية العلاقات التفريدية المعتبرة فى كثير من الاحيان من الوجهة الاجتماعية بمثابة مظاهر منحرفـــــة ٠

وفى بيئة تشكل فلسفة التضامن العالمى وقانون التضامن العقلى فيهـا أقوى الموانع التى تكبح كل محاولة لتحرير الفرد ، وحيث لايتسنى لمصلحة الفرد أن يكون لها شأن ، اللهم الا اذا اختلطت بالصالح العام ، لم نجد أى مثال واضح لاستخدام الاتصالات الاجتماعية فى خلق شخصية الفرد أو تنميتها حتى بكيفية غير مبـاشرة أو ثانوية ٠

بل انا نلاحظ على العكس من ذلك تماما ، وبصورة واضحة فى مجال الادب أنه لا أثر للانفعال العاطفى الودى أو على أية حال توجيه مشدد لهذا الانفعال وبالنسبة للانسان فى هذه المجتمعات : « تأثر الانسان هو اسهامه فى نشاط القوى التى تحرك العالم بالتضامن الوثيق مع سائر أعضاء الجماعة ، وبوساطة الكلمة التى تطلق عنان القوى انفعال اللعب فى نشاط الألعاب (الخرافات والأساطير) وانفعال التلقين فى تحصيل الحقائق الجوهرية (الحكاية الأسطورية) والانفعال القدسى (أحاديث قدسية) (لوى ــ فنان توما) ٠

وفضلا عن ذلك فان كل حرية تتاح للانفعالية الفردية يمكن أن تؤثر فى الاستقرار الاجتماعى ٠ واذا كان التكلم فى مجتمع شفاهى ــ كما رأينا قبلا ــ هو عمل اجتماعى فعال ، فأنا ندرك مع كاروزرس أنه « أذا أبديت أفكار شخصية وفردية خارج المجالات العملية والنفعية البحتة ، فانه ينبغى التحرز منها وكتمها فى ذاتها وعند الآخرين ٠

ورب من يعترض بأنه يبدو أن عادة المناقشات الطويلة المملة تتيح التعبير الحر عن الآراء الشخصية ، كمـا هى لحال فى نظر البعض فى « الجمعيـات الحرة » التى كثرت منذ أحداث عام ١٩٦٨ ٠ فالواقع أن حدود التعبير الحر فى هـذه المناقشات تتضح سريعا وبخاصة حين يكون التنظيم السـياسى قائما على بناء متدرج ٠ وحالة مجتمع « لوبا » مثالية فى هذا الشأن : فليس لكل فرد الحق فى أن يعبر عن رأيه فى جمعية من جمعيات لوبا ؟ ويجب على من يريد أن يتحدث أن يقدم نفسه بأن يعلن عن اسم الجدالذى اسس « طبقته » ، فان كان عضوا قديما فى طبقته أذن له بالكلام والا اعتبر تدخله اهانة للكبار ٠

ويترتب على عدم المساواة فى عدد الأصوات أنه ليس من النادر أن تنتهى جمعية استشارية الى اتفاق ما بفضل ضغط اجتماعى قوى بدرجة كافية تتيح الاغضاء عن المعارضات ٠ عندئذ قد يكون الاجتماع الذى يبرزه احترام النظام القائم مجرد اجماع ظاهرى فى نظر المراقب غير الملم بالعقلية التقليدية ، كمـا يبدو الجـدل تعسفيا وقسريا ٠

والواقع ان انكار المعارضة ثقافيا لا يتخذ أهمية كبيرة الا حين تبدأ التقاليد فى التفكك ويقتضى الامر اجراء اختيارات جوهرية فى صورة بدائل • وبالنسبة للوقت الحاضر فان « الديموقراطية المدرجة » التى يشهد بهـا عدد من المناقشات تخلق من جهـة شعورا بالحرية لا يجهل ولا ينكر أحد حدودها ، ونؤكد من جهة أخرى شعورا بالأمن فى الاستقرار الاجتماعى • وقلما يستطيع أصحاب النفوذ الذين يهمهم المحافظة على مكانتهم وثقة المجتمع فيهم أن يحيدوا عن السلوك المرسوم •

ومن جهة الهيبة والنفوذ ، نلاحظ فى بعض المناسبات ، وبعض مظاهرالاتصال الاجتماعى اهتمام الفرد بأن يشغل فى نظر مواطنيه مكانة مرموقة ، خلاف المكانة التى خصصها له – وفى الأكثر أنكرها عليه – التنظيم الاجتماعى • فثمة من يفكر – على سبيل المثال – فى استخدام شعارات وصيغات يمتدح بها ذاته قد تبدو تعبيرا ثقافيا تبيح اشباع الحاجة الى تأكيد الذات • غير أنه ينبغى أن يلاحظ للحال أن هذه الشعارات والصيغات تؤدى هذه الغاية بربط الفرد بمستويات اجتماعية مختلفة وبماضى جماعته – ويشغل تسلسل الانساب فى هذا المجال مكانة شديدة الأهمية • كذلك فان بعض الحليات والتصاوير يمكن أن تستخدم بقصد جذب الانتباه كما ان الموهبة الخطابية تتيح لصاحبها أن يبرز أمام الآخرين • غير أن حد التفريد يبقى ضيقا للغاية بحيث لا يهدد البتة ارتباط الفرد بالجماعة •

وفى بضعة الأمثلة هذه ما يكفى على مستوى ممارسات الاتصال الاجتماعى لاثبات عدم مبالاة المجتمعات التقليدية الأولى طوعا واختيارا برقى الفرد •

اتصال جماعى

اذا كان الاتصال الاجتماعى فى مجتمعات المشافهة يضم الماضى والمستقبل الى الحاضر ، فانه يتيح قبل كل شىء المعيشة فى هذا الحاضر ، وهو اذ يستبعد ويكبح التذبذبات أو النزعات الفردية ، فانه ينضوى فى نطاق حياة مشتركة وجماعية •

والاتصال الاجتماعى عنصر ضرورى فى الحياة المادية للجماعة باعتباره عاملا للحفز والاعلام وانا لنصادفه بهذا الوصف فى النقل الشفهى للتقنيات ، وفى الصيحات والأغانى التى تصاحب الأشغال الجماعية المشتركة فى الحقول والأنهار والغابات ، وفى الاشارات الايمائية والاصداء اليومية التى تذكرنا ، على هامش الاتصالات الآلية بالاتصالات الحيوانية •

كذلك يكفل الاتصال الاجتماعى حياة الجماعة وترابطها فى تنظيمها ونشاطهـا الاقتصادى والاجتماعى والسياسى • والانشاد « الكورالى » يذيب الفرد فى المجموع ، ويدمجه فى أبنيته ، تبعا لجنسه وسنه ، ويجعله عضوا عاملا فى كل مظاهر الجماعة وهذا هو السبب الذى من أجله يشغل تعليم الغناء وممارسته مكانا كبير الأهمية فى حفلات التلقين • غير أن الموسيقى ، والرقص ، والاضاحى ، والزينات ، والتصاوير

والحفلات الرسمية ، واللغة وتعبيراتها هي التي تحدد ، ليس فقط الهياكل الخاصة بالجماعة ، وانما أيضا شعائرها وأساطيرها وعقائدها ، وبذلك تحقق للحال وبعمق ذاتية الجماعة ، وفي هذا تقنية حقيقية لتقوية الجماعة ، ونظام تربوي تلقيني ٠

كذلك يؤدي الاتصال الاجتماعي وظيفة رئيسية على المستويين النفسي الاجتماعي والنفسي المرضي ٠ الا يبدو القناع ، اذا فسر تفسيرا عميقا وكأنه يبعد الخوف من المجهول بتجسيده ، وجعـل الروح التي تحركه مرئيـة ، تلك الروح التي ينبغي مصالحتها ومراضاتها ؟ أما الرقص الذي هو في الكثير من الأحيـان عرض تمثيلي للمنازعات الاجتماعية ، وهو دواما ايقاع جماعي وعالمي ، فانه يوفر صحة اجتماعية حقة ٠ ويؤيد جلوكمان الرأي القائل بأن بعض الاغاني الفاحشة او الثياب التنكرية الشعائرية انما هي أشياء تعبر عن المنازعات التي تستهدف التنفيس والاندماج في المجموعات التي لاتبالي بالنظام الاجتماعي ؛٠ ولكن أليس في هذا هدف من أهداف المجالات التي تجري يوميـا وتطرح في الميادين العـامة التوترات بين الأشخاص وتستغل ألوان الالفة والنفور ، وترسم في النهاية خطوط عمل مشترك ــ وتتمثل القاعدة الرئيسية للترابط الاجتماعي ها هنا باهتمام واضح بالاقناع ، لا بالارغام

وهناك أيضا مظاهر كثيرة تهيىء مناخا جماعيا من المشاركة الفعالة ، وبيئة ملائمة لترابط الجماعة ، وتخلق درجة كبيرة من نفاذية الفرد في قيم المجتمع ٠ يمكن عندئذ الحديث عن نزوع الاتصالات الاجتماعية الى التوحيد على المستوى الثقافي وبالمعنى الواســع والحكاية مثال لذلك ، بين الكثير من الأمثلة الممكنة ، فهي « باختيار موضوعاتها والكيفية الخاصة بتنظيم أدائها الدرامي وحل عقدتها تعبر عن خاصية جوهرية للشعب أو المجتمع الذي يستخدمها ، وقد تكون صدى وتعريفا وتعبيرا ونقدا وتبريرا للهياكل الاجتماعية الواقعية ، وهي ترجمة لبعض أنماط التنظيمات والتصرفات وردود الفعل الاجتماعية الهامة ، والمواقف الاجتماعية الفعلية وليس فقط الخيالية (نسوجان اجبليماجنن) ٠

غير ان أعضـاء هذه المجتمعات يشعرون اجمالا بوحدتهم ويدركون مصالحهم المشتركة في الرموز التي يحملها ويستخدمها الاتصال الاجتماعي ، وهذا الارتباط هو الذي يكسب مجتمعهم تماسكا واستقرارا ٠ هذه الرموز ــ التي تعتبر فضلا عن ذلك بمثابة قيم ــ سواء كانت في شكل أساطير ، أو قصص ، أو عقائد ، أو شعائر ، أو قواعد ٠ او مواقف ، و اشخاص ليست فعالة الا لانها نشيطة وحية على الدوام بفضل المساهمة والتشجيع اللذين يقوم بهما الاتصال الاجتماعي في دوره الأساسي ٠

هذه النظرة السريعة الشاملة على ما بدا لنا بمثابة الوظائف الرئيسية للاتصال الاجتماعي في الحضارات الأولى (الأمر الذي لا يفترض مسبقا أن نجدها في عصور تاريخيـة أخرى) تثبت بوضوح الأولوية التي تمنحها هـذه المجتمعات للجماعة البشرية ٠

هذه الوظائف التى تمارس في مجموعات مغلقة ، نجدها بالاخص فى داخل الجماعات • ومع ذلك فعلى نطاق جغرافى ضيق ، تقوم علاقات من حسن الجـوار أو ذات طبيعة نزاعية بين القرى والعشائر ، بل وأحيانا بين مجموعات أو مناطق أكثر اتساعا • هذه المبادلات بين المجموعات ، وهى التى تتجسد مع غيرها فى أشكال مختلفة من الاتصال الاجتماعى تدعم مكانة الجماعة ، وتعزز سعيها فى سبيل الحماية والتوسع •

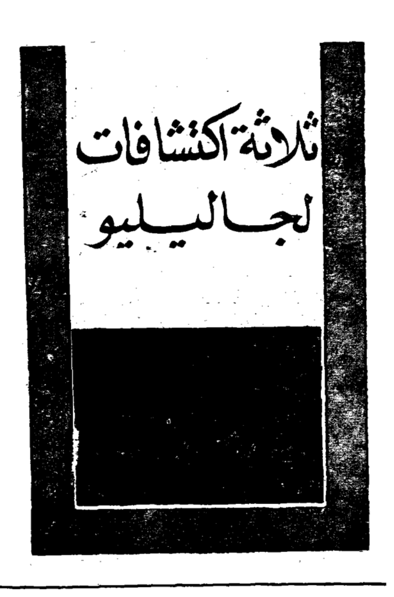
واذا كانت اللغة تبدو كدلالة واضحة على الانتماء لجماعة ما ، فان هذه الخاصية لا تتعلق بالمجموعات الكبيرة وحدها ، ولكنها تراعى ـ ولو بكيفية أقل وضوحا ـ فى نطاق الجماعات المحدودة التى تلجأ فى بعض الظروف الى تعبير يفصح عن ارادتها استبعاد الاجانب : فاللغة السرية ، والعبارات التى تبلغ بقرع الطبول ، والايماءات السرية تؤكد أصالة الجماعة وانغلاقها •

ومع ذلك فان الشيء الاكثر وضوحا ودلالة فى هذا الصدد هو استخدام الوشم كعلامة مميزة للجماعة البشرية • واذا كان الوشم يؤدى داخل الجماعة وظيفة معينة ببيان الحالة المدنية للشخص الذى يحمله ، فانه يتيح فضلا عن ذلك ، للفوروبسهولة تحديد واجبات المساعدة أو عدم المساعدة المتبادلة . ومنع الزواجات اللحمية (بين أفراد القبيله الواحدة ، أو بين الاقارب الادنين ـ المترجم) المحظورة فى أغلب المجتمعات غير أن الحرب بما يصحبها من وشوم ، ورقصات ، وأناشيد ، ورسائل تبلغ بقرع الطبول واهانات الحرب الموجهة ضد أقوام في الخارج ، هذه الحرب هى أيضا فى الكثير من الأحيان من مقتضيات السلام والترابط فى الداخل • وكلما كان الجيران قريبين بعضهم من بعض وأقوياء ، فانه يخشى أن يصير النشاط الحربى بينهم أكثر شدة وحدة ، كما يزداد التنظيم الداخلى وطاعة الأفراد قوة •

وهكذا نرى كيف أن مجتمعات المشافهة تركز اتصالاتها الاجتماعية تركيزا ايجابيا فى الجماعة بصفتها هذه ، بعد أن رأينا كيف أنها من الوجهة السلبية تحرم عليها كل نشاط متميز على المستوى الفردى •

وهنا تتوقف استنتاجاتنا • فهل الانســان « الشفهى » انسان « جماعى » ؟ فان كانت ملاحظاتنا بهذا المعنى ، فانه ينبغى لنا فى الحال أن ننوه بأن هذه الملاحظات تنحصر فى نطاق « جماعة » معينة بالذات ، لعلنا نصفها سريعا وبصفة مؤقتة بأنها « قبلية » : جماعية بدائية ، أولية ، ومحدودة •

ومن الواضح أن الانتقال الى « النمط الجماعى » يستلزم من جهة تفكيرا نظريا فى مفهوم « الجماعية » ، ومن جهة أخرى توسيعا لمجال التحليل التجريبى • وسوف تتاح لنا هذه الفرصة فى الخطوات اللاحقة لبحثنا هذا •



●● يعالج المقال جانبا من حقيقة العملية العلمية ، ويركز بنوع خاص على تحليل الأسلوب المنطقى الذى اتبعه جاليليو (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) العالم الايطالى الذى اشتهر بأعماله فى الفلك والرياضة والطبيعة •

يتعرض الكاتب بالشرح والتعليق لمؤلف جاليليو « مقالات فى علمين جديدين » ، ويجرى تحليلا للأسلوب المنطقى الذى اتبعه جاليليو فى اكتشافات ثلاثة : قانون القصور الذاتى ، وقانون سقوط الأجسام ، وقانون المسار المكافىء للقذيفة •

غير أن كتاب « مقالات ••• » هذا ليس مفكرة خاصة تتيح تتبع مراحل التفكير العلمى الذى أدى الى اكتشافات

الكاتب : جوزيف لالوميا

أستاذ الفلسفة بجامعة هوفسترا بنيويورك ، مؤلف كتاب عن اميل ميرسون : « أساليب العقل » ، ١٩٦٦ ، و « من العلم الى الميتافيزيقا والفلسفة » (بشأن علاقة الفلسفة والميتافيزيقا بسائر الأنشطة الانسانية ، وبخاصة الفيزيقا) ، وكتاب يضم وسائل فى تاريخ العلوم تستند على المظاهر المنطقية للبحث ٠

المترجم : أحمد رضا

مدير بالادارة العامة للشئون القانونية والتحقيقات بوزارة التربية والتعليم (سابقا) — ليسانس الحقوق من جامعة باريس ، ودبلوم القانون العام من جامعة القاهرة ٠

جاليليو ، ولكنها شهادة معقولة لمنطق الاكتشاف العلمى الذى يقرر أن أغلبية الاكتشافات العلمية تبدأ بمعرفة مكتسبة من قبل تعزز فرضا يحتمل أن يحل مشكلة معينة، ثم يستعين الباحث بالتجربة لاثبات صحة فرضه ٠ هناك مع ذلك اكتشافات طارئة ، فجائية لم يعد لها أى عمل منهاجى ٠

ولشرح السياق التاريخى لفكر جاليليو وتطوره ، يلخص المقال فكر علماء الفيزياء القدامى بخصوص حركات الأجسام ، ومحاولة علم الديناميكا اعداد نظرية عن « القوة الكامنة » ، وانتقال « القوة الخارجية » أو « المتسلطة » ٠ وتنصح « مقالات ••• » جاليليو فى بدايتها عن ارتيابه فى صحة هذه النظريات ٠

والمعروف فى حالة الاجسام المتحركة بسرعة ثابتة أن ف = ع ن (باعتبار ف المسافة المقطوعة ، ع السرعة ، ن الزمن) ، ولهذه المعادلة أهميتها من الوجهة المنطقية لأنها تماثل المعادلة التى تجعل مساحة المستطيل مساوية لحاصل ضرب القاعدة فى الارتفاع · الا أن معرفة نسبة المسافة الى السرعة والزمن فى حالة أجسام تتحرك « بعجلة منتظمة » ابتداء من حالة السكون لم تكن محققة رياضيا قبل أن يعالجها جاليليو ·

ويبدأ جاليليو بتعريف فكرة « العجلة المنتظمة » ويصوغ بشأنها نظريته الأولى · ولعلنا نرى فى هذه النظرية بحثا هندسيا بحتا يعتمد على مساحة المستطيل والمثلث القائم الزاوية الذى يشترك بأحد أضلاعه مع المستطيل ويساويه فى المساحة ·

وتعالج نظريته الثانية حالة الجسم الذى يسقط مبتدئا من وضع السكون ومتحركا بعجلة ثابتة · غير أن الاستعانة بالتجربة أمر عسير فى حالة تطبيق نظرية جاليليو على سلوك جسم ساقط سقوطا ذاتيا حين تكون ظروف سقوطه غير مرتبطة بالأسباب التى أدت فى البداية الى سقوطه · لذلك استبدل جاليليو بملاحظة سقوط الأجسام رأسيا ملاحظة تدحرج الكريات على مستوى مائل ·

وهناك تجارب يستعين بها جاليليو لاثبات قانون القصور الذاتى ويبحث جاليليو بعد ذلك مسار الأجسام المقذوفة ، اعتبارا من مبدأ القصور الذاتى ، ويصوغ نظريته فى هذا الخصوص ·

وفى وسع المنطقى أن يستخلص ارشادات نافعة من نهج جاليليو فى شأن العلاقات الخاصة التى تكتشفها بين الرياضة البحتة وملاحظة الظواهر ، وبين الدور الحاسم للتقليد العلمى فى اجراء الاكتشافات التى كان من شأنها أن تقلب هذا التقليد وتعدله ·

والمطلوب منا أن نستعين بالخيال لانجاز تجارب لا يمكن بداهة القيام بها بأقصى درجات الكمال قبل اعمال الفكر والخيال · وفى مجالات الرياضيات كثيرا ما تنبثق فكرة أو صيغة من التجريد البحت ، الى أن يتيح تطبيقها على بعض الظواهر ادراك مداها العلمى ومعناها الحقيقى · ويتبين مما سبق الدور الرئيسى للفرض فى مجال البحث العلمى ، وأهمية موارد المنطق والخيال والتجربة فى خدمة الاكتشاف والاختراع ·

ان من يتصدى للمشاكل الخاصة بفلسفة العلوم ، بصفته من علماء المنطق ، ويحـــاول مع ذلك أن يتعرف على حقيقة العملية العلمية ، يلمح للحال عـــددا من المشاكل ، منها أولا ، كيف يتسنى تجنب عقبة « السيكلوجيزم » ؟ (نظرية تستخدم المفاهيم النفسانية فى تفسير الأحداث التاريخية ، الخ ـ المترجم) ··· ثم : أين يمكن العثور على المصادر التاريخية التى تتيح ايضاح منعطفات المنطق التى انتهت بالباحث الى الاكتشاف ؟

واذا كان من الضرورى الاحتراز من كل نزعة نفسانية ، ومن كل نزعة ترد الاشياء الى علم الاجتماع ، بمعنى أنه اذا كان من الضرورى تجنب الخلط بين النوازع النفسية أو الظروف الاجتماعية التى ربما تكون قد ساعدت على تحقيق اكتشاف ما ، وبين الاعتبارات التى تكون أداة لاثبات هذا الاكتشاف ، فانه من المهم أيضا الاحتراز من العقبة الكئود التى تتمثل فى اهمال الظروف المنطقية التى لعلها سيطرت على نشأة بحث من الأبحاث وتطور هذا البحث ، والنمط التقليدى للبحث العلمى يبدأ فى أغلب الأحيان من فرض يشعر الباحث أنه يتمشى مع عنصر اعلامى فى حوزته من قبل · بعبارة أخرى ، أن ذهن الباحث ليس فى البداية صفحة بيضاء ، وأن ما قد يحتوى عليه لا يخلو من التأثير على مجهوده المنطقى · هنـــاك أولا كل ما يعرفه أو يعتقد أنه يعرفه ، بالاتفاق مع نظراته ، والذى يشكل موضوعه التجريبى الأول فى بعض التخصصات التى يمكن أن ينتبه اليها العلماء ، وتستحق بذل الجهد بشجاعة ، وجذب أهتمام الغير · هذه المعرفة تستبعد قبل كل شىء الافتراضات التى لاتتواءم معها ، أو التى لا يحتمل أن يحتفظ بها الذهن اذا ما وردت عليه · ليس هـــذا كل شىء : ذلك أن تواؤم فرض جديد مع معرفة راسخة أو رأى يقره العلماء ليس بشرط كاف لكى يكون هذا الفرض مقبولا ، لأن هذا يعنى ببساطة أن ليس ثمة شىء يمنع ـ فى نطـــاق المعرفة المسلم بها ـ من احتمال أن يعتبر هـــذا الفرض صحيحا · ان طالب الحصـــول على درجـــة علمية ، ويبحث بذاكرته فى موضوع معين ، يجب عليه أساسا قبل أن يباشر أى بحث أن يقنع المشرف على رسالته ، ولجنة الاختبار ليس فقط أن فرضـــه الابتدائى لايتعارض مع القواعد العلمية الثابتة ، ولكن أيضـــا أن المعارف المكتسبة ، أو على الأقل جزءا من المعرفة العلمية تميل الى تعزيز هذا الفرض أو جعله مقبولا بحيث يمكن تبريره ، ولو كبداية للبحث بقصد اختبار صحته · الا يقال عندئذ ان المنطق الخاص بالاكتشافات التى تحققت أو التى اعتبرت كذلك بالاجماع العلمى له قوة مسيطرة على عقول الباحثين بحيث لا يمكن أن يتبنى التقدم العلمى شيئا خلاف الجهود المتشابهة ، ويجعل من العبث كل مشروع يستهدف تعديلا جذريا ؟ غير أن الأمر ليس كذلك ، لأن ذلك يعنى غض النظر عن قوة أخرى فعالة ، من الوجهة المنطقية ، قوة الاكتشاف الطارىء لظواهر لم تتضح بعد ، أو التى تنبثق فى منعطف بحث ما فتدل بشذوذها على عدم صحة فرض أولى ، وضرورة اعادة النظر

في مجموع المفاهيم العلمية المعترف بها التى تضم هذا الفرض • وبالتأكيد تتدخل عوامل نفسية أو نفسية اجتماعية فى هذا الصدد • ولكن لندع جانبا الحديث عن النزعة النفسانية ، ولنتحدث بالأحرى عن نوع من « التكيف » فالمهم اجمالا هو الكيفية التى يؤثر بها الفكر المسلم به فى الأوساط العلمية على السلوك المنطقى الذى ينتهجه الباحث ، أى بعبارة أخرى هو ثقل المعرفة المكتسبة •

وتمس المشكلة الثانية قدرة المصادر الحديثة على مساعدتنا فى ازالة الغموض الذى يكتنف الحجج المنطقية التى لعلها قادت الباحث الى اكتشافه • ويجب علينا فى هذا الخصوص أن نوضح بالضبط فى أى شيء يمكن للمؤلفات « المدرسية » (نسبة الى المدارس الفلسفية فى العصر الوسيط حيث سادت فلسفة أرسطو — المترجم) والحوليات ، والتقارير ، و « الموجزات » ، وكتب الفلك « المجسطية » أن تمنحنا معرفة مفيدة فى حقيقة المجهود العلمى • هذا النوع من الوثائق يفيدنا فى الكثير من الأحيان لنفهم الخلفية ، أى حالة المعتقدات العلمية فى لحظة معينة ، وبالتالى مجموعة المسلمات المنطقية التى يمكن أن تؤثر فى فكر الباحث فى لحظة شروعه فى القيام بمجهود يؤدى الى اكتشاف ما • ولهذا السبب فان المنطقى الذى يهتم بالمجهود العلمى لا يمكنه أن يهمل هذه المصادر الحديثة ، أو يكتفى بها ، اذ لا يمكنها أن تضعه على الطريق الذى يؤدى به الى الموضوع الذى يبحث فيه •

مثال ذلك أن تاريخا لكيمياء الاحتراق يمكن بناؤه حول فكرة الاكسجين دون أن ترد فى أية لحظة اشارة الى « اللاهوب » (العنصر الملتهب) أو الى دور « ذلك العنصر المزعوم الذى ينتج الاحتراق اذا اتحد مع أى جسم » حسب اعتقاد الكيمياء القديمة (هاتزفلد ، ودارمستتر) ، وعلى العكس من ذلك اذا أراد هذا المنطقى أن يفهم منطق الأسلوب العلمى فى عصر أدى فيه هذا الأسلوب الى ترك فكرة « العنصر الملتهب » التى كانت أثيرة فيما مضى ، وتبنى فكرة الأكسجين ، فانه يبدو أنه يحتاج الى مصادر تظهر الروح العلمية وهى تتنازع لا مع معرفة مستمدة من كتب علمية ، وانما مع الفهم المشوش لفكرة جديدة لم يزل يرفض التسليم بها اذ تبدو له غير مقبولة •

ولكن أين يمكن العثور على مثل هذه المصادر ؟ فالعلماء لا يواظبون على تدوين مذكرات خاصة يمكن بواسطتها تتبع مجهودهم الفكرى الخفى العميق طوال قيامهم باجراء بحثهم ، منذ الفكرة الأولى التى اعتقدوا بها حتى اقتناعهم النهائى ، خلال كل الاعتبارات المنطقية التى أوحت بهذا التغيير الفجائى فى وجهة النظر •

ويقدم لنا ميرسون تفسيرا معقولا لأسباب هذا الانقلاب : « اذا أردنا معرفة البواعث التى انقاد لها العالم وهو يؤدى براهينه ، كما فعل ، فانه من المفيد الاستماع بوضوح الى ما سوف يقدمه من حجج حين يقتضيه الأمر أن يدافع عن طريقته فى الاستدلال اذا ما صارت هذه الطريقة عرضة للمناقضات والمهاجمات : وهذا ما يحدث بالذات فى المجادلات التى تثور فى المؤتمرات العلمية مثل مؤتمرات سولناى التى

زودتنا محاضرها ، كما يعرف القراء بمعلومات قيمة للغاية » • وفى مثل هذه الحالة يجتهد العـــالم الذى يعتقد أن لديه فكرة جديدة فى أن يقنع بعض نظرائه الذين يماثلونه فى حالته الفكرية ، وذلك قبل أن يصل الى ختام بحثه ــ أى يقنع اشخاصا لن يفوتهم أن يتحروا عما اذا كان قد تصدى لفروض أخرى ، وعن الاسباب التى من أجلها بدا له استبعاد هذه الفروض بعد أن يكون قد درسها جيدا • انه قد اقتنع بعمله تمام الاقتناع ، ولكن بقى عليه أن يقنع به هؤلاء • ويبعث كل شيء على الاعتقاد بأن الاعتراضات التى سوف تبدى له هى نفس الاعتراضات التى تبدو نخاطره ، فكان لزاما عليه أن يتوقعها ويتداركها باعتبارها بدائل متعاقبة ، بحيث يمكننا أن نفكر فى أن مسلكه « الديالكتيكى » خلال ندوة علمية يصور بطريقة ما المراحل التى لابد أنه قد مر بها حتى وصل الى اختراعه •

ومع ذلك فان اجابة ميرسون لا ترضينا الا قليلا ، ليس فقط لأنه يستغل التقرير الخاص بمداولات مؤتمر سولفاى لغايات منطقية وسيكولوجية خاصه به ، أو لأن أمثال هذا التقرير قلما تكون صادقة فيما يختص بادارة مناقشة شفهية ، وهى على أية حال أقل جدوى من الكراسة الخصوصية التى يود المنطقى أن يتسنى له الرجوع اليها ليتابع مســـار الفكر فى بحثه ، وانما بالأحـرى لأن ميرسن ، وقد اشترك بنفسه فى جلسات المؤتمر ، كان ثمة طرفا وحكما • ومع ذلك فان رأيه جدير بالاعتبــار بالنسبة الى مؤلفات من قبيل : « مقالات فى علمين جديدين » لجاليليو ، أو « بحث هارفى » **بشأن حركات القلب** ، أو « أصل الأنواع » لشارل دارون ، أى كلما عرف المؤلف أنه يقدم نظريات ثورية ، ومن ثم تحدثه نفسه لا أن يؤدى فقط دوره فى الدفاع عن آرائه الجديدة ، وانما يؤدى أيضـــا دور « محامى الشيطان » (أى يدافع عن قضية خاسرة ــ المترجم) بالتصدى لكل الانتقادات التى لا يفوت زملاؤه أن يوجهوها اليه اذا اتيحت لهم الفرصة فى ندوة ، وفتح باب المناقشة ، وطال الجدل • هذا الدور يميل المؤلف فى مثل هذا النوع من المؤلفات الى الاضطلاع به ، وخاصة بالنسبة الى طبيعة أبحاثه وتأثيرها على معتقداته السابقة ، ويكون مستعدا للدفاع عنه من الوجهتين السيكولوجية والمنطقية فى مواجهة الكافة مثلما يضطلع بهذا الدور زملاؤه فى مواجهته هو • وانه ليعرف حالتهم الفكرية معرفة جيدة لأنه جعــل نفســه فى مثل موقفهم ، كمــا أنه يعرف مطالبهم لأنه خبر على وجه التقريب شكوكهم وهواجسهم فى شأن مزايا اكتشافه •

وانا لنأمل أن تكفى بضع الملاحظات الأولية التى قرأتموها آنفا لطمأنة أولئك الذين يرتابون فى « السيكولوجزم » ، والذين يخشـــون ألا يكون التحليل الآتى للأسلوب المنطقى الذى اتبعه جاليليو فى ثلاثة من الاكتشافات المنسوبة اليه معتمدا على مصـــادر كافية • ســوف نتحدث عن قانون القصــور الذاتى ، وقانون سقوط الأجسام ، وقانون المسار المكافى للقذيفة • وليس كتاب « مقالات فى العلوم الجديدة » مفكرة خاصة يمكن بفضل سياقها الزمنى تتبع كل مراحل التفكير العلمى الذى أدى

الى هذه الاكتشافات الثلاثة ، كما أنه ليس تقريرا يسجل مناقشات مؤتمر علمى ٠ ومع ذلك فانى آمل أن أبين أن عناصر الايضـــاح التى ضمنها جاليليو « مقالاته » باعتبارها أحسن العناصر الكفيلة باقناع أقرانه بفضـل قوة منطقها ، لم تكن على الأرجح تشغل فى تفكيره حججا جمعت فيما بعد لمتطلبات القضية ، وانما هى اختيار مقصـور بين العناصر التى قدر أنها الأكثر أهميـة ، من الوجهـة المنطقية ، بين كل العناصر التى ربما لعبت دورا حاسـما فى مجهوده ، وانتهت الى تكوين عقيدته ٠ وعلى هذا يمكن القول بأن « مقالات » جاليليو شهادة معقولة ومقبولة بخصـــوص منطق اكتشاف علمى ، كمـــا قد يبدو فى عينى رجل مثل ميرسن أعمال مؤتمر بخصوص عالم مشتغل بفلسفة العلوم يقوم بتحليل واقعى لمراحل ثورة علمية توضح قوله وتدعم مفهوما أكثر معيارية أو تعليمية منه موضوعية ٠ والشىء الذى يستحق بنوع خاص أن يؤخذ هنا بعين الاعتبار هو الطبيعة الثورية لتغيير تحاول مؤلفات من قبيـــل « مقالات » جاليليو أن تلفت الأنظـار اليه : فالعناصر التى تطرح فى المناقشة للتأكيد على ضرورة مثل هـذه الثورة تكشف لنا عن الخصـائص المنطقية للاكتشاف أكثر مما تكشفها اسهامات الباحثين الذين اذا اقترحوا أحيانا بعض الآراء الجديدة فى ندوة ما ، فانهم قلما اتيحت لهم فرصـة للدفاع فيها من أجـل اقرار مفاهيم ثورية ٠

وتقدم دينامية اكتشافات من قبيل الاكتشافات التى أوردها جاليليو فى كتابه « مقالات فى العلوم الجديدة » أهمية أخرى للمنطقى ، ينبغى لنا العودة الى الحديث عنها ٠ فهناك اكتشافات طارئة تحدث عرضـا حين لا يكون هناك من يبحث عنها ، وتتجلى كأحداث فجائية لم يكن هناك أى مسعى منهاجى يسمح بالتنبؤ بحدوثها ، اما لأن المشكلة لاتهم أحدا ، واما لأنه لم يكن فى الجو أى فرض يوجه الأبحاث أو يملى الحركات التى تؤدى الى الاكتشاف ٠

تلك هى حالة اكتشاف هرشـــل لكوكب أورانوس : فقد كان يجرى كشفا روتينيا فى زاوية ما من خريطة السماء تظهر عليها بوضوح مواقع النجوم وأسماؤها، واذا به يقع على هذا الكوكب ، ويتبين له أنه غير مثبت فى سجل الكواكب ٠ مثل هذا النوع من الاكتشاف لبس له أية أهمية منطقية ، خارج الحقيقة البسيطة التى تتمثل فى أن أى مراقب آخر غير فلكى يكتشف الأدرانوس لا يسعه أن يلحظ أنه كوكب لم يشتبه أحد من قبل فى وجوده ٠ ان وصف هذا الحديث بأنه اكتشـاف « علمى » يعنى القول بأنه منســوب الى « عالم » ولكنه لايعرفنا بشىء عن السعى الحقيقى ، من حيث ان الحدث الذى كشف لهرشل وجود اورانوس فى هذا الجزء من الكون لا يتضمن أية معالجة منطقية ٠ وعلى العكس من ذلك فان أغلبية الاكتشافات العلمية تقتضى اللجـوء الى معرفة مكتسبة من قبل لتعزيز فرض يحتمل أن يحل مشكلة معينة ، ثم اللجوء بعد ذلك الى التجربة لاثبات أن الفرض المختار يتيح بالفعل حل المشكلة المقصودة ٠ واختيار الفرض يحدد فى أغلب الأحوال اختيار التجربة أو التجارب التى يقدر أنها ضرورية لاختبار صحة الفرض ، وكذا سلوك الباحث وطبيعة

تصرفاته (مثال ذلك : التوجه الى بيرو لقياس خط من خطوط العرض ، أو اختيار المـــواد والآلات اللازمة لتحقيق تجربة معينة) ، وذلك حتى يتاح له جمع ظروف البرهان التجريبي التى يحتاج اليها لتعزيز فرضه • وعلى ذلك اذا كان هناك اجراء يمكن أن نسميه « منطق الاكتشاف » ، فان أمثلة الاكتشاف العلمى الذى يصاغ فيه سلوك الباحث تبعا لفرض معين ، هــذه الأمثلة تشكل أكثر النماذج ملاءمة لدراسة الجوانب الخارجية لهذا المنطق • والقوانين الديناميكية الثلاثة التى يقترحها جاليليو فى كتابه « مقالات تتعلق بعلمين جديدين » هى نماذج لهذا النوع ، وتهم بهذه الصفة العالم بالمنطق بنوع خاص •

السياق التاريخى لفكر جاليليو وتطوره

يمكن تلخيص الفكرة الذائعــة بعامة لدى الفيزيائيين عن حركات الأجســـام الأرضية أو « تحت القمرية » فى العصر الذى ولد فيه جاليليو وكبر كما يلى : الجسم الأرضى اما (١) يتحرك من أسفل الى أعلى ، أو من أعلى الى أسفل تبعا للعنصر الغالب فى تكوينه : التراب ، أو الهواء ، أو النار ، أو الماء ، واما (٢) يتحرك بكيفية أخرى بتأثير قوة خارجية صادرة من جســـم آخر تزوده بهـــذه الحركة أو تنقلها اليه ، واما (٣) يبقى ساكنا ، شاغلا مكانا مخصصا له فى الفضاء حسب تكوينه المادى ، اللهم الا اذا منع من الوصول الى هذا المكان بفعل قوة خارجية • والأمثلة المقابلة لكل حالة من هذه الحالات هى : (١) سلوك حجر غير ممســـوك ، (٢) ســـهم منطلق ، (٣) الأرض كلها ، وهى ثابتة لا تتحرك فى مركز الكون ، أو حجر ساكن على سطح الأرض •

ويعمل كل بحث فى علم الديناميكا على اعداد نظرية مقبولة عن «القوة الكامنة» وعن طريقة انتقال « القوة الخارجية » أو القوة « المتســلطة » • مثال ذلك أن بعض الأجسام كاللهب الذى يرتفع ، أو الحجر الذى يسقط تبدى ميلا كامنا فيها الى أن تلحق فى الفضاء بالموضع الذى عينته لها طبيعتها المادية حيث تستقر وتهدأ بطبيعة الحال اذا وصلت اليها • فالحجر يسقط فى خط مستقيم مهما كانت الكيفية التى قذف بها ، وذلك بموجب تلك النزعة الكامنة فيه ، غير أن ضربة صائبة قد توقفه أثناء سقوطه أو تجعله يصعد الى أعلى ، فتقلب مؤقتا النزعة الطبيعية التى تتغلب مع ذلك بالتالى ، فتبطىء أولا سرعة الحجر فى صعوده ، ثم تجعله يسقط ثانية الى الأرض • وفيما يختص بالسهم وسواه من المقذوفات المماثلة ، كان السؤال الذى يطرح بشأنها هو : ما الذى يبقى السهم متحركا بعد أن ينفصل عن وتر القوس أو عن أية آلة أخرى تعطيه الدفعة الأولى ؟ هل يحمل شحنة من القوة الموجهة تنفذ بالتدريج ؟ أنظن أن الفضاء ملىء بعنصر دقيق شفاف ينحيه المقذوف من طريقه وهو منطلق مثلما تشــق سكة المحراث التربة ، ثم ينغلق للحال وراءه ، ويكسبه فى الوقت ذاته دوافع جديدة تزداد ضعفا بالتدريج حتى تتغلب نزعة الجسم المقذوف الطبيعية وتعيده فى اتجاهه نحو الأرض ؟

ولعل القارىء يعجب لمثل هذه الآراء ، اما لأنه يستخف بها ، أو لأنه يعرف أنه قد انقضى زمنها • غير أن المنطقى لن يتوقف ازاء هذه الاعتبارات لأنه يعرف أن هذا الأسلوب فى التفكير عند جاليليو الشاب لابد أن يبدو طبيعيا ، وأن فكرة هدم هذه الاعتبارات لم تخطر له قبل أن يجرى اكتشافاته • ان غرابتهـا فى عينى العصرى لتعنى ببساطة أنه خاضع لنمط آخر من « الاتجاه المذهبى » أو « التسمم الفكرى » فى موضوع العلم ، نمط من الفكر يطيل وينقل ليس فقط صـدى الأبحاث الثورية التى أجراها جاليليو فى موضوع الديناميكا ، ولكن أيضا تأثير نيوتن ونظريته الخاصة بالجاذبية العامة • وما ينبغى لنا أن نستخلصه من هذه الخلفية الثقافية هو أن علماء الفيزياء فى ذلك العصر ، وكذا جاليليو نفسه فى شبابه كانوا يهتمون بنوع خاص بطبيعة القوى التى تنشط حركة الأجسام الأرضية ، ومصدرها ، وأسلوب عملها •

على أن ما نلاحظه من العبـارات الأولى فى « مقالات » جاليليو هو أنه يرفض باصرار كل بحث واستقصاء فى الطبيعة الكامنـة للقوى العاملة التى تتسبب فى سقوط حجر القى ، أو انطلاق مقذوف يتابع مساره فى الجو ، لأن غرضه ، كما يقوله ليس الا أن يتعرف على ما هو منتظم فى حركات الأجسـام السـاقطة سقوطا حرا ، وحركات المقذوفات مهما كان سببها • وظن بعض المفسرين أنهم يطالعون فى هـذا التصريح بيانا يستهدف القـول بأن مهمة العلم هى البحث عن « كيفية » حدوث الظواهر ، لا « السبب » فى حدوثها ، ويبدو أنه من الأصح تفسيره على أنه يعنى فقط أن جاليليو كان يخامره بعض الشـكوك من ناحية نظريات القوى الكامنة أو الخارجية التى كانت شائعة فى عصره ، وأنه حكم بأنها على الأقل سابقة لأوانها •

ونحن اذا صرفنـا النظر عن طبيعة القوى التى تسبب الحركة ، بقى فى كل الأمثلة الخاصة بالأجسام المتحركة ثلاثة متغيرات : السرعة ، والزمن ، والمسـافة المقطوعة ، نرمز اليها على التوالى بالحروف ع ، ن ف • وأبسط معادلة يمكن كتابتها هى تلك التى تربط المسافة المقطوعة فى الحيز المكانى بحاصـل ضرب الزمن فى السرعة فى حالة أى جسم يتحرك بسرعة منتظمة طوال فترة معينـة من الزمن : ف = ع ن •

ورغم أن هـذه المعـادلة تعبر عن قانون يسرى على كل جسـم يتحرك بسرعة منتظمة ، فانه ينبغى ملاحظـة أنه يظل صحيحا حتى اذا لم تكشف لنا التجربة عن أية ظاهرة قريبة الشبه من حالة حركة منتظمة السرعة فى عالم الحقائق الطبيعية • بعبارة أخرى نقول انها تفصح عن بديهية من بديهيات الديناميكا العقلانية ، تظـل صحيحة دون حاجة الى تحقيق تجريبى مستحيل ، لأن وضـوحها ينتج عن نفس تعريف الأجسام المتحركة بسرعة ثابتة • وسوف نرى أيضا أن المعادلة لها أهميتها من الوجهة المنطقية بتماثلها مع المعادلة التى تجعل مساحة المستطيل تساوى حاصل ضرب القاعدة فى الارتفاع •

معنى هذا على الأخص أن جاليليو كان فى وسعه أن يعتمد على تفاهم ضمنى

بينه وبين زملائه الذين قد يدركون على الفور أن المستطيل يتواءم مع الرسم البيانى لظاهرة ، تتمثل فيها المسافة المقطوعة بمساحة المستطيل ، والزمن بطول المستطيل ، والسرعة بعرضه ٠

وبالنسبة الى جاليليو وكل من سبقوه فى دراسة الحركة ، لم تكن نسبة المسافة الى السرعة والزمن فى حالة الجسم الذى يتحرك بسرعة ثابتة تمثل أية مشكلة ٠ غير أن المسألة التالية بشأن معرفة نسبة المسافة الى السرعة والزمن فى حالة أجسام تتحرك فى فترات زمنية محددة « بعجلة منتظمة » ابتداء من حالة السكون ، كانت ولم تزل غير محققة من الناحية الرياضية قبل أن يعالجها جاليليو بفكره ، أما لأن المشكلة لم تطرح بالمرة من قبل بهذه الحدود على مستوى علم الفيزياء ، واما لأن علماء الرياضة لم ينتبهوا اليها لعدم وجود أى تطبيق عملى لها ٠ ولم يكن الأمر يتعلق فقط بايجاد صيغة تعادل فى بساطتها الجميلة المعادلة ف = ع ن ، وانما أيضا المشكلة من مشاكل الفيزياء العملية ، قابلة للتطبيق لأن الأجسام الساقطة سقوطا حرا (ذاتيا) تبدو كأنها تسلك سلوك الأجسام المتحركة بعجلة ثابتة الى ما لا نهاية ٠

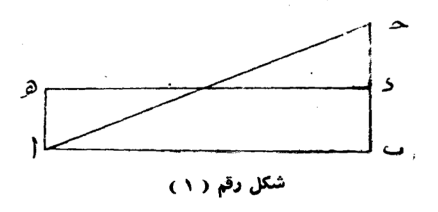
ويبدأ جاليليو بتعريف فكرة « العجلة المنتظمة » فهو يعرف الجسم المتحرك بعجلة منتظمة بأنه جسم يخضع لسلسلة من الزيادات المنتظمة فى السرعة فى أزمنة متساوية ٠ هذا التعريف لاعيب فيه من الوجهة التحليلية ٠ وقد تكون ثمة أجسام ساقطة سقوطا حرا يأمل جاليليو أن يفهم سلوكها ، وهى ليست أجساما تتحرك بعجلة منتظمة ــ ولكن اذا كانت بالصدفة كذلك ، فانه يجب حسب التعريف المذكور أن تكون أيضا أجساما تخضع لسلسلة من الزيادات المنتظمة فى السرعة فى أزمنة متساوية ٠

ومع أن جاليليو لا يباشر عمله للحال على هـذا المنوال ، فانه من الأوفق فى بحثنا هذا أن ننتقل فورا الى أولى نظرياته التى شرحها :

النظرية الأولى : الزمن الذى يقطع خلاله جسم متحرك مسافة معينة ابتداء من حالة السكون ، وبعجلة ثابتة ، يساوى الزمن الذى يقطع خلاله الجسم نفسه المسافة نفسها بحركة منتظمة وسرعة تسـاوى نصف آخر وأكبر سرعة وصل اليها خلال الحركة ذات العجلة الثابتة ٠

هذا الفرض ذو أهمية من الوجهة المنطقية ، بسبب التماثل الهندسى بينه وبين المعادلة ف = ع ن السابق ذكرها والتى كان جاليليو يأمل بالتأكيد أن يجد تطبيقا لها فى هذا الصدد ٠ ويساعدنا هذا الفرض على فهم أحد المصادر المنطقية المحتملة للفرض الذى طرأ على خاطره ، والذى ما أن تأكد بالتجربة حتى أصبح قانون سقوط الأجسام ٠ بعبارة أخرى ، قد نميل الى أن نرى فى ذلك بحثا يجريه عالم رياضى

يطرح مشكلة هندسية بحتة ، بغض النظر عن أى تطبيق فيزيائى لاقتراحه : فثمة مستطيل ومثلث قائم الزاوية يشترك بأحد أضلاعه مع المستطيل ويساويه فى المساحة · والرسم الذى يستجيب لهذه المعطيات (الرسم رقم ١) يعرض ضلعا مشتركا أ ب يعادل اسقاط الأزمنة المتساوية على الاحداثى السينى ، والوتر ا حـ يمثل الزيادة الثابتة فى السرعة ، والارتفاع ب حـ ويساوى ضعف ضلع المستطيل ب د يمثل السرعة القصوى التى بلغها الجسم فى نقطة معينة · من السهل عندئذ اثبات أن هذه المساحات التى تمثل المسافة المقطوعة متساوية بالضرورة ·

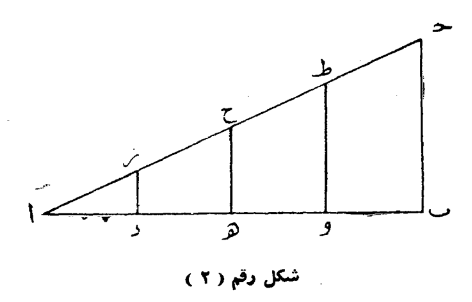


شكل رقم (١)

والمرحلة الحاسمة التى تم تحقيقها هنا هى تلك التى تتيح القول بأن مساحة المثلث القائم الزاوية يمكن أن تمثل المسافة التى قطعها جسم متحرك بعجلة ثابتة فى كل نقطة من مساره ، كما أن مساحة المستطيل تمثل المسافة التى قطعها جسم متحرك بحركة منتظمة · غير أنه يتبين أن التماثل الأساسى أكثر أهمية كما يتضح من المرحلة التالية فى عمل جاليليو ·

النظرية الثانية : اذا سقط جسم مبتدئا من وضع السكون ومتحركا بعجلة ثابتة ، فان المسافات التى يقطعها فى أزمنة ما تتناسب فيما بينها بقدر ضعف الأزمنة ، أى بمقدار مربعات هذه الأزمنة ·

وهنا أيضا ، لابد أن يؤدى التماثل الهندسى عند تطبيقه حرفيا الى اقتناع معاصرى جاليليو ، بدقته الرياضية : فمساحات المثلثات المتشابهة تتناسب فيما بينها بمقدار مربع أضلاعها المتقابلة ، واذا فرضنا أن هذه الأضلاع تمثل الأزمنة المقابلة لها ، فانه ينتج من ذلك أن المسافات التى تمثلها المساحات تتناسب فيما بينها بمقدار مربعات هذه الأزمنة ·



شكل رقم (٢)

فاذا نحن سلمنا بأن هذه النظرية الثانية هى قانون سقوط الأجسام ، وهو القانون الذى نعرفه ، فمن الطبيعى أن القضية الســابق ذكرها انما هى افتراض يتعلق تماما بالاعتبارات الثلاثة الآتية : (١) أنه من الصــواب القول بأن القــوة ــ مهما كانت طبيعتها ــ التى تتسبب فى أن جسما لايمسكه أو يسنده شىء يشرع فى السقوط ، هذه القوة تستمر فى العمل ويبقى تأثيرها ثابتا طالما لاتصادف قوة أخرى تعترضها ، (٢) يمكن تعريف « العجلة المستمرة » طبقا لمعايير التحليل الدقيق، (٣) أننا نقبل نظريات الهندسة الاقليدية (نسبة الى اقليدس) المتعلقة بالبرهان ٠ ولا يذكر جاليليو سوى ظاهرة واحدة يبدو أنها تعزز الاعتبار الأول ، وهو أن جسما ساقطا من ارتفاع أكبر (ومن ثم يستغرق فى سقوطه زمنا أكبر) يغرز (فى الأرض) وتدا الى عمق أكبر من العمق الذى يغرز اليه الجسم نفسه الوتد اذا سقط من ارتفاع أقل ٠ بيد أن هذه هى الملاحة الوحيدة الى استخدام التجربة ، وهى فى ذاتها لا تبرر ما يؤكده الافتراض المذكور فى النظرية الثانيه أنه صحيح ٠ ونذكر أيضــا بهذه المناسبة أن جاليليو ينوه بأن التجربة المذكورة جعلته يظن فى البداية أن السرعات تتغير تغيرا طرديا مع ارتفاع السقوط فى حالة الجسم الساقط سقوطا ذاتيا ، بحيث تكون السرعة عند أية نقطة من نقط السقوط ضعفين مقابل ضعفى المسافة ، وثلاثة أضعاف مقابل ثلاثة أضعاف المسافة ، وهكذا دواليك ٠٠٠ هــذه الفكرة هى على النقيض تماما من مفهوم عجلة مستمرة مرتبطة بفعل قوة تظل ثابتة فى ذاتهــا ٠ وليس فى هذا الأمر أى نوع من الاستعانة بالتجربة ، من النمط الذى يمكن أن يقال انه يشكل « تحقيقا » لفرض ما ٠ هذه الملاحظة ، فى الحالة التى نحن بصــددها انما تعبر عن أمل : الأمــل الذى كان يراود جاليليو حين واجهته التجربة ، وكان فرضه حتى ذلك الحين قائما على الحقيقة الرياضية وحدها ، الأمل فى أن تتضح صحة هذا الفرض بالحقيقة الواقعة ٠

نضيف أن الاستعانة بالتجربة أمر عسير فى حالة تطبيق نظرية جاليليو على

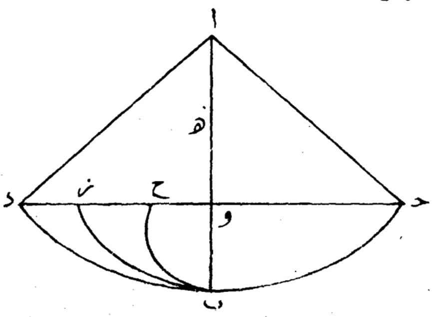
سلوك جسم « ساقط سقوطا ذاتيا » حين تكون ظروف سقوطه غير مرتبطة فرضا بالأسباب التى أدت فى البداية الى سقوطه ، أى الظروف الأولى التى جعلت قوى أخرى مجهولة تتدخل فى الموضوع ، كالريح ، أو حالة الجو ، أو الاحتكاك بأجسام أخرى مما يتعين صرف النظر عنها • ولكن كيف نحذف هذه العوامل ؟ فلم تكن مضخة تفريغ الهواء قد عرفت بعد ، وكان من النظريات الأثيرة فى الفيزياء فى ذلك الزمان ، بخصوص الأفكار السابق ذكرها بشأن حركة المقذوفات ، نظرية الفضاء « الملء » الذى ليس به أى انقطاع طبيعى (الطبيعة تفزع من الفراغ) • فضلا عن ذلك فان الحصى الساقطة من مرتفع ما ، سواء تدخل فى سقوطها الأحوال الجوية أو لم تتدخل ، تسقط بسرعة كبيرة لا يتسنى معها تقدير الزمن الذى تستغرقه فى قطع مسافة ما بدرجة كافية من الدقة ، اذا أخذنا فى الاعتبار الآلات التى كانت متاحة فى ذاك الزمان •

وكان جواب جاليليو على مثل هذه الاعتراضات مثالا تقليديا للتجربة المباشرة وغير المباشرة ، يستهدف اثبات أن عدم دقة التجربة ليس من شأنه أن يعيب فرضا لم يزل التحقق من صحته فى ظروف مثالية أمرا غير ميسور حتى ولو كانت قوة الحدس تنوب عن البرهان الدامغ المتعذر الحصول عليه • من ذلك مثلا أنه يستبدل بملاحظة سقوط الأجسام على المستوى الرأسى ، ملاحظة تدحرج الكريات على مستوى مائل ، تبعا للمبدأ الذى يقرر أن هذه الكريات لابد أن تكتسب القوة البدائية التى تحركها ، والقوة التى تكسبها عجلة مستمرة بنفس الكيفية ، وبتأثير نفس القوة الافتراضية التى تدفع جسما الى السقوط سقوطا ذاتيا عندما نكف عن الامساك به • وتتغير زاوية المستوى المائل تبعا لمعدلات الزيادة المفترضة فى السرعة ، على مسافات متساوية وفى أزمنة متساوية ، فى حالة قوة ثابتة مسئولة عن هذه الزيادة • بعبارة أخرى ، في مقدور القائم بالتجربة أن يبطىء حسب رغبته حركة الجسم على المستوى المائل ، وذلك بانقاص درجة الميل ، دون أن تتغير النسب بين المسافات المقطوعة مهما كانت الزاوية ، وذلك لتحقيق الفرض فى الحالة المثالية ، حالة السقوط الذاتى على مستوى رأسى •

وثمة مثال آخر يزودنا به نوع التجارب التى يستعين بها جاليليو لاثبات قانون « المقصور الذاتى » الذى يتضمنه افتراضه • هذا الافتراض يقرر أن كل جسم خاضع للتأثير المستمر لقوة واحدة تسببت من البداية فى سقوطه رأسيا ، أو على طول مستوى مائل ، لايمكن أن يتلقى سوى زيادة ثابتة فى السرعة ، تبعا للزمن والمسافة المقطوعة ، طالما تستمر القوة فى التأثير عليه • وعلى ذلك لا يمكن أن يفقد الجسم أو يكتسب سرعة بالنسبة الى السرعة التى اكتسبها والتى يكتفى بالاحتفاظ بها ، بحيث أنه اذا انقطعت القوة الابتدائية المستمرة فجأة ، يستمر الجسم المتحرك

بالضرورة في اندفاعه بسرعة واتجاه ثابت كأن لم يحدث شيء ٠ ومن ناحية هذا الافتراض الأساسى الذى يضم قانون سقوط الأجسام وفكرة القصور الذاتى ، فان التجارب التى يقترحها جاليليو على ذكاء القارىء ، أو يدعوه فقط الى تصورها جديرة بالاعتمام ، ولسنا أول من استرعى الأنظار اليها ٠

لنتصور أولا خيطا (الرسم رقم ٣) معلقا بمسمار فى نقطة أ ، وأن كرة من رصاص معلقة من الطرف الآخر للخيط عند نقطة ب ٠ نرسم على الحائط الرأسية التى تمثل المستوى الذى يضم المستقيم أ ب خطا أفقيا د جـ يقطع المستقيم أ ب بزاوية قائمة ويمثل وتر القوس جـ ب د ٠ الذى ترسمه كرة الرصاص اذا تركت تتذبذب٠ لنتصور الآن مسمارا مغروزا فى النقطة هـ على المستقيم أ ب على الحائط الرأسية بحيث أنه حين نجذب كرة الرصاص نحو النقطة جـ ثم نتركها فان الخيط يحتجز عند النقطة هـ ، ويتغير القوس الذى ترسمه الكرة عند النقطة ب من ب د الى ب ز المقابل لنصف القطر الجديد ب هـ ٠ فاذا نقلنا الآن المسمار وغرزناه فى النقطة و ، فان القوس الذى ترسمه الكرة ابتداء من النقطة ب يتعدل من ب ز الى ب ح تبعا لنصف القطر الجديد ب و ٠ وأخيرا اذا وضعنا مسمارا آخر فى النقطة ح فان الخيط الذى يعترضه المسمار عندئذ يلتف حول هذا المسمار ٠ ويستنتج جاليليو أن النقط و ، ز ، ح الموجودة على هذا النحو على خط واحد تثبت أن حركة كرة الرصاص عند النقطة ب فى كل من هذه التجارب المتوالية تدفع الجسم المتحرك الى أعلى وفقا لقوس ذى انحناء معين طالما أن القوس لا يتجاوز الارتفاع الذى تسقط عنده الكرة وهى تهبط ٠ ومن ثم يقصد جاليليو أن يثبت أن الكريات التى تتدحرج على مستويات مائلة بدرجات مختلفة تصل الى نفس السرعة فى نهاية الشوط مهما كان ميل المستوى اذا سقطت من نفس الارتفاع ، كذلك يثبت أن القوة التى تتيح لها بلوغ هذه السرعة القصوى هى نفس القوة التى سوف تنقص هذه السرعة حتى الصفر عندما تعود فترتقى المنحدر المقابل الى الارتفاع نفسه ٠



شكل رقم (٥)

ومزية استخدام البندول لتجربة من هذا النوع بدلا من سطوح متقابلة ذات ارتفاع واحد هي أنه يتيح لجاليليو استبعاد بعض الشوائب من قبيل تلك التي قد تؤدي ، في مجال العجلة (التسارع) الى حدوث طفرة عند نقطة تقاطع السطحين المائلين · وبغض النظر عن مقاومة الهواء ، التي تفسر في نظر جاليليو أن كرة البندول لا تصعد حتى النقط د ، ز ، ح تماما ، فانه يمكن بذلك أن يقنع نفســه أن السرعة التي تكتسبها الكرة عند النقطة ب سوف تحتفظ الكرة بها لو لم يكن هناك تأثير مضاد ومستمر للقوة نفسها على الكرة حين تنحرف عن مسارها وتصعد نحو النقط د ، أو ز ، أو ح ·

وثمة اعتبارات مماثلة ، تلك التي توحي باستدلال جاليليو في خصوص كرة صغيرة تترك السطح المائل وتواصل تدحرجها على سطح مستو · فاذا فرضنا سطحا أملس للغاية وممتدا الى ما لا نهاية ، فأن سرعة الكرة واندفاعها على خط مستقيم · مع عمل حساب للطفرة (والكبح نتيجة للمرور من فوق سطح الى آخر) سوف تبقى ثابتة اذا أستبعدنا تأثير مقاومة الهواء لحركة الكرة · ولم يستطع جاليليو أن يحذف مقاومة الهواء ، كما أن الســطوح الملســاء تماما والممتدة الى ما لا نهاية لم يكن لها وجود الا في عالم الهندسة الاقليدية · لذلك استعار جاليليو طرقا ملتوية،فاستغل بالكامل فكرة أن كمية التحرك(أو قوة الاندفاع)المتجمعة خلال السقوط على السطح المائل تغذي سرعة الكرة على مســافة متزايدة طولا ، وخط مستقيم ، على ســطح مستو ، مع استمرار ازالة أقل العيوب التي تشوب هذا الســطح أولا بأول وذلك بتقويمه وصــقله ، وتكون المماثلة مع حركة البندول بأن نتصــور أن الكرة بعد أن تعبر القوس من نقطة جـ الى ب تنفصل من الخيط عند النقطة ب وتواصل مســيرتها على سطح أفقي مماس لقوس الدائرة عند النقطة ب ·

ونتيجة هذه التجارب الخيالية هي أن جاليليو أصبح من ذلك الحين مســتعدا لأن يتقبل ، ويحمل الآخرين على تقبل فكرة أن كرة صغيرة تتدحرج على سطح مائل تشكل تجربة حاسمة تتيح اثبات صحة فرضه الخاص بالعلاقة بين المســافات التي تقطعها أجسام ساقطة سقوطا ذاتيا في فترات زمنية متساوية · وليس في وسعه أن يستبعد عمليا تأثير القوى التي تعيق « التســارع » مثل مقاومة الهواء ، ولكنه يســتطيع على أكثر تقدير أن يقلل — لا أن يمحو بالكلية — تأثير القوى الاخرى ذات التأثيرات المماثلة ، مثل عدم انتظام سطوح المواد التي يستعملها · وأخيرا فانه من المستحيل عليه عمليا أن يتحقق من صحة فرضه بالنسبة الى أجسام ساقطة سقوطا ذاتيا في وضع رأسي · ومع ذلك فقد صار في وسعه أن يؤكد أنه اذا تحققت تجربته رغم كل ما يشوبها من عيوب بالنسبة الى أجسام ساقطة سقوطا ذاتيا ، مثل كريات تتدحرج على سطوح مائلة ، فان التجربة تصح من باب أولى في ظروف مثالية تسقط فيها الأجسام بنفس العجلة المنتظمة في فراغ تام ·

وفي داخل المخبر ، استعمل جاليليو لتجربته لوحة خشبية طولها عدة قامات (القامة مقياس يساوي ستة أقدام ، أو ١٫٩٤٩ مترا — المترجم) محفور بسطحها

وممتد بطولها قناة ملســاء مستقيمة • ولكل درجة من درجات ميل اللوحة ، حدد بعلامات حزها على اللوحة المسافات التى تتيح النظرية تحديدها تبعا لوحدة الزمن المختارة أو مضــاعفاتها لكرة من النحاس كاملة الاستدارة ، وفى كل مرة يتحقق بعناية من أن المســافات تختلف تبعا لمربعات الوحدات الزمنية • والمؤكد أن المنطق يظل فى شىء من الحيرة من هذه الناحية ، فلم يعد للمنطق الخالص مكانه فى هــذا الخصوص •

ويقوم جاليليو بعد ذلك بالبحث فى مسار المقذوف • ولم تعد الاجابة على هذا النوع من السؤال تتطلب أية استعانة بالتجربة ، وانما هى مجرد استنتاج اعتبارا من مبدأ القصور الذاتى وقانون سقوط الأجســام ، وقد أصبح لدى جاليليو برهان تجريبى مقنع يؤيدها • ويقرر قانون القصور الذاتى أنه اذا قذف جسم متحرك على سطح أفقى أزيل منه كل عائق ، فمن المؤكد أن يواصل الجســم حركته بانتظام الى الأبد على السطح نفسه اذا امتد السطح الى ما لا نهاية • ويؤكد لنا قانون ســقوط الأجسام أنه اذا انهارت دعامة السطح الأفقى فان « الجســم المتحرك الذى اعتقد أنه خاضع لجاذبية الأرض ، حين يصل الى نهاية المستوى ويستمر فى انطلاقته ، سوف يضيف الى حركته المنتظمة السابقة التى لا تتوقف الاتجاه الى أسفل بتأثير الجاذبية الأرضية » ، وتكون النتيجــة حركة مركبة من سرعتين واتجاهين فى آن واحــد : سرعة ثابتة لا يعوقها شىء تؤدى بالجسم المتحرك الى اجتياز مسافات متساوية فى فترات زمنية متســاوية على السطح الأفقى ، وعجلة منتظمة تحت تأثير قــوة ثابتة تجذب الجسم فى سقوطه تبعا لمسار تختلف مســافاته حسب مربعــات السرعات والنتيجة التى يسر جاليليو أن يعلن عنها فى صورة نظرية تتبدى فى العبارة الآتية :

النظرية الأولى : تتخذ القذيفة التى تدفعها حركة مركبة من حركة أفقية منتظمة وحركة معجلة طبيعية متجهة الى أسفل خلال تنقلها مسارا شبيها بالقطع المكافىء • استنتاج بحت من خلاصة ، اعتبارا من مقدمات ربما اعتبرها جاليليو حقيقية لأنهــا تأكدت فى نظره بالتجربة ـ خلاصة تفرض حقيقتها فى نظره على الواقع ، كما تفرضها الصحة المنطقية •

●● خاتمة

كانت عناصر معينة من النهج المنطقى كما يبــدو بوضوح حاســمة فى تحويل جاليليو الى الفكرة التى تقول بأن النظريات التى تسيطر على ميكانيكا عصره فى حاجة كبيرة الى التعديل ، وقد أوضحنا هذه العناصر فيما سبق • ومع ذلك فان ما يبدو جديرا بالتنويه بنوع خاص هو الارشادات التى يمــكن للمنطقى أن يستخلصها من النهج الجاليلى فى شأن العلاقات الخاصة جدا التى نكتشفها ثمة بين الرياضــة البحتة وملاحظة الظواهر وبين الدور الحاسم للتقليد العلمى فى اجراء الاكتشافات التى كان من شأنها مع ذلك أن تقلب هذا التقليد رأسا على عقب وتعدله • فعلماء الرياضــــة

الاغريق القدامى قد انتهوا بأعمالهم فى القطاعات المخروطية الى تعريف القطع الناقص (الأهليلمى) ، والقطع المكافىء دون أن يكتشفوا فيهما سوى طرفة رياضية ليس لها أى تطبيق عملى ، ولم يدر بخلدهم البتة أن صنع هذه الخطوط المقوسة سوف يفيد ذات يوم رجالا مثل كبلر أو جاليليو لدراسة بعض الظواهر الأساسية للتعرف على الطبيعة ، والتى كشفوا النقاب عنها خلال أبحـاث تجريبية استغرقتهم ، ويستتبع ذلك أيضا أن معايير المنفعة العملية التى تطبق تطبيقا دقيقا على توجيه البحث ، وكذا على اختيار ما يصح الاحتفاظ به ونقله فى التقاليد ، أو ما ينبغى تعلمه وتعليمه ، أو ما يتعين نبذه ونسيانه نهائيا ، هذه المعايير تهمل فى الكثير من الأحيان دور الكفاية أو الضلال بالنسبة الى آفاق المستقبل فى تحديد قواعد المعرفة ٠

فى « جمهـورية » أفلاطون ، يجيب سـقراط حين تحداه البعض أن يثبت أن رؤيته للمدنية المثالية رؤية حقيقية ، أن السمة المثالية لجمهوريته التى يتعذر بلوغها لا تزعجه لأن الحقيقة لها طبيعة خاصـة تقترب منها النظرية دائما أكثر مما تقترب منها الممارسـة العملية ٠ وليس فى المسـتطاع أن ننكر أن وجهة النظر هذه تنطبق بمثل هـذه القوة على طبيعـة الحقيقة العمليـة اذا تفكرنا فى المجهود التخيلى الذى يطلب الينا أمثال جاليليو أن نبذله من أجل انجاز تجارب لا يمكن بداهة القيام بها حتى تبلغ أقصى درجات الكمال الا فى الفكـر والخيال ٠ وفى المسـتطاع أن نذكر أمثلة أخرى لذلك فى تاريخ البحـث العلمى ، وبالأخص فى مجـال الرياضـيات ، حيث نرى فى الكثير من الأحيان الفكرة أو الصيغة تنبثق من التجريد البحت دون أية اشارة الى التجربة الى اليوم الذى أتاح فيه تطبيق الفكرة أو الصـيغة بصـورة عارضة على بعض الظواهر ادراك مداها العلمى ، واستخلاص معناها الحقيقى ٠ هذه الملاحظات جديرة بالتنويه من حيث أنها توضـح الدور الرئيسى للفرض فى مجال البحث العلمى ، وكل مـوارد المنطق ، والخيـال ، والتجربـة المتراكمة ، والمعارف الشديدة التنوع التى يجب تعبئتها خدمة للاختراع ٠

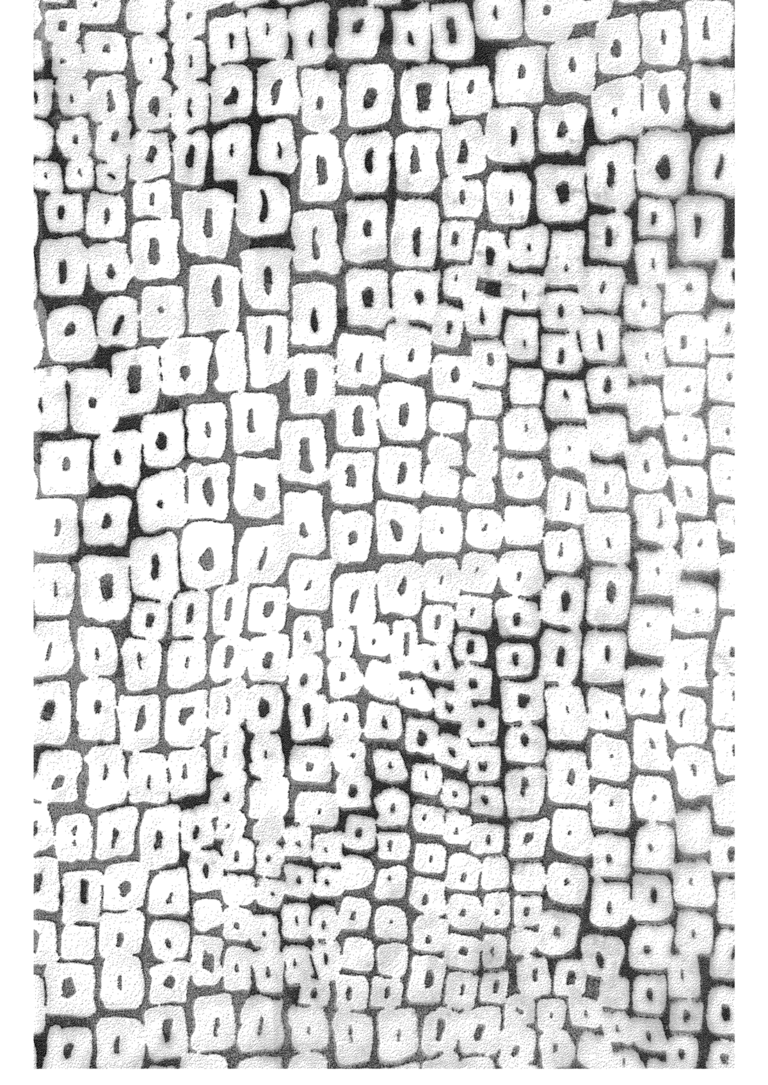
ولعل هنـاك أشياء كثيرة يمكن استخلاصها من التـاريخ الطبيعى للنشاط الفكرى لدى جاليليو فى خصوص الاكتشافات التى تحدثنا هنا عنها لو أن جاليليو قد دون مفكرات خاصة به بدلا من كتابه « مقالات فى علمين جديدين » ، ولا شـك أن العالم النفسى سـوف يجد فى مثل هذه المفكرات بعض الفائدة الهامة ٠ ولكنا لسنا نرى كيف يتأتى للمنطقى أن يستمد منها بعض الارشادات النافعة أو المختلفة اختلافا جوهريا عما يعرفه من قبل ٠

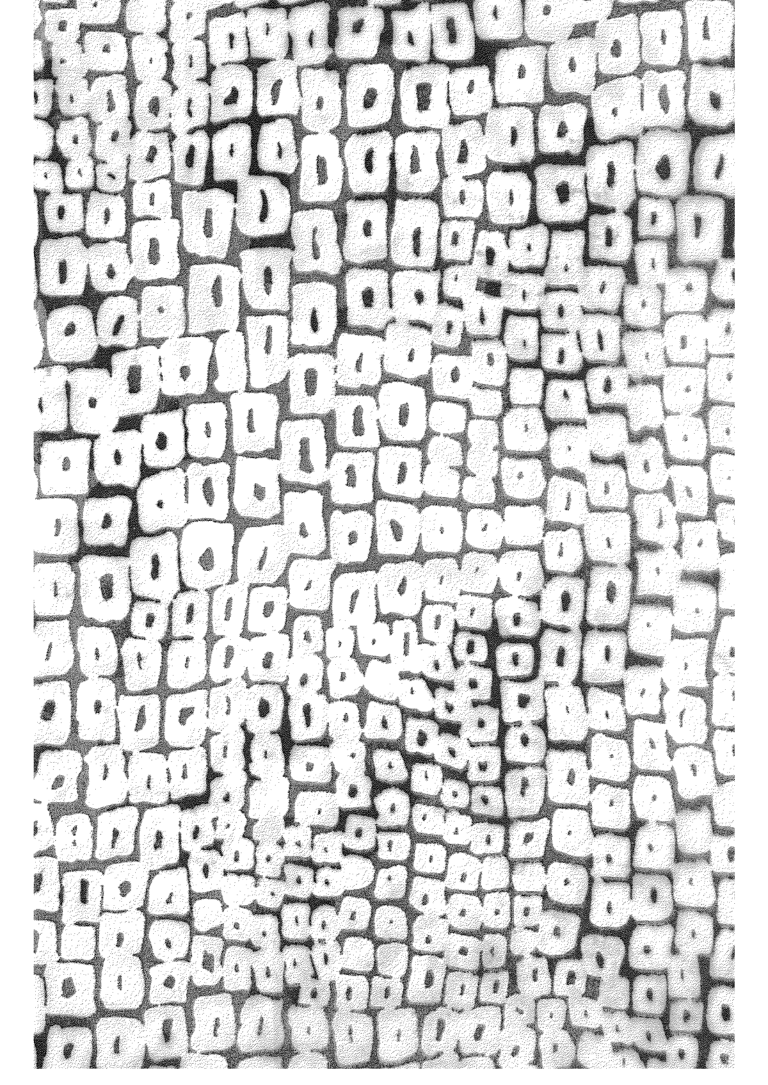
ثبت

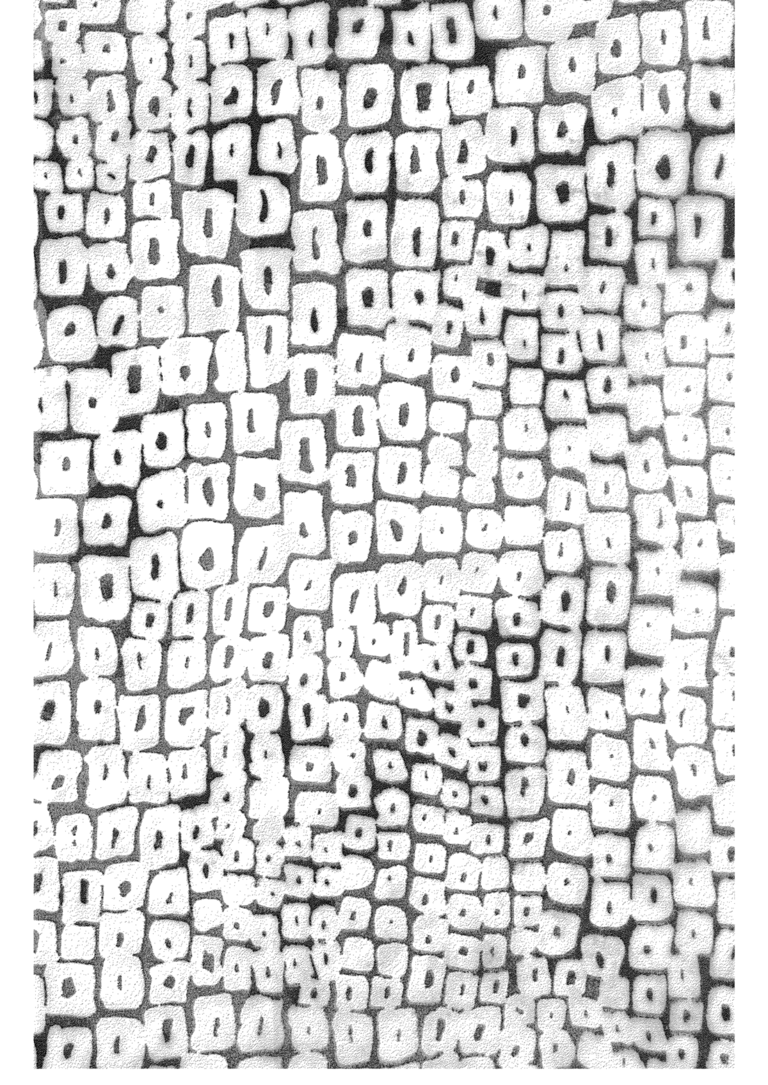
العدد وتاريخه	العنوان الأجنبى	المقال وكاتبة
العدد ١٠٣ خريف ١٩٧٨	The crisis of High and Low by Eduardo Gonzales Lanuza	● أزمة الأعلى والأسفل بقـــلم : ادواردو جوانزالت لانوزا
العدد ١٠٣ خريف ١٩٧٨	Ruins : Privileged Corpses by Alexandre Cieranescu	● الاطلال : جثث ممتازة بقـــلم : الكسندر سيورانسكو
العدد ١٠٦ عام ١٩٧٩	La société de l'oralité et son langage par Jean Lohisse	● مجتمع المشافهة ولغته بقلم : جان لوهيس
العدد ١٠٦ عام ١٩٧٩	Trois découvertes de Galilée par Joseph Lalumia	● ثلاثة اكتشافات لجاليليو بقلم : جوزيف لالوميا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٨٥/١٩٨٠








Bibliotheca Alexandrina
0536990